بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أَجمعين

(٦٧) سُورَةُ المُلْكِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا ثَلَاثُونَ

تفسير سورة الْمُلْك *

وهي مكية بإجماع ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها كل ليلة عند أَخْذ مضجعه ، ورواه جماعةٌ مرفوعاً إلى جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، ورُوي عنه أَنه قال : (إِنها لتُنَجِّي من عذاب القبر ، وتجادل عن حافظها حتى لا يُعَذَّب)[١] ، ويروى أَن في التوراة ســورة الملك ،من قرأَها في ليلة فقد أَجاد وأَطيب[٢] ، ويروى عن ابن عباس

* وتسمى الواقية ، والمُنْجية .

(١) أخرج الترمذي ، والحاكم ، وابن مردويه ، وابن نصر ، والبيهقي في الدلائل ، عن ابن عباس ، قال : ضرب رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خباءَه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر ، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة « المُلْك » حتى ختمها ، فأتي النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (هي المانعة ، هي المُنْجية ، تنجيه من عذاب القبر) ، قال الترمذي : حديث حسن غريب . (الدر المنثور)

(٢) أخرج الطبراني ، وابن مردويه بسند جيد عن ابن مسعود ، قال : كنَّا نسميها في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم المانعة ، وإنها لفي كتاب الله سورة المُلْك ، من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطيب . (الدر المنثور) .

رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (وَدِدْتُ أَن سورة (تبَارَكَ الَّذي بِيَدِهِ الْمُلْكُ) في قلب كل مؤمن)[١] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾

« تبَارَكَ » تفَاعَلَ ، من البركة ، وهي التَّزَيُّد في الخيرات ، ولم يستعمل « يتبارك » ولا « متبارك » . وقوله تعالى : (بِيَدِهِ الْمُلْكُ) عبارة عن تحقيق الْمُلْك ؛ وذلك أن اليَدَ في عُرف الآدميِّين هي آلة التملُّك ، فهي مستعارة لذلك ، و « الْمُلْكُ » على الإطلاق هو الذي لا يَبِيدُ ولا يختل منه شيءٌ ، وذلك هو مُلْك الله تعالى ، والمرادُ في هذه

(١) أخرجه عبد بن حميد في مسنده ــ واللفظ له ــ والطبراني ، والحاكم ، وابن مردويه ، عن ابن عباس أنه قال لرجل : ألا أتحفك بحديث تفرح به ؟ قال : بلى ، قال : اقرأ (تبَارَكَ الَّذي بِيَدِهِ الْمُلْكُ) ، وعلمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك ، فإنها الْمُنْجية والمجادلة يوم القيامة عند ربها لقارئها ، وتطلب له أن تنجيِّه من عذاب النار ، وينجو بها صاحبها من عذاب القبر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لَوَدِدْتُ أنها في قلب كل إنسان من أمتي) . (الدر المنثور) .

الآية : ملك الملوك ، فهي بمنزلة قوله تعالى : (قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ)[١] ذكره الثعلبي عن ابن عباس ، وقوله تعالى : (عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ) عموم ، فالشيءُ معناه في اللغة : الموجود .

و « المَوْت والحياةُ » معنيان يتعاقبان جسم الحيوان ، يرتفع أَحدهما بحلول الآخر ، وما جاءَ في الحديث من قوله صلى الله عليه وسلم : (يُؤْتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أَمْلح فيذبح على الصراط)[٢] ، فقال أَهل العلم : ذلك تمثال كبش يُوقع اللهُ تعالى العِلْم الضروري لأهل الدارين أَنه الموت الذي خافوه في الدنيا ، ويكون ذلك التمثال حاملاً للموت لا عَلَى أَنه يحلُّ الموت فيه ، فتذهب عنه حياتُه ، ثم يقرن الله تعالى بذبح ذلك التمثال إعدام الموت ، وقوله تعالى : (خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ) ، أَي : ليختبركم في حال الحياة ويُجازيكم بعد الموت ، وقال أَبو قتادة ـ ونَحْوه عن ابن عمر ـ : قلتُ : يارسول الله ،

(١) من الآية (٢٦) من سورة (آل عمران) .

(٢) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري في تفسيرسورة مريم، ومسلم في الجنة ، والترمذي في تفسير سورة مريم ، والدارمي في الرقاق ، وأحمد في مسنده (٣٧٧/٢ ، ٤٢٣ ، ٩/٣) ، ولفظه كما في المسند (عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يُؤْتى بالموت يوم القيامة كبشاً أملح، فيقال : ياأهل الجنة ، تعرفون هذا ؟ فيطّلعون خائفين مشفقين ، قال : يقولون : نعم ، قال : ثم ينادى أهل النار : تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، قال : فيُذبح ، ثم يقال : خلود في الجنة ، خلود في النار) ، وفي رواية البخاري (ثم يقول : ياأهل الجنة خلود فلا موت ، وياأهل النار خلود فلا موت ، ثم قرأ : (وَأَنْذِرْهُمْ يَومَ الْحَسْرَةِ إذ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ في غَفْلَةٍ) ، وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا (وَهُم لا يُؤمِنُونَ) .

ما معني قوله تعالى : (لِيَبْلُوَكُم أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) ؟ فقال : (يقول تعالى : أَيكم أَحسن عَقْلا ، وأَشد لله تعالى خوفاً ، وأَحسنكم في أَمْره ونَهْيه نظراً ، وإِن كانوا أَقلَّكُم تطوعاً) ، وقال ابن عباس ، وسفيان الثوري ، والحسن بن أَبي الحسن : أَيّكُم أَحسن عملاً : أَزهدكم في الدنيا .

وقوله تعالى : (لِيَبْلُوَكُمْ) دالٌّ على فعل ، تقديره : فينظر أَو يعلم أَيكم ، وقال جماعة من المتأولين : الموتُ والحياة عبارة عن الدنيا والآخرة ، سمَّى هذه موتاً من حيث فيها الموت ، وسمَّى تلك حياة من حيث لا موت فيها ، فوصفهما بالمصدرين على تقدير حذف مضاف كعَدْل وزَوْر ، وقدَّم الموت في اللفظ لأَنه متقدم في النفس هيبة وغلظة .

و (طِبَاقاً) قال الزجاج : هو مصدر ، وقيل : هو جمع طَبْقَة أَو جمع طبق مثل رحْبة ورحاب أَو جبل وجبال ، والمعنى : بعضها فوق بعض ، وقال أَبان بن تغلب : سمعت أَعرابياً يذم رجلاً فقال : شرُّه طباق ، وخيُره غير باق ، وماذكر بعض المفسرين في السموات أَن بعضها من ذهب وفضة وياقوت ونحو هذا ضعيف كلُّه لم يثبت بذلك حديث ، ولا يعلم أَحد من البشر حقيقة لهذا .

وقوله تعالى : (مَا تَرَى في خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ) معناه : من قِلّةِ تناسب ومن خروج عن الاتفاق ، والأَمر المتفاوت هو الذي يجاوز الحدود التي له زيادةً أَو نقصاً ، وقرأَ جمهور القراء : (مِنْ تَفَاوُتٍ) ،

وقرأَ حمزة ، والكسائي ، وابن مسعود ، وعلقمة ، والأسود ، وابن جبير وطلحة ، والأعمش : (مِنْ تَفَوُّتٍ)[1] ، وهما بمعنى واحد[2] ، وقال بعض العلماءِ : (فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ) معنيٌّ بهِ السموات فقط ، وهي التي تضمن اللفظ ، وإيَّاها أَراد بقوله تعالى : (هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ) ، وإيَّاها أَراد بقوله : (يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ) الآية ، قالوا : وَإِلاَّ ففي الأرض فطور ، وقال آخرون : (فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ) معني به جميع ما خلق الله تعالى من الأشياءِ فإِنَّها لا تفاوت فيها ولا فطور جارية على غير إتقان ، ومتى كانت فطورٌ لا تفسد الشيءَ المخلوق من حيث هو ذلك الشيءُ بل هي إتقان فيه فليست تلك المرادة في الآية ، وقال منذر بن سعيد : أَمر الله تعالى بالنظر إلى السماءِ وخلقها ثم أَمر تعالى بالتكرير في النظر ، وكذلك جميع المخلوقات متى نظرها ناظر ليرى فيها خَلَلاً أَو نقصاً فإِن بصره ينقلب خاسئاً حسيراً ، و « رَجْعُ البصر » تَرْدِيدُهُ في الشيءِ المُبْصَر . وقوله تعالى : (كَرَّتَيْنِ) معناه : مَرَّتين ، ونصبه على المصدر ، و « الخاسِيءُ » . : الْمُبْعَد بِذُلٍّ عن شيءٍ أَراده وعرض عليه ، ومنه الكلب الخاسئُ ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لابن صيَّاد :

---

(١) بدون ألف وبشد الواو .

(٢) وهذا كثير في اللغة ، ومنه : تباعُد وتبعُّد ، وتعاهُد وتعهُّد ، وتحامُل وتحمُّل ، وتصاغُر وتصغُّر ، وتضاعُف وتضعُّف،وتظاهر وتظهُّر . فالمعنى واحد في كل مثال من هــذه الأمثلة .

(اخْسَأْ ، فلن تعدو قدرك)(١) ، ومنه قوله تعالى في الكفار الحريصين على الخروج من جهنم : (اخْسَئُوا فيهَا)(٢) ، وكذلك هذا البصر يحرصُ على رؤية فُطُورٍ أَو تَفَاوُتٍ فلا يجد ذلك فينقلب خاسئاً ، و « الحَسِيرُ » : المُعْيِي الكالُّ ، ومنه قول الشاعر :

لَهُنَّ الْوَجَى لم كُنَّ عَوْناً عَلَى النَّوَى ... وَلاَ زالَ مِنْها ظَالِعٌ وَحسيُر (٣)

(١) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري في الجنائز والجهاد والقدر والأدب ، وأخرجه كل من مسلم والترمذي في الفتن ، وأبو داود في الملاحم ، والدارمي في المقدمة ، وأحمد في مسنده (٣٨٠/١ ، ٢٦٨/٣ ، ١٧٠/٤ ، ١٤٨/٥) ، ولفظه كما في مسند أحمد ، عن عبد الله قال : كنا نمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم . فمرّ بابن صياد ، فقال : إني قد خبأتُ لك خبأ ، قال ابن صياد : دُخ ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اخْسَأْ فلن تعدو قدرك) ، فقال عمر : يارسول الله ، دعني أضرب عنقه ، قال : (لا ، إن يكن الذي نخاف فلن تستطيع قتله) . قال العلماءُ : الدُّخُّ هو الدخان ، ولم يكملها ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام قد أضمر له آية من سورة الدخان ، وهي قوله تعالى : (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ) .

(٢) من الآية (١٠٨) من سورة (المؤمنون) .

(٣) الوَجَى : الحفا ، وقيل : يكون قبل الحفا ، وقيل : بل هو أشدُّ من الحفا ، والنَّوَى : البُعْد والفراق والانتقال إلى مكان بعيد ، والظَّالع : الذي أُصيب بالعرج من أَلم في رجله ، والحسير : الذي كلَّ وتعب وأصبح عاجزاً عن السير ، يقال : حَسَرت الدابَّةُ والناقةُ حَسْراً : أعْيَتْ وكلَّت ، وهو موضع الاستشهاد هنا ، يطلب للنُّوق الوجى والظَّلْع والإعياء لأنهن كن عوناً على فراق الأحبة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ ﴾

أخبر الله تعالى أَنه زينَّ السماءَ الدنيا إِلَيْنَا - أي التي تلينا - بمصابيح وهي النجوم ، فإِن كان جميع النجوم في السماءِ الدنيا فهذا اللفظ عامٌّ للكواكب ، وإن كان في سائر السموات كواكب فإِمَّا أن يريد كواكب سماءِ الدنيا فقط ، وإما أن يريد الجميع على أَن ما في غيرها لمَّا كانت هي تشفُّ عنه ويظهر منها فقد تزينت به بوجه ما ، ومَنْ تكلف القول لمواضع الكواكب وفي أَي سماءٍ هي فقوله ليس من الشريعة .

وقوله تعالى : (وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً) معناه : وجعلنا منها ، وهذا كما تقول : أَكرمتُ بني فلان وصنعت بهم ، وأَنت إِنما فعلت ذلك ببعض دون بعض ، ويوجب هذا التأويل في الآية أَن الكواكب الثابتة والبروج وكل ما يُهتدى به في البر والبحر فليست برواجم ، وهذا نص في حديث السير ، وقال قتادة : خلق الله تعالى النجوم للسماءِ زينة ورجوماً للشياطين . وليُهتدى بها في البر والبحر ، ومن قال غير هذه

الخصال الثلاث فقد تكلَّف وأذهب حظَّه من الآخرة . و (أَعْتَدْنَا) معناه أَعددنا ، والضمير في (لَهُمْ) عائد على الشياطين .

وقرأ جمهور الناس: (وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّم) بالرفع على الابتداءِ ، والخبر في المجرور المتقدم ، وقرأ الحسن - في رواية هارون عنه - : (عَذَابَ جَهَنَّم) بالنصب على معنى : وأَعتدنا للذين كفروا عَذَابَ جهنَّم ، فالواو عاطفة فعل على فعل ، وتضمنت هذه الآية أَن عذابَ جهنم للكفار المخلَّدين ، وقد جاءَ في الأَثر أَنه يمرُّ على جهنَّم زُمَرٌ تخفق أَثْوابُها ، قد أَخلتها الشفاعة ، فالذي يقال في هذا أَنَّ « جَهَنَّمَ » تختص به الطبقة العُلْيا من النار ، ثم قد تسمَّى الطبقات كلها « جَهَنَّمَ » باسم بعضها ، وهذا كما يقال « نجم » للثريَّا ، ثم يقال ذلك للكواكب اسم جنس ، فالذي في هذه الآية جَهَنَّمُ بأسرها ، أَي جميع الطبقات ، والتي في الأثر هي الطبقة العليا لأَنها مقرُّ العصاة . و « الشَّهِيقُ » أَقبح ما يكون من صوت الحمار ، فاحتدام النار وغليانها يصوِّت مثل ذلك .

قوله تعالى : (تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ) ، أَي : يُزَايِلُ بعضُها بعضاً لشدة الاضطراب ، كما قال الشاعر في صفة الكلب يحتدم في جريه :

يكادُ يَخْرُجُ مِنْ إهابِهْ[1]

---

(١) الإهاب : الجلْد المغلِّف لجسم الحيوان قبل أن يُدبغ ، وهذا نوع من التجوُّز يدل على شدة النشاط في العَدو ، وجمع الإهَاب : أُهُبٌ .

وقرأ الضحاك : (تَمَايَزُ) بالألف ، وقرأ طلحة : (تَتَمَيَّزُ) بتاءين ، وقرأ الجمهور : (تَمَيَّزُ) مخففة التاء ، وقرأ البزيُّ وقومٌ : (تَكادُ تَّمَيَّزُ) بضم الدال وشدّ التاءِ على أنها « تَتَمَيَّزُ » وأدغم إحدى التاءَيْن في الأُخرى ، وقرأ قوم بإدغام الدال في التاءِ ، وهذا فيه إدغام الأَقوى في الأَضعف ، وقوله تعالى: (مِنَ الْغَيْظِ) معناه : على الكفرة بالله تعالى ، وقوله سبحانه : (كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ) الفوج هوالفريق من الناس ، ومنه قوله تعالى : (في دينِ الله أَفْوَاجاً)[(١)] ، والآية تقتضي أنه لا يُلقى فيها أحدٌ إلاَّ سُئل – على جهة التوبيخ – عن النُّذُر ، فأَقَرُّوا بأَنهم جاءوهم وكذبوهم ، وقوله تعالى : (كُلَّمَا) حَصْرٌ ، فإذاً الآية تقتضي في الأَطفال من أولاد المشركين وغيرهم وَمَنْ نُقَدِّره صاحب فترة أَنهم لا يدخلون النار لأَنهم لم يأتهم نذير .

(واختلف الناس في أَمر الأَطفال ، فاجتمعت الأَمة على أولاد الأَنبياءِ عليهم السلام أَنهم في الجنة)[(٢)] ، واختلفوا في أَولاد المؤمنين – فقال الجمهور : هم في الجنة ، وقال قوم : هم في المشيئة . واختلفوا في أَولاد المشركين – فقالت فرقة : هم في النار ، واحتجوا بحديث روي

(١) من الآية (٢) من سورة (النصر) .

(٢) سقطت العبارة التى بين العلامتين (....) في جميع النسخ ، ولم تثبت إلا في النسخة التونسية .

(هم من آبائهم)[١] ، وتأول المخالف هذا الحديث أنه في أحكام الدنيا ، وقال آخرون : هم في المشيئة ، وقال آخرون: هم في الجنة واحتج هذا الفريق بهذه الآية في مساءلة الخزنة ، وبحديث وقع في صحيح البخاري في كتاب التعبير يتضمن أنهم في الجنة[٢] ، وبقوله عليه الصلاة والسلام : (كلُّ مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أويمجِّسانه)[٣] ، والأطفال لم يبلغوا أن يُصنع بهم شيءٌ من هذا .

وقوله تعالى : (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا في ضَلَالٍ كَبِيرٍ) يحتمل أن يكون من

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الجهاد ، وكذلك أخرجه أبو داود في الجهاد ، وابن ماجه في الفتن ، ولفظه كما في صحيح مسلم عن الصعب بن جَثَّامة أن النبي صلى الله عليه وسلم قيل له : لو أن خيلاً أغارت من الليل فأصابت من أبناء المشركين ، قال : (هم من آبائهم) ، وفي رواية ذكرها مسلم أيضاً (هم منهم) ، وواضح من الحديث أن هذا الحكم في الدنيا . ولهذا أثبتنا الحديث كما في صحيح مسلم ، وإلا فقد ورد في النسخ الأصلية (هم مع آبائهم) ، وزاد بعض النسخ (هم مع آبائهم في النار) .

(٢) هو حديث طويل ذكره الإمام البخاري في آخر كتاب التعبير عن سمرة بن جندب ، وفيه يقص النبي صلى الله عليه وسلم قصة رؤيا رآها في المنام، وفيها أنه رأى رجلا طويلا وحوله ولدان ، وفسَّر الملكان ما رأى فقالا : إن هذا الرجل هو إبراهيم عليه السلام، وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة ، قال الراوي : فقال بعض المسلمين : يارسول الله ، وأولاد المشركين ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وأولاد المشركين) . ومعنى ذلك أنهم في الجنة لأنهم ماتوا على الفطرة .

(٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده ، والطبراني في الكبير ، والبيهقي في السنن ، عن الأسود ابن سريع ، ورمز له السيوطي في الجامع الصغير بأنه صحيح .

قول الملائكة للكفار حين أخبروا عن أنفسهم أنهم كذبوا النُّذُر ، ويحتمل أن يكون من كلام الكفار للنُّذُر .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾

المعنى : وقال الكفار للخزنة في محاورتهم : لو كنا نسمع أَو نعقل سَمْعًا أَو عقلاً يُنتفع به ويغني شيئاً لآمَنَّا ولم نستوجب الخلود في السعير .

ثم أَخبر تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم أَنهم اعترفوا بذنبهم في وقت لاينفع فيه الاعتراف، وقوله تعالى : (فَسُحْقاً) نصب على جهة الدعاءِ عليهم ، وجاز ذلك فيه وهو من قِبَل الله تعالى من حيث هذا القول فيهم مستقر أَزلاً ووجوده لم يقع ولا يقع إلاَّ في الآخرة ، فكأَنه لذلك في حيِّز المتوقَّع الذي يدعى فيه ، كما تقول : سحقاً لزيد وبُعداً ، وانتصب في هذا كله بإِضمار فعل ، وأَمَّا ما وقع وثبت فالوجه فيه الرفع ، كما

قال تعالى : (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ)[(١)] و (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ)[(٢)] ، وغير هذا من الأَمثلة . وقرأَ الجمهور : (فَسُحْقاً) بسكون الحاءِ ، وقرأَ الكسائي : (فَسُحُقاً) بضم الحاءِ ، وهما لغتان .

ثم وصف تعالى أَهل الإِيمان وهم الذين يخشون ربهم ، وقوله تعالى : (بِالْغَيْبِ) يحتمل معنيين : أَحدهما : بالغيب الذي أُخبروا به من الحشر والصراط والميزان والجنة والنار ، فآمنوا بذلك وخشوا ربهم فيه ، ونحا إِلى هذا قتادة ، والمعنى الثاني : يخشون ربهم إِذا غابوا عن أَعين الناس ، أَي في خلواتهم ، ومنه تقول العرب : « فلان سالم الغيب » ، أَي لا يضر ، فالمعنى : يعملون بحسب الخشية في صلاتهم وعبادتهم وانفرادهم ، فالاحتمال الأَول مَدْح بالإِخلاص والإِيمان ، والثاني مَدْح بالأَعمال الصالحة في الخلوات ، وذلك أَحرى أَن يفعلوها علانية .

وقوله تعالى : (وَأَسِرُّوا قَولَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ) مخاطبة لجميع الخلق ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : سببها أَن المشركين قال بعضهم لبعض : أَسِرُّوا قولكم لا يسمعكم إِلا محمد ، فالمعنى : إِن الأَمر سواءٌ عند الله تعالى لأَنه يعلم ما هجس في الصدر دون أَن يُنطق به ، فكيف إِذا نُطق به

(١) الآية (١) من سورة (المطفِّفين) .
(٢) من الآية (٤٦) من سورة (الأعراف) ، والآية (٤) من سورة (الرعد) ، والآية (٣٢) من سورة (النحل) ، والآية (٥٥) من سورة (القصص) ، والآية (٧٣) من سورة (الزُّمَر) .

سرّاً أو جهراً ، و « ذَاتُ الصُّدور » : ما فيها ، وهذا كما يقال : «الذِّئْبُ مَغْبُوطٌ بِذي بَطْنِهِ » (١) ، وقد تقدم تفسيره غير مرة .

قوله تعالى : (أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ) ، اختلف الناس في إعراب (مَنْ) ــ فقال بعض النحاة : إعرابها رفع ، كأنه تعالى قال : أَلا يعلم الخالق خلقه ؟ فالمفعول على هذا محذوف ، ومنهم من قال : إعرابها نصب ، كأنه تعالى قال : أَلا يعلم الله من خَلَق ؟ وقال مكيٌّ : وتعلَّق أَهل الزَّيغ بهذا التأويل؛ لأَنه يعطي أَن الذين خلقهم الله تعالى هم العباد من حيث قال : (مَنْ) ، فتخرج الأَعمال عن ذلك ، لأَن المعتزلة تقول : العباد يخلقون أَعمالهم ، وتعلُّقهم بهذا التأويل ضعيف ، والكلام مع المعتزلة في مسأَلة خلق الأَعمال مأَخذه غير هذا ؛ لأَن هذه الآية لا حجة فيها لهم ولا عليهم .

و « الذَّلُولُ » فَعولٌ بمعنى مفعول ، أَي مذلولة ، فهي كرَكُوبٍ وحَلوبٍ ، يقال : ذلولٌ بيِّن الذِّلِّ ، بكسر الذال ، وذليلٌ بيِّن الذُّلِّ ، بضم اللام .

واختلف المفسرون في معنى « المناكب » ، فقال ابن عباس رضي الله

(١) هذا مثل يقال في الذئب لأنه ليس يُظَنُّ به الجوع ، بل تُظَنُّ به البِطنة لكثرة عدوانه على الناس والماشية ، ويروى : الذئب يُغبط بغير بِطنة ، وذو بطنه ، قال الشاعر :

وَمَن يَسْكُن البَحْرَيْن يَعْظُمْ طحالُهُ ويُغْبَط ما في بَطْنِهِ وَهوَ جائِعُ

وقيل : إنما قيل هذا في الذئب لأنه عظيم الجفرة أبداً لا يبين عليه الضمور وإن أجهده الجوع .

عنهما : مناكبها : أطرافها ، وهي الجبال ، وقال منذر بن سعيد : جوانبها ، وهي النواحي ، وقال مجاهد : هي الطُّرُق والفجاج ، وهذا قول جارٍ مع اللغة ؛ لأنها تنكبُّ يمنةً ويسرةً وينكبُّ الماشي فيها ، فهي مناكب (١) .

وهذه الآية تعديد نِعَمٍ في تقريب التصرف للناس ، وفي التمتع في رزق الله تعالى ، و « النُّشور » : الحياة بعد الموت .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

---

(١) وقيل : بل أشبه تفسير هو تفسير من قال : جبالُها ، لأن قوله تعالى : (هُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُم الأرضَ ذَلُولاً) معناه : سهَّل لكم السلوك فيها ، فأمكن لكم السلوك في جبالها ، فهو أبلغ في التذليل . وقد روي أن بشير بن كعب كانت له سُرِّية ، فقال لها : إن أخبرتني ما مناكب الأرض فأنت حرة ، فقالت : مناكبها : جبالها ، فصارت حُرة ، فأراد أن يتزوجها فسأل أبا الدرداء فقال له : دع ما يَريبُك إلى مالا يريبك .

قرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وابن عامر : (أَأَمِنْتُمْ) بهمزتين محققتين من غير مدٍّ ، وقرأ أبو عمرو ، ونافع : (النُّشُورُ آمَنتُمْ) بهمزة ومدٍّ ، وقرأ ابن كثير : (النُّشُورُ وَآمِنْتُمْ) ، يُبدل الهمزة واواً لكونها بعد ضمَّة ، ويمدُّ بعد الواو .

وقوله تعالى : (مَنْ في السَّماءِ) جارٍ على عُرف تلَقِّي البشر أوامر الله تعالى ، ونزول القدر بحوادثه ونِعَمه ونقَمه وآياته من تلك الجهة ، وعلى ذلك صار رفع الأَيدي والوجوه في الدعاءِ إلى تلك الجهة والناحية .
و « خَسْفُ الأَرْض » : أَن تذهب سفلاً . و (تَمُورُ) معناه : تتموَّج وتذهب كما يذهب التراب الموَّار في الريح ، وكما يذهب الدَّم الموَّارُ ، ومنه قول الأَعرابي : « وغادرت التراب موراً » .

و « الْحاصِب » : البَرَدُ وما جَرى مجراه ؛ لأَنه في اللغة الرِّيحُ ترمي بالحصباءِ ، ومنه قول الفرزدق :

مُسْتَقْبِلينَ شمالَ الشَّامِ تَرْجُمُهُمْ ... بِحاصِبٍ كَنَديفِ القُطْنِ مَنْثُور [1]

وقرأ جمهور السبعة : (فَسَتَعْلَمُونَ) بالتاءِ ، وقرأ الكسائي وحده : (فَسَيَعْلَمُونَ) بالياءِ ، وقرأ السبعة وغيرهم : (نذير) بغير ياءِ ، على طريقتهم في الفواصل المشبهة بالقوافي ، وقرأ نافع في رواية وَرْش

(١) هذا البيت من قصيدة للفرزدق يمدح فيها يزيد بن عبد الملك ويهجو يزيد بن المهلَّب ، والحاصب : الريح الشديدة تحمل الحصباء ، وهو موضع الاستشهاد هنا ، و « نديف القُطن » هو القطن حين يُطرق بالمِنْدف ، فيصير نديفاً ، ورواية البيت في الديوان :

مُسْتَقْبِلينَ شَمالَ الشَّامِ تَضْرِبُنَا ... بحاصِبٍ كَنَديفِ القُطْنِ مَنْثُـــورِ

وحده (نذيري) بياءٍ على الأَصل ، وكذلك في (نَكِير) ، و« النَّكير : مصدرٌ بمعنى الإنكار ، و « النَّذِيرُ » كذلك ، ومنه قول حسَّانِ بن ثابت :

فَأَنْذَرَ مِثْلَهَا نُصْحاً قُرَيْشاً مِنَ الَّرحْمنِ إنْ قَبلتْ نَذيري (١)

ثم أَحال على العبرة في أَمر الطير وما أَحْكَمَ مِنْ خِلْقَتها ، وذلك يُبَيِّن عجز الأَصنام والأَوثان ، و (صَافَّات) جمع « صافَّة » وهي التي تبسط جناحيها وتصُفُّهما حتى كأَنها ساكنة ، و « قَبْضُ الجناح » ضَمُّه إلى الجنب ، ومنه قول أَبي خراش :

.... يَحُثُّ الْجَنَاحَ بِالتَّبَسُّطِ والْقَبْضِ (٢)

وهاتان حالان للطائر يستريح من إحداهما إلى الأُخرى . وقوله تعالى : (وَيَقْبِضْنَ) عطف المضارع على اسم الفاعل ، وذلك كما عطف اسم الفاعل على المضارع في قول الشاعر :

(١) قال حسان بن ثابت هذا البيت من أبيات له في يوم قريظة بعد أن حاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم ونزلوا على حكْم سعد بن معاذ فحكم فيهم بقتل المقاتلة وسبْي الذراري ، وفي أول هذه الأبيات يقول حسان :

لَقَدْ لَقِيَتْ قُرَيْظَةُ مَا سَاءَهَـــا وَمَا وَجَدَتْ لِـذُلٍّ مِـنْ نصير

ورواية البيت في الديوان : « فَأَردَفَ مِثْلَهَا » ، أما في سيرة ابن هشام وفي شرح شواهد المغني فالرواية « فَأَنْذَرَ مِثْلَهَا » . والشاهد هنا استعمال كلمة النذير بمعنى الإنذار . قال صاحب اللسان : « والجيِّد أَن الإنذار المصدر ، والنذير الاسم » .

(٢) هذا عجز بيت لأبي خراش الهذلي ، والبيت بتمامه :

يُبادِرُ جُنْحَ اللَيْلِ فَهْوَ مُهَـابِذٌ يَحُثُّ الجناحَ بالتَّبَسُّطِ وَالْقَبْضِ

والْمُهَابذة : الإسراع ، ويروى بدلاً منها : « فهو مُوائِلٌ » ، ومعنى وَاءل : لجأ وخلَص ، ويقَال : وَاءل الطائر أيضاً بمعنى : بادَرَ ، والتَّبَسُّط : مدُّ الجناحين ، والقَبْضُ: ضمُّهما إلى الجانبين ، وهما حالان للطائر يستريح من إحداهما إلى الأخرى كما قال المؤلف ، والبيت في ديوان الهذليين ، واللسان ، والقرطبي .

بَاتَ يُعَشِّيها بِعَضْبٍ باتِرِ   يَقْصِدُ في أَسْوُقِهَا وَجائِرِ (١)

وقرأ طلحة بن مصرف : (أَمَنْ) بتخفيف الميم في هذه ، وقرأ التي بعدها مُثَقَّلة كالجماعة ، و « الْجُنْدُ » أعوان الرجل على مذهبه ، وقوله تعالى : (إِنِ الْكافِرونَ إِلاَّ في غُرورٍ) خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم بعد تقدير : قل لهم يامحمد : أَمَّن هذا .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

---

(١) هذا البيت من الأبيات التي لم يعرف قائلها ، ويُعَشّيها : يطعمها العَشَاء – بفتح العين – وهو الطعام الذي يؤكل في وقت العشاء ، ويروى بدلاً منها « يُغَشِّيها » بالغين المعجمة ، وهو من الغِشاء كالغِطاء وزناً ومعنى ، أي يشملها ويعمُّها ، والضمير المؤنث هنا للإبل ، والبيت في وصف إنسان كريم أسرع إلى عقر إبله لضيوفه ، والعضْب : السيف ، وباتر : قاطع حاد ، وهو صفة للعضب ، وجملة (يقصد) صفة ثانية له ، و (جائر) صفة ثالثة ، ومعنى (يقصد) : يتوسط ولا يجاوز الحدّ ، والأسْوُق : جمع ساق ، جمع قلّة ، وهي ما بين الركبة والقدم ، وجائر : ظالم مجاوز للحدّ ، ويروى (أسؤق) بهمز الواو ، والبيت في خزانة الأدب ، وأمالي ابن الشجري ، والعيني ، والأشموني ، وهو شاهد على جواز عطف اسم الفاعل (جائر) على الفعل المضارع (يقصد) . وللنحويين فيه كلام كثير.

هذا أَيضاً توقيف على أَمر لا مدخل للأصنام فيه ، والإِشارة بالرِّزْق إلى المطر لأَنه أَعظم الأَرزاق ، ثم أَخبر تعالى عنهم أَنهم لَجُّوا وتمادوا في التمنع عن طاعة الله تعالى ، وهو العُتُوُّ ، و « النُّفُورُ » البُعْدُ عن الحقِّ بسرعة ومبادرة ، يقال : نَفَر عن الأَمر نُفُوراً ، ونَفَر إلى الأَمر نَفيراً ، ونَفَرت الدابَّةُ نِفَاراً.

واختلف أَهل التأويل في سبب قوله تعالى : (أَفَمَنْ يَمْشِي مُكبًّا) الآية - فقال جماعة من رُوَاة الأَسباب : نزلت مثلا لحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ولأَبي جهل بن هشام ، وقال ابن عباس ، وابن الكلبي وغيرهما : نزلت مثلاً لمحمد صلى الله عليه وسلم ولأَبي جهل بن هشام ، وقال ابن عباس أَيضاً ، ومجاهد ، والضحاك : نزلت للمؤمنين والكافرين على العموم ، وقال قتادة : نزلت مخبرةً بأَحوال القيامة ، وأَن الكفار يمشون فيها على وجوههم ، والمؤمنون يمشون على استقامة ، وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم : كيف يمشي الكافر على وجهه ؟ فقال : (الذي أَمشاه في الدنيا على قدميه قادر أَن يمشيه في الآخرة على وجهه)(١)

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق وفي تفسير سورة الفرقان ، ومسلم في المنافقين ، والترمذي في تفسير سورة الإسراء ، وأحمد في مسنده (٢/٣٥٤ ، ٣٦٣) . ولفظه كما في البخاري عن قتادة : حدثنا أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً قال : يانبي الله ، يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة قال : (أَلَيْس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة) ؟ قال قتادة : بَلَى وعِزَّةِ ربِّنا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فَوَقَفَ الكفّارَ على ما بين الحالتين حينئذ ، ففي الأَقوال الثلاثة الأُول المَشْيُ مجازٌ بتخيُّل ، وفي القول الرابع هو حقيقة تقع يوم القيامة .

ويقال : « أَكبَّ الرجلُ » إذا ردَّ وجهه إلى الأَرض ، و « كبَّه غيره » ، قال عليه الصلاة والسلام : (وهل يكُبُّ الناسَ في النار على مناخرهم إلاَّ حصائد أَلسنتهم) (١) ؟ فهذا الفعل خلاف للباب ، أَفْعَل

(١) أخرجه البخاري في الإيمان والزكاة والمناقب والأحكام ، ومسلم في الإيمان والمساجد والزكاة ، وأبو داود في السنة ، والترمذي في الديات والإيمان ، والنسائي في الإيمان ، وابن ماجه في الفتن ، والدارمي في السِّير ، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده ، منها (٢٣١/٥) ، ولفظه كما في مسند أحمد عن معاذ بن جبل قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر ، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير ، فقلت : يانبي الله ، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار ، قال : لقد سألتَ عن عظيم ، وإنه لَيَسير على من يسِّره الله عليه ، تعبد الله ولا تُشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جُنَّة، والصدقة تطفئ الخطيئة ،وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم قرأ قوله تعالى : (تَتَجافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ) حتى بلغ (يَعْملون) ، ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ فقلت : بلى يارسول الله ، قال : رأسُ الأمر وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد ، ثم قال : ألاَ أُخبرك بملاك ذلك كله ؟ فقلت له : بلى يانبي الله ، فأخذ بلسانه فقال : كُفَّ عليك هذا ، فقلت : يارسول الله ،وإنَّا لَمُؤَاخذُونَ بما نتكلم به ؟ فقال : ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يامُعاذُ ، وهل يكبُّ الناسَ على وجوههم في النار — أو قال على مناخرهم — إلا حصائد ألسنتهم ؟.

لا يتعدَّى ، وفَعَل يتعَّدى ، ونظيره « قشعت الريحُ السحاب فانقشع » . و [أَهْدىَ] في هذه الآية « أَفْعَل » من الهدى .

وقرأَ طلحة : (أَمَنْ يَمْشي) بتخفيف الميم ، وأَفرد تعالى السمع لأَنه اسم جنس يقع للقليل والكثير ، و (قَليلاً) نصب بفعل مضمر ، و (ما) مصدرية ، وهي في موضع رفع ، وقوله تعالى: (قَليلاً ما تَشْكُرونَ) يقتضي ظاهره أَنهم يشكرون قليلاً ، فهذا إِمَّا أَن يُريد به ما عَسى أَن يكون الكافر من شكر ، وهو قليل غير نافع ، وإِما أَن يريد نفي الشكر عنهم جملةً فعبَّر بالعلَّة ، كما تقول العرب : « هذه أَرض قَلَّما تُنبت كذا » وهي لا تُنبته البَتَّةَ ، ومن شُكْر رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذه النعمة أَنه كان يقول في سجوده : (سَجَدَ وَجْهي للَّذي خلقه وصوَّره وشقَّ سمعه وبصره) (١) .

---

(١) أخرجه مسلم في المسافرين وفي السجود ، والترمذي في الجمعة والدعوات ، والنسائي في التطبيق ، وابن ماجه في الإقامة ، وأحمد في مواضع مختلفة من مسنده ، ولفظه كما جاء فيه (٩٤/١ ، ٩٥) ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا كبر استفتح ثم قال : (وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرضَ حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين ، إنَّ صلاتي ونُسُكي ومَحْيايَ ومماتي لله ربِّ العالمين لاشريكَ له وبذلك أمرتُ وأنا من المسلمين – قال أبو النَّضر : وأنا أول المسلمين – اللهم لا إله إلا أنت، أنت ربِّي وأنا عبدك ، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً، لا يغفر الذنوب إلاّ أنت، واهدني لأحسن الأخلاق ، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيِّئَها ، لا يصرف عني سيِّئها إلا أنت ، تباركت وتعاليتَ، أستغفرك وأتوب إليك) . وكان إذا ركع قال : (اللهم لك ركعتُ ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، خشع لك سمعي وبصري ومخِّي وعظامي وعصبي) ، وإذا رفع رأسه من الركعة قال: (سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد مِلْءَ السموات والأرض وما بينهما =

و (ذَرَأَكُمْ) معناه : بثَّكمُ ، و « الحَشْرُ » المشارُ إليه هو بعث القيامة ، وإليه أَشار بقوله تعالى : (هَذَا الْوَعْدُ) ، فأَخبر تعالى أنهم يستعجلون أَمر القيامة ويُوقفُون على الصدق في الإخبار بذلك .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾ ﴾

أَمر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم أَن يخبرهم أَن عِلْم يوم القيامة والوَعْدَ الصِّدق هو مما ينفرد الله تعالى به ، وأَن محمداً صلى الله عليه وسلم إنما هو نذير ، يَعْلمُ ما عُلِّم ، ويُخبر بما أُمر أن يخبر به .

قوله تعالى : (فَلَمَّا رَأَوْهُ) ، الضمير للعذاب الذي تضَمَّنه الوعد ، وهذه حكاية حالٍ تـأَتي ، والمعنى : فإذا رأَوْهُ ، و (زُلْفَةً) معناه : قريباً

ــــــــــ

= وملء ما شئتَ من شيء بعد) ، وإذا سجد قال : (اللهم لك سجدت ، وبك آمنت ، ولك أسلمتُ ، سجد وجهي للذي خلقه فصوره فأحسن صوره ، فشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين) ، فإذا سلّم من الصلاة قال : (اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررتَ وما أعلنتُ ، وما أنت أعلم به مني ، أنتَ المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنتَ) .

وقال الحسن : عياناً ، وقال ابن زيد : حاضراً ، و (سِيئَتْ) معناه : ظهر فيها السوءُ ، وقرأ جمهور الناس : (سِيئتْ) بكسر السين ، وقرأ أَبو جعفر ، والحسن ، ونافع أَيضــاً ، وابن كثير ، وأَبو رجاءٍ ، وشيبة ، وابن وثَّاب ، وطلحة بالإِشمام بين الضم والكسر ، وقرأ جمهور الناس : (تَدَّعُونَ) بفتح الدال وشدِّها ، على وزن تَفْتَعلون ، أَي : تتداعون أَمره بينكم ، وقال الحسن : تدَّعون أَنه لا جنَّة ولا نار ، وقرأ أَبو رجاءٍ ، والحسن ، والضحاك ، وقتادة ، وابن يسارٍ ، وسلام : (تَدْعُونَ) بسكون الدال ، على معنى : تستعجلون ، كقولهم : (عَجِّل لَنَا قِطَّنَا)[(١)] ، (فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجارَةً)[(٢)] ، وغير ذلك .

ورُوي في تأويل قوله تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رِحَمنا) الآية .. أَنهم كانوا يَدْعون على محمد صلى الله عليه وسلم وأَصحابه بالهلاك ، وقيل : بل كانوا يتآمرون بينهم بأَن يُهلكوهم بالقتال ونحوه ، فقال الله تعالى له : قل لهم : أرأيتم إن كان هذا الذي تريدون بنا وتَمَّ ذلك فينا ، أَو رأَيتم إن رحمنا الله فنصرنا ولم يُهلكنا مَنْ يُجيركم من العذاب الذي يوجبه كفركم على كل حال ؟ وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، وابن عامر ، وحفصٌ عن عاصم :

---

(١) جاء ذلك في الآية (١٦) من سورة (ص) ، وهي قوله تعالى : (وقالوا رَبَّنا عَجل لنا قِطَّنَا قَبْلَ يوم الْحساب) .

(٢) جاء ذلك في قوله تعالى في الآية (٣٢) من سورة (الأنفال) : (وإِذْ قالوا اللَّهم إِنْ كانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فأمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّماء) .

(إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَنْ مَعِيَ) بنصب الياءَيْن ، وأسكن الكسائي ، وعاصم - في رواية أبي بكر - الياءَ في (مَعِي) ، وقرأ حمزة بإسكان الياءَين ، وروى الحسن عن نافع أنه أسكن الياءَ من (أَهْلَكَنِي) ، وقال أبو علي : التحريك في الياءَيْن حسنٌ وهو الأَصل ، والإِسكان - كراهية الحركة في حرف اللين - للنجاة من ذلك .

وقرأ الكسائي وحده : (فَسَيَعْلَمُونَ) بالياءِ ، وقرأ الباقون بالتاءِ على المخاطبة ، ثم وقفهم تعالى على مياههم التي يعيشون منها إن غارت - أَي ذهبت في الأَرض - من يجيئُهم بماءٍ كثير كاف ، و « الغَوْرُ » مصدر يوصف به على معنى المبالغة ، ومنه قول الأَعرابي : « وغادرت الترابَ مَوْراً والماءَ غَوْراً » . و « الْمَعِينُ » فَعيلٌ من « مَعَن الماءُ » إذا كَثُر أَو مفعولٌ من « العَيْن » ، أَي : جارٍ كالعين ، أَصله مَعْيُون ، وقيل : هو من « العَيْن » لكن من حيث يُرى بعين الإنسان ، لا من حيث يشبه العَيْن الجارية ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : مَعِينٌ : عذبٌ ، وعنه - في كتاب الثعلبي - مَعِينٌ : جارٍ ، وفي كتاب النقاش : مَعِينٌ : طاهرٌ ، وقال بعض المفسرين وابْنُ الكلبي : أُشير في هذا الماءِ إلى بئر زمزم وبئر ميمون ، ويُشبه أَن تكون هاتان عُظْم ماءِ مكة ، وإلاَّ فكانت فيها آبارٌ كثيرة كخُم والجفر وغيرهما .

كمل تفسير سورة الملك والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٦٨) سورة القلم مكية وآياتها اثنتان وخمسون

وهي مكيّة ، ولا خلاف فيها بين أحد من أهل التأويل[(١)] .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾
وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ
﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾
وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾

---

(١) نقل الماوردي عن ابن عباس وقتادة : هي مكيّةٌ من أولها إلى قوله تعالى : (سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ) الآية ١٦ — ومن بعد ذلك إلى قوله تعالى : (أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) — الآية ٣٣ — مدنيّ ، ومن بعد ذلك إلى قوله تعالى : (يَكْتُبُونَ) — الآية ٤٧ — مكيٌّ ، ومن بعد ذلك إلى قوله تعالى : (مِنَ الصَّالِحِينَ) — الآية ٥٠ — مدنيٌّ ، وما بقي مكيٌّ .

[نٓ] حرف مقطَّع في قول جمهور المفسرين ، فيدخله من الاختلاف ما يدخل أَوائل السور ، ويختص هذا الموضع من الأَقوال بأَن قال ابن عباس ومجاهد : [نٓ] اسم الحوت الأَعظم الذي عليه الأَرضون السبع فيما يروى ، وقال ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك : [نٓ] اسم للدواة ، فهذا إما أَن يكون لغة لبعض العرب أَو تكون لفظة أَعجمية ، قال الشاعر :

إِذَا ما الشَّوْقُ بَرَّحَ بي إِلَيْهِمْ أَلْقَتِ النُّونُ بالدَّمْعِ السَّجُوم [1]

فمن قال بأَنه اسم الحوت جعل « الْقَلَمَ » الْقَلَمَ الذي خلقه الله تعالى وأَمره فكتب الكائنات ، وجعل الضمير في [يَسْطُرُونَ] للملائكة ، ومن قال بأَن [نٓ] اسم للدواة جعل « الْقَلَم » هو المتعارف بأَيدي الناس ، نصَّ ذلك ابن عباس ، وجعل الضمير في (يَسْطُرُوَن) للناس ، فجاءَ القسم ـ على هذا ـ بمجموع أَمر الكتاب الذي هو قوامٌ لِلعلوم والمعارف وأُمور الدنيا والآخرة ، فإِن القلم أَخو اللسان ومطية الفطنة ونعمة من الله تعالى عامة ، وروى معاوية بن قُرَّة أَن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (نٓ لوحٌ من نور) [2] ، وقال ابن عباس أَيضاً وغيره : (نٓ) حرف من حروف

(١) الدَّمع السَّجوم : السائل المنصب من العين قليلاً كان أو كثيراً . (اللسان) .

(٢) أخرجه ابن جرير ، عن معاوية بن قُرَّة ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ن والْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) قال : لوحٌ من نور ، وقَلَمٌ من نور يجري بما هو كائن إلى يوم القيامة) . (الدرُّ المنثور) و (تفسير الطبري) .

الرحمن ، وقالوا : إنه تَقَطَّع في القرآن إلى « آلَر » و « حَمَ » و « نَ » .

وقرأَ عيسى بن عمر – بخلاف – : (نُونَ) بالنصب ، والمعنى : اذكر نونَ، وهذا يَقْوى مع أَن يكون اسماً للسورة ، فهو مؤَنث سُمِّي به مؤنث ، ففيه تأْنيث وتعريف ولذلك لم ينصرف ، وانصرف « نُوح » لأَن الخِفَّة بكونه على ثلاثة أَحرف غلبت على علَّة العُجْمة ، وقرأَ ابن عباس ، وابن أَبِي إسحق ، والحسن : [نُونِ] بكسر النون ، وهذا كما تقول في القسم : اللهِ ، وكما قالوا : جَيْرِ[1] ، وقيل : كُسرت لاجتماع الساكنين ، وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، وحفص عن عاصم : [نُونْ] بسكون النون ، وهذا على أَنه حرف منفصل فحقُّه الوقوف عليه ، وقرأَ قوم منهم الكسائي : (نُ والْقَلَم) بالإدغام دون غُنَّة ، وقرأَ آخرون بإدغامٍ وبِغُنَّة ، وقرأَ الكسائي ويعقوب، وأَبو بكر عن عاصم بالإخفاء بين الإدغام والإظهار ، و[يَسْطُرُونَ] معناه : يكتبون سطوراً ، فإن أَراد الله تعالى الملائكة فهو كتب الأَعمال وما يؤمرون به ، وإن أَراد تعالى بني آدم فهي الكتب المنزلة والعلوم وما جرى مجراها .

وقوله تعالى : (مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ) هو جواب القسم ، و [مَا] ها هنا عاملة لها اسم وخبر ، وكذلك هي متى دخلت الباءُ في

---

(١) جَيْرِ بمعنى اليمين، يقال : جَيْرِ لا أفعل كذا وكذا ، قال الجوهري : « قولهم جَيْرِ لا آتيك – بكسر الراء – يمينٌ للعرب ، ومعناها حَقّاً » ، راجع الصحاح واللسان .

الخبر ، وقوله تعالى : (بِنِعْمَةِ رَبِّكَ) اعتراض ، كما تقول لإنسان : أنت – بحمد الله – فاضل .

وسبب هذه الآية أن قريشاً رمت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنون ، وهو سَتْر العقل ، بمعنى أن كلامه خطأٌ ككلام المجنون ، فنفى الله تعالى ذلك عنه ، وأخبره بأن له الأجر ، وبأنه على الخلق العظيم تشريفاً له ومدحاً .

واختلف الناس في معنى [مَمْنُون] – فقال أكثر المفسرين : هو الواهن المنقطع ، يقال : « حبل ممنون » أي ضعيف ، وقال آخرون : معناه : غير مَمْنُون عليك ، أي : لا يكدِّره منٌّ به ، وقال مجاهد : معناه : غير مُسَرَّد ولا محسوب محصَّل ، أي : بغير حساب ، وسئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : (خُلُقُه القرآن) (١) ، أي آدابُه وأوامره ، وقال عليٌّ رضي الله عنه :

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، ومسلم ، وابن المنذر ، والحاكم ، وابن مردويه عن سعد بن هشام ، قال : أتيت عائشة فقلت : ياأمَّ المؤمنين ، أخبريني بخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت : كان خُلُقه القرآن ، أما تقرأُ القرآن (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) ، وأخرج مثْلَه ابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، عن أبي الدرداء ، وأخرج مثْلَه ابنُ مردويه عن عبد الله بن شقيق العقيلي ، وأخرج مثله ابن أبي شيبة ، والترمذي وصححه ، وابن مردويه عن أبي عبد الله الجدلي ، وأخرج ابن مردويه عن زينب بنت يزيد بن وسق قالت : كنتُ عند عائشة إذ جاءها نساء أهل الشام ، فقلن : ياأمَّ المؤمنين ، أخبرينا عن خُلُق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : كان خُلُقه القرآن ، وكان أشدَّ الناس حياء من العواتق في خدرها . (الدرُّ المنثور) .

الخُلُق العظيم أَدب القرآن ، وعبَّر ابن عباس رضي الله عنهما عن الخُلُق بالدِّين والشرع ، وذلك لا محالة رأس الخلق ووكيده ، أَمَا إنَّ الظاهر من الآية أن الخُلُق هو الذي يضادُّ مقصد الكفار في قولهم : « مجنون » أي غير محصِّل لما يقول ، وإنما مدحه تعالى بكرم السجية وبراعة القريحة والْمَلَكَة الجميلة وجودة الضرائب[(١)] ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : (بُعثت لأُتَمِّم مكارم الأَخلاق)[(٢)] ، وقال جُنَيْد : « سُمِّيَ خُلُقه عظيماً إذ لم يكن له هِمَّة سوى الله تعالى ، عاشر الخَلْق بخُلُقه وزايلهم بقلبه ، فكان ظاهره مع الخَلْق وباطنه مع الحق » ، وفي وصيَّة بعض الحكماء : « عليك بالتَّخَلُّق مع الخَلْق ، وبالصدق مع الحق ، وحُسْن الخُلُق خير كلُّه » ، وقال عليه الصلاة والسلام : (إن المؤمن لَيُدْرك بحُسْن خُلُقه درجة قائم الليل صائم النهار)[(٣)] ، وقال : (ما شيءٌ أَثقل في الميزان من خُلُق حسن)[(٤)] ، وقال : (أَحَبُّكُم إِلَيَّ أَحاسنكم

---

(١) من معاني الضَّرْب : المشاركةُ في الأمر والإسراعُ فيه .

(٢) أخرجه الإمام مالك في موطئه ، والإمام أحمد في مسنده (٢/٣٨١) ، ولفظه فيه : عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنما بُعثتُ لأتمِّم صالح الأخلاق) .

(٣) أخرجه أبو داود : وابن حبَّان في صحيحه ، عن عائشة رضي الله عنها ، وقد رمز له الإمام السيوطي في « الجامع الصغير » بأنه حديث حسن ، ولفظه كما جاء فيه (إن المؤمن ليدرك بحُسْن الخُلُق درجة القائم الصائم) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦/٤٤٢) ، والترمذي في البر ، ولفظه كما في مسند أحمد : عن عطاء بن نافع أنهم دخلوا على أمِّ الدرداء فأخبرتهم أنها سمعت أبا الدَّرداء يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن أفضل شيء في الميزان ـــ قال ابن أبي بكير : أثقل شيء في الميزان ـــ يومَ القيامة الخُلُقُ الحسن) .

أَخلاقاً) [١] ، والعدل والاحسان والعفو والصِّلة من الخُلُق .

وقوله تعالى : (فَسَتُبْصِرُ) ، أَي أَنتَ وأُمَّتك ، و (يُبْصِرُونَ) أَي هُم ، واختلف النـاس في معنى قوله تعـالى : (بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ) فقال أَبو عثمان المازني : الكلام تامٌّ في قوله تعالى : (وَيُبْصِرُونَ) ، ثم استأنف قوله تعالى : (بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ) ، وقال الأَخفش : بل الإِبْصار عامل في الجملة المستفهم عنها ، في معناها ، وأَما الباءُ فقال أَبو عُبَيْدة مَعْمَر ، وقتادة : هي زائدة ، والمعنى : أَيُّكُمُ الْمَفْتُونُ [٢] ؟ وقال الحسن ، والضحاك : [الْمَفْتُونُ] بمعنى الفتنة ، كما قالوا : « ماله معقول» [٣] أَي عَقْل ، وكما قالوا : « اقْبَلْ مَيْسُوره ودَعْ مَعْسُوره » ، فالمعنى :

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة ، وفي المناقب ، والترمذي في البر ، وأحمد في مسنده (١٩٣/٤)، ولفظه كما جاء في مسند أحمد : عن أبي ثعلبة الخشني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن أحبكم إليَّ وأقربكم مني في الآخرة محاسنكم أخلاقاً ، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني في الآخرة مساويكم أخلاقاً ، الثرثارون المُتفَيْقهون المتَشَدِّقون) .

(٢) وزيادة الباء كثيرة في كلام العرب ، ومن ذلك قوله تعالى : (تَنْبُتُ بالدُّهْن) ، وقوله تعالى : (يَشْرَبُ بهَا عبادُ الله) ، ومنه قول الراجز :

نَحْنُ بَنُو جَعْدَةَ أَصْحـابَ الْفَلَج نَضْرِبُ بالسَّيْف ونَرجُو بالْفَرَجْ

أي : ونرجو الفرَج ، هذا والفَلَجُ ــ بفتح الفاء واللام ــ : مدينةٌ بأرض اليمامة كانت لبني جعدة ــ (راجع الخزانة ، وشواهد المغني ، والاقتضاب) .

(٣) من كلام العرب : « مالفُلان مجلودٌ ولا معقول » ، أي ماله عقلٌ ولا جلادة ، وقال الراعي :

حَتَى إذَا لم يَتْرُكُوا لِعِظامِـه لَحْماً وَلاَ لفُؤَاده مَعْقُـولا

أي عقلاً .

بِأَيِّكم هي الفتنة والفساد الذي سَمَّوه جنوناً ؟ وقال آخرون : المعنى : بِأَيِّكُم فُتن المَفْتون ؟ وقال الأخفش : المعنى : بأَيِّكُم فِتْنَةُ المفتون ؟ ثم حذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مقامه ، وقال مجاهد ، والفراءُ : الباءُ بمعنى « في » أي : في أَيِّ فريق منكم النوعُ المفتون ؟ وهذا قول حَسَنٌ قليل التكلُّف ، ولا نقول إنَّ حرفاً بمعنى حرف ، بل نقول : إن هذا المعنى يُتَوَصَّل إليه بـ « في » وبالباءِ أَيضاً . وقرأَ ابن أَبي عبلة : (فِي أَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ) .

وقوله تعالى : (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ) الآية وعيدٌ ، والعامل في قوله سبحانه : (بِمَنْ ضَلَّ) هو [أَعْلَمُ] ، وقد قَوَّاه حرف الجر فلا يحتاج إلى إضمار فعل ، وقوله تعالى : (فَلاَ تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ) يريد قريشاً ، وذلك أَنهم قالوا في بعض الأَوقات لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو عبدتَ آلهتنا وعظَّمتها لعبدنا إلٰهك وعظَّمناه ، ووَدُّوا أَن يداهنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويميل إلى ما قالوا فيميلوا هم أَيضاً إلى قوله ودينه ، و « الإِدْهان » : الملاينة فيما لا يحلُّ ، والمُدَاراة : الملاينة فيما يحِلُّ ، وقوله تعالى : [فَيُدْهِنونَ] معطوف وليس بجواب ؛ لأَنه لو كان لنصب .

و « الْحَلاَّف » : المُرَدِّد لِحَلِفِهِ الذي قد كثر منه ، و « الْمَهِينُ » : الضعيف العقل والرأي ، قاله مجاهد وهو من « مَهُن » إذا ضعف ،

والميمُ فاءُ الفِعْل[١] ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الْمَهين : الكذّاب .

و « الْهَمَّازُ » : الذي يقع في الناس ، وأَصل الهَمْز في اللغة الضَّرْبُ طعناً باليد أَو بالعصا أَو نحوه ، ثم استعُير للذي ينال بلسانه ، قال منذرٌ : وبعينه وإشارته ، وسُمِّيت الهمزة لأَن في النطق بها حِدَّة وعجلة فشُبِّهت بالهمزباليد ، وقيل لبعض الأَعراب : أَتهمز الفأرة ؟ فقال : الهِرَّةُ تَهْمزها ، وقيل لآخر : أَتَهْمز إسرائيل ؟ فقال : إنِّي إذا لَرَجُل سوءٍ .

و « النَّميمُ » مصدرٌ كالنَّميمة ، وهو نقل ما يُسمع ممَّا يسوءُ ويحرِّش النفوس ، وروى حذيفة أَن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا يدخل الجنَّة قتَّاتٌ)[٢] ، وهو النمَّام ، وذهب كثير من المفسرين إلى أَن هذه الأَوصاف هي أَجناسٌ لم يرد بها رجلٌ بعينه ، وقالت طائفة : بل نزلت في مُعَيَّن ، واختلف فيه ـ فقال بعضهم : هو الوليد ابن المغيرة ، ويؤيد ذلك غناهُ وأَنه أَشهرهم بالمال والبنين ، وقال الشعبيُّ وغيره : هو الأَخنس بن شُرَيق ، ويؤيد ذلك أَنه كانت له هنة في حلقه

---

(١) « مَهُن » ـ بضم الهاء ـ معناها : ضعف ، ومنها هذه الآية ، ومنها أيضاً قوله تعالى : (خلُقَ مِنْ ماءٍ مَهينٍ) أي من ماءٍ قليل ضعيف ، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : (أَمْ أنَا خيْرٌ مِنْ هَذَا الذّي هُوَ مَهِينٌ) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ، ومسلم في الإيمان ، وبو داود في الأدب ، والترمذي وأحمد في أكثر من موضع في مسنده ، وذكر ابن كثير في تفسيره أن عبد الرزاق أخرجه أيضاً عن حذيفة ، وقال أيضاً : رواه الجماعة إلا ابن ماجه .

كزنمة الشاة ، وأَيضاً فكان من ثقيف مُلصقاً في قريش ، وقال ابن عباس في كتاب الثعلبي : هو أَبو جهل ، وذكر النقاش عُتبة بن ربيعة ، وقال مجاهد : هو الأَسْود بن عبد يغوث ، وظاهر اللفظة عموم من بهذه الصفة ، والمخاطبة بهذا المعنى مستمرة باقي الزمان لا سيما لولاة الأَمور .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾

قال كثير من المفسرين : الخَيْر هنا لمال ، فوصفه بالشُّحِّ ، وقال آخرون : بل هو على عمومه في المال والأَفعال الصالحة ، ومن يُمنع إيمانَه وطاعتَه فقد مُنع الخير ، و « المعتدي » : المتجاوز لحدود الأَشياءِ ، و « الأَثيم » فَعيل من الإثم بمعنى آثِمٍ ، وذلك من حيثُ أَعمالُه قبيحة تُكسب الإِثم .

و « العُتلُّ » : القويُّ البِنْية ، الغليظُ الأَعضاءِ ، المُصَحَّح ، القاسي القلب ، البعيدُ الفهم ، الأَكولُ الشَّروبُ الذي هو بالليل جيفة وبالنهار حمار ، وكَل ما عبَّر به المفسرون عنه من خلال النقص فمن هذه التي

ذكرتُ تَصْدُر ، وقد ذكر النقاشُ أَن النبي صلى الله عليه وسلم فسَّر « العُتُلَّ » بنحو هذا (١) ، وهذه الصفات كثيرة التلازم ، والعَتْلُ : الدَّفْع بشدة ، ومنه العَتَلَة – وقوله تعالى : (بَعْدَ ذَٰلِكَ) معناه : بعد ما وصفناه به ، فهذا الترتيب إنما هو في قول الواصف لا في حصول تلك الصفات في الموصوف ، وإلاَّ فكونه عُتُلاًّ هو قبل كونه صاحب خير يمنعه .

و « الزَّنيمُ » في كلام العرب : الملصق في القوم وليس منهم ، وقد فسَّر به ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية ، وقال مُرَّة الهَمْداني : إنما ادَّعاه أَبوه بعد ثماني عشرة سنة ، يعني الذي نزلت فيه هذه الآية ، ومن ذلك قول حسان بن ثابت :

وَأَنْتَ زَنيمٌ نِيطَ في آلِ هاشِمٍ
كَمَا نِيطَ خَلْفَ الراكِبِ الْقَدَحُ الْفَرْدُ (٢)

---

(١) ذكر الماوردي عن شَهْر بن حَوْشب عن عبد الرحمن بن غنم – ورواه ابن مسعود – أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا يدخل الجنَّةَ جوَّاظٌ ولاجعْظَريٌ ولا العُتلُّ الزَّنيمُ) ، فقال رجلٌ : ما الجوَّاظُ ؟ وما الجعْظَريُّ ؟ وما العُتلُّ الزَّنيم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الجوَّاظُ : الذي جمع ومنع ، والجعْظَريُّ : الغليظ ، والعُتلُّ الزَّنيمُ : الشديدُ الخَلْق ،الرحيبُ الجوف ، المُصَحَّح الأكولُ الشَّروب الواجدُ للطعام ،الظَّلُوم للناس) ، وذكره الثعلبيُّ عن شدَّاد بن أوس .

(٢) هذا البيت من شواهد أبي عبيدة في « مجاز القرآن » ، وهو في ديوان حسان بن ثابت سابع أبيات ثمانية قالها حسان في هجاء أبي سفيان دفاعاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولقد قال صلوات الله وسلامه عليه لحسان : (اهْجُه وجبريل معك، أيَّدك الله بروح القُدُس، اذهب إلى =

وقول حسان أيضاً :

زَنيمٌ تَداعــاهُ الرِّجالُ زِيَــادَةً
كَمَا زِيدَ في عَرْضِ الْأَدِيمِ الْأَكارِعُ(١)

فقال كثير من المفسرين : هذا هو المراد بالآية ، وذلك أن الأَخْنس ابن شُرَيْق كان من ثقيف حليفاً لقريش ،وقال ابن عباس : أَراد بالزنيم أَنَّ له زَنَمَةً في عنقة كزَنَمَة الشَّاة ، وهي الهَنَةُ التي تتعلق في حلقها ، وما كنا نعرف المشار إليه حتى نزلت فعرفناه بزَنَمتِهِ ، وقال أَبو عبيد : يُقال لِلتَّيْس : زَنيمٌ ؛ إِذْ له زَنَمَتان ، ومنه قول الأَعرابي في صفة شاته :

= أبي بكر يعلِّمك من تلك الهنات) ، ورواية الديوان : (وكنْتَ دعياً) ، وفي اللسان : (وأنْتَ دَعيٌّ) ، وفي الأغاني : (وأنت هَجينٌ) ، وعلى كل هذه الروايات لا شاهد في البيت ، والزنيم : المُسْتَلْحَق في قوم ليس منهم ولا يُحتاج إليه ، ونيط : ألحق بالقوم وليس منهم ، والقَدَحُ الفَرْدُ هو القدح الذي يُعَلَّق في آخر الرَّحْل بعد الفراغ من الترحال ، وفي الحديث : (لا تجعلوني كقَدح الراكب) ، أي لا تؤخروني في الذكر .

(١) لم أجد هذا البيت في ديوان حسَّان ، وقال في اللسان : « وأنشد ابن بَرِّي للخطيم التَّميمي ، جاهلي : (زَنيمٌ تداعاه الرجالُ) البيت ، ووجدت حاشية صُورتُها : الأعرف أن هذا البيت لحسَّان ، قال : وفي الكامل للمبرد روى أبو عُبَيْد وغيره أن نافعاً سأل ابن عباس عن قوله تعالى: (عُتُلٍّ بَعْدَ ذلكَ زَنيم) ؟ ما الزَّنيمُ ؟ قال: هو الدعيُّ المُلزق، أما سمعتَ قولَ حسان ابن ثابت (زَنيمٌ تَدَاعاهُ الرجال) البيت » ــ والأكارع : جمع كُراع ــ أو هو جمع الجمع ــ والكُراعُ من الإنسان : ما دون الركبة إلى الكعب ، والأديم : الجلْد ، ومعنى (تداعاه الرجال) أنه مجهول الأب يدَّعيه كل واحد لنفسه .

(كأَن زنَمَتَيْها تَتْوَا قُلَيْسِيَّةٍ) [1] ورُوي أَن الأَخنس بن شريق كان بهذه الصفة ، كان له زَنَمَةٌ ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه قال : لمَّا نزلت هذه الصفات لم نعرف صاحبها حتى نزل (زنِيم) فعُرِف بزِنَمَته ، وقال بعض المفسرين : الزَّنيم : المريب القبيح الأَفعال .

واختلفت القراءة في قوله تعالى : (أَنْ كانَ ذا مالٍ وَبنِينَ) _ فقرأَ ابنُ كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، وأَهل المدينة : (أَنْ كانَ) على الخبر ، وقرأَ حَمزة : (أَأَنْ كانَ) بهمزتين مخُفَّفتين على الاستفهام ، وقرأَ ابن عامر ، والحسن ، وابن أَبي إِسحق ، وعاصم ، وأَبو جعفر : (آنْ كانَ) على الاستفهام بتسهيل الهمزة الثانية ، والعامل في [أَنْ] فعل مضمر تقديره : كَفَر أَو جَحَد أَو عَنَد ، ويُفسِّر هذا الفعلَ قولُه تعالى : (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ) الآية ، وجاز أَن يعمل المعنى وهو متأَخر من حيث كان قوله تعالى : (أَنْ كانَ) في منزلة الظَّرف ؛ إِذ يُقدَّر باللام ، أَي : لِأَن كان ، وقد قال فيه بعض النحاة : إِنه في موضع خفض باللام كما لو ظهرت ، فكما عمل المعنى في الظرف المتقدم كذلك يعمل في هذا ، ومنه قوله تعالى : (يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ

(١) هكذا في الأصول، وجاء في لسان العرب : « ومن كلام بعض فِتْيان العرب يَنْشُدُ عَنْزاً في الحرم: وكأَنَّ زَنَمتَيْها تَتْوَا قُلَيْسِيَّةٍ » ،وفي القاموس: « تَتْوَا القَلَنْسُوة » ، وفي شرح القاموس : « والصوابُ تَتْوَا الفُسَيْلَة » ، والفُسيلة : النَخلة الصغيرة تُقطع من الأم أو تقلع من الأرض فتغرس ، ومعنى (تَتْواهَا) ذؤابتاها .

كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)[١] ، فالعامل في [إِذَا] معنى قوله تعالى : « إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ تُبعثون » ، أَو نحوه من التقدير ، ولا يجوز أَن يعمل [يُنَبِّئُ][٢] في [إِذَا] لأَنه مضاف إِليه قد أُضيف إِذًا إِلى الجملة ، ولا يجوز أَن يعمل في [إِنَّ] ، قال : لأنها جواب لِ [إِذَا] ولا تعمل فيما قبلها .

وأَجاز أَبو عليٍّ أَن يعمل فيه [عُتُلٍّ] وإِن كان قد وُصف[١] ، ويصح - على هذا النظر - أَن يعمل فيه [زَنيم] لا سيَّما على قول من يفسره بالقبيح الأَفعال ، ويجوز أَن يعمل في (أَنْ كانَ) « تُطيعُهُ » التي يقتضيها قوله سبحانه : (وَلَاتُطِعْ) ، وهذا على قراءة الاستفهام يَبْعُد ، وإِنما يتَّجه : لَا تُطِعْه لأَجْل كونه كذا ، وَلَهُ - على كُلِّ وَجْه - مفعولٌ من أَجله ، وتأَمل . وقد تقدم القول في « الأَساطير » في غير ما موضع .

وقوله تعالى : (سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ) معناه : على الأَنف ، قاله المبرد ، وذلك أَن الخرطوم يستعار في أَنف الإِنسان ، وحقيقته في مخاطم السباع ، ولم يقع التوعُّد في هذه الآية بأَن يُوسَمَ هذا الإِنسان على أَنفه بِسِمَةٍ حقيقةً ، بل هذه عبارةٌ عن فعل يشبه الوسْم على الأَنف ، واختلف

---

(١) من الآية (٧) من سورة (سبأ) .

(٢) في بعض النسخ : « ولا يجوز أن يعمل (تُتْلَى) ،وهذا يناسب المعنى إذا كان الكلام عن الآية التي في سورتنا هذه (القلم) ، ولكن الكلام عن آية سورة (سبأ) ويتفق معها ما أثبتناه هنا .

(٣) قال أبو حيان في البحر المحيط : « وهذا قول كوفي ولا يجوز ذلك عند البصريين » .

الناس في ذلك الفِعْل – فقال ابن عباس : هو الضرب بالسيف ، أَن يُضرب به في وجهه وعلى أَنفه فيجيءُ ذلك كالوسْم على الأَنف ، وحلَّ به ذلك يوم بَدر ، وقال محمد بن يزيد المبرد : ذلك في عذاب الآخرة في جهنم ، وهو تعذيب بنارٍ على أُنوفهم ، وقال آخرون : ذلك في يوم القيامة ، أَن يُوسَم على أَنفه بِسِمَةٍ يُعرف بها كُفْره وانحطاط قدره ، وقال قتادة وغيره : معناه : سَيُفعل به في الدنيا من الذَّم والمقت والإِشهار بالشَّر ما يبقى فيه ولا يخفى به ، فيكون ذلك كالوسْم على الأَنف ثابتاً بَيِّناً ، وهذا المعنى كما تقول : « سأُطَوِّقُكَ طوق الحمامة » أَي : أُثبت الأَمر بيِّناً فيك ، ونَحْوَ هذا أَراد جرير بقوله :

لمَّا وَضَعْتُ عَلَى الْفَرَزْدَق ميسَمِي (١) ....

وفي الوَسْم على الأَنف تشويه ، فجاءت استعارة في المذمَّات بليغة

---

(١) هذا صدر بيت قاله جرير من قصيدته المعروفة : (لمنَ الديارُ كأنها لم تُحلَلِ) ، والبيت بتمامه مع بيت قبله :

أعْــددَتُ للشُّعراءِ سُمّـاً نــاقِعــاً فَسَقَيْتُ آخرَهم بِكــأْسِ الأَوَّلِ
لَما وضعْتُ على الفرَزدَقِ مِيسَمي وَضَغَا البَعيثُ جَدعتُ أنفَ الأَخْطَلِ

والوَسْم أثَرُ الكيِّ ، وهو يريد هنا أنه رماه بقصائد من الشعر تركت أثرها في سُمعته وكرامته كما يترك الميسَمُ أثره في الجلد ، و« ضَغَا » : صاح من الألم وتذلَّل كالكلب حين يُضرب فيعوي ويصرخ من شدة الألم ، و « جدعت أنفه » : قطعته ، وجرير في هذا البيت يهاجم ثلاثة من فطاحل الشعراء ويقول : إنه فضحهم وأذلهم أمام الناس بما قاله فيهم من الشعر .

جداً ، وإذا تـأملت حال أَبي جهل ونظرائه وما ثبت لهم في الدنيا من سُوءِ الأُحدوثة رأَيتَ أَنهم قد وُسِمُوا على الخراطم .

قوله تعالى : (إِنَّا بَلوْناهُمْ) ، يريد تعالى قريشاً ، اي : امتحنَّاهم ، و « أَصحابُ الجنَّة » - فيما ذُكر - قومٌ إخوة ، كان لأَبيهم جنَّةٌ وحرثٌ مُغِلٌّ ، فكان يُمْسك منه قُوتَه ويتصدق على المساكين بباقيه ، وقيل : بل كان يحمل المساكين معه في وقت حصاده وجَدِّه [1] فيجزيهم منه [2] ، فمات الشيخ ، فقال ولده : نحن جماعة ، وفِعْل أَبينا كان خطأً ، فلنذهب إلى جنَّتنا ، ولايدخلها علينا مسكين ولا نعطي منها شيئاً ، قال : فبيَّتوا أَمرهم وَعزْمهم على هذا ، فبعث الله طائفاً بالليل من النار أَو غير ذلك فاحترقت ، فقيل : أَصبحت سوداءَ ، وقيل : بيضاءَ كالزرع اليابس المحصود ، فلما أَصبحوا إلى جَنَّتهم لم يروها فحسبوا أَنهم قد أَخطؤوا الطريق ، ثم تَبَيَّنوها فعلموا أَن الله تعالى أَصابهم فيها ، فتابوا حينئذ وأَنابوا وكانوا مؤمنين من أَهل الكتاب ، فشبَّه الله تعالى قريشاً بهم في أَنه امتحنهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وهداه كما امتحن أَولئك بفعل أَبيهم وبأَوامر شرعهم ، فكما حلَّ بأَولئك العقاب في جنتهم كذلك يحلّ بهؤلاءِ في جميع دنياهم وحياتهم ، ثم التوبة معروضة لمن بقي منهم كما تاب أَولئك ، وقال كثير من المفسرين :

(١) جَدَّ الشيء : قطعه عند الحصاد .

(٢) أي : يكافئهم منه ، يقال : جزى فلانا حقَّه ، أي أعطاه .

السنون السبع التي أَصابت قريشاً هي بمثابة ما أَصاب أولئك في جَنَّتهم .

وقوله تعالى : (لَيَصْرِمُنَّهَا) أي لَيَجُدُّنها ، وصرام النخل جَدُّ ثمره ، وكذلك في كل شجرة ، و (مُصْبِحِينَ) معناه : إذا دخلوا في الصباح ، وقوله سبحانه : (وَلَا يَسْتَثْنُونَ) معناه وَلا يتوقفون في ذلك ولا يَنْثَنونَ عن رأْي منع المساكين ، وقال مجاهد : معناه : ولا يقولون « إِن شاءَ الله » ، بل عزموا على ذلك عَزْم من يملك أَمره . و « الطَّائف » : الأَمر الذي يأْتي بالليل ، ذكر هذا التَّخصيص الفراءُ ، ويردُّه قوله تعالى : (إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ) (١) ، و « الصَّريمُ » قال الفراءُ ومنذر وجماعة : أَراد به الليلَ ، من حيث اسْوَدَّت جُثثهم ، وقال آخرون : أَراد به الصبح ، من حيث ابْيَضَّت كالحصيد ، قاله سفيان الثوري ، و« الصَّريمُ » يقال لِلَّيْل وللنَّهار من حيث كلٌّ واحد منهما ينصرم من صاحبه ، وقال ابن عباس : الصريمُ : الرماد الأَسود بلُغة جذيمة ، وقال ابن عباس أَيضاً وغيرُه : الصريم : رملةٌ باليمن معروفة لا تُنْبت ، فشبَّه جُثَثَهم بها .

---

(١) من الآية (٢٠١) من سورة (الأعراف) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ
صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم
مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾
بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ
سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

« تَنَادَوْا » معناه : دَعَا بعضُهم بعضاً إلى المضيِّ لميعادهم ، وقرأ بعض السبعة : (أَنُ اغْدُوا) بضم النون ، وبعضهم بكسرها ، وقد تقدم هذا مراراً ، وقوله تعالى : (إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ) يحتمل أن يكون من « صِرام النخل » ، ويحتمل أن يريد : إن كنتم أهل عزم وإقدام على رأيكم ، من قولك : « سيف صارم » .

و (يَتَخَافَتُونَ) معناه : يتكلمون كلاماً خفيًّا ، ومنه قوله تعالى : (وَلَا تُخافِتْ بِهَا)[1] ، وكان هذا التخافت خوفاً من أن يشعر بهم المساكين ، وكان لفظهم الذي يتخافتون به (أَلَّا يَدْخُلُنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ) ، وقرأ ابن مسعود ، وابن أبي عبلة : (لَا يَدْخُلَنَّهَا) بسقوط [أَنْ] .

(١) من الآية (١١٠) من سورة (الإسراء) .

وقوله تعالى : (عَلَى حَرْدٍ) يحتمل أن يريد به : على مَنْع ، من قولهم : « حارَدَتِ الإِبِلُ » إذا قلَّتْ ألبانُها فَمَنَعَتْها ، و « حاردت السَّنَةُ » إذا كانت شهباءَ لا غلَّة لها ، ومنه قول الشاعر :

وَحارَدَتِ النُّكْدُ الْجِلادُ وَلَمْ يَكُنْ لِعُقْبَةِ قِدْرِ الْمُسْتَعِيرِينَ مُعْقِبُ (١)

ويحتمل أن يريد بالحَرْد : القصدَ ، وبذلك فسَّر بعض اللغوين ، وأنشد عليه :

أَقْبَلَ سَيْلٌ جاءَ مِنْ عِنْدِ اللهْ يَحْرِدُ حَرْدَ الْجَنَّةِ الْمُغِلَّه (٢)

أي : يقصد قصدها ، ويحتمل أن يريد بالحَرْدْ : الغضبَ ، يقال :

---

(١) هذا البيت للكُميت الشاعر ، وهو في اللسان ، والرواية في الأصول : (لِعُقْبَةَ قِدْرُ المُسْتَعِيرِ بْنِ مُعْقِب)، وقد صوب محقق لسان العرب البيتَ ، وأثبته كما ذكرناه (دار المعارف ــ القاهرة) ، والنُّكْدُ : الإبل التي ماتت أولادها ، والجلادُ : الغلاظُ الجلود ، القصارُ الشعور ، الشِّدادُ الفصوص ، وهي أقوى وأصبر وأقل لبناً من الخُور ، والخُورُ أغزر لبناً وأضعف قوة ، وعُقبة القدر : ما التزق بأسفلها من تابل وغيره ، وأعْقب الرجلُ : ردَّ إليك ذلك ، يصف سوء الحال ويقول : إن الإبل القوية مَنَعت ألبانَها ، وإن الرجل أصبح لا يردُّ ما استعاره حتى ولو كان « عُقْبَة القِدْر » .

(٢) هذا البيت في اللسان ، والقرطبي والكامل ، وهو غير منسوب ، وقد ذكر شاهداً على أن الحَرد يكون بمعنى القَصْد ، جاء في اللسان : « وتقول للرجل : قد أقبلتُ قِبَلَكَ ، وقَصَدْتُ قصدكَ ، وحَرَدكَ » ثم ذكر البيت ، ولكن الرواية فيه : (وجاء سيْلٌ كانَ من أمر الله) ، والجنةُ المُغلَّة : ذاتُ الغلَّة . والبيت أيضاً في « معاني القرآن » للفراء ، و« الكامل » للمبرد ، و « مجاز القرآن » لأبي عبيْدة .

« حِردَ الرجلُ يحْرِدُ حَرَداً » إذا غضب ، ومنه قول الأَشهب بنَ رُمَيْلَة

أُسودُ شَرًى لاَقتْ أُسودَ خَفِيَّة   تَساقَوا عَلَى حَرْد دِماءَ الأَساوِدِ (١)

وقوله تعالى : [قادِرينَ] يحتمل أَن يكون من القُدْرة ، أَي : هم قادرون في زعمهم ، ويحتمل أَن يكون من التقدير ، كأَنهم قد قَدَرُوا على المساكين ، أَي ضيَّقوا عليهم ، ومنه قوله تعالى : (وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ) (٢) ، وقوله تعالى : (فَلَمَّا رَأَوْهَا) أَي محترقةً ، حسبوا أَنهم قد ضلُّوا الطريق ، وأَنها ليست تلك ، فلما تَحقَّقوها علموا أَنها قد أُصيبت ، فقالوا : (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومونَ) ، أَي : قد حُرمنا غَلَّتها وبركتها ، فقال لهم أَعْدَلهم قولاً وعقلاً وخُلقاً ، وهو الأَوسط ، ومنه

---

(١) وهذا البيت أيضاً في اللسان، ذكره شاهداً على أن الْحَرَدَ يكون بمعنى الغضب والغيظ، ثم ذكر خلاف اللغويين في ضبط « الحَرْد » إذا كان بهذا المعنى ، فبعضهم يقوله بفتح الراء ، وآخرون يجعلونه بسكونها ، ويُروى البيت بألفاظ أُخرى في الشطر الثاني :

أُسودُ شَرًى لاقتْ أُسودَ خَفيَّةٍ   تَساقَيْنَ سُمًّا كُلُّهُنَّ حَوارِدُ

والشَّرَى : مكان مشهور بكثرة الأسود ، وقيلَ : بل هذا التعبير يذكر للتدليل على الشجاعة ، يقال للشجعان : ما هُم إلا أسود الشَّرَى ، والخَفِيَّةُ : غَيْضة مُلْتَفَّةٌ يتخذها الأسد عرينه، وهي خَفيَّتُه ، والشَّرَى والخَفِيَّةُ اسمان علمان لموضعين كما جاء في اللسان ، والشاهد في البيت قوله : (عَلَى حَرْدٍ) ، أي : على غضب وغيظ ، وعلى الرواية الثانية قوله : (كُلُّهُنَّ حوارِدُ) ، أي : كلُّهن غضب وغيظ ، والبيت أيضاً في الكامل ، ومجاز القرآن ، والسِّمط ، والعيني ، والخزانة ، ومعجم ما استعجم .

(٢) من قوله تعالى في الآية (٧) من سورة (الطلاق): (وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزقُه فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللهُ .)

قوله تعالى : (أُمَّةً وَسَطاً)(١) ، أي عُدُلاً خياراً ، و [تُسَبِّحونَ] قيل : هي عبارة عن طاعة الله تعالى وتعظيمه والعمل بطاعته ، وقال مجاهد وأَبو صالح هي كانت لفظة الاستثناءِ عندهم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا يردُّ عليه قولهم : (سُبْحانَ رَبِّنا) . فبادَرَ القومُ وتابوا عند ذلك ، وسبَّحوا واعترفوا بظلمهم في اعتقادهم منع الفقراءِ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ
﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ
وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ
ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾
أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

[يَتَلاوَمونَ] معناه : يجعل كل واحد اللوم في حيِّز صاحبه ويُبَرِّيءُ نفسه ، ثم أَجمعوا على أَنهم طغوا ، أي تعدوا ما يلزم من مواساة المساكين

(١) من قوله تعالى في الآية (١٤٣) من سورة (البقرة) : (وكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لتكُونوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) :

ثم انصرفوا إلى رجاءِ الله تعالى وانتظار الفرج من لَدُنه في أَن يبدلهم بسبب تَوْبتهم وإنابتهم خيراً من تلك الجنة .

وقرأ جمهور القراءِ : [يُبْدِلَنا] بسكون الباءِ وتخفيف الدال، وكذلك قرأ الحسن ، وابن محيصن ، والأعمش، وقرأ نافعٌ ، وأَبو عمرو بالتثقيل وفتح الباءِ .

وقوله تعالى : (كَذَلِكَ الْعَذابُ) ابتداءُ مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم في أَمر قريش ، والإشارة بـ [ذَلِكَ] إلى العذاب الذي نزل بالجنة أَي : كذلك العذابُ هو العذابُ الذي ينزل بقريش بغتة ، ثم عذابُ الآخرة أَشد عليهم من عذاب الدنيا ، قال كثير من المفسرين : العذاب النازل بقريش المماثل لأَمر الجنة هو الجدب الذي أَصابهم سبع سنين حتى رأَوا الدخان وأَكلوا الجلود .

ثم أَخبر تعالى أَن المتقين لهم عند ربهم جنات النعيم، فروي أَنه لما نزلت هذه الآية قالت قريش : إن كان ثَمَّ جنات نعيم فلنا فيها أَكبر الحظ ، فنزلت : (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ) ، وهذا على جهة التوقيف والتوبيخ . وقوله تعالى : (ما لَكُمْ) توبيخ آخر ، ابتداءٌ وخبر ، جملة منحازة ، وقوله تعالى : (كَيْفَ تَحْكُمُونَ) جملة منحازة كذلك ، و [كَيْفَ] في موضع نصب بـ [تَحْكُمُونَ] .

وقوله تعالى : [أَمْ] هي المقدرة بـ « بل وأَلف الاستفهام » ، و[كتابٌ] معناه : مُنَزَّل من عند الله ، وقوله تعالى : (إِنَّ لَكُمْ فيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ) ، قال

بعض المتاولين : هو استئناف قول على معنى : إن كان لكم كتاب فلكم فيه مُتَخَيَّر ، وقال آخرون : [إِنَّ] معمولة لـ [تَدْرُسُونَ] ، أَي : في الكتاب : إِنَّ لكم ما تختارون من النعيم ، وكُسرت الأَلف من [إِنَّ] لدخول اللام في الخبر ، وهي في معنى « أَنَّ » بفتح الأَلف ، وقرأَ طلحة ، والضَّحاك: (أَنَّ لكُمْ) بفتح الأَلف ، وقرأَ الأَعرج : (أَئِنَّ لكُم) على الاستفهام .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩)
سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟
صَٰدِقِينَ (٤١) يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
(٤٢) خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ
سَٰلِمُونَ (٤٣) فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا
يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ (٤٥) ﴾

قوله تعالى : (أَمْ لَكُمْ أَيْمانٌ عَلَيْنا بالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيامَةِ) مخاطبة للكفار ، كأَنه يقول : هل أَقسمنا لكم قَسَماً فهو عهد لكم بأَنا نُنَعِّمكم يوم القيامة وما بعده ؟ وقرأَ جمهور القراءِ : [بالِغَةٌ] بالرفع على الصفة لـ [أَيْمانٌ] ، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن : [بالِغَةً] بالنصب على الحال ،

وهي حال من نكرة مخصصة بقوله تعالى : [عَلَيْنا] [(١)] ، وقرأ الأعرج : (أَئِنَّ لَكُمْ) ، وكذلك في التي تقدمت في قوله تعالى : (إِنَّ لَكُمْ فيه لَمَا تَخَيَّرونَ) .

ثم أمر الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم ـ على جهة إقامة الحجة عليهم ـ أن يسألهم عن الزعيم لهم بذلك ، من هو ؟ والزَّعيمُ : الضَّامن للأمر والقائم به .

ثم وقفهم تعالى على أمر الشركاء عسى أن يظنوا أنهم ينفعونهم في شيء من هذا ، وقرأ ابن مسعود ، وابن أبي عبلة : (أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فَلْيَأْتُوا بِشِرْكِهِمْ) بكسر الشين دون ألف ، والمراد بذلك ـ على القراءتين ـ الأصنام ، وقوله تعالى : (فَلْيَأْتوا بِشُرَكائِهِمْ) قيل : هو استدعاءٌ وتوقيف في الدنيا ، أي : ليُحضروهم حتى نرى هل هم بحال من يضرُّ وينفع أَمْ لا ، وقيل : هو استدعاءٌ وتوقيف على أن يأتوا بهم يوم القيامة ، يوم يكشف عن ساق .

---

(١) وهذا كما أجاز العلماء نصب (حَقّاً) على الحال من (مَتاعٌ) في قوله تعالى : (مَتاعٌ بالمَعْروف حَقّاً عَلَى المُتَّقين) ، وقد قيل أيضاً : إن (بالِغَةً) حال من الضمير في (لَكُم) لأنه خبر عن (أيمانٌ) ففيه ضمير منه ، وقيل : إنها حال من الضمير في (عَلَيْنا) إن قُدرت (عَلَيْنا) وصفاً للأيمان لا متعلقاً بنفس الأيمان ، لأن فيه ضميراً منه كما يكون إذا كان خبراً عنه .

قوله تعالى : (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ) ، قال مجاهد : هي أَول ساعة من القيامة ، وهي أَفظعها ، وتظاهر حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم (أَنه ينادي مناد يوم القيامة : ليتبع كلُّ أَحد ما يعبد ، قال : فيتبع من كان يعبد الشمسَ الشمسَ ، ويتبع من كان يعبد القمرَ القمرَ ، وكذلك كلُّ عابد لكل معبود ، ثم تبقى هذه الأُمة وَغُبَّرات أَهل الكتاب [1] معهم منافقوهم وكثير من الكفرة ، فيقال لهم : ماشأْنكم ؟ لم تقفون وقد ذهب الناس ؟ فيقولون : ننتظر ربَّنا ، قال : فَيجيئُهم الله في غير الصورة التي عرفوه بها ، فيقول : أَنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، قال : فيقول : أَتعرفونه بعلامة ترونها ؟ فيقولون : نعم ، فيكشف لهم عن ساق ، فيقولون نعم أَنَت ربُّنا ، ويخرون للسجود ، فيسجد كل مؤمن وترجع أَصلاب المنافقين والكفار كصياصي البقر عظماً واحداً فلا يستطيعون سجوداً) [2] . هكذا هو الحديث وإن اختلفت منه أَلفاظ بزيادة أَو نقصان ، وعلى كل وَجْه مما ذكرتُه من كشف الساق وما في الآية أَيضاً من ذلك فإنما هو عبارة عن شدة الهول وعظم القدرة التي يُري اللهُ

---

(١) غُبَّر كل شيء : بقيَّته وآخره ، والجمع غُبَّراتٌ .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد ، وفي تفسير سورة (ن) ، ومسلم في الإيمان ، وأبو داود في الرقاق ، وابن جرير في تفسيره ، وأحمد في مسنده (١٧/٣) ، وزاد السيوطي في « الدُّر المنثور » نسبته إلى ابن المنذر وابن مردويه ، عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه ، وهو حديث طويل ذكره المؤلف مختصراً — والصياصي : جمع صيصَة وهى قَرْن البقر ونحوه .

تعالى ذلك اليوم ، حتي يقع العلم أن تلك القدرة إنما هي لله تعالى وحده ، ومن هذا المعنى قول الشاعر في صفة الحرب :

كَشَفَتْ لَهُمْ عَنْ ســاقِهَا وَبَــدَا مِنَ الشَّرِّ الْبَــراحُ (١)

ومنه قول الآخر :

قَدْ شَمَّرَتْ عَنْ ساقِهَا فشُدُّوا .... (٢)

---

(١) البيت لِجَدِّ طرفة ، وهو في اللسان ، ومعاني القرآن ، والقرطبي ، والبحر المحيط ، وديوان الحماسة ، والخصائص ، والمحتسب ، وجَدُّ طرفة هذا اسمه سعْدُ بن مالك ،ورواية الفراء في معاني القرآن كما هنا : (البراحُ) ، ولكن في اللسان والقرطبي : (وبدا من الشرّ الصُّراحُ). قال في اللسان : « الساق في اللغة : الأمر الشديد ، وكَشْفه مَثَلٌ في شدة الأمر ، كما يقال للشحيح : « يَدُه مغلولةٌ » ، ولا يَدَ ثَمَّ ولا غُلٌّ ، وإنما هو مثلٌ في شدة البخل ، وكذلك هذا ، لا ساقَ هنا ولا كَشْف ، وأصْله أن الإنسان إذا وقع في أمر شديد يقال : شمَّر عن ساعده وكشف عن ساقه ، للاهتمام بذلك الأمر العظيم » ، ثم نقل عن ابن سيدة أن هذا لا يَدفع أن الساق إذا أريدت بها الشدة فأنما هي مشبَّهة بالساق هذهالتي تعلو القدم ، وأنه إنما قيل ذلك لأن الساق هي الحاملة للجُملة ، المُنْهضة لها ، فذكرتهنا تشبيها وتشنيعاً . هذا والبَرَاح : البَيِّن الواضح ، والصُّراح : الخالص الواضح .

(٢) هذا بيت من الرجز وبعده يقول الراجز :

.... وجَدَّت الْحَرْبُ بِكُم فَجِدُّوا

وتَشْمير الإزار والثوب : رَفْعُه ، وشَمَّر عن ساقة : خَفَّ وجَدَّ في الأمر أوأراده وتهيَّأ له ، والشِّدَّة : الصَّلابة ، وهي ضدُّ اللين ، والمراد هنا : كونوا أقوياء ، ومن ذلك قوله تعالى : (اشْدُدْ به أَزْري) ، وقوله: (فَشُدُّوا الْوَثَاقَ) والجدُّ : الاجتهاد ، وجَدَّ به الأمْرَ : اشْتَدَّ ، فالمعنى : اشتدت الحرب فاجتهدوا فيها .

وقول الآخر :

في سَنَةٍ قَدْ كَشَفَتْ عَنْ ساقِهَا حَمْراءَ تَبْرِي اللَّحْمَ عَنْ عُراقِهَا (١)

وأَصل ذلك أَنَّ من أَراد الجِدَّ في أَمر يُحاوله فإنه يكشف عن ساقه تشميراً وجدًّا ، وقد مدح الشعراءُ بهذا المعنى ، فمنه قول دُرَيْد :

كَمِيشُ الإِزار خارجٌ نِصْفُ ساقِهِ صَبورٌ عَلَى الأَعْداءِ طَلَّاعُ أَنْجُدِ (٢)

وعلى هذا من أَراد الجِدَّ والتشمير في طاعة الله تعالى ، قال عليه

(١) هذا الرجز في اللسان ، وأساس البلاغة ، والقرطبي ، والبحر المحيط ، ولم ينسبه أحد منهم ، وقبله يقول الشاعر :

عَجِبْتُ مِنْ نَفْسِي وَمِن إشْفاقِهَا وَمِنْ طِرادِي الطَّيْرَ عن أَرْزاقِهَا

والشاهد في قوله : « قد كشفت عن ساقها » ، والعُراقُ – بضم العَيْن – : العظم بغير لحم ، فإن كان عليه لحم فهو عَرْق بالفتح ، فالمعنى : تَبْري اللحم عن العظم .

(٢) هذا البيت لدُرَيْد بن الصِّمَّة ، وهو في اللسان ، والشعر والشعراء ، والكامل ، والأصمعيات (الأصمعية ٢٨) ، وقد قال دُرَيْد هذه القصيدة في رثاء أخيه عبد الله ، والخبر في العقد الفريد ، وفي ديوان المعاني ، وَكَمِيشُ الإزار : فعيل بمعنى مفعول ، وهو من قولهم : كمش ذَيْلَه بمعنى : قَلَّصَه ، وفي اللسان : « رجل كميش الإزار : مُشَمِّره » ، ويؤيد هذا المعنى وَصْفُه بعد ذلك بخروج نصف ساقه من الثياب ، و « صَبُور على الأعداء » معناها أنه صبور في الحرب لا يسلِّم بسهولة ولا يَفِرُّ ، بل يبقى في المعركة مهما طال وقتها حتى ينتصر ، ويروى بدلاً من « الأعداء » : « العَزَّاء » وهي الشِّدة ، و « طَلَّاعُ أَنْجد » : ركَّاب لصعاب الأمور ، أو المتطلع للأمور السامية ، والأَنْجد : جمع نَجْد ، وهو ما ارتفع وغَلُظ من الأرض ، أو هو الطريق في الجبل .

الصلاة والسلام : (إِزْرَةُ المؤمن إلى نصف ساقِه) [١] .

وقرأ جمهور الناس : [يُكْشَفُ] بضم الياءِ على بناءِ الفعل للمفعول ، وقرأ ابن مسعود : [يَكْشِفُ] بفتح الياءِ وكسر الشِّين على معني : يكشفُ اللهُ ، وقرأ ابن عباس : [تَكْشِفُ] بفتح التاءِ على أن القيامة هي الكاشفة وقرأ ابن عباس أيضاً : [تُكْشَفُ] بضم التاءِ على معنى : تكشف القيامة والشِّدة الحال الحاضرة ، وحكى الأَخفش عنه أنه قرأ : [نَكْشِفُ] بالنون مفتوحة وكسر الشين ، ورويت عن ابن مسعود .

وقوله تعالى : [وَيُدْعَوْنَ] ظاهرُهْ أَن ثَمَّ دعاءٌ إلى سجود ، وهذا يردُّه ما قد تقرر في الشرع من أن الآخرة ليست بدار عمل ، وأنه لا تكليف فيها ، وإذا كان هذا فإنما الداعي ما يرونه من سجود المؤْمنين فيريدون أن يسجدوا عند ذلك فلا يستطيعون ، وقد ذهب بعض العلماءِ إلى أَنهم يُدعون إلى السجود على جهة التوبيخ ، وخرَّج بعض الناس من قوله تعالى : (فَلاَ يَسْتَطيعون) أنهم كانوا يستطيعون قبل ذلك ، وذلك

(١) أخرجه أبو داود ، ومالك في « اللباس » وأحمد في مسنده (٣/٥ ، ٦/٣١) ، ولفظه كما في مسند أحمد : عن العلاء بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، أنه سمع أبا سعيد سُئل عن الإزار فقال : على الخبير سقطتَ ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إزرَةُ المؤمن إلى أنصاف الساقين ، لا جناح أو لا حرج عليه فيما بينه وبين الكعبين ، ما كان أسفل من ذلك فهو في النار ، لا ينظر الله إلى من جرَّ إزاره بَطَراً) . والإزرَةُ بالكسر : الحالة وهيئة الائتزار ، وهذا مثل الرِّكْبة والجِلْسة .

غير لازم ، وعقيدة الأَشعرية أَن الاستطاعة إنما تكون مع التَّلَبُّس بالفعل لاقَبْله ، وهذا القَدْر كاف من هذه المسأَلة ها هنا .

و [خاشِعَةً] نصب على الحال ، وجوارحهم كلُّها خاشعة ، أَي ذليلة ، ولكنه تعالى خصَّ الأَبصار بالذكر لأَن الخشوع فيها أَبْيَن منه في كل جارحة . وقوله تعالى : (تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ) معناه : تزعج نفوسهم وتظهر عليهم ظهوراً يخزيهم ، وقوله سبحانه : (وَقَدْ كانوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجودِ) يريد في دار الدنيا وهم سالمون ممَّا نال عظام ظهورهم من الاتصال والعُتُوِّ ، وقال بعض المتأَولين : السُّجود هنا عبارة عن جميع الطاعات ، وخص السُّجود بالذكر من حيث هو عُظْم الطاعات ، ومن حيث به وقع امتحانهم في الآخرة ، وقال إبراهيم التميمي (١) ، والشعبي : أَراد بالسجود الصلوات المكتوبة ، وقال ابن جُبَيْر : المعنى : كانوا يسمعون النداءَ للصلاة و « حيَّ على الفلاح » فلا يجيئون ، وفُلِج الربيع بن خُثَيْم (٢) فكان يُهادَى بين رجلين إِلَى

(١) هو إبراهيم بن سالم بن أبي أمية التَّميمي ، المدني ، أبو إسحق المعروف ببَرَدَان — بفتح الباء والراء — ، صدوق ، من السادسة ، مات سنة ثلاث وخمسين ، وهناك إبراهيم بن أدهم ابن منصور العجلي ، أبو إسحق البلخي الزاهد ، من الطبقة الثامنة ، مات سنة اثنتين وستين ، إذ يقال له أيضاً : التميمي ، ولكنا نميل إلى أن المقصود هو الأول .

(٢) هو الرَّبيع بن خُثَيْم (بضم الخاء وفتح الثاء — ، وضبطه في الخلاصة « خَيْثم » بفتح الخاء وسكون الياء وفتح الثاء) بن عائذ بن عبد الله الثوري ، أبو يزيد الكوفي ، ثقة ، عابد ، مخضرم ، من الطبقة الثانية ، قال له عبد الله بن مسعود : لو رآك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحبَّك ، مات سنة إحدى وستين ، وقيل : بل سنة ثلاث وستين . (تقريب التهذيب) .

المسجد ، فقيل له : إنك لمعذور ، فقال : من سمع « حيَّ على الفلاح » فليجب ولو حَبْواً ، وقيل لابن المسيَّب : إن طارقاً يريد قتلك فاجلس في بيتك ، فقال : أَسْمَع « حيَّ على الفلاح » فلا أُجيب ؟ والله لا فعلتُ ، وهذا كله قريب بعضُه من بعض .

وقوله تعالى : (فَذَرْني وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذا الْحَدِيثِ) وعيد ، ولم يكن ثَمَّ مانع ولكنه كما تقول : « دعني مع فلان » ، أَي : سأُعاقبه ، و [مَنْ] في موضع نصب عطفاً على الضمير في [ذَرْني] ، أَو نصب على المفعول معه ، و « الحديث » المشار إليه هو القرآن المخبر بهذه الغيوب . و « الاسْتِدْراج » هو الحمل من رتبة إلى رتبة حتى يصير المحمول إلى شرٍّ ، وإنما يُستعمل الاستدراج في الشَّر ، وهو مأَخوذ من الدرج ، قال سفيان الثوري : تُسبغ عليهم النعم ويمنعون الشكر ، وقال غيره : كلما زادوا ذنباً زيدوا نعمة ، وفي معنى الاستدراج قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إن الله تعالى يُمْلي للظالم حتى إذا أَخذه لم يُفلته) [١] ، وقال الحسن : « كم من مُسْتَدْرَج بالإحسان إليه ومغرور بالسَّتْر عليه » .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة (هود)، وكذلك الترمذي ، أما مسلم فأخرجه في البر ، وابن ماجه في الفتن، ولفظه كما جاء في البخاري : عن أبي موسى رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته)، قال: ثم قرأ : (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) .

و (أُمْلِي لَهُمْ) معناه : أُؤخرهم مِلاوة من الزمان ، وهي البرهة والقطعة ، يقال : مِلاوة بضم الميم وفتحها وكسرها ، و « الكَيْدُ » هنا عبارة عن العقوبة التي تحلُّ بالكفار من حيث هي على كَيْد منهم ، فسَمَّى العقوبة باسم الذنب ، و « الْمتَين » : القوِيُّ الذي له متانة ، ومنه الْمَتْنُ : الظَّهْر .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

هذه « أَمْ » التي تتضمن الإِضراب عن الكلام الأَول لا على جهة الرفض له ، لكن على جهة التَّرْك والإِقبال على ما سواه ، وهذا التوقيف هو لمحمد صلى الله عليه وسلم ، والمراد به توبيخ الكفار ؛ لأَنه لو سأَلهم أَجراً فأَثقلهم عدم ذلك لكان لهم بعض العُذْر في إِعراضهم وفرارهم .

وقوله تعالى : (أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ) معناه : هل لهم علم بما يكون فيدَّعون مع ذلك أَن الأَمر على اختيارهم جار ؟

ثم أَمر تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بالصبر لحِكُمْه ، وأَن يمضي لما أُمِر به من التبليغ واحتمال الأَذى والمشقة ، ونَهى عن الضَّجر والعجلة التي وقع فيها يونس عليه السلام ، ثم ذكر تعالى القصة باقتضاب وذكر ما وقع في آخرها من ندائه من بطن الحوت وهو مكظوم ، أَي غيظه في صدره ، وحقيقة « الكظم » هو الغيظ والحزن والندم ، فحمل المكظوم عليه تجوزاً وهو في الحقيقة كاظم ، ونحو هذا قول ذي الرُّمَّة :

وَأَنْتَ مِنْ حُبِّ مَيٍّ مُضْمِرٌ حَزَناً عَاني الْفُؤادِ قَريحُ الْقَلْبِ مَكْظُوم (١)

وقال النَّقاش : المكظوم الذي أُخِذ بكظمه وهو مجاري القلبِ ، ومنه سُمِّيت « الكاظِمَة » وهي القناة في جوف الأَرض» (٢) .

وقرأَ جمهور الناس : (لَوْلاَ أَنْ تَدارَكَهُ) ، أَسند الفعلَ دون علامة

---

(١) الحزَنُ والحُزْن بمعنى واحد ، قال تعالى : (وَقالوا الْحَمْدُ لله الَّذي أَذْهَبَ عَنَّا الْحزَنَ) ، وقد فرق بعض اللغويين بينهما تفرقة لا تخرجهما عن أن المعنى فيهما ضد الفرح ، والمكظوم : الحزين الذي يخفي حزنه ويكتمه فيسبب له ألماً أكثر ، وهو موضع الاستشهاد هنا . وقد كثر الكلام في معنى القَرح وفي التفريق بينه وبين الجرح ، والمعنى في النهاية واحد .

(٢) هكذا جاءت كلمة « الكاظمة » في الأصول ، والذي في لسان العرب أن « الكاظمة » موضع ، قال امرؤ القيس :

إذَا هُنَّ أَقْسَاطٌ كَرِجْلِ الدَّبى أَو كَقَطَا كاظِمةَ النَّاهِل

أما القناة التي في جوف الأرض فتسمىَّ « الكظامة » ، قال في اللسان : « قناة في باطن الأرض يجري فيها الماءُ ، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أَتى كِظَامَةَ قوم فتوضأَ منها ومسح على خفَّيه ، الكِظامة كالقناة ، وجمعها كظائم » .

تـأنيث لأَن تـأَنيث النعمة غير حقيقي ، وقرأَ ابن مسعود ، وأُبَيٌّ ابن كعب ، وابن عباس : (لَوْلاَ أَنْ تَدارَكَتْهُ) على إِظهار العلامة ، وقرأَ ابن هرمز [1] : (لَوْلاَ أَنَ تَدَّارَكَهُ) بشدِّ الدال على معنى : تَتَدارَكه ، وهي حكاية حال تـأْتي فلذلك جاءَ بالفعل مستقبلا . بمعنى : لولا أَن يقال فيه : تتداركه نعمة من ربِّه ، ونحوه قوله تعالى : (فَوَجَدَ فيها رَجُلَيْن يَقْتَتِلاَنِ) [2] ، فهذا وجه هذه القراءَة ، ثم أُدغمت التاءُ في الدال.
و « النِّعمة » هي الصفح والتَّوب والاجتباءُ الذي سبق له عنده ، و « العَرَاءُ » : الأَرض الواسعة التي ليس فيها شيءٌ يُوَارِي من بناءٍ أَو نبات أَو غيره من جبل ونحوه ، ومنه قول الشاعر :

فَرَفَعْتُ رِجْلاً لاأَخافُ عِثارَهَا ونبذتُ بـالْأَرْضِ الْعَراءِ ثيابي [3]

وقد نُبِذ يونس عليه السلام بالأَرض العَرَاءِ غير مذموم . و « اجْتَبَاهُ » معناه : اختاره واصطفاه .

ثم أَخبر تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بحال نظر الكفار إِليه ، وأَنهم

---

(١) في بعض النسخ زيادة « والحسن » أي أن الحسن قرأ بها أَيضاً .
(٢) من الآية (١٥) من سورة (القصص) .
(٣) هذا البيت لقيس بن جَعْدة ، وهو من شواهد أَبي عبيدة في « مجاز القرآن » ، وذكره صاحب اللسان ، واستشهد به الطبريُّ في تفسيره ، وقيْسٌ هذا رجلٌ من خزُاعة ، وهو أَحد الفرَّارين في الحروب ، والعثار : السقوط ، وفي المثل « مَن سلَكَ الجَدَدَ أَمِنَ العِثار » ، والنَّبْذُ : الطَّرحُ والإلقاء بعيداً ، والعَرَاء : وجه الأَرض الخالي ، وهو موضع الاستشهاد هنا .

يكادون من الغيظ والعداوة يُزْلقونه فَيُذْهبون قدمه من مكانها ويسقطونه. وقرأ جمهور القراء: (لَيُزْلِقونَكَ) بضم الياء، من «أَزْلَقَ»، وقرأ نافع وحده: (لَيَزْلِقُونَكَ) بفتح الياء من «زَلِقَت الرِّجْل»، يقال: زَلِقت الرجل -بكسر اللام- وزَلَقْتُهُ -بفتحها-، مثل «حَزِنَ» و (حَزَنْتُهُ)، و «شَتِرَتِ العَيْنُ» و «شَتَرْتُهَا»[1]، وفي مصحف ابن مسعود: «لَيُزْهِقُونَكَ» بالهاء، وروى النَّخَعِيُّ أَن في قراءة ابن مسعود: «لَيُنْفِذُونَكَ»[2]، وفي هذا المعنى الذي في نظرهم من الغيظ والعداوة قول الشاعر:

يَتَقَارَضونَ إِذَا الْتَقَوْا في مَجْلِسٍ   نَظَراً يُزِيلُ مَواطِيءَ الأَقْدامِ[3]

وذهب قوم من المفسرين -وذكره الفراءُ- إلى أَن المعنى: يأْخذونك بالعين، وذكر أَن اللَّقْع بالعين[4] كان في بني إسرائيل، قال ابن الكلبي: كان رجل يتجوع ثلاثة أَيام ثم لا يتكلم على أَي شيءٍ إلاَّ أَصابه بالعين،

---

(١) الشَّتْرُ: انقلاب في جفن العَيْن، وقيل: هو استرخاء الجفن الأسفل.

(٢) معناها: يصرعونك، قال ذلك مجاهد، وقال بعضهم: إذا زلق السَّهْم وزهق قيل له: نفذ، فالمعنى في نفذ هو المعنى في زلق وزهق، وكأنه تعالى يقول: إنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديداً بالبغضاء يكاد يسقطك.

(٣) البيت في اللسان، والتاج، والقرطبي، والبحر المحيط، ولم ينسبه أحد منهم، والمُقارضة تكون في العمل السَّيِّء والقول السَّيِّء يقصد الإنسان به صاحبه، وقد تكون في الخير قليلاً، والمعنى هنا: ينظر بعضهم إلى بعض بالبغضاء والعداوة نظراً يزلزل مواضع الأقدام، ويروى «يُزْلُ» بدلا من «يزيل»، والمعنى واحد.

(٤) يقال: لَقَعه بِبَعْرة، أي رماه بها، ولقعه بِعَيْنه، أي عانه، بمعنى: أصابه بعينه. (اللسان).

فسأَله الكفار أَن يصيب النبي صلى الله عليه وسلم فأَجابهم إلى ذلك لكن عصم الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم ، وقال الزجاج : كانت العرب إذا أَراد أَحدهم أَن يعتانَ [١] أَحداً تجوَّع ثلاثة أَيامٍ ، وقال الحسن : دواءُ من أَصابته العين أَن يقرأَ هذه الآية ، و « الذِّكْرُ » في الآية القرآنُ . ثم قرر تعالى أَن هذا القرآن العزيز ذِكْرٌ للعالمين من الجِنَّة والإِنس ، ووَعْظٌ لهم ، وحُجَّةٌ عليهم ، فالحمد لله الذي أَنعم علينا به ، وجعلنا من أَهله وحملته ، لاربَّ غيره .

تم تفسير سورة القلم والحمد لله رب العالمين

(١) أي : يصيبه بالعين ، يقال : عان فلانٌ الرجلَ يَعينه عيناً فهو عائن ، والمصاب مَعين ، وفي الحديث الشريف (العين حقٌ) ــ أخرجه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما ــ ، ويقال : اعتانَ لنا فلان : أي صار لنا عَيْناً وجاسوساً ، ولكنه استعمل اعتان بمعنى عانَ هنا .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٦٩) سُورَةُ الحَاقَّةِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا اثْنَتَانِ وَخَمْسُونَ

وهي مكية بإجماع . وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : خرجت يوماً بمكة معترضاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدته قد سبقني إلى المسجد الحرام ، فجئت فوقفت وراءه ، فافتتح سورة الحاقة ، فلما سمعت سرْد القرآن قلت في نفسي : إنه لشاعر كما تقول قريش ، حتى بلغ إلى قوله تعالى : (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسولٍ كريمٍ ، وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَليلاً ما تُؤْمِنونَ ، وَلاَ بِقَوْلِ كاهِنٍ قليلاً ما تَذَكَّرون، تَنْزيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ) ، ثم مرَّ حتى انتهى إلى آخر السورة ، فأدخل الله تعالى في قلبي الإسلام[١] .

---

(١) أخرج هذا الخبر الإمام أحمد في مسنده (الدُرُّ المنثور) .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨ ﴾

« الحاقَّةُ » اسم فاعل من « حقَّ الشيءُ يَحِقُّ » إذا كان صحيح الوجود ، ومنه (حَقَّتْ كلِمَةُ الْعَذَابِ) [(١)] ، والمراد به البعثُ والقيامة ، قاله ابن عباس وغيره ، وسُمِّيت القيامة حاقة لأَنها حقَّقت لكل عامل عمله ، وقال بعض المفسرين : « الحاقَّةُ » مصدر كالعاقبة والعافية ، فكأَنه قال : ذات الحق ، وقال ابن عباس وغيره : سُمِّيت القيامة حاقة لأَنها تبدي حقائق الأَشياءِ ، واللفظة رفع بالابتداءِ ، و[ما] رفع بالابتداءِ أَيضاً ، و [الْحاقَّةُ] الثانية خبر [ما] ، والجملة خبر الأُولى ، وهذا كما تقول : « زيدٌ ما زيدٌ » ، على معنى التعظيم له وإبْهام التعظيم أَيضاً ليتخيَّل السامع أَقصى جهده .

وقوله تعالى : (وَمَا أَدْراكَ ما الْحاقَّةُ) مبالغةٌ في هذا المعنى ، أَي أَن فيها ما لم تَدْره من أَهوالها وتفصيل صفاتها ، و[ما] تقرير وتوقيف ،

---

(١) من الآية (٧١) من سورة (الزُّمَر) ، من قوله تعالى : (وكذلك حَقَّت كَلِمَةُ الْعَذاب عَلَى الْكافرين) .

وقوله تعالى : (ما الْحاقَّةُ) ابتداءٌ وخبر في موضع نصب بـ [أَدْرَاكَ] ، و [ما] الأُولى ابتداءٌ ، وخبرها [أدراك ما الحاقَّةُ] ، وفي [أَدْراكَ] ضمير عائد على [ما] ، هو ضمير الفاعل .

ثم ذكر تعالى تكذيب ثمود وعاد بهذا الأَمر الذي هو حق مشيراً إلى أَن مَن كذَّب بذلك ينزل به مثل ما نزل بأُولئك . و « القارعة » من السماءِ : القيامةُ أَيضاً لأَنها تقرع القلوب بصفاتها . و « ثمود » اسم عربيٌ معرفة ، فإذا أَريد به القبيلة لم ينصرف ، وإذا أُريد به الحيُّ انصرف ، وأَما « عاد » فكونه على ثلاثة أَحرف وساكن الأَوسط دفع في صدر كل علة فهو مصروف .

و « الطَّاغِيَةُ » قال قتادة : معناه الصيحة التي خرجت عن حَدِّ كل صيحة ، وقال قوم : المرادُ : بسبب الفئة الطاغية ، وقال آخرون منهم مجاهد ، وابن زيد : المعنى : بسبب الفعْلة الطاغية التي فعلوها ، وقال ابن زيد ما معناه : « الطَّاغية » مصدر كالعاقبة ، فكأَنه تعالى قال : بطغيانهم ، وقاله أَبو عبيدة ، ويُقوِّي هذا قوله تعالى : (كَذَّبَتْ ثَمودُ بِطَغْوَاها)[١] ، وأَولى الأَقوال وأَصوبُها الأَول ؛ لأَنه مناسب لما ذكر في عاد

(١) الاية ١٠ من سورة الشمس .

إذ ذكر فيه الوجه الذي وقع به الهلاك ، وعلى سائر الأَقوال لا يتناسب الأَمران ؛ لأَن طغيان ثمود سبب ، والريح لا تناسب ذلك لأَنها ليست بسبب الإِهلاك بل آلته كما هي الصيحة .

و « الصَّرْصَرُ » يحتمل أَن يكون من « الصرِّ » أَي البرد ، وهذا قول قتادة ، ويحتمل أَن يكون من « صَرَّ الشيءُ » إِذا صَّوت ، قال قوم . وصوت الريح صرير ، كأَنه يحكي هذين الحرفين . و « العاتِيَةُ » معناه : الشديدة المخالفة ، وكانت الريح قد عَتَتْ على الخُزَّان بخلافها ، وعَتَتْ على قوم عاد بشدتها . وروي عن على بن أَبي طالب ، وابن عباس رضي الله عنهما أَنهما قالا : إِنه لم تنزل من السماءِ قطرة ماءٍ قط إِلا بمكيال على يد مَلَك ، ولا هبت ريح قط إِلاَّ كذلك ، إِلاَّ ما كان من طوفان نوح عليه السلام وريح عاد ، فإِن الله تعالى أَذن لهما في الخروج دون إِذن الخُزَّان .

و « التَّسْخيرُ » : استعمال الشيءِ باقتدار عليه ، وروي أَن الريح بدأَت بهم صبح يوم الأَربعاءِ لثَمَان بقين لشوال ، وتمادت بهم إِلى آخر يوم الأَربعاءِ تكملة الشهر . و [حُسُوماً] قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، وأَبو عبيدة : معناه : كاملة تباعاً لم يتخللها غير ذلك ، وهذا كما تقول العرب : ما لقيته حَوْلاً مُجَرَّماً » قال الشاعر :

عَوازِبُ لَمْ تَسْمَعْ نُبُوحَ مُقَامَةٍ وَلَمْ تَرَ نَاراً تِمَّ حَوْلٍ مُجَرَّمِ (١)

---

(١) هذا البيت لطُفَيْل الغَنَوي ، الشاعر الجاهلي الذي عرف بوصفه للخيل حتى قال عنه في المؤتلف : « طُفيل الخيل » ، جاء في كتاب الأمالى لأبي علي إسماعيل القالي : وقرأتُ على أبي بكر بن دريد لطُفَيْل الغنوي يصف إبلاً :

عَـــوَازِبُ لَم تَسْمَع نُبُوحَ مُقَامَةٍ وَلَم تَرَ ناراً تِمَّ حَوْلٍ مُجَرَّمِ
سِوَى نارِ بَيْضٍ أَوْ غَزَالٍ صَرِيمَـةٍ أَغَنَّ مِنَ الْخُنْسِ المْنَاخِرِ تَوْأَمِ
إِذَا رَاعِيَاهَا أَنْضَجَاهُ تَرَامَـــيَا بِهِ خِلْسَةً أَو شَهْوَةَ الْمُتَقَرِّمِ

ونسبه في « الشعر والشعراء » لِطُفَيْل أيضاً ، وقال : إنه سبق به وجاء الحطيئة فأخذه منه وقال :

عَوَازِبُ لَم تَسْمَعْ نُبُوحَ مُقَامَةٍ وَلَم تُحْلَبْ إلاَّ نَهَاراً ضَجُورُهَا

يعني : لم تُحلب التي تضجر من الحلْب في البرد ، ولكن تحلب إذا طلعت عليها الشمس » ، وكان ابن قتيبة قــد سبق في ترجمته للحطيئة في كتاب (الشعر والشعراء) قد نسب هــذا البيت الأخير هنا للحطيئة ، وقال : إنه سبق به ، وجاء ابن مقبل بعده فأخذه عن الحطيئة ، وقال :

عَوَازِبُ لَمْ تَسْمَعْ نُبُوحَ مُقَامَـــةٍ وَلَم تَرَ نَاراً تِمَّ حَولٍ مُجَرَّمِ

وهو البيت نفسه الذي نسبه إلى طفيل الغنوي ، وهكذا ناقض ابن قتيبة نفسه في كتاب واحد ، فنسب البيت إلى طُفيل الغَنَوي مرة ، ونسبه إلى ابن مقبل مرة أُخرى ، وجعل البيت سابقاً على بيت الحطيئة مرة ولا حقاً له مرة أُخرى ، لكن رواية القالي في كتاب الأمالي تُرجِّح أن البيت لطفيل الغنوي .

وعوازب : بعيدات عن البيوت ، والنُّبُوح : أَصوات الناس وضجيج السكان في الحيِّ ، والـمُقامة : حيث يقيم الناس ، وتَمُّ الحول : تمامه وكماله ، والـمُجَرَّم : المكمل ، يقول : إن هذه الإبل لقوم من أهل العزة والمنعة ، ولهذا فهي ترعى وتمضي بعيداً حيث شاءت لا تُمنع ولا تخاف ، ولبُعدها هذا فإنها لم تسمع أصوات الناس ولا ضجيج السكان في الحى ، ولم تَرَ ناراً سوى نار بيض نعام يصيبه راعيها فيشويه ، أو لحم غزال صغير ضئيل يصيده ثم يشويه أيضاً ، والصَّرِيمة : القطعة من الإبل ، وأغن : في صوته غُنة ، والأخنس : القصير الأنف ، وكل ظبي فهو أَخنس ، والتوأم : الذي وُلد مع غيره ولهذا كان صغير الجسم ، وإذا صغرجسمه صغرت النار =

وقال الخليل : أَيْ شُؤماً عليهم ونحساً ، وقال ابن زيد : حُسوم : جمع حاسم كجالسٍ وقاعد ، ومعناه أَن تلك الأَيام قطَّعتهم بالإِهلاك ، ومنه : حسم العِلَل ، ومنه : الحسام . والضمير في قوله تعالى : (فيها صَرْعَى) يحتمل أَن يعود على الليالي والأَيام ، ويحتمل أَن يعود على « دارهم وحِلَّتِهم » لأَن معنى الكلام يقتضيها وإِن لم يُلفظ بها . قال الثعلبي : وقيل : يعود على الريح ، وقد تقدم القول في التشبيه بأَعجاز النخل في سورة « اقْتَربت السَّاعة » ، و « الْخاوِيةُ » : السَّاقطة التي قد خلت أَعجازها بلًى وفساداً .

ثم وقف تعالى على أَمرهم توقيف اعتبار بقوله سبحانه : (فَهَلْ تَرَى لَهُمْ منْ باقيَةٍ) ، واختلف المتأَولون في [باقية] ـ فقال قوم منهم ابن الأَنباري : هي هنا مبالغة كَعلاَّمة ونسَّابةُ ، والمعنى : من باقٍ ، وقال ابن الأَنباري أَيضاً : معناه : من فئة باقية ، وقال آخرون : [باقية] مصدر ، فالمعنى : من بقاءٍ .

= التي توقد لشوائه ، وقوله : (ترامیابه) یعني الغزال ، يترامى الراعيان لحمه عند الأكل : وخلْسة : اختلاساً ، والمسْتَقرَم : شديد الشهوة إلى اللحم .

هذا وقد جاء في الأصول « المحرم » بالحاء بدلا من « المجرَّم » بالجيم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ
رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾
لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ
﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ
﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ
عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ ﴾

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، وأبو جعفر وشيبة ، وأبو عبد الرحمن ، والناس : (وَمَنْ قَبْلَهُ) بفتح القاف وسكون الباء ، أي الأمم الكافرة التي كانت قبله ، ويؤيد ذلك ذكره بعد قصة نوح في طغيان الماء ؛ لأن قوله : (مَنْ قَبْلَهُ) قد تَضَمَّنهم فَحَسُن اقتضاب أمرهم بعد ذلك دون تصريح ، وقرأ أبو عمرو والكسائي ، وعاصم — في رواية أبان — والحسن — بخلاف عنه — وأبو رجاءٍ ، والجحدريُّ ، وطلحة : (وَمَنْ قِبَلَهُ) بكسر القاف وفتح الباء ، أي أَجْناده وأهل طاعته ، ويؤيد ذلك أن في مصحف أُبَيٍّ بن كعب : « وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ مَعَهُ » ، وفي حرف أَبي موسى الأَشعري : « وَمَنْ تِلْقَاءَهُ » ، وقرأ طلحة بن مصرف : « وَمَنْ حَوْلَهُ » . و « قِبَلُ الإنسان » : ما يليه في المكان ، وكثر استعمالها حتى صارت بمنزلة : عندي وفي ذِمَّتي وما يَليني بأَيٍّ وجه وَلِيَني .

و « المؤْتفكات » : قرى قوم لوط عليه السلام ، وكانت أَربعاً فيما

رُوي ، وائْتُفِكتْ : قُلِبت وصار عاليها سافلها فأْتَفكَتْ هي فهي مُؤْتَفِكَة ، وقرأ الحسن هنا : (وَالمؤْتَفِكَةُ) على الإفراد ، و « الْخَاطِئَة » إمَّا أن يكون صفةً لمحذوف ، كأَنه قال : بالفِعْلَة الخاطئة ، وإما أن يريد المصدر ، أي بالخطإ في كفرهم وعصيانهم .

وقوله تعالى : (فَعَصَوْا رسولَ رَبِّهِمْ) يحتمل أَن يكون « الرسول » اسم جنس ، كأَنه قال : فعصى هؤلاءِ الأَقوام والفِرق أَنبياءَ الله تعالى الذين أَرسلهم إليهم ، ويحتمل أَن يكون « الرسول » بمعنى الرسالة ، وقال الكلبي : يعني موسى عليه السلام ، وقال غيره – في كتاب الثعلبي – : يعني لوطا عليه السلام . و « الرابية » : النامية التي قد عظمت جداً ، ومنه : الربا ، وَرَبَا المال ، ومنه (اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ)(١) .

ثم عدد تعالى على الناس نعمته في قوله تعالى : (إنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ) والمراد : طغى الماءُ في وقت الطوفان الذي كان على قوم نوح عليه السلام ، والطغيان : الزيادة على الحدود المتعارفة في الأَشياءِ ، ومعناه : طغى على خُزَّانه في خروجه ، وعلى البشر في أن أَغرقهم ، قال قتادة : عَلاَ على كل شيءٍ خمسة عشر ذراعاً ، و « الجارية » : السفينة .

والضمير في قوله تعالى : (لِنَجْعَلَهَا) عائد على الفعلة ، أَي : مَن تذكَّرها ازدجر ، ويحتمل أَن يعود على [الْجَارِيَة] ، أَي : مَنْ سمعها

(١) من الآية (٥) من سورة (الحج) ، وتكررت في الآية (٢٩) من سورة (فصلت) .

اعتبر ، و « الجاريَةُ » يراد بها سفينة نوح عليه السلام ، قاله مُنذر ، وقال المهدوي : المعنى : في السُّفن الجارية ، وقال قتادة : أَبقى الله تعالى تلك السفينة حتى رأى بعضَ عيدانها أوائل هذه الأُمَّة ، وغيرُها من السفائن التي صنعت بعدها قد صارت رماداً .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ عبارة عن الرجل الفَهِم المنور القلب الذي يسمع القول فيتلقاه بفَهْم وتدبُّر ، قال أَبو عمران الجوني : [واعيَة] عَقَلت عن الله عزَّ وجلَّ ، ويروى أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلي بن أَبي طالب رضي الله عنه : (إِني دعوت الله أَن يجعلها أَذنك ياعلي) ، قال عليٌّ رضي الله عنه : فما سمعتُ بعد ذلك شيئاً فنسيته [(١)] .

وقرأَ الجمهور : [تَعِيَهَا] بكسر العين على وزن « تَلِيَهَا » ، وقرأَ ابن كثير - في رواية الحلواني - وقنبل ، وابن مصرف : [وَتَعْيَهَا] بسكون العين ، جعل الياءَ التي هي علامة في المضارع بمنزلة الكاف من « كَتِف » ؛ إِذْ حرف المضارعة لا يفارق الفعل فَيُسكَّن تخفيفاً ، كما يقال : كَتْف » ، ونحو هذا قول الشاعر :

---

(١) ذكره الثعلبي ، عن الحسن ، وأَخرج نحوه سعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أَبي حاتم ، وابن مردويه ، عن مكحول قال : لما نزلت (وَتَعِيَهَا أُذُنٌ واعيَةٌ) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (سأَلتُ ربي أن يجعلها أُذُنَ عليٍّ) ، قال مكحول : فكان عليٌّ يقول : « مَا سمعتُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً فنسيته » .

قَالَتْ سُلَيْمَي اشْتَرْ لَنَا سَوِيقاً [(١)]

على أَن هذا البيت منفصل ، فهو أَبعد ، لكن ضرورة الشعر تسامح به .

ثم ذكَّر تعالى بأَمر القيامة ، و « الصُّورُ » : القرنُ الذي يُنفخ فيه ، قال سليمان بن أَرقم : بلغني أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل عن الصور فقال : (هو قرن من نور ، فمه أَوسع من السموات) [(٢)] والنفخة المشار إليها في هذه الآية نفخة القيامة التي للفزع ، ومعها يكون الصعق ثم نفخة البعث ، وقيل : هي نفخات ثلاث : نفخة الفزع ، ونفخة الصعق ، ثم نفخة البعث ، والإشارة بآيتنا هذه إلى نفخة الفزع لأَن حمل الجبال هو بعدها ، وقرأَ الجمهور : [نَفْخَةٌ] بالرفع ، لمَّا نعت صح رفعه [(٣)] ، وقرأَ أَبو السَّمال بالنصب .

---

(١) السويقُ : طعامٌ يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير ، سمِّي بذلك لانسياقه في الحلق ، والجمع أَسْوِقة ، وقد ذكر ابن عطية أَن التسكين في البيت ضرورة شعرية تسمح به .

(٢) الذي في كتب السنه الصحيحة عن عبد الله بن عمرو أَن أَعرابياً سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الصور فقال : (قَرْن يُنفخ فيه)، هكذا أَخرجه الإمام أحمد في مسنده ٩٦٢/٢ ، ١٩٣ ، وأَخرجه الترمذي في القيامة وفي تفسير سورة الزُّمَر ، والدارمي في الرقاق ، وليس فيه هذه الزيادة التي ذكرها سليمان بن أرقم ، وقد ذكر الإمام ابن حجر العسقلاني في كتابه « تقريب التهذيب » أن سليمان بن أرقَم هذا ضعيف .

(٣) ذكر أبو حيان الأندلسي رأي ابن عطية هذا وعلق عليه بقوله : « ولو لم يُنْعت لصحَّ ، لأن « نفخة » مصدر محدود ، ونعتُه ليس بنعت تخصيص ، إنما هو نعت توكيد » . راجع البحر المحيط (الجزء الثامن صفحة ٣٢٢) .

وقرأ جمهور القراءِ : [وَحُمِلَت] بتخفيف الميم ، بمعنى : حملتها الرياح والقدرة ، وقرأ ابن عامر فيما روي عنه : [وَحُمِّلَت] بشدِّ الميم ، وذلك يحتمل معنيين : أَحدهما أَنها حاملةٌ حَمَلَتْ قدرةً لله تعالى وعُنفاً وشدة تُفَتِّتها ، فهي مُحَمَّلة حاملة ، والآخر أَن تكون محمولة حَمَلَتْها ملائكةٌ أَو قدرةٌ .

وقوله تعالى : (فَدُكَّتَا دَكَّةً واحِدَةً) . قال : [فَدُكَّتَا] وقد ذكر جمعاً ، وساغ ذلك لأَن المذكور فرقتان ، وهذا كما قال الشاعر :

أَلَمْ يَحْزُنْكِ أَن حِبالَ قَوْمي وَقَوْمِكِ قَدْ تَبايَنَتَا انْقِطاعاً (١)

ومنه قوله تعالى : (كانَتَا رَتْقاً) (٢) ، و « دُكَّتَا » معناه : سُوِّي

---

(١) هذا البيت هو الرابع من قصيدة للقطَاميِّ (عُمَيْر بن شُيَيْم التغلبي) يمدح بها زُفر ابن الحارث الكلابي ، لأن زُفر هذا قد أَنقذه من الموت بعد أن أسره قومه في موقعة الخابور ، وزاد بأن حمَلَه وكساه وأعطاه مائة ناقة ، والكلام في القصيدة مُوجَّه إلى « ضُباعة » بنت زفر ، والشاعر يركز على ما حدث بين قبيلته تغلب وقبيلة زفر وهي قيس من عداء ومن انقطاع لِصِلات المَوَدّة ، والحبال هي العهود والمواثيق التي كانت بين القبيلتين ، وتباينت : تفرقت ، وقد روي أن ضباعة لمّا سمعت هذا البيت قالت : « بَلَى والله لقد حزَنني » . والشاهد أن الشاعر قال عن الحبال وهي جمع : « تباينتا » بلفظ التثنية ، والذي سوّغ ذلك أنه يتكلم عن قبيلتين .

(٢) من الآية (٣٠) من سورة (الأنبياء) ، وقد قال الله تعالى : (كانتا) مع أن الكلام عن السموات والأرض لأنهما صنفان : السموات ، والأرض ، وهذا الأسلوب كثير مستعمل في القرآن الكريم وفي الشعر العربي .

جميعهما ، كما يقال : « ناقة دكاءُ » إذا ضعفت فاستوت حدبتها مع ظهرها .

و « الْوَاقِعَةُ » : القيامة والطَّامَّة الكبرى ، وقال بعض الناس : هي إشارة إلى صخرة بيت المقدس ، وهذا ضعيف ، و « انشقاق السماءِ » هو تفطُّرها وتَمَيُّزُ بعضها من بعض ، وذلك هو الوهن الذي ينالها ، كما يقال في الجُدْران البالية المشقَّقة : واهية ، و « المْلَكُ » اسم جنس يريد به الملائكة ، وقال جمهور المفسرين : الضمير في [أَرْجائِها] عائد على السماءِ ، أي الملائكةُ على نواحيها وما لَمَّ به[١] منها ، و « الرَّجا » الجانب من الحائط والبئر ونحوه ، ومنه قول الشاعر :

كَأَنْ لَمْ تَرَي قَبْلِي أَسيراً مُقَيَّداً   وَلاَ رَجُلاً يُرْمَى بِهِ فِي الرَّجَوَانِ[٢]

أَي : يُلْقني في بئر فلا أَجد ما أَتمسَّك به ، وقال الضحاك [أَيضاً][٣]

---

(١) « لَمَّ به » مثل « أَلمَّ به » ، فالمعنى فيهما : أتاه فنزل به . « راجع كتب اللغة والمعاجم »

(٢) هذا البيت للمرادي ، وذكره صاحب اللسان في « رجا » مع بيت قبله ، وهما :

لَقَدْ هـزِئَتْ منِّي بنَجْرانَ إذ رَأَت   مَقَامِيَ في الْكَبْلَيْنِ أَمُّ أَبانِ
كَأن لَم تَرَي قَبْلي أسيراً مُكَبَّلاً   وَلاَ رَجُلاً يُرمَى به في الرَّجَوَان

والرَّجوان : مُثَنَّى « رجا » المقصور ، وهو ناحية الشيء ، وخصَّ بعض اللغويين به ناحية البئر من أعلاها إلى أسفلها وحافتيها ، ويقال : « رمُي به في الرجوان » والمعنى : اسْتُهين به فكأنه رُمي هناك ، أي في المهالك ، و « المَكَبَّل » كما في رواية اللسان هو الذي قُيِّد ، والكَبْل هو القيد ، وقد جاء لفظه في رواية ابن عطية هنا .

(٣) زيادة في الأصول لا حاجة إليها .

وابن جبير : الضمير في [أَرْجائِهَا] عائد على الأَرض وإن لم يتقدم لها ذكر قريب لأَن القصــة واللفظة تقتضيان إفهــام ذلك ، وفسَّرا هذه الآية بما روي أَن الله تعالى يأْمر ملائكة السماءِ الدنيا فيقفون صفاً على حافات الأَرض ، ثم يأْمر ملائكة السماءِ الثانية فيصفون خلفهم ، ثم كذلك ملائكة كل سماءٍ ، فكلما بدا أَحد من الجن والإِنْس وجد الأَرض قد أُحيط بها [(١)] ، قالوا : فهذا تفسير هذه الآية ، وهو أَيضاً معنى قوله تعالى : (وَجاءَ رَبُّكَ والْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً) [(٢)] ، وهو أَيضاً تفسير قوله تعالى : (يَوْمَ التَّنَادِ ، يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ) [(٣)] على قراءة من شدَّ الدال ، وهو تفسير قوله تعالى : (يَامَعْشَرَ الْجِنِّ والإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّمَوَاتِ والْأَرْضِ فَانْفُذُوا) [(٤)] .

واختلف الناس في الثمانية الحاملين العرش – فقال ابن عباس – رضي الله عنهما – : هي ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم أَحد عِدَّتهم ، وقال ابن زيد : هم ثمانية أَملاك على هيئة الوعول ، وقال جماعة من المفسرين : هم على هيئة الناس ، أَرجُلهم تحت الأَرض السابعة ورءُوسهم وكواهلهم فوق السماءِ ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه قال :

---

(١) الخبر في تفسير ابن جرير ، عن الضحاك بن مزاحم ، ولم يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم .
(٢) الآية (٢٢) من سورة (الفجر) .
(٣) من الآيتين (٣٢ ، ٣٣) من سورة (غافر) .
(٤) من الآية (٣٣) من سورة (الرحمن) .

(هُمُ اليوم أَربعة ، فإِذا كان يوم القيامة قواهم الله تعالى بأَربعة سواهم)[1]
والضمير في قوله تعالى : [فَوْقَهُمْ] قيل : هو للملائكة الحمَلَة ، وقيل : للعالم كله ، وكل قدرة كيفما تصورت فإنما هي بحول الله تعالى وقوته.

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ ﴾

الخطاب بقوله تعالى : [تُعْرَضُونَ] لجميع العالم ، وروي عن أَبي موسى الأَشعري ، وابن مسعود أَن في القيامة عَرْضتين ، فيهما معاذير ، وتوقيف ، وخصومات ، وجدال ، ثم تكون عرضةٌ ثالثة تتطاير فيها الصحف بالأَيمْان والشمائل . وقرأَ حمزة والكسائي : (لَا يَخفَى) بالياءِ ، وهي قراءَة علي بن أَبي طالب رضي الله عنه ، وابن وثَّاب ، وطلحة ،

(١) أخرجه ابن جرير الطبري من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورواه الطبري أيضاً من طريق ابن إسحق ، وهو خبر مقطوع في الروايتين .

والأعمش ، وعيسى ، وقرأ الباقون بالتَّاءِ على مراعاة تأنيث [خافِيَةٌ] ، وهي قراءة الجمهور ، وقوله تعالى : [خافِيَةٌ] معناه : ضمير ولا مُعتقد .

و « الَّذين يُعطون كُتُبهم بأَيمْانهم » هم المخُلَّدُونَ في الجنة أهل الإيمان ، واختلف أهل العقل والعلم في الفرقة التي ينفذ عليها الوعيد من أهل المعاصي ، متى تأخذ كُتُبها ؟ فقال بعضهم : الأظهر أنها تأْخذها مع الناس ، وذلك يؤنسها مدة العذاب ، قال الحسن : فإذا أُعطي كتابه بيمينه لم يقرأْه حتى يأذن الله له ، فإذا أذن له قال : « هاؤُمُ اقْرَءُوا كِتابِيَه » ، وقال آخرون : الأظهر أنه إذا أُخرجوا من النار ، والإيمانُ يؤنسهم في وقت العذاب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا هو ظاهر هذه الآية لأن من يسير إلى النار كيف يقول هاؤم اقرءوا كِتابيه ؟

وأما « هاؤُم » فقال قوم : أَصله « هاؤمُوا » ثمَّ نقله التخفيف والاستعمال ، وقال آخرون: هذه الميم ضمير الجماعة. وفي هذا كله نظر ، والمعنى على كل وجه : تعالوا ، فهو استدعاءٌ للفعل المأْمور به ، وقوله : (اقْرَءُوا كتَابِيَه) هو استبشارٌ وسرور.

وقوله : (إنِّي ظَنَنْتُ) الآية عبارة عن إيمانه بالبعث وغيره ، قال قتادة : ظنَّ هذا ظنًّا يقينياً فنفعه ، وقومٌ ظَنُّوا ظنَّ شك فشقوا به ،

و[ظَنَنْتُ] هنا واقعة موقع « تَيَقَّنْتُ »، وهي في مُتَيَقَّن لم يقع بعد ولا خرج إلى الحسِّ ، وهذا هو باب الظَّن الذي يقع موقع اليقين ، وقرأ بعض القراء : [كِتابِيَهْ] و[حِسَابِيَهْ] و [مَالِيَهْ] و [سُلْطَانِيَهْ] بالهاءِ في الوصل والوقف اقتداءً بخط المصحف ، وهي في الوصل بِنيَّة الوقف لأَنها هاءُ السَّكْت فلا معنى لها في الوصل ، وَطَرَحَ الهاَءات في الوصل لا في الوقف الأَعمشُ وابن أَبِي إسحق ، قال أَبو حاتم : قراءتنا إثبات الهاءات في الوقف وطرحها في الوصل ، وبذلك قرأَ ابن أَبي محيصن ، وسلام ، قال الزهراوي : إثبات الهاءِ في الوصل لَحْنٌ لا يجوز عند أَحد عَلِمْتهُ .

و [راضِيةٍ] معناه : ذات رضى ، فهو بمعنى مرضية ، وليست بناءَ اسم فاعل ، و [عَالِيَةٍ] معناه : في المكان والقدر وجميع وجوه العُلُوِّ .

و « القُطوف » جمع قطف ، وهو ما يُجتني من الثمار ويقطف ، ودُنُوُّها هو أَنها تأتي طوع التمني فيأكلها القائم والقاعد والمضطجع بفيه من شجرتها . و [أَسْلَفْتُمْ] معناه : قدَّمتم ، و « الأَيام الخالية » هي أَيام الدنيا لأَنها في الآخرة قد خلت وذهبت ، وقال وكيع ، وابن جبير وعبد العزيز بن رفيع : المراد : بما أَسلفتم من الصوم . وعُمومُها في كل الأَعمال أَولى وأَحسن .

و « الذين يُؤْتون كُتُبهم بِشَمَائِلهم » هم المُخَلَّدُونَ في النار أَهل

الكفر ، فيتمنَّونْ أَن لو كانوا معدومين لا يجري عليهم شيءٌ . وقوله : (ياليْتَهَا كانَتِ الْقَاضِيَةَ) إشارة إلى مَوْتة الدنيا ، أَي ليتها لم يكن بعدها رجوع ولا حياة ، وقوله : (مَا أَغْنَى عَنِّي مالِيَهْ) يحتمل أَن يريد الاستفهام على معنى التقرير لنفسه والتوبيخ ، ويحتمل أَن يريد النفي المحض ، و « السُّلْطَانُ » في الآية : الحُجَّةُ ، على قول عكرمة ومجاهد ، وقال بعضهم ـ ونحا إليه ابن زيد ـ : تنطق بذلك ملوك الدنيا الكفرة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والظاهر عندي أَن سلطان كل أَحد هو حاله في الدنيا من عَدَد وعُدَدٍ ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لا يُؤَمَّنَّ الرجل في سلطانه ، ولا يُجلس على تكرمته إلا بإذنه)[(١)] .

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد ، وأبو داود في الصلاة ، والترمذي في المواقيت والأدب ، والنسائي في الإمامة ، وابن ماجه في الإقامة ، وأحمد في مسنده (١/١٨٤ ، ٥/٢٧٢) ، ولفظه كما جاء في مسند أحمد : عن أبي مسعود الأنصاري البدريِّ ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (يَؤُم القومَ أَقرؤُهم لكتاب الله تعالى وأقدمهم قراءة ، فإن كانت قراءتهم سواء فليؤمهم أقدمهم هجرة ، فإن كانت هجرتهم سواء فليؤمهم أكبرهم سنا ، ولا يُؤَمُّ الرجلُ في أهله ولا في سلطانه ، ولا يجلس على تكرمته في بيته إلاّ أن يأذن لك أو إلاّ بإذنه) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

المعنى : يقول الله تعالى ، أَو الملك ــ بِأَمْرِهِ ــ للزبانية : (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ) ، أَي : اجعلوا في عنقه غلاًّ ، قال ابن جريج : نزلت في أَبي جهل .

و [ذَرْعُهَا] معناه : مبلغ كَيْلها ، وقد جعل الله تعالى السبعمائة ، والسبعين ، والسبعة ، مواقف ونهايات لأَشياءَ عظام ، فلذلك مشى العرب وغيرهم على أَن يجعلوها نهايات ، وهذه السلسلة من الأَشياءِ التي جعل الله تعالى فيها السبعين نهاية ، وقرأَ السدي : (ذَرْعُهَا سَبْعِينَ) بالياءِ ، وهذا على حذف خبر الابتداءِ ، واختلف الناس في قدر هذا الذراع (١) ــ فقال ابن عباس ، ومحمد بن المنكدر ، وابن جريج : هو بذراع الملك وقال نوف البكالي وغيره : في الذراع سبعون باعاً ، في

(١) الذراع : اليد ، وهي مؤنثة ، وقد تذكّر ، (راجع اللسان) .

كل باع كما بين الكوفة ومكة . وهذا يحتاج إلى سند . وقال حذاقٌ من المفسرين : هي بالذراع المعروفة منا ، وإنما خوطبنا بما نعرفه ونحصِّله ، وقال الحسن : الله أَعلم بأَيِّ ذراع هي ، وقال سويد بن نجيح – في كتاب الثعلبي – : بلغني أن جميع أهل النار في تلك السلسلة ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لو وُضع منها حلقة على جبل لذاب كالرصاص . وقوله تعالى : [فَاسْلُكُوهُ] معناه : فأَدْخِلوه ، ومنه قول أَبِي وجزة السعديِّ يصف حمر وحش :

حتَّى سَلَكْنَ الشَّوَى منْهُنَّ في مَسَك ... منْ نَسْلِ جَوَّابَةِ الآفاقِ مِهداج (١)

ورُوي أن هذه السلسلة تدخل في فم الكافر وتخرج من دبره ،

---

(١) يصف أبو وجزة حُمر الوحش فيقول في هذا البيت وفي بيت قبله :

مــازِلْنَ يَنْسُبْنَ وهناً كُلَّ صادقةٍ ... باتَتْ تُباشِرُ عُرْماً غَيْرَ أَزْواجِ

حتَّى سَلَكْنَ الشَّوَى مِنْهُنَّ في مَسَكٍ ... مِنْ نَسْلِ جَوَّابَةِ الآفاقِ مِهْداجِ

والشوى : اليَدان والرِّجْلان ، وسَلَكْن : أَدخَلْن ، وهو موضع الاستشهاد هنا والمسَك : الذَّبْل من العاج كهيئة السِّوار تجعله المرأة في يديها ،فهو مثل الأسورة ، وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم رأى على عائشة مَسَكتين من فضة ، والذَّبْل : قرون الأوعال ، وجوَّابة الآفاق هي السحابة التي تحركها الرياح فتتحرك وتسير في آفاق السماء ، ونسلها هو المطر ، لأن الريح تستدرُّ السحاب وتُلقحه فيمطر ، من نسلها ، والريح المهْداج هى التى لها صوت وحنين، وهو من الهَدَجَة ، وهو حنين الناقة على ولدها ، يقول : إن حمر الوحش وردت الماء ليْلاً وأثارت القَطَا التي صاحت : قطَا قَطَا ، فخبرت باسمها فكانت صادقة ، هذه الحمر دخلت في المـــاء الذي نسلته الريح بأرجلها وأيديها حتى صار لها مثل السوار الذي تضعه المرأة في يديها . أما العُرم فهو بيض القطا ، وهي تضعه في أعداد فردية فلا يكون أزواجاً كما قال .

فهي في الحقيقة التي تُسالك فيه ، لكن الكلام جرى مجرى قولهم : أَدخلتُ القَلَنْسُوَةَ في رأسي ، وفمي في الحجر ، ورُوي أَن هذه السلسلة تُلوى حول الكافر حتى تغمُّه وتضغطه ، فالكلام – على هذا – على وجهه ، وهو المسلوك .

وقوله تعالى : (وَلَايَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكينِ) المراد به : على إِطعام طعام المسكين ، وإِضافة الطعام إِلى المسكين من حيث له إِليه نسبةٌ مَّا ، وخُصَّت هذه الخَلَّة من خلال الكافر بالذكر لأَنها من أَضَرِّ الخلال في البشر ، إِذا كثرت في قوم هلك مساكينهم .

واختلف المتأَولون في قوله تعالى :[حَميمٌ] – فقال جمهور المفسرين : هو الصديق اللطيف المودة ، فنفى الله تعالى أَن يكون للكافر هنالك من يواليه ، ونفى أَن يكون له طعام إِلاَّ من غسلين ، وقال محمد بن المستنير : الحميمُ الماءُ الحارُّ ، فكأَنه تعالى أَخبر أَن الكافر ليس له ماءٌ ولا شيءٌ مائع ولا طعامٌ إِلاَّ من غسلين ، وهو – فيما قال اللغويون – ما يجري من الجراح إِذا غُسلت ، قال ابن عباس : هو صديد أَهل النار ، وقال قتادة وابن زيد: الغِسْلين والزَّقوم أَخبث شيءٍ وأَبْشَعُه ، وقال الضحاك ، والربيع هو شجر يأَكله أَهل النار ، وقال بعض المفسرين : هو شيءٌ يجري من ضريع لأَن الله تعالى قد أَخبر أَنه ليس لهم طعام إِلاَّ من ضريع [(١)] ، وفي

(١) وذلك في قوله تعالى : (لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ). الآية (٦) من سورة (الغاشية) .

أُخرى إلاَّ منِ غِسْلين ، فهما شيءُ واحدٌ أَو اثنان متداخلان ،ويحتمل أَن يكون الإِخبار هنا عن طائفة وهناك عن طائفة ويكون الغِسْلين والضريع متباينين على ما يفهم في لسان العرب . وخبر [لَيْسَ] في [لَهُ] ، وقال المهدوي : ولا يصح أَن يكون [ها هنا] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وقد يصح ذلك إِن شاءَ الله تعالى .

و « الخاطيءُ » : الذي يفعل ضد الصواب متعمداً لذلك ، و « المخطيءُ » الذي يفعله غير متعمد ، وقرأَ الحسن ، والزهري : [الْخَاطِيُونَ] بالياءِ دون همز ، وقرأَ طلحة ، وأَبو جعفر ، وشيبة ، ونافع - بخلاف عنه - : [الْخَاطُونَ] بضم الطاءِ دون همز .

قوله تعالى : (فَلاَ أُقْسِمُ) ، قال بعض النحاة : (لاَ) زائدة ، والمعنى : فأُقْسِم ، وقال آخرون مِنْهم : [لاَ] ردٌّ لما تقدم من أَقوال الكفار ، والبداية [أُقْسِمُ] ، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن : (فَلأُقْسِمُ) لأَن لام القسم معها أَلف القَسَم [1] .

---

(١) قال أَبو الفتح في تخريج هذه القراءة : « هذا فعل الحال ، وهناك مبتدأٌ محذوف ، أي : لأنا أُقسِمُ ، فدلّ ذلك على أن جميع ما في القرآن من الأقسام إنما هو على حاضر الحال » ، وتبع الزمخشري أبا الفتح فيما قال ، لكن أبا حيان الأندلسي عارضهما فقال : « إنما ذهبا إلى ذلك لأنه فعل حال ، وفي القَسَم عليه خلاف ، والذي اختاره ابن عصفور وغيره أن فعل الحـــال لا يجوز أن يقسم عليه » . (راجع المحتَسبَ لابن جني ، وتفسير الزمخشري ، والبحر المحيط) .

قوله تعالى : (بِمَا تُبْصِرونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ) . قال قتادة بن دعامة : أَراد الله تعالى أَن يعُمَّ في هذا القسم جميع مخلوقاته ، وقال غيره : أَراد الأَجساد والأَرواح .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا قول حسن عام .

وقال ابن عطاءٍ : ما تُبصرون من آثار القدرة وما لا تُبصرون من آثار القدرة ، وقال قومٌ : أَراد بقوله سبحانه وتعالى : (وَمَا لَا تُبْصِرونَ) الملائكةَ .

و « الرَّسُولُ الكريم » هو جبريل عليه السلام في تأَويل جماعة من العلماءِ ، ومحمد صلى الله عليه وسلم في قول آخرين ، وأُضيف القول إليه لأنه هو الذي تلاه وبلَّغه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾

نَفى تعالى أن يكون القرآن قول شاعر كما زعمت قريش ، ونصب [قَليلاً] بفعل مضمر يدل عليه [تُؤْمِنونَ] ، و (مَا) يحتمل أَن تكون نافية فينتفي إِيمانهم الْبَتَّةَ ، ويحتمل أَن تكون مصدرية ويتصف بالِقلَّة إِمَّا الإِيمان وإِما العَدَد الذين يؤمنون ، فعلى اتصاف إِيمانهم بالقلة فهو الإِيمان اللغوي ؛ لأَنهم قد صدَّقوا بأَشياءَ يسيرة لا تغني عنهم شيئاً ؛ إِذْ كانوا يصدقون أَن الخير والصلة والعفاف الذي كان يأْمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم صواب ، ثم نَفَى تعالى أَن يكون[القرآن] قول كاهن كما زعم بعضهم. وقرأَ ابن كثير ، وابن عامر ، والحسن ، والجحدري : (قَلِيلاً مَا يُؤْمِنونَ) و(قَلِيلاً مَا يَذَّكَّرُونَ) بالياءِ فيهما ، وقرأَ الباقون بالتاءِ من فوق ، ورجَّح أَبوعمرو قراءة التاءِ من فوق بقوله : (فَمَا مِنْكُمْ) ، وفي مصحف أُبَيٍّ بن كعب : « مَا تَتَذَكَّرُونَ » بتاءين . و[تَنْزِيلٌ] رُفع بالابتداءِ ، أَيْ : هو تنزيلٌ .

ثم أَخبر تعالى أَن محمداً لو تقوَّلَ علينا شيئاً لعاقبه بما ذَكَر ، والتقوُّل أَن يقول الإِنسان عن آخر : إِنه قال شيئاً لم يفعله ، وقرأَ ذكوان وابنه محمد[(١)] (وَلَوْ يَقُولُ عَلَيْنَا) بالياءِ وضم القاف ، وهذه القراءَة مُعَرِّضة

(١) ذكوان هو أبو صالح السَّمَّان الزيات، المدني، ثقة ثبت، كان يجلب الزيت إلى الكوفة ، من الطبقة الثالثة ، مات سنة إحدى ومائة ، أما ابنه محمد ، فهو ابن أبي صالح السَّمان ، صدوق ، من السادسة ، قال عنه في تقريب التهذيب :« يَهِم » .

بما صرحت به قراءة الجمهور ، ويُبيِّن التعريض قوله تعالى : ﴿ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ اختلف في معناه ـ فقال ابن عباس رضي الله عنه : [بِالْيَمِينِ] : بالقُوَّة (١) ، ومعناه : لَنِلْنا عقابه بقوة منا ، أو يكون المعنى : لتنزعنا منه قوته ، وقال آخرون : هي عبارة عن الهوان ، كما يقال لمن يُسْجَن (٢) أو يُقام لعقوبة : قد أُخذ بيده وبيمينه .

و « الْوَتِين » نياط القلب ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وهو عِرْقٌ غليظ تصادفه شفرة الناحر ، ومنه قول الشَّماخ :

إِذَا بَلَّغْتِنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي ... عَرابَةَ فاشْرَقي بِدَمِ الْوَتِينِ (٣)

---

(١) ومنه قول الشماخ بن ضرار :

إذا ما رَايَةٌ رفِعَتْ لِمَجْدٍ ... تَلَقَّاها عَرَابَةُ باليَمِينِ

(٢) في بعض النسخ : « لمن يُسَخَّر » .

(٣) كان الشماخ قد خرج يريد المدينة ، فصحب عَرَابَةَ بن أوس الأنصاري ، فسأله عرابَة عما يريد بالمدينة ، فقال : أردت أن أمْتار لأهلي ، وكان مع عرابة بعيران ، فأنزل الشماخ وأكرمه ، وأوقر له بعيريه تمراً وبُراً ، فقال فيه أبياتاً منها هذا البيت ، والخطاب فيه للناقة ، والرَّحْل : ما يوضع على ظهر البعير للركوب ، وكل ما يُعد للرحيل ، وعرابةُ هذا صحابي جليل ، والوتين : هو العرق الذي وصفه ابن عطية ، وشَرِق يَشْرَق بمعنى : غَص ، يقول لناقته : إذا أنت أوصلتني إلى عرابة فقد تحققت كل آمالي ، ولا حاجة بي إليك ، ولا يهمني أن أريق دمك .

فمعنى الآية : لأذهبنا حياته معجَّلاً . و « الحاجِزُ » : المانع ، وجمع [حاجِزينَ] على معنى أَحد ؛ لأَنه يقع على الجمع ، ونحوه قوله عليه الصلاة والسلام : (لم تحلَّ الغنائم لأَحد سود الرءوس قبلكم)[1] .

والضمير في قوله تعالى : (وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ) عائد على القرآن ، وقيل : على محمد صلى الله عليه وسلم ،وقوله تعالى:(وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ) وعيدٌ ، وكونُه حسرة على الكافرين هو من حيث كفروا به ويَرَوْن من آمن به يُنَعَّم وهم يُعَذَّبون .

قوله تعالى : (وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِين) ، ذهب الكوفيون إلى أنها إضافة الشيء إلى نفسه ، كدار الآخرة ومسجد الجامع،وذهب البصريون والحُذَّاق إلى أَن الحق مضاف إلى الأَبلغ من وجوهه ، وقال المبرد : إنما هو كقولك : عين اليقين ومحض اليقين .

ثم أَمر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بالتسبيح باسمه العظيم ، وفي

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الأنفال ، وأحمد في مسنده (٢٥٢/٢) ، عن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لم تحل الغنائم لقوم سود الرءوس قبلكم ، كانت تنزل النار من السماء فتأكلها) ، لأن يوم بدر أسرع الناس في الغنائم فأنزل الله عزَّ وجلَّ : (لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عظيمٌ ، فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طيِّباً) . راجع مسند أحمد .

ضمن ذلك الاستمرار على رسالته ، والمُضِيُّ لأَدائها وإبلاغها وروي أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت هذه الآية : (اجعلوها في ركوعكم) ، واستحبَّ التزامَ ذلك جماعةٌ من العلماءِ ، وكره مالك لزوم ذلك لئلا يُعَدّ فرضاً واجباً .

تم تفسير سورة الحاقة والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٧٠) سورة المعارج مكية وآياتها أربع وأربعون

تفسير سورة المعارج *

وهي مكية ، لا خلاف بين الرواة في ذلك .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ
ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ
أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧
يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْـَٔلُ
حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾

قرأ جمهور السبعة : [سَأَلَ] بهمزة محققة ،قالوا :والمعنى دَعَا داعٍ ، والإشارة إلى من قال من قريش : « اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا

* في بعض النسخ : تفسير سورة سأل سائل » .

حِجَارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذابٍ أَلِيمٍ »(١) ، ورُوي أن قائل ذلك هو النضر ابن الحارث ، وإلى من قال : « رَبَّنا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا »(٢) . وقال بعضهم : المعنى : بحث باحث واستفهم مُسْتَفْهِم ، قالوا : والإشارة إلى قول قريش : « مَتَىَ هَذَا الْوَعْدُ »(٣) ؟ وما جرى مجراه ، قاله الحسن وقتاده .

فأَمَّا من قال : المعنى : دَعَا داعٍ فالباءُ في قوله تعالى : [بِعَذابٍ] على عُرفها ، وأَمَّا من قال : المعنى : استفهم مُسْتَفْهِم فالباءُ تُوَصِّل توصيل « عَنْ » ، كأنه تعالى قال : « عن عذاب » ، وهو كقول علقمة بن عبدة :

فَإِنْ تَسْأَلوني بالنِّساءِ فَإِنَّنِي ... بَصِيرٌ بِأَدْواءِ النِّساءِ طَبِيبُ(٤)

وقرأ نافع ، وابن عامر : [سالَ] ساكنة الأَلف ، واختلف القراءُ فيها ، فقال بعضهم : هي « سأَل » المهموزة إلا أنها سهلت ، كما قال :

---

(١) جاء ذلك في الآية (٣٢) من سورة (الأنفال) .

(٢) جاء ذلك في الآية (١٦) من سورة (ص) .

(٣) جاء ذلك في الآية (٤٨) من سورة (يونس) .

(٤) هذا البيت من قصيدته المشهورة التي قالها في مدح الحارث ملك الغساسنة في الشام بعد وقعة « يوم حليمة » ، والتي بدأها بقوله : (طَحَا بِكَ قَلْبٌ في الْحِسَانِ طَرُوبُ) ، والأدواء : جمع داء ، ويريد هنا طباعَهُنَّ الخفية التي هي بمنزلة المرض فيهن ، يقول : إنه خبير بطباع النساء وبوسائل معالجتهن ، ثم ذكر بعد ذلك شيئاً من خبرته بهن ، والشاهد أن الباء في « بالنساء » بمعنى « عن » ، والمعنى : فإن تسألوني عن النساء .

.... لا هَناكِ الْمَرْتَعُ(١)

ونحو ذلك ، وقال بعضهم : هي لغة من يقول : « سِلْتُ أَسَالُ وَيَتَسَاوَلَان »(٢) ، وهي لغة مشهورة حكاها سيبويه فتجيءُ الأَلف منقلبة عن الواو التي هي عين كقال وخاف ، وأَما قول الشاعر :

سَالَتْ هُذَيْلٌ رَسُولَ اللهِ فاحِشَةً ضَلَّتْ هُذَيْلٌ بِما سَالَتْ وَلَمْ تُصِبِ(٣)

---

(١) هذه الجملة وردت في آخر بيت للفرزدق ، والبيت بتمامه :

رَاحَت بِمَسْلَمَةَ البغالُ عَشِيَّةً فَارْعَيْ فَزَارَةُ لاَ هَنَاكِ الْمَرْتَعُ

وهو في الديوان ، والكتاب لسيبويه ، والخصائص لابن جني ، والمحتسَب له أيضاً ، وفي شرح شواهد الشافية ، وفي ابن يعيش ، والمقتضب ، وابن الشجري ، والمقرب ، وقد قال الفرزدق هذا البيت حين عزُل مَسْلَمَة بن عبد الملك ، وتولى بعده عُمر بن هُبَيْرة الفزاري ، فهجا الفرزدق الفزاريِّين ، ودعا عليهم هنا ألا يَهْنَئُوا بولايته . والبغال في البيت هي البغال التي حملت مسلمة عند عزله ، يقول : إن البغال قد حملت مسلمة عشية ، وأصبحت أنت يافزارة صاحبة الأمر ، فتصرفي في الأمور ، وتمتعي بالخيرات ، لا هنئت بها ولا نعمت ، والشاهد إبدال الألف من الهمزة في « هناك » ، وهي في الحقيقة ضرورة شعرية ، وكان من الصحيح أن تجعل بَيْن بَيْن لأنها متحركة لا ساكنة .

(٢) في بعض النسخ : « سَالَ يَسَالُ » ، وقد قال الزمخشري حين ذكر هذه اللغة : « وهما يتسايلان » ، ونحسبه خطأً من الناسخ لأن الزمخشري يعرف أن الكلمة واوية هنا .

(٣) هذا البيت لحسان بن ثابت الأنصاري ، وهو بيت وحيد قاله حسّان يعيِّر هذيلا وكانت قد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُباح لها الزنى ، والشاهد فيه إبدال الهمزة ألِفاً من باب التسهيل وليس على لغة من قال : « سِلْت أَسَالُ » ، قال الشنتمري : « لأن البيت لحسان وهذه ليست لغته » .

ومثل بيتي الفرزدق وحسان قول القُرَشي زيد بن عمرو بن نفيل عن زوجتيه حين طلبتا الطلاق منه :

تلْكَ عِرْسايَ تَنْطِقان عَلى عَمْـ ـدٍ إلى الْيَوم قَولَ زُورٍ وَهَتْرِ

سَالَتاني الطَّلاقَ أَنْ رَأَتَاني قَلَّ مالي ، قَدْ جِئْتُماني بِنُكْرِ

وكون الشاعر من قريش ينفي أنه على لغة « سِلْتُ ولا يَسَالُ » ، بل هو من بَاب التخفيف بإبدال الهمزة ألفا .

فإن سيبويه قال : هو على لغة تسهيل الهمزة ، وقال غيره : هو على لغة من قال : « سِلتُ » ، وقال بعضهم في الآية : هي من « سَالَ يَسيلُ » إذا جرى ، وليست من معنى السؤال ، قال زيد بن ثابت وغيره : في جهنم وادٍ يسمىَّ « سائلا » ، والإخبارُ هنا عنه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل - إن لم يصح أَمر الوادي - أَن يكون الإخبار عن نفوذ القَدَر بذلك العذاب ، فاستعير له لفظ السَّيْل لمَا عُهد من نفوذ السْيل وتصميمه .

وقرأَ ابن عباس : (سَالَ سَيْلٌ) بسكون الياءِ (١) ، وقرأَ أُبَيٌّ بن كعب ، وابن مسعود : « سَالَ سالٍ » مثل « قال » ، أُلْغيت الياءُ من الخَطِّ تخفيفاً ، والمراد « سايل » إذ سؤال الكفار عن العذاب - حسب قراءَة الجماعة - إنما كان على أَنه كذب ، فوصفه الله تعالى بأَنه واقع وعيداً لهم .

قوله تعالى : [لِلْكافِرِينَ] ، قال بعض النحويين : اللام تُوَصِّل المعنى توصيل « عَلَى » (٢) ، وروي أَن في مصحف أُبَيٍّ بن كعب : قوله

---

(١) قال أَبو الفتح تعليقاً على هذه القراءة : « السَّيْل هنا : الماءُ السائل ، وأَصله المصدر ، من قولك : سال الماءُ سيلاً ، إلاَّ أَنه أُوقع على الفاعل - أي قُصد به معنى اسم الفاعل - كقوله تعالى : (إنْ أَصبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً) أي : غائراً » .

(٢) يعني أَن اللاَّم بمعنى « عَلَى » .

تعالى « عَلَى الْكافِرِينَ » ، وقال قتادة والحسن : المعنى : كأن قائلا قال : لِمَنْ هذا العذاب الواقع ؟ فقيل : [لِلْكَافِرِينَ] .

و « الْمَعَارِجُ » في اللغة : الدَّرَجُ في الأَجرام ، وهي هنا مستعارة في الرُّتب والصفات الحميدة ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، وقال ابن عباس : « المعارج » : السمواتُ تعرج فيها الملائكة من سماءٍ إلى سماءٍ ، وقال الحسن : هي المراقي في السماء . وقوله تعالى : (تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ) معناه : تصعد ، على أصل اللغة في اللفظة . و « الرُّوحُ » عند جمهور العلماء هو جبريل عليه السلام ، خصَّصه بالذكر تشريفاً ، وقال مجاهد : الرُّوحُ : ملائكة حفظة للملائكة الحافظين لبني آدم ، لا تراهم الملائكة كما لا نرى نحن الملائكة ، وقال بعض المفسرين : هو اسم الجنس في أرواح الحيوان .

واختلف المتأولون في قوله تعالى : (في يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) ـ فقال منذر بن سعيد وجماعة من الحُذَّاق : المعنى : تعرج الملائكة والروح إليه في يوم من أيامكم هذه ، ومقدار المسافة ـ إن لو عرجها آدميٌّ ـ خمسون ألف سنة ، وقاله ابن إسحق ، فمَنْ جعل « الروح » جبريلَ ونوعاً من الملائكة قال : المسافة هي من قعر الأرض السابعة إلى العرش ، قاله مجاهد ، ومنَ جعل « الروح » جنس أرواح الحيوان قال : المسافة بين وجه هذه الأرض إلى منتهى العرش علُوًّا ، قاله وهب

ابن مُنَبِّه ، وقال قوم : المعنى : تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره في نفسه خمسين ألف سنة من أيامكم ، ثم اختلفوا في تعيين ذلك اليوم - فقال عكرمة ، والحكم : أراد الله تعالى مدة الدنيا فإنها خمسون ألف سنة ، لا يدري أحد ما مضى منها ولا ما بقي ، فالمعنى : تعرج الملائكة والروح إليه في مدة الدنيا وبقاءِ هذه البنية ، ويتمكن - على هذا - في « الرُّوح » أن يكون اسم جنس أرواح الحيوان . وقال ابن عباس وغيره : بل اليوم المشار إليه هو يوم القيامة - ثم اختلفوا - فقال بعضهم : قدره في الطول قدر خمسين ألف سنة ، وهذا هو ظاهر قول النبي صلى الله عليه وسلم : (ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلاَّ جعل الله له صفائح من نار يوم القيامة تكوى بها جبهته وظهره وجنباه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة)(١) . وقال ابن عباس ، وأبو سعيد الخدري : بل قَدْرُه في هَوْله وشدته ورزاياه للكفار قدر خمسين ألف سنة ، وهذا كما تقول في اليوم العصيب : إنه كَسَنَة ، ونحو هذا ، قال أبو سعيد : قيل : يارسول الله ، ما أطولَ يوماً مقداره خمسون ألف

---

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه مسلم في الزكاة ، وأحمد (٢/٢٦٢) ، وهو عن أبي هريرة رضي الله عنه ، يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يُؤَدِّي منها حقَّها إلاَّ إذا كان يومُ القيامة صُفِّحت له صفائح من نار ، فأحْمِيَ عليها في نار جهنم ، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره ، كلما بَرَدَت أُعيدت له ، في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يُقضى بين العباد فيرى سبيله إمَّا إلى الجنة وإما إلى النار) ، بلفظ مسلم .

سنة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : (والذي نفسي بيده إنه ليخفُّ على المؤمن حتى يكون أَخفَّ عليه من صلاة مكتوبة)[(١)] ، وقال عكرمة : المعنى كان مقدار ما ينقضي فيه من القضايا والحساب قدر ما ينقضي بالعدل في خمسين أَلف سنة من أَيام الدنيا .

وقد ورد في يوم القيامة أَنه كأَلف سنة ، وهذا يشبه أَن يكون في طوائف دون طوائف .

والعامل في قوله تعالى: [يَوْمٍ] – على قول من يقول إنه يوم القيامة – قوله تعالى : [مِنْ دافِعٍ] ، وعلى سائر الأَقوال [تَعْرُجُ] . وقرأَ جمهور القراءِ : [تَعْرُجُ] بالتاءِ من فوق ، وقرأَ الكسائي وحده: [يَعْرُجُ] بالياءِ لأَن التأَنيث غير حقيقي ، وبالياءِ من تحت قرأَ ابنُ مسعود لأَنه كان يُذَكِّر الملائكة ، وهي قراءة الأَعمش .

ثم أَمر تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بالصبر الجميل ، وهو الذي لا يلحقه عَتْبٌ من فَشَلٍ ولا شكٌّ ولا قِلَّةُ رضى ولا غير ذلك ، والأَمر بالصبر الجميل محكم في كل حالة ، وقيل : نزلت هذه الآية قبل الأَمر بالقتال .

وقوله تعالى : (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعيداً) يعني يوم القيامة ؛ لأَنهم

(١) أَخرجه أَحمد ، وأَبو يعلى ، وابن جرير ، وابن حبان ، والبيهقي في البعث ، عن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، (الدر المنثور) .

يكذِّبون به فهو في غاية البعد عندهم ، وإنه تعالى يراه قريباً من حيث هو واقع وآت وكلُّ آت قريب ، وقال بعض المفسرين : الضمير في [يَرَوْنَهُ] عائد على العذاب ، وقوله تعالى : [يَوْمَ] نصب بإضمار فعل على البدل من الضمير المنصوب ، و « الْمُهْلُ » : عَكَرُ الزيت ، قاله ابن عباس وغيره ، فهي[١] لسوادها وانكدار أنوارها تشبه ذلك ، والمُهْل أيضاً ما أُذيب من فضة ونحوها ، قاله ابن مسعود وغيره[٢] ، فتجيءُ له ألوان وتميُّع مختلط ، والسماءُ أيضاً للأهوال التي تدركها تصير مثل ذلك ، و « الْعِهْنُ » الصوف دون تقييد ، وقال بعض اللغويين : هو الصوف المصبوغ ألواناً ، وقيل : المصبوغ أي لون كان ، وقال الحسن : هو الأحْمر ، واستدل من قال إنه المصبوغ ألواناً بقول زهير :

كَأَنَّ فُتاتَ الْعِهْنِ في كُلِّ مَنْزِلٍ نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الْفَنَالَمْ يُحَطَّمِ[٣]

---

(١) أي السماء .

(٢) في بعض النسخ : قاله ابن عباس وغيره .

(٣) هذا بيت من معلقة زهير بن أبي سُلمى ، والتي بدأها بقوله : (أمِنْ أُمِّ أوْفَى دِمْنَةٌ لَم تَكَلَّمِ) ، وزهير في هذا البيت وأبيات معه يصف بعض النسوة في سفرهن على الإبل في هوادج من الصوف قد أُلقيت عليها أستار رقيقة حمراء اللون تشابه الدم في حمرتها ، والفُتاتُ : اسمٌ لما انفتَّ من الشيء ، أي تقطع وتفرق ، وأصله من الفتِّ والتقطيع والتفريق ، والفعل منه فتَّ يفتُّ ، والعِهْن : الصوف المصبوغ ألواناً ، والفَنَا : عِنَب الثعلب ، والتَّحطم : التَّكسُّر ، يقول : كأن قطع الصوف المصبوغ الذي زُيِّنت به الهوادج في كل منزل نزلته هؤلاء النسوة ـ حبُّ عنب الثعلب إذا كان غير مُحَطم ، لأنه إذا حُطِّم زايله لونه الأحمر .

وحَبُّ الْفَنَا هو عِنَب الثَّعلب ، وكذلك هو عند طيبه وقبل تحطيمه أَلوان ، بعضه أَحمر ، وبعضه أَصفر ، وبعضه أَخضر ؛ لاختلافه في النضج ، وتشبَّه الجبال به على هذا لأَنها جُدد بِيضٌ وحُمْرٌ وسودٌ ، فيجيءُ التشبيه من وجهين : أَحدهما في الأَلوان ، والثاني في الانتقاش ، ومن قال إِن « الْعِهْنَ » هو الصوف دون تقييد جعل التشبيه في الانتقاش وتخلخل الأَجزاءِ فقط ، قال الحسن : والجبال يوم القيامة تسير بالريح ثم يشتد الأَمر بها فتصير كالعِهْن ، ثم لا يزال الأَمر بها فتصير هباءً مُنْبَثًّا .

وقرأَ السَّبعة والحسن والمدنيون وطلحة والناس : ﴿ وَلَا يَسْأَلُ ﴾ على بناءِ الفعل للفاعل ، و « الْحَمِيمُ » - في هذا الموضع - : القريبُ والوليُّ ، فالمعنى : ولا يسأَله نُصرة ولا منفعة لعلمه أنه لا يجدها عنده ، قال قتادة : المعنى : ولا يسأَله عن حاله لأَنها ظاهرة ، قد بصر كل أَحد حالة الجميع وشُغل بنفسه ، وقرأَ ابن كثير - من طريق السُّدِّي - وأَبو جعفر وشيبة - بخلاف عنهما - وأَبو حيوة : ﴿ وَلَا يُسْأَلُ ﴾ على بناءِ الفعل للمفعول ، فالمعنى : ولا يُسأَل إِبصاره ؛ لأَن كل مجرم له سيما يُعرف بها ، وكذلك كل مؤمن له سيما خير ، وقيل : المعنى : لا يُسأَل عن أَعماله وذنوبه ليؤخذ بها وَلِيُّهُ وَوَزَرُه .

و [يُبَصَّرُونَهُمْ] - على هذه القراءات - قيل : معناه : في النار ،

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : في المحشر يبصر المجرم حميمه ثم يفر عنه لشغله بنفسه ، تقول : بَصُر فلان بالشيء وبَصَّرتُه به : أَرَيْتُه إِيَّاه ، ومنه قول الشاعر :

إذا بَصَّرْتُكِ الْبَيدْاءَ فاسْري وَأَمَّا الآنَ فاقْتَصِدي وَقيلي (١)

وقرأ قتادة : [يُبْصِرُونَهُمْ] بسكون الباءِ وكسر الصاد خفيفة ، وقال مجاهد : [يُبْصِرُونَهُمْ] معناه : يُبصر المؤمنون الكفار في النار ، وقال ابن زيد : يُبصر الكفارُ من أَضلَّهم في النار عبرةً وإشفاقاً عليهم وخزياً لهم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(١) بَصَّرها : جعلها تعرف وتدرك أحوالها ودروبها ، والسُّرى : السَّيْر ليلاً ، والاقتصاد : عدم الإفراط في الجهد ، وقيلي : استريحي في وقت القيلولة ، أي وقت الظهر ، يقول لناقته : إذا أنا دَلَلْتُكِ على الطريق فأسرعي بالسير ليلاً في الصحراء ، أما الآن ونحن في وقت القيلولة فاستريحي وقللي جهدك .

المجْرْم ـ في هذه الآية ـ : الكافر ، بدليل شدة الوعيد وذِكْرِ « لَظَى » ، وقد يدخل مجرم المعاصي فيما ذكر من الابتداء . وقرأ جمهور الناس : [يَوْمِئِذٍ] بكسر الميم ، وقرأ الأَعرج بفتحها ، ومن حيث أُضيف إلى غير متمكن جاز فيه الوجهان ، وقرأ أَبو حيوة : (مِنْ عَذَابٍ) منوَّناً (يَوْمَئِذٍ) بفتح الميم ، « والصاحبة » ـ هنا ـ : الزوجة .

و « الْفَصِيلَةُ » ـ في هذه الآية ـ : قرابة الرجل الأَدنون ، مثال ذلك بنو هاشم مع النبي صلى الله عليه وسلم ، والفصيلة في كلام العرب أَيضاً : الزوجة ، ولكن ذِكْر « الصاحبة » في هذه الآية لم يُبق في معنى الفصيلة إلاَّ الوجه الذي ذكرناه . وقوله تعالى : (ثُمَّ يُنْجِيه) الفاعل هو الفداءُ الذي تضمنه قوله سبحانه : (لَوْ يَفتدي) ، فهو كالمتقدم الذكر ، وقرأ الزهري : [تُؤْويهُ] و [تُنْجِيهُ] برفع الهاءين .

وقوله تعالى : (كَلاَّ إِنَّها لَظَى) رَدٌّ لقولهم وما ودُّوه ، أَي : ليس الأَمر كذلك ، ثم ابتدأ الإِخبار عن « لَظَى » وهي طبقة من طبقات جهنم ، وفي هذا اللفظ تعظيم لأَمرها وهولها . وقرأ السبعة ، وأَبو جعفر والحسن ، والناس : [نَزَّاعَةٌ] بالرفع ، وقرأ حفص عن عاصم : [نَزَّاعَةً] بالنصب ، فالرفع على أَن يكون [لَظَى] بدلاً من الضمير المنصوب و [نَزَّاعَةٌ] خبر [إِنَّ] ، أَو على إِضمار مبتدأ ، أَي : هي نزاعةٌ ، أَو على أَن يكون الضمير في [إِنَّهَا] للقصة و [لَظَى] ابتداءً ، و [نَزَّاعَةٌ]

خبرٌ ، أَو على أَن يكون [لَظَى] خبر [إِنَّ] و [نَزَّاعَةٌ] بدلاً من [لَظَى] أَو على أَن يكون [لَظَى] خبراً و [نَزَّاعَةٌ] خبرٌ بعد خبر ، وقال الزجاج : [نَزَّاعَةٌ] رفع بمعنى المدح .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا هو القول بأَنها خبر ابتداءٍ تقديره : هي نَزَّاعَةٌ ؛ لأَنه إِذا تضمن الكلام معنى المدح أَو الذم جازلك القطع رفعاً بإِضمار مبتدأ ، أَو نصباً بإِضمار فعل . ومن قرأ بالنصب فذلك إِمَّا على مدح [لَظَى] كما قلنا ، وإِمَّا على الحال من [لَظَى] لما فيها من معنى التَّلَظِّي ، كأَنه تعالى قال : كلاَّ ، إِنَّها النار تَتَلَظَّى نزاعةً ، قال الزجاج : فهي حال مؤكدة .

و « الشَّوَى » جِلْد الإنسان ، وقيل : جلد الرأس والهامة ، قاله الحسن ، ومنه قول الأَعشى :

قَالَتْ قُتَيْلَةُ ما لَـــــهُ   قَدْ جُلِّلَتْ شَيْبــاً شوَاتُهْ ؟ [1]

---

(١) البيت في اللسان ، والطبري ، والقرطبي ، والبحر المحيط ، وفتح القدير ، وقد قيل : هو من الأبيات المنسوبة للأعشى ، واستشهد به أيضاً أبو عبيدة في « مجاز القرآن » ، والشوى : جِلْدة الرأس ، والمفرد : شواة ، وقد أنشد الأخفش هذا البيت لأبي عمرو بن العلاء فقال له : صحفت ، وإنما هي : سَرَاتهُ ــ بالسين ــ أي جوانبه ، فسكت الأخفش ثم قال لمن حوله : بل هو الذي صحف وهي شواته .

ورواه أَبو عمرو بن العلاءِ : « سَرَاتُه » ، فلا شاهد في البيت على هذه الرواية ، قال أَبو عبيدة : سمعتُ عربياً يقول : « اقشعرَّت شَوَاتي » . والشَّوى أَيضاً قوائم الحيوان ، ومنه « عَبْلُ الشَّوىَ »(١) ، والشَّوى أيضاً كلُّ عضو ليس بمقتل ، ومنه « رَمَى فَأَشْوَى »(٢) إذا لم يُصب المقتل ، وقال ابن جبير : الشَّوى : العَصَب والعقِب ، فنارُ « لَظَى » تُذهب هذا من ابن آدم وتنزعه .

وقوله تعالى : (تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّ) يريد الكفار ، واختلف الناس في دعائها – فقال ابن عباس وغيره : هي حقيقة ، تدعوهم بأَسمائهم وأَسماءِ آبائهم ، وقال الخليل بن أَحمد : هي عبارة عن حرصها عليهم واسْتِدنائِهَا لهم وما توقعه من عذابها ، وقال ثعلب : [تَدْعــو] معناه : تُهلك ، تقول العرب : « دعاك الله » أَي أَهلكك ، وحكاه الخليل عن العرب .

و « أَوْعَى » معناه : جعله في الأَوعية ، تقول : وعيتُ العلم وأَوْعيت المال والمتاع ، ومنه قول الشاعر :

---

(١) الشَّوَى : جلدة الرأس ، والشَّوَى : اليدان والرجلان وأطراف الأصابع ، والشَّوَى : الشيءُ اليسير الهيِّن ، وفي اللغة شواهد كثيرة لهذه المعاني ، والعَبْل : الضخم من كل شيءٍ ، هو عبل الذراعَيْن ، وفرسٌ عَبْلُ الشَّوَى : ضخم القوائم .

(٢) أي : رَمَى فأصاب الأطراف وهي ليست بمقتل .

الْخَيْرُ يبقَى وَإِنْ طالَ الزَّمانُ بهِ والشَّرُّ أَخْبَثُ ما أَوْعَيْتَ مِنْ زادِ[١]

وهذه إشارة إلى كفار أَغْبياء جعلوا جمع المال وكيد أَمرهم ومعنى حياتهم ، فجمعوه من غير حِلٍّ ، ومنعوه من حقوق الله تعالى ، وكان عبد الله بن حكيم لا يربط كيسه ويقول : سمعتُ الله تعالى يقول : (وَجَمَعَ فَأَوْعَى) .

وقوله تعالى : (إِنَّ الإِنْسانَ) عموم لاسم الجنس ، لكن الإشارة هنا إلى الكفار لأَن الأَمر فيهم وكيد كثير ، و « الهَلَعُ » فزعٌ واضطراب يعتري الإِنسان عند المخاوف وعند المطامع ، ونحوُهُ قوله عليه الصلاة والسلام : (شَرُّ ما في العبد شُحٌّ هالِعٌ وَجُبْنٌ خَالِعٌ)[٢] ، وقوله تعالى : (إِلاَّ الْمُصَلِّينَ) معناه : إلاَّ المؤمنين الذين أَمْرُ الآخرة أَوكد عليهم من أَمر الدنيا ، والمعنى : إن هذا المعنى فيهم يقِلُّ لأَنهم يجاهدونه بالتقوى . وقرأَ الجمهور : (عَلَى صَلاَتِهِمْ) بالإِفراد ، وقرأَ الحسن :

---

(١) هذا البيت لِعَبيد بن الأبرص ، وهو من قصيدة له مطلعها :

طـافَ الْخَيالُ عَلَيْنا لَيْلَةَ الْوادي مِنْ أُمِّ عَمْرٍو ، وَلَمْ يُلْمِمْ لميعادِ

وهو في الديوان ، واللسان ، وقال محقق الديوان : إن هذا البيت لم يرد إلاّ في الخزانة والأغاني ، وأوعَيْتَ : حفظتَ في وعاءٍ ، وهو الشاهد هنا ، والمعنى : إن الخير يبقى على الزمن مهما طال ، وإن الشر هو أخبث ما حفظت وادخرت من زاد ، هذا والقصيدة كلها فيها اضطراب في ترتيبها وعدد أبياتها تجده في المراجع المختلفة .

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد، وأحمد في المسند (٢/٣٠٢)،عن أبي هريرة رضي الله عنه، والهَلَع : شدةُ الجزع الذي يجعل الانسان غير قادر على التصرف بحكمة أمام الخير والشر . والخالع : الذي كأنه يخلع فؤاده لِشدّته .

(عَلَى صَلَوَاتِهِمْ) بالجمع ، وقوله تعالى : [دَائِمُونَ] ، قال الجمهور : المعنى : مرابطون قائمون لا يخلون في وقت من الأَوقات بها فيتركونها ، وهذا في المكتوبة ، وأَما النافلة فالدوام عليها هو الإِكْثارُ مِنْهَا بحسب الطاقة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : (أَحبُّ العمل إلى الله ماداوم عليه صاحبه) (١) ، وقال ابن مسعود : الدوامُ : صلاتُها لوقتها ، وتَرْكُها كُفْر ، وقال عقبة بن عامر : [دائِمُونَ] : يَقِرُّون في صلاتهم ولا يلتفتون يميناً ولا شمالاً ، ومنه الماءُ الدائم (٢) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، ومسلم في المسافرين ، وأبو داود في التطوع ، والنسائي في قيام الليل ، وابن ماجه في الزهد ، وأحمد في أكثر من موضع في مسنده ، وهو عن عائشة رضي الله عنها ، وقد اختلفت أَلْفاظُهُ باختلاف الروايات، وفي البخاري عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها وعندها امرأة ، فقال : من هذه ؟ قالت : فلانة ، تذكر من صلاتها قال : مَهْ ، عليكم بما تُطيقون ، فوالله لا يملُّ الله حتى تملوا ،وكان أحبَّ الدِّين إليه ماداوم عليه صاحبه . (كتاب الإيمان) .

(٢) أي : الماءُ الساكن ، كما جاءَ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا يبولنَّ أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه) .

قال قتادة ، والضحاك ، وقوم : « الحقُ المعلومُ » هو الزكاة المفروضة . وقال ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد : هذه الآية في الحقوق التي سوى الزكاة ، وهي ما ندبت الشريعةُ إليه من المواساة ، وقد قال ابن عمر ، والشعلبي ، ومجاهد ، وكثير من أَهل العلم : إن في المال حقاً سوى الزكاة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا هو الأَصحُّ في هذه الآية ؛ لأَن السورة مكية وفرض الزكاة وبيانها إنما كان بالمدينة .

و « السائل » : المتكفِّف ، و « المحرومُ » : الذي قد ثبت فقره ولم تنجح سعايتهُ لدنياه ، قالت عائشة رضي الله عنها : هو الذي لا يكاد يتيَسَّر له مكسبه ، وقال بعض أَهل العلم : المحروم من احترق زرعه ، وقال بعضهم : المحروم من ماتت ماشيته .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذه أَنواع الحرمان ، لا أَن الاسم يلزمُ هذا خاصَّةً .

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : المحرومُ : الكَلْبُ ، أَراد ـ والله أَعلم ـ أَن يعطي مثالاً من الحيوان ذي الكبد الرطبة لما فيه من الأَجر حسب الحديث المأثور [١] ، وقال الشعبي : أَعياني أَن أَعلم مَن

(١) جاء هذا في حديث مشهور، رواه البخاري ، ومسلم، وأبو داود ، ومالك، وأحمد ، =

المحروم ، وحكى عنه النقاشُ أنه قال وهو ابن سبعين سنة : سأَلتُ عنه وأَنا غلامٌ فما وجدتُ شفاءً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

رحم الله تعالى الشعبي فإنه في هذه المسأَلة محروم ، ولو أَخذه اسم جنس فيمن عَسُرت مطالبه كان له ، وإنما كان يطلب نوعاً مخصوصاً كالسائل .

و « يَوْمُ الدِّين » هو يوم القيامة ، سُمِّي بذلك لأَنه يوم المجازاة ، والدِّين : الجزاءُ ، تقول العرب : « كما تُدِينُ تُدان » (1) . ومنه قول الِفنْد الزمَّانيِّ :

= عن أبي هريرة رضي الله عنه،أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (بينا رجل يمشي فاشتد عليه العطش فنزل بئراً فشرب منها ، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثَّرى من العطش، فقال : لقد بلغ هذا مثلُ الذى بلغ بي ، فملأ خُفَّه ثم أمسكه بفيه ثم رقي فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له ، قالوا : يارسول الله ، وإنَّ لنا في البهائم أجراً ؟ قال : في كل كبدٍ رَطْبة أجْرٌ) ، واللفظ للبخاري .

(1) هذا مثل معروف ، ومعناه : كما تُجازي الناسَ تُجازَى منهم ، يعني : إن فعلتَ حسناً كان جزاؤك من الناس حسناً ، وإن فعلت سيئاً كان جزاؤك سيئاً ، ويجوز أن يجري كلا الأمرين على الجزاء ، أي : كما تجازي أنت الناسَ على صنيعهم معَك كذلك تُجازَى على صنيعك معهم ،قال خُوَيْلد بن نوفل الكلابي يخاطب الحارث بن أبي شَمِر الغسَّانِيِّ وكان قد اغتصب ابنته :

يأيـّها الـمَلِكُ الـمَخُوفُ أما تـَرَى لـَيْلاً وَصُبْحاً كَيْفَ يَخْتَلِفانِ ؟
هَلْ تَسْتَطِيعُ الشَّمْسُ أن تَأْتي بِهَا لَيْلاً وَهَل لَكَ بالـمَليك يَدَانِ ؟
يـاجارِ أيْقن أنَّ مُلْكَكَ زائـلٌ واعلَمْ بأنَّ كَمَا تَدِينُ تُدانُ

ونلاحظ أن في البيت الأخير إقواءً .

وَلَـمْ يَبْقَ سِوَى الْعُدْوا نِ دِنَّاهُمْ كَمَا دَانُـوا[١]

و « الإشفاق » : الخوف من أمر يتوقع ؛ لأن نيل عذاب الله تعالى للمؤمنين متوقَّع ، والأكثر ناج بحمد الله تبارك وتعالى ، لكن عذاب الله عزَّ وجلَّ لا يأمنه إلاَّ من لا بصيرة له . و « الفروج » في هذه الآية هي الفروج المعروفة ، والمعنى : [يحفظونها][٢] من الزنى ، وقال الحسن ابن أبي الحسن : أراد فروج الثياب ، وإلى معنى الوطءِ يعود ، ثم استثنى تعالى الوطءَ الذي أباحه الشرعُ في الزوجات والمملوكات. وقوله تعالى : (إِلاَّعَلَى أَزْوَاجِهِمْ) ، حسَّن دخول « عَلَى » في هذا الموضع قولُه تعالى : (غَيْرُ مَلومينَ) ، فكأنه تعالى قال : إلا أنهم غير ملومين على أزواجهم وما ملكت أيمانهم .

وقوله تعالى : [ابْتَغَى] معناه : طلب ، وقوله سبحانه : (وَراءَ ذَلِكَ)

---

(١) الفِنْد الزمَّانيُّ اسمه شَهْلُ بن شيبان بن ربيعة بن زِمَّان ، والفِنْد: القطعة من الجبل ، وهو واحد من فرسان ربيعة المعدودين ، والبيت من قصيدة قالها في حرب البسوس ، وأورد أبو تمام قطعة من أوّلها في الحماسة ، وهو أيضاً في خزانة الأدب للبغدادي وفي المغني ، ومن أبيات هذه القصيدة :

صَفَحْنـا عَن بَني ذُهْـلٍ وقُلْنـا : الْقَومُ إخْـوانُ
فَلَمَّـا صَـرَّحَ الشَّرُّ فَأَضْحَى وَهْـو عُـريانُ
وَلَـم يَـبْقَ سِـوَى العُدْوا نِ دِنَّـاهُمْ كَمَـا دانُـوا

يقول : عفونا عنهم ، فلما انكشفت حقيقتهم وظهر الشرُّ واضحاً لم يبق أمامنا إلاّ أن نقاتلهم ونعتدي عليهم كما اعتدوا علينا .

(٢) زيادة لتوضيح المعنى .

معناه : سوى ما ذُكر ، كأَنه أَمْر قد حُدَّ فيه حَدٌّ فمن طلب بُغيته وراءَ الحدِّ فهو كمستقبل حدٍّ في الأَجرام وهو يتعدى وراءَه إلى خَلْفه ، و « العادون » : الذين يتجاوزون حدود الأَشياءِ التي لها حدود ، كان ذلك في الأَجرام أَو في المعاني .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

« الأَمانات » جمع أَمانة ، وجَمَعها لأَنها تكون متنوعة من حيث هي في الأَموال والأَسرار ، وفيما بين العبد وربِّه سبحانه فيما أَمَرَهُ به ونهاه عنه ، قال الحسن : الدين كلُّه أَمانة ، وقرأَ ابن كثير وحده من السبعة : [لِأَمانَتِهِمْ] بالإِفراد ، و « العَهْدُ » : كلُّ ما تقلده الإِنسان من قول أَو فعل أَو مودة ، إِذا كانت هذه الأَشياءُ على طريق البِرِّ فهو عهد ينبغي رَعْيُه وحفظه ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم :

(حُسْن العهد من الإيمان)[1] . و [رَاعُونَ] جمع راع أَي حافظ .

وقوله تعالى : (وَالَّذينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ) معناه – في قول جماعة من المفسرين – أَنهم يحفظون ما يشهدون فيه ويتيقَّنونه ويقومون بمعانيه حتى لا يكون لهم فيه تقصير ، وهذا هو وصف من تمثيل النبي عليه الصلاة والسلام (عَلَى مِثْل الشمس فاشْهد)[2] ، وقال آخرون : معناه : الذين إذا كانت عندهم شهادة ورأَوْا حقاً يدرس ، أَو حُرمة لله تعالى تُنْتَهك قاموا بشهادتهم ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : شهادتهم في هذه الآية أَن الله تعالى وحده لا شريك له ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه قال : (خير الشهداءِ الذي يأَتي بشهادته قبل أَن يُسْأَلها)[3]. واختلف الناس في معنى هذا الحديث بحسب المعنيين اللذيْن ذكرنا في الآية : أَحدهما أَن يكون يحفظها متقنة فيأَتي بها ولا يحتاج أَن يستفهم عن شيءٍ منها ولا أَن يعارض ، والثاني إذا ما رأَى حقاً يعمل بخلافه وعنده في إحياءِ الحقِّ شهادةٌ ، وروي أَيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) الذي في البخاري في كتاب الأدب : « باب حُسْن العَهْد من الإيمان » ، وتحته حديث عن عائشة ، وغيرتها من خديجة رضي الله عنهما ، وفي الترمذي : « ما جاء في حسن العهد » . والذي ورد في العهد عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله : (آية المنافق ثلاث : إذا حدَّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر) .

(٢) لم أقف عليه .

(٣) أَخرجه ابن ماجه في الأحكام ، وأحمد في مسند ١٩٣/٥ ، ومُسْلم في كتاب الأقضية ، عن زيد بن خالد الجهني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أَلا أُخبركم بخير الشهداءِ ؟ الذي يأتي بشهادته قبل أَن يُسألها ، أَو يُخبر بشهادته قبل أَن يُسألها) .

أَنه قال : (سيأَتي قوم يَخُونون ولا يُؤْتمنون ، ويَشهدون ولا يُسْتشهدون ، ويظهر فيهم السِّمَن)[(١)] ، واختلف الناس في معنى هذا الحديث ـ فقال بعضهم : هم قوم مؤمنو ن يتعرضون ويحرصون على وضع أَسمائهم في وثائق الناس ، وينصبون لذلك الحبائل من زيٍّ وهيئة ، وهم غير عدول في أَنفسهم ، فيغرُّون بذلك ويضرُّون .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فهذا في ابتداءِ الشهادة لا في أَدائها ، ويجيءُ قوله عليه الصلاة والسلام : (وَلَايُستشهدون) ، أَي : وهم غير أَهل لذلك .

وقال آخرون من العلماءِ : هم شهود الزُّور ، يؤدونها والمشهود عليهم لم يُشهدهم ولا الآخر[(٢)] .

---

(١) أَخرجه البخاري في الشهادات ، وفضائل الصحابة ، والأيمان ، وأبو داود في السُّنة ، والترمذي في الفتن ، والنسائي في الأيمان ، وأَحمد في مسنده ٤/٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٣٦ ، ٤٤٠ ، ولفظه كما في البخاري : عن عمران بن حُصَيْن رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (خيركم قرني ، ثم الذين يَلُونهم ، ثم الذين يَلُونهم ـ قال عمران : لا أدري أَذكَر النبي صلى الله عليه وسلم بَعْدُ قرنين أو ثلاثة ـ قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن بعدكم قوماً يخونون ولا يُؤْتمون ، ويشهدون ولا يُستشهدون ، ويَنْذرون ولا يَفُون ، ويظهر فيهم السِّمَن) ومعنى قوله : (ويظهر فيهم السِّمَن) أنهم يتعاطون أسباب السِّمَن ويتوسعون في المآكل والمشارب التي تسبب السِّمَن . (راجع اللسان وكتاب النهاية في غريب الحديث لابن الأثير) .

(٢) في بعض النسخ : « هم شهود الزُّور لأنهم يؤدونها والحالُ لم تُشْهدهم ولا المشهود عليهم » .

وقرأ حفص عن عاصم : [بشَهادَاتِهِمْ] على الجمع ، وهي قراءة أَبي عبد الرحمن ، والباقون [بشَهادَتِهِمْ] على الإِفراد الذي هو اسم الجنس . و « المحافظة على الصلاة » : إِقامتها في أَوقاتها بشروط صحتها وكمالها ، وقال ابن جريج : يدخل في هذه الآية التطوع .

وقوله تعالى : (فَمالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبلَكَ مُهْطِعِينَ) الآية . نزلت لأَن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي عند الكعبة أَحياناً ويقرأُ القرآن ، فكان كثير من الكفار يقومُون من مجالسهم مسرعين إِليه يتسمَّعون قراءته ، ويقول بعضهم لبعض : شاعر وكاهن ومفتر وغير ذلك . و [قِبَلَكَ] معناه : فيما يَليك ، و « المهطع » : الذي يمشي مسرعاً إِلى شيءٍ قد أَقبل عليه ببصره ، قال ابن زيد : لا يطرف .

و [عِزِينَ] جمع عِزَة ، قال بعض النحاة : أَصلها عِزْوَة ، وقال آخرون منهم ، أَصلها عِزْهة وجمعت بالواو والنون عِوَضاً مما انحذف منها نحو سنة وسنون ، ومعنى العِزَة : الجمع اليسير ، فكأَنهم قالوا : ثلاثةً ثلاثةً ، أَو أَربعةً أَربعةً ، ومنه قول الراعي .

أَخَليفَةَ الرَّحْمنِ إِنَّ عَشيرَتي ... أَمْسىَ سَراتُهُمُ إِلَيكَ عِزِيناً(١)

(١) الشاعر هو حُصَيْن بن معاوية ، من بني نُمَير ، وكان يقال لأبيه في الجاهلية : معاوية الرئيسُ ، وكان سيداً ، وإنما قيل له : « الراعي » لأنه كان يصف راعي الإبل ، وقيل : سُمّي « راعي الإبل » ببيت قاله . والسرَاةُ : الأشراف الكرام ، وهي جمع سَرِيٍّ التي تعطي معنى =

وقال أَبو هريرة رضي الله عنه : خرج النبي صلى الله عليه وسلم على أَصحابه وهم حِلَقٌ متفرقون فقال : (مالى أَراكم عِزِينَ)[١] ؟

وقوله تعالى : (أَيَطْمعُ كُلُّ امْرِيءٍ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ) نزلت لأَن الكفار قالت : إِن كانت ثَمَّ آخرةٌ وجَنَّة فنحن أَهلها وفيها ؛ لأَن الله تعالى لم ينعم علينا في الدنيا بالمال والبنين وغير ذلك إِلاَّ لرضاه عنا . وقرأَ السبعة ، والحسن ، والجمهور : [يُدْخَلَ] بضم الياءِ وفتح الخاءِ على البناءِ للمفعول ، وقرأَ المفضل عن عاصم ، وابنُ يَعْمر ، وأَبو رجاءٍ ، وطلحة : [يَدْخُلَ] بفتح الياءِ وضم الخاءِ على بناءِ الفعل للفاعل ، وقوله تعالى : [كَلاَّ] رَدٌّ لقولهم وطمعهم ، أَي : الأَمر ليس كذلك .

ثم أَخبر تعالى عن خلقهم من نطفة قذرة ، وأَحال في العبارة عنها على علم الناس ، أَي : مَنْ خُلق من ذلك فليس بنفس خَلَقْه يُعطى الجنة ، بل بالأَعمال الصالحة إِن كانت ، وقال قتادة في تفسيرها : إِنما خُلقتَ من قَذَرٍ يابْن آدم فاتَّق الله تعالى ، وقال أَنَسٌ : كان أَبو بكر رضي

= المروءة والسخاء والشرف، وَعِزِينَ : متفرقون جماعات جماعات. وهي موضع الشاهد في البيت .

(١) أخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة ، وأخرج عبد بن حميد عن عُبادة بن أنس قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد فقال : (مالي أراكم عزين حِلَقاً حِلَق الجاهلية ، قعد رجل خلف أخيه) ، وأخرج عبد بن حميد ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن مردويه مثله عن جابر بن سمرة . (الدار المنثور) .

الله عنه إذا خطبنا ذكر مناتِنَ ابنَ آدم ، ومُرُورَهُ في مجري البول مرتين ، وكونَهُ نطفة في الرَّحِمِ ثم عَلَقة ثم مُضْغة إلى أن يخرج فيتلوَّث في نجاستِه طفلاً ، فلا يُقلع أبو بكر رضي الله عنه حتى يتقذَّر أحدنا نفسه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

قرأ الجمهور : (فَلاَ أُقْسِمُ) وذلك على أن تكون [لا] زائدة ، أو على أن تكون رداً لفعل الكفار وقولهم ، ثم يقع الابتداءُ بالقَسَم ، وقرأ ابن كثير : (فَلأُ قْسِمُ) دون ألف مفردة .

و « المشارقُ والمغارب » هي مطالع الشمس والقمر وسائر الكواكب وحيثُ تَغْرُب لأنها مختلفة عند التفصيل ، فلذلك جمع ، وقرأ عبدالله بن مسلم ، وابن محيصن : (بِرَبِّ الْمَشْرِقِ والْمَغْرِبِ) على الإفراد ، ومتي ورد المشرق والمغرب على الإفراد فهي عبارة عن موضع الشروق

وموضِع الغروب بجملته وإن كان يتفصل ، ومتى ورد المشرقان والمغربان فهي عبارة عن طرفي موضع الشروق وطرفي موضع الغروب . وأقسم الله تعالى في هذه الآية بمخلوقاته على إيجاب قدرته على أن تُبَدِّلَ خيراً من ذلك العالم ، وأنه لا يسبقه شيءٌ إلى إرادته .

وقوله تعالى : (فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا) الآية وعيدٌ ، وما فيه من معنى المهادنة فمنسوخ بآية السيف ، ورُوي عن ابن كثير أنه قرأ : [يَلْقَوْا] بغير ألف ، وهي قراءة أبي جعفر ، وابن محيصن .

و (يَوْمَ يَخْرُجُونَ) بدل من قوله تعالى : (يَوْمَهُمُ) ، وقرأ الجمهور : [يَخْرُجونَ] بفتح الياءِ وضمِّ الراءِ ، وروى أبو بكر عن عاصم ضَمَّ الياءِ وفتحَ الراءِ .

و « الْأَجْداثُ » : القبور . و « النُّصُب » : ما نُصب للإنسان فهو يقصد مسرعاً إليه من عَلَم أو بناءٍ أو صَنَم لأهل الأصنام ، وقد كثر استعمال هذا الاسم في الأصنام حتى قيل لها : الأنصاب ، ويقال لشبكة الصائد : نُصُب ، وقال أبو العالية : (إِلَىَ نُصُبٍ يُوفِضُونَ) معناه : إلى غايات يستبقون ، وقرأ جمهور السبعة وأبو بكر عن عاصم : [نَصْب] بفتح النون[1] ، وهي قراءة أبي جعفر ، ومجاهد ، وشيبة ، وابن وثاب ،

---

(١) مع سكون الصاد ، نص على ذلك كل من القرطبي وأبي حيان في تفسيريهما .

والأعرج ، وقرأ الحسن ، وقتادة ـ بخلاف عنهما ـ : [نُصْب] بضم النون[1] ، وقرأ ابن عامـر ، وحفص عن عاصم : [نُصُب] بضم النون والصاد ، وهي قراءة الحسن عن أبي العالية ، وزيد بن ثابت ، وأبي رجاءٍ . وقرأ مجاهـد ، وأبو عمران الجوني : [نَصَب] بفتح النون والصاد .

و [يُوفِضُونَ] معناه : يسرعون ، ومنه قول الراجز :

لأَنْعَتَنْ نَعامَةً مِيفا ضـا خَرْجاءَ ظَلَّت تَطْلُبُ الْإِ ضاضَا[2]

و [خاشِعَةً] نصب على الحال ومعناه : ذليلةً منكسرة ، و [تَرْهَقُهُمْ] معناه : تظهر عليهم وتُلِحُّ وتُضَيِّق نفوسهم ، ومن هذه اللفظة « الْمُرَهَّق »

---

(١) مع سكون الصاد ، قال ذلك أبو حيان في « البحر المحيط » .

(٢) هذا الرجز في اللسان (أضَضَ ـ وَ وَ فَضَ) ، واستشهد به أبو حيان الأندلسي في « البحر » ، وكذلك ذكره الفراء في « معاني القرآن » . ولم ينسب أحدٌ هذا الرجز ، والنعامةُ الميفاضُ : المُسْرِعةُ ، والخَرْجاءُ هى التى فيها لونان سوادٌ وبياضٌ ، وقيل : التي لون سوادها أكثر من بياضها ، يقال : اخرَجَّت النعامةُ فهي خَرجاء ، والإضاضُ هو الملجأ ، قال الفراءُ : « تطلب الإضاضا » معناه : تطلب موضعاً تدخل فيه وتلجأُ إليه ، وفي الطبري واللسان « تغدو » بدلاً من « تطلب » . يصف الشاعر النعامة بأنها سريعة، وبأن لونها بين السواد والبياض، وبأنها خائفة تطلب ملجأً تلجأُ إليه .

من السادة بحوائج الناس [1] ، و « المُرْهَقُ » بالدَّيْن [2] ، « وخُلُقٌ فيها رَهَق » أيْ إسراعٌ إلى الناس ، و « سَيْفُ فلان فيه رَهَق » ، ومنه « مراهقة الأَحلام » ، و « إرهَاقُ الصلاة » أَي مزاحمة وقتها [3] .

تم تفسير سورة المعارج والحمد لله رب العالمين

(١) قال في اللسان : الـمُرَهَّقُ : الذي يغشاهُ السؤالُ والضِّيفان ، قال ابن هَرْمة :
خَيرُ الرِّجال الـمُرَهَّقُونَ كَمَا خَيْرُ تلاعِ البِلادِ أكْلَؤُهَا

(٢) وفي اللسان أيضاً : رَهِقَه دَيْنٌ فهو يَرْهَقُه إذا غَشِيَهُ .

(٣) وفيه أيضاً : « وأَرْهَقْنَا الصلاةَ » : أخَّرناها حتى دنا وقتُ الأُخرى، وفي حديث ابن عمرو : «وأرهقنا الصلاةَ ونحن نتوضأُ » أي أَخرناها عن وقتها حتى كدنا نُلحقها بالصلاة الأخُرى ، ورهِقَتْنا الصلاةُ رَهَقاً : حانت .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٧١) سورة نوح مكية
وآياتها ثمان وعشرون

وهي مكية بإجماع من المتأولين ، قال أُبَيٌّ بن كعب : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من قرأ سورة نوح كان من المؤمنين الذين تدركهم دعوة نوح)[1] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾

(١) لم أقف عليه .

نوحٌ عليه السلام هو نوح بن لامك (١) ، وقد مرَّ ذكره وذكر عمره صلى الله عليه وسلم ، وصُرف « نوحٌ » مع عُجمته وتعريفه لِخِفَّته وسكون الوسط من حروفه .

قوله تعالى : (أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ) ، يحتمل أن تكون [أَنْ] مفسِّرة لا موضع لها من الإعراب ، ويحتمل أن يكون التقدير : بأَن أَنذر قومك ، وهي - على هذا - في موضع نصب عند قوم من النحاة ، وفي موضع خفض عند آخرين ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود : « إِلَى قَوْمِهِ أَنْذِرْ قَوْمَكَ » دون « أن » ، و « العذاب الذي تُوُعِّدوا به » يحتمل أن يكون عذاب الدنيا ، وهو الأَظهر والأَليق بما يأْتي بعد ، ويحتمل أن يكون عذاب الآخرة

وقرأَ جمهور السبعة : (أَنُ ٱعْبُدُوا) بضم النون من [أَن] إتباعاً لضمة الباءِ وتَرْكاً لمراعاة الحائل لخفَّة السكون ، فهو كأَن ليس ثَمَّ حائل ، وقرأَ عاصم ، وحمزة ، وأَبو عمرو - في رواية عبد الوارث - : (أَنِ اعْبُدُوا) بكسر النون ، وهذا هو الأَصل في التقاءِ الساكنين من كلمتين ، و [يَغْفِرْ] جواب الأَمر ، وقوله سبحانه : (مِنْ ذُنُوبِكُمْ) قال قوم : [مِنْ] زائدة ، وهذا نحوٌ كوفي ، وأَما الخليل وسيبويه فلا يجوز عندهما

---

(١) هو نوح بن لامك بن مُتَوَشْلِخ بن أَخنوخ - وهو إدريس - بن يرد بن مهلايل ابن أَنوش بن قَينان بن شيث بن آدم عليه السلام . هكذا ذكر المفسرون .

زيادتها في الواجب ، وقال قوم : هي لبيان الجنس ، وهذا ضعيف لأَنه ليس هنا جنس يُبَيَّن ، وقال آخرون : هي بمعنى « عن » ، وهذا غير معروف في أَحكام « مِنْ » ، وقال آخرون : هي لابتداءِ الغاية ، وهذا قول يَتَّجه ، كأَنه يقول : يبتدئُ الغُفران من هذه الذنوب العظام التي لهم ، وقال آخرون : هي للتبعيض ، وهذا عندي أَبْين الأَقوال ، وذلك أَنه لو قال : «يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ» لعَمَّ هذا اللفظ ما تقدم من الذنوب وما تأَخرعن إيمانهم ، والإِسلام يجبُّ ما قبله ، فهي بعضٌ من ذنوبهم ، فالمعنى : يغفر لكم من ذنوبكم ، وقال بعض المفسرين : أَراد : يغفر لكم من ذنوبكم المهمَّ الموبق الكبير ؛ لأَنه أَهم عليهم ، وبه ربما كان اليأْسُ عن الله تعالى قد وقع لهم ، وهذا قولٌ مُضَمَّنه أَن [مِنْ] للتبعيض ، والله تعالى الموفق . وقرأَ أَبو عمرو : (يَغْفِر لكُمْ) بالإِدغام ، ولا يجيز ذلك الخليل وسيبويه ؛ لأَن الراءَ حرف مكرر فإِذا أُدغم في اللام ذهب التكرير واختلَّ المسموع .

وقوله تعالى : (وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلىَ أَجَلٍ مُسَمًّى) مما تَعَلَّلت المعتزلة به في قولهم : « إِن للإِنسان أَجلين » ، وذلك أَنهم قالوا : لو كان واحداً مُحَدَّداً لما صحَّ التأْخير إن كان الحدُّ قد بلغ ، ولا المعاجلة إِن كان الحدُّ لم يبلغ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وليس لهم في الآية تعلُّق ؛ لأَن المعنى أَن نوحاً عليه السلام لم يعلم هل هم مِمَّن يؤخر أَو ممن يعاجل ، ولا قال لهم إِنكم تؤخرون عن أَجل قد حان

لكم ، لكن قد سبق في الأزل أنهم إمَّا مِمَّن قُضي له بالإيمان والتأخير ، وإمَّا مِمَّن قُضي عليه بالكفر والمعاجلة ، ثم تشدَّد هذا المعنى ولاح بقوله : (إِنَّ أَجَلَ اللهِ إذا جاءَ لاَ يُؤَخَّر) .

وقد حكى مكيٌّ القول بالأَجلين ولم يُقَدِّرْ قدره . وجواب [لَوْ] مُقدَّر يقتضيه المعنى ،كأَنه قال : فما كان أَحزمكم وأَسرعكم إِلى التوبة لو كنتم تعلمون .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ ﴾

هذه المقالة قالها نوح عليه السلام بعد أَن طال عمره وتحقق اليأْس من قومه ،وقوله : (لَيْلاً وَنَهاراً) عبارة عن استمرار دعائه وأَنه لم يَنِ فيه قط . ويروى عن قتادة أَن نوحاً عليه السلام كان يجيئه الرجل من قومه بابنه فيقول لابنه : يابني احذر هذا الرجل فإن أَبي قد حذرني إياه ويقول إنه مجنون . وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ،وابن عامر : [دُعَائِيَ]

بالهمز وفتح الياءِ ، وقرأَ عاصم ، وحمزة ، والكسائي بسكون الياءِ دون همز ، وروى شبل عن ابن كثير : [دُعَايَ] بنصب الياءِ دون همز مثل « هدايَ » ، وقرأَ عاصم أَيضاً ، ويعقوب ، وسلام بهمزة وياءٍ ساكنة .

وقوله تعالى : (وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغفِرَ لَهُمْ) معناه : ليؤمنوا فيكون ذلك سبب الغفران ، وقوله سبحانه : (جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ في آذانِهِمْ) يحتمل أَن يكون حقيقة ويحتمل أَن يكون عبارة عن إعراضهم وشدة رفضهم لأَقواله ودعائه ، وكذلك قوله تعالى: (واسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ) ، ومعناه : جعلوها أَغطية على رءوسهم . و « الإِصرارُ » : الثبوت على معتقدًّا ، وأَكثر استعماله في الذنوب .

ثم كرر صلى الله عليه وسلم صفة دعائه لهم بياناً وتوكيداً ، و[جِهاراً] يريد علانيةً في المحافل ، و « الإِسرارُ » ما كان من دعائه الأَفراد بينه وبينهم على انفرادٍ ، وهذا غاية الجد . وقوله : (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ .... يُرْسِلِ السَّماءَ) يقتضي أَن الاستغفار سبب لنزول المطر في كل أُمة ، ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أَنه استسقى بالناس فلم يزد على أَن استغفر ساعةً ثم انصرف ، فقال له قوم : ما رأَيناك اسْتَسْقيت ياأَمير المؤمنين ، فقال : والله لقد استنزلت المطر بمجاديح السماءِ (١) ، ثم قرأَ هذه الآية رضي الله

(١) مجاديحُ السماء : أنواؤها ، يقال : أرسلت السماءُ مجاديحها ، والمفرد : مِجْدح وهو نجم من النجوم كانت العرب تزعم أنها تمطر به ، وعمر رضي الله عنه أراد بقوله أن يُبْطل الأنواءَ وأن يكذب بها ، وأن يقول لهم : إن الاستغفار هو الذي يُستسقى به وليست النجوم .

عنه ،وشكا رجل إلى الحسن الجدب فقال له : استغفر الله تعالى ،وشكا إليه آخر الفقر فقال له:استغفر الله سبحانه ،وقال له آخر:ادع الله تعالى أن يرزقني ولداً ،فقال له:استغفر الله تعالى ، فقيل له في ذلك فنزع بهذه الآية . والاستغفار الذي أحال عليه الحسن ليس هو عندي لفظة الاستغفار فقط ، بل الإخلاص والصدق في الأقوال والأعمال ،وكذلك كان استغفار عمر رضي الله عنه .

ورُوي أن قوم نوح عليه السلام كان قد أصابتهم قحوط وأزمة فلذلك بدأهم في وعده بأمر المطر ثم ثنىَّ بالأموال والبنين ، قال قتادة : لأنهم كانوا أهل حب للدنيا وتعظيم لأمرها ، فاستدعاهم الله تعالى إلى الآخرة من الطريق التي يحبونها . و « مِدْرار » مفعال من « الدَّرِّ » كمذكار وميقات ، وهذا البناءُ لا تلحقه هاءُ التأنيث .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾

وعدهم بالأموال والبنين والجنات والأنهار لمكان حبهم للدنيا ، واختلف الناس في معنى قوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام : ﴿ مَالَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً ﴾ ـ فقال أبو عبيدة وغيره : معناه : تخافون ، ومنه قول الهذلي :

إذا لَسَعَتْهُ النّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا وَخالَفَها في بَيْتِ نُوبٍ عَوامِلِ (١)

قالوا : و « الوَقارُ » بمعنى العظمة والسلطان ، فكأن الكلام ـ على هذا ـ وعيدٌ وتخويفٌ . وقال بعض العلماء : [تَرْجونَ] على بابها في الرجاء ، وكأنه قال : ما لكم لا تجعلون رجاءَكم لله تعالى وللقائه ، و [وَقاراً] يكون ـ على هذا التأويل ـ منهم ، كأنه يقول : تُؤَدَةً منكم وتمكُّنا في النظر ؛ لأن الكفر مُضَمَّنه الخفة والطيش وركوب الرأس .

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ ، قال ابن عباس ، ومجاهد :

---

(١) هذا البيت لأبي ذُؤَيْب الهُذلي ، واسمه خُويلد بن خالد بن مُحَرِّث ، وهو من قصيدته المشهورة (أَسأَلْتَ رَسْمَ الدَّارِ أمْ لَمْ تَسْأَلِ) ؟

وفيه يصف الشاعر كيف يجمع الرجل الماهر عسل النحل من أعلى الجبل . ومعنى (لَم يَرج) لم يخف ، وهو موضع الاستشهاد هنا ، وخالَفَها : جاء إلى عَسَلِها وهى ترعى بعيداً ، و « نُوب » معناها : تنتاب المرعى فتأكل ثم ترجع فتصنع العسل ، و « عوامل » تعمل العسل ، وكان الشاعر يتحدث عن حبيبته فقال : إن حديثها مثل العسل الممزوج باللبن ، ثم بدأ يتحدث عن العسل ، وأن النحل تعيش في أعلى قمة في الجبل فلا يستطيع الوصول إليها إلا حاذق ماهر ، يصعد إليها على الحبال ، وإذا لسعته النحل فإنه لا يخاف هذا ، وهو يتحين الوقت الذي تخرج فيه إلى المرعى بعيداً فيأتي إلى عسلها ليجمعه من بيت كل من فيه يعمل .

هي إشارة إلى التدريج الذي للإنسان في بطن أُمِّه من النطفة والعلقة والمضغة ، وقال جماعة منْ أهل التأْويل: هي إشارة إلى العبرة في اختلاف أَلوان الناس وخَلْقهم وخُلُقهم ومِلَلِهم ، و « الأَطوارُ » : الأَحوال المختلفة ، ومنه قول النابغة :

فَإِنْ أَفاقَ فَقَدْ طارَتْ عَمايَتُهُ وَالمرْءُ يُخْلَقُ طَوْراً بَعْدَ أَطْوَارِ (١)

وقرأ الجمهور : (أَلَمْ تَرَوْا) بالتّاء ، وقرأَت فرقة بالياءِ على فعل الغائب ، و [طِبَاقاً] قيل : هو مصدر ، أَي مطابقة ، جعل كل واحدة طبقاً للأُخرى ، ونحوه قول امريءِ القيس :

.... طَبَّقَ الْأَرْضَ تَحَرَّى وَتَدِرْ (٢)

---

(١) هذا البيت من قصيدة نابغة بني ذبيان التي بدأها بقوله : (عُوجُوا فَحَيُّوا لِنُعْمٍ دِمْنَةَ الدّار)، يصف بيت « نُعْمٍ » حبيبته بعد أن رحلت عنه ولم تترك غير الذكريات الحلوة ، والضمير في (أفاق) يعود على قلبه ، والعَمَاية : الضّلال ، يقول : لَولاَ ما كان بيني وبين نُعْم من صلات ومحبة لأقصر قلبي عن حبها ، فإن أفاق من الهوى فلا عجب في ذلك فقد طالت ضلالته ، والمرءُ يمكن أن يتبدل وتتغير أحواله ، فهو كقول الآخر : (صحا القلبُ عن سلمى وأقصر باطله) .

(٢) هذا عَجُز بيت جعله امرؤ القيس مطلع أبيات يصف فيها مطراً دام عليهم يوماً وليلة ، والبيت بتمامه :

دِيمَــةٌ هَطْــلاءُ فيهــا وَطَــفٌ طَبَّــقَ الْأَرْضَ تَحَرىَ وَتَــدِرْ

والدّيمة : المطر الذي دام يوماً وليلة ، أو يدوم طويلاً في سكون ، وهَطْلاء : تتابع =

وقيل: هو جمع « طبق » ، وهو نعت لـ « سَبْع » ، وقرأ ابن أَبي عبلة : [طباقٍ] بالخفض على النعت لـ[سَمَوات] ، وقوله تعالى: (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً) ساغ ذلك لأَن القمر من حيث هو في إحداها فهو في الجميع ، ويُروى أَن القمر في السماءِ الدنيا ، وقال عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم : إن الشمس والقمر أَقفاؤهما إلى الأَرض وإقبال نورهما وارتفاعه في السماءِ ، وهذا الذي تقتضيه لفظة السراج ، وقيل : إن الشمس في السماءِ الخامسة ، وقيل : في الرابعة ، وقال عبد الله ابن عمرو : هي في الشتاءِ في الرابعة ، وفي الصيف في السابعة .

وقوله تعالى: (وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً) استعارة ، من حيث أَخذ آدم عليه السلام من الأَرض ثم صار الجميع نَابتاً منه ، وقوله : [نَباتاً] مصدر جار على غير المصدر ، والتقدير : فَنَبَتُّم نباتاً ، و « الإعادة فيها » هي بالدفن فيها الذي هو عُرف البشر ، و « الإخراجُ » هو بالبعث يوم القيامة لموقف العرض والجزاءِ .

وقوله تعالى: [بِسَاطاً] يقتضي ظاهره أَن الأَرض بسيطة وغير كُرويَّةٍ ، واعتقاد أَحد الأَمرين غير قادح في الشرع بنفسه اللهم إلاَّ أَن يتركب على

= ماؤُها متفرقاً ، والوَطَف : القُرْب من الأرض مع كثْرة الماء ، فالسحابة التي ينزل منها المطر قريبة من الأرض وغزيرة الماء ، وطَبَّق الأرْضَ : عمها وشملها كلها ، وتحرَّى : تقصد حِرَاهم وهو الفناءُ ، ومعنى تَدِر : تعتمد المكان وتثبت فيه .

القول بالكرويَّة نظر فاسدٌ ، وأَما اعتقاد كونها بسيطة فهو ظاهر كتاب الله تعالى ، وهو الذي لا يلحق عنه فساد البَتَّةَ ، واستدل ابن مجاهد على صحة ذلك بماءِ البحر المحيط بالمعمور فقال : لو كانت الأَرض كرويَّة لما استقر الماءُ عليها . و « السُّبُلُ » : الطُّرق ، و « الفجاجُ » : الواسعة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ ﴾

المعنى : فلما لم يطيعوا ويئس نوح عليه السلام من إِيمانهم قال نوح : ربِّ إِنهم عصوني واتَّبعوا أَشرافهم وغُواتهم ، فعبَّر عنهم بأَن أَموالهم وأَولادهم زادتهم خساراً ، أَيْ خُسرانا .

وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، ونافع ـ في رواية خارجة عنه ـ : [وَوُلْدُهُ] بضم الواو وسكون اللام ، وهي قراءة ابن الزبير ، والحسن ، والأَعرج ، والنخعي ، ومجاهد . وقرأَ نافع ، وعاصم ، وابن عامر : [وَوَلَدُهُ] بفتح الواو واللام وهما بمعنى واحد كبُخْلٍ وبَخَلٍ ، وهي

قراءة أَبي عبد الرحمن ، والحسن ، وأَبي رجاءٍ ، وابن وثاب ، وأَبي جعفر ، وشيبة ، وقرأَ : [وَوِلْدُهُ] بكسر الواو الجحدريُّ ، وزرٌّ ، والحسن ، وابن أَبي إسحق ، وطلحة ، قال أَبو عمرو : « وُلْدٌ » بضم الواو وسكون اللام : العشيرة والقوم ، وقال أَبو حاتم : يمكن أَن يكون « الوُلْد » بضم الواو جمع « الوَلَد » وذلك كخُشْب وخَشَب ، وقال حسّان بن ثابت :

يابِكْرَ آمِنَةَ الْمُبارَكِ ذِكْـرُهُ   مِنْ وُلْدِ مُحْصَنَةٍ بِسَعْدِ الأَسْعُدِ (١)

وقرأَ جمهور الناس : [كُبَّاراً] بشد الباءِ ، وهو بناءُ مبالغة نحو حسّان ، قال عيسى : هي لغة يمانية ، وعليها قول الشاعر :

والمرءُ يُلْحِقُهُ بِفتْيانِ النَّـدَى   خُلُقُ الْكَرِيمِ وَلَيْسَ بالْوُضَّاءِ (٢)

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها حسان في رثاء النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقول في مطلعها :

مَـا بـالُ عَيْنِي لاَ تَنـامُ كَأَنَّما   كُحِلَت مآقيهـا بِكُحْلِ الأَرْمَدِ

وآمنة هي أم النبي عليه الصلاة والسلام ، وهي بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، والقصيدة في الديوان وفي سيرة ابن هشام والرواية فيهما : « المبارك بِكْرها » ، وكذلك ورد فيها : « ولدته محصنة » بدلاً من « من وُلْد مُحْصَنَة » ، وعلى هذا فلا شاهد فيه . والْمُحْصَنَةُ : العفيفة ، وفي القرآن الكريم (والْمُحْصَنَاتُ مِنْ النِّساءِ) ، والأَسْعُد : جمع سَعْد ، وهو اسم لطائفة معروفة من النجوم سُمِّى كل واحد منها سَعْداً وأُضيف أو وُصف بما يميزه عن غيره ، ويقال فيها « السُّعود » ، كذلك يقال : « سَعْد السُّعُود » ، والشاعر يصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه نجم هذه النجوم .

(٢) هذا البيت لأبي صَدَقَةَ الدُّبيْري ، وهو في اللسان ــ وضأ ــ ، والوضاءة هى =

بضم الواو ، وقرأ ابن مُحَيْصِنٍ ، وعيسي بن عمر : [كُبَاراً] بتخفيف الباءِ ، وهو بناءُ مبالغة إلاَّ أنه دون الأَول ، وقرأ ابن مُحَيْصِنٍ - فيما روى عنه أَبو الإخريط وهب بن واضح - : [كِباراً] بكسر الكاف ، قال ابن الأَنباري : هو جمع كبير ، فكأَنه جعل [مَكْراً] مكان ذُنوب وأَفاعيل ونحوه [(١)] .

وقوله تعالى : (وَقالوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ) إِخبارٌ عن تواصيهم بأَصنامهم على العموم ، ما كان منها مشهور المكانة ، وما كان منها يختص بواحد من الناس ، ثم أَخذوا يَنُصُّون على المشهور من الأَصنام ، وهذه الأَصنام رُوي أَنها أَسماءُ رجال صالحين كانوا في صدر الدنيا ، فلما ماتوا صوَّرهم أَهل ذلك العصر من حجر وقالوا : ننظر إليها فنذكر أَفعالهم ، فهلك ذلك الجيل وكثرُ تعظيم الآخر لتلك الحجارة ثم كذلك حتى عُبدت ثم انتقلت تلك الأَصنام بأَعيانها - وقيل : بل بالأَسماءِ فقط - إلى قبائل من العرب ، فكانت « وَدٌّ » في كلب بدُومَة الجندل ، وكانت « سُوَاعُ » في هُذَيْل ، وكانت « يَغُوثُ » في مُراد ، وكانت « يَعُوقُ » في هَمَدان ، وكانت « نَسْرُ » في ذي الكَلاَعِ مِنْ حِمْيَر .

= الحسن والنظافة والبهجة ، يقال : هذا رجل وضيء ، وهومن قوم أوضياء ووَضاء ووُضَّاء ، وجمع وُضَاء : وُضَّاءون ، ومعنى البيت أن الإنسان ينسب إلى الكرام ويكون منهم بالخلق الكريم لا بالحسن والنظافة .

(١) يعني أن قوله تعالى : (مَكْراً) معناه « ذنوب » ، ولهذا جاء وصفه بالجمع وهو (كِباراً) على هذه القراءة .

وقرأ نافع وحده – ورُويت عن عاصم – : [وُدًّا] بضم الواو ، وقرأ الباقون(١) ، والأعمش ، والحسن ، وطلحة ، وشيبة ، وأبو جعفر – بخلاف عن الثلاثة – : [وَدًّا] بفتح الواو ، قال الشاعر :

حَيَّاكَ وَدٌّ فَإِنَّا لايَحِلُّ لَنَــــا لَهْوُ النِّساءِ وَإِنَّ الدِّينَ قَدْ عَزَمَا(٢)

فيقال : إنه أراد ذلك الصنم ، ويروى بضم الواو وفتحها .

وقرأ الأعمش : (وَلاَ يَغوثاً وَيَعُوقاً) بالصرف ، وذلك وهْم لأَن التعريف لازم ووزن الفعل . وقوله : (وَقَدْ أَضَلُّوا كَثيراً) هو إخبار نوح عليه السلام عنهم ، وهو منقطع مما حكاه عنهم ، والمعنى : وقد أَضل هؤلاءِ القائلون كثيراً من الناس والأَتباع والعوام ، ثم دعا عليهم إلى الله تعالى بـأَلَّاَ يزيدهم إلاَّ ضلالاً ، وذكر الظَّالمين لتعُمَّ الدعوةُ كل من جرى مجراهم . وقال الحسن – في كتاب النقاش – : أَراد بقوله : (وَقَدْ أَضَلُّوا) الأَصنام المذكورة ، وعبَّر عنها بضمير من يعقل من

---

(١) أي الباقون من السبعة المعروفين .

(٢) وَدٌّ هو الصَّنَم الذي لقوم نوح ثم صار في قبيلة كلب بدومة الجندل ، وقيل : كان لقريش صنم يدعونه وُدًّا ، ومنه سُمّيَ « عَبْدُ وُدٍّ » ، والكلمة تنطق بفتح الواو وبضمها ، وقد تقال بالألف « أُدٌّ » ، ومعنى (إن الدِّين قد عزَمَ) أن أصحاب الدِّين قد عزموا ، فهو كقوله تعالى : (فَإِذا عَزَمَ الأَمْرُ) ، أي عَزَمَ أصحابه ، وقد يكون المعنى : جَدَّ الأمر وجدَّ الدين ، يقول الشاعر بعد أن حيَّا الصنم : إن الدِّين قد جَدَّ بنا وألزمنا أن نبتعد عن لهو النساء .

حيث يعاملها جمهور أَهلها معاملة من يعقل ويسند إِليها أَفعال العقل .

وقوله تعالى : (مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ) ابتداءُ إِخبار من الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم ، أَي إِن دعوة نوح عليه السلام أُجيبت فآلَ أَمْرُهم إِلى هذا ، و [ما] في قوله تعالى : [مِمَّا] زائدة ، فكأَنه تعالى قال : من خطيئاتهم أُغرقوا ، وهي لابتداءِ الغاية ، وقرأَ (مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ) على الإِفراد الجحدريُّ والحسن ، وقرأَ أَبو عمرو وحده ، والحسن ، وعيسى ، والأَعرج ، وقتادة – بخلاف عنهم – : (مِمَّا خَطَايَاهُمْ) على تكسير الجمع ، وقوله تعالى : (فَأُدْخِلوا ناراً) يعني جهنم ، وعبَّر عن ذلك بفعل المضي من حيث الأَمر متحقق ، وقيل : أَراد عرضهم على النار غُدُوًّا وعشِيًّا عبَّر عنه بالإِدخال ، وقوله تعالى : (فَلَمْ يَجِدُوا) أَي : لم يجد المغرقون أَحداً سوى الله تعالى ينصرهم ويصرف عنهم بأْس الله .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾

رُوي عن محمد بن كعب ، ومقاتل ، والربيع ، وابن زيد أَنَّ نوحاً عليه السلام لم يدع بهذه الدعوة إلاَّ بعد أَن أَخرج الله تعالى كل مؤمن من أَصلابهم ، وأَعقم أَرحام النساءِ قبل العذاب بسبعين سنة ، قال قتادة وبعد أَن أَوحى إليه أَنه لن يُؤمن من قومك إلا من آمن ، وقد كان قبل ذلك طامعاً فيهم حدباً عليهم ، وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم أَنه ربَّما ضربه ناسٌ منهم أَحياناً حتى يُغشى عليه فإذا أَفاق قال: اللهم أَغفر لقومي فإنهم لا يعلمون(١) . و « دَيَّار » أَصله دَيْوارٌ ، وهو فَيْعال من الدوران ، أَي من يجيء ويذهب ، يقال منه : دَوَّارٌ ووزنه فَعَّال ، ودَيَّارٌ ووزنه فَيْعالٌ وأَصله دَيْوَارٌ ، وهذا كالْقَوَّام والقَيَّام .

وقرأَ جمهور الناس: [وَلِوَالِدَيَّ] ، وقرأَ أُبَيُّ بن كعب: « ولِأَبَوَيَّ » ، وقرأَ سعيد بن جبير : (وَلَوالِدِي) بكسر الدال ، يخص أَباه بالدعوة ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : لم يكْفُر لنوح أَبٌ ما بينه وبين آدم عليهما السلام ، وقرأَ يحيي بن يَعْمَر ، والجحدريُّ : (وَلِوَلَدَيَّ) بفتح اللام والدال وشدِّ الياءِ مفتوحة ، وهي قراءة النَّخَعي ، يخصُّ بالدعاءِ ابنيه ، وبَيْتُه هو المسجد فيما قال ابن عباس وجمهور المفسرين ، وقال

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء والمرتدين ، ومسلم في الجهاد ، وابن ماجه في الفتن ، وأحمد في مسنده في أكثر من موضع ، ولفظه كما جاء في البخاري عن شقيق ، عن عبد الله : (كأني أنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه فأدْمَوهُ فهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : ربِّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون) ، ولم يصرح بأنه نوح عليه السلام ، بل جاء في كل هذه المراجع : (يحكي نبياً من الأنبياء) .

ابن عباس أَيضاً : بَيْتُه شريعته ودينه ، استعار لهما بَيْتاً ، كما يقال : قُبَّة الإِسلام وفُسْطاطُ الدين ، وقيل : أَراد سفينته ، وقيل : أَراد داره ، وقوله : ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ تعميم بالدعاء لمؤمني كل ملَّة ، وقال بعض العلماء : إن الذي استجاب لنوح عليه السلام فأَغرق بدعوته أَهل الأَرض الكفار لَجَدير أن يستجيب له فيرحم بدعوته المؤمنين . و « التَّبارُ » الهلاك وَذَهاب الرسم ، وقرأَ حفصٌ عن عاصم ، وهشامٌ وأَبُو قرة عن نافع : [بَيْتِيَ] بتحريك الياء ، وقرأَ الباقون بسكونها .

تم تفسير سورة نوح والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٧٢) سورة الجن مكية وآياتها ثمان وعشرون

وهي مكيَّةٌ بإجماع من المفسرين .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾

قرأ جمهور الناس : (قُلْ أُوحِيَ) من « أَوْحَى يُوحِي » ، وقرأ أَبو إِياس جُؤَيَّةُ بن عائذ : (قُلْ وُحِيَ) من « وَحَى يَحِي » ، و « وَحَى » و « أَوْحَى » بمعنى واحد ، وقال العجَّاج :

وَحَى لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتِ (١)

وقرأ أيضاً جُؤَيَّة فيما روى عنه الكسائيُّ - : (قُلْ أُحِيَ) ، أبدلت الواو همزة كما أبدلوها في وسادة وإسادة ، وغير ذلك ، وكذلك قرأ ابن أبي عبلة (٢) ، وحكى الطبري عن عاصم أنه كان يكسر كل ألف في السورة من « أنَّ » و « أنَّه » إلا قوله تعالى : (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ للهِ) ، وحكى عن أبي عمرو أنه كان يكسر من أوَّلها إلى . قوله تعالى : (وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا) فإنه كان يفتح هذه وما بعدها إلى آخر السورة ، فعلى ما حكى يلزم أن تكون الألف مكسورة في قوله تعالى : (أَنَّهُ اسْتَمَعَ) ، وليس ما ذكر بثابت . وذكر أبو عَلِيٍّ الفارسي أن ابن كثير ، وأبا عمرو فتحا أربعة أحرف من السورة وكسرا غير ذلك - (أَنَّهُ اسْتَمَعَ) ، (وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا) ، (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ للهِ) ، (وَأَنَّهُ لَمَّا قامَ) - وأن نافعاً وعاصماً - في رواية

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها العجاج في وصف الخالق سبحانه وتعالى وأعماله ويوم الحساب وأهواله ، وقيل إنه أنشدها أمام أبي هريرة رضى الله عنه ، وفيها يقول :

الْحَمْدُ لله الذّي تَعَلَّتِ ... بأمْرِه السَّماءُ واسْتَقَلَّتِ
بإذْنِهِ الأرْضُ وما تَعَنَّتِ ... أرْسَى عَلَيْها بالجبالِ الثُبَّتِ
وَحَى لَهَا الْقَرَارَ فاسْتَقَرَّتِ ... رَبُّ الْبلادِ والْعبادِ الْقُنَّتِ

فقال له أبو هريرة : إنك تؤمن بيوم الحساب ، هذا والعجاج من شعراء النصرانية .

(٢) قال أبو الفتح في « المحتسب » : « وأصله « وُحِيَ » ، فلما انضمت الواو ضماً لازماً همزت ، على قوله تعالى : (وَإِذا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ) ... وتقول على هذا : أُحِيَ إليه فهو مَوْحِيٌّ إليه ، فتُرَدُّ الواو لزوال الضمة عنها ، ومثله : أُعِدَ فهو موعود ، وأُرِثَ فهو مَوْرُوثٌ » .

أَبي بكر والمفضل ـ وافقاً في الثلاثة الأَولى وكَسَرَا (وَأَنَّهُ لَمَّا قامَ) مع سائر ما في السورة ، وذكر أَن ابن عامر وحمزة والكسائي كانوا يقرءون كل ما في السورة بالفتح إلَّا ما جاءَ بعد قول أَو فاءِ جزاءٍ ، وكذلك حفص عن عاصم ، فترتب إجماع القراءِ على فتح الأَلف من (أَنَّهُ اسْتَمَعَ) ، (وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا) ، (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ) ، وذكر الزهراوي عن علقمة أَنه كان يفتح الأَلف في السورة كلها .

واختلف الناسُ في الفتح من هذه الأَلفات وفي الكسر اختلافاً كبيراً يطول حصره وتقصِّي معانيه ـ قال أَبو حاتم : أَما الفتح فعلى « أُوحِيَ » فهو كله في موضـــع رفع على ما لم يُسَمَّ فاعله ، وأَما الكسر فحكاية وابتداءٌ وبعد القول .

وهؤلاءِ النفر من الجن هم الذين صادفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأُ ببطن نخلة في صلاة الصبح وهو يريد عكاظ [1] ، وقد تقدم

---

(١) أخرج أَحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن المنذر ، والحاكم ، والطبراني وابن مردويه ، وأَبو نعيم ، والبيهقي معاً في « الدلائل » ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : انطلق النبي صلى الله عليه وسلم في طائفة من أَصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماءِ وأُرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا : مالكم ؟ فقالوا : أُحيل بيننا وبين خبر السماءِ وأُرسلت علينا الشهب ، فقالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماءِ إلا شيءٌ حدث ، فاضربوا مشارق الأَرض ومغاربها فانظروا ما الذي حال بينكم وبين خبر السماءِ ، فانصرف أُولئك الذين ذهبوا نحو تِهَامَةَ إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأَصحابه صلاة الفجر ، =

قصصهم في سورة « الأَحقاف » في قوله تعالى : (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ)[(١)] ، وكان سبب ذلك حراسة السماءِ من استراق السمع .

وقول الجن : (إِنَّا سَمِعْنَا) الآيات هو خطاب منهم لقومهم الذين تولَّوْا إليهم منذرين ، و (قُرْآناً عَجَباً) معناه : ذو عجب ؛ لأَن العجب يقع من سامع القرآن لبراعته وفصاحته ومُضَمَّناته ، وليس نفس القرآن هو العجب ، وقرأَ جمهور الناس : (إِلَى الرُّشْدِ) بضم الراءِ وسكون الشِّين ، وقرأَ عيسى الثقفي : (إِلَى الرَّشَدِ) بفتح الراءِ والشين ، ومن كسر الهمزة من قوله تعالى : (وَأَنَّهُ تَعَالَى) فعلى القطع ، وتعطف الجملة على قولهم : (إِنَّا سَمِعْنَا) ، ومن فتح الأَلف من قوله تعالى : (وَأَنَّهُ تَعَالَى) فقد اختلفوا في تأْويل ذلك ، فقال بعضهم : هي عطف على (أَنَّهُ اسْتَمَعَ) ، فيجيءُ على هذا قولُه تعالى : (وَأَنَّهُ تَعَالَى) ممَّا أُمِر أَن يقول إِنَّه أُوحي إِليه ، وليس يكون من كلام الجن ، وفي هذا قلق ، وقال بعضهم : بل هي عطف على الضمير في [بِهِ] ، كأَنهم يقولون : فآمنا به وبأَنه تعالى جَدُّ ربنا ، وهذا القول أَبْيَن في المعنى لكن فيه من جهة النحو العطف على الضمير المخفوض دون إِعادة الخافض ، وذلك لا يحسن .

= فلما سمعوا القرآن استمعوا له ، فقالوا : هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا : ياقومنا ، إِنَّا سمعنا قرآناً عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نُشرك بربنا أحداً ، فأنزل الله على نبيه : (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنه اسْتَمَعَ نَفَرٌ منَ ٱلْجِنِّ) ، وإنما أُوحي إليه قول الجن .

(١) من الآية (٢٩) .

وقرأ جمهور الناس : (جَدُّرَبِّنَا) بفتح الجيم وإضافته إلى « الرَّبِّ » تعالى ، وقال جمهور المفسرين : معناه : عظمته ، وروي عن أنس أنه قال : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدَّ في أعيننا ، أَي عَظُم ، وقال أنس بن مالك ، والحسن : جَدُّ رَبِّنَا : غناه ، فهذا هو من الجَدِّ الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وَلَا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدُّ)(١) وقال مجاهد : ذِكْرُهُ ، وقال بعضهم : جلالُه ، وقال ابن عباس : قَدْرُه وَأَمْرُهُ ، وهذا كله مُتَّجه لأَن الجَدَّ هو حظ المجدود من الخيرات والأَوصاف الجميلة ، وَجَدُّ الله تعالى هو الحظُّ الأَكمل من السلطان القاهر والطبقات العليَّة والعظمة ، ومن هذا قول اليهودي حين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة : « يابني قيلة هذا جَدُّكُم الذي تنتظرون »(٢) أَي حظكم من الخيرات وبختكم ، وقال علي بن الحسين ، وأَبو جعفر الباقر ، وابنه جعفر ، والربيع بن أَنس : ليس لله تعالى جَدٌّ ، وهذه

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان والاعتصام والقدر والدعوات ، ومسلم في الصلاة والمساجد ، وأبو داود في الصلاة والوتر والأدب ، والترمذي في الصلاة ، والنسائي في السهو ، والدرامي في الصلاة ، ومالك في القدر من موطئه ، وأحمد في مسنده (٣/٨٧ ، ٤/٩٣ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠١)، ولفظه كما جاء فيه عن أبي سعيد الخدري قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال : سمع الله لمن حمده ، قال : (اللهم ربنا لك الحمد مِلْءَ السموات وَمِلْءَ الأرض وَمِلْءَ ما شئت من شيءٍ بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد ،لامانع لما أعطيت ، ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجَدُّ) ، ومعنى ذلك أن من كان له حظٌّ في الدنيا لم ينفعه ذلك الحظُّ في الآخرة .

(٢) جاء هذا في حديث طويل عن هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ورواه البخاري في مناقب الأنصار عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها .

مقالة قوم جهلة من الجن جعلوا الله تعالى جَدًّا ، أَي أَباً أَبٍ ، قال كثير من المفسرين : هذا قول ضعيف ، وقولهم : (وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً) يدفعه ، وكونهم على شريعة متقدمة ـ فيما روي ـ وفهمهم للقرآن ، وقرأ محمد بن السميفع اليماني : « جَدَى ربِّنَا » وهو الجَدْوى والنَّفْع ، وقرأ عكرمة : (جَدٌّ رَبُّنَا) بفتح الجيم وضم الدال وتنوينها ورفع الرب ، كأَنهم يقولون : تعالى عظيم هو ربُّنا ، و « رَبُّنَا » بدلٌ ، والجَدُّ : العظيم في اللغة ، وقرأَ حميد بن قيس (١) : (جُدُّ رَبِّنَا) بضم الجيم ، ومعناه : العظيم ، حكاه سيبويه وَأَضَافَهُ إِلى « الرَّبِّ » فكأَنه قال : « عَظِيم ربِّنَا » ، وهذه إِضافة تجريد ، يرفع النحاةُ هذا الاسم إِذا أُضيفت الصفة إِلى الموصوف ، كما تقول : « جاءني كريمُ زَيْدٍ » تريد: زيدٌ الكريم ، ويجري مجرى هذا عند بعضهم قول المتنبي :

.... عَظيمُ الْملُكِ في الْمُقَل (٢)

---

(١) هو حميد بن قيس المكّي الأعرج ، أبو صفوان القاريء ، قال عنه في « تقريب التهذيب » ليس به بأس ، وعدَّه من الطبقة السادسة ، وقال : إنه مات سنة ثلاثين ، وقيل : بعدها .

(٢) هذا جزءٌ من بيت قاله المتنبي في قصيدة له وردت في الديوان تحت عنوان : (أنا الغريقُ فما خوفي من البلل) ؟ وهي قصيدة قالها في مدح سيف الدولة ، والبيت بتمامه :

مُطاعَةُ اللّحظِ في الألحاظِ مالِكَـةٌ ... لِمُقْلَتَيْهَا عَظِيمُ الْمُلْكِ في الْمُقَلِ

واللحْظُ : النظر بجانب العين من الخارج ، والمقلة : العين ، يصف جمال عينيها ونظراتها فيقول : إن لَحْظها مُطاعٌ بين ألحاظ النساء الحسان ، إذا دعا أحداً إلى هواها أجاب مطيعاً ، فهي مالكة بين ذوات القناع تعلوهن جمالا ودلالا ، ومُقْلتاها مالكتان في دولة الْمُقَل لهما من دون هذه الدولة الأمر النافذ، وابن عطية يستشهد بأن كلمة « عظيم » صفة لكلمة « الْمُلْك » =

أَراد : المُلْك العظيم ، قال بعض النحاة : وهذا المثال معترض لأَنه أَضاف إلى جنس فيه العظيم والحقير ، وقرأَ عِكْرمة أَيضاً : (جَدًّا رَبُّنَا) بفتح الجيم والدال وتنوينها ورفع « الرَّبِّ » ، نصب [جَدًّا] على التمييز كما تقول : « تَفَقَّأْتُ شحْماً [1] وتَصَبَّبْتُ عرقاً » ، وقرأَ قتادة : (جِدًّا رَبُّنَا) بكسر الجيم وشدِّ الدال ورفع الرَّبِّ ، فنصب [جدًّا] على الحال ، ومعناه : حقيقة ومتمكنا ، وهذا معنى غير الأَول ، وقرأَ أَبو الدرداءِ : (تَعَالَى ذِكْرُ ربِّنَا) ، وروي عنه « جلالُ رَبِّنَا » .

قوله تعالى : (وَأَنَّهُ كانَ يَقولُ) ، لا خلاف أَن هذا قول الجن ، وكَسْرُ الأَلف فيــه أَبْيَن ، وفَتْحها لا وَجْه له إلا اتباع العطف على الضمير ، كأَنهم قالوا : وآمَنَّا الآن بأَن سفيهنا كان قوله على الله شططا ، والسَّفيه المذكور قال جمهور من المفسرين : هو إبليس لعنه الله ، وقال آخرون : هو اسم جنس لكل سفيه منهم ، ولا محالة أَن إبليس صدر في السفهاءِ ، وهذا القول أَحسن ، و « الشَّطَطُ » : التَّعدي وتجاوز الحدِّ بقول أَو بفعل ، ومنه قول الأَعشى :

= وهي مضافة إليها، فهي من إضافة الصفة إلى الموصوف ، ولقد اعترض بعض النحاة على ذلك بما ذكر المؤلف .

(١) الفَقْءُ : الشَّقُّ ، يقال : فقأَ الثمرة فقْأً : شَقَّها ، وتَفَقُّؤًا مصدر تَفَقَّأَ ، ومعنى تَفَقَّأْتُ شحماً : امتلأْتُ شحماً حتَّى تشقَّق جلدي .

أَتَنْتَهُونَ ؟ وَلاَ يَنْهَى ذَوِي شَطَطٍ
كالطَّعْنِ يَذْهَبُ فيه الزَّيْتُ والْفُتُلُ(١)

وقوله تعالى : (وَأَنَّا ظَنَنَّا) هو كلام أولئك النفر من الجن ، لا يحتمل غير ذلك ، وكسر الأَلف فيه أَبْين ، والمعنى : إنا كنا نظن قبل إيمانا أَن الأَقوال التي كنا نسمع من إبليس وغواة الجن والإِنس في جهة الآلهة وما يتعلق بذلك حق وليست بكذب ؛ لأَنا كنا نظن بهم أَنهم لا يكذبون على الله تعالى ولا يرضون ذلك ، وقرأَ جمهور الناس : [تَقُولَ] بالتاءِ وضم القاف مخففة ، وقرأَ الحسن ، والجحدري ، وابن أَبي بكرة ، ويعقوب : [تَقَوَّلَ] بفتح التاءِ والقاف والواو مشددة ، والتَّقَوُّل خاص بالكذب ، والقول عامٌّ له وللصدق ولكن قولهم : [كَذِباً] يردُّ القول هنا إلى معنى التَّقَوُّل .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾

(١) هذا البيت من قصيدة الأعشى التي بدأها بقوله : (وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ =

هذه الأَلف من [أَنَّهُ] اختلف في فتحها وكسرها والكسر أَوجه ، والمعنى في الآية ما كانت العرب تفعله في أَسفارها وتغرُّبها في الرعي وغيره ، فإن جمهور المفسرين رَوَوْا أَن الرجل كان إذا أَراد المبيت والحلول في وادٍ صاح بأَعلى صوته : ياعزيز هذا الوادي إني أَعوذ بك من السفهاء الذين في طاعتك ، فيعتقد بذلك أَن الجنيَّ الذي بالوادي يمنعه ويحميه ، فروي أَن الجن كانت تقول عند ذلك : ما نملك لكم ولا لأَنفسنا من الله شيئاً ، قال مقاتل : أَول من تعوَّذ بالجن قوم من أَهل اليمن ثم بنوحنيفة ثم فَشَا ذلك في العرب ، وروي عن قتادة أَن الجن كانت لذلك تحتقر بني آدم وتزدريهم لما يرون من جهلهم ، فكانوا يزيدونهم مخافة ، ويتعرضون للتخيُّل لهم بمنتهى طاقتهم ، ويغوونهم في إرادتهم لما رأَوا رقَّة أَحلامهم ، فهذا هو الرهق الذي زادته الجنُّ بني آدم ، وقال مجاهد ، والنَّخعي ، وعبيد بن عمير : بنو آدم زادوا الجن رهقا وهو الجرأَة والانتحاءُ عليهم والطغيان وغشيان المحارم والإعجاب لأَنهم قالوا : سدنا الجن والإنس ، وقد فسَّر قوم الرهق بالإثم ، وأَنشد الطبري في ذلك بيت الأَعشى :

= مُرتَحلُ)، وفيها يفتخر بشجاعة قومه ويخاطب يزيد بن مسهر الشيباني بأن يبلغ قومه بهذه الشجاعة وبأنهم فعلوا الأفاعيل في بني أَسد وغيرهم ، ثم يقول : إذا علمتم ذلك هل تنتهون عن قتالنا ؟ إنه لا يَنْهى العدو المتجاوز للحدود إلاّ الطعنُ القوي الذي يصيبه بجراح واسعة يغيب فيها الزيت والفتائل . والشَّطَطُ : تجاوز الحد والمبالغة في العدوان ، وهو موضع الاستشهاد هنا .

لاَ شَيْءَ يَنْفَعُني مِنْ دونِ رُؤْيَتِها
هَلْ يَشْتَفِي وامِقٌ ما لَمْ يُصِب رَهَقَا ؟(١)

وقال : معناه : مالم يغش محرماً ، فالمعنى : زادت الجنُّ الإِنس إثماً لأنهم عظمهوهم فزادوهم استحلالاً لمحارم الله تعالى .

وقوله تعالى : (وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا) يريد بني آدم الكفار ، (كَمَا ظَنَنْتُمْ) مخاطبة لقومهم من الجن ، وقولهم : (أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ أَحَداً) يحتمل معنيين : أَحدهما بعث الحشر من القبور ، والآخر بعث آدميٍّ رسولاً ، و [أَنْ] في قوله تعالى : (أَنْ لَنْ يَبْعَثَ) مخففة من الثقيلة ، وهي تسدُّ مَسَدَّ المفعولين ، وذكر المهدوي تأويلاً أن المعنى : وأَن الجنَّ ظنُّوا كما ظننتم أيها الإِنس ، فهي مخاطبة من الله تعالى .

وقولهم : (أَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ) معناه : الْتَمَسْنا ، ويظهر بمقتضى

(١) قال الأعشي هذا البيت من قصيدة يصف هواه ووجده بمحبوبته ، ومطلعها : (نام الْخَلِيُّ وبتُّ اللَّيْلَ مُرتَفِقاً) ، والبيت في اللسان ، والقرطبي ، والبحر ، وفتح القدير . والوامق : المحبُّ ، وفي بعض الروايات (يشتفي عاشق) ، وفي اللسان : « والرَّهَق : غشيان المحارم من شرب الخمر ونحوه ، قال ابن بَرِّي : وكذلك فُسِّر الرهق في شعر الأعشى بأنه غِشْيانُ المحارم وما لا خير فيه في قوله : لاشيءَ ينفعني ... البيت » ، وقد يُفسَّر الرهق في البيت بأنه الضعف والتذلل للمحبوب ، والأقوال في معنى الرهق كثيرة ، فقد قيل : هو الفساد ، وقيل : الظلم ، وقيل : السفه ، وقيل : الذلة والضعف ، وقيل : السرعة إلى الشرِّ ، وقيل : العظمة والطغيان . وقيل غير ذلك ، راجع اللسان .

كلام العرب أنها استعارة لتجريبهم أمرها وتعرضهم لها ، فسمّى ذلك لَمْساً إذ كان اللَّمْس غاية غرضهم ، ونحو هذا قول المتنبي :

تَعَدَّ الْقُرَى وَالْمُسْ بنا الْجَيْشَ لَمْسَةً
نُبَارِ إلَى مَا تَشْتَهي يَـدَكَ الْيُمْنَى(١)

فعبَّر عن صدم الجيش بالجيش وحربه باللَّمس ، وهذا كما تقول : « الْمس فلاناً في أَمر كذا » أي جرب مذهبه فيه ، و [مُلِئَتْ] إما أَن تكون في موضع المفعول الثاني لـ (وَجَدْنَا) ، وإما أَن يقصر الفعل على مفعول واحد وتكون [مُلِئَتْ] في موضع الحال ، وكان الأَعرج يقرأُ : [مُلِيَتْ] بغير همز ، و « الشُّهُبُ » كواكب الرجم ، و « الْحَرَسُ » يحتمل أَن يريد الرمي بالشهب وكرَّر المعنى بلفظ مختلف ، ويحتمل أَن يريد الملائكة .

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها المتنبي يحثُّ سيف الدولة على لقاء الروم في السَّنْبوس سنة أربعين وثلاثمائة (٩٥١م) ، وكان قد عزم على لقائهم ثم بلغه عدتهم أربعين ألفاً فتهيب أصحابه الموقف ، لكن المتنبي تحدث عن بطولات العرب والمسلمين وعن أمجادهم ، وقال : إنا نقصد للموت كما يقصد الحبيب لقاء محبوبه ، ومعنى (تَعَدَّ القُرَى) : تجاوزها ، والخطاب لسيف الدلة ، و (نُبَارِ) معناها : نسابق ، يقول لسيف الدولة : تجاوز القرى العامرة إلى الصحراء والْتَقَ بنا جيش الروم حتى نلامسه ملامسة فستجدنا نسابق يَدَكَ اليُمْنَى ونسبقها إلى ما تشتهي نَفْسُكَ وهو هزيمة الروم والسيطرة على بلادهم ، ولعلَّه يعني أن النصر بنا يكون أسرع إليك مما لو تناولته بيدك أنت ، والشاهد أنه عبرَّ عن صدام الجيش بالجيش مستخدماً لفظه اللَّمْس .

و [مَقَاعِدَ] جمع مقعد ، وقد فسَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة قعود الجن أَنهم كانوا واحداً فوق واحدٍ ، فمتى أُحْرِق الأَعلى طلع الذي تحته مكانه ، فكانوا يسترقون الكلمة فيبلغونها إلى الكهان ويزيدون معها ، ويزيد الكهان للكلمة مائة كذبة . وقوله تعالى : (فَمَنْ يُسْتَمِعِ الآنَ) الآية .. قطع على أنه كل من استمع الآن أَحرقه شهاب ، فليس هنا بَعْدُ سَمْعٌ ، إنما الإحراق عند الاستماع ، وهذا يقتضي أَن الرجم كان في الجاهلية ولكنه لم يكن بمستأصل ، وكان الحرس ولكنه لم يكن شديداً ، فلما جاءَ الاسلام اشتد الأَمر حتى لم يكن فيه يُسْر ولا سماحة ، ويدل على هذا قولُ النبي صلى الله عليه وسلم لأَصحابه وقد رأَوْا كوكباً راجماً : (ماذا كنتم تقولون لهذا في الجاهلية ؟) ، قالوا : كنا نقول : وُلد ملك مات ملك ، فقال عليه الصلاة والسلام : (ليس الأَمر كذلك) ، ثم وصف صعود الجن(١) .

---

(١) هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد عن علي بن الحسين عن ابن عباس رضي الله عنهم ، كما أخرجه مسلم من حديث صالح بن كيسان والأوزاعي ويونس ، ومعقل بن عبيد الله ، أربعتهم عن الزهري ، عن علي بن الحسين ، عن ابن عباس ، عن رجل من الأنصار ، كما رواه النسائي في التفسير من حديث الزبيدي ، عن الزهري ، ورواه الترمذي عن الحسين بن حريث ، عن الوليد بن مسلم ، عن الأوزاعي ، عن الزهري ، ولفظه كما في مسند أحمد : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً في نفر من أصحابه – قال عبد الرزاق : من الأنصار – فرُمي بنجم فاستنار ، فقال صلى الله عليه وسلم : (ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية) ؟ قالوا : كنا نقول : يُولد عظيم أو يموت عظيم – قلت للزهري : أكان يُرمى بها في الجاهلية ؟ قال : نعم ولكن غلظت حين بُعث النبي صلى الله عليه وسلم – قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فإنها لا يُرْمَى بها لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أَمْراً سبح حملة العرش ، =

وقد قال عَوْف بن الخَرِع - وهو جاهلي - :

فَـــانْقَضَّ كالدُّرِّيِّ يَتْبَـــعُهُ نَقْـــعٌ يَثورُ تَخالُـــهُ طُنُباً(١)

= ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح السماء الدنيا، ثم يستخبر أهل السماء الذين يلون حملة العرش، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم، ويخبر أهل كل سماءٍ سماءٍ حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء ، وتخطف الجن السمع فيُرْمون ، فما جاءوا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون) ، قال الإمام ابن كثير في تفسيره بعد أن أورد الحديث : هكذا رواه الإمام أحمد.

وقد روى البخاري عند تفسير قوله تعالى : (حَتَّى إذا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قالُوا ماذا قال رَبُّكُمْ قالوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) عن عكرمة أنه قال : سمعتُ أبا هريرة رضي الله عنه يقول : إن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : (إذا قضى الله تعالى الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان ، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذي قال : الحق وهو العلي الكبير ، فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض - ووصف سفيان بيده فحرفها ونشر أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يُلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يُدركه ، فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا ، كذا وكذا ؟ فيُصدَّق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء) ، قال ابن كثير : « انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم من هذا الوجه ، وقد رواه أبو داود والترمذي ، وابن ماجه ، من حديث سفيان بن عيينة به ، والله أعلم » .

(١) هذا البيت لأوس بن حَجَر ، وليس لعوف بن الخرع ، وهو في أول قصيدة في ديوان أوس ، وهو في وصف ثور وحشي يخوض معركة مع كلاب صَيْد أطلقها عليه صاحبها ، والدُّرِّيُّ - بضم الدال المشددة أو بكسرها أو بفتحها - هو الكوكب المضيءُ الثاقب ، منسوب إلى الدُّرِّ - وفيه كلام كثير - ورواية الديوان : دِرِّيءٌ ، وهو أيضاً الكوكب المنقض يدرأ على الشيطان - هكذا قال صاحب اللسان - والنَّقع : الغبار الثائر اللامع ، والطُّنُبُ : الفسطاطُ المضروب - الخيمة المنصوبة - وتَخاله : تحسبه ، يشبهه بالكوكب اللامع الذي ينقض من السماء ، ويشبه الغبار الذي أثاره في هجومه على الكلاب بالخيمة المنصوبة ، أما بيت عوف المقصود فهو قوله:

فَرَدَّ عَلَيْنا الْعَيْرَ مِنْ دونِ إلْفِهِ أَو الثَّوْر كالدُّرِّي يَتْبَعُهُ الدَّمُ

وهذا في أَشعارهم كثير . و [رَصَداً] نعت للشِّهابِ ، ووصفه بالمصدر .

وقوله تعالى : (وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُريدَ بِمَنْ في الأَرْضِ) الآية .... معناه : لا ندري ، أَيُؤْمن الناس بهذا النبي فيرشدوا أَم يكفرون بــه فينزل بهم الشَّرُّ ؟

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾

هذا كله من قول الجن إلى آخر قوله تعالى : (وَأَمَّا الْقاسِطونَ فَكانوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً) ، وقوله تعالى : (وَمِنَّا دونَ ذَلِكَ) أَي غير الصالحين ، كأَنهم قالوا : ومنا قوم أَو فرقة دون صالحين ، وهي لفظة تقع أَحياناً موقع « غير » ، و « الطَّرائِقُ » : السِّيَر المختلفة ، و « الْقِدَدُ » كذالك هي الأَشياءُ المختلفة كأَنه قَدْ قُدَّ بعضها من بعض وفصل ، قال ابن عباس ،

وعكرمة ، وقتادة : (طَرَائِقَ قِدَداً) أَهْوَاءً مختلفة ، وقال غيرهم : فرق مختلفون ، قال الكميت :

جَمَعْتَ بالرَّأْيِ مِنْهُمْ كُلَّ رافِضَةٍ   إِذْ هُمْ طَرَائِقُ في أَهْوَائِهِمْ قِدَدُ[(١)]

قولهم : (وأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ) ، الظَّن هنا بمعنى العلم ، وهذا إِخبارٌ منهم عن حالهم بعد إِيمانهم كما سمعوا من محمد صلى الله عليه وسلم ، و « الْهُدَى » يريدون به القرآن ، سمَّوه هدى من حيث هو سبب الهدى ، و « الْبَخْسُ » : النقص ، و « الرَّهَقُ » : تحميل ما لايطاق وما يثقل من الأَنكاد ويَفدح ، وقال ابن عباس : البَخْسُ نقص الحسنات ، والرَّهق الزيادة في السيئات ، وقرأَ الأَعمش ويحي بن وثاب : (فَلاَ يَخَفْ) بالجزم دون أَلف .

وقسَّم الله تعالى بعد ذلك حالَ الناس في الآخرة على نحو ما قسَّم قائلُ الجن بقوله : (وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ) ، و « القاسِطُ » : الظالم ، قاله مجاهد ، وقتادة ، والناس ، ومنه قول الشاعر :

---

(١) الرَّوافض : جنود تركوا قائدهم وانصرفوا فكل طائفة منهم رافِضَةٌ ، والنِّسبة إِليهم ، رافضيٌّ ، والطرائق : الفِرَقُ المختلفة ، والآراءُ والمذاهبُ المتباينة ، ومفردها : طريقة ، وأوضح معانيها : السُّنَّة والمذهب والرأيُ وما هوعليه ، والقِدَّةُ : الفِرْقَةُ والطريقة من الناس إذا كان هوًى كل واحد على حدَةٍ ، يقول الشاعر : جَمَعْتَهم على رأي واحد بعد أن كانوا فرقا مختلفة .

قَوْمٌ هُمُ قَتَلَوا ابْنَ هِنْدٍ عَنْوَةً عَمْراً وهَمْ قَسَطُوا عَلَى النُّعْمانِ [(١)]

والْمُقْسِطِ : العادل ، وإنما هذا التقسيم ليذكر حال الفريقين من النجاة والهلكة ، ويُرَغِّب في الإسلام من لم يدخل فيه ، فالوجه أن يكون (فَمَنْ أَسْلَمَ) مخاطبةً من الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ويؤيده ما بعده من الآيات ، و [تَحَرَّوْا] معناه : طلبوا باجتهادهم ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لا تَتَحَرَّوْا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها) [(٢)] ، وقوله تعالى : (لِجَهَنَّمَ حَطَباً) نظير قوله تعالى : (وَقُودُهَا النَّاسُ والْحِجارَةُ) [(٣)] .

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها الفرزدق يمدح بني تغلب ويهجو جريراً ، وقد بدأها بقوله : (ياابن المراغةِ والهجاءُ إذا التقت أعناقُه ...) ، وقبل البيت يقول :

مـاضَرَّ تَغْلِبَ وائلٍ أَهَجَوْتَهَا أَمْ بُلْتَ حَيْثُ تَنَاطَحَ الْبَحْرانِ ؟

ياابْنَ الْمَراغَةِ إنَّ تَغْلِبَ وائِلٍ رَفَعُوا عِناني فَوقَ كُلِّ عِنانِ

وابْنُ هِنْد هو عَمْرو بن المنذر اللخمي ، ملك الحيرة في الجاهلية ، وكان شديد البأس ، قتله عمرو بن كلثوم أَنَفة وغَضَباً لأُمِّه حين أرادت أم الملك أن تستخدمها في خبر طويل يروى في كتب الأدب ، وعَنْوَةً : قَهراً ، وقَسَطُوا : جارُوا ، وهي موضع الاستشهاد ، فإن (قَسَطَ) بمعنى (جَارَ) ، و (أقْسَط) بمعنى (عَدَل) .

(٢) أخرجه البخاري في المواقيت وفي فضل الصلاة في المسجد الحرام ، ومسلم في المسافرين ، والنسائي في المواقيت ، ومالك في القرآن من الموطأ ، وأحمد في مسنده (٦/٢٥٥ ، ٢/١٣ ، ١٩ ، ٣٣) ، ولفظه كما جاء في مسند أحمد : عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : إنما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة أن يتحرى بها طلوع الشمس وغروبها .

(٣) من الآية (٢٤) من سورة (البقرة) ، ثم تكررت في الآية (٦) من سورة (التحريم) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ
وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟
مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا
﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا
وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ
مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾

الضمير في قوله تعالى : [اسْتَقَامُوا] . قال أَبو مِجْلز ، والفراءُ ، والربيع بن أَنس ، وزيد بن أَسلم ، والضحاك ـ بخلاف عنه ـ : هو عائد على قوله سبحانه : (مَنْ أَسْلَم) ، و « الطريقة » طريقة الكفر ، أَي : لو كفر من أَسلم من الناس لأَسقيناهم ماءً إملاءً لهم واستدراجاً ، وقال ابن عباس ، وقتادة ، وابن جبير ، ومجاهد : الضمير عائد على « القاسطين » ، والمعنى : على طريقة الإسلام والحق ، وهذا المعنى نحو قوله تعالى : (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا واتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ)[1] ، وقوله تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْراةَ والإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ

(١) من الآية (٦٥) من سورة (المائدة) .

لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ ومِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)[١] ، وهذا القول أَبْيَن ، لأَن استعارة الاستقامة للكفر قلقة .

وقرأَ الأَعمش ، وابن وثاب : (وَأَنْ لَوُ اسْتَقَامُوا) بضم الواو ، وقال أَبو الفتح : هذا تشبيه بواو الجماعة (اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى)[٢] ، والماءُ الغَدَقُ هو الماءُ الكثير ، وقرأَ جمهور الناس : [غَدَقاً] بفتح الدال ، وقرأَ عاصم ـ في رواية الأَعمش عنه ـ بكسرها .

وقوله تعالى (لِنَفْتِنَهُمْ فيه) إن كان المسلمون فمعناه : لنختبرهم ، وإن كان القاسطون فمعناه: لنمتحنهم ونستدرجهم ،وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « حيث يكون الماءُ فَثَمَّ المال ، وحيث المالُ فَثَمَّ الفتنة » ، ونزع بهذه لآية ، وقال الحسن ، وابن المسيَّب ، وجماعة من التابعين : كانت الصحابة مطيعين سامعين ، فلما فتحت كنوز كسرى وقيصر وُثب بعثمان رضي الله عنه فَقُتل وثارت الفِتَنُ . و [يَسْلُكْهُ] معناه : يُدْخله ، وقرأَ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : [يَسْلُكْهُ] بفتح الياء ، أَي : يسلكه الله ، وقرأَ بعض التابعين : [يُسْلِكْهُ] بضم الياء ، من أَسْلَكَ ، وهما بمعنى ، وقرأَ باقي السبعة : [نَسْلُكْهُ] بنون العظمة ، وقرأَ ابن جبير : [نُسْلِكْهُ] بنون مضمومة ولام مكسورة ، و [صَعَداً] معناه : شاقًّا ،

---

(١) من الآية (٦٦) من سورة (المائدة) .
(٢) من الآية (١٦) من سورة (البقرة) .

تقول : « فلان في صَعَدٍ من أَمره » أي في مشقة ، و« هذا أَمر يتصَعَّدني » ، قال عمر رضي الله عنه« ما تصعَّدني شيءٌ كما تتصَعَّدني خطبة النكاح » ، وقال ابن عباس ، وأَبو سعيد الخدري : صَعَد : جبل في النار ، وقرأَ قوم : [صُعُداً] بضم الصاد والعين ، وقرأَ الجمهور بفتح الصَّاد والعين ، وقرأَ ابن عباس ،والحسن بضم الصاد وفتح العين ، قال الحسن: معناه : لا راحة فيه .

ومَنْ فَتَح الأَلف من (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ) جعلها عطفاً على قوله تعالى : (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهَ) ، ذَكَرَهُ سيبويه ، و « المساجد » قيل : أَراد بها البيوت التي للعبادة والصلاة في كل مِلَّة ، وقال الحسن : أَراد كل موضع سُجد فيه ، كان مخصوصاً لذلك أَو لم يكن ؛ إذ الأَرض كلها مسجد لهذه الأَمة ، ورُوي أَن هذه الآية نزلت بسبب تغلُّب قريش على الكعبة حينئذ ، فقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم : المواضع كلها لله تعالى فاعبده حيث كان ، وقال ابن عطاءٍ : المساجد : الآراب (١) التي يُسجد عليها ، واحدها مَسْجَد ـ بفتح الجيم ـ ، وقال سعيد بن جبير : نزلت الآية لأَن الجن قالت : يارسول الله كيف نشهد الصلاة معك على نأْينا عنك ؟ فنزلت الآية ليخاطبهم بها على معنى : إنَّ عبادتكم حيث كنتم مقبولة ، وقال الخليل بن أَحمد : معنى الآية : ولأَن المساجد لله فلا تدعوا ـ أي

---

(١) الآراب : جمع إرْبٍ وهو العُضْو ، يقال : السجود على سَبْعَة آراب ، أي أعضاء .

لهذا السبب – ، وكذلك عنده (لِإِيلافِ قُرَيْشٍ .... فَلْيَعْبُدُوا)(١) ، وكذلك عنده (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً)(٢) ، والمساجد المخصوصة بَيِّنَة التمكن في كونها لله تعالى ، فيصح أَن تفرد للصلاة والدعاءِ وقراءَة العلم وكل ما هو خالص لله تعالى ، وأَلاَّ يتحدث فيها في أُمور الدنيا ، ولا يتجر ، ولا تُتَّخذ طريقاً ، ولا يُجعل فيها لغير الله تعالى نصيب ، ولقد قعدتُ للقضاءِ بين المسلمين في المسجد الجامع بالمرية ثم رأَيت فيه من سوءِ خُلق المتخاصمين وصياحهم وأَيْمانهم وفجور الخصام وغائلته ودخول النسوان مارأَيت تنزيه البيت عنه فقطعت القعود للأَحكام فيه .

وقوله تعالى : (وَأَنَّهُ لَمَّا قامَ عبْدُ اللهِ يَدْعوهُ) يحتمل أَن يكون خطاباً من الله تعالى ، ويحتمل أَن يكون إِخباراً عن الجن ، وقرأَ بعض القراءِ – على ما تقدم – : (وَأَنَّهُ] بفتح الأَلف ، وهذا عطف على قوله تعالى : (أَنَّهُ اسْتَمَعَ) ، و « الْعَبْدُ » على هذه القراءَة ، قال قوم : هو نوح عليه السلام ، والضمير في [كادُوا] لِكُفَّار قومه ، وقال آخرون هو محمد صلى الله عليه وسلم ، والضمير في [كادُوا] للجن ، والمعنى أَنهم كادوا يَتَقَصَّفُون(٣) عليه لاستماع القرآن ، وقرأَ آخرون : [وَإِنَّهُ]

(١) الآيات (١ ، ٢ ، ٣) من سورة (قريش) .
(٢) من الآية (٩٢) من سورة (الأنبياء) .
(٣) يَتَقَصَّفُون : يجتمعون عليه مع تدافع شديد حتى يقصف بعضهم بعضاً من شدة الزحام ، وفي حديث أَبي بكر رضي الله عنه : (كان يصلى ويقرأ القرآن فَتتقصّف عليه نساءُ المشركين وأَبناؤهم) ، أَي يزدحمون .

بكسر الهمزة ، و « العَبْدُ » محمد صلى الله عليه وسلم ، والضمير في [كادوا] يحتمل أَن يكون للجن على المعنى الذي ذكرناه ، ويحتمل أَن يكون لكفار قومه وللعرب في اجتماعهم على ردِّ أَمره ، ولا يتَّجه أَن يكون « العبد » نوحاً عليه السلام إلاَّ على تحامل في تأْويل نَسَق الآية ، وقال ابن جبير : معنى الآية أَنها قول الجن لقومهم يحكون ، و « العَبْدُ » محمد صلى الله عليه وسلم ، والضمير في [كادوا] لأَصحابه الذين يطوعون له ويقتدون به في الصلاة ، فهم عليه لِبَدٌ ، وهي الجماعات ، شُبِّهت بالشيءِ المتلَبِّد بعضه فوق بعض ، ومنه قول عبد مناف بن ربع :

صابوا بِستَّةِ أَبْياتٍ وَأَرْبَعَةٍ حَتَّى كَأَنَّ عَلَيْهِمْ جَانِياً لُبَدَا (١)

يريد الجراد ، سماه جانِياً لأَنه يَجْني الأَشياءَ بأَكله ، [ويروى جابياً بالباءِ لأَنه يجبي الأَشياءَ بأَكله] (٢) .

---

(١) البيت من قصيدة قالها عبد مناف بن ربع الهُذَلي ، وهو في ديوان الهُذَلِيِّين ، وفي اللسان – صاب وَجَباً – ، ومعنى صَابُوا بهم وَقَعُوا بهم ، والجاني هو الجراد ، سمِّي بذلك لأنه يجني الثمار ، أو يجني على القوم في طعامهم ، أما رواية جابياً بالباء فالمراد أيضاً الجراد ، قال صاحب اللسان نقلاً عن التهذيب : « الجابِىءُ : الجرادُ ، يُهمز ولا يُهمز ، وجبأ الجرادُ : على البلد ، قال الهذلي : صابوا بِستَّةِ ... البيت » ، واللُّبَدُ : الكثير ، يقال : مالٌ لُبَدٌ أي كثير لا يُخافُ فناؤه كأنه التَبَدَ بعضه على بعض ، وفي التنزيل العزيز (أَهلَكْتُ مالاً لُبَداً) ، أي كثيراً جَماً .

(٢) ما بين العلامتين (....) سقط من أكثر النسخ .

وقرأ ابن عباس وجمهور السبعة : [لِبَداً] بكسر اللام ، جمع لِبْدَة ، وقال ابن عباس : أَعواناً ، وقرأ ابن عامر - بخلاف عنه - ومجاهد ، وابن محيصن : [لُبَداً] بضم اللام وتخفيف الباءِ المفتوحة ، وهو جمع أيضاً ، ورُوي عن الجحدري [لُبُداً] بضم اللام والباءِ ، وقرأ أَبو رجاءٍ : [لِبَّداً] بكسر اللام وشدِّ الباءِ المفتوحة ، وقرأ الجحدري والحسن - بخلاف عنهما - : [لُبَّداً] بضم اللام وشدِّ الباءِ ، وهو جمع « لابِدٍ » ، فإن قدرنا الضمير للجن فَبِتَقَصُّفِهم (١) عليه لاستماع الذكر ، وهذا تأويل ابن عباس والضحاك ، وإن قدرناه للكفار فبتمالئهم عليه وإقبالهم على أمره بالتكذيب والردِّ ، وهـذا تأويل الحسن وقتادة . و [يَدْعُوهُ] معناه : يعبده .

وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (قالَ إِنَّما أَدْعُو رَبِّي) ، وهي قراءة جمهور السبعة ، وهذه قراءة تؤيد أَن « العَبْدَ » هو نوح عليه السلام ، وقرأ عاصم ، وحمزة ، وأيوب ، وأبو عمرو - بخلاف عنه - : (قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو) ، وهذه تؤيد أنه محمد صلى الله عليه وسلم ، وإن كان الاحتمال باقياً من كليهما ، واختلف القراءُ في فتح الياءِ من [رَبِّي] وفي سكونها .

ثم أَمر تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم بالتبري من القدرة ، وأنه

---

(١) أي : باجتماعهم وازدحامهم حوله .

لا يملك لأَحد ضراً ولا رشداً ، بل الأَمر كله لله تعالى ، وقرأ الأَعرج : [رُشُداً] بضم الراءِ والشين ، وقرأ أُبَي بن كعب : « لا أَمْلِكُ لكُمْ غيًّا ولا رشداً » ، وقوله تعالى : (مِنْ دونِهِ) أَي : من عند سواه ، و « الْمُلْتَحَدُ » : الملجأُ الذي يُمالُ إِليه ويُرْكن ، ومنه الإِلحادُ والميل ، ومنه اللَّحْدُ الذي يُمال به إِلى أَحد شِقَّي القبر .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾

اختلف الناس في قوله تعالى : (إِلَّا بَلاغاً) ــ فقال الحسن ما معناه : إِنه استثناءٌ منقطع ، والمعنى : لن يُجيرني من الله أَحدٌ إِلَّا بلاغاً ، فإِنِّي إِن بلَّغتُ رحمني بذلك ، والإِجارة للبلاغ مستعارة إِذْ هو سبب إِجارة الله تعالى ورحمته ، وقال بعض النحاة : على هذا المعنى هو استثناءٌ مُتَّصل ، والمعنى : لن أَجد مُلْتحداً إِلَّا بلاغاً ، أَي شيئاً أَميل إِليه وأَعتصم به

إلاَّ أن أُبلِّغ وأَطيع فيجيرني الله . وقال قتادة : التقدير : لا أملك إلاَّ بلاغاً فأما الإيمان والكفر فلا أملكه ، وقال بعض المتأولين : (إلاَّ) بتقدير الانفصال ، و [لَنْ] شرط ، و [لا] نافية ، كأنه يقول : ولن أجد مُلتحداً إن لم أُبلغ من الله ورسالاته ، و [من] في قوله : (مِنَ الله) لابتداء الغاية ، وقوله : (وَمَنْ يَعْصِ الله) يريد الكفر بدليل الخلود المذكور ، وقرأ طلحة بن مصرف : (فَأَنَّ لَهُ) على معنى : فجزاؤه أَنَّ له .

قوله تعالى : (حَتَّى إِذَا رَأَوْا) ، ساق الفعل في صيغة الماضي تحقيقًا لوقوعه ، وقوله سبحانه : (مَنْ أَضْعَفُ) يحتمل أَن تكون [مَنْ] في موضع رفع على الاستفهام والابتداء ، و [أَضْعَفُ] خبرها ، ويحتمل أَن تكون [مَنْ] في موضع نصب بقوله : [فَسَيَعْلَمونَ] ، و [أَضْعَفُ] خبر ابتداءٍ مضمر .

ثم أَمره الله تعالى بالتَّبَرِّي من معرفة الغيب في وقت عذابهم الذي وُعدوا به ، و « الأَمَدُ : المُدَّة والغاية ، و [عَالِمُ] يحتمل أَن يكون بدلا من [رَبِّي] ، ويحتمل أَن يكون خبر ابتداءٍ مضمر على القطع ، وقرأ السُّدي : [عَلِمَ] على الفعل ونصب الباءِ[1] ، وقرأَ الحسن : (فَلاَ يَظْهَرُ) بفتح الياءِ والهاءِ [أَحَدٌ] بالرفع ، وقوله تعالى : (إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسولٍ) معناه : فإنه يُظْهِرُ على ما شاءَ مما هو قليل من كثير ، ثم

---

(١) أي من قوله تعالى (الْغَيْب) .

يبثُّ الله تعالى حول ذلك الملك الرسول حَفَظَةً رصداً لإبليس وحزبه من الجن والإنس .

وقوله تعالى : [لِيَعْلَمَ] ، قال قتادة : معناه : ليعلم محمد أَن الرسل قد أَبلغوا رسالات ربهم وحُفظوا ومُنع منهم ، وقال سعيد بن جُبير : معناه : ليعلم محمد أَن الملائكة الحفظة الرصد النازلين بين يدي جبريل – عليه السلام – وخَلْفه قد أَبلغوا رسالات ربهم ، وقال مجاهد : معناه : ليعلم من كذَّب أَو أَنكر أَن الرسل قد بلَّغت .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا العلم لا يقع إلاَّ في الآخرة .

وقيل : المعنى : لِيَعْلَمَ الله رُسُلَه مبلغين خارجين إلى الوجود ، لأَنَّ علمه سبحانه بكل شيءٍ قد تقدم ، وقرأَ الجمهور : [لِيَعْلَمَ] بفتح اللام ، أَي : ليعلم الله تعالى ، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما : [لِيُعْلِمَ] بضم الياءِ ، وقرأَ أَبو حيوة : (رسالَةَ رَبِّهِمْ) على التوحيد ، وقرأَ ابن أَبي عبلة : [وَأُحِيطَ] على مالم يُسَمَّ فاعله ، وقوله تعالى : (وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً) معناه : كل شيءٍ معدود ، وقوله تعالى : (لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ) الآية مُضَمَّنة أَنه تعالى قد علم ذلك ، فعلى هذا الفعل المضمن انعطف (أَحاط – أَحصى) ، والله تعالى المُرْشد بمَنِّه وكرمه .

كمل تفسير سورة الجن والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٧٣) سورة المزمل مكية وآياتها عشرون

وهي مكية كلها في قول المهدويِّ وجماعة[(١)] ، وقال الجمهور : هي مكية إلاَّ قوله تعالى : (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ) إلى آخر السورة ، فإن ذلك نزل بالمدينة[(٢)] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ ﴾

---

(١) منهم الحسن ، وعكرمة ، وعطاءٌ ، وجابر .

(٢) وقيل: بل هي مكية إلاَّ آيتان منها ،قوله تعالى: (وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ) والتي تليها .

قوله تعالى : (يَـأَيُّها المُزَّمِّلُ) نداءٌ للنبي صلى الله عليه وسلم ، واختلف الناس ، لِمَ نودي بها ؟ فقالت عائشة ، والنَّخَعي ، وجماعة : لأنه كان في وقت نزول الآية مُتزمِّلاً بكساءٍ ، والتَّزَمُّل : الالتفاف في الثياب بِضَمٍّ وتشمير ، ومنه قول امريءِ القيس :

كأَنَّ أَباناً في أَفانينِ وَدْقِـهِ ... كَبيرُ أُناسٍ في بِجادٍ مُزَمَّلِ (١)

وخفض « مُزَمَّلِ » في هذا البيت هو على الجوار ، وإنما هو نعت لـ « كَبِيرُ » ، فهو عليه الصلاة والسلام ـ على قول هؤلاءِ ـ إنما دُعي بهيئة في لباسه ، وقال قتادة : كان تَزَمَّل في ثيابه للصلاة واستعد فنودي على معنى : يَـأَيُّها المستعد للعبادة المتزمِّلُ لها ، وهذا القول أَمدح له صلى الله عليه وسلم ، وقال عكرمة : معناه : يـأَيها المتزمِّلُ للنبوَّة وأَعبائها ،

---

(١) هذا البيت من معلقة امريء القيس ، وهو أحد أبيات وصف فيها المطر والبرق والرعد وصفاً رائعاً ، وهذه الرواية للبيت رواية الأصمعي ، وقال : هُمَـا أَبَانَـانِ ، جبلٌ أبيض وجبل أسود ، وهما لبني عبد مناف ، وأفانين : ضروب ، والوَدْقُ : المطر ، وفي رواية غير الأصمعي (كأنَّ ثَبيراً في عَرانينِ وَبْلِـهِ) ، وثبير : جبل بمكة ، وعرانين الشيء : أوائله ، والوَبْلُ المطر العظيم ، والبِجادُ : كساءٌ من أَكْسِية الأعراب يصنع من وبر الإبل وصوف الغنم ويكون مخططاً ، ومُزَمَّلٌ : مُلْتَف ، يقول الشاعر : إن المطر قد ألبس الجبل فكأنه مما ألبسه كبير أناسٍ ملتف في ثيابه ، ومُزَمَّل صفة كبير ، ولكنه أجراه على إعراب كلمة « بجاد » للمجاورة ، كما تقول العرب : هذا جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ ، يخفضون خَرِباً لمجاورته للضَّب وهو صفة للجحر .

أي : المُشَمِّر المجِدُّ ، وقال جمهور المفسرين والزهري بما في البخاري من أَنه عليه الصلاة والسلام لمَّا جاءَه المَلَك في غار حراءَ وحاوره بما حاوره رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خديجة رضي الله عنها فقال : زَمِّلوني زملوني ، فنزلت : (يـأَيُّـهَا المُدَّثِّر) ، وعلى هذا نزلت (يـأَيُّـهَا المُزَّمِّلُ) ، وفي مصحف ابن مسعود ، وأُبَيٍّ بن كعب : (يَـأَيُّـهَا المُتزَمِّلُ) ، وقرأَ بعض الناس : (يَـأَيُّـهَا المُزَمَّلُ) بفتح الزاي وتخفيفها وفتح الميم وشدها ، والمعنى : الذي زمَّله أَهلُه أَو زُمِّل للنبوة ، وقرأَ عكرمة : (يـأَيُّـهَا الْـمُزَمِّلُ) بكسر الميم وشدها وتخفيف الزاي ، أَي : المُزَمِّل نفسه .

واختلف الناس في هذا الأَمر بقيام الليل كيف كان ؟ فقال جمهور أَهل العلم : هو أَمر على جهة الندب قد كان لم يُفرض قط ، ويؤيد هذا الحديثُ الصحيح أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام ليلة في رمضان خلف حصير الحجرة ، فصلَّى وصلَّى بصلاته ناس ، ثم كثروا من الليلة القابلة، ثم غص المسجد بهم في الثالثة أَو الرابعة فلم يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحصبوا بابه فخرج مغضباً وقال : (إنِّي إنما تركت الخروج لأَني خفت أَن تفرض عليكم) ، وقيل : إنه عليه الصلاة والسلام لم يكلمهم إلاَّ بعد أَن أَصبح (١) وقال آخرون : كان فرضاً في وقت نزول

(١) روى هذا الحديث الشيخان ، البخاري في باب الأدب ، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، ولفظه كما في البخاري : عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : احْتَجَرَ رسول الله =

هذه الآية ، واختلف هؤلاءِ ـ فقال بعضهم : كان فرضاً على النبي صلى الله عليه وسلم خاصة وبقي كذلك حتى توفي صلى الله عليه وسلم ، وقيل : بل نُسخ عنه ولم يمت إلاّ والقيام تطوع ، وقال بعضهم : كان فرضاً على الجميع ، ودام الأَمر ـ على ما قال سعيد بن جبير ـ عشر سنين ، وقالت عائشة ، وابن عباس رضي الله عنهما : دام عاماً ، ورُوي عنها أَيضاً أنه دام ثمانية أَشهر ثم رحمهم الله تعالى فنزلت : (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقومُ) فخفف عنهم ، وقال قتادة : بقي عاماً أَو عامين . وقرأَ أَبو السمال : (قُمُ اللَّيْلَ) بضَم الميم لاجتماع الساكنين ، والكسر في كلام العرب أَكثر كما قرأَ الناس .

وقوله تعالى : [نِصْفَهُ] يحتمل أَن يكون بدلاً من قوله سبحانه : [قَليلاً] ، ويحتمل أَن يكون بدلاً من [اللَّيْل] ، وكيف تقلَّب المعنى

= صلى الله عليه وسلم حُجيرة مُخَصَّفَةً أوحصيراً ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يُصلي إليها فتَتَبَّعَ إليه رجالٌ وجاءوا يُصلُّون بصلاته ، ثم جاءوا ليلةً فحضروا وأَبطأَ رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم فلم يخرج إليهم ، فرفعوا أصواتهم وحصبوا الباب ، فخرج إليهم مُغضباً فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : مازال بكم صنيعكم حتى ظننت أنه سيُكتب عليكم ، فعليكم بالصلاة في بيوتكم فإن خيْرَ صلاةِ المرءِ في بيته إلاَّ الصلاةَ المكتوبة .

وأخرج ابن جرير الطبري مثله عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن عائشة ، وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للناس حين خرج مُغْضَباً : (يأَيُّها الناس اكْلَفُوا من الأَعمال ما تُطيقون فإن الله لا يَمَلُّ من الثواب حتى تَمَلُّوا من العمل ، وخير الأَعمال ما دمتم عليه) ، ومعنى اكلفوا : تَحَمَّلوا .

فإنه أَمر بقيام نصف الليل أَو أَكثر شيئاً أَو أَقل شيئاً ، فالأَكثر عند العلماءِ لا يزيد على الثلثين ، والأَقل لا ينقص عن الثُّلث ، ويقوي هذا حديث ابن عباس رضي الله عنهما في بيت ميمونة رضي الله عنها ، قال : فلما انتصف الليل أَو قبله بقليل قام رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ، ويلزم على هذا البدل الذي ذكرناه أَن يكون الليل قد وقع عليه الوصف بـ « قليل » ، وقد يحتمل عندي قوله تعالى : (إِلاَّ قَلِيلاً) أَن يكون استثناءً من القيام ، فيجعل الليل اسم جنس ، ثم قال تعالى : (إِلاَّ قَلِيلاً) ، أَي الليالي التي تُخل بقيامها عند العُذر ونحوه ، وهـذا النظر يحسن مع الندب جداً ، وقد تكلم الجرجاني في نظمه في هذه الآية بتطويل وتدقيق غير مفيد ، أَكثره غير صحيح ، وقرأَ الجمهور : (أَوُ انْقُصْ) بضم الواو ، وقرأَ الحسن ، وعاصم ، وحمزة بكسر الواو ، وقرأَ عيسى بالوجهين ، والضميران في [مِنْهُ] ، [عَلَيْه] عائدان على « النصف » .

وقوله تعالى : [وَرَتِّل] معناه في اللغة : تمهَّل وفرِّق بين الحروف لِتَبِين ، والمقصد أَن يجد الفكر فسحة للنظر وفهم المعاني ، وبذلك يرقُّ القلب ويفيض عليه النور والرحمة ، قال ابن كيسان : المراد تفَهُّمُه تالياً له ، ومنه : « الثَّغْرُ الرَّتِل » أَي الذي بينه فُسَح وفُتوح ،

(١) أَخرجه أَبو داود ، والبيهقي في السُّنَن ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : بتُّ عند خالتي ميمونة فقام النبي صلى الله عليه وسلم يصلي من الليل ، فصلى ثلاث عشرة ركعة منها ركعتا الفجر ، فحزرتُ قيامه في كل رقعة بمقدار (يـٰأَيُّهَا الـمُزَّمِّلُ) ، والله أَعلم .

ورُوي أَن قراءَة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت بَيِّنةً مُتَرَسِّلةً لو شاءَ أَحدٌ أَن يعد الحروف لعدها [(١)] .

و « القول الثقيل » هو القرآن ، واختلف الناس ، لم سمَّاه ثقيلا ؟ فقال جماعة من المفسرين : لما كان يحلُّ في رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثقل الجسم حتَّى أَنه كان إذا أُوحي إليه وهو على ناقته بركت به ، وحتى كادت فخذه أَن تَرُضَّ فخذ زيد بن ثابت رضي الله عنه ، وقال أَبو العالية والقرظي : بل سَمَّاه ثقيلا لثقله على الكفار والمنافقين بإعجازه ووعيده ونحو ذلك ، وقال حُذَّاق العلماءِ : معناه : ثقيل المعاني من الأَمر بالطاعات والتكاليف الشرعية من الجهاد ونحوه ومزاولة الأَعمال الصالحة دائماً ، قال الحسن : « إن الهَذَّ خفيف ولكن العمل ثقيل » [(٢)] .

وقوله تعالى : (إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ) ، قال ابن جبير ، وابن زيد : هي

---

(١) في رواية لأبي داود في كتاب الأدب : (كان في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ترتيل وترسيل) ، وأخرج ابن أَبي شيبة عن ابن أَبي مُليكة عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أَنها سئلت عن قراءة النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : إنكم لا تستطيعونها ، فقيل لها : أخبرينا بها ، فقرأَتْ قراءةً ترسَّلت فيها ، وروى أنسٌ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يَمُدُّ صوته بالقراءة مدّاً .

(٢) الْهَذُّ : سرعة القراءة ، يقال : هو يَهُذُّ القرآن ويهُذُّ الحديث هذاً ، أَي يسرده ، قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما : قرأتُ المفصَّل الليلة ، فقال : أَهذّاً كهذّ الشعر ؟ أَراد : أَتهذُّ القرآن هذّاً فتسرع فيه كما تسرع في قراءة الشعر ؟

لفظة حبشية ، تَنَشَّأَ الرجلُ إذا قام من الليل ، فـ « ناشئة » ــ على هذا ــ جمع « ناشِىءٍ » أي قائم ، و (أَشَدُّ وَطْأً) معناه : ثبوتاً واستقلالاً بالقيام ، (وَأَقْوَمُ قيلاً) أي بخُلُوِّ أفكارهم وإقبالهم على ما يقرءُونَه ، قال ابن عباس وأنس بن مالك ، وعلى بن الحسين : ناشئة الليل هي ما بين المغرب والعشاءِ ، وقالت عائشة ، ومجاهد : الناشئة القيامُ بعد النوم ، ومن قام أول الليل قبل النوم فلم يقم ناشئة الليل ، وقال ابن جبير ، وابن زيد ، وجماعة : ناشئة الليل ساعاته كلها ، لأَنها تنشأُ شيئاً بعد شيءٍ ، وقال ابن عباس ، وابن الزبير ، وأبو مجلز ، والحسن : ما كان بعد العشاءِ فهو ناشئة الليل وما كان قبلها فليس بناشئة ، قال ابن عباس : كانت صلاتهم أَول الليل فهي أَشدُّ وَطْأً ، أي أَجْدَرُ أَن تخصوا ما فرض الله عليكم من القيام ؛ لأَن الإنسان متي نام لم يدر متى يستيقظ ، وقال الكسائي : ناشئة الليل أَوله ، وقال ابن عباس ، وابن الزبير أَيضاً : الليل كله ناشئة ، و (أَشَدُّ وَطْأً) ــ على هذا ــ يحتمل أَن يكون : أَشد ثبوتاً ، فيكون نسب الثبوت إليها من حيث هو للقائم فيها ، ويحتمل أَن يريد أَنها صعبة القيام لمنعها النوم ، كما قال : (اللَّهُمَّ اشدد وطأَتك على مضر)[(١)] ، فذكرها تعالى بالصعوبة لُيعْلَمَ عِظَم

---

(١) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري في الأذان والاستسقاء والجهاد والأنبياء وتفسير سورة النساء والأدب ، ومسلم في المساجد ، وأبو داود في الصلاة والوتر ، والنسائي في التطبيق ، وابن ماجه في الإقامة ، وأحمد في مسنده (٢/٢٣٩ ، ٢٥٥ ، ٢٧١) ، ولفظه كما جاءَ فيه عن أبي هريرة رضي الله عنه (لما رفع النبي صلى الله عليه وسلم رأسه من الركعة الآخرة من صلاة الصبح =

الأَجر فيها ، كما قد وُعِدَ عليه الصلاة والسلام على الوضوءِ على المكاره والمشي في الظلام إلى المساجد ونحوه ، وقرأ الجمهور : [وَطْأً] بفتح الواو وسكون الطاءِ ، وقرأَ أبو عمرو ، وابن عامر ، ومجاهد ، وابن الزبير ، وابن عباس : [وِطَاءً] على وزن فِعَالٍ ، والمعنى : مُوَافَقَةً ؛ لأَنه بخُلوِّ البال من أَشغال النهار يُوافِقُ قلبُ المرءِ لسانَه وفِكْرُهُ عبارَتَهُ ، فهذه مواطأَةٌ صحيحة ، وبهذا المعنى فسَّر اللفظَ مجاهدٌ وغيرهُ ، وقرأَ قتادة – في رواية حسين – : [وِطْأً] بكسر الواو وسكون الطاءِ والهمزة مقصورة[1] ، وقرأَ أَنس بن مالك : (وَأَصْوَبُ قِيلاً) ، فقيل له : إنما هو [أَقْوَمُ] فقال : أَقْوَمُ وأَصْوَبُ وَأَهْيَأُ واحدٌ .

قوله تعالى : (إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طويلاً) ، أَي تصرفاً وتردُّداً في أَمورك كما يتردَّد السابح في الماءِ ، ومنه سمِّي الفَرَس سابحاً لِتَثَنِّيه واضطرابه ، وقال قومٌ من أَهل العلم : إنما معنى الآية التَّنْبيه على أَنه إن فات حزب الليل بنومٍ أَو عذر فليخلف بالنهار فان فيه سبحاً طويلاً ، وقرأَ يحيي بن يَعْمَر : (سَبْخاً طويلاً) بالخاءِ المعجمة ، ومعناه : خِفَّة لك من التكاليف ، والتَّسبيخ : التخفيف ، ومنه قول النبي صلَّى الله عليه وسلم لعائشه رضي الله عنها في السارق الذي سرقها فكانت تدعو عليه :

= قال : اللهم أَنج الوليد بن الوليد ، وسَلَمة بن هشام ، وعياش بن أَبي ربيعة ، والمستضعفين بمكة ، اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف) .

(١) يعني غير محدودة كالقراءة السابقة) .

(لا تُسَبِّخِي عنه)[١] ، فمعناه : لا تُخَفِّفِي عنه ، قال أَبو حاتم : فسَّر يحيي السَّبْخَ بالنَّوْم .

وقال سهلٌ : (وَاذْكُرِا اسْمَ رَبِّكَ) يُراد به : بسم الله الرحمن الرحيم في ابتداءِ صلاتك . و [تَبَتَّلْ] معناه : انْقطع من كل شيءٍ إلاَّ منه ، وافرغ إليه ، وقال زيد بن أَسلم : التَّبَتُّل : رفض الدنيا ، ومنه : تَبَتَّل الحبلُ ، وقولهم فِي المطلَّقة : بَتْلَة[٢] ، ومنه : البتول ، و [تَبْتيلاً] مصدر على غير الصَّدْر[٣] .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وابن عامر ، وعاصم - في رواية أَبي بكر - (رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ) بالخفض على البدل من [رَبِّكَ] ، وقرأ الباقون ، وحفص عن عاصم : (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ) بالرفع على القطع ، أَي : هو ربٌّ ، أَو على الابتداءِ والخبر (لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ) ، وقرأَ ابن عباس ، وأَصحاب عبد الله : (رَبُّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِب) بالجمع ، و « الوكيلُ » : القائم بالأُمور الذي توكل إليه الأَشياءُ .

---

(١) أخرجه أَحمد (٦/٢١٥) وأَبو داود في الوتر والأَدب ، ومنه قول الشاعر :

فسبِّخْ عَلَيْكَ الهَمَّ واعْلَم بأَنَّهُ إذا قَدَّر الرحمَنُ شيْئاً فكائِنُ

(٢) في اللسان : «ومنه : طَلَّقها بَتَّةً بَتْلَةً ، قال ذو الرمة :

رَخيماتُ الْكَلاَمِ مُبَتَّلاتٌ جَواعِلُ في الْبَرَى قَصَباً خِدالاَ

أراد : مُبَتّلات الكلام مقطّعات له .

(٣) لأَن صدر الكلام يقتضي أن يقول: « تَبَتُّلاً » ليتفق مع قوله سبحانه : (وتَبَتَّل) لكنه قال : (تَبْتِيلاً) لأن معنى تَبَتَّلَ : بَتَّل نفسه ، فجيءَ على المعنى مراعاة لحق الفواصل .

قوله تعالى : (وَاصْبِرْ عَلَى ما يَقولُونَ) الآية ، قيل : هي مُوَادعة منسوخة بآية السيف ، والمراد بالآية قريش . وقال بعض العلماء : قوله تعالى : (وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَميلاً) منسوخ ، وأما الصبر على ما يقولون فقد يتوجه أحياناً ويبقى حكمه فيما يتوجه من الهجر الجميل بين المسلمين ، قال أبو الدَّرْداءِ : إنا لنكشر في وجوه قوم وإن قلوبنا لتلعنهم ، والقول الأول أظهر ؛ لأن الآية إنما هي في كفارِ قريشٍ وردِّهم رسالته وإعلامِهم بذلك ، ولا يمكن أن يكون الحكم في هذا المقام باقياً .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ ﴾

قوله تعالى : (وَذَرْني وَالْمُكَذِّبينَ) وعيد لهم ، ولم يتعرض أَحدٌ لمنعه منهم لكنه إبلاغٌ بمعني : لا تشغل بهم فكراً وَكِلْهُم إليَّ . و « النَّعْمَةُ » :

غضارة العيش وكثرة المال (١) ، والمُشار إليهم كفار قريش أَصحاب القليب ببدر ، ويُروى أنه لم يكن بين نزول هذه الآية وبين بدر إلاَّ مدة يسيرة نحو عام ، وليس الأَمر كذلك ، والتقدير الذي يُعَضِّده الدليل من أَخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتضي أَن بين الأَمرين نحو عشر سنين ، ولكن ذلك قليل أُمْهلوه .

و [لَدَيْنَا] بمنزلة : عندنا ، و « الأَنْكَالُ » جمع نِكْلٍ وهو القيد من الحديد ، ويروى أَنها قيود سودٌ من نار ، و « الطعام ذو الغُصَّة » : شجرة الزَّقُّوم ، قاله مجاهد وغيرهُ ، وقيل : شوك من نار يعترض في حلقوهم لا يخرج ولا ينزل ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وكل مطعوم هناك فهو ذو غصة ، وروي أَن النبي صلى الله عليه وسلم قرأَ هذه الآية فَصُعق (٢) . والعامل في قوله تعالى: [يَوْمَ] الفعلُ الذي تضمنه قوله سبحانه : (إِنَّ لَدَيْنَا) ، وهو استقرار أَو ثبوت . و« الرَّجفان» : الاهتزاز والاضطراب

(١) النَّعْمة بالفتح : التَّنَعُّم ، وبالكسر الإنْعام وما يُنْعَم به ، وتأتي بالضمة ومعناها المَسَرَّةُ .

(٢) أخرج أحمد في الزهد ، وهناد ، وعبد بن حميد ، ومحمد بن نصر ، عن حمران أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ (إِنَّ لَدَيْنا أَنْكالاً وَجَحِيماً ،وطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً) ، فلما بلغ (أَلِيماً) صعق . وأخرج أبو عبيد في فضائله ، وأحمد في الزهد ، وابن أبي الدنيا في نَعت الخائفين ، وابن جرير ، وابن أبي داود في الشريعة ، وابن عدي في الكامل ، والبيهقي في شُعب الإيمان ، من طريق حمران بن أعين ، عن أبي حرب بن أبي الأسود أن النبي صلى الله عليه عليه وسلم سمع رجلا يقرأ : (إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكالاً وَجَحِيماً) فصُعق .

من فزع وهول ، و « الْمَهِيلُ » : اللَّين الرخو الذي يذهب بالريح وَيجيءُ ، فهي تُهيله ، والأَصل مَهْيُول ، استثقلت الضمة على الياءِ فسُكِّنت ، واجتمع ساكنان فحذفت الواو ، وكسرت الهاءُ بسبب الياءِ .

وقوله تعالى : (إِنَّا أَرْسَلْنَا) الآية .... خطاب للعالم لكن المؤاجَهُون قريش ، وقوله تعالى : (شاهِداً عَلَيْكُمْ) نحو قوله عزَّ وجلَّ : (وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً)(١) ، وتمثيله لهم أَمرهم بفرعون وعيدٌ ، كأَنه تعالى يقول : فحالهم من العذاب والعقاب إِن كفروا سائرةٌ إِلى مثل حال فرعون . وقوله تعالى : (فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسولَ) يريد تعالى موسى عليه السلام ، والأَلف واللام للعهد ، و « الْوَبِيلُ » : الشديد الرديءُ العُقبى ، يقال : كلأٌ وَبيلٌ ومستوبلٌ إِذا كان ضارّاً لمن يرعاه(٢) .

وقوله تعالى : (فَكَيْفَ تَتَّقونَ) معناه : كيف تجعلون واقياً لأَنفسكم ، و [يَوْماً] مفعول بـ [تَتَّقُون] ، وقيل : هو مفعول بـ [كَفَرْتُمْ] على أَن تجعله بمنزلة « جحدتم » ، فـ [تَتَّقُونَ] ـ على هذا ـ من التقوى ، أَي تَتَّقون عقاب الله ، ويجوز أَن يكون [يَوْماً] ظرفاً ، والمعنى : تَتَّقون عقاب الله يوماً ، و [يَجْعَلُ] يصح أَن يكون مُسْنَداً إِلى اسم الله

---

(١) من الآية (٤١) من سورة (النساء) .

(٢) يقال : ماءٌ وبيلٌ : أي وخيم غير مريءٍ ، وكلأٌ مُسْتَوبَل وطعام وَبيل ومُسْتَوبل : إذا لم يُمْرِيء ولم يُستمرأ .

تعالى ، ويصحُّ أن يكون مسنداً إلى اليوم ، وقوله تعالى : [الْوِلْدَانَ] يريد به صغار الأطفال ، وقال قوم : هذه حقيقة ، فتشيب رؤوسهم من شدة الهول ، كما يُرى الشيب في الدنيا من الهمِّ المفرط كهول البحر ونحوه ، وقال آخرون من المتأولين : هو تجوز وإبلاغ في وصف هول ذلك اليوم ، وواحد الوِلدان : وليد ، وواحد الشِّيب أَشْيَب .

قوله تعالى : (السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ) ، قيل : هذا على النسب ، أي ذات انفطار ، كامرأة حائض وطالق ، وقيل : السماءُ تُذكَّر وتُؤنَّث ، وينشد في التذكير :

فَلَوْ رَفَعَ السَّماءُ إِلَيْهِ قَوْماً   لَحِقْنَا بالسَّماءِ مَعَ السَّحَابِ (١)

وقيل : من حيث لم يكن تأنيثها حقيقياً جاز أن تسقط علامة التأنيث لها ، وقيل : لم يُرِدْ باللفظة قصد السماءِ بعينها ، وإنما أراد ماعلا من مخلوقات الله تعالى ، كأنه قَصَد قَصْدَ السَّقْف فذكَّر على هذا

---

(١) هذا البيت من شواهد الفراءِ في « معاني القرآن » ، وكذلك استشهد به صاحب اللسان ، والطبري ، والقرطبي في تفسيره ، وأبو حيان في « البحر المحيط » ، ولم ينسبه أحد ، ورواية القرطبي والبحر : « لحقنا بالسماءِ وبالسحاب » . قال الفراءُ : السماءُ تُذكَّر وتُؤنَّث ، وهي هنا في وجه التذكير ، وقال صاحب اللسان : « وسماءُ كل شيءٍ : أعلاه ، مذكر ، والسماء : سقف كل شيءٍ وكل بيت » . وقال الزجاج : « السماءُ كلُّ ما علاك فأظَلَّك ، ومنه قيل لسقف البيت سماءٌ » ، وقال تعالى (وَجَعَلْنَا السماء سَقْفاً مَحْفُوظاً) .

المعنى ، قاله منذر بن سعيد ، وأبو عبيدة مَعْمر ، والكسائي ، و « الانْفِطارُ » : التَّصَدُّع والانشقاق على غير نظامٍ يُقصد ، والضمير في [بِهِ] قال مُنْذِرٌ وغيره : هو عائد على اليوم ، وقال مجاهد : هو عائد على الله تعالى ، وهذا نظير قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمَامِ ﴾[1] أي بالغمام الذي هو ظُلَلٌ يأْتي الله تعالى فيها ، والمعنى : يأْتي أَمره وقدرته ، وكذلك (مُنْفَطِرٌ بِهِ) أَي بأَمره وسُلطانه ، والضمير في قوله تعالى : [وَعْدُهُ] ظاهر أَنه لله تعالى ، ويحتمل أَن يكون لليوم لأَنه يضاف إِليه من حيثُ هو فيه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾

(١) من الآية (٢٥) من سورة (الفرقان) .

الإشارة بـ [هذه] يحتمل أَن تكون لما ذكر من الأَنْكال والجحيم والأَخذ الوبيل ونحوه ، ويحتمل أَن تكون إلى السورة بأَجمعها ، ويحتمل أَن تكون إلى القرآن بمعنى أَن الأَقوال المنصوبة فيه تذكرة ، والتَّذْكِرة مصدر كالذكر ، وقوله تعالى : (فَمَنْ شاءَ) الآية ليس معناه إباحة الأَمر وضده ، بل يتضمن معنى الوعيد والوعد ، و « السَّبيل » هنا سبيل الخير والطاعة .

قوله تعالى : (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ) الآية ، نزلت تخفيفاً لما كان استمر استعماله من أَمر قيام الليل إمَّا على الوجوب أَو على الندب حسب الخلاف الذي ذكرناه ، ومعنى الآية : إنَّ الله يعلم أَنك تقوم أَنت وغيرك من أُمتك قياماً مختلفاً ، مَرَّةً يكثر ومرَّةً يقلُّ ، ومرَّةً أَدنى من الثلثين ومرَّةً أَدنى من الثلث ، وذلك لعدم تحصيل البشر لمقادير الزمان مع عذر النوم ، وتقدير الزمان حقيقة إنما هو لله تعالى ، وأَما البشر فلا يُحصي ذلك ، فتاب الله عليهم ، أَي رجع بهم من الثقل إلى الخفة ، وأَمرهم بقراءة ما تيسَّر منه ، ونحو هذا تعطي عبارة الفراءِ ومنذر ، فإنهما قالا : [تُحْصُوُه] : تحفظوهُ ، وهذا التأْويل هو على قراءة من قرأَ : (وَنِصْفِهِ وَثُلُثِهِ) بالخفض عطفاً على « الثُّلُثَيْنِ » ، وهي قراءة أَبي عمرو ، ونافع ، وابن عامر ، وأَمَّا من قرأَ (وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ) بالنصب عطفاً على [أَدْنَى] - وهي قراءة باقي السبعة - فالمعنى عنده آخر ، وذلك أَن الله تعالى قد قدَّر أَنهم يُقَدِّرون الزمان على

نحوما أَمر به في قوله سبحانه : (نِصْفَهُ أَوِ ٱنْقُصْ مِنْهُ قَليلاً أَوْ زِدْ عَلَيهِ) ، فلم يبق إِلاَّ أَن يكون قوله تعالى : (عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوه) [بمعنى] (١) : لن تُطيقوا قيامه لكثرته وشدته ، فخفف الله تعالى عنهم فضلاً منه لا لِعِلَّة جهلهم بالتقدير وإِحصاءِ الأَوقات ، ونحو هذا تعطي عبارة الحسن وابن جبير ، فإِنهما قالا : [تُحْصُوهُ] : تُطيقوهُ ، وقرأَ جمهور القراءِ والناس : [وَثُلُثَهُ] بضم اللام ، وقرأَ ابن كثير في رواية شبل عنه : [وَثُلْثَهُ] بسكون اللام .

وقوله تعالى : (فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّر مِنَ الْقُرْآنِ) إِباحةٌ ، هذا قول الجمهور ، وقال ابن جبير وجماعةٌ : هو فرض لابُدَّ منه ولو خمسين آية ، وقال الحسن وابن سيرين : قيام الليل فرض ، ولو قَدْر حلْب شاة ، إِلاَّ أَن الحسن قال : من قرأَ مائة آية لم يحاجِّه القرآن ، واستحسن هذا جماعة من العلماءِ ، قال بعضهم : والركعتان بعد العتمة مع الوتر تدخلان في حكم هذا الأَمر وامتثاله ، ومَنْ زاد زادَهُ الله تعالى ثواباً .

و [أَنْ] في قوله تعالى : (عَلِمَ أَنْ) مخففة من الثقيلة ، والتقدير أَنَّه يكون ، فجاءت السِّين عوضاً من المحذوف ، وكذلك جاءت في قول أَبي مِحْجنَ :

---

(١) ما بين العلامتين زيادة لتوضيح المراد .

وَلا تَدْفِنَنِّي بالْفَلاةِ فَـإِنني
أَخافُ إِذَا ما مِتُّ أَنْ لاأَذوقُهَا [١]

و « الضَّرْبُ في الأَرض » هو السفر للتجارة ، وضَرْبُ الأَرض هو المشي للتَّبَرُّز والغائط [٢] ، فذكر الله تعالى أعذار بني آدم التي هي حائلة بينهم وبين قيـام الليل ، وهي المرض والسفر في تجارة أو غزو ، فخفف عنهم القيام لهذا ، وفي هذه الآية فضيلة الضرب في الأَرض للتجارة وسَوْقٌ لها مع سفر الجهاد ، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :

---

(١) هذا ثاني بيت في قصيدة معروفة لأبي مِحْجَن الثَّقَفي ، وقبله يقول :
إذَا مِتُّ فَادْفِنِّي إلىَ جَنْبِ كَرْمَةٍ تُرَوِّي عِظامِي بَعْدَ مَوتي عُرُوقُهَا
والخطاب موجه إلى ابنه يأمره بذلك ، وفي الأبيات مبالغة على حُبِّه للخمر ، والْفَلاَةُ : الأرض الـمُهلِكة التي لا علَم بها ولا ماء ، ومعنى هذا أنه لا كَرْمَ فيها ، فكأنه يأمره ألاّ يدفنه إلا بمكان ينبت فيه العنب ، وكان أبو مِحْجَن هذا فارساً شجاعاً في الجاهلية والإسلام إلاّ أنه كان مولعاً بشرب الخمر ، وقد حدَّه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وله في ذلك أخبار طويلة في كتب الأدب ، وفيها كلام كثير عن معنى « الخوف » في كلامه ، فارجع إليه في « خزانة الأدب » ، وفي « الحاشية الهندية » للدماميني عند تعليقه على قول ابن هشام في كتاب « المغني » : « الخوف في هذا البيت يقين » . والشاهد هنا أنَّ (أَنْ) مخففة من الثقيلة لوقوعها بعد الخوف بمعنى اليقين ، واسْمُها ضمير الشأن محذوف ، وخبَرُها جملة (أن لا أذوقُها) .

(٢) تبَرَّزَ : خرج إلى البرَاز ، وهو الأرض الواسعة الخالية من الشجر ونحوه ، والغائط : المنخفض الواسع من الأرض ، يقال : ذهب إلى الغائط وجاء منه ، كناية عن التَّبَرُّز ، وفي التنزيل العزيز : (أَو جَاءَ أَحَدٌ مِنكُم مِنَ الْغَائِطِ) .

أَحبُّ الموت إليَّ بَعْد القتل في سبيل الله أَن أَموت بين شعبتي رَحْلي[١] أَضرب في الأَرض أَبتغي من فضل الله .

ثم كرر الله تعالى الأَمر بقراءة ما تَيسَّر منه تأكيداً ، والصلاة والزكاة هنا المفروضتان ، فمن قال إن القيام بالليل غير واجب قال: معنى الآية: خذوا من هذا النَّفْل ما تَيَسَّر وحافظوا على فرائضكم ، ومن قال إنَّ شيئاً من القيام واجب قال : قد قَرَنَهَ الله تعالى بالفرائض لأَنه فرض .

وإقراضُ الله تعالى هو استلاف العمل الصالح عنده ، وقرأَ جمهور الناس : (هُوَ خَيْراً) على أن يكون[هُوَ] فَصْلاً ، وقرأَ محمد بن السميفع ، وأَبو السَّمال : (هُوَ خَيْرٌ) على أَن يكون [هُوَ] ابتداءً و [خَيْرٌ] خبره والجملة تَسُدُّ مسَدَّ المفعول الثاني لـ [تَجِدُوهُ] .

ثم أَمَرَ الله تعالى بالاستغفار ، وأَوجب لنفسه صفة الغفران ، لا إِلٰه غيره ، قال بعض العلماءِ : فالاستغفار بعد الصلاة مستنبط من هذه الآية ومن قوله تعالى : (كَانُوا قَليلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ، وَبِالأَسْحارِهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)[٢] .

---

(١) الرَّحْل : مَسْكن الإنسان وما يستصحبه من الأثاث ، وفي الحديث الشريف : (إذا ابتَلَّت النعال فالصلاة في الرِّحَال) .

(٢) الآيتان (١٧ ، ١٨) من سورة (الذاريات) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وعهدتُ أَبِي رحمه الله تعالى يستغفر إِثر كل مكتوبة ثلاثاً بعقب السلام وَيَأْثِرُ[١] في ذلك حديثاً ، فكأَن هذا الاستغفار من النقص وتقلُّب الفكر أَثناءَ الصلاة ، وكان السلف الصالح يصلون إلى طلوع الفجر ثم يجلسون للاستغفار إلى صلاة الصبح .

كمل تفسير سورة المزمل والحمد لله ربِّ العالمين

(١) يقال : أَثَرَ الحديثَ بَمعْنى نقله ورواه عن غيره ، ومضارع (أَثَرَ) هذه هو (يَأْثُرُهُ ويَأْثِرُهُ) بضم الثاء وبكسرها (راجع لسان العرب) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٧٤) سورة المدثر مكية وآياتها ست وخمسون

وهي مكية بإجماع من أهل التأويل .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ
فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧
فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ
يَسِيرٍ ۝١٠ ﴾

اختلفت القراءة في [الْمُدَّثِّر] على نحو ما ذكرناه في [الْمُزَّمِّل] ، وفي حرف أُبَيِّ بن كعب : « الْمُتَدَثِّر » ومعناه : المُتَدَثِّر بثيابه ، والدِّثارُ : ما يتغطَّى الإنسان به من الثياب .

واختلف الناس ، لم ناداه بالمدَّثِّر ؟ فقال جمهور المفسرين بما ورد في البخاري من أنه صلى الله عليه وسلم لمَّا فرغ من رؤْية جبريل عليه السلام على كرسيٍّ بين السماءِ والأَرض فرُعب منه ورجع إلى خديجة ،

قال : زَمِّلُوني زَمِّلُوني ، فنزلت (يَـأَيُّها الْمُدَّثِّرُ)(١) ، وقالت عائشةُ ، والنَّخَعيُّ ، وقتادة : نُودِي وهو في حال تدثُّر فدعي بحالٍ من أَحواله ، ورُوي أنه كان تدثَّر في قطيفة ، وقال آخرون : معناه : يـأَيُّها النائم ، وقال عكرمه : معناه : يـأَيُّها المدَّثِّر للنبوة ، وأَثقالها .

---

(١) أخرجه البخاري عن وكيع ، عن علي بن المبارك ، عن يحيى بن أبي كثير ، قال : سألتُ أبا سَلَمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن ، قال : (يَـأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) ، قلت : يقولون : (اقْرَأْ باسْمِ ربك الذي خَلَقَ) ، فقال أَبو سَلَمَة : سألت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن ذلك ، وقلتُ له مثل الذي قلتَ ، فقال جابر : لا أُحَدِّثُك إلاَّ ما حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال : (جاورت بِحِراء ، فلما قضيتُ جواري هبطت ، فنوديتُ فنظرتُ عن يميني فلم أر شيئاً ، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ، ونظرت أمامي فلم أرَ شيئاً ، ونظرت خلفي فلم أرَ شيئاً ، فرفَعْتُ رأسي فرأيتُ شيئاً ، فأتيتُ خديجة فقلتُ : دَثِّروني وصُبُّوا عليَّ ماءً بارداً، قال : فدثَّروني وصبُّو عليَّ ماءً بارداً ، فنزلت (يَـأَيُّها الْمُدَّثِّرُ ، قُم فَأَنْذِرْ ، ورَبَّكَ فَكَبِّرْ) ، هكذا ساقه البخاري من هذا الوجه ، ورواه مسلم من طريق عُقَيْل ، عن ابن شهاب ، عن أَبي سَلَمة ، قال : أخبرني جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه : (فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعتُ بصري قِبَل السماء ، فإذا الْمَلَكُ الذي جاءني بِحِراءَ قاعد على كرسيٍّ بين السماءِ والأرض ، فَجُئِثْتُ منه – أي خفتُ وفزعتُ – حتى هويت إلى الأرض ، فجئتُ إلى أَهلي فقلت: زملوني زمِّلوني زملوني، فأُنزل (يَـأَيُّها الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فأَنْذِرْ ... إلى ...فاهْجُرْ) .
وهذا السياق هو المحفوظ ، ويقتضي أن الوحي قد نزل أولاً بقوله تعالى : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)، لقوله في الحديث (فإذا الملَكُ الذي جاءني بحِرَاءَ) ، ثم حدثت فترة ، ثم نزل الوحي وتتابع . وذكر الإمام السيوطي في « الدر المنثور » أن هذا الحديث قد أَخرجه الطيالسي وعبد الرزاق ، وأَحمد ، والبخاري ، وعبد بن حميد ، ومسلم ، والترمذي ، وابن الضَّريس ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، وابن الأنباري في المصاحف ، ورواية أحمد في مسنده (٣٢٥/٣) تشبه في لفظها لفظ رواية مسلم ، وقد أَخرج البخاري أَيضاً الحديث من طريق عُقَيْل بلفظ مسلم .

واختلف الناس في أول ما نزل من كتاب الله تعالى ، فقال جابر ابن عبد الله ، وأبو سَلَمة ، والنَّخَعي ، وجماعة : هو (يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) الآيات ، وقال الزهري والجمهور : هو (اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَق) ، وهذا هو الأَصح ، وحديث صدر البخاري نصٌّ في ذلك[(١)] .

وقوله تعالى : (قُمْ فَأَنْذِرْ) بِعْثة إِلى جميع الخلق ، قال قتادة : المعنى : أَنذر عذاب الله ووقائعه بالأُمم ، وقوله تعالى : (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ)

---

(١) هذا حديث طويل أخرجه البخاري في كتاب (بدء الوحي) عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : أَول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤْيا الصالحة في النوم ، فكان لايرى رؤْيا إلاجاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبِّب إليه الخلاءُ ، وكان يخلو بغار حراءَ فيتحنَّث فيه ــ وهو التَّعَبُّد ــ الليالي ذوات العدد قبل أن يَنْزِع إلى أَهله ويتزوَّد لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوَّد لمثلها ، حتى جاءَه الحق وهو في غار حراءٍ ، فجاءَه الملَك فقال : اقرأْ ، قال : ما أَنا بقاريء ، قال : فأخذني فَغَطني حتى بلغ مني الْجَهْد ثم أرسلني ، فقال : اقرأْ ، قلت : ما أنا بقاريء ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الْجَهْد ثم أرسلني ، فقال : اقرأْ ، فقلت : ما أنا بقاريء ؟ فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني ، فقال : (اقرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ) ، فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجُف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خُوَيْلد ، فقال : زَمِّلُوني زَمِّلُوني ، فَزَمَّلُوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي ، فقالت خديجة : كلاَّ ، والله ما يُخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرَّحِم ، وتَحْمل الكَلَّ ، وتَكْسب المعدوم ، وتَقْري الضيف ، وتُعين على نوائب الحق ...) إلى آخر الحديث ، وقد أورد الإمام السيوطي هذا الحديث في « الدُّر المنثور » وذكر أن ممن أخرجه عبد الرزاق ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، وابن جرير ، وابن الأنباري في المصاحف ، وابن مردويه ، والبيهقي من طريق ابن شهاب ، عن عروة بن الزبير عن عائشة أُم المؤمنين رضي الله عنها ، وهذا الحديث واضح الدلالة على أن قوله تعالى : (اقرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) هو أول ما نزل من القرآن كما ذكر ابن عطية رحمه الله .

معناه : عَظِّمْه بالعبادة وبثَّ شرعه ، ورُوي عن أَبِي هريرة أَن بعض المؤمنين قال : بِمَ نفتتح صلاتَنا ؟ فنزلت : (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ) .

واختلف المتأَولون في معنى قوله تعالى : (وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ) ـ قال ابن سيرين ، وابن زيد بن أَسلم ، والشافعي ، وجماعة : هو أَمْرٌ بتطهير الثياب حقيقة ، وذهب الشافعي وغيره من هذه الآية إلى وجوب غسل النجاسات من الثياب ، وقال الجمهور : هذه الأَلفاظ استعارة في تنقية الأَفعال والنفس والعرض ، وهذا كما تقول : فلان طاهر الثوب ، ويقال للفاجر : دنس الثوب ، ومنه قول الشاعر :

وَإِنِّي بِحَمْدِ اللهِ لا ثَوْبَ فَاجِرٍ لَبِسْتُ وَلاَ مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ (١)

وقال الآخر :

لاَ هُمَّ إِنَّ عامِرَ بْنَ جَهْمِ أَوْذَمَ حَجًّا في ثِيَابٍ دُسْمِ (٢)

---

(١) هذا البيت قاله غيلان بن سَلَمة الثَّقفي ، وهو في اللسان ـ ثوب ـ وفي الطبري ، والقرطبي ، وابن كثير ، والبحر المحيط ، والدُّر المنثور ، وفتح القدير ، وقد نقل في اللسان عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : « معنى الآية : لاتَلْبَس ثيابكَ على معصية ، ولا على فجور كُفْر » ، واحتج بقول الشاعر : إنِّي بِحَمْدِ الله .... البيت . ويروى البيت « وَلاَ من خَزْيَةٍ » بدلاً من « وَلاَ من غَدْرَةٍ » ، والخَزْيَة : البَلِيَّةُ والخَصْلة يستحي منها الإنسانُ ، والغَدْرَةُ : نقض العهد وتَرك الوفاء به ، والتَّقَنُّعُ : التغطي بثوب أو نحوه ، والمراد هنا أنه لم يفعل شيئاً يستحي منه ويتوارى خجلاً من الناس .

(٢) هذان بيتان من الرَّجَز أوردهما صاحب اللسان ـ وذم ـ شاهداً على أن (أَوذَمَ) بمعنى أَوْجَبَ ، يقال : أَوذَمَ على نفسه حَجّاً أو سفراً : أَوجبه ، والثياب الدُّسْمُ هي المتلطِّخة =

أَي دَنِسَة ، وقال ابن عباس ، والضحاك ، وغيرهما : المعنى : ولا تلبسها على غدر ولا فجور ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً : المعنى : لا تلبسها من مكسب خبيث ، وقال النَّخَعيُّ : المعنى : طهِّرها من الذنوب ، وهذا كله معنى قريب بعضه من بعض ، وقال طاوس : المعنى : قصِّرها وشمِّرها فذلك طُهْرة للثياب .

وقرأَ جمهور الناس : (وَالرِّجْزَ فَاهْجُرْ) بكسر الراءِ ، وقرأَ حفص عن عاصم ، والحسنُ ، ومجاهدٌ ، وأَبو جعفر ، وشيبة ، وأَبو عبد الرحمن والنَّخَعي ، وابن وثَّاب ، وقتادة ، وابن أَبي إسحق ، والأَعرج : (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) بضم الراءِ ، فقيل : هما بمعنى واحد يراد بهما الأَصنام والأَوثان ، وقيل : للأَصنام عموماً ، قاله عكرمة ، ومجاهد ، والزهري ، وقال ابن عباس : الرُّجْزُ : السُّخط ، فالمعنى : اهجر ما يُؤَدي إليه ويوجبه ، وقال الحسن : كل معصية رجزٌ ، وروى جابر أَن النبي صلى الله عليه وسلم فسَّر هذه الآية بالأَوثان(١) .

= بالذنوب ، يقول الشاعر : إن عامر بن جَهْمٍ قد أحرم بالحجِّ وهو مُدَنَّس بالذنوب . والبيتان أيضاً في القرطبي وفي البحر المحيط ، ولم ينسبهما أحدٌ ممن ذكرهما ، والشاهد أن الراجز هنا كنَّى عن دَنَس النفس بالثياب الدَّنسة .

(١) جاء هذا في حديث جابر الذي رواه الإمام أحمد من طريق ابن شهاب عن أبي سلمة ابن عبد الرحمن ، يقول : أخبرني جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ثم فتر الوحي عني فترة ، فبينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري قِبَل السماء فإذا =

واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾ ـ فقال ابن عباس وجماعة : معناه : لا تُعْطِي عطاءً لِتُعْطَى أَكْثَر منه ، فكأنه من قولهم : « مَنَّ إذا أَعْطَى » ، وقال الضحاك : وهذا خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم ومباح لأُمته لكن لا أَجْر لهم فيه ، قال مكّيٌّ : وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَ في أَمْوَالِ النَّاسِ فَلاَ يَرْبُو عِنْدَ اللهِ ﴾[1] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله .

وهذا معنى أَجنبي من معنى هذه السورة .

وحكى النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : ﴿ وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾ : لا تقل : دعوتُ فلم أُجَبْ ، ورُوِي عن قتادة أَن المعنى : لا تُدِلَّ بعملك[2] ، ففي هذا التأْويل تحريض على الجِدِّ وتخويف ،

= الملك الذي جاءني بِحِرَاءَ الآن قاعد على كرسيٍّ بين السماء والأرض، فَجُئِثْتُ منه فرقاً ـ أي فزعت ورُعبت ـ حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلي فقلتُ : زمّلوني زمّلوني ، فزملوني، فأنزل الله عزوجل : ﴿ يأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ، وثِيَابَكَ فَطَهِّرْ، والرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ ، قال أبو سَلَمة : الرُّجْزُ : الأوثان ، ثم حمى الوحيُ وتَتَابع ، اهـ . وهذه الرواية تفيد أن هذا التفسير من أبي سلمة .

(١) من الآية (٣٩) من سورة (الرُّوم) .

(٢) من قولهم : « أَدَلَّ عليه » بمعنى : وَثِق بمحبته فأفرط عليه ، وهي بمعنى تَدَلَّل عليه .

وقال ابن زيد : معناه : ولا تَمْنُن على الناس بِنُبُوَّتك تستكثر بأَجْر أَو كسبٍ تطلبه منهم ، وقال الحسن بن أَبي الحسن : معناه : ولا تَمْنُن على الله تعالى بِجِدِّك تَستكثر أَعمالك ويقع لك بها إِعجاب ، فهذه كلها من المنِّ الذي هو تعديد اليد وذكْرها ، وقال مجاهد : معناه : ولا تَضْعُف تستكثر ما حَمَّلْناكَ من أَعباءِ الرسالة أَو تستكثر من الخير ، فهذا من قولهم : « حَبْلٌ منين » أَي ضعيف (١) . وفي قراءة ابن مسعود : « وَلا تَمْنُنْ أَنْ تَسْتكْثِر ، وقرأَ الأَعمش : [تَسْتَكْثِر] بنصب الراءِ على تقدير « أَنْ » مضمرة ، وضعَّف أَبو حاتم الجزم ، وقرأَ ابن أَبي عبلة : [وَلاَ تَمْنُنْ فَتَسْتَكْثِرْ] بالفاءِ العاطفة والجزم ، وقرأَ أَبو السَّمال : (وَلاَ تَمُنَّ) بنون واحدة مشددة .

(وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) ، أَي لوجه ربك وطلب رضاه ، كما تقول : فعلتُ كذا لله تعالى ، والمعنى : على الأَذى من الكفار ، وعلى العبادة ، وعن الشهوات ، وعلى تكاليف النبوة ، قال ابن زيد : وعلى حرب الأَحمر والأَسود ، لقد حمل صلى الله عليه وسلم أَمراً عظيماً .

و « النَّاقور » : الذي ينفخ فيه ، وهو الصور ، قاله ابن عباس وعكرمه ، وقال خُفافُ بنُ نَدْبة :

---

(١) ذكر ابن عطية ستة أقوال في الآية ، وذكر القرطبي فيها أحد عشر تأويلا .

إِذَا نـــاقورُهُـــم يَوْمـــاً تَبَدَّى أَجاب النَّاسُ مِنْ شَرْقٍ وَغَرْبِ [(١)]

وهو « فاعول » من النَّقر ، وقال أَبو حبَّان [(٢)] : أَمَّنا زُرارة بنُ أَوْفى [(٣)] فلما بلغ (فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ) خَرَّ ميتاً ، وروي أَن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوماً لأَصحابه : (كيف أَنعم وصاحب القرن قد التقمه وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر بالنفخ) ؟ ففزع الصحابة فقالوا : كيف نقول يارسول الله ؟ قال : (قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا) [(٤)] .

و (يَوْمٌ عَسِيرٌ) معناه : فيه عسْرٌ في الأَمور الجارية على الكفار ،

---

(١) الناقورُ هو الصُّور الذي ينفخ فيه ، والنَّقْرُ في كلام العرب : الصوت ، يقول خُفاف : إن هؤلاءِ القوم لهم مكانتهم بين الناس ، فإذا تنادوا يوماً لأمر أجابهم كل من في الشرق والغرب ، والشاعر اسمه خُفافُ بن عُمَيْر بن الحارث بن الشريد السُّلَمِيُّ ، واسم أُمِّه نَـُدبة ـــ بفتح النون وبضمها ، وإليها ينُسب ، وهو أَحد أَغربة العرب ، أي من سودانهم ، وهم ثلاثة : عنترة ، والسُّلَيْك السَّعْدي ، وخُفاف هذا .

(٢) اختلفت الأُصول في كتابة هذا الاسم ، فهو في بعضها (أبو جناب) ، وفي بعضها (أبو خُفاف) ، وفي بعضها (أبو حِبَّان) ـــ وهذا يتفق مع ما في القرطبي ـــ ، وجاء في الدر المنثور عن ابن سعد ، والحاكم أن الذي قال ذلك هو (بَهْزُ بن حكيم) ، قال : فكنت فيمن حمله .

(٣) هو زُرَارَةُ ـــ بضم أوله ـــ ابن أوفى العامري ، الْحَرَشي ، أبو حاجب البصري ، قاضي البصرة ، قال عنه الحافظ بن حجر العسقلاني : « ثقة ، عابد ، من الطبقة الثالثة ، مات فجأة في الصلاة سنة ثلاث وتسعين » .

(٤) رواه ابن جرير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وزاد الإمام السيوطيُّ في « الدُّر المنثور » نسبته إلى ابن أبي شيبة ، والطبراني ، وابن مردويه .

فوصف الله تعالى اليوم بالعُسْر لكونه ظرف زمان له ، وكذلك تجيءُ صفته باليسر ، وقرأ الحسن : [عَسِرٌ] بغير ياءٍ .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾

قوله تعالى : (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ) وعيدٌ محضٌ ، والمعني : أنا أكفي عقابه وشأنه كله ، ولا خلاف بين المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد ابن المغيرة المخزومي ، فيروى أنه كان يلقّب بالوحيد لأنه لا نظير له في ماله وشرفه في بيته ، فذكر « الوحيد » في الآية في جملة النِّعم التي أُعطي ، وإن لم يثبت هذا ، فقوله تعالى : (خَلَقْتُ وحيداً) معناه : مُنْفرداً قليلاً ذليلاً ، فجعلت له المال والبنين (١) ، فجاءَ ذكْر الوحْدة مقدمةً حَسُن معها موقع المال والبنين ، وقيل : المعنى : خلقته وحدي لم

(١) فتكون (وَحيداً) حالاً من الضمير المحذوف العائد على (مَن) في قوله تعالى : (وَمَن خَلَقْتُ) .

يشركني فيه أَحد ، فـ [وَحِيداً] حال من التاءِ في [خَلَقْتُ] [١] .

و « الْمَالُ الممدودُ » قال مجاهد ، وابن جُبير : هو أَلف دينار ، وقال سفيان : بلغني أَنه أَربعة آلاف ، وقاله قتادة ، وقيل : عشرة آلاف .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فهذا مدٌّ في العدد .

وقال النعمان بن سالم : هي الأَرض لأَنها مُدَّت ، وقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه : المال الممدود : الرَّيع الْمُسْتَغَلُّ مشاهرةً ، فهو مَدٌّ في الزمان لا ينقطع .

(وَبَنِينَ شُهُوداً) معناه : حضوراً متلاحقين ، قال مجاهد وقتادة : كان له عشرة من الولد ، وقال ابن جبير : كان له ثلاثة عشر ، و « التَّمْهِيدُ » التَّوْطئة والتَّهيئة ، قال سفيان : المعني : بسطتُ له العيشَ بَسْطاً .

وقوله تعالى : (ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ) وصفٌ لجشع الوليد ورغبتهِ في الازدياد من الدنيا ، وقوله تعالى : [كَلاَّ] زَجْرٌ وردٌّ على أُمنية هذا المذكور ، ثم ذكر تعالى عنه أَنه كان معانداً مخالفاً لآيات الله وعِبَره [٢] ،

(١) وقيل : يجوز أن يكون حالاً من ضمير النصب في (ذَرْنِي)، ويكون المعنى : ذرني وحدي معه فأنا أجزيك في الانتقام منه .

(٢) في بعض النسخ : « وَغِيَره » ، وكأنه من تغيُّر الحال ، إذ يقال : لا أراني الله بك غيَراً ، أي أحوالاً متغيرة .

يقال : بعير عنودٌ للَّذي يمشي مخالفاً للإبل ، ويحتمل أن يريد بالآيات آيات القرآن ، وهو الأَصح في التأْويل بسبب كلام الوليد في القرآن بأَنه سحر ، و « أُرْهِقُهُ » معناه : أُكلفه بمشقة وعُسر ، و « صَعَود » عقبة في نار جهنم ، وروى ذلك أَبو سعيد الخدريُّ عن النبي صلى الله عليه وسلم (١) ، كلما وُضع عليها شيءٌ من الإنسان ذاب ، والصعود في اللغة : العَقَبة الشاقة .

قوله تعالى مخبرا عن الوليد : (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ) الآية . روى جمهور من المفسرين أَن الوليد سمع من القرآن ما أَعجبه وَمَدَحه ، ثم سمع كذلك مراراً حتي كاد أَن يُقارب الإسلام ، ودخل إلى أَبي بكر الصديق رضي الله عنه مراراً ، فجاءَه أَبو جهل فقال : ياوليد ، أَشعرتَ أَنَّ قريشاً قد ذَمَّتك بدخولك إلى ابن أَبي قحافة ، وزعَمَتْ أَنك إنما تقصد أَن تأْكل طعامه ؟ وقد أَبغضتك لمقاربتك أَمر محمد ، وما يخلصك عندهم إلاَّ أَن تقول في هذا الكلام قولاً يُرضيهم ، ففتنه أَبو جهل فافتتن ، وقال : أَفْعَل ذلك ، ثم فكَّر فيما عسي أَن يقول في القرآن ، فقال : أَقول هو شعر ، ما هو بشعر ، أَقول : هو كاهن ، ما هو بكاهن ، أَقول : هو سحْر يُؤْثر ، هو قول البشر (٢) ، أَي ليس مُنَزَّلاً من عند الله تعالى ،

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، والفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن أَبي الدنيا ، وابن المنذر ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي . « الدُّرُّ المنثور » .

(٢) ذكره الواحدي بسنده في « أسباب النزول » عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وأخرجه ابن جرير في تفسيره ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الدلائل .

قال أكثر المفسرين : فقوله تعالى : ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ دعاءٌ عليه وتَقْبيح لحاله ، أي أنَّه ممن يستحق ذلك . ورُوي عن الزهري وجماعة غيره أن الوليد حاجَّ أبا جهل وجماعة من قريش في أمر القرآن ، وقال : إن له والله لحلاوة ، وإن أصله لَغَدِقٌ[(١)] ، وإنَّ فرعه لَجَنَاةٌ[(٢)] ، وإنه ليحكم ما تحته ، وإنه ليَعْلُو ولا يُعْلَى ، ونحو هذا من الكلام ، فخالفوه فقالوا له : هو شِعر ، فقال ؛ والله ما هو بِشِعر ، ولقد عرفنا الشِّعر هَزَجَهُ وَبسيطه[(٣)] ، قالوا : فهو كاهن ، فقال : والله ما هو بكاهن ، ولقد رأينا الكهان وزَمْزَمتهم[(٤)] ، قالوا : فهو مجنون ، قال : والله ما هو بمجنون ، ولقد رأينا الجنون وخنقه[(٥)] ، قالوا : هو سِحْر ، قال ؛ أمَّا هذا فيشبه أنه سِحْر ، ويقول أقوال نَفْسه[(٦)] .

---

(١) من قولهم : أغْدقت الأرضُ : أخصبت ، والعيشُ : اتَّسع ، والمطر : كَثُر ، فالمراد أنه كثير الخير والبركة .

(٢) الجَنَاةُ : كلٌّ ما يُجْنَى ويجمع من الشجر ، والمراد أنه كثير الخير قريبه لمن يريد أن ينتفع به .

(٣) الهَزَج : نوع من بحور الشعر العربيِّ ، سمِّى بذلك لتقارب أجزائه ، ولأن نغمته فيها ترنم خفيف مُطْرب ، والبسيط أيضاً أحد بحور الشعر الكثيرة الشيوع .

(٤) الزَّمْزمة : صوتٌ مُبهم يديره الكاهن في حَلْقه وخيشومه ، لا يُحرك فيه لساناً ولاشفة .

(٥) من الاختناق ، وهو ما يفعله الإنسان بنفسه من تضييق الحَلْق .

(٦) ذكره الطبري بنحو من هذا .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فيحتمل قوله تعالى : (فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) أَن يكون دعاءً عليه على معنى تقبيح حاله[(١)] ، ويحتمل أَن يكون دعاءً مقتضاه استحسان منزعه الأَول في مدحه القرآن ، وفي نَفْيه الشِّعر والكهانة والجنون عنه ، فيجري هذا مجرى قول النبي صلى الله عليه وسلم لأَبي جندل بن سهيل : (وَيْلُ امِّهِ مِسْعَرُ حَرْبٍ)[(٢)] ، ومجرى قول عبد الملك بن مروان : قاتل الله كُثَيِّراً ، كأَنه رآنا حين قال كذا[(٣)] ، وهذا معنى مشهور في كلام العرب .

---

(١) أي مَيْلَه واتجاهه الأول من مدح للقرآن ونفي للشعر عنه .

(٢) جاء هذا في حديث طويل عن صلح الحُدَيْبِيَة وما تبعه من أحداث ، وقد أخرجه البخاري في كتاب الشروط ، وأبو داود في الجهاد ، وأحمد في مسنده (٣٣١/٤) ، وفي الحديث أنّ « أبا بصير » وهو رجل من قريش أسلم وجاء إلى المدينة ، فأرسلت قريش رجليْن في طلبه طبقاً لما تمّ الاتفاق عليه في عهد الحديبية ، فسلمه النبي صلى الله عليه وسلم للرجلين ، ولكن أبا بصير احتال عليهما وقتل أحد الرجلين ، ثم عاد إلى المدينة وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يانبي الله ، قد والله أوفى الله ذِمَّتك ، قد رَدَدْتني إليهم ثم نجاني الله منهم ، فقال صلى الله عليه وسلم (وَيْلُ امِّه مِسْعَر حَرب لو كان له أحد) ، فلما سمع ذلك عرف أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه سيردُّه إلى قريش فخرج حتى أتي سِيفَ البحر ، وخرج أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير ، واجتمع معهما نفر كثير ... الخ الحديث ، وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم كان عن أبي بصير .

(٣) يأتي هذا التعبير « قاتَلَ اللهُ فلاناً » بمعنى : لَعَنه أو قَتَله أو عاداه ، وقد يأتي بمعنى التعجب من الشيء كقولهم : « تَرِبَت يَدَاه » .

ثم وصف تعالى إِدْباره واستكباره وأَنَّه ضَلَّ عند ذلك وكفر ، وإذا قلنا إن ذلك دُعاءٌ على مُسْتَحَسَن فعله فيجيءُ قوله تعالى : (ثُمَّ نَظَرَ) فيما احتجَّ به للقرآن فرأى ما فيه من عُلُوِّ مرتبة محمد صلى الله عليه وسلم فَعَبَس لذلك وَبَسَر ، أَيْ قطَّب وقَبَضَ ما بَيْن عينيه وارْبَدَّ وجهه حسداً له ، فأَدْبَرَ ، أَي ارْتكَسَ في ضلاله ، وزال إقباله أَوَّلاً ليهتدي وَلَحِقَتْه الكبرياءُ ، وقال : هذا سِحْرٌ يُؤْثَرَ ، ومعناه : يُرْوى ويُحْمَل[1] ، أَي يحمله محمد عن غيره ، وعلى التأْويل الأَول أن الدعاءَ عليه دعاءٌ على مُسْتَقْبَح فِعْله يجيءُ قوله تعالى : (ثُمَّ نَظَرَ) معنىً معاداً بعينه ؛ لأَن (فكَّرَ وَقدَّرَ) يقتضيه[2] ، لكنه إِخْبارٌ بترديده النَّظَر في الأَمر ، وقدرُوي أَن النبي صلى الله عليه وسلم دعا الوليد ، فقال له : أَنْظُرُ وأُفَكِّرُ ، فلما فكَّر قال ما تقدم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾

(١) في بعض النسخ : « ويحتمل » .
(٢) هكذا في الأصول ، ولعله يريد : لأن (فكَّر وقدَّر) كلام يقتضيه .

[سَقَر] هو الدرك السادسُ من جهنَّم على ما روُي ، و « أُصْلِيهِ » معناه : أَجعله فيها مباشراً لنارها ، وقوله تعالى : (وَمَا أَدْراكَ ما سَقَرُ) هو على معنى التَّعجب من عظم أَمرها وعذابها ، ثم بيَّن تعالى ذلك بقوله : (لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ) ، المعنى : لا تُبقي على من أُلْقي فيها ولا تَذَرُ غايةً من العذاب إلاَّ أَوصلته إليها .

قوله تعالى : (لَوَّاحَةٌ لِّلبَشَرِ) ، قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة وأَبُو رَزين ، وجمهور الناس : معناه : مُغَيِّرَةٌ للبشرات ، مُحرقة للجلود ، مُسودة لها ، فـ« الْبَشَرُ » جمع بشرة ، وتقول العرب : لاحت النارُ الشيءَ إذا أَحرقته وسوَّدته ، وقال الشاعر :

لاَحَهُ الصَّيْفُ والغِيارُ وَإشْفا قُ عَلَى سَقْبَةٍ كَقَوْسِ الضَّالِ (١)

---

(١) البيت للأعشى ، وهو من قصيدته المعروفة « ما بُكاءُ الكبير بالأَطلال » ، واستشهد به صاحب اللسان في « سَقَبَ » و « ضيل » والضمير في « لاحَهُ » يعود على حمار الوحش الذي ذكره في البيت السابق ، ومعنى لاحَه : غَيرَّ لونه إلى سواد ، يقال :لاحَهُ السَّفر والبَرْد والسُّقم والحزُْن والعطش بمعنى غيَّره ، والغِيارُ : الغنيمة يأْتي بها الإنسان لأَهله ، والمراد هنا أن الحمار الوحشي قد غيرَّه الصيف والتعب في الغنيمة التي يأتي بها لرفيقته من الأُتُن وهي « السَّقْبَةُ » ، وفي الديوان بدلاً من الغيار « الصِّيَالُ » ، والمراد : المواثبة والعِراكُ مع غيره من الحمر دفاعاً عن هذه الأتان ، والسَّقْبَة : الجحشة التي لا تلِدُ إلا ذكوراً ، أو تضع أكثر ما تضع من الذكور ، وفي الديوان « صَعْدَة » وهي الأتَان أَيضاً ، والضَّالُ : شجر السِّدْر من شجر الشوك ، وينبت في السهول والوعُور ، وقوسُ الضَّال إذا بُرِيَتْ جَزَلةٌ ليكون أَقوى لها ، وإنما يحتمل ذلك منها لِخِفَّةِ عودها ، ذكر ذلك في اللسان، ثم استشهد بالبيت على ذلك ، يشبه الشاعر الأتان بهذا القوس بعد أن وصف حمار الوحش بالسواد والتغير من أجل دفاعه عنها .

وأنشد أبو عبيدة :

يابْنَةَ عَمِّي لاَحَنِي الْهَوَاجِرُ[١]

وقال الحسن ، وابن كيسان : [لَوَّاحَةٌ] بناءُ مبالغة من « لاحَ يَلوحُ » إذا ظهر ، فالمعنى أنها تظهر للناس وهم البشر من مسيرة خمسمائة عام ، وذلك لعظمها وهولها وزفيرها ، وقرأ عطية العوفي : [لَوَّاحَةً] بالنصب .

وقوله تعالى : (عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ) ابتداءٌ وخبره مقدم في المجرور ، ولا خلاف بين العلماءِ أنهم خزنة جهنم المحيطون بأَمرها ، الذين إليهم جماع أَمر زبانيتها ، وقد قال بعض الناس : إنهم على عدد حروف « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » لأَن بها تقووا ، ورُوي أَن قريشاً لما سمعت هذا كثر إلغاطهم[٢] فيه وقالوا : لو كان هذا حقّاً فإن العدد قليل ، فقال أَبو جهل : هؤلاءِ تسعة عشر وأَنتم الدَّهْم[٣] ، أَفيعجز عشرة منا

---

(١) هذا عجز بيت استشهد به القرطبي أيضاً ، والبيت بتمامه :

تَقُولُ ما لاَحَكَ يا مُسَافِرُ يابْنَةَ عَمِّي لاَحَنِي الْهَوَاجِرُ

والهواجر : جمع هاجرة وهي شدة الحر في وقت الظهيرة ، تسأله : ماذا غيَّرَكَ أيها المسافر ؟ فيقول لها : غيرني يابنت عَمِّي شِدَّةُ الحرِّ في وقت الظهيرة ، والبيت أَيضاً في « مجاز القرآن » ، وفي « الألوسي » .

(٢) أَلْغَطَ القومُ : صَوَّتوا أصواتاً مختلفة مبهمة لا تفهم .

(٣) الدَّهم ـ بفتح الدال ـ : العَدَدُ الكثير ، يقال : جاءَ دهم من الناس ، وجيش دهم أي كثير .

عن رجل منهم ؟ وقال أَبو الأَشدّ بن الجمحي(١) : أَنا أجهضهم(٢) عن النار ، إلى غير هذا من أَقوالهم السخيفة ، فنزلت في أَبي جهل : (أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى)(٣) الآية . وقرأ أَبو جعفر بن القعقاع ، وطلحة بن سليمان(٤) : (تِسْعَةَ عْشَرَ) بسكون العين من [عَشَرَ] لتوالي الحركات ، وقرأ أَنس بن مالك ، وأَبو حيوة : (تِسْعَةُ عَشَرَ) برفع التاء ، ورُوي عن أَنس بن مالك أَنه قرأ : (تِسْعَةَ أَعْشُرَ) ، وضعفها أَبو حاتم(٥) .

وقوله تعالى : (وَمَا جَعَلْنَا أَصْحاب النَّارِ إِلاَّ ملائِكَةً) تَبْيين لفساد أَقوال قريش ، أَي : إِنا جعلناهم خلقاً لا قِبَل لأَحد من الناس بهم ، وجعلنا عدتهم هذا القدر فتنةً للكفار ، لِيَقع منهم من التعاطي والطمع في المغالبة ما وقع ، ويستيقن أَهل الكتاب – التوراة والإِنجيل – أَن هذا

---

(١) في بعض النسخ : « أبو الأسْود » ، وما أثبتناه ، هنا يوافق ما في حاشية الجمل ، واسمه أُسَيْد بن كِلْدة الجُمحى ، كان شديد البأس ، وكان من أعداء النبي صلى الله عليه وسلم

(٢) أي أُعجلهم عنها ، وفي الحديث الشريف : « فأَجهضوهم عن أَثقالهم يوم أُحد » .

(٣) الآية (٢٤) من سورة (القيامة) .

(٤) في بعض النسخ : « طلحة بن شبل » ، وما أثبتناه يوافق ما في « المحتسب » ج ٢ صفحة ٣٣٨ .

(٥) قال أَبو الفتح في المحتسب : أما « تِسعْةَ عْشَرَ » بفتح هاء تسعة وسكون عين عشر – فلأجل كثْرة الحركات ، وأن الاسمين جُعلا كاسْمٍ واحد ، فلم يوقف على الأول منهما فيُحتاج إلى الابتداء بالثاني ، فلما أُمِنَ ذلك أُسكن تخفيفاً أوله ، وجعل ذلك أمارة لقوة اتصال أحد الاسمين بصاحبه ، وقال أَبو حاتم في « تِسعْةَ أَعْشُرَ » : لا وجه له نعرفه ، إلاّ أن يعني تسعة أَعْشُرَ جمع العَشْر أو شيئاً غير الذي وقع في قلوبنا .

القرآن من عند الله تعالى ؛ إذ يجدون هذه العِدَّة في كتبهم المنزَّلة التي لم يقرأْها محمد صلى الله عليه وسلم ولا هو من أَهلها ، ولكن كتابه يصدق ما بين يَدَيْه من كتب الأَنبياءِ صلى الله عليه وعليهم وسلم ؛ إذ جميع تلك حق يتعاضد ، مُنَزَّل من عند الله تعالى ، قال هذا المعنى ابن عباس ، ومجاهد ، وغيرهما ، وبورود الحقائق من عند الله عزَّ وجلَّ يزداد كلٌّ من آمن إيماناً ، ويزول الريب عن المصدقين من أَهل الكتاب ومن المؤمنين .

وقوله تعالى : (وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مرضٌ) الآية .... نوعٌ من الفتنة لهذا الصنف المنافق أَو الكافر ، أَي : جاروا وضلُّوا ولم يهتدوا لمقصد الحق ، فجعلوا يستفهم بعضهُم بعضاً عن مراد الله تعالى بهذا المثال استبعاداً أَن يكون هذا من عند الله تعالى ، قال الحسين بن الفضل : السورة مكِّيَّة ولم يكن بمكة نفاقٌ ، وإنما المرض في هذه الآية الاضطراب وضعف الإيمان .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ ﴾

قوله تعالى : (كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ) ، أي : بهذه الصفة وهذا الرَّيْن (١) على القلوب يُضل ، ثُمَّ أَخبر تعالى أَنه يهدي من يشاءُ من المسلمين المؤمنين لما ورد ، وذلك لعلمهم بالقدرة ، ووقوف عقولهم على كُنْه (٢) سلطان الله تعالى ، فهم موقنون مُتَصَوِّرون صحة ما أَخبرت به الأَنبياءُ عليهم السلام وكُتُبُ الله تعالى :

ثم قال تعالى : (وَمَا يَعْلَمُ جُنودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ) إعلاماً بأَن الأَمر كُلَّه لله سبحانه ، وأَنه فوق ما يُتَوَهَّم ، وأَنَّ الخبر إنما هو عن بعض القدرة لا عن كلها ، والسماءُ (٣) عامرة بأَنواع من الملائكة ، كلُّهم في عبادة متصلة ، وخشوع دائم وطاعة ، لا فترة في شيءٍ من ذلك ولا دقيقة واحدة .

قوله تعالى : (وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ) ، قال مجاهد : الضمير في قوله تعالى : [هِيَ] للنار المذكورة ، أَيْ يُذَكَّرُ بها البشر فيخافونها فيطيعون الله تعالى ، وقال بعض الحذَّاق : قوله تعالى : (وَمَا هِيَ) يراد بها الحالُ والمخاطبة والنِّذارة ، قال الثعلبي : وقيل : (وَمَا هِيَ) يراد نارُ الدنيا ، أَي : إن هذه تذكرة للبشر بنار الآخرة .

---

(١) الرَّيْن : الغطاء والحجاب الكثيف .
(٢) الكُنْهُ : جوهر الشيء وحقيقته .
(٣) في بعض النسخ : « والمملكة عامرة » ، وفي بعضها : « والسماء كلها عامرة » .

وقوله تعالى وجلَّ : [كَلاَّ] ردٌّ على الكافرين وأنواع الطاعنين على الحق ، ثم أَقسم تعالى بالقمر ، تخصيص تشريف وتنبيه على النظر في عجائبه ، وقدرة الله تعالى في حركاته المختلفة التي هي مع كثرتها واختلافها على نظام واحد لا يختل ، وكذلك هو القسم بالليل والصبح ، فيعود التعظيم في آخر الفكرة وتحصيل المعرفة إلى الله تعالى ، مالك الكلِّ ، وَقِوامِ الوجود ، ونُورِ السموات والأَرض ، لا إله إلاَّ هو العزيز الغفار .

وقرأ ابن كثير ، وأَبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائي ، وأَبو بكر عن عاصم : (إِذَا دَبَرَ) بفتح الدال والباء(١) ، وهي قراءة ابن عباس ، وابن الزبير ، وابن المسيب ، ومجاهد ، وعطاءٍ ، ويحيى بن يَعْمَر ، وأَبي جعفر ، وشيبة ، وأَبي الزِّناد ، وقتادة وعمر بن عبد العزيز ، والحسن ، وطلحة . وقرأ نافع ، وحمزة ، وحفص عن عاصم : (إِذْ أَدْبَرَ) بتسكين الدال وفعل رباعي ، وهي قراءة سعيد بن جبير ، وأَبي عبد الرحمن ، والحسن - بخلاف عنهم - والأَعرج ، وأَبي شيخ ، وابن محيصن ، وابن سيرين . قال يونس بن حبيب : « دَبَرَ » معناه : انقضى ، و « أَدْبَرَ » معناه : تولَّى ، وفي مصحف ابن مسعود ، وأُبَيِّ بن كعب :

---

(١) الذي في الأصول « دَبَرَ » بفتح الدال والباء ، ولم تُذكر (إذَا) ، وذكرناها لأنها بالألف ، وهي تختلف عن قراءة عاصم برواية حفص (إذْ) الثابتة في المصحف . واعتمدنا في ذلك على ما ذكره القرطبي وأبو حيان في البحر المحيط .

(إِذَا أَدْبَرَ) بالألف في [إذا] (١) والفعل رباعي ، وهي قراءة الحسن ، وأبي رُزَيْن ، وأبي رجاءٍ ، ويحيى بن يَعْمَر ، وسأل مجاهدُ ابنَ عباسٍ رضي الله عنهما عن « دَبَرَ اللَّيلُ » ، فتركه حتى إذا سمع المنادي الأَول للصبح قال له : يامجاهد هذا حين دَبَر الليل ، وقال قتادة : « دَبَرَ الليل » : وَلَّى ، وقال الشاعر :

وَأَبِي الَّذي تَرَكَ الْمُلُوكَ وَجَمْعَهُمْ بِهُضامَ هامِدَةً كَأَمْسِ الَّدابِرِ (٢)

والعربُ تقول في كلامها : « كأَمْسِ الْمُدْبِرِ » . قال أَبو علي : فالقراءتان جميعاً حسنتان .

وأَسْفر الصبُح : أَضاءَ وانتشر ضَوْءُهُ قبل طلوع الشمس بكثير ، والإِسْفارُ رُتَب : أَوَّل ووسط وآخر ، ومن هذه اللفظة السَّفَر والسِّفْر

---

(١) زاد في بعض النسخ « وفتح الدال » ، وهذا خطأٌ من النساخ لأن الفعل الرباعي لا تفتح معه الدال .

(٢) هذا البيت في اللسان غير منسوب ، ذكره شاهداً على أن الدابر بمعنى الذاهب ، قال : « وأَمْسِ الدّابرُ : الذّاهب ، وقالوا : مضى أَمْسِ الّدابر وأَمْسِ المُدْبر ، وهذا من التّطوع المُشَامِّ للتأكيد لأن اليوم إذا قيل فيه أَمْسِ فمعلوم أنه دَبَر ، لكنه أَكّده بقوله : الدّابر ، قال الشاعر : وأَبي الذي ... البيت » ، والرواية فيه : « بصُهاب » بدلا من « هضام » والهضام : الأرض المنخفضة التي تغيب عن النظر لانخفاضها . أمّا « صُهابُ » فموضع جعلوه اسماً للبقعة ، وأنشد الأصمعي هذا البيت شاهداً على ذلك . راجع اللسان – دَبَرَ وصَهَبَ .

والسَّفِيرُ [١] ، وسفرت المرأة عن وجهها ، وكلها ترجع إلى معنى الظُّهور والانجلاء ، وقرأ عيسى بن الفضل ، وابن السميفع : (إذَا سَفَرَ) ، فكأَن المعنى : طرح الظُّلمة عن وجهه ، وضعَّفها أَبو حاتم .

قوله تعالى : (إِنَّهَا لَإِحْدَى الكُبَرِ) ، قال قتادة ، وأَبو رزين ، وغيرهما الضمير لجهنم ، ويحتمل أَن يكون الضمير للنذارة وأَمْر الآخرة ، فهو للحال والقصة ، وتكون هذه الآية مثل قوله عزَّ وجلَّ : (قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ، أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ) [٢] ، و « الْكُبَر » جمع كبيرة ، وقرأَ جمهور القراء : [لَإِحْدَى] بهمزة في أَلف « إِحْدَى » ، ورُوي عن ابن كثير أَنه قرأَ : [لَاحْدَى] دون همزة ، وهي قراءة نصر بن عاصم ، قال أَبو علي : التخفيف في « إِحْدَى الكُبَرِ » أَن تجعل الهمزة فيها بَيْن بَيْن ، فأَمَّا حذف الهمزة فليس بقياس ، وقد جاءَ حذفها ، قال أَبو الأَسود الدؤَليُّ لزياد :

---

(١) السَّفَر : الصُّبْحُ وَالفَجْرُ ، قال الأخطل :

إني أَبِيتُ وَهَمُّ اللَّيْلِ يَبْعَثُهُ ... من أَوَّلِ اللَّيْلِ حَتَّى يُفْرِجَ السَّفَرُ

أي : أبيت أَسْري إلى انفجار الصبح .

والسِّفْر ــ بالكسر ــ : الكتابُ ، وقيل : هو الكتاب الكبير ، وقيل : هو جزءٌ من التوراة ، والجمع أَسفار .

والسفيرُ : الرسولُ والمصلح بين القوم ، والجمع سفراءُ ، يقال : سفرتُ بين القوم إذا سعيتَ بينهم في الإصلاح . « راجع اللسان » .

(٢) الآيتان (٦٧ ، ٦٨) من سورة (ص) .

يَا ابَا الْمُغِيرَةِ رُبَّ أَمْرٍ مُعْضِل فَرَّجْتُهُ بالنُّكْرِ مِنِّي والدَّهَا(١)

وأنشد ثعلب :

إنْ لَمْ أُقاتِلْ فَالْبِسُونِي بُرْقُعَا وَفَتَخَاتٍ فِي الْيَدَيْنِ أَرْبَعَا(٢)

قوله تعالى : (نَذيراً لِّلبَشَرِ) ، قال الحسن بن أَبي الحسن لاَ نذير أَدْهى من النار ، فهذا القول يقتضي أَن [نَذِيراً] حال من الضمير في [إِنَّهَا] ، أَوْ من قوله تعالى : [لَإِحْدَى] ، وكذلك أَيضاً على الاحتمال في أَن تكون[إِنَّها] يراد بها قصة الآخرة وحال المعاد . وقال أَبُو رَزين : الله جلَّ ذِكْره هو النذير ، فهذا القول يقتضي أَن [نَذِيراً] مفعول لفعل تقديره : اعبدوا نذيراً للبشر ، أَو ادعو نذيراً للبشر ، وقال ابن زيد : النذيرُ محمد صلى الله عليه وسلم ، فهذا القول يقتضي أَن[نذيراً] معمول لفعل تقديره ، نادِ نذيراً ، أَو بلغ نذيراً ، ونحو هذا ، ويحتمل أَن يكون

---

(١) أبو الأسود هو عَمْرو بن سفيان بن جندل ، من التَّابعين ، وكانت له أَخبار مع زياد بن أَبيه قال فيها شعراً ، والأمرُ المُعْضل هو الشديد المُعْجز ، والنُّكْرُ : الدهاء والفطنة ، والدَّهَا : العَقْلُ وجودةُ الرأي والبصرُ بالأُمور ، يقول : إنه بعقله وفطنته يتغلب على الصعاب والمشكلات ، والشاهد حذف الألف في « أَبَا » .

(٢) البُرقُع : بضم القاف وبفتحها : غطاءٌ تغطي به البدوية وجهها ، ولا يظهر منه سوى العينين ، والفَتَخَات : جمع فَتْخَة وفَتَخَة ، وهي حَلْقَة تلبس في الإصبع كالخاتم ولا فصَّ فيها ، وكانت نساء الجاهلية يلبسنها في أَصابعهن العشر ، وقد تكون في أصابع الرجلين ، وفي حديث عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى : (وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ ما ظَهَرَ مِنْها) قال : القُلْبُ والفَتَخَةُ . والشاهد في البيت هنا حذف الهمزة في « فَالْبِسُونِي » .

[نَذِيراً] مصدراً مثل قوله تعالى : (فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ)[١] ؟ وهو اختيار الخليل في هذه الآية ، ذكره الثعلبيُّ ، قال : ولذلك يوصف به المؤنث .
وقرأ ابن أبي عبلة : [نَذِيرٌ] بالرفع على إضمار « هو » .

قوله تعالى : (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ) ، قال الحسن : هو وعيد نحو قوله تعالى : (فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ)[٢] ، وقوله تعالى : (وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ)[٣] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

هو بيانٌ في النِّذارة ، وإعلام بأَن كل أَحد يسلُك طريق الهدى والحق إذا حقَّق النظر ، أَو هو بعينه يتأَخَّر عن هذه الرتبة لغفلته وسوءِ نظره .

ثم قوَّى تعالى هذا المعنى بقوله سبحانه : (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ) ؛ إذْ لزم بهذا القول أَن المقصِّر مرتهن بسوءِ عمله ، وقال الضحاك: المعنى : كلُّ نفس حقت عليها كلمة العذاب ، ولا يرتهن الله تعالى أَحداً

(١) من الآية (٤٥) من سورة (سبأ) .
(٢) من الآية (٢٩) من سورة (الكهف) .
(٣) من الآية (٢٤) من سورة (الحجْر) .

من أَهل الجنة إن شاءَ الله تعالى . والهاءُ في [رَهِينَةٌ] للمبالغة ، أَو على تأَنيث اللفظ لا على معنى الإنسان .

وقوله تعالى : (إِلاَّ أَصْحابَ الْيَمين) استثناءٌ ظاهر الانفصال ، وتقديره : لكن أَصحاب اليمين ؛ وذلك لأَنهم لم يكتسبوا ما هم به مرتهنون ، قال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه : أَصحاب اليمين في هذه الآية أَطفال المسلمين ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هم الملائكة عليهم السلام ، وقال الضحاك : هم الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، وقال الحسن ، وابن كيسان : هم المسلمون المخلصون ، ليسوا بِمُرْتَهنين . ثم ذكر تعالى حال أَصحاب اليمين ، وأَنهم في جنات يسأَل بعضهم بعضاً عمَّن غاب من معارفهم ، فإذا علموا أَنهم مجرمون في النار قالوا لهم – أَو قالت الملائكة – : « ما سَلَكَكُمْ في سَقَرَ » ، و « سَلَكَ » معناه : أَدْخل ، ومنه قول أَبي وَجزة السعديِّ :

حَتَّى سَلَكْنَ الشَّوَى مِنْهُنَّ في مَسَكٍ   مِنْ نَسْلِ جَوَّابَةِ الآفاقِ مِهْداجِ (١)

(١) قال أبو وَجْزة هذا البيت في وصف حُمُر الوحش ، ومعنى سَلَكْنَ : أَدْخَلْنَ ، وهو الشاهد هنا ، والشَّوَى : اليدان والرجلان ، والمَسَكُ : الأسورةُ من العاج وغيره ، وقد استعاره أَبو وَجْزَةَ فجعل ما تُدخل فيه الأتُنُ أَرجلها من الماء مَسَكاً ، أي سواراً حول أطرافها . وَجَوَّابهُ الآفاق هي السحابة التي تطوف بالآفاق ، جعل الماء نَسْلاً لها لأن الريح تستدرُّ السحاب وتُلْقِحُه فيمطر ، فالماء من نسلها ، والمْهداجُ من الهَدَجَة ،وهو حنين الناقة على ولدها ، يقول : إن الأتُن أتت في طلب الماء ليلاً ، وإنها أَدخلت أرجلها في ماءٍ فالتفت حولها كالأساور ، وهو ماءٌ تنزلُه الريح من السحابة التي لها صوت كصوت الناقة حين تَحِنُّ على ولدها .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾

هذا هو اعتراف الكفار على أنفسهم ، وفي نَفْيِ[1] الصلاة يدخل الإيمان بالله تعالى ، والمعرفةُ به ، والخشوع له والعبادة . والصلاةُ تنتظم مُعْظَمَ الدين وأوامرَ الله تعالى وواجبات العقائد . وإطعام المساكين ينتظم الصدقة فرضاً وطواعيةً وكل احتمال تندب إليه الشريعة بقول أَو فعل . والخَوْضُ مع الخائضين عُرْفُه في الباطل ، قال قتادة : المعنى : كُلَّما غوى غاوٍ غَوَوْا معه ، والتكذيبُ بيوم الدين كُفْرٌ صراحٌ بالله تعالى .

و « اليقينُ » معناه عندي : صحةُ ما كانوا يكذبون به من الرجوع إلى الله تعالى والدار الآخرة ، وقال المفسرون : « اليقينُ » : الموت ، وذلك

(١) في إحدى النسخ : « وفي معنى الصلاة » .

عندي ـ هنا ـ مُتَعَقَّبٌ ؛ لأَن نفس الموت يقين عند الكافر وهو حيٌّ ، فإنما اليقين الذي عنوا في هذه الآية فهو الشيءُ الذي كانوا يكذبون به وهم أَحياءٌ في الدنيا فتيقنوه بعد الموت ، وإنما يُفَسَّر اليقين بالموت في قوله تعالى : (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)[١] .

ثم أَخبر تعالى أَن شفاعة الشافعين لا تنفعهم ، فتقرَّر من ذلك أَنَّ ثَمَّ شافعين ، وفي صحة هذا المعنى أَحاديث ، قال صلى الله عليه وسلم : (تشفع الملائكة ثم النبيُّون ثم العلماءُ ثم الشهداءُ ثم الصالحون ، فَيُشَفَّعون ، ثم يقول الله تعالى : شفع عبادي وبقيت شفاعة أَرحم الراحمين ، فلا يبقى في النار من كان له إيمان)[٢] . وروى الحسن أَنَّ الله يُدخل بشفاعة رجل من هذه الأُمة إلى الجنة مثل ربيعة ومضر ، وفي رواية أَبي قُلابة :

---

(١) الآية (٩٩) من سورة (الحِجْر) .

(٢) حديث الشفاعة حديث طويل ، وقد أخرجه البخاري ، ومسلم ، وأحمد ، وفي لفظ البخاري في كتاب التوحيد : (فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون ، فيقول الجبار : بقيت شفاعتي ، فيقبض قبضة من النار فيخرج أقواماً قد امْتُحِشُوا ، فَيُلْقَون في نهر بأفواه الجنة يقال له ماءُ الحياة ... الحديث) ، وفي لفظ أحمد (٣/٩٤) : (ثم يقول الله : شفعت الملائكة وشفع الأنبياء وشفع المؤمنون وبقى أرحم الراحمين ، قال : فيقبض قبضة من النار ، أو قال قبضتين ، ناس لم يعملوا خيراً قط قد احترقوا حتى صاروا حِمماً ، قال : فيؤتى بهم إلى ماء يقال له ماء الحياة .... الخ) . ومعنى (امتحشوا) أنهم تناولهم اللَّهب فأحرق جلودهم فكشف العظم وشيَّط أعاليه .

أكثر من بني تميم (١) . وقال الحسن : كنا نحدث أن الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته (٢) .

ثم قال تعالى وجلَّ : (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ) ، أي والحال المنتظرة هي هذه الموصوفة ؟ وقوله تعالى في صفة الكفار المعرضين في تَوَلٍّ واجتهادٍ في نفور : (كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ) إثبات لجهالتهم ، لأن الحُمُر من جاهل الحيوان جداً ، وقرأ الأعمش : [حُمْرٌ] بإسكان الميم ، وفي حرف ابن مسعود : « حُمُرٌ نافِرَةٌ » ، وقرأ نافع ، وابن عامر ، والمفضل عن عاصم : [مُسْتَنْفَرَةٌ] بفتح الفاءِ ، وقرأ الباقون بكسر الفاءِ ، واختلف عن نافع ، وعن الحسن ، والأعرج ، ومجاهد ، فأمَّا فتح الفاءِ فمعناه: استنفرها فزعُها من القَسْورة ، وأما كسْر الفاءِ فعلى أن « نَفَرَ » و « اسْتَنْفَرَ » بمعنى واحد ، بمنزلة « عَجِبَ » و « اسْتَعْجبَ » و « سَخِرَ » و « اسْتَسْخرَ » ، فكأنها نفرت هي ، ويُقَوِّي ذلك قولُه تعالى [فَرَّتْ] ،

(١) أخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن جرير ، عن قتادة في قوله : (وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ) قال : يقولون : كلما غوَى غاوٍ غوينا معه ، وفي قوله : (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) قال: تعلموا أن الله يُشَفِّع المؤمنين يوم القيامة بعضهم في بعض ، قال : وذُكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن في أُمَّتي رجلاً ليُدخلن الله الجنة بشفاعته أكثر من بني تميم) ، وقال الحسن : (أكثر من ربيعة ومُضر) .

(٢) في آخر الحديث في الهامش السابق : (قال : وكنا نحدث أن الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته) ، وأخرجه أبو داود في الجهاد .

وبذلك رجح أَبو علي قراءة الكسر[(١)] .

واختلف المفسرون في معنى « الْقَسْوَرَة » ـ فقال ابن عباس ، وأَبو موسى الأَشعريُّ ، وقتادة ، وعِكْرِمة : القَسْوَرة : الرُّماةُ ، وقال ابن عباس أَيضاً ، وأَبو هريرة ، وجمهور من اللغويين : القَسْوَرَة : الأَسدُ ، وقال الشاعر :

مُضَمَّرٌ تَحْذَرُهُ الأَبْطالُ كأَنَّهُ الْقَسْوَرَةُ الرِّئْبالُ[(٢)]

وقال ابن جبير : القَسْوَرَة : رجالُ القنص ، وقاله ابن عباس أَيضاً ، وقيل : القَسْورةُ : رِكْزُ الناس ، وقيل : القَسْورة : الرجال الشداد ، قال لبيد :

إِذَا مَا هَتَفْنَا هَتْفَةً في نَدِيِّنَا أَتانَا الرِّجالُ الْعَانِدونَ الْقَسَاوِرُ[(٣)]

---

(١) قال الفراءُ في « معاني القرآن » : وهما جميعاً كثيرتان في كلام العرب ـ يعني اللغتين ـ ثم أَنشد دليلاً على الكسر :

أَمْسِكْ حِمارَكَ إِنَّهُ مُسْتَنْفِرٌ في إِثْرِ أَحْمِرَةٍ عَمَدْنَ لِغُرَّبِ

و (غُرَّب) جبل دون الشام في بلاد بني كلب ، وعنده عين ماء يقال لها : الغُرَّبة ، والبيت في القرطبي وفي المحيط وفي اللسان .

(٢) الضُّمور : الهزالُ والتصاق البطن بالظهر ، وهو دليل على سلامة الجسم ، والقسورة : الأسد ، وهذا هو المعروف فيه ، وإن كان اللغويون قد ذكروا فيه أقوالاً كثيرة ، فهو الرَّامي والصائد ، والكلب ، والعزيزُ يَقْتَسِر غيره ويقهره ، والرئبال : واحد من أسماء الأسد ، يُهمز ولا يُهمز ، ولم أقف على قائل البيت .

(٣) هذا بيت من « متفرقات » نسبت إلى لبيد ، وذكرت في آخر الديوان ، والرواية فيه « الصائِدُونَ » بدلا من « العانِدُونَ » وهو في القرطبي « العائدون » ، وفي البحر المحيط « الصائدون =

وقال ثعلب : القَسْوَرة : سوادُ أَوّل الليل خاصة لا آخره . واللفظة مأخوذة من القَسْر الذي هو الغَلَبة والقهر .

وقوله تعالى : (بَل يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِنْهُمْ أَنْ يُؤتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً) معناه : من هؤلاءِ المعرِضين ، أَي يريد كل إِنسان منهم أَن ينزل عليه كتاب من الله تعالى ، وكان هذا من قول عبدالله بن أَبي أُمية وغيره ، ورُوي أَنَّ بعضهم قال : إِن كان يُكتب في صحفٍ ما يُعمل فلتعرض تلك الصحف علينا ، فنزلت هذه الآية . و [مُنَشَّرَةً] معناه : غير مطويةٍ ، منشورة ، وقرأَ سعيد بن جبير : [صُحْفاً] بسكون الحاءِ ، وهي لغة تميمية ، وقرأَ : [مُنْشَرَةً] بسكون النون وتخفيف الشين ، وهذا على أَن يشبه « نَشَرَ الثَّوبَ » بـ « أَنْشَرَ اللهُ الميتَ » ؛ إِذ الطيُّ كالموت ، وقد عكس التيميُّ التشبيه في قوله :

رَدَّتْ صَنائِعُهُ عَلَيْهِ حَيَاتَهُ فَكَأَنَّهُ مِنْ نَشْرِهَا مَنْشُورُ [(١)] .

= وفي فتح القدير « العابدون » . ويحاول بعض الشراح توضيح معنى « الصائد » بأنه من الصَّيَد وهو مَيْل العنق من الكبر أو من المرض ، أما « العائدون » و « العابدون » فلا نجد لهما هنا معنى ، وأما « العاندون » فهي جمع عاند وهو الباغي الذي يردُّ الحق مع العلم به ، ومنه قوله تعالى : (وَخابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيد)، قالوا في تفسيره : هو الطاغي المجاوز للقَدْر ، الذي يعرف الشيء فيميل عنه ويأباه . والنَّدِيُّ : المجلس مادام القوم مجتمعين فيه ، فإذا تفرقوا عنه فليس بندىٍّ ، ومثله النادي ، والقساور : جمع قسورة وهو الأسد في الأصل ، والمرادُ به هنا الرجال الأشداءُ ، يقول : إذا ما صحْنَا صيحة القوة في مجتمعنا خضع لنا الرجال الأشداءُ المتكبرون الذين لا يخضعون لأحد كبراً وعناداً .

(١) الصنائعُ : جمع صنيعة ، وهي ما أعطيته وأسديته من معروف أو يد إلى إنسان . ونَشْرُ =

ولا يقال في الميت يَحْيَا : مَنْشُورٌ إلاَّ على التشبيه بالثوب ، وأَما محفوظ اللغة فهو « نَشَرْتُ الصحيفةَ » و « أَنْشَرَ اللهُ الميِّتَ » ، وقد جاءَ عنهم « نَشَرَ اللهُ الميِّتَ » .

وقوله تعالى : [كَلاَّ] ردٌّ على إرادتهم ، أَي : ليس الأَمر كذلك ، ثم قال تعالى : (بَلْ لاَ يَخافُونَ الآخِرَةَ) ، المعنى : هذه العلَّةُ والسبب في إعراضهم ، فكأَن جهلهم بالآخرة سبب امتناعهم من الهدى حتى هلكوا . وقرأَ أَبو حيوة : [تَخافونَ] بالتاءِ من فوق ، ورويت عن ابن عامر . ثم أَعادَ تعالى الردَّ والزجر بقوله تعالى : [كَلاَّ] ، وأَخبر أَن هذا القول والبيان وهذه المحاورة بجملتها تذكرة ، فمن شاءَ وفَّقه لذكْر معاده ، ثم أَخبر أَن ذكْر الإِنسان معاده ، وجَرْيَه إلى فلاحه إِنما هو كله بمشيئة الله تعالى ، وليس يكون شيءٌ إلاَّ بها .

وقرأَ نافع ، وأَهل المدينة ، وسلام ، ويعقوب : [تَذْكُرُونَ] بالتاءِ من فوق ، وقرأَ أَبو جعفر ، وعاصم ، وأَبو عمرو ، والأَعمش ، وطلحة ، وابن كثير ، وعيسى ، والأَعرج : [يَذْكُرُونَ] بالياءِ من تحت ، ورُوي عن أَبي جعفر بالتاءِ من فوق وشدِّ الذَّال ، كأَنه « تَتَذَكَّرُون » فأَدْغم .

= الصنائع : إِذَاعتُها وشهرتها بين الناس ، ومنشور هنا بمعنى أنَّه حيٌّ ، يقول : إن ما صنعه من معروف وخير ذاع في الناس وانتشر حتى ردَّ على الممدوح حياته فكأَنه هو نفسه حيٌّ بين الناس ، والشاهد هنا أَن الشاعر شبَّه إحياءَ الممدوح بنشر المعروف والخير ، وهذا عكس المألوف وهو تشبيه الثوب المطوي بالميت كأنه ميت بَطيِّه ، فإذا نُشِر صار حيّاً .

وقوله تعالى : (هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ) خبر جزم ، معناه أن الله تعالى أَهْلٌ بصفاته العُلَى ، ونِعَمه التي لا تُحصى ، ونِقَمه التي لا تُدفع ، لِأَن يُتَّقى ويُطاع ، ويُحْذَرَ عصيانُه وخلافُ أَمره ، وأَنه تعالى بفضله وكرمه أَهْل لأَن يغفر لعباده إذا اتَّقوه . وروى أَنس بن مالك أَن النبي صلى الله عليه وسلم فسَّر هذه الآية فقال عليه الصلاة والسلام : (يقول ربكم جلَّت عظمته : أَنا أَهلٌ أَن أُتَّقَى فلايجعل معي إله غيري ، ومن اتَّقى أَن يَجْعل معي إلهاً غيري فأَنا أَغفر له)(١) ، وقال قتادة : هو أَهلٌ لأَن تُتَّقَى محارمُه ، وأَن يغفر الذنوب .

كمل تفسير سورة المدَّثِّر والحمد لله ربِّ العالمين

---

(١) أخرجه الإمام أَحمد ، والدارميُّ ، والترمذي وحَسَّنه ، والنسائي ، وابن ماجه ، والبزَّار ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أَبي حاتم ، وابن عديٍّ وصححه ، وابن مردويه ، عن أَنس بن مالك رضي الله عنه ، وذكر ابن كثير في تفسيره أَن البغويَّ وغيره رواه من حديث سهيل بن عبد الله القطعي به ، وذكر أيضاً عن الترمذي أنه قال: « حسن غريب وسُهَيْل ليس بالقوي » ، وأَخرج ابن مردويه عن عبد الله بن دينار قال : سمعت أَبا هريرة رضي الله عنه ، وابن عمر ، وابن عباس رضي الله عنهم يقولون : سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله : (هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ) قال: (يقول الله : أَنا أَهلٌ أَن أُتقى فلا يُجعل معي شريك ، فإذا اتُّقيت ولم يُجعل معي شريك فأنا أَهل أن أَغفر ما سوى ذلك) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٧٥) سورة القيامة مكية وآياتها أربعون

وهي مكية بإجماع من أهل التأويل ، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : من سأل عن القيامة أو أراد أن يعرف حقيقة وقوعها فليقرأ هذه السورة ، وقال المغيرة بن شعبة [(١)] : يقول الناس : القيامة القيامة ، وإنما قيامةُ المرءِ موتُه ، ورُوي أيضاً عن ابن جبير أنه حضر جنازة رجل فقال : أَمَّا هذا فقد قامت قيامتُه ، ورُوي مثله عن علقمة ، ذكره الثعلبي .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقيامة الرجل في خاصته ليست بالقيامة الجامعة لجميع الخلق بعد البعث ، لكن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه كأَنه قال هذا لمن يستبعد قيام الآخرة ، ويظن طول الأَمد بينه وبينها ، فتوعَّده بقيامة نفسه .

(١) هو المغيرةُ بن شُعبة بن مسعود بن معتّب الثّقفي ، صحابي مشهور ، أَسلم قبل الحُديْبِية وولي أَمر البصرة ثم الكوفة ، مات سنة خمسين على الصحيح . (تقريب التهذيب) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾

قرأ جمهور السبعة : (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) ، وقرأ ابن كثير ، والحسن ـ بخلاف عنه ـ والأعرج : (لَأُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ولَأُقْسِمُ)[1] فأما القراءة الأُولى فاختلف في تأْويلها ـ فقال ابن جبير : [لَا] استفتاح كلام بمنزلة « أَلَا » ، وأنشدوا على ذلك :

فَلاَ وَأَبِيكِ ابْنَةَ الْعَامِرِيِّ لا يَدَّعِي الْقَوْمُ أَنِّي أَفِرْ[2]

---

(١) قال الطبري في تفسيره : « والقراءة التي لاأستجيز غيرها في هذا الموضع « لا » مفصولةً ».

(٢) هذا البيت لامريء القيس قاله من قصيدة يصف فيها فرسه وخروجه إلى الصَّيْد ، وقد بدأها بقوله :

أَحارِبْنَ عَمْرٍو كَأَنِّيَ خَمِرْ ... وَيَعْدُو عَلَى الْمَرْءِ ما يأْتَمِرْ

فَلاَ وَأَبِيكِ ابْنَةَ العَامِرِيِّ ... لا يَدَّعِي الْقَوْمُ أَني أَفِرْ =

وقال أَبو علي : [لاَ] صلةٌ زائدة كما زيدت في قوله تعالى : (لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ)[١] ، ويُعترضُ هذا بأَنَّ هذه في ابتداءِ كلام ، ولا تُزادُ « لا » و « ما » ونحوهما من الحروف إلاَّ في تضاعيف كلام ، فينفصل عن هذا بأَن القرآن كلَّه كالسورة الواحدة وهو في معنى الاتصال فجاز فيه هذا . وقال الفراءُ : [لاَ] نفْيٌ لكلام الكفار وزَجْرٌ لهم وردٌّ عليهم . ثم استأَنف تعالى ـ على هذه الأَقوال الثلاثة ـ قوله تعالى : (أُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيامَةِ) ، وأَقسم الله تعالى بيوم القيامة تنبيهاً منه لعظمته وهوله .

وقوله تعالى : (وَلاَ أُقْسِمُ] ، القول في [لاَ] على نحو ما تقدم .

وأَما القراءة الثانية فتحتمل أَحد أَمرين : إِمَّا أَن تكون اللام دخلت على فعل الحال ، والتقدير : لأَنَا أُقسم ، فلا تلحق النون لأَن النون إنما تدخل في الأَكثر لتفرق بين فعل الحال والفعل المستقبل ، فهي تلزم المستقبل في الأَكثر ، وإما أَن يكون الفعل خالصاً للاستقبال ، فكان الوجه والأَكثر أَن تلحق النون ، إِمَّا الخفيفة وإِمَّا الثَّقيلة ، لكن قد

= يخاطب الحارث بن عمرو بقوله : إني أُحِسُّ بأني مريض أَو أُصبت بالسُّكْر ، والمرءُ يرجع إليه ما يريد هو أن يوقعه بغيره ، ثم يخاطب ابنة العامريِّ بأنه رجل شجاع ، ولا يملك أحد أن يدعي عليه بأنه جبان يفر من المواجهة ، وقد استدلوا بهذا البيت على أَن « لا » أداة استفتاح بمنزلة « أَلاَ » .

(١) من الآية (٢٩) من سورة (الحديد) .

ذكر سيبويه أن النون قد تسقط مع إرادة الاستقبال وتُغني اللام عنها ، كما قد تسقط اللام وتُغني النون عنها ، وذلك في قول الشاعر :

وَقتيلِ مُرَّةَ أَثْأَرَنَّ فَإِنَّهُ فَرْغٌ ، وَإِنَّ قَتِيلَهُمْ لَمْ يُثْأَرِ (١)

المراد : لَأَثْأَرَنَّ .

وأَمَّا قوله تعالى : (وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) فقيل : [لاَ] نافية ، وإن الله تعالى أقسم بيوم القيامة ونَفَى أن يُقسم بالنفس اللَّوامة ، نصَّ عليه الحسن ، وقد ذهب هذا المذهب قومٌ ممن قرأ : (لَا أُقْسِمُ) وذلك قلِقٌ ، وهو في القراءة الثانية أمكن ، وجمهور المتأولين على أن الله تعالى أقسم بالأمرين .

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها عامر بن الطُّفيل بعد أن هَزم قومه أمام غطفان في يوم يُسَمَّى يوم الرَّقَم ، وقد قُتل أخوه حنظلة بن الطفيل في هذا اليوم ، وهو الذي يُسميه قتيل مُرَّة ، وعامرُ هذا فارس أدرك الإسلام ولم يُسلم ، والرواية الصحيحة للبيت كما في المفضليات ٣٦٤ والأصمعيات ٢٥٢ وخزانة الأدب ٢١٦/٤ هي مع بيت قبله :

وَلَأَثْأَرَنَّ بِمَالِكٍ وَبِمَالِكٍ وَأَخِي الْمَرَوْرَاةِ الذي لَمْ يُسْنَدِ
وَقَتِيلِ مُرَّةَ أَثْأَرَنَّ فَإِنَّهُ فَرْغٌ وَإِنَّ أَخَاهُمُ لَمْ يُقْصَدِ

فإن القصيدة دالية وليست رائية ، أما أخو المَرَوْرَاة فهو أخوه الثاني « الحكم بن طفيل » الذي خَنَق نفسه لما شعر بالهزيمة ومات في مكان يُسمىَّ « الْمَرَوْرَاة » ، وإليه نسب بهذه الصيغة . ومعنى « فَرْغٌ » : رأسٌ عالٍ في الشرف، ولم يقصد : لم يُقتل، يقال : « أَقْصَدْتُ الرجلَ » إذا قتلته . ويروى (فِرغٌ) بمعنى هَدَر ، والثَّأْرُ هو قتل القاتل ، والبيت شاهد على أن الفعل المضارع قد يخلو من اللام استغناءً بالنون ، والأكثر في اللغة أن يجتمعا فيقال: لأَثْأَرَنَّ . وكلمة (قتيل) يجوز فيها الرفع والنصب والجرُّ ، وتعليل ذلك واردٌ في كتب النحو واللغة .

واخْتُلف في « النَّفْسِ اللَّوَّامة » ، ما معناه ؟ فقال الحسن : هي اللَّوَّامة لصاحبها في ترك الطاعة ونحوه ، فهي ـ على هذا ـ ممدوحة ، ولذلك أَقسم الله تعالى بها ، وقال ابن عباس ، وقتادة : هي الفاجرة الجِشعة اللَّوَّامة لصاحبها على ما فاته من سعي الدنيا وأَعْراضها ، فهي ـ على هذا ـ ذميمة ، وعلى هذا التأْويل يحسن نَفْي القسم بها ، والنفس في الآية اسم جنس لنفوس البشر ، وقال ابن جبير ما معناه : إنَّ القَسَم بها من اسم الجنس لأَنها تلوم على الخير والشر ، وقيل : المرادُ نفس آدم عليه السلام لأَنها لم تزل لائمة له على فعله الذي أَخرجه من الجنة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكل نفس متوسطة ليست بالمطمئنة ولا بالأَمارة بالسوءِ فإِنَّها لوامة في الطرفين ، مرةً تلوم على ترك الطاعة ، ومرةً تلوم على فوت ما تشتهي ، فإِذا اطمأَنت خلصت وصفت .

وقوله تعالى : (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ) تقريرٌ وتوبيخٌ ، و « الإِنسان » اسم الجنس ، وهذه أَقوال كانت لكفَّار قريش ، فعليها الرَّدُّ . وقرأَ جمهور الناس : (نَجْمَعَ عِظَامَهُ) بالنون ونصب الميم من العظام ، وقرأَ قتادة بالتاءِ ورفع الميم من العظام ، ومعنى ذلك : في القيامة وبعد البعث من القبور ، وقرأَ أَبو عمرو بإِدغام العين في العين .

ثم قال تعالى : [بَلَى] ، وهي إِيجابُ ما نُفي ، وبابُها أَن تأْتي

بعد النفي ، والمعنى : بل نجمعها قادرين ، فنصب [قَادِرِينَ] على الحال ، وقرأ ابن أَبي عبلة : [قَادِرُونَ] بالرفع ، وقال القتبي : (نُسَوِّي بَنَانَهُ) معناه : نُتْقِنُهَا سَوِيَّةً ، والبنان : الأَصابع ، وكأَن الكفار لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والإِرمام قيل لهم : إِنها تجمع ويُسَوَّى أَكثرها تفرقاً وأَدَقُّها أَجزاءً وهي عظام الأَنامل ومفاصلها ، وهذا كله عند البعث . وقال ابن عبـــاس وجمهور المفسرين (نُسَوِّي بَنَانَهُ) : نجعلها في حياته هذه بضعة أَو عظماً واحداً كخُفِّ البعير لا تفاريق فيه ، فكأَن المعنى : قادرين الآن في الدنيا على أَن نجعلها دون تفرُّق فتقل منفعته بيده ، فكأَن التقدير : بَلَى نحن أَهل أَن نجمعها قادرين الآن على إِزالة منفعته بيده ، ففي هذا توعُّدٌ مَّا . والقول الأَول أَجري مع رصف الكلام ، ولكن على هذا القول الآخر جمهور من العلماء[(١)] .

قوله تعالى : (بَلْ يُرِيدُ الإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ) . قال بعض المتأَولين : الضمير في [أَمامَهُ] عائد على الإِنسان ، ومعنى الآية أَن الإِنسان إِنما يريد شهواته ومعاصيه ليمْضي فيها أَبداً قدماً راكباً رأَسه ومطيعاً أَمله ومُسَوِّفاً بتوبته . قاله مجاهد ، والحسن ، وعكرمه ، وابن جبير ، والضحاك

---

(١) من أسرار البلاغة القرآنية هنا أن الآيةوهي تردُّ على إنكار الكفار لجمع العظام لم تكتف ببيان قدرة الله تعالى على جمعها ، بل ذكرت شيئاً آخر أدق من مجرد الجمع وأدلّ على القدرة وهو التسوية ، ثم إن العلم الحديث قد اكتشف سرَّ البصمة التي في أطراف الأصابع ، وهي علامة من علامات القدرة الإلهية ذكرتها الآية قبل العلم وأهله بمئات السنين .

والسدي ، وقال السُّدي : المعنى : ليظلم على قدر طاقته ، وقال الضحاك : المعنى : يركب رأسه في طلب الدنيا دائماً ، وقوله تعالى : [لِيَفْجُرَ] تقديره : لكي يفجر .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ما يقتضي أن الضمير في [أَمامَهُ] عائد على « يوم القيامة » ، والمعنى أَنَّ الإنسان هو في زمان وجوده أَمام يوم القيامة وبين يديه ، ويوم القيامة خلفه ، فهو يريد شهواته ليفجر في تكذيبه بالبعث وغير ذلك بين يدي يوم القيامة ، وهو لا يعرف قدر الضرر الذي هو فيه ، ونظير قوله تعالى : (يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ) قول قَيْسِ بنِ سَعْدٍ

أَرَدْتُ لِكَيْمَا يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهَا سَرَاوِيلُ قَيْسٍ والْوُفُودُ شُهُود (١)

---

(١) هذا البيت قاله قَيْسُ بنُ سَعْد بن عُبادة الخزرجي الأنصاري ، وهو صحابي جليل ، وقد قاله مع بيت آخر أمام معاوية بن أبي سفيان، فقد طاول روميّاً أمام معاوية – أوغيره من الأمراء – فتجرَّد قيس من سراويله وألْقاها إلى الرومي ، فَفَضَلَتْ عنه ، فقال بيتين يعتذر بهما عن فعلته ، وهما :

أَرَدْتُ لِكَيْمَا يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهَا سَرَاوِيلُ قَيْسٍ وَالْوُفودُ شُهُودُ
وَأَلاَّ يَقُولوا : غابَ قَيْسٌ وَهَذهِ سَرَاوِيلُ عاديٍّ نَمَتْهُ ثَمُودُ

والسراويل كلمة أعجمية عُرِّبت وأُنِّثت ، ومثل هذا في التعدية بإلى قول كثيِّر :

أُريدُ لِأَنْسَى ذِكْرَهَا فَكَأَنَّمَا تَمَثَّلُ لي لَيْلَى بِكُلِّ سَبيلِ

و [بَلْ] في أَول الآية إضــرابٌ على معنى الترك لا على إِبْطال الكلام الأَول ، وقد تجيءُ « بَلْ » لإِبطال الكلام الذي قبلها .

وسؤال الكافر (أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ) ؟ هو على معنى التكذيب والْهُزْءِ ، كما تقول لِمُحَدِّثٍ بأَمر تُكَذِّبه : متى يكون هذا ؟ و « أَيَّانَ » لفظة بمعنى « متى » ، وهي مبنيَّة لتضمنها معنى الاستفهام ، فأَشبهت الحروف المُضَمَّنَه المعاني ، وكان حقُّها أَن تُبْنَى على السكون ، ولكن فتحت النون لالتقاءِ الساكنين : الأَلفُ وهي .

وقرأَ أَبو عمرو ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، والجحدري ، وعاصم ، والأَعمش ، وأَبو جعفر ، وشيبه : [بَرِقَ] بكسر الراءِ بمعنى : شَخَص وشق وحار [(١)] ، وقرأَ نافع ، وعاصم - بخلاف - وعبد الله بن أَبي إسحق ، وزيد بن ثابت ونصر بن عاصم : [بَرَقَ] بفتح الراءِ بمعنى : لَمَع وصار له بَرْقٌ عند الموت ، والمعنى متقارب في القراءَتين ، وقال أَبو عبيدة : بَرَقَ بالفتح : شَقَّ ، وقال مجاهد : هذا عند الموت ، وقال الحسن : هذا في يوم القيامة .

وقرأَ جمهور الناس : (وَخَسَفَ الْقَمَرُ) على أَنه فاعل ، وقرأَ أَبو حيوة : (وَخُسِفَ) بضم الخاءِ وكسر السين (الْقَمَرُ) مفعول لم يُسَمَّ

(١) المراد أَنه نظر أَمامه وفتح عينيه ولم يَطْرِف ، وقد قيل : إن الكسر لا يكون إلاّ في التحيُّر ، وإن الفتح لا يكون إلاّ الضياء ، وقال أَهل اللغة : هما بمعنى واحد .

فاعله ، يقال : خَسَفَ القمُر وخَسَفَه اللهُ ، وكذلك الشمس ، وقال أَبو عبيدة وجماعة من اللغويين : الخسوف والكسوف بمعنى واحد ، وقال ابن أَبي أُوَيْس[١] : الكسوفُ : ذهاب بعض النور ، والخسوف : ذهاب جميعه ، وروى عروة وسفيان أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا تقولوا كسفت الشمس ولكن قولوا خسفت)[٢] .

قوله تعالى : (وَجُمِعَ الشَّمْسُ والْقَمَرُ) ، غلب التذكير على التأْنيث وقيل : ذلك لأَن تأْنيث الشمس غير حقيقي ، وقيل : المراد : وجُمع بين الشمس والقمر ، وكذلك قرأَ ابن أَبي عبلة ، ولذلك أَسقط علامة التأْنيث ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود « وَجُمع بين الشَّمْسِ والَقَمَرِ » . واختلف المتأَولون في معنى الجمع بينهما – وقال عطاءُ ابن يسار : يُجمعان فيقذفان في النار ، وقيل : في البحر فيصير نار الله العظمى ، وقيل : يُجمع الضَّوْءَان فُيذهب بهما .

(١) هو إسماعيل بن عبد الله بن أُوَيْس بن مالك بن أَبي عامر الأَصْبَحي ، أبو عبد الله ابن أَبي أويس المدني ، صدوق ، أَخطأَ في أَحاديث من حفظه ، من الطبقة العاشرة ، مات سنة ست وعشرين . (تقريب التهذيب) .

(٢) أَخرجه مسلم في كتاب الكسوف ، قال : أخبرنا يحي بن يحي ، أخبرنا سفيان بن عُيَيْنة عن الزهري ، عن عروة ، قال : لا تقل : كسفت الشمس ولكن قل : خسفت الشمس . وفي البخاري في كتاب الكسوف أيضاً : باب هل يقول : كسفت الشمس أو خسفت . وقال الله تعالى : (وَخَسَفَ الْقَمَرُ) .

وقرأَ جمهور الناس : (أَيْنَ الْمَفَرُّ) بفتح الميم والفاءِ عَلَى المصدر ، أَي: أَين الفرارُ ؟ وقرأَ ابن عباس ، والحسن ، وعكرمة، وأَيوب السختياني ، وكلثوم بن عياض ، ومجاهد ، ويحيي بن يَعْمَر ، وحمَّاد بن سلمة ، وأَبو رجاءٍ ، وعيسى ، وابن أَبي إِسحق : (أَيْنَ الْمَفِرُّ) بفتح الميم وكسر الفاءِ ، على معنى : أَين موضع الفرار ؟ وقرأَ الزهري : (أَيْنَ الْمِفَرُّ) بكسر الميم وفتح الفاءِ ، بمعنى : أَين الْجَيِّد الفرارِ .

و [كَلاَّ] زَجْرٌ يقال للإِنسان يومئذ ، ثم يعلم أَنه لا وَزرَ له ، أَي لا ملجأَ ولا معين ، وعبَّر المفسرون عن « الوزر » بالجبل ، قال مطرف ابن الشخير وغيره : « وهو كان وزر فُرَّار العرب في بلادهم فلذلك استعمل » والحقيقة أَنه الملجأُ جبلاً كان أَوْ حصناً أَو سلاحاً أَوْ رجُلاً أَو غيره . وقوله تعالى : (إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ) معناه : إِلى حُكم ربك ونحوه من التقدير ، و « الْمُسْتَقَرُّ » رفع بالابتداءِ ، وخبره في المقدر الذي يتعلق به المجرور المتقدم ، وتقدير الكلام : الْمُسْتَقَرُّ ثابتٌ أَو كائن إِلى ربك يومئذ ، والمُسْتَقَرُّ موضع الاستقرار .

وقوله تعالى : (بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّر) قسمة تستوفي كل عمل ، أَي : يُعْلَم بكل ما فعل ، ويجده محصلا ، وقال ابن عباس ، وابن مسعود : المعنى : بما قدم في حياته وأَخَّر من سُنَّة (١) يعمل بها بعده ، وقال

---

(١) في بعض النسخ : « وأَخَّر من شُبهة » .

ابن عباس أيضاً : بما قدم من المعاصي وأَخَّر من الطاعات ، وقال زيد ابن أسلم : بما قدم من ماله لنفسه وبما أَخَّر منه للوارث .

وقوله تعالى : [بَلْ] إضرابٌ بمعنى التَّرك ، لا على معنى إبطال القول الأَول ، و [بَصِيرَةٌ] يحتمل أَن يكون خبراً عن « الإِنسان » ولحقته هاءُ التأنيث كما لحقت « علاَّمة ، ونَسَّابة » ، والمعنى : إنه فيه وفي عقله وفطرته حُجَّة وشاهد مبصر على نفسه ، ولو اعتذر عن قبيح أَفعاله فهو يعلم قُبْحها ، وكذلك لو استتر بسُتُوره واختفى بأَفعاله - على التأْويلين في المعاذير - ، ويحتمل [بَصِيرَةٌ] أَن يكون ابتداءً وخبره في قوله تعالى : (عَلَى نَفْسِهِ) ، والهاءُ للتأْنيث ، ويراد بالبصيرة جوارحُه ، والملائكة الحفظة ، وهذا هو تأْويل ابن عباس رضي الله عنهما . و « الْمَعاذِيرُ » هنا ، قال الجمهور : هي الأَعذار ، جمع « مَعْذِرَة » ، وقال السُّدي ، والضحاك : هي السُّتُورُ بلُغَة اليمن ، يقولون لِلسِّتْر : المعذار[(١)] ، وقال الحسن : المعنى : بل الإِنسان على نفسه بَلِيَّةٌ ومحنة ، كأَنه ذهب إلى البصيرة التي هي طريقة الدَّم وداعية طلب الثأْر[(٢)] . وفي هذا نظر .

---

(١) وفي ذلك يقول الشاعر :

وَلَكِنَّها ضَنَّتْ بِمَنْزِل ساعَةٍ عَلَيْنا وَأَطَّتْ فَوْقَها بِالْمَعَاذِرِ

(٢) في اللسان : « والبصيرة : مقدار الدرهم من الدَّم ، والبصيرةُ : الثأْرُ ، وقيل : البصيرة من الدَّم مالم يَسِل ، وقيل : هو الدفعة منه ، وقيل : البصيرةُ دمُ البكر ، قال :

راحوا بَصائِرَهُمْ عَلَى أَكْتافِهِمْ وَبَصيرَتِي يَعْدُو بِهَا عَتَدٌ وَأَىْ

يعني بالبصائر دم أَبيهم ، يقول : تركوا دم أَبيهم خلفهم ولم يَثْأَروا به وطلبتُه أنا » .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾

الضمير في [به] عائد على كتاب الله تعالى ، ولم يَجْر له ذِكْر ولكن القرائن تُبيِّنه ، فهذا كقوله تعالى : (حَتَّى تَوَارَتْ بالْحِجَابِ)(١) ، وقوله تعالى : (كَلاَّ إِذَا بَلَغَت)(٢) ، يعني النفس .

واختلف المتأولون في السبب الموجب أن يُؤْمر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأَمر ـ فقال الشعبي : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لحرصه على أَداءِ الرسالة والاجْتهاد في ذات الله تعالى ، ربما أَراد النطق ببعض ما أُوحي إليه قبل كمال أَداءِ الوحي ، فأُمر أَلاَّ يعجل بالقرآن من قبل أَن يُقضى إليه وحيه ، وجاءت هذه الآية في هذا المعنى ، وقال

(١) من الآية (٣٢) من سورة (ص) .
(٢) من الآية (٢٦) من هذه السورة (القيامة) .

الضحاك : كان سببها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخاف أن ينسى القرآن فكان يدرسه حتى غلب عليه ذلك وشق ، فنزلت الآية في ذلك ، وقال كثير من المفسرين ـ وهو في صحيح البخاري عن ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعالج من التَّنزيل شِدَّة ، وكان مما يحرك شفتيه مخافة أن يذهب عنه ما يُوحَى إليه لحينه ، فنزلت الآية بسبب ذلك ، وأعلمه الله تعالى أنه يجمعه في صدره (١) .

وقوله تعالى : [وَقُرْآنَهُ] يحتمل أن يريد به : وقِرَاءَتَه ، أي تقرؤه أنت يامحمد ، والقرآنُ مصدر كالقراءة ، ومنه قول الشاعر في عثمان رضي الله عنه :

---

(١) أخرجه الطيالسي ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن الأنباري في المصاحف، والطبراني ، وابن مردويه ، وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ولفظه كما ذكره في الدر المنثور : قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعالج من التنزيل شِدَّة ، وكان يحرِّك به لسانه وشفتيه مخافة أن يتفلت منه، يريد أن يحفظه، فأنزل الله : (لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِه، إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ) . قال : يقول : إن علينا أن نجمعه في صدرك ثم تقرؤه ، (فَإِذَا قَرَأْناه) ، يقول : إذا أنزلناه عليك (فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) ، فاستمع له وأنصت ، (ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) ، بَيِّنه بلسانك ، وفي لفظ ، علينا أن نقرأه ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل أَطْرَقَ ، وفي لفظ : اسْتَمَعَ ، فإذا ذهب قرأ كما وعده الله عزَّ وجلَّ .

ضَحُّوا بِأَشْمَطَ عنوانُ السُّجودِ بِهِ ... يُقَطِّعُ اللَّيلَ تَسْبيحاً وقُرْآنا (١)

ويحتمل أن يريد : علينا جَمْعه وتأليفه في صدرك ، فهو مصدرٌ من قولك : « قَرَأْتُ » أيْ جَمَعْتُ ، ومنه قولهم في المرأة التي لم تلد : « ما قرأت نَسْلاً قط » (٢) ، ومنه قول الشاعر :

ذِراعَيْ بَكْرَةٍ أَدْمـاءَ بِكْـر ... هِجَانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينَا (٣)

وَقَوْلُه تعالى : (فَإِذا قَرَأْنَاه) ، أي قرأه المَلَك الرسول عنا ، وقوله سبحانه : (فَاتَّبِعْ) يحتمل أن يريد : بذهنك وفكرك ، أيَ فاستمع

---

(١) هذا البيت لحسان بن ثابت ، وقد جاء في الديوان ضمن أبيات قالها حسان يرثي عثمان ابن عفان رضي الله عنه ، وجاء في اللسان أيضاً منسوباً إلى حسان مرتين ، وقال ابن عبد البَرّ : هذا البيت يختلف فيه ، فهو يُنسب لغير حسان ، وقال بعضهم هو لعمران بن حطان ، والأشْمط : الذي اختلط سواد شعره ببياض ، والقرآن : القراءة ، وهذا هو موضع الاستشهاد هنا ، يصف الشاعر عثمان رضي الله عنه بكثرة العبادة التي تظهر في السجود الطويل ، وقضاء الليل في التسبيح وقراءة القرآن .

(٢) هكذا في الأصول إلاّ في نسخة واحدة فقد جاءت الجملة « ما قَرَأَتْ سلىً قط » . وهذا يتفق مع ما في اللسان ، ومعناها : ما حَمَلَتْ ملقوحاً .

(٣) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم المعروفة ، والرواية المشهورة : (ذِراعَيْ عَيْطَلٍ) ، والعَيْطَل : الطويلة العُنق ، والأَدْماءُ : البيضاءُ ، والبكرُ : الفتيّة ، و« هجان اللون » معناه : بيضاء ، والهجان أيضاً : الكريم ، و « لم تقرأْ جنينا » معناه : لم تحمل قطُّ ، أو لم تَضُمَّ في رحمها ولداً ، ويروى الشطر الثاني (تَرَبَّعَت الأَجارع والمتونا) ، ومعناه : قضت الربيع في الأجارع وهو من الرمل ما لم يبلغ أن يصير حَبْلاً ، أي رملاً مستطيلاً شبيهاً بالحبل . والشاهد أن « تقرأ » في البيت بمعنى « تجمع » ، أو « تضم » ، ومنه قولهم : « قرأتُ الماءَ في الحوض » أي جَمَعْتُهُ .

قراءته ، وقاله ابن عباس رضي الله عنهما ، ويحتمل أن يريد : فاتَّبع في الأَوامر والنواهي ، قاله ابن عباس أيضاً ، وقتادة ، والضحاك . وقرأ أبو العالية : « وَقَرَتَهُ فَإِذا قَرَتَهُ فَاتَّبِعْ قَرَتَهُ » بفتح القاف والراء والتاء من غير همز ولا ألف في الثلاثة(١) .

وقوله تعالى : (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) ، قال قتادة وجماعة معه : معناه : أَن نُبَيِّنه لك ونُحَفِّظَكَهُ ، وقال كثير من المتأَولين : معناه : أَن تُبَيِّنه أَنت ، وقال قتادة أَيضاً : معناه : أَن نُبَيِّنَه حلالَه وحرامَه ومُجمله ومُفَسَّره .

وقوله تعالى : (كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ) رجوع إلى مخاطبة قريش ، يردُّ عليهم وعلى أَقوالهم في ردِّ الشريعة بقوله تعالى : [كَلاَّ] ، أَي : ليس ذلك كما تقولون ، وإنما أَنتم قوم قد غلبتكم الدنيا بشهواتها ، فأَنتم تحبونها حُبًّا تتركون معه الآخرة والنَّظَرَ في أَمرها ، وقرأ الجمهور : [تُحِبُّونَ] بالتاء على المخاطبة ، وقرأ ابن كثير ، وأَبو عمرو ، وابن عامر والحسن ، ومجاهد ، والجحدري ، وقتادة : [يُحبُّونَ] بالياء على ذكْر الغائب ، وكذلك [تَذَرُونَ] .

---

(١) نقل أبو حيان في البحر المحيط هذه القراءة عن ابن عطية ثم قال : «ولم يتكلم ـ ابن عطية ـ على توجيه هذه القراءة الشاذة ، ثم قام أبو حيان بتوجيه القراءات توجيهاً غير واضح أو مقنع ، وعلى كلٍّ فهي قراءة شاذة .

ولما ذكر تعالى الآخرة أخبر بشيءٍ من حال أَهلها ، فقوله تعالى : [وُجُوهٌ] رفع بالابتداءِ ، والابتداءُ بالنكرة لأَنها تخصصت بقوله تعالى : [يَوْمَئِذٍ] و[نَاضِرَةٌ] خبر[وُجُوه] - وقوله تعالى : (إِلى رَبِّها نَاظِرَةٌ) جملة هي في موضع خبر بعد خبر ، وقال بعض النحويِّين : [نَاضِرَةٌ] نعت لـ [وُجُوه] ، و(إِلَى رَبِّها نَاظِرَةٌ) خبر عن [وجوه] ، فعلى هذا كثر تخصيص « الْوُجُوه » فَحَسُن الابتداءُ بها ، و[نَاضِرَةٌ] معناه : ناعمة ، والنُّضرة : النعمة وجمال البشرة ، قال الحسن : وحق لها أَن تنضر وهي تنظر إِلى الخالق جل وتعالى .

قوله تعالى : (إِلَى رَبِّهَا ناظِرَةٌ) ، حمل هذه الآية جميعُ أَهل السُّنة على أَنها متضمنه رؤية المؤمنين لله تعالى ، وهي رؤية دون محاذاة ولا تكييف ولا تحديد ، كما هو تعالى معلوم موجود لا يُشبه الموجودات ، كذلك هو مَرْئيٌّ لا يشبه المرئيات في شيءٍ ، فإِنه ليس كمثله شيءٌ ، لا إِله إِلاَّ هو . وروى عُبادة بن الصامت أَن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (حَدَّثتكم عن الدَّجال أَنه أَعور ، وإِن ربكم ليس بأَعور ، وإِنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا)[1] ، وقال صلى الله عليه وسلم : (إِنكم ترون ربكم يوم القيامة

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد وفي حجة الوداع ، ومسلم وابن ماجه في الفتن ، وأبو داود في الملاحم ، وأحمد في مسنده (٣٣/٢ ، ٣٧ و ٣٨/٥) ، ولفظه كما في البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما : قال : كنا نتحدث بِحَجَّة الوَدَاع والنبي صلى الله عليه وسلم بين أَظْهُرِنا ولا ندري ما حَجَّة الوداع ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم ذكر المسيح الدجال فأطنب في ذكره ، وقال : ما بعث الله من نبي إلاَّ أنذر أُمته ، أَنذره نوحٌ والنبيُّون من بعده ، وإنه =

كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامُون في رؤيته)[١] ، وقال الحسن : تنظرون إلى الله تعالى بلا إحاطة ، وأما المعتزلة الذين ينفون رؤية الله تعالى فذهبوا في هذه الآية إلى أن المعنى : إلى رحمة ربِّها ناظرة ، أو إلى ثوابه أو مُلكه ، فقدَّروا مضافاً محذوفاً ، وهذا وجه سائغ في العربية ، كما تقول : « فلان ناظر إليك في كذا » أي إلى صُنعك في كذا ، والرؤية إنما يثبتها بأدلة قطعية غَيْرُ هذه الآية ، فإذا ثبتت حسُن تأويل أهل السنة في هذه الآية وقَوِيَ ، وذهب بعض المعتزلة في هذه الآية إلى أن قوله تعالى : [إلى] ليست بحرف الجرِّ ، وإنما هي « إلى » واحدة الآلاءِ ، فكأنه تعالى قال : نِعْمة ربِّها منتظرة أو ناظرة ، من النظر بالعين ، ويقال : « نظرتُك» بمعنى « انتظرتك » ، ومنه قول الحطيئة :

= يخرج فيكم ، فما خفي عليكم من شأنه فليس يخفى عليكم أن ربكم ليس على ما يخفى عليكم — ثلاثاً — ، إنَّ ربكم ليس بأعور ، وإنه أعور عين اليمنى ، كأن عينه عِنَبَة طافية ، ألا إن الله حرَّم عليكم دماءكم وأموالكم ... الحديث) ، وهو طويل .

(١) روى جرير بن عبد الله قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوساً ، فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : (إنكم سترون ربكم عياناً . كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم ألاَّ تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا) ، ثم قرأ : (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ) . متفق عليه ، وخرَّجه أيضاً أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن صحيح . وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري ، وأبي هريرة أن ناساً قالوا : يارسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب ؟ قالوا : لا ، قال : إنكم ترون ربكم كذلك ، وقد أخرج هذا الحديثَ أيضاً الدار قطني عن أبي هريرة ، وأخرجه أحمد ، وعبد بن حميد ، والدار قطني ، والحاكم ، والبيهقي عن أبي سعيد الخدري .

وَقَدْ نَظَرْتُكُمُ إِينَاءَ صَــــادِرَةٍ
لِلْخِمْسِ طَالَ بِهَا حَوْزِي وَتَبْسَاسِي (١)

---

(١) اختلفت رواية هذا البيت في كثير من المصادر ، فيروى : « أَبْنَاءَ » بدلاً من « إيناء » ، و« غاشية » بدلاً من « صادرة »، ويروى « لِلْوِرْد » بدلاً من « لِلْخِمْس »، ويروى « تَنْسَاسي » بالنون بدلا من « تَبْسَاسي » بالباء ، ويروى « طار » بدلاً من طال » ، وقد استشهد به صاحب اللسان في كثير من الأماكن، وكذلك أكثر المفسرون من الاستشهاد به ، و « نظرتكم » هنا معناها : انتظرتُكم ، وهذا هو موضع الاستشهاد هنا ، والإيناء : الانتظارُ ، والصادرةُ ، الإبل الراجعة عن الماء ، يقول : انتظرتكم كما تنتظر الإبلُ الصادرة عن الماء التي تَرِدُ الخِمْسَ ثم تُسقى لتَصْدُرَ ، وكان من عادة العرب أن الإبل ترد الماء فتشرب يوم وردها وتصدرُ في ذلك اليوم أي تبتعد عن الماء ، وتظل بعد ذلك في المرعى ثلاثة أيام بعد يوم الصَّدَرَ ، وترد اليوم الرابع وهو في الحقيقة الخامس ، فهذا هو الخمس الذي تنتظره الإبل ، والحَوْزُ : السَّوْق الهاديء ، والتَّنْسَاسُ : السَّوْق الشديد . وقد قيل: إن الحَوْز هو السَّير الشديد، وأن الرواية التَّبْسَاس ومعناه أن يقول الحالب للإبل : بُسَّ بُسَّ لِتَدُرَّ اللبن ، وبعد هذا البيت يقول الحطيئة :

لَمَّا بَدَا لي مِنْكُمْ عَيْبُ أَنْفُسِكُمْ وَلَمْ يَكُنْ لِجِرَاحِي عِنْدَكُمْ آسِي
أزمعتُ أَمْراً مُرِيحاً مِنْ نَوَالِكُمُ وَلَنْ تَرَى طارداً لِلْمَرءِ كَالْيَاسِ

هذا وقد قيل : إن تأويل « نَظَرَ » بمعنى « انْتَظَرَ » مدخول ، لأن العرب إذا أرادت بالنظر الانتظار قالوا : نَظَرْتُه ، ولاَ يقولون : نَظَرْتُ إليه ، ومنه قوله تعالى : (هَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ السَّاعَةَ) ، و(هَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ تَأْوِيلَهُ) ،(مَا يَنْظُرونَ إلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً)، فالمعنى فيها : ينتظرون ، أما إذا أراد العرب النظر بالعين جاءوا بـ « إلى » ، وقد ذكرت « إلىَ » هنا ، وذُكر معها الوُجوه فقيل : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ، إلىَ رَبِّها ناظِرَةٌ) ، قال ابن أبي ربيعة :

نَظَرْتُ إِلَيْهَا بالْمُحَصَّبِ مِنْ مِنىً وَلِي نَظَرٌ لَوْلاَ التَّحَرُّجُ عارِمُ

وقال امرؤالقيس :

نَظَرْتُ إِلَيْهَا وَالنُّجومُ كَأَنَّهَا مَصَابِيحُ رُهْبَانٍ تُشَبُّ لِقُفَّالِ

فإذا أراد العرب بالنظر الفِكْرَ والتَأَمُّلَ قرنوه بحرف الجرِّ « في » فقالوا : نظر في الأمر، بمعنى فكر فيه وتأمل .

والتَّبْساسُ أَن يُقال للناقة : « بُسّ بُسّ » لتدرَّ على الحالب ، وفسَّر أَبو عبيدهِ في غريبه هذا البيت على روايةٍ أُخرى وهي :

.... طارَ بِها حَوْزي وَتَنْسَاسي

بالنون وهو السَّيْر الشديد ، فتأَمله .

و « الباسِرَةُ » : العابسة المغمومة النفوس ، والبُسُور أَشدُّ العبوس ، وإنما ذكر تعالى الوجوه لأَنه فيها يظهر ما في النفوس من سرور أَو غمٍّ ، والمراد أَصحاب الوجوه .

وقوله تعالى : [تَظُنُّ] إنْ جعلناه بمعنى « تُوقِن » فهو لم يقع بعد على ما قدبَيَّناه ، وإن جعلنا الظن هنا على غَلَبَته فذلك محتمل ، و « الفاقِرَةُ » : المصيبة التي تكسر فقار الإنسان ، قال ابن المسيب : هي قاصمة الظَّهر ، وقال أَبو عبيدة : هي من « فَقَرْتُ البعير » إذا وسمتَ أَنفه بالنار .

وقوله تعالى : [كَلاَّ] زَجْرٌ لقريش وتوكيد لهم بموطن من مواطن الهول وأَمر الله تعالى الذي لا محيد لبشر عنه ، وهي حالة الموت والمنازعة التي كتبها على كل حيوان ، و [بَلَغَتْ] يريد النفس ، و « التَّراقي » جَمْعُ « تَرْقُوَة » ، وهي عظام أَعلى الصدر ، ولكل أَحدٍ تَرْقوتان لكن من حيث هذه الأَفْرادُ في كثيرين جُمع ؛ إذ النفس المرادة اسم جنس ، والتراقي موازية للحلاقيم ، فالأَمر كلُّه كناية عن حال الحشرجة ونزاع الموت ، يَسَّره الله تعالى علينا .

واختلف الناس في معنى قوله تعالى : (مَنْ راقٍ) ـ فقال ابن عباس ، والضحاك ، وقتادة ، وأَبو قُلابة : معناه : مَنْ يَرْقي ويُطب ويشفي ونحو هذا مما يتمناه أَهل المريض ، وقال ابن عباس أَيضاً ، وسليمان التيمي ، ومقاتل بن سليمان : هذا القول للملائكة ، والمعنى : مَن يَرْقَى بروحه ـ أَيْ يصعد ـ إِلى السماءِ ؟ أَملائكة الرحمة أَم ملائكة العذاب ؟ وقرأَ حفص عن عاصم بالوقف على [مَنْ] ، ويبتديء [رَاقٍ] ، وأَدغم الجمهور ، قال أَبو علي: لا أَعرف وجه قراءة عاصم ، وكذلك قرأَ : (بَلْ رانَ)(١) .

قوله تعالى : (وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ) ، يريد : وتيقَّن المريض أَنه فراق الأَحبة والأَهل والمال والحياة ، وهذا اليقين فيما لم يقع بعد ، ولذلك استُعملت فيه لفظة الظَّن ، وقال(٢) ابن عباس رضي الله عنهما : أَيقن أَنه الفراق ، وقال في تَفْسيره : ذهب الظن .

واختُلف في معنى قوله تعالى : (وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بالسَّاقِ) ـ فقال ابن عباس ، والحسن ، والربيع بن أَنس ، وإِسماعيل بن أَبي خالد : هذه استعارة لشدة كرب الدنيا في آخر يوم منها وشدة كرب الآخرة في

---

(١) من الآية (١٤) من سورة (المطففين) ، وقد قال أَبو حيان في البحر المحيط تعليلا لقراءة حفص عن عاصم هذه : « وكأن حَفْصاً قصد أَلاَّ يُتَوَهَّم أنهما كلمة واحدة فسكت سكتة لطيفة ليُشعر أنهما كلمتان » .

(٢) في بعض النسخ : « وقرأ ابن عباس » .

أول يوم منها ، لأنه بين الحالتين قد اختلطا له ، وهذا كما يقولون : « شَمَّرَتُ الحرب عن ساق »(١) ، وعلى بعض التأْويلات في قوله تعالى : (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ)(٢) . وقال ابن المسيب ، والحسن : هي حقيقة ، والمراد ساقا الميت عند تكفينه ، أي : لَفُّهما الكفن ، وقال الشعبي ، وأَبو مالك ، وقتادة : هو التفافهما بشدة المرض لأَنه يقبض ويبسط ويركب هذا على هذا وقال الضحاك : المراد سوق حاضريه من الإنس والملائكة ؛ لأَن هؤلاء يجهزون روحه إلى السماء ، وهؤلاء يجهزون بدنه إلى القبر . وقوله تعالى : (إلى رَبِّكَ) معناه : إلى حكم ربك وعدله ، فإِمَّا إلى جنة وإمَّا إلى نار ، و « الْمَسَاقُ » مصدر من السَّوْقِ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾

---

(١) شَمَّر : مرَّ جاداً في الأمر ، وشمَّر عن ساقه : جدَّ وخفَّ ، والسَّاقُ في اللغة : الأَمْرُ الشديد ، وكَشْفُ السَّاق مَثَلٌ في شدَّة الأمر ، كما يقال : « يَدُه مغلولة » إذا وصفته بالشُّح ، ولا يَدَ هناك ولا غُلَّ ، وإنما هو مثل في شدَّة البخل ، كذلك هنا لا ساق ولا كشف وإنما هو كناية عن شدة الأمر وقسوته . (راجع اللسان) .

(٢) من الآية (٤٢) من سورة (القلم) .

هذه الآيات كلها إنما نزلت في أَبي جهل بن هشام ، ثم كادت هذه الآية أَن تصرح به في قوله تعالى : (يَتَمَطَّى) فإنها كانت مشية بني مخزوم ، وكان أَبو جهل يكثر منها ، وقوله تعالى : (فَلاَ صَدَّقَ وَلا صَلَّى) تقديره : فلم يُصَدِّق ولَمْ يُصَلِّ ، وهذا نحو قول الشاعر :

فَأَيُّ خَميسٍ لاَ أَبَانَا نَهابُـــهُ
وَأَسْيافُنا يَقْطُرْنَ مِنْ كَبْشِهِ دَمَا؟(١)

وقول الآخر :

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمَّـــا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لاَ أَلَمَّا ؟(٢)

---

(١) الخميس : الجيش الكبير ، سمِّي بذلك لأَنه يتكون من خمسة أقسام : المقدمة، والوسط والميمنة والميسرة والساقة، والإِباءُ : الامتناعُ، وكبش القوم سيدهم وحاميهم والمنظور إليه فيهم ، وكبش الكتيبة : قائدها ، والاستفهام هنا للنفي أو للأنكار ، يقول : كيف نخاف جيشاً لم يمتنع علينا وسيوفنا تقطر دماً من قائده وحاميه ؟ والشاهد أنَّ « لا أبَانا» بمعنى : لم يأْبَنا ولم يمتنع علينا ، ومثله قول زهير :

وَكانَ طَوَى كَشْحاً عَلَى مُسْتَكِنَّةٍ فَلاَ هُوَ أَبْداهــا وَلَمْ يَتَقَدَّمِ

أي : لَم يُبْدها ولم يتقدم .

(٢) هذان البيتان من الرجز من الشعر المختلف في نسبته، فقد نسبهما ابن بَرِّي لأُمية بن أبي الصلت ، ولم أجدهما في ديوانه ، ونسبهما مسلم بن أبي طرفة الهذلي لأبي خراش الُهذَليُّ مع بيتين غيرهما ، وفي اللسان نسبهما مرة إلى أمية ومرة أُخرى إلى أبي خراش ، والجَمُّ : الكثير المجتمع ،و « أَلمَّ » من الإلمام وهو مقاربة الذنب دون الوقوع فيه ، أو ارتكاب الذنوب الصغيرة ، والشاهد هنا أن « لا» بمعنى « لم » ، والمعنى : وأي عبد لك لم يرتكب الذنوب الصغيرة ؟ لكنهم قالوا : إن « لا» بهذا المعنى تكون أفصح إذا كُرِّرت ،وقلَّما تتكلم العرب بمثل هذا إلاَّ وكررت « لا » مرتين ، كقوله تعالى : « فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى » ، أي : لَم يُصَدِّق وَلَم يُصَلِّ .

فـ [لا] في الآية نافيةٌ لاَ عاطفة . و[صَدَّقَ] معناه : برسالة الله تعالى ودينه ، وذهب قوم إلى أنه من الصدقة والأول أصوب . و [يَتَمَطَّى] معناه : يمشي المُطَيْطَا ، وهي مشية بتبختر ، قال زيد بن أسلم : كانت مشية بني مخزوم ، وهي مأخوذة من المَطَا وهو الظهر ، لأنه ينثني فيها ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (إذا مشت أُمتي الْمُطَيْطَا ، وخدمتهم الروم وفارس ، سلِّط بعضهم على بعض)(١) ، وقال مجاهد : نزلت هذه الآيات في أبي جهل بن هشام .

وقوله تعالى : (أَوْلَى لك فَأَوْلَى) وعيدٌ ثان ، ثم كرر ذلك تأكيداً ، والمعنى : أَولى لك الازدجار والانتهاءُ ، وهو مأْخوذ من « وَلِيَ » ، والعرب تستعمل هذه الكلمة زجراً ، ومنه قوله تعالى : (فَأَوْلَى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْروفٌ)(٢) ، ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبَّبَ أَبا جهل يوماً في البطحاءِ وقال له : إن الله يقول لك : (أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى) ، فنزل القرآن على نحوها(٣) ، وفي شعر الخنساءِ :

---

(١) أخرجه الترمذي وابن عمر عن ابن جرير في تفسيره ، وقال عنه السيوطي في الجامع الصغير : حديث حسن ، واستشهد به صاحب اللسان والقرطبي .

(٢) من الآية (٢١) من سورة (محمد) .

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره عن قتاده (أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ، ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى) وعيد على وعيد ، كما تسمعون ، زعم أن هذا أُنزل في عدو الله أَبي جهل ، ذُكِرَ لنا أن نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم أَخذ بمجامع ثيابه فقال : (أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ، ثُمَّ أَوْلَى لَكَ =

هَمَمْتُ بِنَفْسِي كُلَّ الْهُمُومِ فَأَوْلَى لِنَفْسِي أَوْلَى لَهَا(١)

وقوله تعالى : [أَيَحْسَبُ] توبيخ وتوقيف ، و [سُدًى] معناه : مهملاً لا يُؤْمر ولا يُنْهى ، ثم قَرَّر تعالى على أَحوال ابن آدم في يد الله التي إذا تُؤملت لم يُنكر معها جوازَ البعث عاقلٌ . وقرأَ الجمهور : (أَلَمْ يَكُ) بالياءِ ، وقرأَ الحسن : (أَلَمْ تَكُ) بالتاءِ من فوق ، و « النُّطْفَةُ » القطعة من الماءِ ، يقال ذلك للقليل والكثير . والْمَنِيُّ معروف . وقرأَ ابن عامر ، وحفص عن عاصم ، وأَبو عمرو - بخلاف - وابن محيصن ، والجحدري ، وسلام ، ويعقوب : [يُمْنَى] بالياءِ ، يريد بذلك المني ، ويحتمل أَن يكون [يُمْنَى] من قولك : « أَمْنَى الرجلُ » ، ويحتمل أَن

= فَأَوْلَى) ، فقال عدوُّ الله أَبوجهل : أَيوعدني محمد ؟ والله ما تستطيع لي أنت ولا ربُّك شيئاً، والله لأنا أَعزُّ من مشى بين جبليها . وأخرج سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن سعيد بن جبير ، قال : سألت ابن عباس عن قول الله تعالى : (أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى) ، أشيءٌ قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي جهل من قِبَل نفسه أَم أَمَرَهُ الله به ؟ قال : بل قاله من قِبَل نفسه ثم أَنزله الله .

(١) المعنى : الوَيْلُ لنفسي ، ويروى البيت : « وجمت بنفسي » ، ويروى « بعض الهموم » . والبيت من قصيدة قالتها في رثاء أخيها معاوية حين قتله بنو مُرَّة ، وزعم أَبو عبيدة أَنها قالته في رثاء أخيها صخرحين دفن بأرض بني سُلَيم ، وهي من أبلغ مراثيها .

يكون من قولك : « مَنَى اللهُ الخلقَ »[١] ، فكأنه تعالى قال : من منِيٍّ يُخْلق ، وقرأ جمهور السبعة ، والناسُ : [تُمْنَى] بالتاءِ ، يراد بذلك النطفة ، و [تُمْنَى] تحتمل الوجهين اللذين ذكرنا . و « العَلَقَةُ » القطعة من الدَّم ؛ لأَن الدَّم هو العَلَق .

وقوله تعالى : (فَخَلَقَ فَسَوَّى) معناه : فخلق الله تعالى منه بشراً مركباً من أَشياءَ مختلفة ، فسَوَّاه شخصاً مستقلاً ، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه : « يخلق » بالياءِ فعلا مستقبلا . و « الزَّوْجَيْن » : النوعين[٢] ويحتمل أَن يريد المزدوجين من البشر .

ثم وقف تعالى توقيف توبيخ وإقامة حجة بقوله تعالى : (أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْموتَى) ، وقرأَ الجمهور بفتح الياءِ الأَخيرة من [يُحْيِيَ] ، وقرأَ طلحة بن سليمان ، والفياض بن غزوان بسكونها ،

---

(١) ومثل هذا ما ورد في الحديث : أن مُنْشداً أنشد النبي صلى الله عليه وسلم :

لا تَأمَنَنَّ وَإنْ أَمْسَيْتَ في حَرَمٍ حَتَّى تُلاقِيَ ما يَمْنِي لَكَ الْمَانِي
فالْخَيْرُ والشَّرُّ مَقْرونانِ في قَرَنٍ بِكُلِّ ذَلكَ يَأْتيكَ الْجَدِيدانِ

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (لو أدرك هذا الإسلام). والمعنى : حتى تلاقي ما يُقدِّر لك الْمقدِّرُ وهو الله عزَّ وجلَّ .

(٢) هكذا في الأصول ، وقد راعى المؤلف لفظ الآية (فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ) .

وهي تحذف من اللفظ لسكون اللام من [الْموْتَى] . ويُروى أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأَ هذه الآية قال : (سبحانك اللهم وبحمدك ، وبلى)(١) ، ويروى أنه كان يقول : (بَلَى)(٢) فقط .

كمل تفسير سورة القيامة والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه عبد بن حميد ، وابن الأنباري في المصاحف ، عن صالح أبي الخليل ، وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، عن قتادة في قوله تعالى : [سُدًى] ، قال : أن يُهمل ، وفي قوله : (أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى) ، قال : ذُكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : إذا قرأَها : (سبحانه وبلَى) .

(٢) أخرج البخاري في تاريخه عن أَبي أُمامة قال : صليتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد حجته ، فكان يكثر من قراءة (لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) ، فإذا قال : (أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أن يُحْيِيَ الْمَوْتَى) سمعته يقول : (بلَى) ، وأنا على ذلك من الشاهدين .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٧٦) سورة الإنسان مدنية
وآياتها إحدى وثلاثون

تفسير سورة الإنسان *

قال بعض العلماءِ : هي مكية كلُّها ، وحكى النقاش ، والثعلبي عن مجاهد وقتادة أنها مدنية ، وقال الحسن وعِكْرِمة : منها آية مكية ، وهي قوله تعالى : (وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً) ، والباقي مدني ، وأنها نزلت في صنيع علي بن أَبي طالب رضي الله عنه في إِطعامه عشاءَه وعشاءَ أَهْله وولده لمسكين ليلة ، ثم ليتيم ليلة ، ثم لأَسير ليلة ثالثة ، متواليات ، وقيل : نزلت في صنيع أَبي الدحداح رضي الله عنه (١) ، والله تعالى أَعلم .

---

* وتُسَمَّى سورَة الدهر .

(١) أَبو الدَّحداح صحابي من الأنصار ، صام يوماً ، فلما أراد أن يُفطر جاء مسكين ، وأسير ، فأَطعمهم ثلاثة أَرغفة ، وبقى له ولأهله رغيف واحد ، فنزلت فيهم هذه الآية ، قال ذلك مقاتل ، وقال الخازن : قيل : نزلت في رجل من الأنصار يقال له : أبو الدَّحداح .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ ﴾

« هَلْ » في كلام العرب قد تجيءُ بمعنى « قَدْ » ، حكاه سيبويه ، لكنها لا تخلو من تقرير ، وبابها المشهور الاستفهام المحض ، والتقرير أَحياناً ، فقال ابن عباس : هي هنا بمعنى « قد » ، و « الإِنسانُ » يراد به آدم عليه السلام ، و « الحِينُ » هو المدَّة التي بقي فيها طيناً قبل أَن تنفخ فيه الروح ، أَي أَنه شيءٌ لم يكن مذكوراً مُنَوَّهاً به في العالَم ، وفي حالة العدم المحض قبل أَن لم يكن شيئاً ولا مذكوراً . وقال أَكثر المتأَولين : « هَلْ » تقرير ، و « الإِنسان » اسم الجنس ، أَي : إِذا تأَمل كل إِنسان نفسه علم بأَنه قد مَرَّ حين من الدهر عظيم لم يكن هو فيه شيئاً مذكوراً ، أَي لم يكن موجوداً ، وقد يُسمى الموجود شيئاً فهو مذكور بهذا الوجه ، و « الحين » هنا : المدَّة من الزمن غير محدودة تقع على القليل والكثير ، وإِنما يحتاج إِلى تحديد الحِين في الأَيْمان ، فيمن حلف أَلاَّ يكلم أَخاه حينا ، فذهب بعض العلماء إِلى أَن الحين سنة ،

وقال بعضهم : ستة أَشهر ، والقويُّ في هذا أَن « الإنسان » اسم الجنس ، وأَن الآية جعلت عبرة لكل أَحد من الناس ليعلم أَن الصانع له قادر على إعادته .

قوله تعالى : (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ) ، هو هنا اسم الجنس بلا خلاف لأَن آدم عليه السلام لم يخلق من نطفة ، و[أَمْشَاجٍ] معناه : أَخلاط ، واحدها « مَشَج » بفتح الميم والشين ، قاله ابن السكيت وغيره ، وقيل : « مَشْج » مثل عَدْل وأَعدال ، وقيل : « مَشيج » مثل شريف وأَشراف .

واختلف في المقصود من « الخَلْط » ـ فقيل : هو أَمشاج ماءِ الرجل بماءِ المرأَة ، وأَسند الطبري حديثاً ـ وهو أَيضاً في بعض المصنفات ـ أَن عظام ابن آدم وَعَصَبه من ماءِ الرجل ، ولحمه وشحمه من ماءِ المرأَة ، وقيل : هو اختلاط أَمر الجنين بالنقلة من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى غير ذلك ، فهو أَمر مختلط ، وقيل : هو اختلاط الدم والبلغم والسوداءِ والصفراءِ فيه . و [نَبْتَلِيهِ] معناه : نختبره بالإيجاد والكون في الدنيا ، وهو حالٌ من الضمير في [خَلَقْنَا] ، كأَنه قال : مختبرين له بذلك .

وقوله تعالى : [فَجَعَلْنَاهُ] عطف جملة نِعَم على جملة نِعَم ، وقال بعض النحويين إنما المعنى : فَلِنَبْتَليه جعلناه سميعاً بصيراً ، ثم ترتب اللفظ مؤخراً متداخلا كأَنه قال : نحن نَبْتَليه فلذلك جعلناه ، والابتلاءُ ـ على هذا التأْويل ـ هو بالأَسماع والأَبصار لا بالإيجاد ، وليس [نَبْتَليه] حالاً .

وقوله تعالى : (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ) يحتمل أن يريد السبيل العامة للمؤمن والكافر ، وذلك بخلق الحواسِّ وموهبة الفطرة ونصب الصنعة الدالَّة على الصانع ، و [هَدَيْنَاهُ] ـ على هذا ـ بمعنى أَرشدناه ، كما يرشد الإنسان إلى طريق ويُوقف عليه . ويحتمل أَن يريد بالسبيل اسم الجنس ، أَي : هدى المؤمن لإيمانه والكافر لكفره ، فـ [هَدَيْنَاهُ] ـ على هذا ـ كأَنه بمعنى أَريناه فقط ، وليس الهدى في هذه الآية بمعنى خلق الهدى والإيمان ، وقوله تعالى : (إِمَّا شاكراً وإِمَّا كَفوراً) حالان وقسمتها [إِمَّا] . قال أَبو عمرو الداني: وقرأَ أَبو العاج : (أَمَّا شاكِراً وَأَمَّا كَفُوراً)(١) وأَبو العاج هو كثير بن عبد الله السلمي ، شامي ، وَلِيَ البصرة لهشام ابن عبد الملك .

و [أَعْتَدْنَا] معناه : أَعددنا ، وقرأَ نافع ، والكسائي ، وأَبو بكر عن عاصم : [سَلاَسِلاً] بالصرف ، وهذا على ما حكاه الأَخفش من لغة

---

(١) بفتح الهمزة من (أَمَّا) ، قال أبو حيان في البحر المحيط : « وهي لغة حكاها أبو زيد عن العرب ، وهي التي عدها بعض الناس في حروف العطف » ، وقال الزمخشري : « وهي قراءة حسنة » ، وعلَّق على كلامه الإمام ناصر الدين أحمد بن المنير فقال في كتابه (الانتصاف) : « واستحسانه لهذه القراءة لتخيُّله أن في التقسيم إشعاراً بغرضه الفاسد » ، وذلك لأن الزمخشري جعل « أَمَّا » هنا للتفصيل وتقسيم الناس إلى شاكر بتوفيق الله تعالى ، وكفور بسوء اختياره هو ، ولما كان الشكر قليلا قال الله : (شاكراً) ، ولما كان كفر النعمة كثيراً قال تعالى : (كفوراً) بصيغة المبالغة .

من يصرف كل مالا ينصرف إلا أَفْعَل (١) ، وهي لغة الشعراء ، ثم كثُر حتَّى جرى في كلامهم ، وقدعُلِّلَ بِعِلَّة ، وهي أنه لما كان هذا الضرب من الجموع يُجمع أَشبه الآحاد فصرف، وذلك من شِبْهِ الآحاد موجود في قولهم : « صواحب وصواحبات » ، وفي قول الشاعر :

....نَوَاكِسِي الأَبْصار (٢)

بالياءِ جَمْع « نَوَاكس » ، وهذا الإِجراءُ في [سَلاَسِلاَ] و [قَوَارِيَرا]

---

(١) يريد : « إلاّ أفعل مِنْكَ » ، لأنه لا يوجد في العرب من يقول مثلاً : « أنا أكرَمٌ منك » بالتنوين ، والسبب أنّ « من » تقوم مقام الإضافة ، ولا يُجمع بين تنوين وإضافة في حرف ، لأنهما دليلان من دلائل الأسماء ولا يجمع بين دليلين ، قال ذلك الفراءُ .

(٢) هاتان الكلمتان قالهما الفرزدق في بيت من الشعر من قصيدة يمدح بها آل المهلَّب ، وخصَّ من بينهم « يزيد » ابنه ، والبيت هو :

وإذا الرجالُ رَأَوْا يَزِيدَ رَأَيْتَهُمْ   خُضُعَ الرِّقَابِ نَوَاكِسَ الأَبْصَارِ

وخُضُع : جمع خَضُوعٍ مبالغة في خاضع ، وهو المتواضع الْمُتَطَامن ، وقد يُضبط بسكون الضاد فيقال : خُضْع ، وهو جمع أَخْضع كأبْيَض ، وهو الذي في عنقه تطامن طبيعي لأنه خُلق هكذا ، ومعنى نواكس أنهم ينكسون أبصارهم عند رؤيته هيبةً وإجلالاً له ، يقال : « نكس رأسه » إذا طأطَأه من الذل ، ونواكس جمع ناكِسٍ ، وهو جمع شاذٌ ، لأن « ناكس » صفة للعاقل ، ولا يجمع « فاعل » على « فواعل » إلا إذا كان لغير العاقل ، وقد اضطر الفرزدق لذلك لأنه يجوز لك أن تقول : هي الرجل كما تقول : هي الجِمال ، فشبه الرجال بالجِمال ، أما رواية البيت « نَوَاكِسِي » بالياء فلأَن الشاعر ردَّ النواكِسَ إلى الرِّجال، فكأن أصل الكلام : وإذا الرجال رأيتهم نواكِسَ أبصارُهُم ، فكأن النواكس للأبصـار فنقلت إلى الرجال فدخلت الياءُ ، وهذا هو موضع الاستشهاد هنا ، وفي البيت كلام كثير ، راجع كتب النحو ، والكتاب لسيبويه ، ولسان العرب .

ثبت في مصحف ابن مسعود ومصحف أُبَيٍّ بن كعب ومصحف المدينة ومكة والكوفة والبصرة (١) . وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو ، وحمزة : [سَلاَسِلاَ] على ترك الصرف في الوصل والوقف، وهي قراءة عمرو بن عبيد . وقرأ أبو عمرو ، وحمزة - فيما روي عنهما - : [سَلاَسِلَ] في الوصل ، و [سَلاَسِلاَ] بألِفٍ دون تنوين في الوقف، ورواه هشام عن ابن عامر ؛ لأن من العرب من يقول : « رأيْتُ عُمَرَا » ، يقف بألِفٍ ، وأيضاً فالوقف بالألف في [سَلاَسِلاَ] اتباعٌ لخطِّ المصحف .

و « الأَبْرارُ » جمع « بَارٍّ » ، كشاهِدٍ وأَشْهاد ، قال الحسن : هم الذين لا يؤذون الذَّرَّ ولا يرضون بالشَّر ، و « الْكَأْس » : ما فيه نبيذ أَو نحوه مما يُشرب به ، قال ابن كيسان : لا يقال « كأْس » إلاَّ لما فيه نبيذ ونحوه ، ولا يقال « ظعينة » إلاَّ إذا كان عليها امرأةٌ ، ولا يقال « مائدة » إلاَّ وعليها طعام ، وإلاَّ فهو « خوان » . و« المِزاجُ » : ما تمزج به الخمور ونحوها ، وهي أيضاً مِزاجٌ له لأَنهما تمازَجَا مِزاجاً ، قال

---

(١) يعني أن التنوين في [سَلاَسلاً] و [قَوَارِيراً] ثبت في هذه المصاحف ، وهذه حُجَّة لمن قرأ بالتنوين، فهو يتبع المصاحف، وهناك حجة ثانية هي أنَّ [قَوارِيراً] الأول نُون لأنه رأسُ آية ، وكل رُءوس الآيات جاءت مُنَوَّنة ، مثل (مَذكوراً ، سميعاً بصيراً) . ونُون [قَوارِيراً] الثاني على الجوار للأول ، وهاتان الحجتان غير ما ذكره ابن عطية من أن هذه الجموع أشبهت الآحاد فجُمعت جَمْع الآحاد ، وأيضاً فإنه قد أشار إلى اتباع خط المصاحف ، وأما من ترك التنوين فيهما فقد أتي بمحض قياس العربية ، قاله ابن خالويه .

بعض الناس : المِزَاجُ نَفْس الكافور ، وقال قتادة : قوم تُمزج لهم بالكافور وتُختم بالمسك ، وقال الفراءُ : يقال : إن في الجنة عيناً تُسَمَّى كافوراً ، وقال بعض المتأولين : إنما أراد كافوراً في النكهة والعرف كما تقول إذا مدحت طعاماً : هذا الطعام مسك .

وقوله تعالى : [عَيْناً] قيل : هو بدل من قوله تعالى : [كافوراً] ، وقيل : هو مفعول بقوله تعالى : [يَشْرَبُونَ] أَيْ يشربون ماءَ هذه العين من كأْسٍ عطِرةٍ كالكافور ، وقيل : نصب [عَيْناً] على المدح أَو بإِضمار « أَعْنِي » ، وقوله تعالى : (يَشْرَبُ بِهَا) بمنزلة « يَشْرَبُهَا » ، فالباءُ زائدة ، قال الهذلي :

شَرِبْنَ بِماءِ الْبَحْرِ ....(١)

أَيْ : شَرِبْن ماءَ البحر ، وقرأ ابن أَبي عبلة : (يَشْرَبُهَا عِبادُ الله) ، و « عِبَادُ الله » هُنَا خصوص في المؤمنين الناعمين ؛ لأَن جميع الخلق

---

(١) هذا بداية بيت قاله أبو ذؤيب الهذلي في إحدى قصائده والبيت بتمامه :

شَرِبْنَ بِماءِ الْبَحْرِ ثم تَنَصَّبَتْ ... مَتَى لُجَجٍ خُضْرٍ لَهُنَّ نَئِيجُ

يصف الشاعر السحابات التي شربت من ماء البحر ، وتَنَصَّبَت : ارتفعت إلى أعلى ، ويُروى : ترفَّعت، ويروى: تصعَّدت ، و« مَتَى » بمعنى« مِنْ » ، ولَهُنَّ نَئِيجٌ : لهنَّ مَرٌّ سريعٌ ، والشاهد هنا أن « شرب به » بمعنى شربه ، وأن الباءَ زائدة ، وهذا مثل قولهم : « فلان يتكلم بكلام حسن » أي : يتكلم كلاماً حسناً . وقيل : إن الباءَ في الآية ليست زائدة ، وإنما هي بمعنى « من » ، فالمعنى : يشرب منها ، قاله القتبي .

عباده . و [يُفَجِّرُونَها] معناه : يشقُّونها[١] بعود قصب[٢] ونحوه حيث شاءوا ، فهي تجري عند كل أَحد منهم ، هكذا ورد الأَثر ، قال الثعلبي : وقيل : عين في دار النبي عليه الصلاة والسلام تُفَجَّر إلى دور الأَنبياءِ عليهم السلام ودور المؤمنين . وهذا قول حسن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾

وصف الله تعالى حال الأَبرار بأَنهم كانوا يوفون بالنَّذْر ، أَي كل ما نذروه وأَعطوا به عهداً[٣] ، يقـال : وَفَى الرجل وأَوفى ، واليوم

(١) في بعض النسخ : « يُنْبعونها » .

(٢) القَصَب : كلُّ نبات ذي أنابيب ، والمفرد : قَصَبة . قال في اللسان : « وكل نبات كان ساقه أنابيب وكعوبا فهو قصب » .

(٣) النذر هو إيجاب المكلف على نفسه من الطاعات مالو لم يُوجبه لم يلزْمه ، فهو يوجب على =

المشار إليه يومُ القيامة ، و [مُسْتَطيراً] معناه : متصلا شائعاً كاستطارة الفجر والصَّدْع في الزجاجة ، وبه شُبِّه في القلب ، ومن ذلك قول الأَعشى :

فَبَانَتْ وَقَدْ أَوْرَثَتْ في الْفُؤا دِ صَدْعاً ـ عَلَى نَـأْيِهَا ـ مُسْتَطيراً(١)

وقول ذي الرُّمَّة :

أَرادَ الطَّاعِنونَ لِيَحْزُنُـوني فَهاجُوا صَدْعَ قَلْبي فَاسْتَطَارَا(٢)

= نفسه شيئاً غير واجب عليه ، وقد قال قتادة : المراد : يوفون بما فرض الله عليهم من الصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة وغيره من الواجبات ، ويُقوي هذا قولُه تعالى : (ثُمَّ لْيَقضُوا تَفَثَهُم ولْيُوفوا نُذُورَهُم)، أي أَعمال نُسكهم التي ألزموا بها أَنفسهم حين أَحرموا بالحج ، ومعنى هذا أن النَّذْر يندرج فيه ما التزمه المرءُ بإيمانه من امتثال أمر الله ، قال ذلك القشيري ، ونقله عنه القرطبي .

(١) هذا البيت من قصيدة قالها الأَعشى يمدح هوذة بن علي الحنفي ، وبعده يقول :

كَصَدْعِ الزُّجـاجَةِ مـا تَسْتَطِيـعُ كَفُّ الصَّناعِ لَها أن تُحيرَا

والبين : البُعد والفراق ، والصَّدع : الشق في الشيءِ الصلب ، ثم استعمل في القلب تجوزا ، والنَّأي : البُعد ، ومستطيراً : منتشراً شائعاً ، والصَّناع : الماهر في الصنعة ، وأن تُحيراً : أن تُصلحها وترجعها كما كانت ، والشاهد استعمال كلمة مستطيراً بمعنى الانتشار والاستطالة في بيان ما يحدثه ألم الفراق في القلب تشبيهاً له بالزجاجة . والبيت في الطبري ، وابن كثير ، والقرطبي ، والشوكاني .

(٢) الحُزن : نقيض الفرح ، وتقول : حَزَنَني وأَحْزَنَني ، وصدْع القلب كنَاية عمَّا حدث فيـه من آلام وأَحزان ، واستطار : انتشر وتشعب واستطال ، والشاهـد هو ما ذكرناه في البيت السابق .

وقوله تعالى : (عَلَى حُبِّهِ) يحتمل أَن يعود الضمير على « الطعام » ، أَي : وهو محبوب للفاقة والحاجة ، وهو قول ابن عباس ومجاهد ، ويحتمل أَن يعود على الله تعالى ، أَي : لوجهه وابتغاءَ مرضاته ، قاله أَبو سليمان الداراني ، والأَول أَمدح لهم لأَن فيه الإِيثار على النفس ، وعلى الاحتمال الثاني قد يفعله الأَغنياءُ أَكثر ، وقال الحسن بن الفضل : الضمير عائد على الإِطعام ، أَيْ مُحقِّين في فعلهم ذلك ، لا رياءَ فيه ولا تكلُّف . و « المِسْكين » : الطوَّاف المنكشف في السؤال ، و « اليتيمُ » : الصبيُّ الذي لا أَب له من الناس ، والذي لا أُمَّ له من البهائم ، وهي صفة قبل البلوغ ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لا يُتْم بعد حُلُم)[(١)] ، و « الأَسيُر » معروف ، فقال قتادة : أَراد أَسرى الكفار وإِن كانوا على غير الإِسلام ، قال الحسن : ما كان أَسراهم إِلاَّ مشركين ؛ لأَن في كل كبد رطبة أَجْراً ، وقال بعض العلماءِ : هذا مما نُسخ بآية السيف ، وَإِما أَنه محكم ليحفظ حياة الأَسير إِلى أَن يرى الإِمام فيه رأَيه ، وقال مجاهد ، وابن جبير ، وعطاءٍ : أَراد المسجونين من الناس ، ولهذا يُحض على صدقة السجن ، فهذا تشبيه ، ومنه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « لا يُؤْسر أَحدٌ في الإِسلام بغير العدول »[(٢)]

---

(١) أَخرجه أَبو داود عن عليٍّ ، ورمز له الإِمام السيوطي في « الجامع الصغير » بأنه حديث حسن ، ولفظه كما ذكره السيوطي : (لا يُتْمَ بعد احتلا م ، ولا صُمات يوم إِلى الليل) .

(٢) النص كما في اللسان : « لا يُؤْسر أحد في الإِسلام بشهادة الزور ، إِنا لانقبل إِلا العدول » والمعنى : لا يحبس أحد إِلا بشهادة العدول .

وروى الخدريُّ أَن النبي صلى الله عليه وسلَّم فسَّر الأَسير هنا بالمملوك المسجون(١) ، وقال : أَراد أَسرى المسلمين الذين تركوا في بلاد الحرب رهائن وخرجوا لطلب الفداءِ ، وقال أَبو حمزة الثُّمَاليُّ(٢) : الأَسير هنا المرأَة ، ودليله قول النبي صلى الله عليه وسلم : (اسْتَوْصوا بالنِّساءِ خيراً فإِنَّهن عَوَانٍ عندكم)(٣) .

قوله تعالى : (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ) ، المعنى : يقولون لهم عند الإِطعام ، وهذا إِما أَن يكون الْمُطْعِم يقول ذلك نصَّاً ، فحكى ذلك ، وإِما

---

(١) أَخرج ابن مردويه ، وأَبو نعيم ، عن أَبي سعيد ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول الله: [مِسْكيناً] ، قال : فقيراً ، [ويَتيماً] قال : لا أَب له ، [وأَسيراً] قال : المملوك والمسجون . (الدرُّ المنثور) . وذكره الثعلبي فقال : « قال أَبو سعيد الخدري : قرأَ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وَيُطْعِمونَ الطعامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكيناً وَيَتيماً وَأَسيراً) فقال : المسكين الفقير ، واليتيم الذي لا أَب له ، والأَسير المملوك المسجون » .

(٢) هو ثابت بن أَبي صفية الثُّمَالي – بضم المثلَّثة وتخفيف الميم – أَبو حمزة ، واسم أَبيه دينار ، وقيل : سعيد ، وهو كوفي ، ضعيف ، رافضي ، من الطبقة الخامسة ، مات في خلافة أَبي جعفر . (تقريب التهذيب) .

(٣) أَخرجه الإمام أَحمد في مسنده (٧٢/٥) عن أَبي حُرَّة الرقاشي عن عمه قال : كنت آخذ بزمام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أوسط أيام التشريق أذود عنه ، فقال . وساق حديثاً طويلاً جاء فيه : (فاتقوا الله عزَّ وجلَّ في النساء فإنهن عندكم عوانٍ لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإن لهن عليكم ولكم عليهن حقاً ، ألا يوطئن فُرُشكم أحداً غيركم ، ولا يأذنَّ في بيوتكم لأحد تكرهونه ، فإن خفتم نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح .) ، وأخرجه الترمذي عن عمرو بن الأحوص الجُشَمي ، وقال : حديث حسن صحيح ، كذلك أخرجه ابن ماجه ، ووصيتُه صلى الله عليه وسلم بالنساء في حجة الوداع ثابتة في كتب السنة الصحيحة ولكن تختلف الألفاظ بعض الشيء عما ورد هنا .

أَن يكون ذلك مما يقال في الأَنْفُس وبالنِّية ، فمدح بذلك ، وهذا تأْويل مجاهد وابن جبير . وقرأَ أَبو عمرو في رواية ابن عياش بجزم الميم من [نُطْعِمْكُمْ](١) ، قال أَبو علي : سكن تخفيفاً ، و « الشُّكُورُ » مصدر كالشُّكْر ، ووصف اليوم بالعَبُوس هو على التجوز ، كما تقول : « ليلٌ نائم » أَي فيه نوم ، و « القَمْطَرِير » والْقُمَاطِرُ هو في معنى العُبُوس والارْبداد ، يقال : « اقمطرَّ الرجلُ » إذا جمع ما بين عينيه غضباً ، ومنه قول الشاعر :

بَني عَمِّنا هَلْ تَذْكُرونَ بَلاءَنَا عَلَيْكُمْ إِذَا ما كانَ يَوْمٌ قُماطِرُ(٢)

وقال الآخر :

فَفِرُّوا إِذَا ما الْحَرْبُ ثارَ غُبارُها وَلَجَّ بِها الْيَومُ الْعَبُوسُ الْقُمَاطِرُ(٣)

---

(١) اختلفت النسخ في إثبات اسم الراوي ، ففي بعضها : ابن عياش ، وفي بعضها : عياش ، وفي بعضها : عباس ، ولم يذكر هذه القراءة تقريباً غير ابن عطية ، فلم يذكرها الطبري ولا القرطبي ولا أبو حيان ولا الزمخشري ، كذلك لم نجدها في كتاب (النشر في القراءات العشر) لابن الجزري ، ولا في كتاب (الحجة) لابن خالويه ، وابن عياش هو عباس بن عياش بن أبي ربيعة .

(٢) هذا البيت ذكره الفراءُ شاهداً على أن « القُمَاطِر » هو الشديد ، وعنه ذكره المفسرون ، كالطبري ، والقرطبي ، وابن كثير ، والشوكاني ، وهو أيضاً في اللسان ، ولم ينسبه أحد إلى قائل معين ، ويروى : « هل تُدركون » بدلاً من « هل تذكرون » ، والبلاءُ : الاجتهاد وحسن الصنيع في الحرب ، واليوم القُمَاطر والمُقْمَطِرُّ والقَمطريرُ هو الذي يُقَبِّض ما بين العينين لشدَّته ، هكذا قال في اللسان .

(٣) هذا البيت في القرطبي وفتح القدير ، والبحر المحيط ، و « ثار غبار الحرب» كناية عن =

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من عينيه مثل القَطِران ، وعبَّر ابن عباس عن القمطرير بالطويل ، وعبَّر عنه ابن الكلبي بالشديد ، وذلك كله قريب في المعنى .

وقرأ الجمهور : [فَوَقَاهُمُ] بتخفيف القاف ، وقرأ أَبو جعفر ابن القعقاع : [فَوَقَّاهُم] بتشديد القاف ، و « النَّضْرةُ » حال البشرة ، وذلك لا يكون إلاَّ مع فرح النفس وقرة العين ، وقرأ علي بن أَبي طالب رضي الله عنه : [وَجَازَاهُمْ] بـأَلِف ، وقوله تعالى : (بِمَا صَبَروا) عام ، عن الشهوات وعلى الطاعات والشدائد ، ففي هذا يدخل كل ما خصص الناس من صوم ونحوه ، و [مُتَّكِئِينَ] حالٌ من الضمير المنصوب في [جَزَاهُمْ] وهو الهاءُ والميم ، وقرأَ أَبو جعفر وشيبة : [مُتَّكِينَ] بغير همز ، و « الأَرائك » : السُّرُر المستورة بالحجال ، وهذا شرط لبعض اللغويِّين ، وقال بعض اللغويين : كل ما يُتَوَسَّد ويفترش مما له حشو فهو أَريكة وإِن لم يكن في حَجَلة[1] . وقوله تعالى : (لاَيَرَوْنَ) الآية عبارة

= اشتداد المعركة واحتدام القتال، ولَجَّ في الأمر: تمادى عليه وأَبى أن ينصرف عنه ، والبيت كسابقه في الاستشهاد ، ونسبة العبوس إلى اليوم تجوز ، ومثل هذين البيتين قول حذيفة بن أَنَس الهُذَليّ :

بَنُو الحَربِ أُرْضِعْنا بها مُقْمَطِرَّةً وَمَنْ يُلْقَ مِنَّا يُلْقَ سِيدٌ مُدَرَّبَ

والسِّيدُ المدرَّبُ هو الأسد الضاري .

(١) الحَجَلَةُ : ساتر كالقُبَّة يزَيَّن بالثياب والسُّتور للعروس ، أو سِتْرٌ يضرب للعروس في جوف البيت .

عن اعتدال مسِّ هوائها ، وذهاب ضرورتي الحرِّ والقرِّ عنها ، وكون هوائها سجْسَجاً كما في الحديث المأْثور(١) ، ومسُّ الشمس هو أَشدُّ الحرِّ ، والزمهرير أَشدُّ البرد ، وقال ثعلب : الزَّمهرير بلغة طيِّئٍ : القَمر .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾

اختلف النحويون في إعراب قوله تعالى : [وَدَانِيَةً] ـ فقال الزجاج وغيره : هو حالٌ عطفاً على [مُتَّكِئِينَ] ، وقال أَيضاً : يجوز أَن يكون صفةً للجنة ، فالمعنى : وجزاهم جنةً دانيةً(٢) ، وقرأَ جمور الناس : [دَانِيَةً] ، وقرأَ الأَعمش : (وَدَانِياً عَلَيْهِمْ) ، وقرأَ أَبو حيوة : [وَدَانِيَةٌ]

(١) السجْسج : الهواء المعتدل بين الحر والبرد ، والحديث هو : (نهارُ الجنة سَجْسَجٌ) ، وفي رواية (إن هواء الجنة سَجْسَج لا حرٌّ ولا بردٌ) .

(٢) معنى ذلك أنها صفة لموصوف محذوف تقديره : جَنَّةً ، وقيل : انتصبت [دَانِيَةً] على المدح ، أما رفع [دانٍ] في قراءة أُبَيٍّ فهو على الاستئناف .

بالرفع ، وقرأ أُبَيٌّ بن كعب : [وَدَانٍ] ، فهو مفردٌ مرفوع في الإعراب ، ودُنُوُّ الظلال بتوسطٍ أَنْعَم لها لأَن الشيءَ الـمُظل إذا بَعُد فترظلّه لا سيَّما من الشجر . و « التَّذْليلُ » أن تَطِيبَ الثَّمرةُ فتتدلَّى وتنعكس نحوالأَرض ، والتَّذليل في الجنة هو بحسب إرادة ساكنيها ، قال قتادة ، وسفيان ، ومجاهد : إن كان الإنسان قائماً تناول الثَّمر دون كلفة ، وإن كان قاعداً فكذلك ، وإن كان مضطجعاً فكذلك ، فهذا تذليلها ، لا يردُّ اليدَ عنها بُعد ولا شوك ، ومن اللفظة قول امريءِ القيس :

.... كَأُنبوبِ السَّقِيِّ الْمُذَلَّلِ (١)

ومنه قول الأَنصاري : « والنخل قد ذُلِّلت فهي مطوقة بثمرها » ، و « القُطوفُ » جمع قطف وهو العنقود من النخل والعنب ونحوهما .

و « الآنِيَةُ » جمع إناءٍ ، و« الكُوبُ » مالا عروة له ولا أُذن من الأَواني ،

---

(١) البيت بتمامه :

وكَشْحٍ لَطيفٍ كالْجَديلِ مُخَصَّرٍ ... وساقٍ كَأُنبوبِ السَّقِيِّ الْمُذَلَّلِ

والكَشْحُ هو الخِصْرُ، ولطيف : رقيق ، والجديلُ : خطامٌ يُتخذ من الجلد ، والمُخَصَّرُ : الدَّقيق الوسط ، والأنبوب : ما بين العقدتين من القصب من كل نبات مُجَوَّف ، والسَّقِيّ : النخل المرويُّ ، والمُذَلَّلُ : الذي كثر ماؤهُ فأصبح لَيِّناً يطاوع كل من يتناوله ، وذلك أنهم كانوا في أيام الثَّمر يلحُّون على النَّخل بالسقي فهو حينئذ « سَقِيٌّ » و « مُذَلَّلٌ »، يقول : إن خصرها رقيق ليِّنٌ كأنه الزِّمام الرقيق ، وإن ساقها متألقٌ طريٌّ ريّان يحكي في صفاء لونه النبات الذي كثر ماؤه فلانَ .

وهي معروفة الشكل في تلك البلاد ، وهو الذي تقول له العامة « القب » ، لكنها تسمى ذلك ماله عروة ، وذلك خطأٌ أيضاً ، وقال قتادة : الكوب القَدَح ، و « القواريُر » الزجاجُ . واختلف القراءُ ، فقرأ نافع ، والكسائي وأبو بكر عن عاصم : (قَوَاريراً ، قَوَاريراً) بالإجراء فيهما على ما تقدم في [سَلاسِلاَ] [١] ، وقرأ ابن عامر ، وحمزة : (قَوَاريرَ ، قَوَاريرَ) بترك الإجراء فيهما [٢] ، وقرأ ابن كثير بالإجراء في الأول وتركه في الثاني [٣] ، وقرأ أبو عمرو إذا وقف في الأول بألف دون تنوين ، وبِتَرْك الإجراء في الثاني . وقوله تعالى : (مِنْ فِضَّةٍ) يقتضي أنها من زجاج ومن فضَّة ، وذلك متمكن لكونه من زجاج في شفوفه ومن فضة في جوهره ، وكذلك فضة الجنة شفافة ، وقال أبوعلي : جعلها من فضة لصفائها وملازمتها لتلك الصفة ، وليست من فضة في حقيق أمرها ، وإنَّما هذا كقول الشاعر :

أَلاَ أَصْبَحَتْ أَسْماءُ جاذِمَةَ الْوَصْلِ
وَضَنَّتْ عَلَيْنا والضَّنينُ مِنَ الُبخْلِ [٤]

---

(١) يعني بتنوينهما وَصْلاً وإبدال التنوين أَلِفاً في الوقف .

(٢) يعني بمنع صرفهما ، وهي قراءة حفص عن عاصم .

(٣) يعني بصرف الأول ومنع الصرف في الثاني .

(٤) هذا البيت لِخِداش بن بشر المجاشعي المعروف باسم البعيث ، وهو في اللسان ــ جذم وضَنَّ ــ ويروى « خنساءُ » بدلا من « أسماء » ، و « الحبل » بدلا من « الوصل » . وجَذَمَ : قَطَعَ ، يقال : جذب فلان حبْل وصله وجذمه إذا قطعه ، والضَّنُّ : البُخْل ، وأراد بقوله : =

وقوله تعالى : (قَدَّرُوهَا) يحتمل أَن يكون الضمير للملائكة ، ويحتمل أَن يكون للطائفين ، ويحتمل أَن يكون للمنعَّمين ، والتقدير إما أَن يكون على قدر الأَكُفِّ ، قاله الربيع ، أَو على قدر الريِّ ، قاله مجاهد ، وهذا كله على قراءة من قرأَ : (قَدَّرُوهَا) بفتح القاف ، وقرأَ ابن أَبزى ، وعليٌّ ، والجحدريُّ ، وابن عباس ، والشَّعبيُّ ، وقتادة : (قُدِّرُوهَا) بضم القاف وكسر الدال ، قال أَبو علي : كأَن اللفظ « قُدِّروا عليها » ، وفي المعنى قلب لأَن حقيقة المعنى أَن يقال : قُدِّرت عليهم ، فهي مثل قوله تعالى : (مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالعُصْبَةِ)[1] ، ومثل قول العرب : « إذا طلعت الجوزاءُ أُلقي العود على الحرباءِ » ، حكاه أَبو علي .

وكون الزنجبيل مزاجاً هو على ما ذكرناه في العرف ولذع اللسان ، وذلك من لذات المشروب ، والزنجبيل طيب حارٌّ ، وقال الشاعر :

كَأَنَّ جَنِيـــاً مِنَ الزَّنْجَبِيـ ـــل باتَ بِفِيهَا وَأَرْياً حَشُورَا[2]

= (والضَّنين من البخل) أن الضَّنين مخلوق من البخل ، كقولهم : هو مجبول من الكرم ، وهي مخلوقة من البخل ، وهذا على المجاز لأن المرأة جوهر والبخل عَرَض ، والجوهر لا يكون من العرض ، إنما يريد أن البخل تمكن فيها حتّى كأنها مخلوقة منه ، وهذا هو موضع الاستشهاد هنا .

(١) من الآية (٧٦) من سورة (القصص) .

(٢) هذا البيت للأعشى ، وهو من قصيدته التي مدح بها هوذة بن عليٍّ الحنفي ، والرواية في الديوان : (خَالَطَ فَاهَا) ، والْجَنِيُّ : ما جُني لساعته من الثمر ، ويكُون لهذا غضاً طيباً لم يلحقه تغيير ، والأَرْيُ : العَسلُ والمَشُورُ : المستخرج من الخليَّة ، يصف ريقها ويشبهه في حلاوته بالزنجبيل والعسل الصافي ، والشاهد أن العرب تستطعم الزنجبيل إلى هذه الدرجة .

وقال الْمسيَّبُ بن عَلَس :

وَكَأَنَّ طَعْمَ الزَّنْجَبيل بِــــهِ إِذْ ذُقْتَهُ وَسُلاَفَةَ الْخَمْرِ (١)

وقال قتادة : الزَّنجبيل اسمٌ لعين يشرب منها المقربون صرفاً ، ويُمزج لسائر أَهل الجنة . و [عَيْناً] بدل من [كَأْساً] ، أَو من [زَنْجَبيلاً] على القول الثاني (٢) .

و [سَلْسَبيلاً] قيل : هو اسمٌ بمعنى السَّلْس المُنْقاد الْجَرْيَة ، وقال مجاهد : حديد الجرية (٣) ، وقيل : هي عبارة عن اتساعها ، وقال ابن الأَعرابي : لم أَسمع هذه اللفظة إلاَّ في القرآن ، وقال آخرون : [سَلْسَبيلاً] صفة لقوله تعالى : [عَيْناً] ، و [تُسَمَّى] بمعنى : تُوصف

(١) المسيَّب لقب لُقِّب به ، واسمه زهير بن عَلَس بن مالك ، والبيت مع بيت بعده من أفضل ما قيل ، وقد سبق إلى ما فيهما من معنى ، وأَخذه عنه غيره ، وفيهما يقول :

وَكَأَنَّ طَعْمَ الزَّنْجَبيلِ بِــهِ إِذْ ذُقْتَــهُ وَسُلاَفَةَ الْخَمْرِ

شَرِقــاً بمــاءِ الذَّوْبِ أَسْلَمَــهُ لِلْمُبْتَغيهِ مَعَاقِــلُ الدَّبْرِ

ومعنى « شَرِقاً » مختلطاً ، وهي حال ، والدَّبْرُ : النحل ، وسُلافة الخمر : أول ما يعصر منها، وهو أَخلصها وأَفضلها ، يذكر ثغر المرأة ويشبه ما فيه بطعم الزنجبيل وبأَصفى وأفضل أَنواع الخمر ، والشاهد أن طعم الزنجبيل ممدوح محبوب عند العرب .

(٢) في الأصول : أو من (عين) ، وما أثبتناه هنا يتفق مع ما في « البحر المحيط » ، وهو الملائم لقوله : « على القول الثاني » ، أي قول قتادة .

(٣) في بعض النسخ : « جيِّد الجرية » ، وما أثبتناه يتفق مع ما في الطبري ، ولعل معناه أن جريه محدد يقصد هدفاً معيناً .

وتشهر ، وكونه مصروفاً مما يؤكد كونه صفةً لا اسْماً [١] ، وقال بعض المفسرين : [سَلْسَبِيلاً] أمر للنبي صلى الله عليه وسلم ولأُمته بسؤال السبيل إليها ، وهذا قول ضعيف لأن براعة القرآن وفصاحته لا تجيءُ هكذا ، واللفظة معروفة في اللسان ، وأن « السَّلْس والسَّلْسبيل » بمعنى واحد ومتقارب .

و [مُخَلَّدونَ] قال جمهور الناس : معناه : باقون ، من الخلود ، وجعلهم ولْداناً لأنهم في هيئة الولدان في السن ، لا يتغيرون عن تلك الحال ، وقال أبو عبيدة وغيره : [مُخَلَّدُونَ] معناه : مُقَرَّطون ، والخلدات حُلًى تُعلَّق في الآذان ، ومنه قول الشاعر :

وَمُخَلَّدَات بِاللُّجَيْنِ كَأَنَّمَـــا أَعْجازُهُنَّ أَقَاوِزُ الكُثْبانِ [٢]

وشهرة هذه اللغة في حِمْير .

وشبههم تعالى باللؤلؤ المنثور في بياضهم وانْتشارهم في المساكن

(١) في بعض النسخ : « لا أمْراً » ، وكأنه ينفي الرأي الذي سيذكره بعد ذلك وهو أن الكلمة أمر للنبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) البيت في اللسان وفي الطبري غير منسوب ، ومُخَلَّدات : يلبسن الخلدات وهي الأقراط ، والقرطُ يُسَمَّى الْخلَدة ، والُّلجَيْن : الفضة ، ولزوم صيغة التصغير هذه فلا مُكَبَّرَ له ، ومثله في ذلك الثُّرَيّا والكُمَيْت ، والأَعجاز : أرداف المرأة ، والواحد عَجُز ، والأقاوز : جمع قَوْز ، وهو مرتفع صغير مستدير من الرمل تُشَبَّه به أرداف النساء ، وقد قيل : إن أصله أقَاويز بالياء ، وقد حذفها الشاعر ضرورة .

يجيئون ويذهبون ، وفي جمالهم ، ومنه سميت المرأة دُرَّة وجوهرة ، ثم كرَّر تعالى ذكْر الرؤية مبالغة ، و [ثَمَّ] ظرف ، والعامل فيه [رَأَيْتَ] أو معناه ، وقال الفراءُ : التقدير : إذا رأَيْتَ ما ثَمَّ رَأَيت ، وحذفت « ما » . وقرأ حميد الأعرج : [ثُمَّ] بضم الثاءِ ، و « النَّعيمُ » ما هم فيه من حسن عيش . و « الْمُلْكُ الكبيرُ » قال سفيان : هو استئذان الملائكة وتسليمُهُمْ عليهم وتعظيمُهُمْ لهم في ذلك كالملوك ، وقال أكثر المفسرين : « الْمُلْك الكبير » اتساع مواضعهم ، روي عن عبد الله بن عمر أنه قال : ما من أهل الجنة من أَحد إلاَّ يسعى عليه أَلف غلام ، كلهم مختلف شغله من شغل أَصحابه ، وأَدنى أَهل الجنة منزلة من ينظر في في مُلكه مسيرة أَلف عام ، يرى أَقصاه كما يرى أَدناه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ۚ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ ﴾

قرأَ نافع ، وحمزة ، وأَبان عن عاصم : [عَالِيهُمْ] بالرفع للابتداءِ ،

وهي قراءة الأَعرج ، وأَبي جعفر ، وشيبة ، وابن محيصن ، وابن عباس بخلاف عنه ـ ، وقرأَ الباقون وعاصم : [عَالِيَهُمْ] بالنصب على الحال ، والعامل فيه [لَقَّاهُمْ] أَو [جَزَاهُمْ] ، وهي قراءة عمر بن الخطاب ، وابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، والجحدري ، وأَهل مكة . وقرأَ الأَعمش ، وطلحة : [عَالِيَتُهُمْ] ، وكذلك هي في مصحف عبد الله ، وقرأَ أَيضاً الأَعمش : [عَالِيَتَهُمْ] بالنصب على الحال ، وقد يجوز في النصب في القراءتين أَن تكون على الظرف ؛ لأَنه بمعنى : فوقهم ، وقرأَت عائشة رضي الله عنها : [عَلَتْهُمْ] بتاءِ فعل ماض ، وقرأَ مجاهد ، وقتادة ، وابن سيرين ، وأَبو حيوة : [عَلَيْهِمْ] بالياءِ .

و « السُّنْدُسُ » رقيق الديباج والمرتفع منه ، وقيل : السندُس هو الحرير الأَخضر ، و « الإِسْتَبْرَقُ » والدِّمَقْسُ هما الأَبيض ، والأرجوان هو الأَحمر . وقرأَ حمزة والكسائي : (خُضْرٍ وَإِسْتَبْرَقٍ) بالخفض فيهما ، وهي قراءة الأَعمش ، وطلحة ، ورويت عن الحسن ، وأَبي عمرو ـ بخلاف عنهما ـ ، على أَن « خُضْراً » نعت للسندس ، وجائز جمع صفة اسم الجنس إذا كان اسماً مفرداً ، كما قالوا : « أَهلك الناسَ الدينارُ الصُّفْر والدِّرهمُ البيضُ » ، وفي هذا قُبح ، والعرب تفرد صفة اسم الجنس وهو جمع أَحياناً فيقولون : « هو حصىً أَبيض » ، وفي القرآن :

(مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ)[١] ، و (نَخْلٍ مُنقَعِرٍ)[٢] فكيف بأَن لا يفرد هذا الذي هو صفة لواحد في معنى جمع . و [إِسْتَبْرَقٍ] في هذه القراءة عطف على [سُنْدُسٍ] ، وقرأَ نافع ، وحفص عن عاصم ، والحسن ، وعيسى : (خُضْرٌ وإِسْتَبْرَقٌ) بالرفع فيهما ، [خُضْرٌ] نعت لـ [ثِيَابٌ] ، و [إِسْتَبْرَقٌ] عطف على [ثِيَابٌ] ، وقرأَ أَبو عمرو ، وابن عامر ، ونافع أَيضاً : [خُضْرٌ] رفعاً و [إِسْتَبْرَقٍ] خفضاً ، [خُضْرٌ] صفة لـ [ثِيَابٌ] و [إِسْتَبْرَقٍ] عطف على [سُنْدُسٍ] ، وقرأَ ابن كثير ، وعاصم – في رواية أَبي بكر – : [خُضْرٍ] خَفَضاً و [إِسْتَبْرَقٌ] رَفْعاً ، فخفض [خُضْرٍ] على ما تقدم أَوَّلاً ، و [إِسْتَبْرَقٌ] عطف على [ثِيَابٌ] ، و « الإِسْتَبْرَقُ » غليظ الديباج ، وقرأَ ابن محيصن : [وَاسْتَبْرَقَ] موصولة الأَلف مفتوحة القاف ، كأَنه مثال الماضي من بَرِقَ واسْتَبْرَقَ كَعَجِب واسْتَعْجَبَ ، قال أَبو حاتم : لا يجوز ، والصواب أَنه اسم جنس لا يَنبغي أَن يحمل ضميراً ، ويؤيد ذلك دخول لام المعرفة عليه ، والصواب فيه قطع الأَلف وإِجراؤُه على قراءة الجماعة . وقرأَ أَبو حيوة : (عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ) بالرفع (سُنْدُسٌ خُضْرٌ وإِسْتَبْرَقٌ) رفعاً في الثلاثة ، وقوله تعالى : [وَحُلُّوا] أَي جعل لهم حلي ، و [أَساوِر] جمع أَسْوِرَة ، وأَسْوِرَة جمع سوار ، وهو من حلي الذراع .

قوله تعالى : (شَرَاباً طَهوراً) ، قال أَبو قُلابة ، والنَّخَعي : معناه

---

(١) من الآية (٨٠) من سورة (يس) .
(٢) من الآية (٢٠) من سورة (القمر) .

لا يصير بولاً بل يكون رشحاً من الأَبدان أَطيب من المسك ، وهنا محذوف يقتضيه القول تقديره : يقول الله تعالى لهم والملائكة عنه : (إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً) الآية .

وقوله تعالى : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرآنَ) الآية ... تثبيتٌ لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وتقوية لنفسه على أَفعال قريش وأَحوالهم ، و « حُكْمُ رَبِّه » تعالى أَن يبلِّغ ويكافح ويتحمل المشقة ويصبر على الأَذى ليعذر الله تعالى إليهم . وقوله تعالى : (آثِما أَوْ كَفوراً) هو تخيير في أَن يعرف الذي ينبغي أَلاَّ يطيعه بأَي وصف كان من هذين ؛ لأَن كل واحد منهم فهو آثم وهو كفور ، ولم تكن الأُمة حينئذ من الكثرة بحيث يقع الإثم على العاصي ، واللفظ أَيضاً يقتضي نهي الإمام عن طاعة آثِم من العصاة أَو كفور من المشركين ، وقال أَبو عبيدة : (أَوْ) بمعنى « الواو » وليس في هذا تخيير

ثم أَمره تعالى بذكر ربِّه عزَّ وجلَّ دأَباً بُكْرَةً وأَصيلاً ، ومن الليل بالسجود والتسبيح الذي هو الصلاة ، ويحتمل أَن يريد قَوْلَ : « سبحان الله » ، وذهب قوم من أَهل العلم إلى أَن هذه الآية إشارة إلى الصلوات الخمس ، منهم ابن حبيب وغيره ، فالبُكْرَةُ : صلاةُ الصبح ، والأَصيل الظهر والعَصْر ، ومن الليل : المغربُ والعِشاءُ ، وقال ابن زيد وغيره : كان هذا فرضاً ونُسخ ، فلا فرض إلا الخمسة ، وقال قوم ، هو محكم على جهة الندب .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾ ﴾

الإشارة بـ [هؤلاءِ] إلى كفار قريش ، و « العاجِلَةُ » : الدنيا ، وحُبُّهم لها أَنهم لا يعتقدون غيرها ، و (يَذَرُونَ وَراءَهُمْ) معناه : فيما يـأْتي من الزمان بعد موتـهم ، وقال لبيد :

أَلَيْسَ وَرَائي إنْ تَراخَتْ مَنِيَّتي لُزُومُ الْعَصَا تُحْنَى عَلَيْها الأَصابِعُ(١)

ووصف اليوم بالثِّقل على جهة النَّسب ، أَي ذا ثِقَل من حيث الثقل فيه على الكفار ، وهو كلَيْل نائم .

---

(١) هذا البيت من قصيدته التي قالها يرثي أَخاه أربد ، والتي يقول في مطلعها : (بَلينَا وما تَبْلَى النُّجومُ الطوَالعُ) ، والرواية في النسخ الأصلية : « أَدبٌ مع الوِلْدان أَزحف كالنسر » والتصويب عن الديوان واللسان ، ووراء ــ هنا ــ بمعنى أَمام » ، كمعناها في قوله تعالى : (وَكانَ وَراءَهُم مَلِكٌ) أي أَمامهم ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال الفراء : إن هذا المعنى لا يجوز إلاَّ في المواقيت من الليالي والأيام، تقول : وراءك بردٌ شديد ، وتراخت : تباعدت وأَبطأت ،ولزوم العصا : مصاحبتها والاعتماد عليها عند المشي ، تُحْنَى : تُضَمُّ وتجمع .

ثم عدد تعالى النعمة على عباده في خلقهم وإيجادهم وإتقان بنيتهم وشد خِلْقَتِهم ، و « الأَسْرُ » : الخلْقة واتّساق الأَعضاءِ والمفاصل ، وقد قال أَبو هريرة ، والحسن ، والربيع : الأَسْرُ : المفاصل والأَوصال ، وقد قال بعضهم : الأَسْرُ : القوة ، ومنه قول الشاعر :

فَأَنْجاهُ غَداةَ الْمَوْتِ مِنِّي شَديدُ الأَسْرِ عَضَّ عَلَى اللِّجامِ (١)

وقول الآخر :

مِنْ كُلِّ مُجْتَنَبٍ شَديدٍ أَسْرُهُ سَلِسِ الْقِيادِ تَخالُهُ مُخْتالاَ (٢)

قال الطبري : ومنه قول العامة : « خذه بأَسره » يريدون : خذه كله (٣) .

---

(١) غداة الموت : صباح يوم الموت ، وشديد الأسر : قويٌّ المفاصل ، والمراد هنا الفرس ، يقول : أنقذه مني عند اشتداد المعركة وكثرة الموت فرسٌ قوي متين . والشاهد أن الأسر بمعنى القوة . ولم أَقف على قائل هذا البيت .

(٢) البيت للأخطل ، وهو في الطبري ، والقرطبي ، والشوكاني ، وهو في وصف الخيل ، والمجتنب : الذي يُرفقه صاحبه بجانب فرسه ولا يركب عليه ، وكان العرب يركبون الإبل ويجنبون الخيل فإذا صاروا إلى الحرب ركبوا الخيل ، وشديد الأسر : قويٌّ ، وسَلِسُ القياد : ينقاد في سهولة إذا قاده صاحبه إلى جانبه ، ومختالاً : يُخيل إليك أنه من نشاطه وحيويته يختال في مشيته ، والبيت شاهد على أن الأسْر بمعنى القوة .

(٣) نصُّ عبارة الطبري : « ومنه قول العامة : خذه بأَسْره ، أي : هو لك كله » ، وواضح أن الطبري فعلا قد أراد جمهور الناس .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وأَصل هذا فيما له شدٌّ ورباط كالعظم ونحوه ، وليس هذا مما يختص بالعامة ، بل هو من فصيح كلام العرب ، اللهم إلَّا أَن يريد بالعامة : جمهور العرب . ومن اللفظة « الإِسارُ » وهو القِدُّ الذي يُشدُّ به الأَسير .

ثم توعَّد تعالى بالتبديل ، واجتمع من القولين ــ تعديد النعمة والوعيد والتبديل ــ احتجاج على مُنكري البعث ، أَي : مَنْ هذا الإِيجادُ والتبديلُ ــ إذا شاءَ ــ في قُدرته فكيف تتعذر عليه الإِعادة ؟

وقوله تعالى : (إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ) يَحْتمل أَن يشير إلى هذه الآية ، أَو إلى السورة بأَسرها ، أَو إلى الشريعة بجملتها ، وقوله تعالى : (فَمَنْ شَاءَ) ليس على جهة التخيير ، بل فيه قرينة التحذير والحض على اتخاذ السبيل ، و « السَّبيلُ » هنا سبيل النجاة .

وقوله تعالى : (وَمَا تَشاءُونَ إلاَّ أَنْ يَشاءَ اللهُ) نَفْي لقدرتهم على الاختراع وإيجاد المعاني في نفوسهم ، ولا يردُّ هذا ما لهم من الاكتساب والميل إلى الكفر (١) ، وقرأَ عبد الله : « وَمَا تَشاءُونَ إلاَّ ما شاءَ اللهُ » ، وقرأَ يحيى بن وثاب : [تِشَاءُونَ] بكسر التاءِ ، وقوله تعالى : (عَليماً حَكيماً)

(١) قال القرطبي : « أخبر أن الأمر إليه سبحانه ليس إليهم ، وأنه لا تنفذ مشيئة أحد ولا تتقدم إلاّ أن تتقدم مشيئته سبحانه » .

معناه : يعلم ما ينبغي أَن يُيَسِّر عبده إليه ، وفي ذلك حكمة لا يعلمها إلاَّ هو .

و [الظَّالمِينَ] نصب بإضمار فعل تقديره : ويُعَذِّب الظالمين أَعَدَّ لهم[1] ، وفي قراءة ابن مسعود : « ولِلظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ » بتكرير اللام ، وقرأ جمهور السبعة : (وَمَا تَشَاءُونَ) بالتاءِ على المخاطبة ، وقرأ ابن كثير ، وأَبو عمرو : [يَشَاءُونَ] بالياءِ ، وقرأ الزبير ، وأَبان بن عثمان ، وابن أَبي عبلة : [وَالظَّالِمونَ] بالرفع ، قال أَبو الفتح : ذلك على ارتجال جملة مستأنفة .

تم تفسير سورة الإنسان والحمد لله رب العالمين

---

(١) قال الزجاج : « نصب (الظالمينَ) لأن قبله منصوب ، أي : يدخل من يشاء في رحمته، ويُعذب الظالمين ، أي المشركين ، ويكون (أَعَدَّ لَهُم) تفسيراً لهذا المضمر ، كما قال الشاعر :

أَصْبَحْتُ لا أَحْمِلُ السِّلاَحَ ولاَ أَمْلِكُ رَأسَ الْبَعيرِ إنْ نَفَرَا
وَالذِّئْبَ أَخْشاهُ إنْ مَرَرْتُ بِهِ وَحْدي وأَخْشَى الرِّيَاحَ والْمَطَرَا

أي : أَخْشَى الذئبَ أَخشاهُ ، والاختيار النصب ، وإن جاز الرفع ، تقول : أَعطيتُ زيداً وعمراً أَعددتُ له بِراً ، فيختُارُ النصب ، أي : وبَرَرتُ عَمْراً ، أو أَبَرُّ عمروا » .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٧٧) سورة المرسلات مكية وآياتها خمسون

تفسير سورة المرسلات*

وهي مكية في قول جمهور المفسرين ، وحكى النقاش أنه قيل : إن فيها من المدني قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ ﴾[(١)] ، على تأويل من قال إنها حكاية عن حال المنافقين ، وإنها بمعنى قوله تعالى : ﴿ وَيُدْعَوْنَ إِلى السُّجودِ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾[(٢)] ، وقال ابن مسعود : نزلت هذه السورة ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر ... الحديث بطوله[(٣)] .

---

* أخرج ابن شيبة ، والبخاري ، ومسلم ، وابن ماجه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أم المفضل سمعته وهو يقرأ « والْمُرْسَلاَتِ عُرْفاً » فقالت : يابني ، لقد ذكرتني بقراءتك هذه السورة أنها لآخر ما سمعتُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأُ بها في المغرب .

(١) وهي الآية (٤٨) من السورة .

(٢) من الآية (٤٢) من سورة (القلم) .

(٣) أخرجه البخاري، ومسلم ، والنسائي ، وابن مردويه ، عن ابن مسعود رضي الله عنه =

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ
نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا
تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩
وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ
ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥ ﴾

قال كثير من المفسرين : « الْمُرْسَلاتُ » : الرُّسُل إلى الناس من الأَنبياءِ عليهم السلام ، كأَنه تعالى قال : والجماعات المرسلات ، وقال أَبو صالح ، ومقاتل ، وابن مسعود : المرسلات : الملائكة المرسلة بالوحي وبالتعاقب على العباد طرفي النهار ، وقال ابن مسعود أَيضاً ، وابن عباس ومجاهد ، وقتادة : المرسلات : الرياح ، وقال الحسن بن أَبي الحسن : المرسلاتُ : السحاب . و [عُرْفاً] معناه على القول الأَول : عُرْفاً من الله وإفضالاً [(١)] على عباده ببعثه الرسل عليهم السلام ، ومنه قول الشاعر :

= قال : بينما نحن مع النبي صلى الله عليه وسلم في غار بمنى إذ نزلت عليه سورة (الْمُرسلاَتِ عُرْفاً) ، فإنه يتلوها ، وإني لأتلقاها من فيه ، وإن فاهُ لرطبٌ بها ، إذ وثبت عليه حيَّةٌ ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اقتلوها ، فابتدرناها فذهبت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وُقِيَتْ شرَّكم كما وُقِيتُمْ شرَّها . (الدُّر المنثور) .

(١) الإفْضال : الإحسان ، يقال : أَفضل الرجلُ على فلان بمعنى : أناله من فضله وأحسن إليه . (لسان العرب) .

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لا يَعْدِمْ جَوازِيَـهُ
لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللهِ والنَّاسِ (١)

ويحتمل أن يريد بقوله [عُرْفاً] متتابعة ، على التشبيه بتتابع عُرف الفرس وأعراف الجبال ونحو ذلك ، والعرب تقول : « الناسُ إلى فلان عُرْفٌ واحد » إذا توجهوا إليه ، ويحتمل أن يريد : بالعرف ، أي بالحق والأمر بالمعروف ، وهذه الأقوال في [عُرْفاً] تَتَّجه في قول من قال : المرسلات هي الملائكة ، ومن قال إن المرسلات هي الرياح اتجه في « العرف » أن يقال : التأول على تخصيص الرياح التي هي نِعَمٌ بها الأرزاق والنجاة في البحر وغير ذلك مما لا نقمة فيه ، ويكون الصنف الآخر من الريح في قوله تعالى : (فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً) ، ويحتمل أن يكون [عُرْفاً] بمعنى : والمرسلات الرياحُ التي يعرفها الناس ويعهدونها ، ثم عقَّب بذكر الصنف المستنكر الضارِّ وهي العاصفات ، ويحتمل أن يريد بالعرف مع الرياح التَّتابع كعُرف الفرس ونحوه ، وتقول العربُ : « هبَّ عُرف من ريح » ، والقول في العُرف مع أن المرسلات هي الرياح

(١) البيت للحطيئة ، وهو في ديوانه ، وفي اللسان ، وهو من الأبيات المشهورة في قيمة المعروف وأثره بين الناس ، قال ابن جني : « ظاهر هذا أن تكون (جوازيَهُ) جمع جاز ، أى : لا يعدم جزاءً عليه ، وجاز أن يجمع جزاءٌ على جوازٍ لمشابهة اسم الفاعل للمصدر ، فكما جمع سَيْل على سوائل كذلك يجوز أن يكون جوازيه جمع جزاءٍ » . والعرف : المعروف ، وهو خلاف المنكر ، أو ما يستحسن من الأفعال ، وفي الحديث الشريف : (أهل المعارف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة) .

يطَّرد على أَن المرسلات هي السحاب ، وقرأَ عيسى : [عُرُفاً] بضم الراءِ .
و « العاصفُ » من الريح : الشديدة العاصفة للشجر وغيره .

واختلف الناس في قوله تعالى : [وَالنَّاشِراتِ] ـ فقال مقاتل ، والسُّدي : هي الملائكة تنشر صحف العباد بالأَعمال ، وقال ابن مسعود ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة : هي الرياح تنشر رحمة الله تعالى ومطره ، وقال بعض المتأَولين : الناشراتُ طوائف الملائكة التي تباشر إِخراج الموتى من قبورهم للبعث ، فكأَنهم يحيونهم ، وقال قوم : الناشرات الرمم في بعث يوم القيامة ، يقال : نشر الميت ، ومنه قول الأَعشى :

.... يَاعَجَباً لِلْمَيِّتِ النَّاشِرِ (١)

وقيل : الناشراتُ البقاعُ التي تحيا بالأَمطار ، شبهت بالميِّت يُنشر ، وقال أَبو صالح : الناشرات الأَمطار تحيي الأَرض .

[فَالْفَارِقَاتِ] ، قال ابن عباس ، وابن مسعود ، وأَبو صالح ،

---

(١) هذا عجز بيت قاله الأعشى من قصيدته التي يهجو فيها علقمة بن علاثة ويمدح عامر ابن الطفيل في المنافرة التي جرت بينهما ، والبيت بتمامه مع بيت قبله :

لَـوْ أَسْنَدَتْ مَيْتاً إِلىَ نَحْـرِهَا عَـاشَ وَلَمْ يُنْقَلْ إِلى قَـابِرِ
حَتَّى يقـولَ النَّاسُ مِمَّا رَأَوْا : ياعَجَبـاً لِلْمَيِّتِ النَّاشِـرِ

والشاهد أن الناشر بمعنى الحيِّ ، يقال : نَشَرَ الله الميت : أحياه ، والبيت في الديوان ، واللسان ، وقد سبق الاستشهاد به .

ومجاهد ، والضحاك : هي الملائكة تفرق بين الحق والباطل والحلال والحرام ، وقال قتادة ، والحسن ، وابن كيسان : الفارقاتُ آياتُ القرآن.

وَأَمَّا « الْمُلْقِياتِ ذِكْراً » فهي في قول الجمهور : الملائكة ، قال مقاتل : جبريل عليه السلام ونحوه ، وقال آخرون : هي الرسل عليهم السلام ، وقرأ جمهور الناس : [فَالْمُلْقِيَاتِ] بسكون اللام ، أَي تُلقيه من عند الله تعالى وبأمره إلى الرسل عليهم السلام ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما - فيما ذكر المهدوي - : [فَالْمُلَقَّيَاتِ] بفتح اللام وفتح القاف وشدها ، أَيْ : تَلَقَّاه من قبَل الله تعالى : وقرأ ابن عباس أَيضاً : [فَالْمُلَقِّيَاتِ] بفتح اللام وشدِّ القاف وكسرها ، أَي : تُلقيه هي للرسل عليهم السلام ، و « الذِّكْرُ » الكتبُ والشرائع ومُضَمَّناتها .

واختلف القراءُ في قوله تعالى : (عُذْراً أَو نُذْراً) ، فقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وعاصم - في رواية أَبي بكر - وأَبو جعفر ، وشيبة بسكون الذَّال في [عُذْراً] وضمها في [نُذراً] ، وقرأ أَبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، وإبراهيم التَّيمي بسكون الذال فيهما ، وقرأ طلحة ، وعيسى ، والحسن - بخلاف - وزيد بن ثابت ، وأَبو جعفر وأَبو حيوة ، والأَعمش عن ابن كثير عن عاصم بضمها فيهما . وإسكانُ الذال على أَنهما مصدران ، يقال : عُذْرٌ وعذيرٌ ، ونُذْر ونذير ، كنكير ونُكْر ، وضم الذال يصحُّ معه المصدر ويصح أَن يكون جمعاً لنذير وعاذر

واللذين هما اسما فاعل ، والمعنى أن الذِّكْر يُلْقى بإعذارٍ وإنذارٍ ، أَوْ يُلقيه مُعْذِرون ومُنْذِرون ، وأَما النصب في قوله تعالى : (عُذْراً أَوْ نُذْراً) فيصح إذا كانا مصدرين أن يكون ذلك على البدل من « الذِّكْر » ، ويصح أَن يكون على المفعول للذِّكْر ، كأَنه تعالى قال : فالْمُلْقيات أَنْ نذكُر عُذْراً ، ويصح أَن يكون [عُذْراً] مفعولاً من أَجله ، أَي : تُلقى الذكر من أَجل الإعذار والإنذار ، وأَما إذا كان (عُذْراً أَو نُذْراً) جمعا فالنصب على الحال ، وقرأَ إبراهيم التَّيمي : (عُذْراً وَنُذْراً) بواوٍ بدل « أَو » .

قوله تعالى : (إنَّما تُوعَدونَ لَوَاقِعٌ) ، هذا الذي وقع عليه القسم ، والإشارة إلى البعث ، و « طَمْسُ النجوم » إزالةُ أَضوائها واستواؤُها مع سائر جرم السماءِ ، و « فَرْجُ السماءِ » هو بانفطارها حتى تحدث فيها فروج ، و « نَسْفُ الجِبَالِ » هو بعد التَّسيير ، وقيل : كونها هباءً وهو تفريقها بالريح ، وقرأَ الجمهور : [أُقِّتَتْ] بالهمزة وشدِّ القاف ، وقرأَ بتخفيف القاف مع الهمز عيسى ، وخالد[١] ، وقرأَ أَبو عمرو وحده : [وُقِّتَتْ] بالواو ، وقرأَ بها أَبو الأَشهب ، وعيسى ، وعمرو بن عبيد ،

---

(١) هو خالد بن إلياس أو إياس بن صخر ، أبو الهيثم العدوي المدني ، إمام المسجد النبوي ، وفي بعض الأصول : « وخلف » ، وأثبتنا ما يوافق القرطبي .

قال عيسى : هي لغة سُفْلى مضر ، وقرأ أبو جعفر بواو واحدة خفيفة القاف ، وهي قراءة ابن مسعود ، والحسن ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن : [وُوقِتَتْ] بِواوَيْن ، على وزن فُوعلت ، والمعنى : جُعل لها وقت مُسَطَّر فجاءَ وحانَ ، والواو في هذا كله هي الأَصل ، والهمزة بدل .

وقوله تعالى : (لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ) تعجيب وتوقيف على عِظَم ذلك اليوم وهوله ، ثم فسَّر تعالى ذلك الذي عجَّب منه بقوله : (لِيَوْمِ الْفَصْلِ) يعني تعالى : بَيْن الخلق في منازعتهم وحسابهم ومنازلهم من جنة أَو نار ، ومن هذه الآية انتزع القضاةُ الآجال في الحكومات ليقع فصل القضاءِ عند تمامها ، ثم عظَّم سبحانه يوم الفصل بقوله : (وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ) ، على نحو قوله تعالى : (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحاقَّةُ)(١) وغير ذلك ، ثم أَثبت تعالى الويل للمكذبين في ذلك اليوم ، والمعنى : للمكذِّبين به في الدنيا وبسائر فصول الشرع ، و « الْوَيْلُ » هو الحرب والحزن على نوائب تحدث بالمرءِ ، ويُروى عن النعمان بن بشير ، وابن مسعود ، وعمار بن ياسر أَن واديا في جهنم اسمه الْوَيْلُ .

(١) الآية الثـــالثـــةُ من سورة (الحاقة) .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ۝١٧ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ۝١٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٩ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ۝٢٣ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٤ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ۝٢٦ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ۝٢٧ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٨ ﴾

قرأ جمهور القراء : (ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ) بضم العين على استئناف الخبر ، وقرأ أبو عمرو ـ فيما رُوي عنه ـ : (ثُمَّ نُتْبِعْهُمُ) بجزم العين عطفا على [نُهْلِكْ] ، وهي قراءة الأعرج ، وعلى حسب هاتين القراءتين يجيءُ التأْويل في [الأَوَّلينَ] ، فَمَنْ قرأ الأُولى جعل [الأَوَّلِينَ] الأُممَ التي تقدمت قريشاً بأَجمعها ، ثم أَخبر تعالى أَنهُ يُتْبِعُ [الآخرين] مِنْ قريش سِيَرَ أُولئك إِذا كفروا وسلكوا سبيلهم ، ومَنْ قرأَ الثانية جعل [الأَوَّلينَ] قومَ نوح وإِبراهيم ومن كان معهم ، و [الآخرِينَ] قوم فرعون وكلَّ من تأَخَّر وقرب من مُدَّة محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي حرف عبد الله : « وسَنُتْبِعُهُم » ، ثم قال تعالى : (كَذَلِكَ نَفْعَلُ بالْمُجْرِمِينَ) ، أَي في المستقبل ، فتدخل هنا قريش وغيرها من الكفار .

وأَما تكرار قوله تعالى في هذه السورة : (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)

فقيل: ذلك بمعنى التأْكيد فقط، وقيل: بل في كل آية منها ما يقتضي التصديق، فجاءَ الوعيد على التكذيب يؤكد الذي في الآية[(١)].

ثم وقف تعالى على أَصل الخلقة التي يقتضي النظر فيها تجويز البعث، و «الْمَاءُ الْمَهِينُ» معناه: الضعيف، وهو المنيُّ من الرجل والمرأَة، و «الْقَرَارُ الْمَكِينُ» الرَّحِمُ وبطن المرأَة، و «الْقَدَرُ الْمَعْلُومُ» وقتُ الولادة، ومعناه: معلوم عند الله تعالى في شخص شخص، وأَما عند الآدميين فيختلف، فليس بمعلوم قَدَر شخص بعينه، وقرأَ علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، ونافع، والكسائي: [فَقَدَّرْنَا] بتشديد الدال، وقرأَ الباقون بتخفيفها، وهما بمعنى، من القُدْرة والقدر، ومن التقدير والتوقيف، وقوله تعالى: [الْقَادِرونَ] يُرَجِّح قراءة الجماعة، أَما إِن ابن مسعود روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه فسَّر «القادرين» بالْمُقَدِّرين، وقرأَ ابن أَبي عبلة: (فَقَدَّرْنَا) بتشديد الدال (فَنِعْمَ الْمُقْتَدِرونَ).

و «الْكِفاتُ» الستر والوعاءُ الجامع للشيءِ بإِجماعٍ، تقول: كَفَت الرجل شعره، إِذا جمعه بخرقة، والأَرضُ تكْفِتُ الأَحياءَ على ظهرها،

(١) وقيل: كرَّر الوعيد على التكذيب لأنه قسَّمه بينهم على قدر تكذيبهم، فإن لكل مكذب بشيءٍ قدراً من العذاب غير العذاب الذي يَسْتَحقه على تكذيبه بشيءٍ آخر، وربَّ شيءٍ كذَّب به هو أَعظم جُرْماً من تكذيبه بشيءٍ آخر، لأنه أَقبح في تكذيبه وأَعظم في الردِّ على الله، فإنما يقسم له من الويل على قدر ذلك، وعلى قدر وفاقه، وهو قوله تعالى: (جزَاءً وفاقاً).

وتكْفِتُ الأَمواتَ في بطنها ، و [أَحْيَاءً] - على هذا التأْويل - معمول لقوله سبحانه : [كِفَاتاً] ؛ لأَنه مصدر ، وقال بعض المتأَويلين : (أَحْيَاءً وَأَمواتاً) إنما هو بمعنى أَن الأَرض فيها أَقطارٌ أَحياءٌ وأَقطارٌ أَموات ، يراد : ماينبُت ومالا يُنبت ، فنصب [أَحياءً] - على هذا - إنما هو على الحال من « الأَرض » ، والتأْويل الأَول أَقوى ، وقال بُنَان : خرجنا مع الشعبي إلى جنازة فنظر إلى الجبانة فقال : هذه كِفاتُ الموتى ، ثم نظر إلى البيوت فقال : هذه كِفاتُ الأَحياءِ ، وكانت العرب تُسمي « بَقيع الْغرْقد » كَفْتَةً لأَنه مقبرةٌ يضم الموتى (١) ، وفي الحديث (خَمِّروا آنِيَتَكُم ، وأَوْكُوا أَسْقِيَتَكُم ، واكْفِتُوا صِبْيَانكُم ، وأَغْلقُوا أَبْوابكم ، وأَطْفِئُوا مَصابِيحَكُمْ) (٢) ، ودفن ابن مسعود قَملة في المسجد ثم قرأَ : (أَلَمْ

---

(١) ويقال : انكفت القوم إلى منازلهم ، أي انقلبوا ، فمعنى الكفات أنهم يتصرفون على ظهرها وينقلبون إليها ويدخلون فيها ، وأنشد سيبويه :

كِرامٌ حينَ تَنْكَفِتُ الأَفَاعِي إلىَ أَجْحارِهِنَّ منَ الصَّقِيعِ

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق والأشربه ، ومسلم وابن ماجه في الأشربة ، والترمذي في الأطعمة ، ومالك في صفة النبي بالموطأ ، وأحمد في مسنده (٣٠١/٣ ، ٣٠٦ ، ٣٥٥) ، ولفظه كما في مسند أحمد : عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أَغْلقوا أبوابكم ، وخَمِّروا آنِيَتَكُم ، وأَطْفِئُوا سُرُجَكُم ، وأَوْكُوا أَسْقِيَتَكُم ، فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً ، ولا يكشف غطاء ، ولا يحِلُّ وِكاءً ، وإنَّ الْفُوَيْسِقَةَ تضرم البيت على أهله) ، يعني الفأرة . وفي رواية (وأَجيفوا الأبواب) ، ومعنى « خَمِّرُوا » : غَطُّوا ، يقال : خمَّرت المرأة رأسها ، أي غَطَّتْهُ بالخمار ، وأَوْكُوا : اربطوا فم السقاء وهو القِرْبة ، والوكاءُ هو الشيءُ الذي تربط به القربة ، ومعنى « اكفتوا صبيانكم » : ضموهم إليكم حماية لهم .

نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً) ، ولما كان القبر كِفاتاً كالبيت قُطع من سرق منه .

و « الرَّوَاسِي » الجبالُ ؛ لأَنها رَسَتْ ، أَي ثبتت ، و « الشَّامِخُ » المرتفعُ ، ومنه : شمخ بأَنفه ، أَي ارتفع واستعلى ، شبه المعنى بالشخص . و « أَسْقَى » جعله سقياً للغلات والمنافع ، و « سَقَى » معناه : للشفة خاصةً ، هذا قول لجماعة من أَهل اللغة ، وقال آخرون : هما بمعنى واحد ، و « الفُراتُ » الصَّافي ، ولا يقال لِلْمِلْح فُراتٌ ، وهي لفظة تجمع ماءَ المطر ومياه الأَنهار ، وخص النهر المشهور هذا تشريفاً له ، وهو نهر الكوفة ، وسيحان هو نهر بلخ [١] ، وجيحان [٢] هو نهر دجلة ، والنيل نهر مصر ، وحُكي عن عكرمة أَن كل ماءٍ في الأَرض فهو من هذه ، وفي هذا بُعد ، والله تعالى أَعلم .

---

(١) سَيْحان : نهر كبير بين أنطاكية والروم ، يمرُّ بأذَنَة ثم ينفصل عنها فيصب في بحر الروم ، وبلْخ : مدينة مشهورة بخرسان ، (معجم البلدان) .

(٢) جيْحان — بالفتح ثم السكون والحاء مهملة : نهر بالمصيصة بالثغر الشامي ، ومخرجه من بلاد الروم ، ويصب في بحر الشام ، قال أبو الطيب :

سَرَيْتَ إلىَ جَيحْانَ من أَرْضِ آمِدٍ ثَلاثاً ، لَقَدْ أَدْناك رَكضٌ وَأَبْعَدَا

(راجع معجم البلدان) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ
شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ
جِمَـٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ
لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَـٰكُمْ
وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

الضمير في قوله تعالى : [انطَلِقوُا] هو للمكذبين الذين لهم الويل ، يقال لهم : انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون من عذاب الآخرة ، ولا خلاف في كسر اللام من قول تعالى : [انْطَلِقوُا] في هذا الأَمر الأَول ، وقرأ يعقوب ـ في رواية رويس ـ : (انْطَلَقوُا إلى ظِلٍّ) بفتح اللام ، على معنى الخبر ، وقرأ جمهور الناس : [انْطَلِقوُا] بكسر اللام ، على معنى تكرير الأَمر الأَول ، وبيان الْمُنْطَلَق إليه ، وقال عطاءٌ : الظِّلُّ الذي له ثلاث شُعب هو دخان جهنم ، رُوي أَنه يعلو من ثلاثة مواضع فيراه الكفار فيظنون أَنه مُغْن فيهرعون إليه فيجدونه على أَسوأ وصف ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هذه المخاطبة إنما تقال يومئذ لِعَبَدَةِ الصَّليب إذا اتَّبع كل أَحد ما كان يعبد ، فيكون المؤمنون في ظل الله تعالى ، ولا ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ ، ويقال لعَبَدَة الصَّليب : انطلقوا إلى ظِلِّ معبودكم وهو الصليب له ثلاث شُعب ، والشُّعب تفرق الجسم الواحد فرقاً ، ثم نفى تعالى عنه محاسن الظِّلِّ .

والضمير في [إِنَّها] لجهنم ، وقرأ عيسى بن عمر : [بِشَرَارٍ] بألِف ، جمع شرارة ، وهي لغة تميم ، و « الْقَصْر » في قول ابن عباسٍ وجماعة من المفسرين : اسم نوع القُصُور ، وهي الأَدْوُرُ الكبار مُشَيَّدَة ، وقد شبهت العرب بها النُّوق ، ومن المعنى قول الأخطل :

كَأَنَّها بُرْجُ رُومِيٍّ يُشَيِّدُهُ لُزَّ بِجصٍّ وَآجُرٍّ وَأَحْجارِ (١)

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : القَصْر أَيضاً خشب كان في الجاهلية يُقْطع من جَزْل الحطب من النخل وغيره ، على قدر الذراع وفوقه ودونه ، يُسْتَعَدُّ به للشتاءِ ، يُسَمَّى القَصْر ، واحده قَصْرة (٢) ، وهو المراد في الآية ، وإنما سُمِّي بالقَصْر لأَنه يحيط بالقصرة . وقال مجاهد : القَصْر حُزَمَ الحطب ، وهذه قراءة الجمهور . وقرأ ابن عباس أيضاً وابن جبير : [كَالْقَصَر] بفتح الصاد ، جمع قَصَرَة ، وهي أَعناق الخيل والإبل ، وكذلك هي أَيضاً في الناس (٣) ، وقال ابن عباس : جذور

---

(١) هذا البيت من قصيدة طويلة قالها أبو أُمامة غياث بن غوث التغلبي المعروف بالأخطل ، ومطلعها : (تَغَيَّرَ رسْمُ الدَّارِ مِنْ سَلْمَى بأَحْفار) ، وهوفي وصف الناقة ، وقد استشهد به المؤلف هنا على أَن العرب قد تشبه النُّوق في ضخامتها بالقصور أو بالدُّور الكبيرة ، والبُرجُ : البناء العالي أَو الحصن ، ولُزَّ الشيءُ بالشيءِ : شُدَّ وأُلْصِق ، والجِصُّ : من مواد البناء ، والآجُرُّ اللَّبِنُ المُحْرَقُ المُعَدُّ للبناء والقصيدة في الديوان وفي جمهرة أشعار العرب .

(٢) على وزن تَمْرَة وتَمْر .

(٣) جاء في اللسان : « والقَصَرَةُ بالتحريك : أَصْل العُنق ، قال اللحياني : إنما يقال لأصل العُنق قَصَرة إذا غلظت ، والجمع قَصَرٌ .

النخل ، وقرأ ابن جُبَيْر أيضاً والحسن : [كالْقِصَرِ] بكسر القاف وفتح الصاد ، وهي جمع قَصْرَة كَحَلْقَةٍ وحِلَق من الحديد .

واختلف الناس في « الجِمالات » ، فقال جمهور المفسرين : هي جمع « جِمال » على صحيح البناء كرجال ورجالات ، وقال آخرون : أَراد بالصُّفْرِ : السُّودَ ، وأنشدوا على ذلك بيت الأَعشى :

تِلْكَ خَيْلي مِنْهُ وَتِلْكَ رِكَابي هُنَّ صُفْرٌ أَوْلادُها كالزَّبِيبِ[1]

وقال جمهور الناس : بل « الصُّفْرُ » : الفاقعة لأَنها أَشبه بلون الشَّرَر ، وشبَّه الشَّرر بالجمالات ، وقرأَ الحسن : [صُفُرٌ] بضم الصَّادِ والفاءِ ، وقال ابن عباس ، وابن جبير : الجمالات قُلوسُ السفن[2] ، وهي جمالاتها العظام إذا جمعت مستديرة بعضها إِلى بعض جاءَ منها أَجرام

---

(١) قال الأعشى هذا البيت في قصيدة له يمدح بها قيس بن معد يكرب ، والبيت يشير إلى خَيْل كريمة أهداها إليه قيسٌ هذا ، فهو يقول : إن خيلي كلها منه ، ثم يصف ألوانها بأنها صفراء وأولادها مثل الزبيب في اللون ، والعربُ تُسمي السُّود من الإبل أو الخيل صُفْراً لأنه يشوب سوادَها شيءٌ من صفرة ، كما قيل لِبيضِ الظباءِ : الأدْمُ لأن بياضها تعلوه كُدْرة ، والشَّرر إذا تطاير وسقط وفيه بقية من لون النار كان أشبه شيءٍ بالإبل السود لما يشوبها من صفرة ، وضعف بعضهم هذا القول ورأى أن هذا محال في اللغة ، إذ كيف نتحدث عن شيءٍ يشوبه لون بِقِلَّةٍ فننسبه كله إلى هذا اللون القليل ؟

(٢) القُلوسُ : جمع قَلْس، وهو حَبْل غليظ من حبال السفن، ويجُمع أيضاً على أقْلاس .

عظام ، وقال ابن عباس : الجمالاتُ قِطعُ النحاس الكبار ، وكان اشتقاق هذه اللفظة من اسم الجملة .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : [جِمالَةٌ] بكسر الجيم ، لحقت التاءُ جمالاً لتأنيث الجمع فهي كَحَجَر وحِجارة ، وقرأ ابن عباس ، وأبو عبد الرحمن ، والأعمش : [جُمالَةٌ] بضم الجيم ، وقرأ باقي السبعة والجمهور وعمر بن الخطاب رضي الله عنه : [جِمالاتٌ] على ما تفسَّر بكسر الجيم ، وقرأ ابن عباس أيضاً ، وقتادة ، وابن جبير ، والحسن ، وأبو رجاءٍ ـ بخلاف عنهما ـ : [جُمالاتٌ] بضم الجيم ، واختُلف عن نافع ، وأبي جعفر ، وشيبة ، وكان ضم الجيم فيها من الجملة لا من الجمل ، وكسرها من الجمل لا من الجملة .

ولما ذكر تعالى المكذبين قال مخاطباً لمحمد صلى الله عليه وسلم : (هَذَا يَوْمُ لاَيَنْطِقونَ) ، أي في يوم القيامة أسكتتهم الهيبة وذُلُّ الكفر ، وهذا في موطن خاص فإنهم لا ينطقون فيه ؛ إذ قد نطق القرآن بنطقهم : (رَبَّنَا أَخْرِجْنا) [1] (رَبَّنَا أَمَتَّنَا) [2] ، فهي مواطن ، و [يَوْمُ] مضاف

(١) من قوله تعالى في الآية (٧٥) من سورة (النساء) : (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذهِ الْقَرْيَةِ الظالِمِ أَهْلُهَا) ، وتكررت في قوله تعالى في الآية (١٠٧) من سورة (المؤمنون) : (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمونَ) ، وفي قوله سبحانه في الآية (٣٧) من سورة (فاطر) : (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذي كُنَّا نَعْمَلْ) .

(٢) من قوله تعالى في الآية (١١) من سورة (غافر) : (رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنا اثْنَتَيْنِ) .

إلى قوله تعالى : (لاَ يَنْطِقُونَ) . وقرأ الأعرج ، والأعمش ، وأبو حيوة : (هَذَا يَوْمَ) ، لما أضاف إلى غير متمكن بناه ، فهي فتحة بناءٍ ، وهي في موضع رفع ، ويحتمل أن يكون ظرفاً وتكون الإشارة بـ [هَذَا] إلى رَمْيِها بشَرَر كالقصر . وقوله تعالى : [فَيَعْتَذِرونَ] معطوف على [يُؤْذَنُ] ، ولم ينصب في وجوب النفي لتشابه رءوس الآي ، والوجهان جائزان .

وقوله تعالى : (هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ) مخاطبة للكفار يومئذ ، و « الأَوَلُونَ » المشار إليهم قوم نوح وغيرهم ممن جاء في صدر الدنيا وعلى وجه الدهر . ثم وقف تعالى عبيده الكفار المستوجبين عقابه بقوله تعالى : (فَإِنْ كان لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ) ، أي : إن كان لكم حيلةٌ أو مكيدة تُنْجيكُم فافعلوها .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

ذَكَر تعالى حالة المتقين عَقِبَ ذِكْر حالة أهل النار ليبين الفرق ،

و « الظِّلالُ » في الجنة عبارة عن تكاثف الأَشجار وجودة المباني ، وإلاَّ فلا شمس تؤذي هنالك حتى يكون ظِلٌّ يجير من حرِّها ، وقرأَ الجمهور : (في ظِلاَلٍ) ، وقرأَ الأَعرج ، والأَعمش : (في ظُلَلٍ) بضم الظاءِ ، و « العيونُ » الماءُ النابع ، وقوله تعالى : (مِمَّا يَشْتَهُونَ) إعلامٌ بأَن المأْكل والمشرب هنالك إنما يكون برسم شهواتهم ، بخلاف ما هي الدنيا عليه ، فإِن فيها شاذٌ نادر ، والعُرْف أَنَ المرءَ يردُّ شهوتَه إلى ما يقتضيه وُجْده ، وهنا محذوف يدل عليه اللفظ ، تقديره : يقال لهم : كلوا . و [وهَنِيئاً] نصب على الحال ، ويجوز أَن يكون نصبه على جهة الدعاءِ . والكاف في قوله تعالى : (إِنَّا كَذَلِكَ) كاف تشبيه ، والإِشارة بذلك إلى ماذكره من نعيم أَهل الجنة .

وقوله تعالى : (كُلُوا وتَمَتَّعُوا) مخاطبة لقريش ، على معنى : قل لهم يامحمد ، وهذه صيغة أَمْر معناها التهديد والوعيد ، وقد بَيَّنَ ذلك قولُه تعالى : [قَليلاً] ، ثم بيَّن تعالى لهم الإِجرام الموجب لتعذيبهم ، وقال مَن جعل السورة كلَّها مكية : إن هذه الآية في كفار قريش ، وقال مَن جعل هذه الآية منها مدنية : إن هذه الآية نزلت في المنافقين ، وقال مقاتل : نزلت في ثقيف لأَنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : حُطَّ عنا الصلاة فإِنَّا لا نَنْحَني لأَنها مَسَبَّة ، فَأَبى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : لا خير في دين لا صلاة فيه .

قوله تعالى : (وَإذا قيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لاَ يَرْكَعونَ) ، قيل : هي حكاية

حال المنافقين في الآخرة إذا سجد الناس فأرادوا هم السجود فانصرفت أَصلابهم إلى الأَرض وصارت فقاراتهم كصياصي البقر ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيرُه ، وقال قتادة في آخرين : هذه حال كفار قريش في الدنيا ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم وهم لايجيبون ، وذِكْرُ الركوع عبارة عن جميع الصلاة ، هذا قول الجمهور ، وقال بعض المتأَولين : عنى بالركوع التواضُعَ ، كما قال الشاعر :

.... تَرَى الْأُكُمَ فيهِ سُجَّداً لِلحَوافِرِ (١)

أَيْ مُتَذَلِّلة ، وتأَول قتادة الآية قاصدة الركوع نفسه ، وقال : عليكم بحسن الركوع ، والذي أَقول : إن ذِكْر الركوع هنا وتخصيصه من بين سائر أَحوال العبادة إنما كان لأَن كثيراً من العرب كان يأْنف من الركوع والسجود ، ويراها هيئة مُنكرة ، لما كان في أَخلاقهم من العجرفة ، أَلا تَرَى أَن بعضهم قد سئل فقيل له : كيف تقول :

---

(١) هذا عجز بيت قاله زيد الخيل، وقد سبق الاستشهاد به أكثر من مرة ، وهو في الطبري ، والقرطبي ، والبحر ، والشوكاني ، وفي اللسان ، ويستشهد به المؤلف على أن السجود بمعنى الخضوع والتواضع ، والبيت بتمامه :

بِجَمْعٍ تَضلُّ البُلْقُ في حَجَرَاتِه تَرَى الأُكْمَ فيه سُجَّداً للْحَوَافِرِ

والبُلْق : جمع أَبلق ، والبَلَقُ سوادٌ وبياض في الدّابة ،وقيل : هو ارتفاع التَّحْجيل إلى الفخِذَيْن ، والحَجَرَاتَ: النواحي ، والمفرد حَجْرَة ، والأُكْمُ جمع إكام،وهي جمع أَكَم والواحدة أَكَمَةٌ ، وهي المجموعة من الحجارة وهي دون الجبل لكنها غليظة ، يقول : إنها مع أنها غليظة تخضع لحوافر الخيل .

استخذأتُ أَو اسْتَخْذَيْتُ ؟ فقال : كلٌّ لا أَقول ، قيل له : لِمَ ؟ قال : لأَن العرب لا تستخذيءُ ، فظن أَنه سئل عن المعنى ، ولم يفهم أَنه سُئِل عن اللفظة [١] ، وفي كتاب السِّير عن بعض العرب أَنه استعفى متكلما عن قومه ونفسه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلاة ، فلم يُجبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قيل : قال له : لا بُدَّ من الصلاة ، فقال عند ذلك : سَنُؤْتيكها وإن كانت دناءة .

وقوله تعالى : (فَبِأَيِّ حَديثٍ بَعْدَهُ يؤْمِنونَ) يُؤَيِّد أَن الآية كلها في قريش ، والحديث الذي يقتضيه الضمير في [بَعْدَهْ] هو القرآن ، وهذا توقيف وتوبيخ ، وروي عن يعقوب أَنه قرأَ : [تُؤْمِنونَ] بالتاءِ من فوق ، على المواجهة ، ورُويت عن ابن عامر .

كمل تفسير سورة المرسلات والحمد لله رب العالمين

---

(١) قال اللغويون : إن هذا العربي أجاب عن السؤال وهو لا يدري ، فقد نطق الكلمة بالهمزة لا بالياء ، وكان هذا هو الهدف من السؤال .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٧٨) سورة النبأ مكية وآياتها أربعون

وهي مكية بإجماع ، وليس فيها نسخٌ ولا حكم إلاَّ ما قاله بعض الناس في قوله تعالى : (لَابِثِينَ فيها أَحْقَاباً) من أَنه منسوخ ، وهو قول خلف ، لأَن الأَخبار لا تُنسخ ، وإنما ذكرنا هذا القول تنبيها على فساده.

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ
﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا
﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾
وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا
شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾
لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾

أَصل [عَمَّ] عن ما ، ثم أُدغمت النون بعد قلبها فبقي « عَمَّا » في الخبر وفي الاستفهام ، ثم حذفوا الأَلف في الاستفهام فرقاً بينه وبين الخبر ، ثم من العرب من يخفف الميم تخفيفاً فيقول : « عم » ، وهذا الاستفهام بـ « عَمَّ » هو استفهام توقيف وتعجيب منهم . وقرأ أُبَيُّ ابن كعب ، وابن مسعود وعِكْرمة ، وعيسى : [عَمَّا] بالأَلف ، وقرأ الضحاك : [عَمَّه] بهاءٍ ، وهذا إنما يكون عند الوقف .

و « النبأ الْعَظِيم » قال قوم : هو الشرع الذي جاءَ به محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال مجاهد وقتادة : هو القرآن خاصة ، وقال قتادة أَيضاً : هو البعث من القبور . ويحتمل الضمير في [يَتَسَاءَلونَ] أَن يريد به جميع العالَم ، فيكون « الاختلاف » حنيئذ يراد به تصديق المؤمنين وتكذيب الكافرين ونزغات الملحدين ، ويحتمل أَن يريد بالضمير الكفار من قريش ، فيكون « الاختلاف » شك بعض وتكذيب بعض ، وقولهم شِعْر وسِحْر وكهانة وجنون وغير ذلك ، وقوله تعالى : (عَنِ النَّبَأ الْعَظِيم) متعلق بـ [يَتَسَاءَلونَ] الظاهر (١) ، كأنه تعالى قال :

---

(١) هذا رأي ، ورأيٌ آخر يقول : إن (عَن) لا تتعلق بـ (يَتَساءلون) الذي في التلاوة ، لأنه كان يلزم دخول حرف الاستفهام ، فيكون : أَعَن النبأ العظيم ؟ كقولك : كم مالك ؟ أَثلاثون أَم أربعون ؟ فوجب لما ذُكر امتناع تعلقه بـ (يَتَسَاءَلونَ) الذي في التلاوة ، وإنَّما يتعلق بـ « يَتَسَاءَلُونَ » آخر مضمر ، وحَسُن ذلك لتقدم (يَتَسَاءَلُونَ) ، قال ذلك المهدوي ، ونقله عنه القرطبي ، وذكره أبو حيان في البحر مجملا بدون تفصيل .

لم يتساءَلون عن هذا النبأ ؟ وقال الزجاج : الكلام تامٌّ في قوله تعالى : (عَمَّ يَتَسَاءَلونَ) ، ثم كان مقتضى القول أَن يُجيب مجيبٌ فيقول : يتساءَلُون عن النبأ العظيم ، فاقتضى إيجاز القرآن وبلاغته أَن يبادر المحتَجُّ بالجواب الذي تقتضيه الحالُ والمجاورةُ ، اقتضاباً للْحُجَّة وإسراعاً إلى موضع قطعهم ، وهذا نحو قوله تعالى : (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ)[1] ، وله أَمثلة كثيرة ، وقد وقع التنبيه عليها في مواضعها .

وقرأَ السبعة ، والحسن ، وأَبو جعفر ، وشيبة ، والأَعمش : (كَلاَّ سَيَعْلَمونَ) بالياءِ في الموضعين ، على ذكْر الغائب ، فظاهر الكلام أَنه ردٌّ على الكفار في تكذيبهم ، ووعيدٌ لهم في المستقبل ، وكرر الزَّجر تأْكيداً ، وقال الضحاك : المعنى : كلاَّ سيعلمون ، يعني الكفار على جهة الوعيد ، ثم كلاَّ سيعلمون ، يعني المؤمنين على جهة الوعد ، وقرأَ ابن عامر ـ فيما رُوي عنه ـ ومالك بن دينار ، والحسن ـ بخلاف ـ (كَلاَّ سَتَعْلَمونَ) بالتاءِ في الموضعين ، على مخاطبة الحاضر ، كأنه تعالى يقول : قُلْ لهم يامحمد ، وكرر عليهم الزجر والوعد تأْكيداً ، وكلُّ تأويل في هذه القراءة غير هذا متعسِّف . وقرأَ قوم : (كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ) بالياءِ على جهة الردِّ والوعيد للكفار ، ثم (كَلاَّ سَتَعْلَمُونَ) بالتاءِ من

(١) من الآية (١٩) من سورة (الأنعام)

فوق على جهة الردِّ على الكفار والوعد للمؤمنين ، فالعلم في هذه الآية بمعنى « ستعرفون » ، فلذلك لم يَتَعَدَّ .

ثم وقفهم تعالى على آياته وغرائب مخلوقاته وقدرته التي يوجب النظرُ فيها الإقرارَ بالبعث والإيمانَ بالله تعالى ، « والمِهَادُ » الفِراش الممهَّد الوطيءُ ، وكذلك الأرض لبنيتها (١) ، وقرأ مجاهد ، وعيسى ، وبعض الكوفيين : [مَهْداً] ، والمعنى نحو الأول ، وشبَّه سبحانه الجبال بالأوتاد لأنها تمسك وتثقل وتمنع الأرض أن تميد ، و [أَزْواجاً] معناه : أنواعاً في ألوانكم وصوركم وألسنتكم ، وقال قوم : معناه مزدوجين ذكرا وأُنثى .

و « السُّباتُ » السُّكُونُ ، وسَبَتَ الرجلُ معناه : استراح واتَّدَعَ (٢) وترك الشغل ، ومنه السُّبَاتُ وهي علَّةٌ معروفة ؛ سُمِّيت بذلك لأن السكون أو السكوت أفرط على الإنسان حتى صار ضارًّا قاتلاً (٣) ، والنوم شبيه به إلاَّ في الضرر ، وقال أبوعبيدة : [سُبَاتاً] : قَطْعاً للأعمال والتصرف ،

(١) هكذا في جميع الأصُول .
(٢) اتَّدَعَ : تَرَفّه وارتاح، قال في اللسان : « رَجُلٌ مُتَّدِعٌ ، أي : صاحبُ دَعةٍ وراحةٍ » .
(٣) جاء في اللسان : « المسبوتُ : الميت والمغشي عليه ، وكذلك العليلُ إذا كان ملقىً كالنائم يغمض عينيه في أكثر أحواله مسبوتٌ » ، وفي حديث عمرو بن مسعود ، قال لمعاوية : ما تسأل عن شيخ نومه سباتٌ ، وليلة هُبَات ؟ السبات : نوم المريض والشيخ المسن » .

والسَّبْتُ : القَطْع ، ومنه « سَبَتَ الرجلُ شَعْرَه » إذا قطع شَعْرَه ، ومنه النِّعال السبتيَّةُ وهي التي قطع عنها الشعر .

و [لِبَاساً] مصدر ، وكان الليل كذلك من حيث يغشى الأَشخاص فهي تلبسه وتتدرَّعُه ، ويقال : جعله لباساً لأَنه يطمس نور الأَبصار ويُلبس عليها الأَشياءَ ، والتصريفُ يضعف هذا القول لأَنه كان يجب أَن يكون « مُلْبِسا » ، ولا يقال « لباس » إلاَّ من لبس الثياب . و (جَعَلْنَا النَّهارَ مَعَاشاً) على حذف مضاف ، أَو على النسب ، وهذا كما تقول : « لَيْلٌ نائمٌ » . و « السَّبْعُ الشِّدادُ » : السموات ، والأَفصح في لفظة السماءِ التأنيث ، ووصفها بالشدة لأَنه لا يُسرع إليها فسادٌ لِوَثَاقَتِها ، و « السِّراجُ » : الشمس ، و « الوَهَّاجُ » : الحارُّ المضطرم الاتِّقاد ، المتعالي اللهب ، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : إن الشمس في السماءِ الرابعة إلينا ظهرها ، ولَهَبُها مضطرمٌ علوًّا .

واختلف الناس في [المُعْصِراتِ] فقال الحسن بن أَبي الحسن ، وأُبَيُّ بن كعب ، وابن جُبَيْر ، وزيد بن أَسلم ، ومقاتل ، وقتادة : هي السموات ، وقال ابن عباس ، وأَبو العالية ، والربيع ، والضحاك : المعصراتُ هي السحاب القاطرة ، وهو مأخوذ من العصر ؛ لأَن السحاب ينعصر فيخرج منه الماءُ ، وهذا قول الجمهور ، وبه فسَّر الحسن بن محمد العنبري القاضي بيت حسان :

كِلْتَاهُمَا حَلَبُ الْعَصير .... البيت [(١)].

وقال بعض مَنْ سَمَّيْتُ : هي السحاب التي فيها الماءُ ولمَّا تُمطر ، كالمرأة المُعْصر ، وهي التي دنا حيضها ولم تحض بعد ، وقال ابن كيسان : قيل للسحاب مُعْصرات من حيث تُغيث ، فهي من « العُصْرة » ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ [(٢)] ، وقال ابن عباس ، وقتادة ، ومجاهد : المعصرات : الرياح لأنها تعصر السحاب ، وقرأ ابن الزبير ، وابن عباس والفضل بن عباس ، وقتادة ، وعكرمة : ﴿ وَأَنْزَلْنَا بالْمُعْصِرَاتِ ﴾ ، فهذا يقوي أنه أراد الرياح . و « الثَّجَّاجُ » : السريعُ الاندفاع كما يندفع الدَّمُ من عروق الذبيحة ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم وقد قيل له : ما أفضل الحج ؟ فقال : (العجُّ والثَّجُّ) [(٣)] ، أَراد : التضرُّع بالدعاء

---

(١) هذا جزء من بيت قاله حسان في قصيدته التي مطلعها : (أسألتَ رسم الدار أم لم تسأل) وهو في الديوان وفي اللسان ، وقد رُوي بروايتين : الأولى :

كِلْتاهُمَا حَلَبُ الْعَصيرِ فَعاطِني ... بِزُجَاجَةٍ أَرْخاهُما لِلمِفْصَلِ

والثانية : (كِلْتاهُمَا عَرَقُ الزُّجاجَةِ فاسْقِني .. البيت) ، والعصير والعُصارة : ما تحلَّب منه الشيء إذا عصرتَه ، والمَفْصِل – بفتح الميم وكسر الصاد – : اللسان ، ويُرْوي المِفْصَل – بكسر الميم وفتح الصاد ، راجع اللسان والصحاح ، والضمير في (كلتاهما) يعود على نوعين من الخمر ذكرهما في البيت السابق ، واحدة ممزوجة بالماء لا يريدها ، والثانية خالصة صافية وهي التي يريدها ، قال :

إنَّ الَّتي ناوَلْتَني فَرَدَدْتُها ... قُتِلَتْ قُتِلْتَ ، فَهاتِها لم تُقْتَلِ

(٢) من الآية (٤٩) من سورة (يوسف) .

(٣) العَجُّ هو رفع الصوت بالتلبية ، والثَّجُّ هو إراقة الدماء وذبح الهدايا .

الجهير وذبح الهدي . و « الحَبُّ » : جنس الحبوب الذي ينتفع به الحيوان ، و « النباتُ » : العُشب الذي يستعمل رطباً لإنسان أو بهيمة ، فذكر الله تعالى موضع المنفعتين . و [أَلْفَافاً] جمع « لُفٍّ » بضم اللام و « لُفٌّ » جمع « لَفَّاءَ » ، والمعنى مُلْتَفَّاتُ الأَغصان والأَوراق ، وذلك أَبداً موجود مع النضرة والريِّ ، وقال قوم : [أَلْفَافاً] جمع « لِفٍّ » بكسر اللام ، واللِّفُ : الجنةُ الـمُلْتَفَّة الأَغصان ، وقال الكسائي : « أَلفافٌ » جمع « لفيف » ، وقد قال الشاعر :

أَحَابِيشُ أَلْفافٍ تبايَنَ فَرْعُهُم … وَجِذْمُهُم عن نِسْبَةِ الْمُتَقَرِّب [1]

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾
وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ
كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ ﴾

---

(١) الأحابيشُ : أحياءٌ من ٱلقارَةِ تجمعوا في حرب كانت بين بني لَيْث وقريش قبل الإسلام ، فسميت تلك الأَحياءُ بالأحابيش من قِبَلِ تجمعها ، والْقَارَةُ قبيلة من كنانة ، سمُّوا قارة لاجتماعهم والتفافهم ، وأَلْفَافٌ : جمع لفيف ، واللّفيف : القومُ يجتمعون من قبائل شتىً ليس أَصلهم واحداً ، وفَرْعُ الرجل : أَولاده ، وجِذْمُ القوم : أَصلهم ، والنِّسْبَةُ القرابة ، والتَّقَرُّب : التَّدَنِّي إلى الشيء والتوَصُّل إلى إنسانٍ بقربه ، والشاهد في البيت أَن الألفاف هي جمع لفيف ، واللفيف هم القوم الذي يجتمعون بعضهم مع بعض .

« يومُ الفَصلِ » هو يوم القيامة ؛ لأَن الله تعالى يفصل فيه بين المؤمنين والكافرين ، وبين الحق والباطل ، و« الْميقاتُ » مِفْعالٌ من الوقت ، كميعادٍ من الوعد . وقوله تعالى : (يَوْمَ يُنْفَخُ) بدل من [يَوْمَ] الأَول ، و « الصُّورُ » : القَرْنُ الذي يُنفخ فيه لبعث الناس ، هذا قول الجمهور ، ويحتمل هذا الموضع أَن يكون « الصُّور » فيه جمع « صورة » ، أَي : يومَ يردُّ الله تعالى الأَرواح إِلى الأَبدان ، هذا قول بعضهم في « الصُّور » ، وجوَّزه أَبو حاتم ، والأَول أَشهر ، وبه تظاهرت الآثارُ ، وهو ظاهر كتاب الله تعالى في قوله سبحانه : (ثُمَّ يُنفخَ فيه أُخْرَى)(١) ، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما : (في الصُّوَرِ) بفتح الواو . و« الأَفواجُ » : الجماعاتُ يتلو بعضها بعضا ، واحدها فوجٌ .

وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبوعمرو ، وابن عامر ، وأَبوجعفر ، وشيبة ، والحسن : [وَفُتِّحَتِ] بشد التَّاءِ على المبالغة ، وقرأَ عاصم ، وحمزة ،والكسائي: [وَفُتِحَتِ] دون شدٍّ . وقوله تعالى: (فَكانَتْ أَبْواباً) معناه: تنفطر وتتشقَّق حتى يكون فيها فتوح كالأَبواب في الجدران ، وقال آخرون ـ فيما حكى مكي بن أَبي طالب ـ : الأَبواب هنا فِلَق الخشب التي تجعل أَبواباً لفتوح الجدران ، أَي تتقطع السماءُ قِطعاً صغاراً حتى تكون كألواح الأَبواب ، والقول الأَول أَحسن ، وقال بعض أَهل العلم : تنفتح في

---

(١) من الآية (٦٨) من سورة (الزُّمَر) .

السماءِ أبواب للملائكة من حيث ينزلون ويصعدون ، وقوله تعالى : (فَكَانَتْ سَرَاباً) عِبارة عن تلاشيها وفنائها بعد كونها هباءً منبثًّا ، ولم يُرد تعالى أَن الجبال تعود تشبه الماءَ على بُعْد من الناظر إليها .

و [مِرْصَاداً] موضع الرصد ، ومنه قوله تعالى : (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ) (١) ، ويروى عن الحسن بن أَبي الحسن أنه قال : لا يدخل أَحد حتى يجوز على جهنم ، فمن كانت له أَسباب نجاةٍ نجا وإلَّاهلك ، وقال قتادة : تعلموا أَنه لا سبيل إلى الجنة حَتَّى تقطع النار ، وفي الحديث الصحيح : (إن الصراط جسرٌ يُنْصب على مَتْن جهنم ، ثم يجوز عليه الناس ، فناج ومكدوس) (٢) ، وقال بعض المتأولين : « مرصادٌ » مفعال

(١) الآية (١٤) من سورة (الفجر) .

(٢) هذا جزءٌ من حديث طويل أَخرجه البخاري ، ومسلم ، وابن ماجه ، وأَحمد ، عن أَبي سعيد الخدري ، وفيه كما جاء في البخاري ، في كتاب التوحيد (ثم يؤْتى بالجسر فيُجعل بين ظَهْرَيْ جهنم ، قلنا : يارسول الله ، وما الجسر ؟ قال : مدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ ، عليه خطاطيفُ وكلاليبُ وحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ لها شوكة عُقَيْفاءُ تكون بنَجْد يقالُ لها : السَّعدان ، المؤْمِنُ عليها كالطَّرْف وكَالْبَرْق وكالريح وكأجاويد الخيل والرِّكاب ، فنَاجٍ مُسَلَّمٌ ، ونَاجٍ مَخْدوشٌ ومَكْدُوسٌ في نارِ جهنم ، حتى يَمُرَّ آخرهم يُسْحَبُ سَحْباً ... الحديث) ، وهو طويل .

هذا والمَدْحَضَةُ : المزلقة . والمزلَّةُ : موضع الزَّلَل ، يقال : أَرضٌ مَزِلَّة . والكلاليب : جمع كُلَّاب ، وهو الحديدة المعوجَّةُ من ناحية رأسها يُعَلَّق بها الشيءُ . وحَسَكُ السَّعدان : نباتٌ له ثمرةٌ خشنة تتعلق بأصواف الغنم وأَوبار الإبل ، والطَّرْفُ : تحريك العَيْن أو الجفن . والمخدوش : الذي أُصيب جلده بجروح ، والمكْدُوسُ : الذي دفع من ورائه فسقط على وجهه وسقط غيره فوقه فتجمع بعضهم على بعض .

بمعنى راصد ، وقرأ أَبو مَعْمَر المِنْقَري[١] : (أَنَّ جَهَنَّمَ) بفتح الأَلف ، والجمهور على كسرها ، و « الطَّاغونَ » : الكافرون ، و « الْمَآبُ » : المرجع ، و « الأَحْقابُ » جمع حُقَب - بضم الحاءِ وفتح القاف ، وحِقَب بكسر الحاءِ ، وحُقُب بضمها وضم القاف ،وهو جمع حِقْبة ، ومنه قول مُتَمِّمٍ :

وَكُنَّا كَنَدْمَانَيْ جَذيمَةَ حِقْبَةً مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قيلَ لَنْ يَتَصَدَّعَا[٢]

---

(١) هو عبد الله بن عمرو بن أبي الحجاج التَّيمي ، أبو مَعْمَر المِنْقري ، قال عنه في تقريب التهذيب : « ثقة ، ثَبْت ، رمي بالقدر ، مات سنة أربع وعشرين » ..

(٢) مُتَمِّم بن نُوَيْرة كان له أَخٌ اسمه مالك بن نُوَيْرة ، وهو الذي قتله خالدُ بن الوليد في حروب الردَّة ، وتزوج امرأته ، وقتل من قومه مقتلة عظيمة ، وكان هذا أَحد الأسباب التي جعلت عمر بن الخطاب يسخط على خالد ، ويوم أن استشهد زيد بن الخطاب في حرب مسيلمة قال عمر رضي الله عنه لِمُتَمِّم بن نويرة : أنشدني بعض ما قلْتَ في أخيك مالك ، فأنشده شعره الذي يقول فيه :

فلَمَّا تفرَّقْنا كأَنيِّ ومالِـــكاً لِطُول اجْتماعٍ لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَعاً
وكُنَّا كَنَدْمَانَيْ جَذيمَةَ حِقْبَةً مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَصَدَّعَا

وأَرادَ بندماني جذيمة « مالكاً وعقيلاً » ابني فارج بن كعب ، فقد نادماً جَذيمَةَ الأَبرش حين ردَّا عليه ابن اخته « عمرو بن عدي » ، فحكَّمهما فاختارا منادمته ، فكانا نديميه فترة من الزمن ، ثم غدر بهما وقتلهما ، ولما أنشد مُتَمم شعره لعمر بن الخطاب رضي الله عنه قال عمر : يامُتَمِّم لو كنتُ أَقول الشعر لسرَّني أن أَقول في أَخي زيد بن الخطاب مثل ما قلتَ في أَخيك ، قال مُتَمم : ياأمير المؤمنين ، لو قتل أَخي قتلة أَخيك ما قلت فيه شعراً أبداً ، قال عمر : يامتمم ، ما عزَّاني أحد في أَخي بأحسن مما عزيتني به ، وذلك أن زيد بن الخطاب قتل شهيداً في يوم اليمامة ، أما مالك ابن نويرة فقد قتل مرتَدّاً عن الإسلام .

وهي المدة الطويلة من الدَّهْر[١] غير محدودة ، ويقال للسنة أيضاً : حِقْبة ، وقال بشر بن كعب[٢] : حدُّها على ما ورد في الكتب المنزلة ثلاثمائة سنة ، وقال هلال الهجري : ثمانون سنة ، قالا : في كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً ، وقال ابن عباس ، وابن عمر رضي الله عنهم : ثمانون ألف سنة ، وقال الحسن : سبعون ألف سنة ، وقيل : خمسون ألف سنة ، وقال أبو أُمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم : إنه ثلاثون ألف سنة[٣] ، وأَكْثَرَ الناسُ في هذا ، واللازم أن الله تعالى أخبر عن الكفار أنهم يلبثون أحقاباً ، كلما مرَّ حُقُب جاءَ غيره ، إلى غير نهاية ، قال الحسن : ليس لها عدة إلاَّ الخلود في النار ، ومن الناس من ظن لذكْر الأَحقاب أن مدة العذاب تنحصر وتتم ، فطلبوا التأويل لذلك ، فقال مقاتل بن حيان[٤] : الحُقُب سبعة عشر ألف سنة ، وهي منسوخة بقوله تعالى : (فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إلاَّ عَذَاباً)[٥] ، وقد ذكرنا فساد هذا القول[٦] . وقال آخرون : الموصوف باللبث أحقاباً هم عصاة المؤمنين .

---

(١) في بعض النسخ : « من السَّنة » .

(٢) الذي في الدر المنثور « بشير بن كعب » .

(٣) أخرجه ابن عمر العدني في مسنده ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه ، بسند ضعيف ، عن أبي أُمامة (الدُّر المنثور) .

(٤) هو مقاتل بن حيان ، النَّبَطِي – بفتح النون والباء – أبو بسطام البلخي الخزاز ، قال عنه في (تقريب التهذيب) : « صدوق فاضل ، أخطأ الأزدي في زعمه أن وكيعاً كذَّبه ، وإنما كذب الذي بعده ، مات قبل الخمسين بأرض الهند » .

(٥) هي الآية (٣٠) من هذه السورة (النبأ) .

(٦) عندما قال في بداية تفسير هذه السورة : « لأن الأخبار لا تُنسخ » .

وهذا أَيضاً ضعيف ، ما بَعْدَه في السورة يردُّ عليه ، وقال آخرون : إنما المعنى : لا بثين فيها أَحقاباً غيْرَ ذائقين بَرْداً ولا شراباً ، فبهذه الحال يلبثون أَحقاباً ، ثم يبقى العذابُ سرمداً وهم يشربون أَشربة جهنم .

وقرأَ الجمهور : [لابِثِينَ] ، وقرأَ حمزة وحده ، وابن مسعود ، وعلقمة ، وابن وثاب ، وعمرو بن ميمون ، وعمرو بن شرحبيل(١) : [لَبِثِينَ] جمع « لَبِثٍ » ، وهي قراءة معترضة ، لأَن فَعِلاً إِنما يكون لما صار خُلُقاً كحَذِرٍ وفَرِق ، وقد جاء شاذًّا فيما ليس بخلق ، وأَنشد الطبري وغيره في ذلك بيت لبيد :

أَوْ مِسْحَلٍ عَمِلٍ عِضادَةَ سَمْحَجٍ بِسَرَاتِها نَدَبٌ لَهُ وكُلومُ(٢)

(١) أمّا ابن ميمون فهو عمرو بن ميمون بن مهران الجزري ، أبو عبد الله ، سبط سعيد بن جبير ، ثقة فاضل ، مات سنة سبع وأربعين ، وأمَّا ابن شرحبيل فهو عمرو بن شُرحبيل ابن سعيد ، بن سعد بن عبادة الأنصاري . (تقريب التهذيب) .

(٢) البيت في وصف حمار الوحش ، وهو في الديوان ، واللسان ، والطبري ، ومعاني القرآن ، والمِسْحلُ : الحمارُ الوحشيُّ ، وهي صفة غالبة ، وسمِّي بذلك لأن نهيقة يُسمىَّ السَّحيل ، وعَمِل ـ بوزن فَرِح ـ : وصفٌ له : وهي بمعنى عامل ، ويروَى : (سَنِج) ـ بمعنى بَشِم ـ ويروى أيضاً (شنِجٍ) ـ بمعنى ملازم للأتان ـ ، أما العضادة فهي ما يكون بجانب الشيء ويكون عوناً له ، فهي هنا بمعنى أنه بجانب أنثاه وهو عون لها ومرافق ، والسَّمْحَج : الأتان الطويلة الظهر ، وسَراتُها وسط ظهرها ، ونَدَبٌ : جمع نَدَبَة ، وهي أثر الجرح ، والكلوم : الجروح ومفردها كَلْم . يريد أن هذا الحمار يرافق أنثاه دائما وهو كثير العضّ لها حتى امتلأ ظهرها بالجروح وآثارها . والشاهد كما قال الفراء أن الشاعر أوقع (عمل) على (عضادة) ، قال : ولو كان (عاملاً) لكان أفضل .

قال المعترض في القراءة : لا حُجةَ في هذا البيت لأَن « عَملاً » قد صار كالخلق الذي يواظب على العمل به حتى إنه ليُسَمَّى به في وقت لا يعمل فيه ، كما تقول « كاتب » لمن كانت له صناعة وإن لم يكتب أَكثر أَحيانه ، قال المحتجُّ لها : شبه « لبث » لدوامه بالخُلُق لما صار اللُّبث من شأنه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ ﴾

قال أَبو عبيدة ، والكسائي ، والفضل بن خالد ، ومعاذ النحوي : البَرْدُ في هذه الآية النومُ ، والعرب تُسميه بذلك لأَنه يُبْرد سورة العطش ، ومن كلامهم : « منع البَرْدُ البَرْدَ » (١) ، وقال جمهور الناس : البَرْدُ في الآية مَسّ الهواءِ البارد ، وهو القرُّ ، أَي : لا يمسهم منه

(١) يعني : أَذهب البَرْدُ النوم .

ما يُستلذُّ ويكسر عذاب الحرِّ ، فالذَّوق ـ على هذين القولين ـ مستعار ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : البَرْدُ الشرابُ البارد المُسْتلَذُّ ، ومنه قول حسان بن ثابت :

يَسْقون مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عَلَيْهِمُ ... بَرَدَى يُصَفَّقُ بِالرَّحيقِ السَّلْسَلِ (١)

ومنه قول الآخر :

أَمانِيُّ مِنْ سُعْدَى حِسانٌ كَأَنَّمَا ... سَقَتْكَ بِها سُعْدَى عَلَى ظَمَأٍ بَرْدَا (٢)

ثم قال تعالى : (وَلاَ شَرَاباً إِلاَّ حَميماً) ، فالاستثناءُ متصل ، و « الحميُم » : الحارُّ الذائب ، وأكثر استعماله في الماءِ السخن والعرق ، ومنه الحمَّامُ ، وقال ابن دُرَيْد : الحميُم دموعُ أعينهم ، وقال النقاش :

---

(١) هذا البيت من قصيدة لحسان مطلعها : (أسألْتَ رسْمَ الدّارِ أمْ لَمْ تسْألِ) ؟ والبريصُ : موضعٌ بالشام كان موطن آل جفنة ، وبَرَدَى : نهر دمشق ، ولو أن المؤلف هنا يستشهد بالبيت على أن البَرْد هو الشراب البارد المُسْتلذ ، والرحيق : الخمر ، ويُصَفَّق : يمزج بالخمر ، والسَّلْسل : السَّهْل اللَّيِّن . وقد روي البيت : (كأساً يصفق) في الخزانة ، والمعرب ، ومنتخبات من أخبار اليمن ، وروي في طبقات الشعراء : (خمراً يصفق) ، وفي اللسان (بَرَدَى تُصَفَّقُ) .

(٢) ذكر صاحب أمالي القالي أن الرياشيّ أنشد لرَجُلٍ من بني الحارث هذين البيتين :

مُنًى إنْ تَكُنْ حَقاً تَكُنْ أَحْسَنَ المُنَى ... وإلاَّ فَقَدْ عِشْنَا بِهَا زَمَناً رَغْدَا
أَمانِيُّ مِنْ سُعْدَى حِسانٌ كَأَنَّمَا ... سَقَتْكَ بِها سُعْدَى عَلَى ظماءٍ بَرْدَا

أي شراباً بارداً مُسْتَلَذّاً .

الحميمِ الصُّفْرُ[١] المذابُ المتناهي الحر ، واختلف الناسُ في « الغَسَّاقِ » ـ فقال قتادة ، والنَّخَعي ، وجماعة : هو ما يسيل من أَجسام أَهل النار من صديد ونحوه ، يقال : غسق الجرحُ إِذا سَال منه قيح ودم ، وغسقت العين إِذا دمعت وخرج قذاها ، وقال ابن عباس ومجاهد: الغَسّاقُ مشروب لهم مفرط الزمهرير كأنه في الطرف الثاني من الحميم ، يشوي الوجوه بِبَرْده ، وقال عبد الله بن بريدة : الغَسّاقُ المُنْتن .

وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو ، ونافع ، وابن عامر ، وعاصم[٢] ، وجماعة من الجمهور : [غَسَاقاً] مخففة السِّين ، وهو اسمٌ على ما قدمناه ، وقرأَ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، وابن أَبي إِسحق ، والشعبيُّ ، والحكم بن عُيَيْنة ، وقتادة ، وابن وثاب : [غَسَّاقاً] مشددة السين ، وهي صفةٌ أُقيمت مقام الموصوف ، كأنه تعالى قال : ومشروباً غساقاً ، أَي كأنه سائل من أَبدانهم .

وقوله تعالى : (جَزَاءً وِفاقاً) معناه : لأَعمالهم وكفرهم ، أَي : هو جزاؤهم الجدير بهم ، الموافق مع التحذير لأَعمالهم ، فهي كُفْرٌ والجزاءُ نارٌ . و [يَرْجونَ] قال أَبو عبيدة وغيره : معناه : يخافون ، وقال غيره : الرجاءُ هنا على بابه ، ولا رجاءَ إِلاَّ وهو مُقترنٌ بخوف ، ولا خوف إِلاَّ

---

(١) الصُّفْرُ : النحاس الأَصفر ، أو النحاس الخالص من كل شيء .
(٢) أي في رواية أبي بكر عنه .

وهو مُقْترنٌ برجاءٍ ، فذكر أَحد القسمين لأَن المقصد العبارة عن تكذيبهم ، كأنه تعالى قال : إنهم كانوا لا يصدقون بالحساب ، فهم لذلك لا يرجونه ولا يخافونه . وقرأَ جمهور الناس : [كِذَّاباً] بشدِّ الذال وكسر الكاف ، وهو مصدر بلغة بعض العرب ، وهي يمانِيَّة ، ومنه قول أَحدهم وهو يستفتيني : « اَلْحَلْقُ أَحَبُّ إِليكَ أَم القِصَّارُ »(١) ؟ ومنه قول الشاعر :

لَقَدْ طَالَمَا ثَبَّطَتْنِي عَنْ صَحابَتِي ... وَعَنْ حِوَجٍ قِضَّاؤُها مِنْ شِفائِيَا(٢)

وهذا عندهم مصدر من فَعَّل ، وقال الطبري : لم يختلف القراءُ في هذا الموضع في « كِذَّاب » ، وأُراه أَراد السبعة ، وأَمَّا في الشَّاذ فقرأَ علي ابن أَبي طالب ، وعوف الأَعرابي ، وعيسى ـ بخلاف ـ والأَعمش ، وأَبو رجاءٍ : [كِذَاباً] بكسر الكاف وتخفيف الذال ، وقرأَ عبد الله بن عمر ابن عبد العزيز : [كُذَّاباً] بضم الكاف وشد الذال على أَنه جمع كاذب ،

---

(١) هذا الكلام منقول عن الفراءِ ، وقد نقله أَيضاً صاحب اللسان ، قال الفراءُ في (معاني القرآن) : « هي لغة يمانية فصيحة ، يقولون : كذَّبت به كِذَّاباً ، وخرَّقت القميص خِرَّاقاً ، وكلُّ فَعلَّت فمصدره فِعَّالٌ في لغتهم مشدد ، قال لي أَعرابيٌّ منهم على المروة يستفتيني : آلْحَلْقُ أَحبُّ إليك أَم القِصَّارُ » ؟ يعني : هل حلق الشعر أَحبُّ إليك أَم تقصيره ؟

(٢) هذا البيت في (معاني القرآن) للفراءِ ، ونقله عنه صاحب اللسان : « قال الفراء : وأَنشدني بعض بني كلب .. وذكر البيت » ، وهو في الطبري ، والقرطبي ، والبحر المحيط ، وابن كثير ، وثَبَّطه عن الشيءِ : عوَّقه وبَطَّأَ به ، والحِوَجُ : جمع حاجة وهي ما يفتقر إليه الإنسان ، يقول : لقد عوَّقتني عن أَصحابي وعن حاجات في قضائها شفائي .

ونصبه على الحال ، قاله أبو حاتم [١] .

وقوله تعالى : (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ) يريد : كلّ شيءٍ شأنه أن يُحصى ، وفي هذا الخبر رَبْطٌ لأَجزاءِ القصة بأَوَّلها ، أَي : هم مُكَذِّبون كافرون ونحن قد أَحصينا بالقول لهم في الآخرة : « ذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إلاَّ عَذَاباً » ، وكان عبد الله بن عمر [٢] رضي الله عنهما يقول : ما نزلت في أَهل النار آية أَشد من قوله تعالى: (فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إلاَّ عَذَاباً) ، ورواه أَبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم [٣] .

ولما ذكر تعالى أَمر أَهل النار عقَّب بذكر أَهل الجنة ليبين الفرق ، و « المفاز » موضع الفوز ؛ لأَنهم زحزحوا عن النار ، وأُدخلوا الجنة ،

---

(١) يقول أبو حاتم : « لا وجه إلا أن يكون (كُذَّاباً) جمع كاذب ، فتنصبه على الحال ، وقد يجوز أن يكون وصفاً لمصدر محذوف ، أي : كَذَّبوا بآياتنا كِذَّاباً كُذَّاباً ، أي كِذَّاباً متناهيا في معناه ، فهو واحدٌ لا جمع له ، كرجل حُسَّان ، وَوَجْه وُضَّاءٌ » .

(٢) هذا يوافق ما في (البحر المحيط) ، ولكن في (الدُّر المنثور) وفي تفسير ابن كثير : (عبد الله بن عمرو) .

(٣) قال ابن كثير في تفسيره : « وقال ابن أَبي حاتم : حدثنا محمد بن محمد بن مصعب الصوري ، حدثنا خالد بن عبد الرحمن ، حدثنا جِسْر بن فرقد عن الحسن قال : سألتُ أَبا برزة الأسلمي عن أَشد آية في كتاب الله على أهل النار ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ : (فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إلاَّ عَذَاباً) ، قال : (أَهلك القومُ بمعاصيهم الله عزّ وجلّ) وجِسْر بن فرقد ضعيف الحديث بالكلية » اهـ . وفي الدر المنثور : (أخرجه عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أَبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه عن الحسن بن دينار أنه سأل أَبا بَرزة الأَسلمي إلخ) ، الحديث ولكن لم يرفعه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم .

و « الحدائق » البساتين التي عليها جدرات أَو حظائر ، و [أَتَرْاباً] معناه : على سنٍّ واحدة ، والتِّرْبان هما اللذان مسَّا التراب في وقت واحد ، و « الدِّهاقُ » الْمُتْرَعة فيما قال الجمهور ، وقال ابن جبير ومجاهد : معناه : المتابعة ، وهي من الدَّهق ، وقال عكرمة : هي الصافية ، وفي البخاري ، قال ابن عباس : سمعتُ أَبي في الجاهلية يقول للساقي : اسقني كأساً دهاقاً . و « اللَّغْوُ » سقط الكلام ، وهو ضروب ، وقد تقدم القول في (كِذَّاباً] إلاَّ أَن الكسائي من السبعة قرأَ في هذا الموضع : [كِذَاباً] بالتخفيف ، وهو مصدر ، ومنه قول الأَعشى :

فَصَدَقْتُها وَكَــذَبْتُهـــا وَالْمَرْءُ يَنْفَعُهُ كِذَابُهُ (١)

واختلف المتأولون في قوله تعالى : (حِسَاباً) ـ فقال جمهور المفسرين واللغويين : معناه : مُحْسِباً ، أَي كافياً ، من قولهم : أَحسبني هذا الأَمر ، أَي كفاني ، ومنه ، حسبي الله ، وقال مجاهد ما معناه : إن [حِسَاباً] معناه : مُقَسَّطاً على الأَعمال ؛ لأَن نفس دخول الجنة هو برحمة الله تعالى وتفضُّله لا بعمل ، والدرجات فيها والنعم على قدر الأَعمال ، فإِذا ضاعف الله تعالى لقوم حسناتهم بسبعمائة مثلاً ومنهم المكثر من الأَعمال والْمُقِلُّ أَخذ كل واحد سبعمائة بحسب عمله ، وكذلك في كل تضعيف،

---

(١) البيت في الزمخشري غير منسوب ، وفي القرطبي منسوبا للأعشى أيضا ، قال الشهاب : « وضمير (صَدَقْتُهَا وكَذَبْتُها) للنفس ، والمراد أنه يَصْدُق نفسه تارة بأن يقول إن أمانيها مُحَقَّقة ، وتكذيبها بخلافه ، أو على العكس » .

فالحساب هنا هو بموازنة أعمال القوم ، وقرأ الجمهور : [حِسَاباً] بكسر الحاءِ وتخفيف السين مفتوحة ، وقرأ ابن قطيب : [حَسَّاباً] بفتح الحاءِ وشدِّ السين ، قال أبو الفتح : جاءَ بالاسم من أَفْعل على فَعَّال كما قالوا : أَدْرك فهو دَرَّاك ، وقرأ ابن عباس ، وسراج : (عَطاءً حَسَناً) بالنون من الحسن ، وحكى عنه المهدوي أنه قرأ : [حَسْباً] بفتح الحاءِ وسكون السين وبالباءِ ، وقرأ شريح بن يزيد الحمصي : [حِسَّاباً] بكسر الحاءِ وشد السين المفتوحة ، وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، والأَعرج ، وأبو جعفر ، وشيبة ، وأَهل الحرمين : [رَبُّ] بالرفع ، وكذلك [الرَّحْمَنُ] ، وقرأ ابن عامر ، وعاصم ، وابن مسعود ، وابن أَبي إسحق وابن محيصن ، والأَعمش : [رَبِّ] بالخفض ، وكذلك [الرَّحْمَنِ] . وقرأ حمزة ، والكسائي : [رَبِّ] بالخفض ، و [الرَّحْمَنُ] بالرفع ، وهي قراءة الحسن ، وابن وثاب ، والأَعمش ، وابن محيصن ـ بخلاف عنهما ، ووجوه هذه القراءة بينةٌ ، وقوله تعالى : (لاَيَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً) الضمير للكفار ، أَي : لا يملكون من أَفضاله وإجماله أَن يخاطبوه بمعذرة ولا غيرها ، وهذا في موطن خاص .

---

(١) هو شريح بن يزيد الحضرمي ، أبو حيوة الحمصي ، المؤذن ، مات سنة ثلاث ومائتين . (تقريب التهذيب) .

(٢) أما الخفض فعلى النعت لـ (رَبِّ) في قوله تعالى : (جَزَاءً من رَبِّكَ) ، وأما الرفع فعلى الاستئناف ، فيكون (رَبُّ) مبتدأ وخبره (الرَّحْمَنُ) ، أو (رَبُّ) يكون خبر المبتدأ محذوف ، و (الرَّحْمَنُ) خبر ثان ، وفي القراءة الأخيرة لحمزة والكسائي فإن (رَبِّ) تكون مخفوضة على النعت ، و (الرَّحْمَنُ) تكون مرفوعة على أنها مبتدأ ، أي : هو الرحمن .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾ ﴾

اختلف الناس في « الروح » المذكور في هـذا الموضع ـ فقال الشعبي والضحاك : هو جبريل عليه السلام، ذكره خاصة من بين الملائكة تشريفاً ، وقال ابن مسعود : هو ملك عظيم ، أَكبر الملائكة خِلْقة يسمى بالروح ، وقال ابن زيد : كان أَبي يقول : هو القرآن ، وقد قال الله تعالى : « أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا »(١) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فالقيام فيه مستعار يراد به بيانُه وظهوره وشدة آثاره ، والأَشياءُ الكائنة عن تصديقه وتكذيبه ، ومع هذا في القول قَلَقٌ ، وقال مجاهد : الروحُ خَلْقٌ على صورة بني آدم يأكلون ويشربون ، وقال ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم : (الروح خلق غير الملائكة ، وحفظة للملائكة كما الملائكة حفظة للأَنبياءِ ولنا) ، وقال ابن عباس ، والحسن ،

(١) من الآية (٥٢) من سورة (الشورى) .

وقتادة : الروحُ هنا اسم جنس يُرادُ به أَرواح بني آدم ، والمعنى : يوم تقوم الأَرواح في أَجسادها إِثْر البعث والنشأَة الآخرة ، ويكون الجمع من الإِنس والملائكة صفاً [(١)] ، ولا يتكلم أَحد هيبة وفزعاً ، إلا مَن أَذن له الرحمن من مَلَك أَو نبي ، وكان أَهلاً أَن يقول صواباً في ذلك الموطن ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : الضمير في [يَتَكَلَّمونَ] عائد إِلى الناس خاصة ، و « الصواب » المشار إِليه هو « لا إِله إِلاَّ الله » ، قال عكرمة : أَي قالها في الدنيا .

وقوله تعالى : (ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ) أَي الحقُّ كونُه ووجوده ، وفي قوله تعالى : (فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً) وعدٌ ووعيد وتحريض ، و « الْمَآبُ » المرجعُ وموضعُ الأَوبة ، والضمير الذي هو الكاف والميم في [أَنْذَرْناكُمْ] هو لجميع العالم وإِن كانت المخاطبة لمن حضر النبيَّ صلى الله عليه وسلم من الكفار ، و « العذابُ القريبُ » عذابُ الآخرة ، ووصفه بالقرب لِتَحَقُّق وقوعه ، وأَنه آت وكلُّ آتٍ قريب ، والجميع داخل في النذارة منه ، و « نظر المرءِ إِلى ما قدمت يداه من عمل » قيامٌ للحُجَّة عليه ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « المرْءُ » هنا المؤمن ، وقرأَ ابن أَبي إِسحق : [المُرْءُ] بضم الميم ، وضَعَّفَها أَبو حاتم .

قوله تعالى : (وَيَقُولُ الْكافِرُ يالَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً) ، قيل : إن هذا

(١) في إحدى النسخ : « ويكون الجمع بين الإنس والملائكة حقاً » .

تَمَنٍّ أَن يكون شيئاً حقيراً لا يُحاسب ولا يُلتفت إليه ، وهذا قد تجده في الخائفين من المؤمنين ، فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « ليتني كنت بعرة » ، وقال أَبو هريرة ، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما : إن الله تعالى يحضر البهائم يوم القيامة فيقتص من بعضها لبعض ، ثم يقول لها بعد ذلك : كوني تراباً ، فيعود جميعها تراباً ، فإذا رأى الكفار ذلك تمنَّوا مثله . قال أَبو القاسم بن حبيب : رأَيت في بعض التفاسير أَن الكافر هنا إبليس ، إذا رأى ما حصل للمؤمنين من بني آدم من الثواب قال : ياليتني كنت تراباً ، أَي كآدم الذي خُلق من تراب واحتقره هو أَولا .

كمل تفسير سورة النبأ والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٧٩) سورة النازعات مكية وآياتها ست وأربعون

هي مكية بإجماع من المتأولين .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ﴿٤﴾ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ﴿٥﴾ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ﴿١١﴾ ﴾

قال ابن مسعود وابن عباس : « النَّازعاتُ » : الملائكةُ تنزع نفوس بني آدم ، و [غَرْقاً] - على هذا القول - إمَّا أَن يكون مصدراً بمعنى الإغراق والمبالغة في الفِعْل ، وإما أن يكون كما قال علي وابن عباس رضي الله عنهم : تغرق نفوس الكفرة في نار جهنم ، وقال السُّدي وجماعة : النَّازعاتُ : النفوسُ تَنْزِعُ بالموت إلى ربها ، و [غَرْقاً] هنا بمعنى الإغراق

أَي تغرق في الصدور ، وقال عطاءٌ ـ فيما روي عنه ـ : النازعاتُ : الجماعاتُ النازعات بالْقِسِيِّ (١) ، و [غَرْقاً] بمعنى الإِغراق ، وقال الحسن ، وقتادة ، وأَبو عبيدة ، وابن كيسان ، والأَخفش : النازعات : النجومُ لأَنها تَنْزِعُ من أُفق إلى أُفق ، وقال قتادة : النازعاتُ : النفوسُ التي تحنُّ إلى أَوطانها وتَنْزِعُ إلى مذاهبها ، ولها نَزْع عند الموت ، وقال مجاهد : النازعاتُ : المنايا لأَنها تنزع نفوس الحيوان ، وقال عطاءٌ وعكرمة : النازعاتُ : القِسِيُّ أَنفسها لأَنها تنزع بالسهام .

واختلف في « النَّاشِطاتِ » ـ فقال ابن عباس ومجاهد : هي الملائكة لأَنها تَنْشِطُ النفوس عند الموت ، أَي تحلُّها كحلِّ العِقال ، وتَنْشَط بأَمر الله تعالى إلى حيث كان ، وقال مجاهد : النَّاشطات : المَنايا ، وقال ابن عباس أَيضاً ، وقتادة ، والأَخفش ، والحسن : الناشطاتُ : النجومُ لأَنها تَنْشِطُ من أُفُق إلى أَفُق ، أَي تذهب وتسير بسرعة ، ومن ذلك قيل لِبَقَر الوحش : النَّواشِطُ ؛ لأَنَّهن يذهبن بسرعة من موضع إلى آخر ، وقال عطاءٌ : الناشطاتُ في الآية : البقرُ الوحشيةُ وما جرى مجراها من الحيوان الذي يَنْشِط من قُطْر إلى قُطْر ، ومن هذا المعنى قول الشاعر :

أَمْسَتْ هُمُومي تَنْشِطُ الْمَنَاشِطَا الشَّامَ بِي طَوْراً وَطَوْراً واسِطاً (٢)

---

(١) جمع قَوْس ، وهي آلة معروفة على هيئة هلال تُرمى بها السهام .

(٢) البيت لِهِمْيان بن قُحافة ، وهو في اللسان شاهدٌ على أَن الهموم تَنْشِطُ بصاحبها . وواسط تطلق على مُدن ومواضع كثيرة ، ولكن أشهرها وأقربها إلى الذكر مدينة بين البصرة والكوفة ، وسميت بذلك لتوسطها تماماً بين المدينتين .

وكأن هذه اللفظة في هذا التأويل مأخوذة من النشاط ، وقال عطاءٌ أيضاً وعكرمة : الناشطاتُ الأَوْهَاق[١] ، تقول : نَشَطْتُ البعير والإنسان إذا رَبَطْتَه ، وأَنْشَطْتُه إذا حَلَلْتَه ، حكاه الفراءُ وخولف فيه ، ومنه الحديث (كَأَنَّمَا أُنْشِطَ من عِقالٍ)[٢] ، وقال ابن عباس أيضاً : الناشطاتُ : النفوسُ المؤمنة تَنْشِطُ عند الموت للخروج .

والسَّبْحُ : العومُ في الماءِ ، وقد يستعمل مجازاً في خرق الهواءِ والتقلُّب فيه ، واختلف في « السَّابِحاتِ » في الآية ، ما هي ؟ فقال قتادة والحسن : هي النجوم لأنها تسبح في فَلَك ، وقال عليٌّ ومجاهد رضي الله عنهما : هي الملائكة لأنها تتصرَّف في الآفاق بأمر الله تعالى ، تجيءُ وتذهب ، وقال أبو رَوْق[٣] : السَّابحاتُ : الشمس والقمرُ والليلُ والنهارُ ، وقال بعض المتأولين : السَّابحات : السحابُ لأنها كالعائمة في الهواءِ ، وقال عطاءٌ وجماعة : السَّابحات : الخيلُ ، ويقال للفرس : سابحٌ ، وقال آخرون السَّابحاتُ : الحيتانُ دوابُّ البحر فما دونها ، وذلك من عظيم المخلوقات ،

---

(١) الأوهاق : جمع وَهَق ــ بفتح الهاء وقد تسكن ــ والوَهَق : الحبل تُشد به الإبل والخيل لئلا تفرَّ ، ويقال : لابُدَّ في طرفه من أنشوطة .

(٢) أخرجه أبو داود في البيوع والطب . وهو عن الذي أصابه السحر يبرأ منه . ومعنى « أُنْشِط » فيه : حُلَّ ، والمألوف أن الجَمَل إذا حُلَّ عقاله نهض بسرعة .

(٣) هو عطية بن الحارث ، أبو رَوْق ــ بفتح الراء وسكون الواو بعدها قاف ــ الهمداني الكوفي ، صاحب التفسير ، صدوق ، من الطبقة الخامسة . (تقريب التهذيب) .

فيروى أَن الله تعالى بثَّ في الدنيا أَلف نوع من الحيوان ، منها أَربعمائة في البَرِّ وستمائه في البحر ، وقال عطاءٌ أَيضاً : السَّابحاتُ : السُّفن ، وقال مجاهد أَيضاً : السَّابحات : المنايا تسبح في نفوس الحيوان .

واختلف في « السَّابِقاتِ » ، فقال مجاهد : هي الملائكة ، وقيل : هي الرياح ، وقال عطاءٌ : هي الخَيْل ، وقيل : النجوم ، وقيل : المنايا تسبق الآمال ، وقال الشاعر :

لاَ أَرَى الْموتَ يَسْبِقُ الْمَوْتَ شيءٌ (١)

وأَمَّا « الْمُدَبِّرَاتُ » فلا أَحفظ خلافاً أَنها الملائكة ، ومعناها أَنها تدبِّر الأَمور التي يسخرها الله تعالى لها وصرَّفها فيها كالرياح والسحاب وسائر المخلوقات .

قال ابن زيد : « الرَّاجفةُ » : الأَرض بأَهْلها ، تهتزُّ بنفخة الصُّور الأُولى ، وقيل : الرَّاجفة النفخة نفسها ، و « الرَّادفة » النفخة الأُخرى ، ويروى أَن بينهما أَربعين سنة ، وقال عطاءٍ : الراجفةُ القيامة ، والرادفة البعث ، وقال ابن زيد : الراجفةُ الموتُ ، والرادفة الساعةُ ، وقال أُبَيُّ ابن كعب : كان النبي صلى الله عليه وسلم إِذا ذهب ربع الليل قام وقال : (يأَيُّها الناس اذكروا الله ، جاءَت الراجفة ، تتبعها الرادفة ، جاءَ

(١) يعني أن الموت يسبق أفكار الناس وآمالهم وتخطيطهم للغد ، ولم أَقف على قائله ولا بقيته .

الموتُ بما فيه)(١) .

ثم أَخبر تعالى عن قلوب تجف ذلك اليوم ، أَي ترتعد خوفاً وفَرَقاً من العذاب ، ووجيف القلب يكون من الفزع ، ويكون من الإشفاق ، ومنه قول الشاعر قيس بن الخطيم :

إِنَّ بَني جَحْجَبَى وَأُسْرَتَهُـــمْ أَكْبادُنَا مِنْ وَرَائِهِمْ تَجِفُ(٢)

ورُفع [قُلُوبٌ] بالابتداءِ ، وجاز ذلك وهو نكرة لأَنها قد تخصصت

---

(١) أَخرجه أَحمد ، والترمذيُّ وحسَّنه ، وعبد بن حميد، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن أُبي بن كعب ، ذكر ذلك في الدَّر المنثور ، ولفظه كما جاء فيه (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب رُبع الليل قام فقال : يأَيُّها الناس ، اذكروا الله ، اذكروا الله ، جاءت الراجفة ، تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه) .

(٢) هكذا ورد البيت في الأصول ، ولكن في الديوان نجد الشطر الأول في بيت مع اختلاف في الألفاظ ، وهو :

أَبْلِـغْ بَني جَحْجَبَى وَقَوْمَهُـمُ خَطْمَةَ أَنَّـا وَراءَهُمْ أُنُـفُ

وجَحْجَبَة وخَطْمَة حيان لقبيلة قيس بن الخطيم ، لأنه أوسيٌّ ، وفي رواية (أَبلغْ بني مَذْحِجٍ وقومهم)، وفي الأغاني: (وإِخْوتَهم .. زيداً بأَنَّا)، ومعنى البيت نأنف من ورائهم . ثم نجد الشطر الثاني في بيت آخر بعد بيتين من الأول ، وهو :

إِنَّـا وَلَوْ قَدَّموا الَّتي عَلِمُـوا أَكْبادُنَا مِنْ وَرَائِهِمْ تَجِـفُ

وفي الأصمعيات (الذي علموا) ، وفي الأغاني (إِنَّا وَإِنْ قَلَّ نَصْرُنَا لَهُمُ)، وتجف : تضطرب وتخفق ، يقال : وجف القلب : خفق ، وهذا هو موضع الاستشهاد هنا . ومعنى البيت : إنهم وإن كانوا قد قدَّموا ما قدَّموا من أَعمال يعرفونها وننكرها عليهم فإننا نشفق عليهم من وراء غيبهم .

بقوله تعالى : [يَوْمَئِذٍ] [١] .

واختلف الناس في جواب القسم ، أين هو ؟ فقال الفراءُ والزجاج : هو محذوف دلَّ الظاهر عليه ، تقديره : لَتُبْعَثُن أَو لَتُعاقَبُنَّ يوم القيامة ، وقال بعض النحاة : هو في قوله تعالى : (إِنَّ في ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى) ، وهذا ضعيف لِبُعْد القول ، ولأَن المعنى هنالك يستحق « أَنَّ » ، وقال آخرون : هو في قوله تعالى : [يَوْمَ] على تقدير حذف اللام ، كأنه تعالى قال : لَيَوْمَ ، وقال آخرون : هو موجود في جملة قوله تعالى : (يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ...... قُلوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ) ، كأنه تعالى قال : لَتَجِفَنَّ قلوب يوم كذا ، ولما دلَّت القلوب على أَصحابها ذكر بعد ذلك أَبصارها وخشوعها ، ذُلَّها وما يظهر منها من الهم بالحال .

وقوله تعالى : [يَقولونَ] هي حكاية حالهم في الدنيا ، معناه : هم الذين يقولون ، وقولهم : « أَئِنَّا » هو على جهة الاستخفاف والعجب والتكذيب ، وقرأَ ابن أَبي إِسحق ، وابن يَعْمَر : [آئِنَّا] بهمزتين ومَدَّة ، على الاستفهام ، وقرأَ جمهور القراءِ : [أَينَّا] باستفهام وهمزة واحدة .

و « الحافِرَةُ » لفظة توقعها العربُ على أَوَّل أَمر رُجع إِليه من آخره ،

---

(١) حكى أبوحيان في البحر هذا عن ابن عطية، ثم عقَّب بقوله : « ولا تتخصَّصُ الأجرامُ بظروف الزمان ، وإنَّما تخصَّصت بقوله تعالى : (وَاجِفَةٌ) » .

يقال : عاد فلانٌ في الحافرةِ إذا ارتكس في حالٍ من الأَحوال ، ومنه قول الشاعر :

أَحـافِرَةً عَلَى صَلَعٍ وَشَيْبٍ ؟ مَعاذَ اللهِ مِنْ سَفَهٍ وَعارِ (١)

والمعنى : أئِنَّا لمردودون إلى الحياة بعد مفارقتها بالموت ؟ وقال مجاهد والخَليل : الحافرة الأَرضُ ، فاعِلَةٌ بمعنى مفعولة ، وقيل : بل هو على النَّسب ، أي ذات حفر ، والمراد القبور لأَنها حُفرت للموتى ، فالمعنى : أئِنَّا لمردودون أحياءً في قبورنا ؟ وقال زيد بن أسلم : الحافرةُ النارُ ، وقرأ أبو حيوة : (في الْحَفِرَةِ) بغير ألف ، فقيل : هو بمعنى الحافرة ، وقيل : هي الأَرض الْمنْتنة المتغيرة بأجساد موتاها ، من قولهم : حُفرت أَسنانُه إذا تآكلت وتغيَّر ريحها .

و « النَّاخِرَةُ » : الْمُصوِّتَةُ بالريح الْمُجَوَّفَةُ ، ومنه قول الشاعر :

وَأَخْلَيْتُها مِنْ مُخِّها فَكَأَنَّهـا قَوارِيرُ في أَجْوافِهَا الرِّيحُ تَنْخُرُ (٢)

---

(١) البيت في اللسان ، والطبري ، والقرطبي ، والكشاف ، وفتح القدير ، والبحر المحيط ، وهو غير منسوب ، والرواية في الطبري : « من سَفَهٍ وطيش » ، يقال : رجع عَلَى حافِرَتِهِ ، أي الطريق الذي جاء منه ، ومعنى البيت : أأرْجع إلى ماكنتُ عليه في شبابي من الغزل واللهو وفعل العار بعد أن شبْتُ وصَلِعْتُ ؟

(٢) لم يذكر هذا البيت أحد من المفسرين غير ابن عطية وصاحب « البحر المحيط » ، والمُخُّ : نقْيُ عظام القَصَب ، والقواريرُ : جمع قارورة ، وهي وعاءٌ من زجاج يستقرُّ فيه الشراب ، وتَنْخُرُ : تُصَوِّتُ صوتاً يشبه صوت الأنف ، يقول : إنه أفرغها من مخها فأصبحت خالية كأنها القوارير التى تصوِّت فيها الريح .

وروي : تَصْفِرُ . و [نَاخِرةً] هي قراءة حمزة ، وعاصم ، في رواية أَبي بكر - وعمر بن الخطاب ، وابن مسعود ، وأُبَيٍّ بن كعب ، وابن عباس ، وابن الزبير ، ومسروق ، ومجاهد ، وجماعة سواهم ، وقرأ الباقون ، وحفص عن عاصم ، وعمر بن الخطاب ، وعلي بن أَبي طالب ، وابن مسعود ، والحسن ، والأَعرج ، وأَبو رجاءٍ ، وأَبو جعفر ، وشيبة ، وأَبو عبد الرحمن ، وابن جبير ، وأَهل مكة ، وشبل ، وقتادة ، وأَيوب ، والنَّخَعي ، وابن وثاب : [نَخِرَةً] دون أَلف بعد النون ، ومعناه : باليةٌ متعفنة قد صارت رميما ، يقال : نخر العودُ والعْظمُ إِذا بَلِيَ وصار يتفتَّتُ ، وحُكي عن أَبي عبيدة ، وأَبِي حاتم ، والفراءِ ، وغيرهم أَن النَّاخرة والنَّخِرةَ بمعنى واحد ، كطامِع وطَمِع ، وحاذِرٍ وحَذِر ، والأَكثر من الناس على ما قدمناه ، قال أَبو عمرو بن العلاءِ : النَّاخِرَةُ التي لم تنخر بَعْد ، والنَّخِرَةُ التي قد بَلِيَت .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾

ذكر الله تعالى عنهم قولهم : (تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خاسِرَةٌ) ، وذلك أنهم لتكذيبهم بالبعث وإنكارهم قالوا : لو كان هذا حقًّا لكانت كرَّتنا ورَجْعَتُنا خاسرة ؛ إِذْ هي إلى النار ، وقال الحسن : [خَاسِرَة] معناه : كاذبة ، أي ليست بكافية ، ورُوي أن بعض صناديد قريش قال ذلك .

ثم أخبر الله تعالى عن حال القيامة فقال : (إِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ) ، أي نفخة في الصُّور ، فإذا الناس قد نشروا وصاروا أحياءً على وجه الأَرض ، وفي قراءة عبد الله : « فإنما هي وقعة واحدة » ، و « الساهرة » وجه الأَرض ، ومنه قول أُمَيَّة بن أَبي الصلت :

وَفيها لَحْمُ ساهِرَةٍ وَبَحْـــرٍ وَمَا فاهُوا بِـهِ لَهُمُ مُقيمُ(١)

وقال وهب بن مُنَبِّه : السَّاهرة جبلٌ بالشام يمدُّه الله تعالى لحشر الناس يوم القيامة كيف شاءَ ، وقال أَبو العالية وسفيان : السَّاهرةُ أَرضٌ قريبة من بيت المقدس ، وقال قتادة : السَّاهرة جهنم لأَنه لا نوم لمن فيها ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : السَّاهرةُ أَرض مكة ، وقال الزهري : السَّاهرة الأَرض كلها .

---

(١) هذا البيت من شواهد أبي عبيدة في مجاز القرآن ، وهو في اللسان ، والطبري ، والقرطبي والبحر المحيط ، وفتح القدير ، ومعاني القرآن ، والساهرة : الأرض ، قال الفراءُ : سُمِّيت بذلك لأن فيها الحيوان نَوْمَهم وسَهَرَهم ، ومُقيم : دائمٌ حاضر عندهم ، يقول في وصف الجنة : إن فيها من اللحم من صيد الأرض ولحم البحر ، وكل ما فاهت به أفواههم وجدوه حاضراً مقيماً عندهم .

ثم وقف تعالى نبيَّه محمداً صلى الله عليه وسلم على جهة جمع النفس لتلقي الحديث ، فقال تعالى : (هَلْ أَتاكَ حَديثُ مُوسَى) الآية . و « الوادي المقدس » وادٍ بالشام ، قال منذر بن سعيد : هو بين المدينة ومصر ، وقرأ الحسن بن أَبي الحسن ، والأَعمش ، وابن أَبي إسحق ، وقعنب : [طِوًى] بكسر الطاء مُنَوَّنة ، ورويت عن عاصم ، وقرأَ الجمهور : [طُوىً] بضم الطاءِ ، وأَجرى بعض القراءِ [طُوى] ، وترك إجراءَه ابن كثير ، وأَبو عمرو ، ونافع ، والحسن ، وجماعة وقد تقدم شرح هذه اللفظة في سورة طه (١) .

وقوله تعالى : [ٱذْهَبْ] تفسير النداءِ الذي ناداه ربُّه ، ويحتمل أَن يكون المعنى : قال له اذهب ، وفي هذه الأَلفاظ استدعاءٌ حَسَن ، وذلك أَنه أُمر أَن يقول له: (هَلْ لَكَ إِلَىَ أَنْ تَزَكَّى) ، وهذا قولٌ جوابُ كلِّ عاقل عنده : نَعَم أُريد أَن أَتَزَكَّى ، والتَّزَكِّي هو التَّطهر من النقائص والتَّلبس بالفضائل ، وفسَّر بعضهم [تَزَكَّى] بـ « تُسْلِم » ، وفسَّرها بعضهم بقول « لا إله إلاَّ الله » ، وهذا تخصيص ، وما ذكرناه يَعُمُّ كل هذا ، وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ : [تَزَّكَّى] بشدِّ الزاي ، وقرأَ الباقون : [تَزَكَّى] بتخفيف الزاي .

ثم أَمر [الله تعالى] (٢) موسى عليه السلام بأن يفسِّر له التَّزكي الذي

(١) راجع صفحة (١٠) من الجزء العاشر .
(٢) ما بين العلامتين زيادة للتوضيح .

دعاه إليه بقوله : (وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ) ، والعلم تابع للهدى ، والخشية تابعة للعلم ، (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)[١] .

و « الآيةُ الكبرى » العَصَا واليَدُ ، قاله مجاهد وغيره ، وهما قَصَب موسى عليه السلام للتحدي[٢] ، فوقعت المعارضة في الواحدة ، وانغلب فيها فريق الباطل . وقال بعض المفسرين : (أَدْبَرَ يَسْعَىٰ) حقيقة ، قام من موضعه مولِّيا فارًّا بنفسه من مجالسة موسى عليه السلام ، وقال الجمهور : [أَدْبَرَ] كناية عن إعراضه عن الإيمان ، و [يَسْعَىٰ] معناه : يجتهد على أَمر موسى عليه السلام[٣] والرَّدِّ في وجه شرعه .

وقوله تعالى : [فَحَشَرَ] معناه : جمع أَهل مملكته ، ثم ناداهم بقوله : (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ) ، ورُوي عن ابن عباس أَنه قال : المعنى : فنادى فحشر ، وقوله : (أَنا رَبُّكُم الأَعْلَىٰ) نهاية في المَخْرفة ، ونحوها باق في ملوك مصر وأَتباعهم .

---

(١) من الآية (٢٨) من سورة (غافر) .

(٢) هذا من قولهم : « أَحرز قَصَبَ السبْق » ، إذ أَنهم كانوا يَنْصُبون في حلبة السباق قَصبة فمن سبق أَخذها ليُعْرف أَنَّه السابق .

(٣) اختلفت النسخ الأَصلية في هذه الجملة ، ففي بعضها : « يجتهد على أمر موسى » ، وفي بعضها : « يروم جُلَّ أمر موسى » ، وفي بعضها : « يتَحزَّم أمر موسى » :

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾

[نَكَالَ] منصوبٌ على المصدر ، وقال قوم : « الآخِرَةُ » قولُه : (ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰه غَيْري) ، و « الأُولَى » قوله : (أَنَا رَبُّكُمُ ٱلأَعْلى) ، وروي أنه مكث بعد قوله (أَنَا رَبُّكُمُ ٱلأَعْلَى) أَربعين سنة ، وقيل : كانت هذه المدة بين الكلمتين ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « الأُولَى » قوله : (ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْري) ، و « الآخرة » قوله : (أَنا رَبُّكُمُ ٱلأَعْلَى) ، وقال ابن رُزَين : الأُولَى كُفْره وعصيانُه ، والآخرةُ قولُه : (أَنا رَبُّكُمُ ٱلأَعْلَى) ، وقال ابن زيد : الأَولى الدنيا ، والآخرةُ الدارُ الآخرة ، أَي : أَخذه الله تعالى بعذاب جهنم وبالغرق في الدنيا ، وقال مجاهد : هذه عبارةٌ عن أَول معاصيه وكُفْره وآخرِها ، أَيْ نكَّل بالجميع ، و [نَكَالَ] نصب على المصدر ، والعامل فيه على

رأَي سيبويه [أَخَذَ] ؛ لأَنه في معناه ، وعلى رأَي أَبي العباس المبرد فِعْلٌ مضمر من لفظ « نكال » ، كأنه قال : نَكَّله نَكَالَ .

ثم وقف تعالى على موضع العبرة بحال فرعون ، وتعذيبه ، وفي الكلام وعيد للكفار المخاطبين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم وقفهم مخاطبة منه تعالى لجميع العالم ، والمقصد الكفار ، ويحتمل أَن يكون المعنى : قل لهم يامحمد : (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً) الآية . وفي هذه الآية دليل على أَن بعث الأَجساد من القبور لا يتعذَّر على قدرة الله تعالى ، و « السَّمْكُ » الارتفاع الذي بين سطح السماءِ الأَسفل الذي يلينا وبين سطحها الأَعلى الذي يلي ما فوقها ، وقوله تعالى : [فَسَوَّاها] يحتمل أَن يريد : خلقها ملساءَ مستويةً ليس فيها مرتفع ومنخفض ، ويحتمل أَن يكون عبارة عن إِتقان خلقها ، ولا يقصد معنى امِّلاس سطحها ، والله تعالى أَعلم كيف هي .

و [أَغْطَشَ] معناه : أَظْلَم ، والأَغْطَشُ : الأَعمى ، ومنه قول الشاعر :

نَحَرْتُ لَهُمْ مَوْهِناً نَاقَـــتِي وَلَيْلُهُـــمْ مُدْلَهِـــمٌّ غَطِـــشْ[1]

---

(١) البيت للأعشى ، وقد ذكره في القرطبي ، والرواية فيه :
عَقَرْتُ لهُمْ مَوْهِــناً نــاقَــــتِي وَغامِرُهُم مُدْلَهِمٌّ غَطِـــش
كذلك استشهد بالشطر الثاني صاحب فتح القدير ، واللفظ فيه كاللفظ في القرطبي . وعقَر =

ونسب الليل والضحى إليها من حيث هما ظاهران منها وفيها .

وقوله تعالى : (وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحاهَا) متوجِّهٌ على أن الله تعالى خلق الأرض ولم يَدْحُها ، ثم استوى إلى السماءِ وهي دخان فخلقها وبناها ، ثم دحا الأرض بعد ذلك ، وقرأ مجاهد : « والأَرْضَ مَعَ ذَلِكَ » ، وقال قوم : إن (بَعْدَ ذَلِكَ) معناه : مع ذلك ، والذي قلناه مترتب عليه آيات القرآن كلها ، ونسب الماءَ والمرعى إلى الأرض من حيث هما منها يظهران ، ودَحْو الأرض : بَسْطُها ، ومنه قول أُمَيَّة بن أبي الصلت :

دَارٌ دحـاها ثُمَّ أَسْكَنَنَا بِهـا وَأَقامَ بالأُخْرى التَّي هي أَمْجَدُ(١)

وقرأ الجمهور : [والأَرْضَ] نصبا ، وقرأ الحسن ، وعيسى : [وَالأَرْضُ] بالرفع ، وقرأ الجمهور : (وَالْجِبالَ أَرْساهَا) نصباً ، وقرأ الحسن ، وعمرو بن عبيد : [وَالْجِبالُ] رفعا . و [أَرْسَاهَا] معناه : أثبتها ، وجميع هذه النعم إذا تُدُبِّرت فهي متاعٌ للناس والأنعام ، يتمتعون فيها وبها . وقرأ الجمهور : [مَتاعاً] بالنصب ، وقرأ ابن أبي عبلة : [مَتاعٌ] بالرفع .

= الناقة : قطع إحدى قوائمها لتسقط فيتمكن من ذبحها ، ثم درج العُرف على استعمال العَقْر في الذبح ، والموهن : نحو نصف الليل أو بعد ذلك بساعة ، والغامرُ هو الليل لأنه يغمر الناس ويغطيهم ، ومُدْلَهِمٌّ : كثيف الظلام ، وغَطِش : شديد الظلام، وهو موضع الاستشهاد هنا .

(١) ويروى : « ثُمَّ أَعْمَرَنَا بها » ، وهي في الطبري ، والدَّحْو هو البسط ، يقال : دَحَا الأرض دَحْواً : بَسَطها ، وهذا التعبير كثير مطروق في الشعر العربي ، قال زيد بن عمرو ابن نُفيل :

دَحَـاهـا فلَمـَّا رَآهـا اسْتَوَتْ عَلَى المَاء أَرْسَى عَلَيْها الْجِبَالاَ

و « الطَّآمَّةُ الكُبْرَى » هي القيامة ، قاله ابن عباس ، والضحاك ، وقال الحسن ، وابن عباس أيضاً : النفخة الثانية ، وقوله تعالى : (مَاسَعَى) معناه : ما عمِل من سائر عمله ، ويتذكر ذلك بما يرى من جزائه . وقرأ جمور الناس : [وَبُرِّزَتِ] بضم الباءِ وشد الراءِ المكسورة ، وقرأ عكرمة ، ومالك بن دينار ، وعائشة رضي الله عنها : [وَبَرَزَت] بفتح الباءِ والراءِ ، وقرأ جمهور الناس : (لِمَنْ يَرَى) بالياء ، أي : لمن يُبصر ويُحصِّل ، وقرأ عكرمة ، ومالك بن دينار ، وعائشة رضي الله عنها : (لِمَنْ تَرَى) بالتاءِ ، أي : تراه أنت يامحمد ، فالإشارة إلى كُفَّار مكة ، أو إشارة إلى الناس والقصد كُفار مكة ، ويحتمل أن يكون المعنى : لمن تراه الجحيم ، كما قال تعالى : (إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعيدٍ)[1] ، وقرأ ابن مسعود : « لِمَنْ رأى » على فعل ماض .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾

(١) من الآية (١٢) من سورة (الفرقان) .

[طَغَى] معناه : تجاوز الحدود التي ينبغي للإنسان أن يقف عندها ، و (آثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيا) عَلَى الآخِرَةِ لتكذيبه بالآخرة ، و « الْمَأْوى » المنزلُ والمسكن حيث يأوي المرءُ ويلازم . و « مَقَام ربه » هو يوم القيامة وإنما المراد : مَقَامُ بَيْن يدي ربه ، فأضاف المقام إلى الله تعالى من حيث هو بين يديه ، وفي ذلك تفخيمٌ للمقام وتعظيم لهوله وموقعه من النفوس ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : المعنى : خافه عند المعصية فانتهى عنها . و « الْهَوَى » هو شهوات النفس وما جرى مجراها ، وأكثر استعماله إنما هو في غير المحدود ، قال سهل التَّسَتُّري : لا يسلم من الهوى إلا الأنبياءُ عليهم السلام وبعض الصديقين ، وقال بعض الحكماء : إذا أردتَ الصواب فانظر هواك فخالفه ، وقال الفَضْلُ بن عياض : أفضل الأعمال خلاف الهوى .

قوله تعالى : (يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ) الآية ... نزلت بسبب أن قريشاً كانت تُلح في البحث عن وقت الساعة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرهم بها ويتوعدهم بأمرها ويكثر من ذلك ، و (أَيَّانَ مُرْساها) معناه : مَتَى ثُبوتها ووقت رسوها ، أي ثُبوتها ، كأنه شيءٌ يسير إلى غاية مَّا ثم يقف كما تفعل السفينة التي ترسو ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي : [إِيَّانَ] بكسر الألف .

ثم قال تعالى لنبيِّه عليه السلام ـ على جهة التوقيف ـ : (فِيمَ أَنْتَ

مِنْ ذِكْرَاهَا) ، أَي : من ذكر تحديدها ووقتها ، أَي : لسْتَ من ذلك في شيءٍ ، (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ) ، وقالت عائشة رضي الله عنها : كان النبي صلى الله عليه وسلم يَسْأَل عن الساعة كثيراً ، فلما نزلت هذه الآية انتهى (١) . وقرأَ أَبو جعفر ، وعمر بن عبد العزيز ، وأَبو عمرو – بخلاف – وابن محيصن ، والأَعرج ، وطلحة ، وعيسى : [مُنْذِرٌ] بالرفع بتنوين « مُنْذر » ، وقرأَ جمهور القراءِ : (مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا) بإِضافة [مُنْذِرُ] إِلى [مَنْ] .

ثم قرَّب تعالى أَمْر السَّاعة بإِخباره أَن الإِنسان عند رؤيته إِيَّاها يظن أَنه لم يلبث إِلاَّ عشيَّة يومٍ أَوْ بُكْرته ، فأَضاف « الضُّحىَ » إِلى « العَشِيَّة » من حيث هما طرفان للنهار ، وقد بدأَ بذكر أَحدهما فأَضاف الآخَر إِليه تجَوُّزاً وإِيجازاً (٢) .

كمل تفسير سورة النازعات والحمد لله رب العالمين

---

(١) أَخرجه البَزَّار ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن عائشة رضي الله عنها ، وأَخرجه سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، وابن أَبي حاتم ، وابن مردويه عن عروة مرسلاً .

(٢) قال الفراءُ في معاني القران : « يقول القائل : وهل للعشيِّ ضُحى ؟ إنما الضُّحى لصدر النهار ، فهذا بيِّن ظاهر من كلام العرب أن يقولوا : آتيك العَشِيَّةَ أَو غَدَاتَها ، وآتيك الغَداةَ أَو عشيَّتَها ، وأنشدني بعض بني عقيل :

نَحْنُ صَبَحْنَا عامراً في دارِهَا عَشِيَّةَ الهِلالِ أَوْ سَرارِهَا

أَراد : عَشِيَّة الهلال أَو عَشِيَّة سَرار العَشِيَّة ، فهذا أَسَدُّ من آتيك الغداةَ أَو عشِيَّتَها » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٨٠) سُورَةُ عَبَسَ مَكِّيَّة وآياتها ثنتان وأربعون

تفسير سورة عبس*

وهي مكية كلها بإجماع من المفسرين .

وقصص هذه السورة التي لا تفهم الآية إلاَّ به أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد الحرص على إسلام قريش وأَشرافهم ، وكان يتحَفَّى بدعائهم إلى الله تعالى ، فبينا هو يوماً مع رجل من عظمائهم – قيل : هو الوليد بن المغيرة المخزومي ، وقيل : عتبة بن ربيعة ، وقيل : شيبة ، وقيل : العباس ، وقيل : أُمَيَّةُ بن خلف ، وقيل : أُبَيُّ بن خلف وقال ابن عباس : كان في جمع منهم ، فيهم عُتْبة والعباسُ وأَبو جهل – إِذْ أَقبل عبد الله بن أُمِّ مكتوم القرشي الفهري من بني عامر بن لُؤَي ، وهو رجل أَعمى ، يقوده رجل آخر ، فأَومأَ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قائده أَن يُؤَخره عنه ، فَفَعَل ، فدفعه عبد الله وأَقبل نحو رسول

* قال الشوكاني في فتح القدير : « وتُسمى سورة السَّفَرة » .

الله صلى الله عليه وسلم وقال : اسْتَدْنني يامحمد ، علِّمني مما علَّمك الله ، فكان في ذلك كلِّه قطع لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الرجل المذكور من قريش ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قرأ عليه القرآن وقال له : أترى بما أقول بأساً ؟ فكان ذلك الرجل يقول : لا والدُّمَى - يعني الأَصنام - ويروى : لا والدِّمـا - يعني الذبائح التي للأَصنام - ، فلما شغب عليه أمر عبد الله بن أُمِّ مكتوم عبس وأَعرض عنه ، وذهب ذلك الرجل ، فيروى أن النبي صلى الله عليه وسلم انصرف إلى بيته فَلُوِيَ رَأْسُه وشخص بصره وأُنزلت عليه السورة (١) . قال سفيان الثوري : فكان بعد ذلك إذا رَأَى ابنَ أُمِّ مكتوم قال: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي عزَّ وجل ، وبَسَط له رِدَاءَه ، قال أَنس بن مالك : رأَيتُهُ يوم القادسية وعليه دِرْعٌ ومعه رايةٌ سوداءِ ، واستخلفه النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة مرتين .

(١) ذكره الواحديُّ في (أسباب النزول) ، وأخرج الترمذيُّ وحسَّنه ، وابن المنذر ، وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : أُنزلت سورة عبس وتولىَّ في ابن أُمِّ مكتوم الأعمى ، وساقت الخبر ، وأخرج مثلَه عبد الرزاق ، وعبد ابن حميد ، وأبو يَعْلَي ، عن أنس رضي الله عنه ، وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يناجي عُتبة بن ربيعة ، والعباس بن عبد المطلب ، وأبا جهل بن هشام ، وكان يتصدى لهم كثيراً ، ويحرصُ أن يؤمنوا فأقبل إليه رجل أعمى ، .... وساق القصة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾

العُبُوس : تقطيب الوجه وارْبدادُه عند كراهية أَمر ، وفي مخاطبته صلى الله عليه وسلم بلفظ ذكر الغائب مبالغة في العتب ، لأَن في ذلك بعض الإِعراض ، وقال كثير من العلماءِ ، وابن زيد ، وعائشة وغيرهما من الصحابة : لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً من الوحي لَكَتَم هذه الآيات وآيات قصة زيد وزينب بنت جحش . و « التَّوَلِّي » هنا الإِعراضُ ، و [أَنْ] مفعول من أَجله . وقرأَ الحسن : (آنْ جاءَهُ) بمَدَّةٍ تقرير وتوقيف ، والوقف ـ على هذه القراءَة ـ على [تَوَلَّى] ، وهي قراءة عيسى (١) . وذكر الله تعالى ابن أُمِّ مكتوم بصفة

(١) الذي في البحر المحيط أن الحَسَن ، وأبا عمران الجوني ، وعيسى قرءوا بهمزةٍ ومدَّةٍ بعدها . وفي المحتسب (آنْ جاءَهُ (بالمد) .

العمى الذي شأن البشر احتقاره ، وبَيَّن أَمره بِذِكْر ضده من عُتُوِّ ذلك الكافر ، وفي هذا دليلٌ على أن ذكر هذه العاهاتِ ـ متى كانت لمنفعة ، أَو أَن شُهرتها تعرِّف السامع صاحبها دون لبس ـ جائزٌ ، ومنه قول المحدِّثين سليمان الأَعمش ، وعبد الرحمن الأَعرج ، وسالم الأَفطس ، ونحو هذا ، ومتى ذكرت هذه الأَشياءُ على جهة التَّنَقُّص فتلك الغِيبَة ، وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها تذكر امرأة ، فقالت : إنها لقصيرة ، فقال عليه الصلاة والسلام : (لقد قلت كلمة لو مزجت بالبحر لمزجته)(١) .

ثم خاطب تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بالعتْب فقال : (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَه الذِّكْرَى) . أَي : وما يطلعك على أمره وعُقبي حاله ؟ ثم ابتدأ القول : (لَعَلَّهُ يَزَّكَّى) ، أَي : تنمو بركتُه ويتطهَّر لله تعالى وينفعُ إيمانه . وأَصل « يَزَّكَّى » : يَتَزَكَّى ، فأدغم التاءَ في الزاي ، وكذلك « يذَّكَّر » . وقرأ الأَعرج : [يَذْكُر] بسكون الذال

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ، والترمذي في القيامة ، وأحمد في مسنده (١٨٩/٦) ، ولفظه كما في مسند أحمد : عن أبي حذيفة ، وكان من أصحاب عبدالله ، وكان طلحة يحدث عنه ، عن عائشة قالت : (حكيت للنبي صلى الله عليه وسلم رجلا ، فقال : ما يسرني أني حكيت رجلاً وأن لي كذا وكذا ، قالت : فقلت : يارسول الله ، إن صفية امرأةٌ ـ وقال بيده كأنه يعني قصيرة ـ فقال : لقد مزجتِ بكلمة لو مُزِج بها ماءُ البحر مُزِجت) ، قال عبد الله ـ ابن الإمام أحمد ـ : وجدت هذا الحديث في كتاب أبي بخط يده .

وضم الكاف ، ورويت عن عاصم ، وقرأ جمهور السبعة : (فَتَنْفَعُهُ] بضم العين على العطف ، وقرأ عاصم وحده(١) ، والأعرج : [فَتَنْفَعَهُ] بالنصب في جواب التَّمني ؛ لأن قوله تعالى : (أَوْ يَذَّكَّرُ) في حكم قوله سبحانه : (لَعَلَّهُ يَزَّكَّى) .

ثم أكَّد تعالى عتب نبيِّه صلى الله عليه وسلم بقوله : (أَمَّا مَن اسْتَغْنَى) ، أي بمالِهِ ، و [تَصَدَّى] معناه : تتعرض بنفسك ، وقرأ ابن كثير ، ونافع : [تَصَّدَّى] بشد الصاد ، على إدغام التاء ، وقرأ الباقون ، والأعرج ، والحسن ، وأبو رجاءٍ ، وقتادة ، وعيسى ، والأعمش [تَصَدَّى] بتخفيف الصاد ، على حذف التاء ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع : [تُصَدَّى] بضم التاء وتخفيف الصاد ، على بناء الفعل للمفعول ، أي : يُصَدِّيك حرصُك على هؤلاءِ الكفار أن يسلموا ، تقول : تَصَدى الرجلُ وصَدَّيته ، كما تقول : تَكَسَّب وكَسَّبْته ، ثم قال تعالى تحقيراً لشأن الكفار : (وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى) ، أي : وما يضرك ألاَّ يفلح ؟ فهذا حضٌّ على الإعراض عن أمرهم ، وترك الاكتراث بهم .

ثم قال تعالى مبالغاً في العَتْب : (وَأَمَّا مَنْ جاءَك يَسْعى) ، أي يمشي ، وقيل : المعنى : يسعى في شئونه وأَمْر دينه وتَقَرُّبه منك ، وهو يخشى الله تعالى ، (فَأَنْت عَنْهُ تَلَهَّى) ، أي : تشتغل ، تقول : لَهِيتُ عن

(١) أي من القراء السبعة ، وإلاَّ فقد قرأ بها الأعرج .

الشيءِ أَلْهَى إذا اشتغلت ، وليس من اللَّهو الذى هو من ذوات الواو ، أَمَا إنَّ المعنى يتداخل . وقرأَ الجمهور من القراءِ : [تَلَهَّى] بفتح التاءِ ، على حذف التاءِ الواحدة ، وقرأَ ابن كثير – فيما رُوي عنه – : [تَّلَهَّى] بالإِدغام ، وقرأَ طلحة بن مصرف : [تَتَلَهَّى] بتاءَيْن ، وروي عنه [تَلْهَى] بفتح التاءِ وسكون اللام وتخفيف الهاءِ المفتوحة ، وقرأَ أَبو جعفر ابن القعقاع : [تُلَهَّى] بضم التَّاءِ [(١)] ، أَي يُلهيك حرصك على أُولئك الكفار ، وفي حديث النبي صلَّي الله عليه وسلم : (وَمَا اسْتَأْثَرَ الله بعلمه فَالْهَ عنه) [(٢)] وقوله تعالى في هاتين : (أَمَّا مَنْ) ، (وَأَمَّا مَنْ) فالسبب ما ذكر من كفار قريش وعبد الله بن أُمِّ مكتوم ، ثم هي بَعْدُ تتناول من شَرِكَهم [(٣)] في هذه الأَوصاف ، فحملة الشرع والعلم والحكام مخاطبون في تقريب الضعيف من أَهل الخير ، وتقديمه على الشريف العاري من الخير ، بِمِثْل ما خوطب النبي صلى الله عليه وسلم في هذه السورة .

ثم قال تعالى : [كلاَّ] يامحمد ، أَي : ليس الأَمر في حقِّه كما فعلتَ ، إن هذه السورة والقراءة التي كنت فيها مع ذلك الكافر تذكرةٌ لجميع العالم ، لا يُؤْثر فيها أَحد دون أَحد ، وقيل : المعنى : إِن هذه

---

(١) أَما ضبط اللام والهاء فقد أَخذناهما عن المحتَسب .

(٢) وجدت هذا الحديث في كتاب النهاية لابن الأثير ، وفي لسان العرب – أثر – واللفظ فيهما : (إذا استأثر الله بشيء فالْهَ عنه) ، ولم يذكرا شيئاً عن رواته ، واستأثر بالشيء : خص به نفسه ، ومعنى (إلْهَ عنه) : اتركه .

(٣) أي اشترك معهم فيها ، وشَرِكَ تأتي بمعنى شارك .

المَعْتَبَة تذِكَرةٌ لك يا محمد ، ففي هذا التأويل إجلالٌ لمحمد صلى الله عليه وسلم وتأنيسٌ له . وقوله تعالى : (في صُحُفٍ) متعلق بقوله سبحانه : (إنَّهَا تَذْكِرةٌ) ، وهذا يؤيد أَن التذكِرة يراد بها جميع القرآن ، وقال بعض المتأَولين : الصحف هنا اللوح المحفوظ ، وقيل : صحف الأَنبياءِ عليهم السلام الْمُنَزَّلةُ ، وقيل : مصاحف المسلمين .

واختلف الناس في « السَّفَرة » ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما : هم الملائكة لأَنهم كَتَبَةٌ ، يقال : سفرتُ أَي كتَبتُ ، ومنه السِّفْرُ[(١)] ، وقال ابن عباس أَيضاً رضي الله عنهما : الملائكة سَفَرة لأَنهم يسفرون بين الله تعالى وبين أَنبيائه ، وقال قتادة : هم القُراءُ ، وواحد السَّفَرة : سافِر ، وقال وهب بن مُنبِّه : هم الصحابة ؛ لأَن بعضهم يسفر إلى بعض في الخير والتعليم والتعلم ، والقول الأَول أَرجح ، ومن اللفظة قول الشاعر :

فَمَا أَدَعُ السِّفارة بَيْنَ قَوْمِي ... وَلاَ أَمْشِي بِغِشٍّ إنْ مَشَيْتُ[(٢)]

و « الصُّحفُ » ـ على هذا ـ صحفٌ عند الملائكة أَو اللوح ، وعلى القول الآخر هي المصاحف .

---

(١) هو الكتاب الكبير .

(٢) هذا البيت ذكره الفراء في معاني القرآن ، وهو في الطبري ، والقرطبي ، والبحر المحيط ، وفتح القدير ، مع اختلاف كبير في الشطر الثاني ، ولم ينسبه أحد منهم ، ويروى (وَمَا) بدلاً من (فَمَا) ، وكذلك يروى (وَمَا) بدلاً من (وَلاَ) ، و (ما أسعَى) بدلاً من (وما أمشي) ، يفتخر الشاعر بأنه سفير يصلح بين أبناء قومه .

وقوله تعالى : (قُتِلَ الإِنْسَانُ) دعاءٌ على اسم الجنس ، وهو عموم يراد به الخصوصُ ، والمعنى : قتل الإنسان الكافر ، ومعنى [قُتِلَ] : هو أَهل أَن يُدْعى عليه بهذا ، وقال مجاهد : [قُتِلَ] معناه : لعُن ، وهذا تحكُّم ، وقوله تعالى : (مَاأَكْفَرَهُ) يحتمل معنى التعجب ، ويحتمل معنى الاستفهام توقيفاً ، أَي : أَيُّ شيءٍ أَكْفَرَهُ ؟ أَيْ جعله كافراً .

وقيل : إن هذه الآية نزلت في عتبة بن أَبي لهب ، وذلك أَنه غاضب أَباه فأَتَى النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، ثم إنَّ أَباه استصلحه وأَعطاه مالاً وجهَّزه إلى الشام ، فبعث عتبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : إني كافر بربِّ النجم إذا هوَى ، فيروى أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (اللهَّم ابعث إليه كلبك حتى يأْكله) ، ويروى أَنه قال : (أَما يخاف أَن يُرسل الله عليه كلبه فيأكله) ، ثم إن عتبة خرج في سَفَر فجاءَ الأَسد فأكله من بين رفاقه [(١)] .

---

(١) قال الإمام السيوطي في الدر المنثور : « أخرج ابن المنذر عن عِكْرمة في قوله : (قُتِلَ الإنْسَانُ ما أَكْفَرَهُ) قال : نزلت في عتبة بن أَبي لهب حين قال : « كفرتُ بربِّ النجم إذا هوى ، فدعا عليه النبي صلى الله عليه وسلم فأخذه الأسد بطريق الشام » . وروى الضحاك هذا الخبر عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وذكر ذلك القرطبي .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ
يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ
مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾
ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾
وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَـٰعًا لَّكُمْ
وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾

قوله تعالى : (مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) استفهام على معنى التقرير على تفاهة الشيءِ الذي خَلَقَ الإِنسانَ منه ، وهي عبارة تصلح للتحقير وللتعظيم ، والقرينةُ تبيِّن الغرض ، وهذا نظير قوله تعالى : (لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ، لِيَوْمِ الْفَصْلِ)(١) ، و « النُّطفة » المشار إليها هي ماءُ الرجل وماءُ المرأة . وقرأ جمهور الناس : [فَقَدَّرَهُ] بشدِّ الدال ، وقرأ بعض القُراءِ : [فَقَدَرَهُ] بتخفيفها ، والمعنى : جعله بقدرٍ وحَدٍّ مَعْلوم من الأَعضاءِ والخُلُق والأَجل وغير ذلك من إنجابه حسب إرادته تعالى في إنسانٍ إنسانٍ .

واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى : (ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ) ـ فقال ابن عباس ، وقتادة ، وأَبو صالح ، والسدي : هي سبيل الخروج من

(١) الآيتان (١٢) ، (١٣) من سورة (المرسلات) .

بطن المرأة ورحمها ، وقال الحسن ما معناه : إنَّ السبيل هي سبيل النظر القويم المؤدي إلى الإيمان ، وتَيْسيرُهُ له هو هِبَةُ العقل ، وقال مجاهد : أراد السبيل عامة ، اسم الجنس في « هدى وضلال » ، أي : يَسَّر قوماً لهذا وقوماً لهذا ، كقوله تعالى : (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ، إِمَّا شاكِراً وَإِمَّاً كَفوراً)[1] .

وقوله تعالى : (ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ) معناه : أمر أن يُجعل له قبر ، وفي ذلك تكريم لئلا يطرح كسائر الحيوان ، والقابِرُ هو الذي يتناول جعل الميت في القبر ، والمُقْبر هو الذي يأمر بقبر الميت ويقرِّره . و [أَنْشَرَهُ] معناه : أحياه ، يقال : نَشَر الميِّتُ وأَنْشَرَهُ اللهُ ، وقوله تعالى : (إذا شاءَ) يريد : إذا بلغ الوقت الذي قد شاءه ، وهو يوم القيامة ، وقرأ بعض القراءِ : (إِذَا شاءَ أَنْشَرَهُ) بتحقيق الهمزتين[2] ، وقرأ جمهور الناس : (إِذَا شَا آنْشَرَهُ) بِمَدَّةٍ وبتسهيل الهمزة الأُولى ، وقرأ شعيب ابن أَبي حمزة[3] : (إِذَا شَاءَ نَشَرَهُ) ، وقرأ الأعمش : (إذا شَا أَنْشَرَهُ) بهمزة واحدة .

---

(١) الآية (٣) من سورة (الإنسان) .

(٢) في بعض النسخ : « بتخفيف الهمزتين » ، والصواب ما أثبتناه .

(٣) هذا يوافق ما في القرطبي ، ويؤكده أن صاحب البحر المحيط نقله عن ابن عطية هكذا : « وفي كتاب ابن عطية : وقرأ شعيب بن أبي حمزة » ، ولكن في المحتسب : « ومن ذلك قراءة شعيب بن أبي عمرة » بالعين والراء ، وأحسبه تصحيفاً . وشعيب هذا هو : أبو بشر بن دينار ، المعروف باسم : شعيب بن أبي حمزة الأموي ، قال عنه في تقريب التهذيب : « ثقة ، عابد ، مات سنة اثنتين وستين أو بعدها » .

وقوله تعالى : (كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ) ردٌّ لما عَسى أَن يكون للكفار من الاعتراضات في هذه الأَقوال المسرودة ، ونفي مؤكد لطاعة الإِنسان لربه ، وإِثباتٌ أَنه ترك حق الله تعالى ولم يقض أمره ، قال مجاهد : لا يقضي أَحد أَبداً ما افتُرض عليه . ثم أَمر تعالى الإِنسان بالعبرة والنظر إلى طعامه والدليل فيه ، وذهب أُبَيٌّ بن كعب ، وابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وغيرهم إلى أَن المراد : إلى طعامه إذا صار رجيعاً ليتأمل حيث تصير عاقبة الدنيا ، وعلى أَي شيءٍ يتفانى أَهلها ، وتستدير رحاها ، وهذا نظير ما روي عن ابن عمر أَن الإِنسان إذا أَحدث فإِن مَلَكاً يأخذ بناصيته عند فراغه فيردُّ بصره إلى نحوه مُوقِفاً له ومُعَجِّباً ، فينفع ذلك مَنْ له عقل ، وذهب الجمهور إلى أَن معنى الآية : فلينظر الإِنسان إلى مطعوماته وكيف يسَّرها الله تعالى له بهذه الوسائط المذكورة من صبِّ الماءِ وشق الأَرض ، ويُروى أَنَّ رجلاً أَضافه عابد ، فقدم إليه رغيفاً قَفَاراً(١) فكأَن الرجل استخشنه ، فقال له : كُلْه فإِن الله تعالى لمُ ينعم به وُيكَمِّله حتى سخَّر فيه ثلاثمائة وستين عاملاً ، الماءُ والريح والشمس ثلاثة من ذلك .

وقرأ عاصمٌ ، وحمزة ، والكسائي : (أَنَّا صَبَبْنَا) بفتح الأَلف على البدل ، وهي قراءة الأَعرج ، وابن وثاب ، والأَعمش ، وردَّ

---

(١) الخبزُ القَفَار : هو الخبز بدون إدام .

على هذا الإعراب قومٌ بأن الثاني ليس من الأول ، وليس كما ردُّوا ؛ لأن المعنى : فلينظر الإنسان إلى إنعامنا في طعامه ، فترتَّب البدل وصحَّ ، و [أَنَّا] في موضع خفض ، وقرأ الجمهور : (إِنَّا صَبَبْنَا) بكسر الألف على استئناف تفسير الطعام ، وقرأ بعض الناس : [أَنَّى] بمعنى كيف ، ذكرها أبو حاتم ، وصبُّ الماءِ هو المطر ، وشق الأرض هو بالنَّبات .

و « الحَبُّ » : جمع حَبَّةٍ ـ بفتح الحاء ـ وهو كل ما يتخذه الناسُ ويؤثرونه كالقمح والشعير ونحوه ، والحِبَّةُ ـ بكسر الحاءِ ـ كل ماينبت من البذور ولا يُحتفل به ولا هو بِمُتَّخَذٍ ، و « القَضْب » قال بعض اللغويين هو الفَصَافِص[١] ، وهذا عندي ضعيف لأن الفصافص هي للبهائم ، فهي داخلة في « الأَبِّ » ، وقال أبو عبيدة : القَضْب : الرَّطْبة[٢] ، وقال الحسن : هو العَلَف ، وأهل مكَّة يسمون القَتَّ القَضْبَ ، قال ثعلب : لأنه يُقضب كل يوم ، والذي أقول : إنَّ القَضْبَ هنا هو كل ما يُقْضب ليأكله ابن آدم غضًّا من النبات كالبقول والهليون[٣] ونحوه ، فإنه من المطعوم جزءٌ عظيم ، ولا ذِكْر له في الآية إلاَّ في هذه اللفظة .

---

(١) الفصافص : جمع فِصْفِصة ، وهي نبات عُشْبي كَلَئِيٌّ مُعَمَّر من الفصيلة القرنية يُسَمَّى : البرسيم الحجازي ، وهو في الشام : فِصَّة . (المعجم الوسيط) .

(٢) جاء في الصحاح : « والقَضْبَةُ والقَضْبُ : الرَّطبة ، وهي الإسْفَسْتُ بالفارسية » .

(٣) الهِلْيُون : جنس نبات من الفصيلة الزنبقية ، فيه نوع زراعيٌّ مشهور يؤكل ، وتسميه العامة : (كشك أَلماس) في مصر ، وفيه أنواع للتزيين ، وأنواعَ بَرِّيَّة يتبقلونها ويستعملونها ، كالهِلْيُون الزراعي . (المعجم الوسيط) .

و « الغُلْب » : الغِلاظُ الناعمة القوية ، و « الحديقةُ » : الشَّجر الذي قد أُحدق بجدار ونحوه ، و « الأَبُّ » : الْمَرْعَى ، قاله ابن عباس وابن زيد ، ومجاهد ، وقتادة ، وقال الضحاك : الأَبُّ : التِّين ، وفي اللفظة غرابة ، وقد توقف في تفسيرها أَبو بكر وعمر رضي الله عنهما .

و [مَتاعاً] نصب على المصدر ، والمعنى : تتمتعون به أَنتم وأَنعامكم ، فابن آدم في السبعة المذكورة ، والأَنعام في الأَبِّ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾

« الصَّاخَّةُ » : اسم من أَسماءِ يوم القيامة ، واللفظة في حقيقتها إِنَّما هي لنفخة الصُّور التي تصخُّ الآذان أَيْ تُصِمُّها ، ويستعمل هذا اللفظ في الداهية التي يُصِمُّ نبؤُها الآذان لصعوبتها ، وهذه استعارة ، وكذلك في الصيحة المفرطة التي يصعب وَقْعُها على الأُذن .

ثم ذكر تعالى فِرار المرءِ من القوم الذين معهودهم أَلَّا يفر عنهم في الشدائد ، ثم رتَّبهم تعالى الأَول فالأَول محبَّةً وحُنُوًّا ، وقرأَ أَبو إِياس

جؤية[(١)] : (مِنْ أَخِيهُ ، وَأُمِّهُ وَأَبِيهُ) بضمِّ الهاءِ في كلها ، قال مُنْذر ابن سعيد وغيره : هذا الفرار هو خوف من أن يتبع بعضهم بعضاً بتبعات ، إذ المُلاَبَسَةُ تَعَلُّق المطالبة ، وقال جمهور الناس : إنما ذلك لِشِدَّة الهول ، على نحو ما رُوي أن الرُّسل تقول يومئذ : نفسي نفسي ، لا أسألك غيري[(٢)] . و « الشَّأْنُ الَّذي يُغْنيه » هو فكره في سيئاته ، وخوفُه على نفسه من التخليد في النار ، والمعنى : يُغنيه عن اللقاءِ مع غيره ، والفكرة في أَمره ، قال قتادة : أَفضى كلُّ إِنسان إلى ما يشغله عن غيره[(٣)] ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها : (لا يضُرُّك في القيامة كان عليك ثياب أم لا) ، وقرأ هذه الآية[(٤)] . وقال عليه

---

(١) هو جُؤَيَّة بن عائذ ، أبو إياس . وقد ذكر اسمه لكثرة من عرف بأبي إياس .

(٢) جاء ذلك في حديث الشفاعة ، وهو حديث متفق عليه ، وسبق لنا تخريجه في أكثر من موضع من هذا التفسير ، وفيه أن الناس يجتمعون في صعيد واحد يوم القيامة ، وتدنو الشمس ، ويبلغ الناس من الغم والكرب مالا يُطيقون ، فيقول الناس : ألا ترون ما قد بلغكم ؟ ألا تنظرون من يشفع لكم ؟ فيذهبون إلى آدم ويطلبون منه أن يشفع للناس ، فيقول : (إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبْله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري) ، فيذهبون إلى الأنبياء جميعاً واحداً بعد واحد ، وكل نبي يقول نفسي نفسي . إلى أن يذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فيقول : أنا لها ، أنا لها ... الحديث .

(٣) الجملة في الطبري عن قتادة : « أَفضى إلى كل إنسان ما يشغله عن النّاس » .

(٤) أخرج هذا الحديث ابن جرير عن أَنس رضي الله عنه، قال : (سألت عائشة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : يارسول الله ، بأَبي أنت وأُمي ، إنيِّ سائلتُك عن حديث أَخبرني أَنت به ، قال : إن كان عندي منه علم ، قالت : يانبي الله كيف يُحشر الرجال ؟ قال : حُفاةً عُراةً ، ثم انتظرت ساعة فقالت : يانبي الله كيف يُحشر النساء ؟ قال : كذلك حُفاةً عُراةً ، =

الصلاة والسلام نحوه لِسَوْدَةَ رضي الله عنها وقد قالت : واسَوْأَتاهُ ، ينظر بعض الناس إلى بعض يوم القيامة(١) ، وقرأ جمهور الناس : [يُغْنِيهِ] بالغين منقوطة وضمِّ الياءِ على ما فسَّرناه ، وقرأ ابن محيصن والزهري ، وابن السميفع : [يَعْنيهِ] بفتح الياءِ وعين غير منقوطة ، من قولك : عناني الأَمرُ ، أَي قصدني وأَرادني .

ثم ذكر تعالى اختلاف الوجوه من المؤمنين الواثقين برحمة الله تعالى حين بدت لهم تباشيرها ، ومن الكفار ، و[مُسْفِرَةٌ] معناه : نَيِّرَةٌ بادٍ ضوؤها وسرورها . و [تَرْهَقُهَا] معناه : تُلِحُّ عليها ، و « القَتَرَةُ » :

= قالت : واسَوْأَتاه من يوم القيامة ، قال : وعن ذلك تسأليني ؟ إنه قد نزلت عليَّ آيةٌ لايَضُرُّك كان عليك ثيابٌ أم لا ، قالت : أيُّ آية هي يانبي الله ؟ قال : (لِكُلِّ آمْرِيءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأنٌ يُغْنِيهِ) . هكذا رواه الطبري في تفسيره ، وأخرج مثله الحاكم وصححه وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها ، وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يحشر الناس يومَ القيامة حفاةً ... الحديث .

(١) أخرجه الطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي ، عن سودة بنت زمعة ، قالت : قال النبي صلى الله عليه وسلم : يبعث الناسُ حُفاةً عُراةً غُرلاً ، قد ألْجمهم العرقُ وبلغ شحوم الآذان ، قلت : يارسول الله ، واسَوأتاه ، ينظر بعضنا إلى بعض ، قال : شُغل الناسُ عن ذلك ، وتلا : (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخيهِ ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيه ، لِكُلِّ أُمْرِيءٍ مِنْهُمْ يَومَئِذٍ شَأنٌ يُغْنِيهِ) . (الدُّر المنثور) ، وأخرج الطبراني في الأوسط بسند صحيح مثل ذلك عن أم سَلَمة رضي الله عنها .

الغبار ، والغَبَرَةُ الأُولى إنما هي من العبوس والهمِّ ، كما يُرى على وجه المهموم والميت والمريض شبه الغبار ، وأَما القَتَرَةُ فغبارُ الأَرض ، ويقال : إن ذلك يغشاهم من التراب الذي تَعودُ إليه البهائم [١] ، ثم فسَّر تعالى أَصحاب هذه الوجوه المغبَّرة بأنهم الكفرة ، قريش يومئذ ومن جرى مجراها قديماً وحديثاً .

كمل تفسير سورة عبس والحمد لله رب العالمين

(١) أي ترجع ، وفي الخبر : إن البهائم إذا صارت تراباً يوم القيامة حُوِّل ذلك التراب في وجوه الكفار .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٨١) سورة التكوير مكية وآياتها تسع وعشرون

وهي مكّية بإجماع من المتأولين (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ ﴾

---

(١) روى الترمذيُّ وحسَّنه ، وأحمدُ ، وابنُ المنذر ، والطبرانيُّ ، والحاكمُ وصحَّحه ، وابنُ مردويه ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مَنْ سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأيُ عيْن فليقرأ : إذا الشَّمْسُ كُوِّرتْ ، وإذا السَّماءُ انفَطرَتْ ، وإذا السَّماءُ انْشَقَّتْ) .

هذه كلها أَوصاف يوم القيامة ، و « تكوير الشمس » هو أَن تُدار ويُذهب بها إِلى حيث شاءَ الله تعالى ، كما يُدار كَوْرُ العمامة [(١)] ، وعبَّر المفسرون عن ذلك بعبارات ، فمنهم من قال : ذهب نورها ، ومنهم من قال : رمي بها ، قاله الربيع بن خيثم ، وغير ذلك مما هو أَشياءُ تابعة لتكويرها . و « انكدار النجوم » هو انقضاضها وهبوطها من مواضعها ، ومنه قول الراجز :

أَبْصَر خِرْبـانَ فَضاءٍ فانْكَدَرْ تَقَضِّيَ الْبَازي إِذَا البازي كَسَرْ [(٢)]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : [انْكَدَرَتْ] : تغيَّرت ، من

(١) الكَوْرُ : الزِّيادة ، يعني : كما تُدار الزيادة التي في طرف العمامة على الرأس ، وقيل : كلُّ دارةٍ من العمامة كَوْرٌ ، وكلُّ دَوْرٍ كَورٌ ، وتَكْوِيرُ العمامة كَوْرُها .

(٢) هذان بيتان من الرجز قالهما العجَّاج بن رُؤْبة ، وهما من قصيدة له يمدح عَمْرَو بن عُبَيْد الله بن مَعْمر ، وفي مطلعها يقول :

قَدْ جبَرَ الدِّينَ الإلـهُ فَجبَرْ

وترتيب الأبيات هنا يختلف عما في الديوان ، فهو هناك يقول عن ممدوحه :

دَانَى جَنَاحَيْه من الطُّور فَمَرْ تَقَضِّيَ الْبَازي إذا الْبَازي كَسَرْ
أَبْصَرَ خِرْبانَ فَضاءٍ فَانْكَدَرْ شَاكِي الْكَلاليب إذا أَهْوَى اطَّفَرْ

والطُّور : جبل مختلف في موضعه ، لكنه هنا يريد الشام ، والخِرْبان : ذَكَرُ الحُبارى ، أو هو الحُبارى كلها ، والكلاليب : المخالب ، واطَّفَر : ظَفر ، وأَصله اظْتَفَر ، فقلبت التاءُ طاء وأدغمت في الظاء فصارت اطَّفَر . يقول : إن الممدوح مثل البازي الذي اقترب من جبل الطور ، ثم انقض من أعلى الجو لأنه رأى أسراب الحبارى على الأرض ، وله مخالب كأنها الكلاليب ، وهو بانقضاضه هذا لابد أن يظفر بصيده . والشاهد أن « انكدر » بمعنى : انقضَّ .

قولهم: ماءٌ كَدِرٌ ، أي متغيِّر اللون . و« تَسْيِيُر الجبال » قيل : هو نسفها ، وإنما ذلك في صدر هول يوم القيامة .

و « العِشارُ » جمع عُشَراءَ ، وهي الناقة التي قد مرَّ لحملها عشرة أشهر ، وهي أنْفس ما عند العرب ، وتَهَمُّمُهُم بها عظيم للرغبة في نسلها ، فإنما تُعطَّل عند شدة الأهوال [١] ، وقرأ مُضَر عن اليزيدي : [عُطِلَتْ] بتخفف الطاءِ .

و « حَشْرُ الوُحوش » هو جمعها ، واختلف الناس في هذا الجمع ، ما هو ؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما : هو حَشْرُها بالموت ؛ لأنها لا تبعث يوم القيامة ، ولا يحضر القيامة غير الثقلين [٢] ، وقال قتادة وجماعة : حشرت للجمع يوم القيامة ، ويقتص للجَّماءِ من القَرْنَاءِ [٣] ، فجعلوا ألفاظ الحديث حقيقة لا مجازاً ، مثالاً في العدل [٤] ، وقال أُبَيٌّ

---

(١) إنما سُمِّيت في الآية (عشاراً) باعتبار ما سبق لها ، قال القرطبي :« وهذا على وجه التمثيل، لأنه في القيامة لا يكون عُشَرَاء ، فالمعنى أنه لو كان عُشَرَاءُ لعطَّلها أهلُها واشتغلوا بأنفسهم » .

(٢) هما الجنُّ والإنْس .

(٣) الجَّماءُ : الجلحاءُ التي لا قرون لها .

(٤) يشير إلى الحديث الشريف الذي أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/٢٣٥ ، ٣٢٣ ، ٣٦٣ — ٧٢/١) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لَتُؤَدُّنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يُقْتَصَّ للشاة الجَمَّاء من الشَّاةِ القَرْناء تنطحها)، قال أبو جعفر : « يعني في حديثه : يُقادُ للشاة الجلحاء » . أي يؤخذ لها حقها .

ابن كعب : حشرت في الدنيا في أول هول يوم القيامة ، فإنها تَفِر في الأَرض ، وتجتمع إلى بني آدم تأَنُّسابهم . وقرأ الحسن : [حُشِّرَتْ] بشد الشّين على المبالغة .

و « تَسْجيرُ البحار » قال قتادة ، والضحاك : معناه : فرغت من مائها وذهبت حيث شاءَ الله تعالى ، وقال الحسن : يبست ، وقال الربيع ابن خيثم : معناه: مُلئت وفاضت وفُجِّرت من أَعاليها ، وقال أُبي بن كعب: وسُفيان ، ووهْب ، وابن زيد: معناه : أُضرمتْ ناراً كما يسجر التَّنُّورُ[1] ، وقال ابن عباس : جهنم في البحر الأَخضر ، ويحتمل أن يكون المعنى : مُلِكت وقُيِّد اضطرابُها حتى لا تخرج على الأَرض بسبب الهول ، فتكون اللفظة مأَخوذة من « ساجور الكلب »[2] ، وقيل : هذه بحار نار في جهنم تسجر يوم القيامة ، وقد تقدم نظير هذه الأَقوال منصوصة لأَهل العلم في قوله تعالى : (والْبَحْرِ الْمَسْجُورِ)[3] ، وقرأ ابن كثير ، وأَبو عمرو : [سُجِرَتْ] بتخفيف الجيم ، وقرأ الباقون بشدها ، وهي مُتَرَجِّحةٌ بكون البحار جمعاً ، كما قال تعالى : (كِتَاباً يَلْقَاهُ منْشُوراً)[4] ، وكما قال سبحانه : (صُحُفاً مُنَشَّرَةً)[5] ، ومثله : (قَصْرٍ مَشِيدٍ)[6] و (بُروجٍ

(١) التَّنوّر : الفُرن يخبز فيه ، وجمعه : تنانير .
(٢) ساجور الكلب : قلادة أو خشبة توضع في عنقه .
(٣) الآية (٦) من سورة (الطور) .
(٤) من الآية (١٣) من سورة (الإسراء) .
(٥) من الآية (٥٢) من سورة (المدثّر) .
(٦) من الآية (٤٥) من سورة (الحجّ) .

مُشَيَّدَةٍ) [١] لأَنها جماعة ، وذهب قوم من الملحدين إلى أَن هذه الأَشياءَ المذكورة استعارات في كل ابن آدم وأَحوال له عند موته [٢] ، فالشمسُ نفسُه ، والنجومُ عيناه وحواسُّه ، والعِشارُ ساقاهُ ، وهذا قول سُوءٍ وخيم غَثٌّ ذاهبٌ إِلى إِثبات الرموز في كتاب الله تعالى .

و « تَزْوِيجُ النُّفُوسِ » هو تنويعُها ؛ لأَن الأَزواج هي الأَنواعُ ، والمعنى : جُعل الكافر مع الكافر ، والمؤمن مع المؤمن ، وكل شكل مع شكله ، رواه النعمان بن بشيرٍ عن النبي صلى الله عليه وسلم [٣] ، وقاله عمر بن الخطاب وابن عباس رضي الله عنهم ، وقال : هذا نظير قوله

(١) من الآية (٧٨) من سورة (النساء) .

(٢) في بعض النسخ : « استعاراتٌ كلها في ابن آدم وأحواله » ، ولكن أكثر النسخ على ما أثبتناه .

(٣) أخرج ابن مردويه عن النُّعمان بن بشير رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ) ، قال : (هما الرجلان يعملان العمل يدخلان الجنة والنار) . وأخرج عبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، وسعيد بن منصور ، والفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والحاكم وصححه والبيهقي في البعث ، وأبو نعيم في الحلية ، عن النعمان بن بشير ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سُئل عن قوله : (وَإِذا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ) ، قال : يُقرنُ بين الرجل الصالح مع الصالح في الجنة ، ويقرن بين الرجل السُّوء مع السُّوء في النار ، فذلك تزويج الأنفُسُ . وفي رواية لابن أبي حاتم عن النعمان بن بشير : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ) ، قال : الضُّرَباءُ ، كلٌّ رجل مع كل قوم كانوا يعملون عمله ، وذلك بأن الله عزَّ وجلَّ يقول : (وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَةً ، فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ، وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ ، والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ) ، قال : هم الضُّرباءُ .

تعالى : (وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَةً) ، وفي الآية - على هذا - حضٌّ على دليل الخير ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : (المرءُ مع من أَحب)(١) ، وقال عليه الصلاة والسلام : (فلينظر أَحدكم من يخالِلْ)(٢) وقال الله عزَّ وجلَّ : (الْأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ)(٣) ، وقال مقاتل بن سليمان : زُوِّجت نفوس المؤمنين بزوجاتهم من الحور العين وغيرهن ، وقال عكرمة ، والضحاك ، والشعبي : زُوِّجت الأَرواح بالأَجساد. وقرأَ عاصم : [زُووجَتْ] غير مدغم(٤) .

و « الْمَوْءُودَةُ » اسم معناه : المثقل عليها ، ومنه : (وَلاَ يَؤُودُهُ)(٥) ،

---

(١) أَخرجه البخاري في الأدب ، ومسلم في البِرِّ ، والترمذي في الزهد والدعوات ، والدارمي في الرقاق ، وأَحمد في عشرات من المواضع ، ولفظه كما في مسند أَحمد (٣/١٠٤) : عن أَنس قال : كان يعجبنا أن يجيءَ الرجل من أَهل البادية فيسأَل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءَ أَعرابي فقال : يارسول الله متى قيام الساعة ؟ وأُقيمت الصلاة فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما فرغ من صلاته قال : أين السائل عن الساعة ؟ قال : أنا يارسول الله ، قال : وما أعددتَ لها ؟ قال : ما أَعددتُ لها من كثير عمل لا صلاة ولا صيام ، إلا أَني أُحبُّ الله ورسوله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المرءُ مع من أحب ، قال أَنس : فما رأَيتُ المسلمين فرحوا بعد الإسلام بشيءٍ ما فرحوا به .

(٢) هذا جزءٌ من حديث أَخرجه أبو داود والترمذي عن أَبي هريرة ، ولفظه كما ذكره السيوطي في الجامع الصغير : (الرجلُ على دين خليله ، فلينظر أَحدكم من يخالِلْ) . وقد رمز له السيوطي بأنه حديث حسن .

(٣) من الآية (٦٧) من سورة (الزخرف) .

(٤) الذي في الأصول : (زوجت) بدون ضبط ، وقد أخذنا الضبط عن البحر المحيط حيث قال : « على فُوعِلَتَ ، والمفاعلة تكون بين اثنين » .

(٥) من آية الكرسي ، ورقمها (٢٥٥) من سورة (البقرة) .

ومنه : « اتَّئِدْ » ، أي تَوَقَّر واثقل ، وعُرف هذا الاسم في البنات اللواتي كان قوم من العرب يدفنونهن أَحياءً ، يحفر الرجل شبه البئر أو القبر ثم يسوق ابنته فيلقيها فيها ، وإذا كانت صغيرة جِدًّا خدَّ[(١)] لها في الأَرْض ودفنها ، وبعضهم كان يفعل ذلك خشية الإملاق وعدم المال ، وبعضهم غيرةً وكراهيةً للبنات وجاهلية ، وقرأَ الجمهور : [الْمَوْءُودَةُ] بهمزة من « وَأَدَ » ، وفي حرف ابن مسعود : « وَإِذا الْمَاوُودَةُ » ، وقرأَ البَزِّي : [الْمَؤُودَةُ] بهمزة مضمومة على الواو مثل « المعُوذة »[(٢)] ، وقرأَ بعض القراء : [الْمَوُودَةُ] بضم الواو الأُولى وتسهيل الهمزة ، وقرأَ الأَعمش : [الْمَوْدَةُ] بسكون الواو على وزن « الفَعْلَة » ، وقرأَ بعض السلف : [الْمَوَدَّةُ] بفتح الواو والدال المشدَّة ، جعل البنت مَوَدَّةً . وقرأَ جمهور الناس : [سُئِلَتْ] ، وهذا على وجه التوبيخ للعرب الفاعلين ذلك ؛ لأَنها تُسأَل ليصير الأَمر إلى سؤال الفاعلين ، ويحتمل أَن تكون : مَسئُولاً عنْها مطلوباً الجواب منهم ، كما قال تعالى : (إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْئُولاً)[(٣)] ، وكما سئل التراث والحقوق . وقرأَ ابن عباس ، وأُبَيٌّ بن كعب ، وجابر بن زيد ، وأَبو

---

(١) خَدَّ : حَفَر وشَقَّ .

(٢) قال في البحر المحيط : « يحتمل أن تكون كقراءة الجمهور ، ثم نقل حركة الهمزة إلى الواو بعد حذف الهمزة ، ثم همز الواو المنقول إليها الحركة ، ويحتمل أن يكون اسم مفعول من آد .... » .

(٣) من الآية (٣٤) من سورة (الإسراء) .

الضحى ، ومجاهد ، وجماعة كبيرة منهم ابن مسعود ، والربيع بن خيثم [سَأَلَتْ] ، ثم اختلف هؤلاءِ ، فقرأَ أَكثرهم : [قُتِلَتْ] بفتح اللام وسكون التاءِ [الثانية] [١] ، وقرأَ أَبو جعفر : [قُتِّلَتْ] بشد التاءِ على المبالغة ، وقرأَ ابن عباس ، وجابر ، وأَبو الضحى ، ومجاهد : [قُتِلْتُ] بسكون اللام وضم التاءِ [الثانية] ، وقرأَ الأَعرج : [سِيلَتْ] بكسر السين وفتح اللام دون همز. واستدل ابن عباس رضي الله عنهما بهذه الآية في أَن أَولاد المشركين في الجنة لأَن الله تعالى قد انتصر لهم ممن ظلمهم .

و « الصُّحف المنشورة » قيل : هي صحف الأَعمال تنشر ليقرأَ كل امرئٍ كتابه ، وقيل : هي الصحف التي تتطاير بالأَيمْان والشمائل للجزاءِ ، وقرأَ نافع ، وابن عامر ، وعاصم ، وأَبو جعفر ، والأَعرج ، وشيبة ، والحسن ، وأَبو رجاءٍ ، وقتادة : [نُشِرَتْ] بتخفيف الشين المكسورة ، وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : [نُشِّرَتْ] بشدِّ الشين على المبالغة . و« الكَشْطُ » : التقشير ، وذلك كما يكشط جلد الشاة حين تسلخ ، وكَشْط السماءِ هو طيُّها كَطَيِّ السِّجل ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود : « قُشِطت » بالقاف ، وهما بمعنى واحد .

و [سُعِّرَتْ] معناه : أُضْرمت نارها ، وقرأَ نافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : [سُعِّرَتْ] بشدِّ العين ، وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو ،

---

(١) ما بين العلامتين (....) زيادة للتوضيح ، وقد تكرر ذلك مرة ثانية بعد قليل .

وحمزة ، والكسائي ، وأَبو بكر عن عاصم بتخفيفها ، وهي قراءة علي بن أَبي طالب رضي الله عنه ، وقال قتادة : سعَّرها غضب الله عزَّ وجلَّ وذنوب بني آدم .

و [أُزْلِفَتْ] معناه : قُرِّبت ليدخلها المؤمنو ن ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجماعة من المفسرين : إلى هذين ما انتهى الحديث ، وذلك أَن الغرض المقصو د بقوله تعالى : (وَإِذا ، وَإِذا) في جميع ما ذكرنا إنما تمَّ بقوله تعالى : (عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ) ، أَي : ما أَحضرت من شرٍّ فدخلت به جهنم ، أَو من خير فدخلت به الجنة ، و [نَفْسٌ] هنا اسم جنس ، أَي : علمت النفوسُ ، ووقع الإفراد لينَبِّه الذِّهن على حقارة المرءِ الواحد وقِلَّة دفاعه عن نفسه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

قوله تعالى : (فَلاَ أُقْسِمُ) ، إما أن تكون [لاَ] زائدة ، وإما أَن يكون ردًّا لقول قريش في تكذيبهم بنبوَّة محمد صلى الله عليه وسلم وقولهم : إنه ساحر وكاهن ونحو ذلك ، ثم أَقسم الله تعالى بالخُنَّسِ الجواري الكُنَّسِ ، فقال جمهور المفسرين : إن ذلك الدَّراري السبعة ، الشَّمسُ والقَمَرُ وزُحَلُ وعُطارِدُ وَالمرِّيخُ والزُّهَرَةُ والمُشْترِي . وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه : المراد الخمسة دون الشمس والقمر ، وذلك أَن هذه الكواكب تَخْنِسُ في جريها ، أَي تتقهقر فيما ترى العين ، وهي جوارٍ في السماءِ ، وأَثبت يعقوب الياءَ في [الْجَواري] في الوقف ، وحذفها الباقون ، وهيَ تكْنِسُ في أَبراجها ، أَي تَسْتَتِرُ ، وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه ، والحسن ، وقتادة : المرادُ النجومُ كلها ، لأَنها تَخْنِسُ وتَكْنِس بالنهار حين تختفي ، وقال عبد الله بن مسعود ، والنَّخَعِيُّ ، وجابر بن زيد ، وجماعة من المفسرين : المراد « بالخُنَّس الجواري الكُنَّس » بقر الوحش لأَنها تفعل هذه الأَفعال في كناسها ، وهي المواضع التي تأْوي إِليها من الشجر والغِيران ونحوه ، وقال ابن عباس ، وابن جبير والضحاك : هي الظباءُ ، وذهب هؤلاءِ في [الْخُنَّسِ] إِلى أَنه من صفة الأُنوف لأَنها يلزمها الخنَس ، وكذلك هي بقر الوحش أَيضاً ، ومن ذلك قول الشاعر :

سِوَى بازِ بِيضٍ أَوْ غزالِ صَرِيمَةٍ … أَغَنٍّ من الخُنْسِ الْمَنَاخِرِ تَوْأَم (١)

(١) البازُ : لغة في البازي، يقال : بازُ دَجْنٍ ، وبازُ بيضٍ ، وهو نوع من الصقور التي =

و « عَسْعَسَ اللَّيْلُ » في اللغة إذا كان غير مستحكم الإظلام ، فقال الحسن بن أَبي الحسن : ذلك في وقت إِقباله ، وبه وقع القَسَم ، وقال عليٌّ ، وابن عباس ، وزيد بن أَسلم ، ومجاهد ، وقتادة : ذلك عند إدباره وبه وقع القَسَم ، ويرجح هذا قولُه تعالى بَعْدُ : (والصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) ، فكأنهما حالان متَّصلان ، ويشهد لذلك قول علقمة بن قُرْطٍ :

حَتَّي إِذا الصُّبْحُ لَهـا تَنَفَّسَاً وَانْجابَ عَنْها لَيْلُها وَعَسْعَسَا(١)

وقال أَبو العباس المبرد : أَقسم تعالى بإِقباله وإِدباره معاً ، قال الْخليلُ : يقال : عَسْعَسَ الليل وسَعْسَع إِذَا أَقبل وأَدبر .

= يُصادُ بها ، والصَّريمة : القطعة المنقطعة من معظم الرمل ، والأَغَنُّ : الذي في صوته غُنَّةٌ ، وظبيٌ أَغَنٌّ : يخرج صوته من خيشومه ، والخَنَس في الأنف : تأَخُّره إلى الرأْس وارتفاعه عن الشَّفة وليس بطويل ولا مُشْرف ، وقيل : هو قِصَر الأنْف ولزوقه بالوجه ، وأصله في الظِّباءِ والبقر ، وهو موضع الاستشهاد هنا ، والمناخر : جمع مِنْخر ، والتَّوْأَم : المولود مع غيره في بطن من الاثنين إلى مازاد ، ذكراً أو أُنثى . ولم أَقف على قائل هذا البيت .

(١) البيتان للعجاج ، وهما من شواهد أَبي عبيدة في مجاز القرآن ، وهما في الطبري ، والقرطبي والبحر المحيط ، وابن كثير . والتَّنَفُّس : استمداد النَّفَس ، وتَنَفَّس الصُّبْحُ : تَبَلَّجَ وامتدَّ حتى صار نهاراً بَيِّناً ، وانْجَابَ : انكشف وذهب ، وابن عطية يستشهد بالبيت على أن معنى (عَسْعَسَ) هو : أَدْبَرَ ، وقال ابن كثير في تفسيره : « وعندي أَن المراد بقوله : (إذا عَسْعَسَ) : إذا أَقبل ، وإن كان يصحُّ استعماله في الإدبار أَيضاً ، لكن الإقبال ها هنا أَنسب ، كأنه أَقسم بالليل وظلامه إذا أَقبل وبالفجر وضيائه إذا أَشرق ، كما قال تعالى : (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ، وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى) ، وقال تعالى : (وَالضُّحَى ، وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى) ، وهي وجهة نظر ، واللغة تسمح بالرأيين ، والله أعلم .

و « تَنَفَّس الصُّبْحُ » : استطار واتَّسع ضوءُه ، وقال علوان بن قيس :

وَلَيْلٍ دَجيٍّ قد تَنَفَّسَ فَجْرُهُ ... لَهُمْ بَعْدَ أَن خالوهُ لَنْ يَتَنَفَّسَا (١)

والضمير في [إنَّهُ] للقرآن ، و « الرسولُ الكريمُ » في قول جمهور الناس : جبريل عليه السلام ، وقال آخرون : هو محمد عليه الصلاة والسلام في الآيات كلها ، والقولُ الأَول أَصحُّ ، و[كَرِيمٍ] في هذه الآية صفة تقتضي رَفْع المذامِّ ، ثم وصفه تعالى بقوة منحه الله تعالى إيَّاها .

واختلف الناس في تعلُّق قوله تعالى : (عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ) ، فذهب بعض المتأَولين إلى تعلُّقه بقوله سبحانه : (ذِي قُوَّةٍ) ، وذهب آخرون إلى أَن الكلام تمَّ في قوله : (ذِي قُوَّةٍ) ، وتعلَّق الظرف بقوله : [مَكِينٍ] ، ومعناه : له مكانة ورفعة .

وقوله تعالى : (مُطاعٍ ثَمَّ أَمينٍ) معناه : مقبول القول مصدَّق فيما يقوله مُؤْتَمن على ما يُرسَل به ويؤديه مِن وحي وامتثال أَمْر ، وقرأَ

---

(١) في بعض الروايات : (وليل رَجُوجيٍّ تَنَفَّسَ فَجْرُهُ) ، وتَنَفَّس فَجْرُهُ : طَلَع ، وقيل : أَضاءَ ، والمعنى واحد ، وخالوه : حسبوه لطول الليلِ وشدة ظلامه . والدُّجَى : سوادُ الليل مع غَيْم ، يقال : دَجَا الليلُ فهو داجٍ ودَجِيٌّ .

أَبو جعفر : [ثُمَّ] بضم الثاءِ ، وذكر الله تعالى نفسه بالإِضافة إلى عرشه تنبيها على عِظم ملكوته .

وأَجمع المفسرون على أَن قوله تعالى : (وَمَا صَاحِبُكُمْ) يُراد به محمد صلى الله عليه وسلم ، والضمير في [رآهُ] لجبريل عليه السلام ، وهذه الرؤية التي كانت بعد أَمْر غار حراءَ حين رآه على كرسي بين السماءِ والأَرض ، وقيل : هي الرؤية التي رآه عند سدرة المنتهى في الإِسراءِ ، وسمَّى ذلك الموضع أُفُقاً مجازاً ، وقد كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم رؤية ثانية بالمدينة ، وليست هذه . ووصف تعالى الأُفُق بالمُبين لأَنه كان في الشرق من حيث تطلع الشمس ، قاله قتادة ، وأَيضاً فكلُّ أُفق فهو في غاية البيان .

وقوله تعالى : (وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ) بالضاد بمعنى : بخيل ، أَي : يشِحُّ به ولا يُبلِّغ ما قيل له ويبخل كما يفعل الكاهن حتى يُعطى حُلوانه (١) . وبالضاد هي في خطوط المصاحف كلها فيما قال الطبري ، وهي قراءة نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، وعثمان ابن عفان ، وابن عباس ، والحسن ، وأَبي رجاءٍ ، والأَعرج ، وأَبي جعفر ، وشيبة ، وجماعة وافرة . وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو ، والكسائي ،

(١) الحُلْوان : أُجرة الدّلال ، والرِّشوة .

وابن مسعود ، وابن عباس ، وزيد بن ثابت ، وابن عُمر ، وابن الزبير ، وعائشة ، وعمر بن عبد العزيز ، وابن جُبَيْر ، وعروة بن الزبير ، ومسلم ابن جندب ، ومجاهد ، وغيرهم : [بِظَنِينٍ] بالظاءِ ، أَي بِمُتَّهَم ، وهذا في المعنى نظير وصفه بأَمِينٍ ، وقيل: معناه : بضعيف القوة ، من قولهم : بِئْرٌ ظَنون[1] إذا كانت قليلة الماءِ ، ورجَّح أَبو عبيد قراءَة الظاءِ مشالة لأَن قريشاً لم تُبخِّل محمداً صلى الله عليه وسلم فيما يأْتي به وإِنَّما كذبته فقيل : ما هو بِمُتَّهم .

ثم نفى تعالى عن القرآن أَن يكون كلام شيطان ، على ما قالت قريش إِن محمداً كاهن ، و [رَجيم] معناه مُبْعدٌ مَرْجومٌ بالكواكب واللعنة وغير ذلك .

وقوله تعالى : (فَأَيْنَ تَذْهَبونَ) توقيف وتقرير ، على معنى : أَين المذهب لأَحد عن هذه الحقائق ، و « الذِّكْرُ » هنا مصدرٌ بمعنى التَّذْكِرَة . ثم خصَّص تعـالى من شاءَ الاستقامة بالذكر تشريفاً وتنبيهاً وذكراً لتكسُّبهم أَفعال الاستقامة . ثـم بَيَّن تعالى أَن تكسُّب المرءِ على العموم في استقامة وغيرها إنما يكون مع خلق الله تعالى واختراعه الإِيمان في صدر

(١) جاءَ في اللسان : « بئْرٌ ظَنون ، قليلة الماءِ لا يُوثق بمائها .... وفي الحديث : فنزل على ثَمَدٍ بوادي الحُدَيْبِيَة ظَنُون الماءِ » .

المرءِ ، ورُوى أنه نزل قوله تعالى : (لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ) فقال أَبو جهل : هذا أَمْر قد وُكِلَ إِلَيْنَا ، فإن شئنا استقمنا وإن لم نشأْ لم نستقم ، فنزلت : (وَمَا تَشاءُونَ إلاَّ أَنْ يَشاءَ اللهُ) ، وفي الحديث : (يقول الله : يابن آدم ، تريد وأُريد ، فتتعب فيما تريد ، ولا يكون إلاَّ ما أُريد) [(١)] .

كمل تفسير سورة التكوير والحمد لله رب العالمين

(١) لم أقف عليه في جميع الكتب الصحيحة التي بين يدي ، وقد قرأتُ حديثاً قدسيّاً أخرجه أبو عيسى الترمذي في صحيحه ، عن أبي ذرٍّ ، جاء في آخره على لسان الحق تبارك وتعالى : (ذلك بأني جوادٌ ماجد ، أفعل ما أريد ، عطائي كلام ، وعذابي كلام ، إنما أمري إذا أردته أن أقول له : كن فيكون) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٨٢) سورة الانفطار مكية وآياتها تسع عشرة

وهي مكية كلها بإجماع من المفسرين .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾
وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ
وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ
فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ
﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

هذه أَوصاف يوم القيامة . و « انفطارُ السماءِ » انشقاقُها على غير نظام مقصود ، إنما هو انشقاق لتزول زينتها . و « انتثارُ الكواكب » سقوطُها من مواضعها التي هي فيها كالنظام . و « تفجير البحار » يحتمل

أَن يكون من امتلائها فتفجر من أَعاليها وتفيض على ما يليها ، ويحتمل أَن يكون تفجير تفريغ من قيعانها فيذهب الله تعالى ماءَها حيث شاءَ ، وقيل : يفجر بعضها إلى بعض فيختلط العذبُ بالمِلْح وتصير واحداً ، وهذا نحو الاختلاف في [سُجِّرَتْ] في السورة التي قَبْل . وقرأَ مجاهد والربيع بن خيثم : [فُجِرَتْ] بتخفيف الجيم . و « بَعْثرة القبور » نَبشُها عن الموتى الذين فيها .

وقوله تعالى : (عَلِمَتْ نَفْسٌ) هو جوابُ [إِذَا] ، و « نَفْسٌ » هنا اسم الجنس ، وإِفْرادُها ليبين لذهن السامع حقارتها وقلَّتها وضعفها عن منفعة ذاتها إلاَّ من رحم الله تعالى ، وقال كثير من المفسرين في معنى قوله تعالى : (ما قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ) : إِنها عبارةٌ عن جميع الأَعمال ؛ لأَن هذا التقسيم يعم الطاعات المعلومة والمتروكة ، وكذلك المعاصي . وقال ابن عباس ومحمد بن كعب القُرظي : معناه : ما قدمت في حياتها وما أَخرت مِمَّا سَنَّتْهُ فعمل به بعد موتها .

ثم خاطب تعالى جنس ابن آدم فوقَفَه – على جهة التوبيخ والتنبيه – على أَي شيءٍ أَوجب أَن يغتَرَّ بربِّه الكريم فيعصيه ويجعل له نِدًّا ، وغير ذلك من أَنواع الكفر ، وهو الخالق المُوجِد بعد العدم . ورُوي أَن النبي صلى الله عليه وسلم قرأَ : (ما غَرَّكَ بَربِّكَ الكَرِيم) فقال : جهله[(١)] ،

(١) أَخرجه عبد بن حميد عن صالح بن مسمار ، قال : بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية .... الحديث .

وقاله عمر رضي الله عنه وقرأ : (إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهولاً)[١] ، وقال قتادة : غرَّه عدوُّه المسلَّط عليه ، وقال بعض العلماء : غرَّه ستر الله تعالى عليه ، وقال غيرُه : غرَّه كرم الله تعالى . ولفظة « الكريم » تُلَقِّن هذا الجواب ، فهذا من لطف الله عزَّ وجلَّ بعباده العصاة المؤمنين . وقرأ ابن جبير ، والأَعمش : (مَا أَغَرَّكَ) على وزن أَفْعَلَك ، والمعنى : ما دعاك إلى الاغترار ؟ ويكون المعنى تعجُّباً مَحضاً . وقرأ الجمهور : [فَعَدَّلَكَ] بشدِّ الدال ، وقرأ الكوفيون ، والحسن ، وأَبو جعفر ، وطلحة ، والأَعمش ، وأَبو رجاء ، وعيسى ، وعمرو بن عبيد : [فَعَدَلَك] بتخفيف الدال ، والمعنى : عدل أَعضاءَك بعضها ببعض ، أَي وازَنَ بينها .

قوله تعالى : (في أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ) ، ذهب الجمهور إلى أَن [في] متعلقة بـ [رَكَّبَكَ] ، أَي : في صورة قبيحة أَو حَسَنة أَو مشوَّهة أَو سليمة أَو نحو ذلك ، وذهب بعض المتأَولين إلى أَن المعنى : فعدلك في أَيِّ صورة ، بمعنى : إلى أَيِّ صورة ، حتى قال بعضهم : المعنى : لم يجعلك في صورة خنزير ولا حمار ، وذهب بعض المتأولين إلى أَن المعنى الوعيد والتهديد ، أَي : الذي إن شاءَ ركبك في صورة حمار أَو خنزير أَو غيره ، و [ما] في قوله تعالى : (ما شاءَ) زائدة ، فيها معنى التأكيد

(١) أَخرجه سعيد بن منصور ، وابن أَبي حاتم ، وابن المنذر ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، والآية الكريمة من سورة (الأَحزاب) ورقمها (٧٢) .

والتركيب والتأليف وجمع شيءٍ إلى شيءٍ ، وروى خارجةُ عن نافع : (رَكَّبَكَ كَّلاَّ) بإدغام الكاف في الكاف .

ثم ردَّ تعالى على سائر أَقوالهم ورَدَعَ عنها بقوله سبحانه : [كَلاَّ] ، ثم أَثبت تعالى لهم تكذيبهم بالدِّين ، وهذا الخطاب عام ومعناه الخصوص في الكفار ، وقرأَ جمور الناس : [تُكَذِّبونَ] بالتاءِ من فوق ، وقرأَ الحسن وأَبو جعفر : [يُكَذِّبونَ] بالياءِ ، و « الدِّينُ » هنا يحتمل أَن يريد به الشرع ، ويحتمل أَن يريد الجزاءَ والحساب .

و « الْحَافِظُونَ » هم الملائكة الذين يكتبون أَعمال ابن آدم ، ووصفهم تعالى بالكرم الذي هو نفي الْمَذَامِّ ، و (يَعْلَمُونَ ما يَفْعَلُونَ) لمشاهدتهم حال بني آدم ، وقد روي حديث ذكره سفيان يقتضي أَن العبد إذا عمل سيِّئَةً مما لا يُرى ولا يُسمع مثل الخواطر المستَصْحبة ونحوها أَن المَلَك يجد ريح تلك الخطيئة بإدراك قد خلقه الله تعالى لهم (١) .

---

(١) الذي ذكره القرطبي هنا آن سفيان هو القائل ، قال : « وسُئل سفيان : كيف تعلم الملائكة أن العبد قدهمّ بحسنة أو سيِّئة ؟ قال : إذا هَـمّ العبد بحسنة وجدوا منه ريح المسك، وإذا هَـمّ بسيئة وجدوا منه ريح النَّتن » .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾

« الأَبْرارُ » جمع بَرٍّ ، وهو الذي قد اطَّرَدَ بِرُّه عموماً ، فَبَرَّ ربَّه في طاعته إياه ، وبَرَّ أَبويه ، وبَرَّ الناسَ في رفْع ضره عنهم ، وجلب ما استطاع من الخير لهم ، وبَرَّ الحيوان وغير ذلك في أن لم يفسد منها شيئاً عبثاً وبغير منفعة مباحة ، و « الفُجَّارُ » الكُفَّارُ ، و [يَصْلَوْنَهَا] معناه : يباشرون حرَّها بأبدانهم ، و « يَوْمُ الدِّين » هو يوم الجزاءِ .

قوله تعالى : (وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ) ، قال بعض المتأولين : هذا تأْكيد في الإخبار عن أَنهم يَصْلَوْنها ، وأَنهم لا يمكنهم المغيب عنها يومئذ ، وقال آخرون : المعنى : وما هم عنها بغائبين في البرزخ ، كأنه تعالى لمَّا أَخبر عن صَلْيهم إيَّاها يوم الدِّين أَخبر بعد ذلك عن المدة التي قَبْل يوم الدِّين ، وذلك أَنهم يرون مقاعدهم من النار غُدوة وعَشِيَّة ، فهم مشاهدون لها . ثم عظَّم تعالى قَدْر هوْل يوم الدِّين بقوله سبحانه : (وَمَا أَدراكَ) ، (ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ) .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن أبي إسحق ، وعيسى ، وابن جندب [يَوْمُ] برفع الميم على معنى : هو ، يومُ وقرأ الباقون ، والحسن ، وأبو جعفر وشيبة ، والأعرج : [يَوْمَ] بالنصب على الظرف ، والمعنى : الجزاءُ يومَ ، فهو ظرف في معنى خبر الابتداء .

ثم أخبر تعالى بضَعْف الناس يومئذ ، وأنه لا يغني بعضهم عن بعض ، وأن الأمر له تبارك وتعالى ، قال قتادة : كذلك هو اليوم ، والله تعالى هنالك لا يُنازعه أحد ، ولا يُمَكِّن أحداً من شيءٍ كما مكَّنه في الدنيا .

كمل تفسير سورة الانفطار والحمد لله رب العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٨٣) سورة المطففين مكية وآياتها ست وثلاثون

وهي مكية في قول جماعة من المفسرين ، واحتجوا بذكر الأساطير ، وهذا على أن تطفيف الكيل والوزن كان بمكة حسب ما هو في كل أُمَّة ، لا سِيَّما مع كفرهم ، وقال ابن عباس ، والسدي ، والنقاش ، وغيرهم : السورة مدنية ، قال السدي : كان بالمدنية رجل يُكنى أبا جهنية ، له مكيالان ، يأْخذ بالأَوفى ويُعطي بالأَنقص ، فنزلت السورة ، ويقال : إنها أَول سورة أُنزلت بالمدينة ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً -فيما روي عنه- : نزل بعضها بمكة ، ونزل أَمر التطفيف بالمدينة ؛ لأَنهم كانوا أَشدَّ الناس فساداً في هذا المعنى ، فأصلحهم الله تعالى .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وأَمر الكيل والوزن وكيدٌ جداً ، وتصرُّفه في المدن ضروري في الأَموال التي هي حرامٌ بغير حق ، والإِفْسادُ فيه كبيرةٌ لا يَنفع فيها دافِعٌ إلاَّ التوبة ،

ولا يُخَلِّص إلاَّ ردُّ الْمَظْلَمة إلى صاحبها . قال مالك بن دينار : احتضر جارٌ لي ، فجعل يقول : جبلان من نار ، فقلتُ له : ما هذا ؟ فقال : يا أَبا يحيى ، كان لي مكيالان ، آخُذُ بالوافي وأُعطي بالناقص ، وقال عِكرمة : أَشهد على كلِّ كيَّالٍ أَوْ وزَّان أَنه في النار ، وقال بعض العرب : لا تلتمسوا المرُوءةَ ممن مُرُوءَتُه في رءوس المكاييل وأَلْسنة الموازين .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾

قوله تعالى : [وَيْلٌ] معناه : الثبُّور والحزن والشقاءُ الأَدْوم ، وقد روي عن ابن مسعود وغيره أَنَّ وادياً في جهنم يسمَّى وَيْلاً ، ورفع [وَيْلٌ] على الابتداءِ ، ورفعه على معنى : ثبت لهم واستقر ، وما كان في حيِّز الدعاءِ والتَّرقب فهو منصوب نحو قولهم : رعْياً وسَقْياً . و « الْمُطَفِّفُ » : الذي ينقص الناسَ حقوقهم ، والتطفيف : النُّقصان ، أَصله من الشيءِ الطفيف وهو النَّزر ، والمُطَفِّف إنما يأخذ بالميزان شيئاً طفيفاً . وقال سلمان : الصلاة مكيالٌ ، فمن أَوفى أُوفي له ، ومن طفَّف فقد علمتم ما قال الله تعالى في المطففين ، وقال بعض العلماءِ : يدخل التَّطفيف في كل عمل

وقول ، ومنه قول عمر رضي الله عنه : طفَّفت معناه : نقصت الأَجر أَو العمل ، ولذلك قال مالك رحمه الله : يقال لكل شيءٍ وفاءٌ وتطفيف ، فجاءَ بالنَّقيضين . وقد ذهب بعض الناس إلى أَن التَّطفيف هو تجاوز الحدِّ في وفاءٍ أَو نُقصانٍ ، والمعنى والقرائن بحسب قولٍ قولٍ تبيِّن المراد ، وهذا عندي حدٌّ صحيح ، وقد بيَّن الله تعالى أَن التَّطفيف ها هنا إنما أَراد به أَمر الوزن والكيل .

و (اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ)(١) معناه : قبضوا منهم ، و (كالُوهُمْ) معناه : أَقبضوهم ، يقال : كِلْتُ منك واكْتَلْتُ عليك ، ويقال : كِلْتُكَ وكِلْتُ لك ، فلما حذفت اللام تعدَّى الفعل ، قاله الفراءُ والأَخفش وأَنشد أَبو زيد :

وَلَقَدْ جَنَيْتُكَ أَكْمُؤاً وَعَسَاقِلاً ... وَلَقَدْ نَهَيْتُكَ عَنْ بَنَاتِ الأَوْبَرِ(٢)

---

(١) قال الفراءُ في (معاني القرآن) : « (وإِذَا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ) ، الهاءُ في موضع نصب ، تقول : قد كِلْتُكَ طعاماً كثيراً ، وكِلْتَني مثلَه ، تريد : كِلْتَ لي ، وكِلْتُ لك ، وسُمِعَتْ أَعرابية تقول : إذا صدر الناس أَتينا التاجر ، فيكيلُنا المُدَّ والمُدَّيْن إلى الموسم المقبل ، فهذا شاهد ، وهو من كلام أَهل الحجاز ومَن جاورهم من قيس » .

(٢) هذا البيت مجهول القائل ، وهو في اللسان ، وابن عقيل ، والمغني لابن هشام ، وهو من شواهد النحويين ، وكذلك استشهد به من المفسرين الزمخشري في الكشاف ، والأَكْمُؤُ : جمع كَمْءٍ ،وهو فُطْر من الفصيلة الكَمْئيَّة ، وهي أَرضية تنتفخ حاملات أَبواغها فتُجنى وتُؤْكل مطبوخة ، وهي مختلفة الأَحجام والأنواع ، والعَسَاقلُ : نوع من الكَمْأَة أَبيضُ اللون ، والمفرد عُسْقُول ، وهوجزءٌ منجذر يكون في الأَرض مكْتَنَزاً مُنْتَفِخاً محتويا على مواد غذائية كالبطاطس =

وعلى هذا المعنى هي قراءة الجمهور ، وكان عيسى بن عُمر يَجْعلها حرفين (١) ، ويقف على [كالُو] [أَوْوَزَنُوا] ويبتديءُ (هُمْ يُخْسِرُونَ) ، أَي : إذا كالوا أَوْوزنوا ، ورويت عن حمزة (٢) ، فقوله تعالى : [هُمْ] تـأكيد للضمير . وظاهر هذه الآية يقتضي أَن الكيل والوزن على البائع ، وليس ذلك بالجليِّ ، وصدر الآية هو في المشترين ، قدَّمهم بأَنهم يستوفون ويشاحُّون في ذلك ، إذ لا تمكنهم الزيادة على الاستيفاءِ لأَن البائع يحفظ نفسه ، فهذا مبلغ قدرتهم في ترك الفضيلة والسماحة والمندوب إليه ، ثم ذكر تعالى أَنهم إذا باعوا أَمكنهم من الظلم والتطفيف أَن يُخْسِروا لأَنهم يتولون الكيل للمشتري منهم ، وكذلك هم بحالة من يُخْسِر البائع إن قدر . و [يُخْسِرُون] تَعَدَّى بالهمزة ، يقال : خَسِر الرجلُ وأَخْسَرَ غيره ، والمفعول بـ [كَالُوا] محذوف .

= « وابن أَوْبَر» أَيضاً علَم على نوع رديء من الكمأة ، ثم جُمع على « بَنات أَوْبر » كما يقال في جمع ابن عرُس : « بناتُ عرُس » ولا يقال : « بَنُو عرُس » لأنه لما لا يعقل . والبيت شاهد على أنه يجوز حذف اللام ويتعدى الفعل بنفسه ، ومثله قوله تعالى : (والقمَرَ قدَّرْناهُ منازلَ) ، أي قدَّرْنالهُ ، ويقال : وهبتُك دنياراً وصدتك ظبياً ، أي : وهبتُ لك ، وصدتُ لك .

(١) أي كلمتين .

(٢) والذي روى ذلك هو أبو عُبَيْد ، ولكنه قال : والاختيارُ أن يكونا كلمة واحدةً من جهتين : إحداهما : الخطُّ ، وذلك أَنهم كتبوهما بغير ألف ، ولو كانتا مقطوعتين لكتبتا : (كالوا) و (وزَنُوا) بالألف في الآخر ، والأخرى أنه يقال : كِلْتكُ ووزَنْتُك بمعنى : كِلْتُ لكَ ووزنتُ لك .

ثم وقفهم تعالى على أَمر القيامة وذَكَّرهم بها ، وهذا يؤيد أَنها نزلت بالمدينة في قوم مؤمنين ، وأُريد بها – مع ذلك – من غير هذه الأُمة .

و [يَظُنُّ] هنا بمعنى يتحقق ويعلم . و « اليومُ العظيمُ » يومُ القيامة ، و [يَوْمَ] ظرف عمل فيه فعلٌ مقدَّر ، « تُبعثون » ونحوه ، وقال الفراءُ : هو بدل من « يومٍ عظِمٍ » لكنه مبني ، ويأبى ذلك البصريون لأَنه مضاف إلى مُعْرب .

و « قيامُ الناسِ فيه لربِّ العالمين » يختلف الناسُ فيه بحسب منازلهم ، فروي عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه يقام فيه خمسين أَلف سنة (١) ، وهذا بتقدير شدته ، وقيل : ثلاثمائة سنة ، قاله النبي عليه الصلاة والسلام (٢) ، وقال ابن عُمر : مائة سنة ، وقيل :

---

(١) أخرجه الطبراني ، وأبو الشيخ ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث ، عن ابن عمر – هكذا في الدرِّ المنثور ، وليس ابن عمرو كما في الأصول هنا – ولفظه كما ذكره في الدر المنثور : قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) ، قال : كيف بكم إذا جمعكم الله كما يُجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظرُ إليكم ؟

(٢) أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لِبشير الغفاريِّ : كيف أنتَ صانعٌ في يوم يقوم الناس لربِّ العالمين مقدار ثلاثمائة سنة من أيام الدنيا ، لا يأتيهم خبر من السماء ، ولا يُؤْمَر فيهم بأمر ؟ قال بشير : المستعانُ بالله يارسول الله ، قال : إذا أويتَ إلى فراشك فتعوَّذ بالله من شرِّ يوم القيامة ومن شرِّ الحساب .

ثمانون سنة ، وقال ابن مسعود : أَربعون سنة رافعي رءوسهم إلى السماء لا يُؤْمرون ولا يكلَّمون ، وقيل غير هذا ، وفي هذا كله آثارٌ مروية ، ومعناها أَن كُلَّ مُدَّةٍ لقوم ما تقتضي حالهم وشدَّة أَمرهم ذلك ، ورُوي أَن القيام فيه على المؤمن هو على ما بين الظهر إلى العصر ، ورُوي أَنه على بعض الناس على قدر صلاة مكتوبة ، وفي هذا القيام هو إلجام العرق للناس ، وهو أَيضاً مُخْتَلِفٌ ، فيروى عن النبي صلى الله عليه وسلم من طريق عقبة بن عامر أَنه يُلجم الكافر إلجاماً[(١)] ، ويروى أَن بعض الناس يكون فيه إلى أَنصاف ساقيه ، وبعضهم إلى فوق ، وبعضهم إلى أَسفل[(٢)] .

---

(١) أَخرج مالك ، وهناد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أَحدهم في رشحه إلى أَنصاف أُذنيه .

(٢) أَخرجه مسلم في الجنة ، والترمذي في القيامة ، وأَحمد في مسنده (٥/٢٥٤ ، ٦/٤) ، ولفظه كما جاء فيه : عن أَبي أُمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل ، ويزُاد في حرها كذا وكذا ، يغلي منها الهوام كما تغلي القُدورُ ، يعرقون فيها على قدر خطاياهم ، منهم من يبلغ إلى كعبيه ، ومنهم من يبلغ إلى ساقيه ، ومنهم من يبلغ إلى وسطه ، ومنهم من يلجمه العرق .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾

هذه الآية وما بعدها يظهر أَنها من نمط المكيِّ ، وهو أَحد الأَقوال التي ذكرناها قبْل . و [كَلاَّ] يجوز أَن تكون ردًّا لِأَقوال قريش ، ويحتمل أَن تكون استفتاحاً بمنزلة « أَلاَ » ، وهذا قول أَبي حاتم واختياره ، و « الفُجَّارُ » : الكفار ، و « كِتابُهُم » يراد به الذي فيه تحصيل أَمرهم وأَفعالهم ، ويحتمل عندي أَن يكون المعنى : وعدادُهم وكتاب كونهم هو في سِجِّين ، أَي : هنالك كُتبوا في الأَزل . وقرأَ أَبو عمرو ، والأَعرج وعيسى : [الفُجَّارِ] بالإمالة ، و « الأَبْرار » بالفتح ، قاله أَبو حاتم .

واختلف الناس في [سِجِّينٍ] ما هو ؟ فقال الجمهور : هو فِعِّيل من السَّجن ، كسكِّير وشرِّيب ، أَيْ في موقع ساجِنٍ وسا كر وشارب ، فجاءَ

«سِجِّين» بناءَ مبالغة ، قال مجاهد: وذلك في صخرة تحت الأَرض السابعة ، وقال كعبٌ حاكياً عن التوراة ، وأُبَيٌّ بن كعب : هو في شجرة سوداءَ هنالك ، وقيل - عن النبي عليه الصلاة والسلام - في بئر هنالك[1] ، وقيل تحت خَدِّ[2] إبليس ، وقال عطاءُ الخراساني : هي الأَرض السفلى ، وقاله البَرَاءُ عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال عكرمة : « سِجِّين » عبارة عن الخسار والهوان ، كما تقول : بلغ فلان الحضيض ، إذا صار في غاية الخمول ، وقال قوم من اللغويين : « سِجِّين » نُونُه بدلٌ من لامٍ ، وهو من السِّجيل . وقوله تعالى : (وَمَا أَدْراكَ مَا سِجِّينٌ) تعظيم لأَمر هذا السجين وتعجيب منه ، ويحتمل أَن يكون تقريرَ استفهام ، أَي : هذا مما لم تكن تعلمه قبل الوحي .

قوله تعالى : (كِتابٌ مَرْقُومٌ) ، مَنْ قال بالقول الأَول في [سِجِّين] فـ [كِتابٌ] مرتفع عنده على خبر [إنَّ] ، والظَّرف الذي هو (لَفِي

---

(١) أَخرجه ابن جرير في تفسيره عن أَبي هريرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الفَلَقُ جُبٌّ في جهنم مُغَطىً ، وأَمَّا سِجِّينٌ فمفتوحٌ) . قال ابن كثير بعد أن ذكر هذا الخبر : « وهو حديث غريب مُنْكَرٌ لا يصحُّ ، والصحيح أَن سِجِّيناً مأخوذ من السجن وهو الضِّيق » ، ثم ذكر ما يراه دليلاً على ذلك .

(٢) في بعض الأصول : « حَدِّ إبليس » بالحاء دون نقط ، وهو يوافق ما في الطبري ، وفي بعضها : « خَدّ » بالخاء المنقوطة ، وهو يوافق ما في القرطبي والدر المنثور وفتح القدير .

سِجِّينٍ) ملغى ، ومَنْ قال في [سِجِّينٍ] بالقول الثاني فـ [كِتابٌ] مرتفع عنده على خبر ابتداءٍ مضمر ، والتقدير : هو كتاب مرقوم ، ويكون هذا الكلام مُفَسِّراً لـ [سِجِّينٍ] ، ما هو . و [مَرْقومٌ] معناه : مكتوبٌ رُقِم لهم بِشَرٍّ ، ثم أَثبت تعالى للمكذبين بيوم الحساب والدِّينِ الويلَ .

وقوله تعالى : [يَوْمِئذٍ] إشارة إلى ما يتضمنه المعنى في قوله تعالى : (كِتابٌ مَرْقومٌ) ، وذلك أنه يتضمَّن أَنه يُرفع ليوم عَرْض وجزاءٍ ، وبهذا يتم الوعيد ويتَّجه معناه ، و « الْمُتَعَدِّي » : الذي يتجاوز حدود الأَشياءِ ، و [أَثِيمٍ] مبالغة في « آثِمٍ » . وقرأَ الجمهور : [تُتْلَى] بالتاءِ ، وقرأَ أَبو حيوة : [يُتْلَي] بالياءِ من تحت . و « الأَساطِير » جمع أُسطورة وهي الحكايات التي سطِّرت قديماً ، وقيل : هو جمع أَسطارٍ ، وأَسطارٌ جمع سَطْر ، ويروى أَن هذه الآية نزلت بمكَّة في النضر بن الحارث ابن كِلْدة ، وهو الذي كان يقول : أَساطير الأَولين ، وكان هو قد كتب بالحِيرَة أَحاديث رُستم واسفنديار ، وكان يُحدِّث بها بمكة ويقول : أَنا أَحسن حديثاً من محمد ، فإِنما يحدثكم بأَساطير الأَولين .

وقوله تعالى : [كَلاَّ] زجرٌ وردٌّ لقولهم « أَساطير الأَولين » ، ثم أَوجب تعالى أَن ما كَسَبُوا من الكفر والطغيان والعتو قَدْ ران على قلوبهم ، أَي غطَّى عليها وغَلَب ، فهم مع ذلك لا يبصرون رشداً ، ولا يخلُص إلى

قلوبهم خير ، يقال : رانت الخمر على عقل شاربها ، وران الغَشْيُ على قلب المريض ، وكذلك الموتُ ، ومنه قول الشاعر :

ثُمَّ لمَّا رآهُ رانَتْ بِهِ الخَمْـــ ـــرُ وألاَّ تَرينَهُ باتِّقاءِ(١)

والبيت لأَبي زُبَيْد ، قال الحسن ، وقتادة : الرَّيْن : الذَّنب على الذَّنب حتى يموت القلب ، ويُروى عن أَبي هريرة أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إنَّ الرجل إذا أذنب صارت نُكْتة سوداءُ في قلبه ، ثم كذلك حتى يتغطى ، فذلك الران الذي قال الله تعالى : (كَلاَّ بَلْ رانَ عَلَى قُلوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبونَ) (٢) . وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو ، وابن عامر بإِدغام اللام في الراءِ ، وقرأَ نافع أَيضا بالإِدغام والإِمالة ، وقال أَبو حاتم : القراءَةُ بالفتح والإِدغام ، وعلَّق تعالى اللوم بهم فيما كسبوه ـ وإن كان

---

(١) البيت في اللسان (ران) منسوباً لأبي زُبَيْد ، وقد استشهد به أَبو عُبيدة في (مجاز القرآن) ، وهو في وصف سكران غلبت عليه الخمر ، يقال : رانَتْ به الخمر ، أَي غلبت على قلبه وعقله ، وكلُّ ما غلبك وعلاكَ فقد ران بك وران عليك .

(٢) أَخرجه أَحمد ، وعبد بن حميد ، والحاكم ، والترمذي وصححه ، والنسائي ، وابن ماجه وابن جرير ، وابن حبان ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن أَبي هريرة رضي الله عنه .

ذلك بخلْقٍ منه سبحانه واختراع ـ لأَن الثواب والعقاب متعلِّق بكسب العبد ، و [كَلاَّ] في قوله تعالى : (كَلاَّ إِنَّهُمْ) يصلح فيها الوجهان اللذان تقدم ذكرهما ، والضمير في قوله تعالى : [إِنَّهُمْ] وفي [رَبِّهِمْ] هو للكفَّار ، فَمَنْ قال بالرؤية ـ وهم أَهل السُّنة ـ قال : إنَّ هؤلاءِ لا يرون ربهم ، فهم محجوبون عنه ، واحتجَّ بهذه الآية مالكُ بن أَنس عن مسألة الرؤية من جهة دليل الخطاب ، وإلاَّ فلو حَجَب الرؤيةَ عن الكلِّ لما أَغنى هذا التخصيص ، وقال الشافعي : فَلمَّا حجبَ قوماً بالسخط دلَّ أَن قوماً يرونه بالرضى . ومَنْ قال بألاَّ رؤية ـ وهو قول المعتزلة ـ قال في هذه الآية : إنهم محجوبون عن رحمة ربهم وغُفرانه . و « صَلُوا الْجَحِيمِ » هو مباشرة حرِّ النار دون حائل .

وقوله تعالى : (ثُمَّ يُقَالُ) هو على معنى التوبيخ لهم والتقريع ، وقوله تعالى : (هَذا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبونَ) مفعول لم يُسَمَّ فاعله ؛ لأَنه قول بُني له الفعل الذي هو [يُقالُ] (١) ، وقوله تعالى : [هَذَا] إشارةٌ إلى تعذيبهم وكونهم في الجحيم .

---

(١) يناقش أَبو حيان الأندلسي هذا الكلام مناقشة طويلة عند تفسير قوله تعالى في سورة البقرة : (وَإِذَا قيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدوا في الأَرْضِ) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

لما ذكر تعالى أمر كتاب الفجار عقَّب ذلك بذكْر كتاب ضدهم ليبين الفرق ، و « الأَبْرارُ » جمع بَرٍّ ، وقرأ ابن عامر بكسر الراءِ ، وقرأ ابن كثير ، ونافع بفتحها ، وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي بإمالتها . و « عِلِّيُّونَ » هو جمع عِلِّيي ، عَلَى وزن فِعِّيل بناءَ مبالغة ، يريد بذلك الملائكة فلذلك أُعرب بالواو والنون ، وقيل : يريد المواضع العَلِيَّةَ لِأَنَّهُ عُلُوٌّ فوق عُلُوٍّ ، فَلَمَّا كان هذا الاسم على هذا الوزن لا واحد له أشبه « عشرين » فأُعرب إعراب الجموع إذْ أَشبهها ، وهو أيضاً مثل « قِنَّسْرين » ، فإنك تقول : طابت قِنَّسْرونَ ودخلت قِنَّسْرينَ [1] .

---

(١) بكسر القاف وفتح النون المشددة ثم سين بدون نقط ، وقد تكسر النون مع التشديد ، وهي مدنية بالشام تمَّ فتحها على يد أبي عبيدة بن الجراح سنة ١٧ للهجرة ، وكانت شيئاً واحداً مع حمص . (راجع معجم البلدان للحموي (٥/٤٠٢ وما بعدها) .

واختلف الناس في الموضع المعروف بِعِلِّيِّينَ ، ما هو ؟ فقال قتادة : قائمة العرش اليُمْنى ، وقال ابن عباس : السماءُ السابعة تحت العرش ، وروي ذلك عن النبي عليه الصلاة والسلام ، وقال الضحاك : هو عند سِدْرة المنتهى ، وقال ابن عباس : العِلِّيُّونَ : الجنة ، وقال مكي : وقيل هو في السماءِ الرابعة ، وقال الفراءُ عن بعض العلماءِ : هو في السماءِ الدنيا ، والمعنى أَن كتابهم الذي فيه أَعمالهم هنالك تَهَمُّماً بها وترفيعاً لها ، وأَعمال الفجار في سِجِّين في أَسفل سافلين ؛ لأَنه روى عن أُبَيٍّ بن كعب ، وابن عباس أَن أَعمالهم يُصعد بها إلى السماءِ فتأْباهَا ، ثم تُردُّ إلى الأَرض فتأْباها أَرْضٌ بعد أَرض حتى تنتهي في سِجِّين تحت الأَرض السابعة . و [كتابٌ مَرْقومٌ] في هذه الآية خبر [إِنَّ] والظَّرْف مُلْغَى[1] . و « الْمُقَرَّبون » في هذا الموضع الملائكة المُقَرَّبون عند الله تعالى ، أَهل كل سماءٍ ، قاله ابن عباس وغيره .

---

(١) ذكر أَبو حيان الأندلسي هذا الإعراب عن ابن عطية ، ثم اعترض عليه بقوله : « وقول ابن عطية (والظرف الذي هو (لَفِي عِلِّيِّينَ) مُلْغَى) قولٌ لا يصحُّ ، لأن اللام التي في (لَفِي عِلِّيِّينَ) داخلة على الخبر ، وإذا كانت داخلةً على الخبر فلا إلغاءَ في الجار والمجرور ، بل هو الخبر ، ولا جائز أن تكون هذه اللام دخلت في (لَفِي عِلِّيِّينَ) على فضلة هي معمولةٌ للخبر أَوْ لِصِفَةِ الخبر فيكون الجار والمجرور مُلْغىً لا خبراً ، لأن (كتابٌ) موصوف بـ (مَرقُومٌ) فلا يعمل ، ولأن « مرقوماً » الذي هو صفة لـ (كتابٌ) لا يجوز أَن تدخل اللام في معموله ، ولا يجوز أَن يتقدم معموله على الموصوف ، فيتعين بهذا أَنَّ قوله سبحانه : (لَفِي عِلِّيِّينَ) هو خبر (إنَّ) . ا . هـ بتصرف ، وهذا الكلام في رأي أَبي حيان يَنْطبق أيضاً على قوله تعالى : (إنَّ كتابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ....) الآيات . راجع البحر المحيط (٤٤٠/٨) .

و « الأَرائِكُ » جمع أَريكة ، وهي السُّرُر في الحجال ، و [يَنْظرونَ] معناه : إلى ما عندهم من النعيم ، ويحتمل أَن يريد : بعضُهم إلى بعض ، وقيل – عن النبي صلى الله عليه وسلم – : ينظرون إلى أَعدائهم في النار كيف يُعذبون (١) .

وقرأَ جمهور الناس : [تَعْرِفُ] على مخاطبة محمد صلى الله عليه وسلم ، بفتح التاءِ وكسر الراءِ [نَضْرَةَ] نصباً ، وقرأَ أَبو جعفر ، وابن أَبي إسحق ، وطلحة ، ويعقوب : [تُعْرَفُ] بضم التاءِ وفتح الراءِ [نَضْرَةُ] رفعاً ، وقرأَ قوم : [يُعْرَفُ] بالياءِ لأَن تأْنيث « النَّضْرة » ليس بحقيقي ، و « النَّضْرَةُ » : النعمة والرونق ، و « الرَّحيقُ » : الخمرُ الصافية ، ومنه قول حسان :

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَريصَ عَلَيْهِمُ بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرَّحيق السَّلْسَلِ (٢)

و [مَخْتُوم] يحتمل أَن يُختم على كئوسه التي يشرب بها تَهمُّمًا

---

(١) ذكر ذلك المهدوي، ونقله عنه القرطبي في تفسيره دون أن يذكر « كيف يُعذَّبون » .

(٢) سبق الاستشهاد بهذا البيت في أكثر من موضع في هذا التفسير ، وقد قاله حسان بن ثابت في قصيدة يمدح بها أولاد جفنه ملوك الشام ، وهو في الديوان ، واللسان ، والطبري ، والقرطبي ، والبحر المحيط في أكثر من موضع ، ويُصَفَّقُ : يخلط ويُمزج ، أو يُحوَّل من إناء إلى آخر ليَصْفُو ، والبريص : نهرٌ بدمشق ، وكذلك بَرَدَى . والسَّلْسل : السهل السائغ في حلوقهم .

وتَنَظُّفاً ، والأَظهر أَنه مختوم شُرْبُه بالرائحة المسكيَّة حسب ما فسَّره قوله تعالى : (خِتامُهُ مِسْكٌ) .

واختلف المفسرون في قوله تعالى : (خِتامُهُ مِسْكٌ) ـ فقال ابن مسعود وعلقمة : معناه : خِلْطُه وَمِزَاجه ، وقال ابن عباس ، والحسن ، وسعيد ابن جبير : معناه : خاتمته ، أَي تجد الرائحة عند خاتمة الشرب رائحة المسك ، وقال أَبو علي : المراد لذاذة المقطع وذكاءُ الرائحة مع طيبِ المطعم ، وكذلك هو قوله تعالى : (كانَ مِزاجُهَا كافوراً)[1] . وقوله تعالى : (زَنْجَبِيلاً)[2] ، أَي تجد في اللسان ، وقد قال ابن مقبل :

مِمَّا يُعَتَّقُ في الحانوت باطِنُها بِالْفُلْفُلِ الْجَوْنِ والرُّمانِ مَخْتومُ[3]

وقال مجاهد : معناه : طِينُه الذي يُختم به مسكٌ بدل الطين الذي

---

(١) من الآية (٥) من سورة (الإنسان) .

(٢) من قوله تعالى في الآية (١٧) من سورة (الإنسان) : (وَيُسْقَوْنَ فيها كَأْساً كانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً) .

(٣) الحانوت : بيت الخَمَّار ، وهو مكان تُعاقر فيه الخمرُ وتُباع ، وهو يذكرَّ ويؤنث . وتَعْتيقُ الخمر : حفْظُها لمدة طويلة حتى تصبح قديمة ، والفُلفل ـ بالضّم وبالكسر في الفاء الأولى ـ : حبٌّ هندى ، شجره مثل شجر الرمان ، يُجنى وهو أَخضر ، ثم يُشرُّ في الظل فيسودُّ وينكمش ، والجَوْن : الأَسود المشرب بالحمرة ، وقيل : النبات الذي يضرب إلى السواد من شدة خضرته . ومختوم معْناه : يجد من يشربها في فمه حدَّة الفلفل وطعم الرمان .

في الدنيا ، وهذا إنما يكون في الكئوس ، لأَن خمر الآخرة ليست في دنانٍ ، إنما هي في أَنهار . وقرأَ الجمهور : [خِتامُهُ] ، وقرأَ عليٌّ بن أَبي طالب رضي الله عنه ، والكسائي ، والضحاك ، والنَّخَعي : [خاتَمُهُ] ، وهذه بيِّنةٌ ، المعنى : أَنه يراد بها الطبع على الرحيق ، وروي عنهم أَيضاً كسر التاءِ .

ثم حرَّض تعالى على الجنة بقوله : (وفي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسونَ) ، والتَّنافُس في الشيءِ الْمغَالاتُ فيه ، وأَن يتبعه كل واحد نفسه ، فكأَن نفسيهما تتباريان فيه ، وقيل : هو من قولك : شيءٌ نفيسُ ، فكأن هذا يعظِّمه ، ويعظِّمه الآخر ، ويستبقان إليه .

و « المِزاجُ » : الخلْطُ ، والضمير عائد على « الرحيق » ، واختلف الناس في (تَسْنِيمٍ) ــ فقال ابن عباس ، وابن مسعود رضي الله عنهم : التَّسْنيمُ أَشرف تراب في الجنة ، وهو اسم مذكَّر لماءِ عيْن في الجنة ، وهي عين يشربها المقربون صرفاً ، ويمزج رحيق الأَبرار بها ، قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن ، وأَبو صالح ، وغيرهم . وقال مجاهد مامعناه : إن « تَسْنِيماً » مصدر من « سنَّمت » إذا علوت ، ومنه السنام ، فكأَنها عيْن قد عَلَت على أَهل الجنة فهي تنحدر ، وقاله مقاتل بن سليمان ، وذهب قوم إلى أَن الأَبرار والمقربين في هذه الآية بمعنى واحد يقع لكلٍّ من نعم في الجنة ، وذهب الجمهور من المتأولين إلى أَن منزلة الأَبرار دون

منزلة المقربين ، وأَن الأَبرار هم أَصحاب اليمين ، وأَن المقرَّبين هم السابقون .

و [عَيْناً] منصوب إِمَّا على المدح ، وإِما أَن يعمل فيه « تَسْنيم » على رأي من رآه مصدراً ، وينتصب على الحال من « تسنيم » ، أَو [يُسْقَوْنَ] ، قاله الأَخفش ، وفيه بُعْدٌ ، وقوله تعالى : (يَشْرَبُ بَها) معناه : يشربها ، كقول الشاعر :

شَرِبْنَ بماءِ الْبَحْرِ ثُـمَّ تَرَفَّعَـتْ   مَتَى لُجَج خُضْرٍ لَهُنَّ نَئِيجُ[1]

ثم ذكر تعالى أَن الذين أَجرموا بالكفر - أَي اكتسبوه - كانوا في دنياهم يضحكون من المؤمنين ، ويَسْتَخِفُّون بهم ، ويتخذونهم هزوًا . ويروى أَن هذه القصة نزلت في صناديد قريش وضعفة المؤمنين ، وروي أَنها نزلت بسبب أَن عليَّ بن أَبي طالب رضي الله عنه وجماعة معه من المؤمنين مرُّوا بجمع من الكفار في مكة ، فضحكوا منهم ، واستَخَفُّوا بهم عبثاً ونُقصان عقل ، فنزلت الآية في ذلك .

---

(١) هذا البيت لأبيَ ذؤيب الهذليِّ ، ويُروى : (تَرَوَّت بماءِ الْبَحْرِ ثُمَّ تَنَصَّبَتْ ، على جَبَشَّيات ...) والكلام عن السحاب ، فهو يعني أن السحاب شربن من ماء البحرْ ، و « مَتَى » معناها « من » في لغة هذيل ، فهو يعني : مِنْ لُجَجٍ خُضْرٍ أَخرجت الماءَ من البحر ، وقوله : (ثُمَّ تَرَفَّعَتْ) معناه : ثم ارتفعت ، وهو أيضاً معنى (تَنَصَّبَتْ) في الرواية الثانية ، ومعنى (لَهُن نَئيجُ) : لَهُنَّ مَرٌّ سريع ، يقال : نَأَجَتِ الريح ، إذا أسرعت ولها صوتٌ ، فمعنى البيت أن السحاب شرب من ماءِ البحر ثم ارتفع من لُجَج خضر أخرجت هذا الماءَ من البحر بوساطة ريح تمرُّ بسرعة شديدة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

الضمير في [مَرُّوا] للمؤمنين ، ويحتمل أَن يكون للكفار ، وأَما الضمير في [يَتَغَامَزون] فهو للكفار لا يحتمل غير ذلك ، وكذلك في قوله تعالى : [انْقَلَبُوا] . و [فَكِهِينَ] معناه : أَصحاب فاكهة ومرح ونشاط وسرور باستخفافهم بالمؤمنين ، يقال : رجل فاكِهٌ كَلاَبِنٍ وتامِرٍ [(١)] ، وهكذا بأَلِفٍ هي قراءة الجمهور ، ويقال : رجل فَكِهٌ ، من هذا المعنى ، وقرأَ حفصٌ عن عاصم : [فَكِهِينَ] بغير أَلف ، وهي قراءة أَبي جعفر ، وأَبي رجاءٍ ، والحسن ، وعكرمة .

وأَما الضمير في « رَأَوا » وفي « قالوا » فقال الطبري وغيره : هو للكفار ، والمعنى أَنهم يرمون المؤمنين بالضلال ، والكفار لم يُرسلوا على المؤمنين حَفَظَة لهم ، وقال قومٌ : بل المعنى بالعكس ، وإنما معنى الآية : وإذا رأَى المؤمنون الكفار قالوا : إنهم ضالون ، وهو الحق فيهم ، ولكن ذلك يثير الكلام بينهم ، فكأن في الآية حضاً على الموادعة ، أَي إنَّ

(١) اللاَّبِن : صاحب اللبن ، والتَّامِر صاحب التَّمْر ، وكلٌّ منهما يتمتع ويتنعم بحاجته .

المؤمنين لم يُرسلوا حافظين على الكفار ، وهذا كله منسوخ ـ على هذا التأيل ـ بآية السيف .

ولما كانت الآية المتقدمة قد نطقت بيوم القيامة وأن الويل يومئذ للمكذبين ، ساغ أن يقول : [فَالْيَوْمَ] على حكاية ما يقال يومئذ وما يكون . و [الَّذينَ] رُفع على الابتداء ، وقوله تعالى : (عَلَى الأَرائِكِ يَنْظُرُونَ) معناه : إلى أعدائهم في النار ، قال كعب : لأهل الجنة كُوىً ينظرون منها ، وقال غيره : بينهم جسم عظيم شفاف يرون منه حالهم [(١)] .

و (هَلْ ثُوِّبَ) تقرير وتوقيف لمحمد صلى الله عليه وسلم وأُمَّته ، ويحتمل أن يريد: « يَنْظُرون هَلْ ثُوِّبَ » ، فالنظر واقع على (هَلْ ثُوِّبَ) ، والمعنى : هل جُوزي ، ويحتمل أن يكون المعنى : يقول بعضهم لبعض . وقرأ ابن محيصن ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : (هَثُّوِّبَ) بإدغام اللام في الثاء لتقاربهما في المخرج ، وقرأ الباقون : (هَلْ ثُوِّبَ) لايُدغمون ، وفي قوله تعالى : (مَاكَانُوا) حذف تقديره : جزاءَ ما كانوا ، أو عذاب ما كانوا يفعلون .

كمل تفسير سورة المطفِّفين والحمد لله ربِّ العالمين

---

(١) قال الله تعالى في آية أُخرى : (فَاطَّلَعَ فَرَآهُ في سَوَاءِ الجَحيمِ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٨٤) سورة الانشقاق مكية وآياتها خمس وعشرون

وهي مكية بلا خلاف بين المتأولين .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ
مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا
ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ
بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ
مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾
وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾
بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾

هذه أَوصاف يوم القيامة ، و « انشقاق السماءِ » هو تفطرها لهول

يوم القيامة ، كما قال تعالى : (وَانْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيهْ)[(١)] ، وقال الفراءُ ، والزجاج ، وغيرهما : هو تشققها بالغمام ، وقال قومٌ : تَشَقُّقها هو تفتُّحها أَبواباً لنزول الملائكة وصعودهم في هول يوم القيامة. وقرأَ أَبو عمرو : [انْشَقَّت] ، يقف على التاءِ كأنه يُشِمُّها شيئاً من الجرِّ ، وكذلك في أَخواتها . قال أَبو حاتم : وسمعتُ أَعرابياً فصيحاً في بلاد قيس يكسر هذه التَّاءاتِ ، وهي لغة .

و [أَذِنَتْ] معناه : استمعت وسمعت أَمره ونهيه ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (ما أَذن الله لشيءٍ إِذْنَه لنبيٍّ يتغنى بالقرآن)[(٢)] ، ومنه قول الشاعر :

صُمٌّ إذا سَمِعوا خَيْراً ذُكِرتُ بِهِ وَإِذَا ذُكِرْتُ بِسوءٍ عِنْدَهُمْ أَذِنوا[(٣)]

---

(١) من الآية (١٦) من سورة (الحاقة) .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد ، وفي فضائل القرآن ، ومسلم في المسافرين ، وأبو داود في الوتر ، والترمذي في ثواب القرآن ، والنسائي في الافتتاح ، والدارمي في الصلاة وفي فضائل القرآن ، وأحمد في مسنده (٢/٢٧١ ، ٢٨٥ ، ٤٥٠) ، ولفظه كما في البخاري عن أبي هريرة ، سمع النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول : (ما أَذِنَ اللهُ لشيءٍ ما أذن لنبي حسن الصوت بالقرآن يجهر به) ، ولفظه كما في مسند أحمد (ما أذِن الله لشيءٍ ما أذن لنبي أن يتغنى بالقرآن) . ومعنى (أَذِن) : استمع وقبل .

(٣) هذا البيت قاله قَعْنَب بن أُمِّ صاحب ، وهو في اللسان ، والطبري ، والقرطبي ، والبحر المحيط ، وفتح القدير ومجاز القرآن ، والسِّمط ، وقبله يقول قعنب :

إنْ يَسْمَعوا ريبَة طاروا بها فَرَحاً مِنِّي وَمَا عَلِموا من صالحٍ دَفَنوا

وهو شاهد على أنَّ (أَذِن) بمعنى : استمع .

وقوله تعالى : [وَحُقَّتْ] ، قال ابن عباس ، وابن جبير : معناه : وحُقَّ لها أَن تسمع وتطيع ، ويحتمل أَن يريد : وحُقَّ لها أَن تَشَّقق لشدة الهول وخوف الله تعالى .

و « مَدُّ الأَرض » هو إزالة جبالها حتى لا يبقى فيها عِوَج ولا أَمْت ، فذلك مَدُّها ، وفي الحديث : (إِن الله تعالى يَمُدُّ الأَرض يوم القيامة مدَّ الأَديم العُكاظي)(١) .

(وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا) ، يريد : من الموتى ، قاله الجمهور ، وقال الزجاج : من الكنوز ، وهذا ضعيف لأَن ذلك يكون وقت خروج الدجال ، وإنما تُلقي يوم القيامة الموتى . و [تَخَلَّتْ] معناه : خَلَت عما كان فيها ، أَي لم تتمسك منهم بشيءٍ .

وقوله تعالى : (يَـأَيُّهَا الإِنْسَانُ) مخاطبة للجنس ، و « الكادِحُ » : العاملُ بشدة وسرعة واجتهاد مؤثر ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (من سأَل وله ما يُغنيه جاءَت مسأَلته حدوثاً أَو كدوحاً في وجهه يوم القيامة)(٢) ، والمعنى : إنك عامل خيراً أَو شرًّا ، وأَنت لا محالة في

(١) أَخرجه الحاكم بسند جيِّد عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (تُمَدُّ الأَرض يوم القيامة مدَّ الأَديم ، ثم لا يكون لابن آدم منها إلا موضع قدميه) . والأَديم : الجلْدُ ، والعكاظيُّ : نسبة إلى عكاظ ، والمراد : مما حُمل إلى عكاظ فبيع بها .

(٢) أَخرجه أَبو داود والنَّسائي في الزكاة ، وأَحمد في مسنده (٩٤/٢ ، ١٩/٥) ، ولفظه كما في مسند أَحمد ، عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (المسأَلةُ =

ذلك سائر إلى ربك لأَن الزمن يطير بعمر الإِنسان ، وإنما هو في مدة عمره في سير حثيث إلى ربه . وهذه آية وعظ وتذكير ، أَي: فكن على حذر من هذه الحال ، واعمل عملاً صالحاً تجده ، وقرأَ طلحة بإدغام كاف [إِنَّكَ] في كاف [كادِحٌ] ، ومن هذه اللفظة قول الشاعر :

وَمَـــا الإِنْسان إِلاَّ ذو اغْتِرار طِوال الدَّهْرِ يَكْدَحُ في سَفَال (١)

وقال قتادة : من استطاع أَن يكون كدحه في طاعة الله تعالى فَليفعل ، وقوله تعالى : [فَمُلاقيهِ] معناه : فملاق عذابه أَو تنعيمه .

واختلف النحاة في العامل في [إِذَا] ـ فقال بعض النحاة : العامل [انْشَقَّتْ] ، وأَبَى ذلك كثير من أَئِمَّتهم ؛ لأَن [إذا] مضافة إلى [انْشَقَّتْ] ؛ ومَنْ يُجيز ذلك تضعف عنده الإِضافة ويقوى معنى الجزاءِ (٢) وقال آخرون منهم : العامل [فَمُلاَقيهِ] ، وقال بعض حُذَّاقهم : العامل

= كُدُوحٌ في وجه صاحبها يوم القيامة ، فمن شاء فليستبق على وجهه ، وأَهون المسألة مسألةُ ذي الرحم تسأله في حاجة ، وخير المسأَلة المسأَلةُ عن ظهر غنى ، وابدأ بمن تعول) . قال ابن الأَثير : الكُدوحُ الخدوشُ ، وكلُّ أَثر من خَدْشٍ أَو عَضٍّ فهو كَدْحٌ .

(١) الاغترار : الغفلة ، والكَدْحُ : السعْي والمشقَّة ، والسفال : مصدر سَفَل وهو نقيض العُلُوِّ والرفعة ، يقول : إن الإنسان يعيش دائماً في غفلة ، ويتعب نفسه في حقير الأمُور التي لا تنفعه أو تنهض به .

(٢) نقل أَبو حيان كلام ابن عطية هذا ، ثم علَّق عليه بقوله : « وهذا القول نحن نختاره ، وقد استدللنا على صحته فيما كتبنا ، والتقــدير : وقت انشقاق السماء وقت مد الأَرض » .

فعلٌ مضمر . وكذلك اختلفوا في جواب [إِذَا] - فقال كثير من النحاة : هو محذوف لعلم السامع به ، وقال أبو العباس المبرد ، والأَخفش : هو في قوله تعالى : (يَاأَيُّها الإِنْسان إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحَاً فَمُلاقيه) ، أَي : إِذا انشقت السماءُ فأَنت ملاقي الله تعالى ، وقيل : التقدير : فيَاأَيُّها الإِنسان ، وجواب [إِذا] في الفاءِ المقدرة . وقال الفراءُ عن بعض النحاة : هو [أَذِنَتْ] على تقدير زيادة الواو (١) . فأما الضمير في [فَمُلاقيهِ] فقال جمهور المتأولين : هو عائد على الربِّ تعالى ، فالفاءُ - على هذا - عاطفة [مُلاق] على [كادح] ، وقال بعض الناس : هو عائد على الكدح فالفاءُ - على هذا - هي عاطفةٌ جملة الكلام على التي قبلها ، والتقدير : فأنت ملاقيه (٢) ، والمعنى : ملاق جزاءَه خيراً كان أَو شرًّا .

ثم قسَّم تعالى الناس إلى المؤمن والكافر ، فالمؤمنون يُعطون كُتُبهم بأَيمانهم ، ومن ينفذ عليه الوعيد من عصاتهم فإنه يُعطى كتابه عند خروجه من النار ، وقد جوَّز قوم أَن يُعطاه أَولا قبل دخول النار ، وهذه

---

(١) قال القرطبي تعليقاً على هذا الكلام : « وهذا غلط ، لأن العرب لا تُقحم الواو إلاَّ مع « حَتَّى- إذا » كقوله تعالى: « حَتَّى إذا جاءُوها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها) ، ومع « لَمَّا » كقوله تعالى : (فَلَمَا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ للْجَبين ونَادَيْنَاهُ) معناه : نادَيْناهُ ، الواو لا تُقحم مع غير هذين » .

(٢) أَيضاً نقل أَبو حيان الأندلسي هذا الكلا م عن ابن عطية في البحر المحيط ، وعقب بقوله : « ولا يتعيَّن ما قاله ، بل يصحُّ أَن يكون معطوفاً على (كادِحٌ) عطف المفردات » .

الآية تردُّ على هذا القول . و « الحِسابُ الْيَسيرُ » هو العرض ، وأَمَّا من نُوقش الحساب فإنه يهلك ويعذب ، كذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من حوسب عُذِّب) ، فقالت عائشة رضي الله عنها : أَلم يقل الله تعالى : (فَسَوْفَ يُحاسَبُ حساباً يَسيراً) الآية ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : (إنما ذلك العرض ، وأَمَّا من نوقش الحساب فإنه يهلك)(١) ، وفي الحديث من طريق ابن عمر رضي الله عنه ، قال : (يُدني الله تعالى العبد حتى يضع عليه كنفه ، فيقول : أَلم أَفعل بك كذا وكذا ؟ – يُعدِّدُ عليه نعمه – ، ثم يقول له : فلم فعلت كذا وكذا ؟ – لمعاصيه – فيقف العبد خزيانا ، فيقول الله تعالى : سترتها عليك في الدنيا وأَنا أَغفرها لك اليوم)(٢) . وقالت عائشة رضي الله عنها : سمعتُ رسول الله صلى الله

---

(١) أَخرجه أَحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، عن عائشة رضي الله عنها .

(٢) أَخرجه البخاري في الأدب وفي تفسير سورة هود وفي التوحيد ، وأَخرجه مسلم في التوبة ، وابن ماجه في المقدمة ، ولفظه كما في البخاري ، عن صفوان بن محرز ، قال : بينا ابن عمر يطوف إذ عرض رجل فقال : ياأبا عبد الرحمن ، أَو قال : يابن عمر هل سمعت النبي صلى الله عليه وسلم في النجوى ؟ قال : سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم يقول : يُدْنَى المؤمن من ربه – وقال هشام : يدنو المؤمن – حتى يضع عليه كَنَفَه ، فيقرره بذنوبه ، تعرف ذنب كذا ؟ يقول : أَعرفُ ربِّ ، يقول أَعرف مرتين ، فيقول : سَتَرْتُها في الدنيا وأَغفرها لك اليوم ، ثم تطوى صحيفة حسناته ، وأَما الآخرون ، أَو الكفار ، فَيُنادَى على رءوس الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم .

عليه وسلم يقول : (اللهم حاسبني حساباً يسيراً) ، فقلت : يارسول الله وما هو ؟ فقال : (أَنْ يتجاوز عن السيئات)[١] ، وروى ابن عمر أَن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من حاسب نفسه في الدنيا هوَّن الله حسابه يوم القيامة)[٢] . وقوله تعالى : (إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ) أَي الذين أَعدَّ الله تعالى له في الجنة ، إمَّا من نساءِ الدنيا وإما من الحور العين وإما من الجميع .

والكافر يُؤتي كتابه من ورائه لأَن يديه مغلولتان ، وروي أَن يده تدخل من صدره حتي تخرج من وراءِ ظهره فيأخذ كتابه بها .

ويقال إن هاتين الآيتين نزلتا في أَبي سلمة بن عبد الأَسد[٣] وفي

---

(١) أخرجه أَحمد ، وابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن عائشة رضي الله عنها ، ولفظه كما ذكره السيوطي في الدر المنثور : (سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في بعض صلاته : اللهم حاسبني حساباً يسيراً فلما انصرف قلت : يارسول الله ، ما الحساب اليسير ؟ قال : أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه ، إنَّه من نوقش الحساب هلك) .

(٢) لم أَقف عليه ، والذي رواه الترمذي في هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم : (حاسبوا أَنفسكم قبل أَن تُحاسبوا) .

هذا وقد أَورد الطبري سؤالاً في موضوع الحساب فقال : « إن قال قائل : كيف قِيل : (فَسَوْفَ يُحاسَبُ) والمحاسبة لا تكون إلا بين اثنين ، والله القائم بأعمالهم ، ولا أَحد له قِبَل ربِّه طَلِبَةٌ فيحاسبه ؟ قيل : إن ذلك تقرير من الله للعبد بذنوبه ،وإقرار من العبد بها وبما أَحصاه كتاب عمله ، فذلك المحاسبة على ما وصفنا ، ولذلك قيل : يحاسب » .

(٣) هو عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، أَبو سَلَمة ، أَخو النبي صلى الله عليه وسلم من الرضاعة ، وابن عمته بَرَّه بنت عبد المطَّلب ، كان من السابقين ، شهد بدراً ، ومات في حياة النبي صلى الله عليه وسلم بعد أُحد ، فتزوج النبي صلى الله عليه وسلم بعده زوجته أُم سَلَمة . (تقريب التهذيب) .

أَخيه الأَسود ، وكان أَبو سلمة من أَفضل المسلمين وأَخوه من عُتاة الكافرين . و (يَدْعُو ثُبُوراً) معناه : يصيح منتحباً : واثُبُوراه واحَزَنَاه ونحو هذا مما معناه : هذا وقتُك وأَوانُك ، أَي احضرني ، والثُّبور اسمٌ جامعٌ للمكاره كالويل .

وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، والكسائي ، وعمر بن عبد العزيز ، والجحدري ، وأَبو الشعثاءِ ، والأَعرج : [وَيُصَلَّى] بشد اللام وضم الياءِ على المبالغة . وقرأَ نافع أَيضاً ، وعاصم – في رواية أَبان – بضم الياءِ وتخفيف اللام ، وهي قراءة أَبي الأَشهب ، وعيسى ، وهارون عن أَبي عمرو . وقرأَ عاصم ، وأَبو عمرو ، وحمزة ، وأَبو جعفر ، وقتادة وعيسى ، وطلحة ، والأَعمش بفتح الياءِ على بناءِ الفعل للفاعل ، وفي مصحف ابن مسعود : « و سَيَصْلَى » . وقوله تعالى : (فِي أَهْلِهِ) يريد في الدنيا ، أَي تملَّكه ذلك لا يدري إلاَّ السرور بأَهله دون معرفة الله تعالى ، والمؤمن إن سُرَّ بأَهله لا حرج عليه .

وقوله تعالى : (إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ) معناه : أَنْ لن يرجع إلى الله تعالى مبعوثاً محشوراً ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : لم أَعلم مامعنى [يحور] حتى سمعتُ أَعرابية تقول لِبُنَيَّة لها : حوري ، أَي ارجعي . والظَّن هنا على بابه ، و[أَنْ] وما بعدها تسدُّ مسدَّ مفعولي [ظَنَّ] ، وهي

« أَنْ » المخففة من الثقيلة ، و « الحَوْرُ » : الرجوع على الأَدراج ، ومنه : (اللَّهم إِني أَعوذُ بك من الحَوْر بعد الكَوْرِ)[(١)] .

ثم ردَّ الله تعالى على ظن هذا الكافر بقوله سبحانه : [بَلَى] ، أي : يحور ويرجع ، ثم أَعلمهم أَنَّ الله تعالى لم يزل بصيرا بهم ، لا تخفى عليه أَفعال أَحد منهم ، وفي هذا وعيد .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴿٢٥﴾ ﴾

[لاَ] زائدة ، والتقدير : فأُقْسم ، وقيل : [لاَ] ردٌّ على أَقوال

---

(١) هذا جزءٌ من حديث نبويٍّ شريف معناه : أَعوذ بك من النقصان بعد الزيادة ، والحديث رواه مسلم في الحج ، والترمذي وابن ماجه في الدعاءِ ، والنسائي في الاستعاذة ، والدارمي في الاستئذان ، وأحمد في مسنده (٥/٨٢ ، ٨٣) ، ولفظه كما في مسند أَحمد: عن عبد الله بن سرجس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر قال : (اللهم أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل ، اللهم اصحبنا في سفرنا ، واخلُفْنا في أَهلنا ، اللهم إِني أَعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلَب ، ومن الحَوْر بعد الكَوْر ، ودعوة المظلوم ، وسوء المنظر في الأهل والمال) ، وسئل عاصم ــ الراوي عن عبد الله ــ عن الحَوْر بعد الكور ، قال : حار بعد ما كان .

الكفار ، وابتدأ القول : أُقْسِمُ ، وقَسَمَ الله تعالى بمخلوقاته هو على جهة التشريف لها وتعريضها للعبرة ، إذ القسم بها منبه منها . و « الشَّفَق » الحمرة التي تعقب غيبوبة الشمس مع البياض التابع لها في الأَغلب ، وقيل: الشفق هنا النهار كله ، قاله مجاهد ، وهو قول ضعيف ، وقال أَبو هريرة وعمر بن عبد العزيز : الشفقُ البياضُ الذي يتلو الحُمرة .

و « وَسَق » معناه : جَمَع وضَمَّ ، ومنه الوسْق ، أَي الأَصوع المجموعة ، والليل يَسِقُ الحيوان جملة ، أَيْ يجمعها في نفسه ويضمها ، وكذلك جميع المخلوقات التي في الأَرض والهواءِ من البحار والجبال والرياح وغير ذلك .

و « اتِّساق القمر » كمالُه وتمامه بدراً ، فالمعنى : امتلأَ من النور .

وقرأَ نافع ، وأَبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم ، وعمر ، وابن عباس – بخلاف عنهما – وأَبو جعفر ، والحسن ، والأَعمش ، وقتادة ، وابن جبير [لَتَرْكَبُنَّ] بضم الباءِ ، على مخاطبة الناس ، والمعنى : لتركبن الشدائد ، الموتَ والبعث والحساب حالاً بعد حال ، أَو تكون الأَحوال من النطفة إلى الهرم ، كما تقول : طبقة بعد طبقة ، و « عَنْ » تجيءُ بمعنى « بَعْد » ، كما تقول : « ورث المجد كابراً عن كابر » ، وقيل : المعنى : لتركَبُنَّ هذه الأَحوال أُمَّة بعد أُمَّة ، ومنه قول العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه في النبي صلى الله عليه وسلم :

وَأَنْتَ لَمَّا بُعِثْتَ أَشْرَقَتِ الأَرْ ضُ وَضاءَتْ بِنُورِكَ الطُّرُقُ
تُنْقَلُ مِنْ صَالبٍ إلى رحِـــــم إِذَا مَضَى عالَمٌ بَدَا طَبَقُ (١)

أي قَرْن من الناس ؛ لأنه طبق الأرض ، قال الأقرعُ بن حابس :

إِنيِّ امْرُؤٌ قَدْ حَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطُرَهُ وَساقَني طَبَقٌ مِنْهُ إلى طَبَقِ (٢)

أَيْ حالٌ إلى حال ، وقيل : المعنى : لتركبُنَّ الآخرة بعد الأُولى ، وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه : [لَيَرْكَبُنَّ] على أنهم غُيَّب ، وقال أبو عبيدة : المعْنى : لتركَبُنَّ سَنَنَ من قبلكم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

كما في الحديث : (شِبْراً بِشِبْر ، وذراعاً بذراع) (٣) ، فهو طبق عن

---

(١) البيت الثاني في اللسان ، واستشهد بالبيتين أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط ، والصَّالب : الصُّلْب وهو الظَّهْر ، وهو قليل الاستعمال في اللغة ، والرَّحِمُ : موضع تكوين الجنين ووِعاؤُه في البطن . ومعنى (إذا مَضَى عالَمٌ بدا طَبَقٌ) : إذا مضى قرنٌ ظهر قرنٌ آخر ، وإنما قيل للقَرْن طبَقٌ لأنهم طَبَقٌ للأرض ثم ينقرضون ويأتي طبقٌ للأرض آخر .

(٢) الأقرع بن حابس هو أحد حُكَّام العرب في الجاهلية ، ومعنى (حَلَبْتُ الدهرَ أَشْطُرَهُ) خبرتُ ضروبه ، إذْ مرَّ بي خيرُهُ وشرُّه ، يقال ذلك تشبيهاً بحلب أخلاف الناقة كلها ما كان منها ممتلئاً وما كان غير ممتلىء ، والناقة لها خِلْفان قادمان (أماميَّان) وخِلْفان خلفهما ، فكأنه حلب القادمَيْن وهما الخير ، والآخرين وهما الشرّ ، وكلُّ خِلْفين شَطْرٌ ، أي نصف . ومعنى (ساقني طبق منه إلى طبق) : ساقني حالٌ من الزمان إلى حالٍ آخر ، وهذا كناية عن الخبرة المتنوعة . وهذا هو موضع الاستشهاد هنا .

(٣) هذا جزءٌ من حديث أخرجه البخاري في الأنبياء وفي الاعتصام ، ومسلم في العلْم ، =

طبق ، ويلتئم هذا المعنى مع هذه القراءة التي ذكرنا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ويَحْسُن مع القراءة الأُولى ، وقرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي ، وعمرو بن مسعود [١] ، وابن عباس ، ومجاهد ، والأَسود ، وطلحة ، وابن جُبَير ، ومعروف ، والشَّعبي ، وأَبو العالية ، وابن وثاب ، وعيسى : [لَتَرْكَبَنَّ] بفتح الباءِ ، على معنى : أَنتَ يامحمد ، فقيل : المعنى : حالاً بعد حال من معالجة الكفار ، وقال ابن عباس : سماءً بعد سماءٍ في الإِسراءِ ، وقيل : هي عِدَةٌ بالنصر ، أَي لتركَبَنَّ أَمْر العرب قبيلاً بعد قبيل [٢] وفتحاً بعد فتح كما كان ووُجد بعد ذلك ، وقال ابن مسعود : المعنى : لتركبَنَّ السماءَ في أَهوال يوم القيامة حالاً بعد حال ، تكون كالمهل وكالدهان وتنفطر وتتشقّق ، فالسماءُ هي الفاعلة ، وقرأَ ابن عباس أَيضاً ، وعمر رضي الله عنهم : [لَيَرْكَبَنَّ] على ذكر الغائب ، فإِمَّا أَن يراد محمد صلى الله عليه وسلم على المعاني المتقدمة ، وقاله ابن عباس يعني نبيكم صلى الله عليه وسَلَّمَ إِمَاماً ، قال بعض الناس في كتاب النقاش من أَن المراد القمر لأَنه يتغير أَحوالاً وأَسراراً واستهلالاً .

ثم وقف تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم – والمراد أُولئك الكفار –

= وابن ماجه في الفتن ، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده ، والحديث بتمامه كما أخرجه مسلم عن أَبي سعيد الخدري ، وعن عطاء بن يسار : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الذين من قَبْلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جُحر ضَبٍّ لا تبعتموهم ، قلنا : يارسول الله ، آليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟) .

(١) في بعض النسخ : « وعمر ، وابن مسعود » .

(٢) القَبيل : الجيلُ والجماعة من الناس ، من قوم شتىً أَو من أَب واحد .

بقوله سبحانه : (فَمَا لَهُمْ لَايُؤْمِنونَ) ، أَي : ما حُجَّتهم مع هذه البراهين الساطعة ؟ وقرأ الجمهور : [يُكَذِّبونَ] بضم الياءِ وشد الذال ، وقرأ الضحاك بفتح الياءِ وتخفيف الذال وإسكان الكاف . و [يُوعُونَ] معناه : يجمعون من الأَعمال والتكذيب والكفر ، كأنهم يحملونها في أَوعية ، تقول : وعيتُ العلمَ وأَوعيتُ المتاع ، وجعل تعالى البشارة في العذاب لمَّا صرح به ، وإذا جاءت مُطْلقة فإنما هي في الخير .

ثم استثنى تعالى من كفار قريش القوم الذين كانوا سبق لهم الإِيمان في قضائه . و [مَمْنُون] معناه : مقطوع ، من قولهم: حبلٌ مَنينٌ ، أَي مقطوع ، ومنه قول الحارث بن حِلِّزَةَ الْيَشْكُرِيِّ :

فَتَرَى خَلْفَهَا مِنَ الرَّجْعِ وَالْوَقْـ ـعِ منيناً كأَنه أَهْــباءُ(١)

يريد : غباراً متقطعاً ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « مَمْنونٌ » مُعَدَّدٌ عليهم محسوبٌ مُنَغَّص بالمنِّ(٢) .

كمل تفسير سورة الانشقاق والحمد لله رب العالمين

(١) هذا البيت من معلقة الحارث بن حلِّزة ، والضمير في « خَلْفَها » يعود على الناقة الّتي كان الشاعر يصفها في الأبيات السابقة ويقول : إنهَّا آنست صوتاً وأفزعها القنَّاص حين دنا الإمساء ، والرَّجع : رجع قوائمها ، والوَقْع : وقع خفافها ، والمنين : الغُبار الدقيق ، وكلٌّ ضعيف فهو منين ، والأهباء : جمع هباءٍ ، وهو الغبار الذي ينتشر كأنه دخان ، وتراه إذا دخلت الشمس من نافذة أَوكُوَّة كأنه غبارٌ يتناثر من السماء ، ويروى البيت : الإهباء – بكسر الهمزة – ومعناها : إثارة الناقة لِلْهباء ، يقول : لقد ذعرت وفرت ، وجعلت تعدو بسرعة مثيرة خلفها الغبار الرقيق المتفرق .

(٢) بمعنى أن الله تعالى لا يَمُن عليهم الأَجر الذي يعطيه لهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٨٥) سُورَةُ البُرُوجِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا اثْنَتَانِ وَعِشْرُونَ

وهى مكية بإجماع من المتأولين ، لا خلاف في ذلك .

قوله عزَّ وجلَّ :

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ
وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ
عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ
إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾

اختلف الناس في « البروج » ـ فقال الضحاك وقتادة : هى القصور ، ومنه قول الأخطل :

كَأَنَّها بُرْجُ رُومِيٍّ يُشَيِّدُهُ بانٍ بِجِصٍّ وَآجُرٍّ وأَحْجارِ (١)

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: البروجُ: النجومُ لأَنها تتبرَّج بنورها، والتَّبرج: التَّظاهر والتَّبدي، وقال الجمهور وابن عباس أَيضاً: البروج هي المنازل التي عرفتها العرب، وهي اثنا عشر عَلَى ما قسَّمته، وهي التي تقطعها الشمس في سنة والقمر في ثمانية وعشرين يوماً، وقال قتادة: معناه: ذاتُ الرمل والماءِ، يريد أَنها مبنية في السماءِ، وهذا قول ضعيف.

و «اليوم الموعود» هو يومِ القيامة باتفاق، قاله النبي صلى الله عليه وسلم (٢)، ومعناه: الموعود به.

---

(١) يصف الأخطل الناقة في هذا البيت، ويشبهها في ضخامتها بالقصر الكبير المرتفع، وهذا التصوير تكرر كثيراً في كلام العرب. وشَيَّد البناءَ، رَفَعه وعَلاَّه، أَو طَلاَه بالشِّيد، وهو كلُّ ما طُلِيَ به البناء. والجِصُّ والآجُرُّ والحجارة: من موادِّ البناءِ، ويروى: «لُزَّ بجِصٍّ» بدلاً من «بان بجصٍّ».

(٢) أَخرج عبد بن حميد، والترمذي، وابن أَبي الدنيا في الأُصول، وابن جرير، وابن المنذر وابن أَبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن أبي هريرة: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اليوم الموعود يومُ القيامة، واليومُ المشهود يومُ عَرفَةَ، والشاهدُ يومُ الجمعة، وما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أَفضل منه، فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلاَّ استجاب الله له، ولا يستعيذ بشيءٍ إلاَّ أَعاذه الله منه)، قال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلاَّ من حديث موسى بن عُبَيْدَةَ الرَّبذي، وموسى بن عُبَيْدة يضعف في الحديث، ضَعَّفه يحي بن سعيد وغيره من قبَل حفظه، وقال ابن كثير: «روى هذا الحديثَ ابنُ خزيمة من طرق عن موسى بن عُبَيْدَةَ الرَّبَذي، وهو ضعيف، وقد رُوي موقوفاً على أَبي هريرة، وهو أَشبه». كذلك قال الحافظ ابن حَجَر في «التقريب» عن موسى بن عُبَيْدة: إنه ضعيف.

وقوله تعالى : [وَمَشْهُودٍ] معناه : عليه ، أَو بِهِ ، أَو فيه ، وهذا يترتب بحسب الخلاف في تعيين المراد بـ (شاهِد ومشهود) ، فقد اختلف الناس في المشار إليه بهما – فقال ابن عباس رضي الله عنهما : الشاهدُ : الله تعالى ، والمشهود : يومُ القيامة ، وقال ابن عباس أَيضاً ، والحسن ابن علي ، وعكرمة : الشاهدُ : محمد صلى الله عليه وسلم ، والمشهود : يوم القيامة ، قال الله تعالى : (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شاهِداً)[1] ، وقال تعالى في يوم القيامة : (ذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهودٌ)[2] . وقال مجاهد وعكرمه أَيضاً : الشاهد : آدم عليه السلام وجميع ذريته ، والمشهود : يوم القيامة . و « شاهد » اسم جنس على هذا ، وقال بعض من بسط قول مجاهد وعكرمة « شاهد » يراد به رجل فرد أَو نَسَمة من النَّسم ، ففي هذا تذكير لحقارة المسكين ابن آدم ، و « المشهود » يوم القيامة ، وقال الحسن بن أَبي الحسن وابن عباس أَيضاً : الشاهد : يوم عرفة ويوم الجمعة ، والمشهود : يوم القيامة ، وقال عليٌّ ، وابن عباس ، وأَبو هريرة ، والحسن ، وابن المسيب وقتادة : « شاهد » يوم الجمعة ، و « مشهود » يوم عرفة ، وقال ابن عمر : « شاهد » يوم الجمعة ، و « مشهود » يوم النحر ، وقال جابر : « شاهد » يوم القيامة ، و « مشهود» الناس ، وقال محمد بن كعب : الشاهد : أَنت ياابن آدم ، والمشهود : الله تعالى ، وقال ابن جبير بالعكس ، وتلا :

---

(١) من الآية (٤٥) من سورة الأحزاب ، وتكررت في الآية (٨) من سورة (الفتح) .

(٢) من الآية (١٠٣) من سورة (هود) .

(وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً) [١] ، وقال أَبو مالك : الشاهد : عيسى عليه السلام ، والمشهود : أُمَّتُه ، قال الله تعالى : (وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شهِيَداً) [٢] ، وقال ابن المسيب : « شاهد » : يوم التروية ، و « مشهود :» : يوم عرفة ، وقال بعض الناس في كتاب النقاش : الشاهد يوم الاثنين ، والمشهود يوم الجمعة ، وذكره الثعلبي . وقال علي بن أَبى طالب رضي الله عنه : الشاهد : يوم عرفة ، والمشهود : يوم النحر ، وعنه أَيضاً : « شاهد » : يوم القيامة ، و « مشهود » : يوم عرفة ، وقال أَبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلَّم : « شاهد » : يوم الجمعة ، و « مشهود » : يوم عرفة ، قاله عليٌّ وأَبو بكر والحسن . وقال إِبراهيم النَّخَعى : الشاهد : يوم الأَضحى ، والمشهود : يوم عرفة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ووصف هذه الأَيام بشاهدٍ لأَنها تشهد لحاضريها بالأَعمال ، والمشهود فيما مضى من الأَقوال بمعنى المشاهَد ـ بفتح الهاءِ ـ ، وقال الترمذي الشاهد : الملائكة الحفظة ، والمشهود عليهم : الناس ، وقال عبد العزيز ابن يحيى ـ عند الثعلبي ـ : الشاهدُ محمدٌ عليه الصلاة والسلام ، والمشهود

---

(١) من الآية (٧٩) ، وتكررت في الآية (١٦٦) من سورة (النساء) ، كذلك تكررت في الآية (٢٨) من سورة (الفتح) .

(٢) من الآية (١١٧) من سورة (المائدة) .

عليهم أُمَّته ، نحو قوله تعالى : (وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً)[١] ، أَي شاهداً ، وقيل : الشاهد الأَنبياءُ عليهم السلام ، والمشهود عليهم أُمَمُهُم ، وقال الحسن بن الفضل : الشاهدُ أُمَّة محمد صلى الله عليه وسلم ، والمشهود عليهم قوم نوح عليه السلام وسائر الأُمم حسب الحديث المنصوص في ذلك . وقال ابن جبير أَيضاً : الشاهدُ الجوارحُ التي تنطق يوم القيامة فتَشهد على أَصحابها ، والمشهود عليهم أَصحابها ، وقال بعض العلماءِ : الشاهد الملائكة المتعاقبون في الأُمة ، والمشهود قُرْآن الفجر ، وتفسيره (إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كانَ مَشهوداً)[٢] وقال بعض العلماءِ : الشاهد النجم ، والمشهود عليه الليل والنهار ، أَي : يشهد النجم بإِقبال هذا وإِدبار هذا ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (حَتَّى يطلع الشاهد)[٣] ، « الشاهد النجم » وقال بعض العلماءِ : الشاهد هو الله تعالى والملائكة وأُولوا العلم ، والمشهود به الوحدانيةُ وأَنَّ الدين عند الله الإِسلام ، وقيل : الشاهد مخلوقاتُ الله تعالى ، والمشهود به وحدانيته ، وأَنشد الثعلبى في هذا المعنى قول الشاعر :

---

(١) من الآية (٤١) من سورة (النساء) .

(٢) من الآية (٧٨) من سورة (الإسراء) .

(٣) أَخرجه مسلم في المسافرين ، والنسائي في المواقيت ، ففي صحيح مسلم عن أَبي بصرة الغفاريِّ ، قال : صَلَّى بنا رسوُل الله صلى الله عليه وسلم العصر بالمُخَمَّصِ – موضع معروف لهم – فقال : إن هذه الصلاة عُرِضت على من كان قبلكم فضَيَّعوها ، فمن حافظ عليها كان له أَجره مرَّتين ، ولا صلاة بعدها حتى يطلُع الشاهدُ « والشاهد النجم » . هذا والأَجران أحدهما لامتثال أَمر الله تعالى ، والثاني للمحافظة عليها .

وَفي كُلِّ شَيْءٍ لَـهُ آيَـةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّـهُ الواحِـدُ[١]

و [قُتِلَ] معناه : فعل الله تعالى بهم ذلك لأنهم أهل اه ، فهو على جهة الدعاءِ بحسب البشر ، لا أن الله تعالى يدعو على أحد ، وقيل – عن ابن عباس – : معناه : لُعن ، وهذا تفسير بالمعنى ، وقيل : هو إخبارٌ بأن النار قتلتهم ، قاله الربيع بن أنس ، وسيأتى بيانه .

واختلف الناس في أصحاب الأُخدود – فقيل : هم قومٌ كانوا على دين ، وكان لهم ملك ، فزنى بأُخته ، ثم حَمَلَه بعض الناس[٢] على أن يسن في الناس نكاح الأَخوات والبنات ، فَحَمَلَ الناسَ على ذلك ، فأَطاعه كثير وعصته فِرَقٌ ، فَخَدَّ لهم أَخاديد – وهى حفائر طويلة كالخنادق – وأَضرم لهم ناراً وطرحهم فيها ، ثم استمرت المجوسية في مطيعيه ، وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه : صاحب الأُخدود مِلِك من حمْيَر ، كان بمزارع[٣] من اليمن ، اقتتل هو والكفار مع المؤمنين ، ثم غلب في آخر الأَمر ، فحرَّقهم على دينه إذْ أَبَوْا دينه ، ومنهم كانت المرأَة ذات الطفل التي تلَكَّأَت فقال لها الطفل : امضي في النار فإِنك على الحق . وحكى النقاش عن علي رضي الله عنه أن نبيًّ أَصحاب

(١) الآية : العلامة ، جعـل الأَشياء كلها علامات دالَّةٍ على وحدانية الله سبحانه وتعالى .

(٢) في بعض النسخ : « ثم حمله بعض نسائه » ، وفي بعضها : « فزنى بابنته » .

(٣) في بعض النُّسخ : بمدارج ، ولعله يريد أرضا متدرجة .

الأُخدود كان حبشياً ، وأَن الحبشة بقية أَصحاب الأُخدود ، وقيل : صاحب الأُخدود ذُو نُوَاس في قصة عبد الله بن الثَّامر التي وقعت في السِّير ، وقيل : كان صاحب الأُخدود في بني اسرائيل .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ورأَيت في بعض الكتب أَن صاحب الأُخدود هو محرِّق ، وأَنه الذي حرَّق من بني تميم المائة ، ويُعترض هذا القول بقوله تعالى : (وَهُمْ عَلَى ما يَفْعَلونَ بِالْمُؤْمِنينَ شُهودٌ) ، فينفصل عن هذا الاعتراض بأَن هذا الكلام منقطع من قصة أَصحاب الأُخدود ، وأَن المراد بقوله تعالى : [هُمْ] قريش الذين كانوا يفتنون الناس المؤمنين والمؤمنات .

واختلف الناسُ في جواب القَسَم ـ فقال بعض النحاة : هو محذوف لِعِلْم السامع به ، وقال آخرون : هو قوله تعالى : [قُتِلَ] ، والتقدير : لَقُتِلَ ، وقال قتادة : هو في قوله تعالى : (إِنَّ بَطْشَ ربِّكَ لَشَديدٌ) ، وقال آخرون : هو في قوله تعالى : (إِنَّ الَّذينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ) .

وقوله تعالى : [النَّارِ] بدل من [الأُخْدود] ، وهو بدل اشتمال ، وهذه قراءة الجمهور [النَّارِ] بخفض الراءِ ، وقرأَ قوم : [النَّارُ] بالرفع ، على معنى : قتلتهم النارُ . و « الوُقودُ » ـ بالضَّم ـ مصدر من : وقدت النار إذا اضطرمت ، و « الْوَقودُ » ـ بفتح الواو ـ ما توقد به ، وقرأَ الجمهور بفتح الواو ، وقرأَ الحسن ، وأَبو رجاءٍ ، وأَبو حَيْوَة بضمها .

وكان من قصة هؤلاءِ أَن الكفار قَعَدُوا ، وضُم المؤمنون فعرض عليهم الدخول في الكفر ، فمن أَبَىَ رُمي في أُخدود النار فاحترق ، فروي أَنه احترق عشرون أَلفاً . قال الربيع بن أَنس ، وابن إِسحق ، وأَبو العالية : بعث الله تعالى على المؤمنين ريحاً فقبضت أَرواحهم ، أَو نحو هذا ، فخرجت النار وأَحرقت الكافرين الذين كانوا على حافتي الأُخدود ، وعلى هذا يجيءُ [قُتِلَ] خبراً لا دعاءً ، وقال قتادة : (إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعودٌ) يعني المؤمنين .

و [نقَمُوا] معناه : اعتدوا وتعدوا ، وقرأَ جمهور الناس : [نَقَمُوا] بفتح القاف ، وقرأَ أَبو حَيْوَةَ ، وابن أَبي عبلة : [نَقِمُوا] بكسر الفاءِ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾

[فَتَنُوا] معناه : أَحْرقوا ، وفتنتُ الذهب والفضة في النار : أَحرقتهما ، والْفَتينُ : حجارةُ الحرَّة السودُ لأَن الشمس كأَنها أَحرقتها . ومَنْ قال

إن هذه الآيات الأَواخر في قريش جعل الفتنة الامتحان والتعذيبَ ، ويُقَوِّي هذا التأْويلَ بعْضَ التقوية قوله تعالى : (ثُمَّ لَمْ يَتوبوا) ؛ لأَن هذا اللفظ في قريش أَحْكم منه في أَولئك الذين قد عُلم أَنهم ماتوا على كفرهم ، وأَمَّا قريش فكان فيهم وقت نزول الآية من تابَ بعد ذلك وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم . و « جَهنَّمُ والحريقُ » طبقتان من النار ، ومن قال إن النار خرجت فأَحرقت الكفارَ القعودَ جعل الحريق في الدنيا . و « البطشُ » الأَخْذُ بقوة وسرعة ، و (يُبْدِئُ ويُعيدُ) قال الضحاك ، وابن زيد: معناه : [يُبْدِئُ] الخَلْقَ بالإِنشاءِ و [يُعيدُ] بالحشر، وقال ابن عباس ما معناه : إن ذلك عام في جميع الأَشياءِ ، فهي عبارة عن أَنه يفعل كل شيءٍ ، أَي : يُبْدئُ كل ما يبدأُ ويُعيدُ كل ما يُعاد ، وهذان قسمان يستوفيان جميع الأَشياءِ ، وقال الطبري : معناه : يبدئُ العذاب ويعيده على الكفار .

و « الغَفُورُ الوَدُودُ » صفتا فِعْل ، الأُولى سَتْرٌ على عباده ، والثانية لُطْف بهم وإِحسانٌ إِليهم ، وخصص العرش بإِضافة نفسه إِليه تشريفاً للعرش وتنبيهاً على أَنه أَعظم المخلوقات . وقرأَ حمزة ، والكسائي ، والمفضل عن عاصم ، والحسن ، وابن وثاب ، والأَعمش ، وعمرو بن عبيد [الْمجَيدِ] بخفض الدال صفةً للعرش ، وهذا على أَن المجد والتمجُّد قد يوصف به كثير من الموجودات ، وقد قالوا : مَجَدَت الدابةُ إِذا سمنت ، وأَمْجدتُها إِذا أَحسنتَ عليها ، وقالوا : « في كل شجر نار واستمجد الْمَرْخُ

والعَفَارُ[١] » ، أَي كثرت نارهما ، وقرأَ الباقون والجمهور : [الْمَجِيدُ] بالرفع صفة لله تعالى . وقرأَ الجمهور : (ذوُ الْعَرْشِ) ، وروي عن ابن عامر : (ذي الْعَرْشِ) نعتاً لقوله تعالى : (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢) ﴾

هذا توقيف للنبي صلى الله عليه وسلم وتقرير ، بمعنى : فاجعل هؤلاءِ الكفرة الذين يخالفونك وراءِ ظهرك ولا تهتم ، فقد انتقم الله تعالى من أُولئك الأَقوياءِ الأَشداءِ فكيف بهؤلاءِ ؟ و « الجنودُ » : الجموع الُمعَدَّةُ للقتال والجري نحو غرض واحد ، وناب فرعون بالذكر مناب قومه وآله إِذْ كان رأْسهم ، و (فِرِعَوْنَ وَثَمودَ) في موضع خفض على البدل من [الْجُنُود] .

ثم ترك القول بحاله ، وأَضرب عنه إِلى الإِخبار بأَن هؤلاءِ

(١) الْمَرْخُ : شجر من العضاه من الفصيلة العشارية ينفرش ويطول في السماء ، ليس له ورق ولا شوك ، سريع الْوَرْيُ يقتدحُ به ، والعَفَارُ : شجيرة من الفصيلة الأريكيَّة لها ثَمَرٌ لُبِّيٌ أَحمر ، ويُتَّخذ منه الزنَادُ ، فيسرع الوري . وهذا مثل من أمثال العرب ، والمعنى أنهما استكثرا من النار ، كأنهما أَخذا من النار ماهو حسبهما فصلحا للاقتداح بهما ، وقيل : لأنهما يُسرعان الوَرْيَ فَشُبِّهَا بمن يكثر من العطاء طلباً للمجد .

الكفار بمحمد صلى الله عليه وسلم لا حجة لهم عليه ولا برهان ، بل هو تكذيب مجرد سببه الحسد ، ثم توعدهم بقوله تعالى : (وَاللَّهُ مِنْ ورائِهِمْ مُحِيطٌ) ، أَي وعذاب الله تعالى ونقمته ، وقوله تعالى :[مِنْ وَرَائِهِمْ] معناه يأتي من بعد كفرهم وعصيانهم .

ثم أَضرب تعالى عن تكذيبهم مُبطلاً له ورادًّا عليه ، وأَخبر أنه قرآن مجيد ، أَي : لا مَذَمَّة فيه ، وهذا ممَّا تقدم من وصف غير الله تعالى بالمجد والتمجُّد . وقرأَ ابن السميفع اليمانيُّ : (قُرْآنُ مَجيدٍ) على الإضافة وأَن يكون الله تعالى هو المجيد . و « اللَّوْحُ » هو اللَّوْحُ المحفوظ الذي فيه جميع الأَشياءِ ، وقرأَ جمور القراءِ : (في لَوْحٍ مَحْفُوظٍ) بِالْخفْض صفة لِلَّوْح المشهور بهذه الصفة ، وقرأَ نافع وحده ـ بخلاف عنه ـ وابن محيصن ، والأَعرج : [مَحْفُوظٌ] بالرفع صفة للقرآن ، على نحو قوله تعالى : (وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُون)(١) ، أَي هو محفوظ في القلوب لا يُدركه الخطأُ والتبديل . وقال أَنس : إن اللوح المحفوظ هو في جهة إسرافيل عليه السلام ، وقيل : هو من دُرَّة بيضاءَ . قاله ابن عباس ، وهذا كله مما قصَّرت به الأَسانيد ، وقرأَ ابن السميفع : (في لُوحٍ) بضم اللام .

كمل تفسير سورة البروج والحمد لله ربِّ العالمين

---

(١) من الآية (٩) من سورة (الحجر) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٨٦) سورة الطارق مكية
آياتها سبع عشرة

وهي مكية ، لا خلاف بين المفسرين في ذلك .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ
﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن
مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ
﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ ﴾

أَقسم الله تعالى بالسماءِ المعروفة في قول جمهور المفسرين ، وقال قوم : السَّماءُ هنا المطر ، والعرب تُسَمِّي سماءً لِمَا كان من السماءِ ، وتُسَمِّي السحاب سماءً ، قال الشاعر :

إذا نَزَلَ السَّماءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَعَيْناهُ وَإِنْ كانوا غِضابَا[(١)]

وقال النابغة :

كَالأُقْحُوَانِ غَدَاةَ غِبِّ سَمَائِهِ . . . .[(٢)]

و « الطَّارق » : الذي يأتي ليلاً ، وهو اسم الجنس لكل ما يظهر أَو يأتي ليلاً ، ومنه نهي النبي صلى الله عليه وسلم الناسَ في أَسفارهم أَن يأتي الرجل أَهله طروقاً[(٣)] ، ومنه طروق الخيال ، وقال الشاعر :

---

(١) هذا البيت للشاعر معاوية بن مالك الذي سمِّي « مُعَوِّد الحكَماء » ، ورواية اللسان « إذا سَقَطَ السماءُ » ، وهذا يؤكد أن المراد بالسماء المطر ، يفخر بقومه ــ على عادة العرب ــ بأنهم أَعزَّة ، ولعزَّتهم فإنهم يرعون ماشيتهم حيث يشاءون حتى ولو كان ذلك في أرض قوم عرفوا بالعنف والغضب .

(٢) هذا صدر بيت قاله النابغة ضمن قصيدة يمدح بها النعمان بن وائل الكلبي ، والبيت مع بيت قبله يصف أسنان محبوبته وثغرها ، ويشبه هذا الثغر بالأقحوان الذي نزل المطر على أرضه وسقاه فأينع ، ثم جفت أعاليه وبقى أسفله نديًّا رطباً ، والبيتان هما :

تَجْلو بِقَادِمَتَيْ حَمامَةِ أَيْكَةٍ بَرَداً أُسِفَّ لِثاتُهُ بالإِثْمِدِ
كَالأقْحُوانِ غداةَ غبِّ سَمَائِهِ جَفَّتْ أَعالِيهِ وأَسْفَلُهُ نَدي

والأُقحوان نبات من الفصيلة المركبة من جنس « أَنْتَاميس وجنس كِرِزَنْتِيُوم » ، وتسمِّيه العامَّة في مصر « أراولة » ، وفي الشام « الغريب » ، وغِبّ : عَقِب وبَعْد ، وسماؤُه : مطره ، وهي موضع الاستشهاد ، والصورة التشبيهية مركَّبة من لون أبيض صاف تحيط به الخضرة الداكنة مع جفاف في الأعالي وندى في الأَسفل .

(٣) أخرجه البخاري في العمرة والنكاح ، ومسلم في الإمارة ، والترمذي والدارمي في الاستئذان ، وأحمد في مسنده (١٧٥/١ ، ٣٠٢/٣) ، ولفظه كما في مسند الدارمي : (عن جابر =

يانائِمَ اللَّيْلِ مُغْتَرًّا بأَوَّلِــــهِ
إِنَّ الْحَوادِ ثَ قَدْ يَطْرُقْنَ أَسْحارَا (١)

ثم بيَّن تعالى الطارق الذي قَصَدَ من هذا الجنس المذكور وهو (النَّجْمُ الثَّاقِبُ) ، وقيل : بل معنى الآية : والسماءِ وجميع ما يطرق فيها من الأُمور والمخلوقات ، ثم ذكر تعالى بعد ذلك - على جهة التَّنبيه - أَجلَّ الطارقات قدراً وهو النجم الثاقب .

فكأنه تعالى قال : وما أَدراك ما الطارق حقَّ الطارق .

واختلف المتأولون في « النَّجم الثاقب » - فقال الحسن بن أَبي الحسن ما معناه أَنه اسم الجنس . لأَنها كلها باقية أَي ظاهرة الضوءِ ، يقال : ثَقَب النجمُ إذا أَضاءَ ، وثَقَبت النارُ كذلك ، وثَقَبت الرائحةُ إِذا سطعت ، ويقال للْمُوقِدِ : أَثْقب نارك ، أَي أَضِئْها . وقال ابن زيد :

= ابن عبد الله قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أَنيطرق الرجل أَهله ليلاً ، أو يخونهم ، أو يلتمس عثراتهم) ، قال سفيان - راوى الحديث : قوله : (أَو يخونهم أو يلتمس عثراتهم) ما أدرى أشيءٌ قاله محارب أو شيءٌ هو في الحديث . ورواية أَحمد عن سعد بن أَبي وقاص أنه قال : (إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نَهَى أَن يطرق الرجل أَهله بعد صلاة العشاء) .

(١) هــذا بيت مشهور متداول ، ومع ذلك لم يتفق الرواة على قائلة ، فالقرطبي ينسبه لابن الرومي ، وهو بعيد عن روح ابن الرومي ، وغير موجود في ديوانه ، واستشهد به الحافظ في كتاب الحيوان ولم ينسبه ، وذكره الغزالي في كتابه « الإحياء » ، ويروى (ياراقد الليل مسروراً بأوَّله) ، وبعده بيت آخر يذكر دائماً معه في مجال الاستشهاد هو :

لاَ تَفْرَحَنَّ بِلَيْل طَــابَ أَوَّلُــــهُ فَرُبَّ آخِــرِ لَيْلٍ أَجَّجَ النَّارَا

أَراد نجماً مخصوصاً وهو زُحل ، ووصفه بالثقوب لأَنه مُبَرِّز على الكواكب في ذلك . وقال ابن عباس : أَراد الجدي ، وقال بعض هؤلاءِ : ثَقَبَ النجمُ إِذا ارتفع ، فإِنما وصف زُحَلاً بالثقوب لأَنه أَرفع الكواكب مكاناً ، وقال ابن زيد أَيضاً وغيرُه : النجم الثاقب : الثُّرَيَّا ، وهو الذي تطلق عليه العرب اسم الجنس معرفاً .

وجواب القسم في قوله تعالى : (إِنْ كُلُّ نَفْسٍ) ، وقرأَ جمهور الناس : [لَمَا] مخففة الميم . قال الُحذَّاق من النحويين وهم البصريون : [إِنْ] مخففة من الثقيلة ، واللام لام التأْكيد الداخلة على الخبر ، وقال الكوفيون : [إِنْ] بمعنى « ما » النافية ، واللام بمعنى « إِلاَّ » ، فالتقدير : ما كلُّ نفس إِلاَّ عليها حافظ ، وقرأَ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، والأَعرج ، وأَبو عمرو ، ونافع - بخلاف عنهما - وقتادة : [لَمَّا] بتشديد الميم ، وقال أَبو الحسن الأَخفش : [لَمَّا] بمعنى « إِلاَّ » ، لغة مشهورة في هُذَيل وغيرهم . تقول : أَقسمتُ عليك لمَّا فعلت كذا ، أَي : إِلاَّ فعلت كذا .

ومعنى هذه الآية - فيما قال قتادة وابن سيرين وغيرهما - إِن كل نفس مكلَّفة فعليها حافظ يحصي أَعمالها ويُعِدُّها للجزاءِ عليها ، وبهذا الوجه تدخل الآية في الوعيد الزاجر . وقال الفراءُ : المعنى : عليها حافظ يحفظها حتى يسلمها إِلى القدر ، وهذا قول فاسد المعنى

لأَن مدة الحفظ إنما هى بقَدَر ، وقال أَبو أُمامة : قال النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير هذه الآية : (إن لكل نفس حَفَظَةٌ من الله تعالى يَذُبُّون عنها كما يُذَبُّ عن العسل ، ولو وُكل المرءُ إلى نفسه طرفة عين لا ختطفته الغِيَرُ والشَّياطين)[1] .

وقوله تعالى : (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ) توقيف لمنكري البعث على أَصل الْخِلقة الدالَّة على أَن البعث جائز ممكن ، ثم بادر اللفظة إلى الجواب[2] اقتضاباً وإسراعاً إلى إقامة الحجة ؛ إذ لا جواب لأَحد إلاَّ هذا . [دَافِقٍ] قال كثير من المفسرين : هو بمعنى مدفوق ، وقال الخليل وسيبويه : هو على النسب ، أَي : ذا دَفْق ، والدَّفْق : دَفْع الماءِ بعضه

(١) الذي أثبته السيوطي في الدر المنثور ، عن أبي أمامه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وُكِّل بالمؤمن ثلاثمائة وستون ملَكا يدفعون عنه مالم يقدر عليه ، من ذلك للبصر سبعة أملاك ، يذُبون عنه كما يُذَبُّ عن قصعة العسل من الذباب في اليوم الصائف ، وما لو بدا لكم لرأيتموه على كل سهل وجبل ، كُلُّهم باسطٌ يديه فاغِرٌفاه ، وما لو وُكِلَ العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين) ، والذي في القرطبي عن أبي أمامة : (وُكِّلَ بالمؤمن مائة وستون ملَكا يَذبّون عنه مالم يقدر عليه ، من ذلك البصر ، سبعة أملاك يذبُّون عنه ، كما يُذَبُّ عن قصعة العسل الذبابُ ولو وُكِلَ العبد الى نفسه طـرفة عين لا ختطفته الشياطين) ، قال السيوطي في الدر المنثور : « أَخرجه ابن أَبي الدنيا في مكايد الشيطان ، والطبراني والصابوني في المائتين ، عن أبي أُمامة رضي الله عنه » . لاحظ اختلاف الروايات ، وهذا راجع إلى اختلاف الرواة عن أبي مامة .

(٢) هكذا في كل الأصول ، وكلمة « اللفظة » هنا تكاد تكون زائدة .

ببعض كدفع الوادي والسيل إذا جاءَ يركب بعضه بعضاً ، ويصح أَن يكون الماءُ دافقاً لأَن بعضه يدفع بعضاً ، فمنه دافقٌ ومدفوق .

قوله تعالى : (يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرائبِ) ، قال قتادة والحسن وغيرهما : معناه : من بين صُلْب كل واحد من الرجل والمرأة وترائبه ، وقال سفيان وقتادة أَيضاً وجماعة : من بين صُلْب الرجل وترائب المرأة ، والضمير في [يَخْرُجُ] يحتمل أَن يكون للإنسان ، ويحتمل أَن يكون للماءِ ، وقرأَ الجمهور : [الصُّلْبِ] بسكون اللام ، وقرأَ أَهل مكة وعيسى : [الصُّلُبِ] بضم اللام على الجمع . و « التَّرِيبَةُ » من الإنسان : ما بين التَّرْقُوَةِ إلى الثدي ، قال أَبو عبيدة : مُعَلَّقُ الحلي على الصدر ، وجمع ذلك « تَريبٌ » ، قال المثقب العبديُّ :

وَمِنْ ذَهَبٍ يُسَنُّ عَلَى تَرِيبٍ ... كَلَوْنِ الْعاجِ لَيْسَ بِذِي غُضونِ[1]

(١) المثقّب لقبٌ له ، واسمه : عائذ بن محصن بن ثعلبة ، والبيت من قصيدة مشهورة له قال عنها أَبو عمرو بن العلاء : « لو كان الشعر مثلَها لوجب عل الناس أَن يتعلموه » ، والبيت في الديوان ، واللسان ، والمفضليات ، والقرطبي ، والبحر المحيط ، والطبري ، ومجاز القرآن . وفتح القدير ، ومعنى « يُسَنّ » : يُصْقَل ، والتَّرِيب : جمع تَرِيبَة ، وهذه تجمع أيضاً على ترائب ، وهي موضع القلادة من الصدر ، يصف محاسن محبوبته ، ويروي البيت : (ومن ذهبٍ يَلوحُ عَلَى تَريبٍ) .

وقال امرؤ القيس :

. . . . تَرَائِبُها مَصْقولَةٌ كَالسَّجَنْجَلِ (١)

فجمع التَّرِيبَة وما حولها فجعل ذلك ترائب . وقال مكي عن ابن عباس : إن « التَّرائب » أطرافُ المرءِ ، رجلاه ويداه وعيناه ، وقال معمر : التَّرائب جمع تَريبَة وهى عُصارة القلب ، ومنها يكون الولد ، وفي هذه الأَقوال تحكُّم على اللغة . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : التَّرائب موضع القلادة ، وقال أَيضاً : هى ما بين ثَدْيَى المرأَة ، وقال ابن جُبير : هى أَضلاع الرجل التي أَسفل الصلب ، وقال مجاهد : هى الصدر ، وقال : هى التراقي ، وقال : هى ما بين المنكبين والصدر .

وقوله تعالى : (إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ) الضمير في [إِنَّهُ] لله تعالى ، واختلف المفسرون في الضمير في [رَجْعِهِ] فقال ابن عباس ، وقتادة : هو عائد على الإنسان ، أَي : على ردِّه حيًّا بعد موته ، وقال الضحاك : هو عائد على الإنسان ، لكن المعني : يُرجعه ماءً كما كان أَوَّلاً ، وقال الضحاك

(١) هذا عجز بيت من معلقة امرىء القيس المشهورة ، والبيت بتمامه :

مُهفْهَفَةٌ بَيْضاءُ غَيْرُ مُفاضَةٍ تَرائبُها مَصْقُولَةٌ كَالسَّجَنْجَلِ

وهو في الديوان واللسان وموسوعة الشعر العربي ، والقرطبي ، والبحر المحيط ، وفتح القدير ، وغيرها ، والمُهَفْهَفَة هي الخفيفة اللحم اللطيفة في رقة ، وغير مفاضة : غير عظيمة البطن وَلاَ رَهْلة ، والتَّرائب : جمع تَريبَة وهي موضع القلادة من الصدر ، ومصقولة : لامعة صافية ، والسَّجَنْجَل : المرآةُ أو سبيكةُ الفضة وكلها أوصاف حِسِّيَّة .

أَيضاً : يُرجعه من الِكبَر إلى الشباب ، وقال عكرمة ، ومجاهد : هو عائد على الماءِ ، أَيْ يردُّه في الإِحليل ، وقيل : في الصُّلْب ، والعامل في [يوْمَ] – على هذين القولين الأَخيرين – فعلٌ مضمر تقديره : اذكر يومَ تُبلى السرائر ، وعلى القول الأَول – وهو أَظهر الأَقوال وأَبْينها – اختلفوا في العامل في [يَوْمَ] – فقال بعضهم : العامل « ناصِرٌ » من قوله تعالى : (وَلاَ ناصِرٍ) ، وقيل : العامل « الرَّجْعُ » من قوله تعالى : (عَلَى رَجْعِهِ) ، قالوا : وفي المصدر من القوة بحيث يعمل وإِنْ حال خَبَرَانِ بينه وبين معموله ، وقيل : العامل فعلٌ مضمر تقديره : « إِنَّه على رجعه لقادرٌ » « يُرْجعه يوم تُبْلَى السرائر » ، وكلُّ هذه الفِرق فرَّت من أَن يكون العامل « قادِرٌ » ؛ لأَن ذلكَ يظهر منه تخصيص القدرة في ذلك اليوم وحده ، وإِذا تُؤُمِّلَ المعنى وما يقتضيه فصيح كلام العرب جاز أَن يكون العامل « قادِرٌ » ، وذلك أَنه على رجعه لقادرٌ ، أَي : على الإِطلاق أَوَّلاً وَآخِراً وفي كل وقت ، ثم ذكر تعالى وخَصَّص من الأَوقات الوقت الأَهم على الكفار ؛ لأَنه وقت الجزاءِ والوصول إِلى العذاب ، فتجتمع النفوسُ إِلى حذره والخوف منه .

و (تُبْلَى السَّرائرُ) معناه : تُختبر وتُكتشف بواطنها ، وروى أَبو الدرداءِ عن النبي صلى الله عليه وسلم أَن السرائر التي يبتليها الله

تعالى من العباد : التوحيد والصلاة والزكاة والغسل من الجنابة ، وصوم رمضان[١] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه عُظْم الأَمر . وقال أبو قتادة : الوجه في الآية العموم في جميع السرائر ، وليس يمتنع في الدنيا من المكاره إلاَّ بأحد وجهين : إمَّا بقوة في ذات الإنسان وإما بناصر خارج عن ذاته ، فأخبر الله تعالى عن الإنسان أنه يعدمهما يوم القيامة فلا يعصمه من أمر الله تعالى شيءٌ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾ ﴾

---

(١) أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) عن أبي الدرداء ، ولفظه كما ذكره السيوطي في (الدر المنثور) : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ضمن الله خَلْقه أربعة ، الصلاة والزكاة وصوم رمضان والغُسل من الجنابة ، وهن السرائر التي قال الله (يَومَ تُبْلَى السرائرُ) ، وفي رواية ذكرها المهدوي (ائتمن اللهُ تعالى خَلْقَه على أربع : .... الحديث) .

« السَّماءُ » في هذا القَسَم يحتمل أَن تكون المعروفة ، ويحتمل أَن تكون السحاب ، و « الرَّجْع » : المطر وماؤُه . ومنه قول الهُذَليِّ :

أَبْيَضُ كَالرَّجْعِ رَسوبٌ إِذَا ما ثاخَ في مُحْتَفَلٍ يَخْتلي (١)

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الرَّجْع : السحاب والمطر ، قال الحسن : لأَنه يرجع بالرزق كلَّ عام ، وقال غيره : لأَنه يرجع إلى الأَرض ، وقال ابن زيد : الرجعُ مصدر رجوع الشمس والقمر والكواكب من حال إلى حالٍ ، ومن منزلة إلى منزلة ، تذهب وترجع .

و « الصَّدْعُ » : النباتُ ؛ لأَن الأَرض تتصدَّع عنه ، وهذا قول يناسب قول من قال : إن الرَّجْعَ هو المطر ، وقال مجاهد : الصَّدْعُ : ما في الأَرض من شعاب ولِصَاب (٢) وخندق وتَشقُّق بِحرْثٍ وغيره ، وفيها أُمور فيها معتبر ، وهذا قول يناسب القول الثانى في « الرَّجْع » .

والضمير في [إِنَّهُ] للقرآن – ولم يتقدم له ذكر – من حيث القول في جزءٍ منه والحالُ تقتضيه . و [فَصْلٌ] معناه : جَزْمٌ ، فَصَلَ الحقائق من الأَباطيل ، و « الْهَزْلُ » : اللَّعِبُ الباطِلُ .

---

(١) البيت للْمُتَنَخِّل الْهُذَلي يصف السيف ، وهو في اللسان ، والطبري ، والقرطبي ، والبحر ، وفتح القدير ، ومجاز القرآن ، والرَّجْعُ : قيل هو ماء المطر ، وقال في اللسان : هو الغدير يتردد فيه الماءُ ، وسيفٌ رَسُوبٌ : ماض يغيب في الضريبة ، وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم سيف يقال له رسوبٌ ، وثاخ : غابَ واْختفى ، والمُحْتَفَلُ : أَعظم موضع في الجسد ، ويختلي : يقطع . يقول : إن هذا السيف يترقرق البياض فيه كأنه ماء الغدير ، وهو سيف ثقيل يغيب في الجسد ، وإذا ما ضرب به غاب في الضريبة وقطع .

(٢) اللِّصاب : جمع لِصْبٍ ، وهو كل مضيق في الجبل أو الوادي .

ثم أَخبر تعالى عن قريش أَنهم يكيدون في أَفعالهم وأَقولهم وتمرسهم بالنبي عليه الصلاة والسلام وتدبيرهم ردَّ أَمره ، ثم قوى الله تعالى ذلك بالمصدر وأَكَّده ، وأَخبر سبحانه عن أَنه يفعل بهم عقاباً سمَّاه كَيْداً ، على العُرف في تسمية العقوبة باسم الذنب ، ثم ظهر من قوله تعالى : (فَمَهِّلِ الْكافِرينَ) أَن عقابه الذي سَّماه كَيْداً متأَخر حتى ظهر بِبَدْرٍ وغيره ، وقرأَ جمهور الناس : [أَمْهِلْهُم] ، وقرأَ ابن عباس : [مَهِّلْهُمْ] ، وفي هذه الآية مُوَادعة نسختها آية السيف .

وقوله تعالى : [رُوَيْداً] معناه : قليلاً ، قاله قتادة ، وهو حالٌ ، وهذه اللفظة إذا تقدمها شيءُ تَصِفُه ، كقولك : سَيْراً رُوَيداً ، أَو تقدمها فِعْلٌ يعمل فيها كهذه الآية ، وأَما إذا ابتدأْت بها فقلت : « رُوَيْداً يافلان » فهي بمعنى الأَمر بالتَمَهُّل ، تجرى مجرى قولهم : صبراً يازيد وقليلاً ياعمرو(١) .

كمل تفسير سورة الطارق والحمد لله رب العالمين

---

(١) قال الأزهري : إن « رُوَيْد » له أَربعة أَوجه : اسم للفعل ، وصفة ، وحال ، ومصدر ، فالاسم نحو قولك : رُوَيْدَ عَمْراً ، أَي أَرْوِدْ عمراً ، بمعنى أَمْهِلْه ، والصفة نحو قولك : ساروا سَيْراً رُوَيْداً ، والحال نحو قولك : سار القوم رويداً ، لما اتَّصل بالمعرفة صار حالاً لها ، والمصدر نحو قولك : رُوَيْدَ عَمْرٍو ، بالإضافة ، كقوله تعالى : (فَضَرْبَ الرِّقاب) . (راجع اللسان وغيره من كتب اللغة) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٨٧) سُورَةُ الأعلى مكية وآياتها تسع عشرة

وهى مكية في قول الجمهور ، وحكى النقاش عن الضحاك أنها مدنية ، وذلك ضعيف ، وإنما دعاه إليه قول من قال : إن ذكر صلاة العيد فيها [(١)] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ
فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ
فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ
﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى
﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾

---

(١) أخرج البخاري ، وابن سعد ، وابن أبي شيبة عن البراء بن عازب قال : أول من قدم علينا من أصحابِ النبي صلى الله عليه وسلم مُصْعَبُ بن عمير ، وابن أُمِّ مكتوم ، فجعلا يُقرآننا القرآن، ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي صلى الله =

[سَبِّح] في هذه الآية بمعنى : نَزِّه وقَدِّس وقل : سبحانه عن النقائص والغِيَر [١] جميعاً وما يقول المشركون ، و « الاسم » الذي هو « ألف ، سين ، ميم » يأتي في مواضع من الكلام الفصيح يُراد به المسمَّى ، ويأتي في مواضع يُراد به التَّسمية ، نحو قوله صلى الله عليه وسلم : (إن لله تسعة وتسعين اسماً) [٢] وغير ذلك ، ومتى أُريد به المسمَّى فإنما هو صِلَة كالزائد ، كأنه تعالى قال في هذه الآية : سبِّح ربَّك ، أي نَزِّه ، وإذا كان الاسم واحداً من الأسماء كزيْد وعمرو فيجيءُ في الكلام على ما قُلْتَ ، تقول : « زيد قائم » تريد المسمَّى ، وتقول : « زيد ثلاثة أَحرف » تريد التَّسمية ، وهذه الآية تحتمل الوجه الأَول ، وتحتمل أَن يراد بالاسم التسميةُ نفسها على معنى : نزِّه اسم ربِّك عن أَن يُسَمَّى به صنم أَوْ وثن فيقال له : إلاَهٌ وربٌ ونحو ذلك .

= عليه وسلم، فما رأيتُ أَهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاء ، فما جاء حتى قرأت (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى) في سور مثلها .

(١) هي أَحوال الدهر وأحداثه المتغَيِّرة ، قيل : مفرده ، غيرة : وقيل بل هو مفرد ، وجمعه أَغيار .

(٢) أَخرجه البخاري في التوحيد والشروط والدعوات ، ومسلم في الذكـر ، والترمذي في الدعوات وابن ماجه في الدعاء ، ولفظه كما في صحيح البخاري : عن أَبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إنَّ لله تسعة وتسعين اسماً، مائةً إلا واحدا ، من أَحصاها دخل الجنة) ، أَحصاها : حفظها .

و [الأَعْلَى] يصح أَن يكون صفة للاسم ، ويصح أَن يكون صفة للرب تعالى ، وذكر الطبري أَن ابن عمر وعليا رضي الله عنهما قرآ هذه السورة : « سُبحانَ رَبِّى الأَعْلى ، الَّذي خَلَقَ فَسَوَّى » قال : وهى في مصحف أُبَيٍّ بن كعب كذلك ، وهى قراءة أَبي موسى الأَشعري وابن الزبير ، ومالك بن دينار ، وروى ابن عباس رضي الله عنهما أَن النبي صلَّى الله عليه وسلم كان إِذا قرأَ هذه الآية قال : (سُبحانَ رَبِّي الأَعْلَى)[1] ، وكان ابن مسعود ، وابن عمر ، وابن الزبير يفعلون ذلك ، ولما نزلت هذه السورة قال النبي صلى الله عليه وسلم : (اجعلوها في سجودكم)[2] ، وقال قوم : معنى (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ) : نَزِّه اسم الله تعالى عن أَن تذكره إِلاَّ وأَنت خاشع ، وقال ابن عباس : معنى الآية : صلِّ باسم ربك الأَعلى ، كما تقول : ابدأْ باسم الله تعالى ، وحُذف حرف الجر .

و « سَوَّى » معناه : عدَّل وأَتْقن حتى صارت الأُمور مستوية دالَّةً

---

(١) أَخرجه أَحمد ، وأَبو داود والبيهقي في سننه ، وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وأَخرج مثله عبد الرزاق ، وابن أَبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير . (الدر المنثور) .

(٢) أَخرجه أَحمد وأبو داود ، وابن ماجه ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، عن عقبة بن عامر الجهني ، ولفظه كما ذكره السيوطي في الدُّر المنثور : قال : لمَّا أُنزلت (فَسَبِّحْ باسْمِ رَبِّكَ الْعظِيم) قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : اجعلوها في ركوعكم ، فلما نزلت (سَبِّح اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى) قال : اجعلوها في سجودكم .

على قدرته ووحدانيته ، وقرأ جمهور القُرَّاءِ : [قَدَّرَ] بشدِّ الدال ، فيحتمل أَن تكون من القَدَر والقضاءِ ، ويحتمل أَن تكون من التقدير والموازنة بين الأَشياءِ ، وقرأَ الكسائي وحده : [قَدَرَ] بتخفيف الدال ، فيحتمل أَن تكون من القُدرة ، ويحتمل أَن تكون من التقدير والموازنة ، وقوله تعالى : [فَهَدَى] عامٌ لجميع الهدايات في الإِنسان والحيوان ، وقد خصَّص بعض المفسرين أَشياءَ من الهدايات ـ فقال الفراءُ : معناه : هدَى وأَضلَّ ، واكتفى بالواحدة لدلالتها على الأُخرى ، وقال مقاتلٌ والكلبي : هدى الحيوان إلى وَطْءِ الذكور الإِناث ، وقيل : هدى المولود عند وضعه إلى مصِّ الثدي ، وقال مجاهد : هدى الناس إلى الخير والشر والبهائم للمراتع .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذه الأَقوال مثالات ، والعمومُ في الآية أَصوب في كل تقدير وفي كل هداية .

و « الْمَرْعَى » : النباتُ ، وهو أَصل في قوام العيش ، إِذْ هو غذاءُ الأَنعام ، ومنه ما ينتفع به الناس في ذواتهم ، و « الغُثَاءُ » : ما يبس وجفَّ وتحطَّم من النبات ، وهو الذي يحمله السيل ، وبه شُبِّه الناس الذين لا قدر لهم ، و « الأَحْوى » قيل : هو الأَخضر الذي عليه سوادٌ من شدة

الخضرة والغضارة ، وقيل : هو الأَسود سواداً يضرب إِلى الخضرة ، ومنه قول ذي الرُّمَّة :

لَمْيَاءُ في شَفَتَيْهَا حُوَّةٌ لَعَسٌ وَفي اللِّثاتِ وفي أَنيابَهِا شَنَبُ (١)

وتقدير هذه الآية : أَخرج المرعى أَحْوَى ، أَيْ أَسودَ من خُضرته ونضارته ، فجعله غُثاءً عند يُبْسه ، فـ [أَحْوَى] حالٌ ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : المعنى : فجعله غُثاءً أَحوى ، أَي أَسود ؛ لأَن الغُثاءَ إِذا قَدُم وأَصابته الأَمطار اسوَدَّ وتقبَّض فصار أَحوى ، فهذا صفة .

قوله تعالى : (سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى) ، قال الحسن ، وقتادة ، ومالك بن أَنس : هذه الآية في معنى قوله تعالى : (لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ) الآية (٢) وعده الله تعالى أَن يُقْرئه ، وأَخبره أَنه لا ينسى نسياناً لا يكون بعده تذكُّر فَيُذْهب الآية ، وذلك أَن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحرك شفتيه مبادرة خوفاً منه أَن ينسى ، وفي هذا التأويل آية للنبي صلى الله عليه وسلم في أَنه أُمِّيٌّ وحفظ الله تعالى عليه الوحى وأَمَّنه من نسيانه ،

---

(١) البيت في الديوان ، واللسان ، والقرطبي ، والبحر المحيط ، وفتح القدير ، والشَّفة اللمياءُ هي اللطيفة القليلة الدَّم ، وهذا يُعطيها سمرة كانت محبوبة عند العرب ، والحُوَّة : السَّواد الضارب إلى الخضرة ،وهو موضع الاستشهاد بالبيت هنا ،واللَّعَسُ – بفتح اللام المشددة والعين : لون الشفة إذا كانت تميل إلى السواد القليل ، واللِّثات : جمع لثَة ، والشَّنب : برُودة وعذوبة في الفم ورقَّة في الأسنان .

(٢) من الآية (١٦) من سورة (القيامة) .

وقال آخرون : ليست الآية في معنى تلك ، وإنما هذه وعْدٌ بإقراءِ الشرع والسُّوَر ، وأَمْرٌ بأَلاَّ ينسى ، على معنى التثبيت والتأكيد ، وقد علم تعالى أَن ترك النسيان ليس في قدرته ، فهو نهيٌ عن إغفال التعاهد ، وأَثبت الياءَ في [تَنْسَى] لتعديل رؤوس الآي[١] ، وقال الجنيد : معنى (لا تَنْسَى) : لا تترك العمل بما تضمن من أَمر ونهي .

وقوله تعالى : (إلاَّ ما شاءَ اللهُ) قال الحسن وقتادة وغيرهما : معناه : مما قضى الله سبحانه بِنَسْخِهِ وأَن تُرْفع تلاوتُه وحكمه ، وقال الفراءُ وجماعة من أَهل المعاني : هو استثناءٌ صِلَةٌ في الكلام ، على سنة الله تعالى في الاستثناءِ ، وليس ثَمَّ شيءٌ أُبيح نسيانُه ، وقال ابن عباس : إلاَّ ما شاءَ الله أَن ينسيكه لتَسُنَّ به ، على نحو قوله صلى الله عليه وسلم : (إنِّي لأَنْسَى ، وأُنَسَّى لأَسن)[٢] . وقال بعض المتأولين : إلاَّ ما شاءَ الله أَن يغلبك النسيانُ عليه ثم يذكِّرك به بعد ، ومن هذا قول النبي عليه الصلاة والسلام حين سمع قراءة عبّاد بن بشر : (رحمه الله تعالى ، لقد أَذْكرني كذا وكذا آيةً في سورة كذا)[٣] .

---

(١) يعني بالياء في [تَنْسَى] الألف التي أَصلها ياءٌ ، يقال : نَسِيَ يَنْسَى .

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ ، باب السهو .

(٣) أَخرجه البخاري في الشهادات ، ومسلم في المسافرين ، وأحمد في مسنده (٦/٦٢ ، ٥/١٥٣) ، ولفظه كما في البخاري : عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يقرأُ في المسجد فقال : رحمه الله، لقد أذكرني كذا وكذا آيةً أَسقطتُهُنَّ من سورة =

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ونسيانُ النبي صلى الله عليه وسلم ممتنع فيما أُمِر بتبليغه ؛ إذْ هو معصوم ، فإذا بلَّغه وَوُعيَ عنه فالنسيان جائز على أن يتذكر بعد ذلك ، أَو على أَن يسن ، أَو على النسخ .

ثم أَخبره تعالى أَنه يعلم الجهر من الأَشياءِ وما يخفى منها ، وذلك لإِحاطته بكل شيءٍ علماً ، وبهذا يصح الخبر أَنه لا ينسى شيئاً إلاَّ ذكَّره الله تعالى به . وقوله تعالى : ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴾ معناه : نذهب بك نحو الأُمور الْمُسْتَحسنة في دنياك وأُخراك ، من النَّصر والظَّفَر وعُلُوِّ الرسالة والمنزلة يوم القيامة والرفعة في الجنة .

ثم أَمره تعالى بالتذكير ، واختلف الناس في معنى قوله تعالى : (إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى) فقال الفراءُ ، والنحاسُ ، والزهراويُّ : معناه : وإن لم تنفع فاقتصر على القسم الواحد لدلالته على الثاني ، وقال بعض الحُذَّاق : إنما قوله تعالى : (إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى) اعتراضٌ بين

= كذا وكذا ،وزاد عبَّادُ بن عبد الله عن عائشة : تهجدَّ النبي صلىالله عليه وسلم في بيتي ،فسمع صوت عبَّادٍ في المسجد ، فقال : ياعائشة ، أَصَوْتُ عبَّادٍ هذا ؟ قلت : نعم ، قال : اللهم ارحم عباداً .

هذا وعبَّادُ بن بشر من قدماءِ الصحابة ، أَسلم قبل الهجرة ، وشهد بدراً ، وأَبْلَى يوم اليمامة فاستشهد بها ، رحمه الله .

الكلامين على جهة التوبيخ لقريش ، أَي : إنْ نفعت الذكرى في هؤلاءِ الطُّغاة العُتاة ، وهذا كنحو قول الشاعر :

لَقَدْ أَسْمَعْتَ ــ لو ناديت حَيًّا ــ وَلَكِنْ لاَ حَيَاةَ لِمَنْ تُنادِي [١]

وهذا كله كما تقول لرجل : قُلْ لفلان وأَعِدْ له إنْ سَمِعَكَ ، إنما هو توبيخ للمشار إليه .

ثم أَخبر الله تعالى أَنه سيذكَّرُ من يخشى الله تعالى والدارَ الآخرة ، وهم العلماءُ والمؤمنون ، كلٌّ بقدر ما وُفِّق ، ويتجنب الذكرى ونفعها من سبقت له الشقاوة فكفر ، ووجب له صَلْيُ النار ، وقال الحسن : « النَّارُ الكبرى » نار الآخرة ، والصغرى نارُ الدنيا ، وقال بعض المفسرين : إن جميع نار الآخرة وإن كانت شديدة فهي تتفاضل ، ففيها شَيءٌ أَكبر من شيءٍ ، وقال الفراءُ : الكبرى هي السُّفلى من أَطباق النار .

وقوله تعالى : (لاَ يَموتُ فيهَا وَلاَ يَحْيَا) معناه : لا يموت فيها موتاً مريحاً ولا يحيا حياةً هنيَّة ، فهو لامحالة حيٌّ ، وقد ورد في خبر أَن العصاة في النار موتى .

---

(١) فالجملة الاعتراضية في البيت تفيد معنى التوبيخ ، وتفيد أَن الإرشاد والنصح ينفعان من يستحق أن يوصف بالحياة ، أما من لا يستفيد من النصيحة فكأنه ميت وإن كان في صورة الأحياء .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وأَراده على التشبيه لأَنه كالسُّبات [(١)] والركود والهمود ، فجعله موتاً .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾

[أَفْلَحَ] في هذه الآية معناه : فاز ببغيته ، و [تَزَكَّى] معناه : طهَّر نفسه ونمَّاها بالخير ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : « من قال لا إله إلاَّ الله تطهَّر من الشرك » ، وقال الحسن : من كان عمله زاكياً ، وقال أَبو الأَحوص : من رَضَخَ [(٢)] من ماله وزكَّاه .

وقوله تعالى : (وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ) معناه : وحَّده وصلَّى له الصلوات التي فرض عليه ، وتَنَفَّل أَيضاً بما أَمكنه من صلاة وبرٍّ ، وقال أَبو سعيد الخدري ، وابن عمر ، وابن المسيب : هذه الآية في صبيحة يوم الفطر

---

(١) السُّبات : الراحة ، والنوم .

(٢) رَضَخَ له من ماله : أَعطاه قليلاً من كثير .

فَـ [تَزَكَّى] هو أَدَّى زكاة الفطر ، و (ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ) هو ذِكْرُ الله تعالى في طريق المصلى إلى أن يخرج الإمام ، و « الصلاة » هي صلاة العيد ، وقد روي هذا التفسير عن النبي صلى الله عليه وسلم(١) . وقال قتادة وكثير من المتأولين : [تَزَكَّى] معناه : أَدَّى زكاة ماله ، و [صَلَّى] معناه : صلَّى الخمس .

ثم أخبر الله تعالى الناس أَنهم يؤثرون الحياة الدنيا ، فالكافر يُؤْثرها إيثار كُفْر يَرَى أَلاَّ آخرة ، والمؤمن يُؤْثرها إيثار معصية وغَلَبة نفس إلاَّ من عصم الله تعالى . وقرأَ أَبو عمرو وحده(٢) : [يُؤْثِرونَ] بالياءِ ، وقال : يعني الأَشْقَيْن ، وهي قراءة ابن مسعود ، والحسن ، وأَبي رجاءٍ ، والجحدري ، وقرأَ الباقون والناس : [تُؤْثِرُونَ] بالتاءِ على المخاطبة ، وفي حرف أُبَيٍّ بن كعب : « بَلْ أَنْتُمْ تُؤْثرون » ، وسبب الإِيثار حبُّ العاجل ، والجهل ببقاءِ الآخرة ، وقال عمر رضي الله عنه : ما الدنيا في الآخرة إلاَّ كنفخة أَرنب .

---

(١) أخرج ابن مردويه عن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قد أَفلح من تزكى ، وذكر اسم ربِّه فصلَّى ، ثم يُقسِّم الفطرة قبل أَن يغدو إلى المصَلَّى يوم الفطر .

(٢) أَيْ من القراءِ السبعة .

وقوله تعالى : (إِنَّ هَذَا) قال الضحاك : أَراد القرآن ، وروي أَن القرآن انتسخ من الصحف الأُولى ، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : الإشارة إلى معانى السورة ، وقال ابن زيد : الإشارة إلى هذين الخبرين : إفلاح من تزكَّى ، وإيثارُ الناس للدنيا مع فضل الآخرة عليها . وهذا هو الأَرجح لقرب المشار إليه بـ [هَذَا] .

وقوله تعالى : (لَفِي الصُّحُفِ الأُولى) ، أَي لم ينسخ هذا قط في شرع من الشرائع ، فهو في الأُولى وفي الأَخيرات ، ونظير هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إنَّ ممَّا أَدرك الناس من كلام النبوَّة الأُولى إذا لم تَسْتَحِي فاصنع ماشئت) (١) ، أَي : إنه مما جاءت به الأُولى واستمر في الغير .

وقرأَ الجمهور : [الصُّحُف] مضمومة الحاء ، وروى هارون عن أَبي عمرو سكون الحاءِ ، وهى قراءة الأَعمش ، وقرأَ أَبو رجاءٍ : [إِبْرَهَمَ] بغير ياءٍ ولا أَلف ، وقرأَ ابن الزبير : [إِبْرَاهامَ] ، وكذلك أَبو موسى الأَشعري في كل القرآن ، وقرأَ عبد الرحمن بن أَبي بكر : [إِبْرَاهِمَ] بكسر الهاءِ وبغير ياءٍ في جميع القرآن .

---

(١) أَخرجه البخاري في الأنبياءِ والأَدب ، وأَبو داود في الأَدب ، وابن ماجه في الزهد ، ومالك في موطئه ، باب السفر ، وأَحمد في مسنده (١٢١/٤ ، ١٢٢ ، ٢٧٣/٥) .

ورُوى أَن صُحُف إِبراهيم عليه السلام نزلت في أَول ليلة من رمضان ، والتوراة في السادسة من رمضان ، والزبور في اثنتي عشرة منه ، والإنـجيل في ثماني عشرة منه ، والقرآن في أَربع عشرة منه[١] .

كمل تفسير سورة الأعلى والحمد لله ربِّ العالمين

(١) قال ابن جرير في تفسيره : « حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، عن أَبي الخلد ، قال : نزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان ، وأُنزلت التوراة لستٍّ ليال خلون مـــن رمضان ، وأُنزل الزبور لاثنتي عشرة ليلة ، وأُنزل الإنجيل لثماني عشرة ، وأُنزل القرآن لأربع وعشرين » ، وهذا يصحح لنا ما في الأصول هنا من أن القرآن أُنزل في الرابع عشر من رمضان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٨٨) سُورَةُ الغَاشِيَةِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا سِتٌّ وَعِشْرُونَ

وهى مكية بلا خلاف في ذلك بين أهل التأويل .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝٥ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ۝٦ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ۝٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ۝٨ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١ ﴾

قال بعض المفسرين : [هَلْ] بمعنى « قد » ، وقال الحذاق : هي على بابها توقيفٌ فائدته تحريك نفس السامع إلى تلقِّي الخبر ، وقيل : المعنى : هل كان هذا من علمك لولا أن علمناك ؟ ففي هذا التأويل تقرير النعمة . و « الغاشِيَة » : القيامة لأنها تغشى العالم كله بهولها وتغييرها

لِبِنْيَتِهِ ، قاله سفيان وجمهور من المتأولين ، وقال ابن جبير ومحمد ابن كعب: الغاشية : النارُ ، وقد قال تعالى: (وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ)[(١)] ، وقال : (وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ)[(٢)] ، فهى تغشى سكانها ، والقول الأَول يؤيده قوله تعالى : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعةٌ) ، والوجوه الخاشعة هى وجوه الكفار ، وخشوعُها ذُلُّها وتغيُّرُها بالعذاب .

واختلف الناسُ في قوله تعالى : (عامِلةٌ ناصِبَةٌ) ، فقال ابن عباس ، والحسن ، وابن جبير ، وقتادة : معناه : عاملةٌ في النار ناصبةٌ فيها ، والنَّصَب : التَّعب ، لأَنها تكبرت عن العمل لله تعالى في الدنيا فأَعملها في الآخرة في ناره ، وقال عِكرمة والسُّدِّيُّ : المعنى : عاملةٌ في الدنيا ناصبةٌ يوم القيامة ، فالعمل – على هذا – هو مساعى الدنيا ، وقال ابن عباس ، وزيد بن أَسلم ، وابن جبير : المعنى : هى عاملة في الدنيا ناصبة فيها .لأَنها على غير هدى ، فلا ثمرة لعاملها إلا النصب ، وخاتمته النار ، وقالوا : الآية في القِسِّيسينَ وعُبَّاد الأَوثان وكل مجتهد في كفر ، وقد ذهب إلى هذا المذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تأويل الآية ، وبكى رحمةً لراهب نصراني رآه مجتهداً[(٣)] ، وفي

---

(١) من الآية (٥٠) من سورة (إبراهيم) .

(٢) من الآية (٤١) من سورة (الأعراف) .

(٣) أخرج عبد الرزاق ، وابن المنذر ، والحاكم ، عن أَبي عمران الجوني ، قال : مرَّ عمر ابن الخطاب رضي الله عنه براهب فوقف، ونودى على الراهب فقيل له: هذا أَمير المؤمنين ، =

الحديث أَن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر القدرية فبكى وقال : إن فيهم المجتهد [١] .

وقرأ ابن كثير – في رواية شبل – وابن محيصن : (عامِلَةً ناصِبَةً) بالنصب على الذَّم ، والناصبُ فعل مضمر تقديره : أَذُمُّ أَو أَعنى أَو نحو هذا ، وقرأَ الستة وحفص عن عاصم ، والأَعرج ، وطلحة ، وأَبو جعفر والحسن : [تَصْلَى] بفتح التَّاءِ وسكون الصاد ، على بناءِ الفعل للفاعل ، أَي الوجوه ، وقرأَ أَبو بكر عن عاصم ، وأَبو عمرو – بخلاف عنه – وأَبو رجاءٍ ، وأَبو عبد الرحمن ، وابن محيصن – واختُلف عن نافع وعن الأَعرج – : [تُصْلَى] بضم التاءِ وسكون الصاد ، وذلك يحتمل أَن يكون من « صَلَيْتُه النار » بمعنى أَصليته فيكون كَتُضرب ، ويحتمل أَن يكون من أَصليتُه فيكون كَتُكرم ، قرأَ بعض الناس : [تُصَلَّى] بضم التاءِ وفتْح الصاد وشدِّ اللام ، على التعدية بالتضعيف ، حكاها أَبو عمرو بن العلاءِ . و « الحامية » : المسعَّرة التوقد المتوهجة . و « الآنِيةُ » : التي قد انتهى حرُّها ، كما قال تعالى : (وَبَيْنَ حَمِيمٍ آن) [٢] ، قاله

= فاطَّلع فإذا إنسان به من الضُّرِّ والاجتهاد وترك الدنيا ، فلما رآه عمر بكى ، فقيل له : إنه نصراني فقال : قد علمتُ ولكني رحمته ، ذكرت قول الله : (عاملَةٌ ناصبَةٌ ، تَصْلَى ناراً حاميَةً) فرحمت نصبه واجتهاده وهو في النار .

(١) لم أقف عليه .

(٢) من الآية (٤٤) من سورة (الرحمن) .

ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وقال ابن زيد : معنى « آنية » : حاضرة لهم ، من قولهم: أَنَى الشيءُ إذا حضر .

واختلف الناس في « الضَّريع » ـ فقال الحسن وجماعة من المفسرين هو الزَّقُّوم ؛ لأَن الله تعالى قد أَخبر في هذه الآية أَن الكفار لا طعام لهم إلاَّ من ضريع ، وقد أَخبر أَن الزَّقُّوم طعام الأَثيم [(١)] ، فذلك يقتضي أَن الضريع هو الزقوم . وقال سعيد بن جبير : الضريع حجارة في النار . وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وعكرمة : الضَّريع شِبْرِقُ النار ، وقال أَبو حنيفة : الضريع الشِّبرق [(٢)] ، وهو مرعى سوءٍ لا تعقد السائمة عليه شحماً ولا لحماً ، ومنه قول ابن عَيْزَارَةَ الـهُذَلِيِّ :

وَحُبِسْنَ في هزْم الضَّريعِ فَكُلُّها   حَدْباءُ دامِيَةُ الْيَدَيْنِ حَرودُ [(٣)]

---

(١) وذلك في قوله تعالى في الآيتين (٤٣ ، ٤٤) من سورة الدخان : (إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ، طَعامُ الأَثِيمِ) .

(٢) جاء في اللسان : « الشِّبْرِق ، بالكسر : نباتٌ غضٌ ، وقيل : شجر مَنْبِته نجد وتهامة ، وثمرته ساكَّة صغيرة الجِرْم ، حمراءُ مثل الدم ، مَنْبتها السِّباخُ والقيعان ، واحدته شِبْرِقة » .

(٣) البيت في اللسان ، والقرطبي ، والبحر المحيط ، وفتح القدير ، وفي التاج ، والكشاف ، والشاعر هو قَيْس بن عَيْزَارة ــ بفتح العين ــ والبيت في وصف إبِل وسُوء مرعاها ، وقد وصفها بشدة الهُزال ، وهَزْمُ الضريع : ما تكسَّرَ منه ، والحدباءُ : الناقة التي ظهرت حراقفُها ــ والحرقَفَةُ رأسُ الورِك ــ وكَبرِ ظَهْرها وبَدَا عالياً ، والحرودُ : التي لا تكادُ تُدِرُّ لبنا ، والسبب في أن يديها دَمِيَتْ أنها ترعى هذا الشوك وتتعرض له .

وقال أَبو ذُؤَيْب :

رعَى الشِّبرِقَ الرَّيَّانَ حتَّى إذا ذَوَى وَعاد ضَرِيعاً بانَ مِنْهُ النَّحائِصُ [١]

وقيل : الضريع : العِشْرِقُ [٢] ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (الضريع شوك في النار) [٣] ، وقال بعض اللغويين : الضَّريع يَبِسُ العَرْفَج [٤] إذا تحطم ، وقال آخرون : هو رَطْبُ العَرْفج ، وقال الزجاج : هو نَبْت كالعَوْسج [٥] ، وقال بعض المفسرين : الضريعُ نبت في البحر

---

(١) البيت في القرطبي ، والبحر المحيط ، وفتح القدير ، والكشاف ، وقد نسب فيها كلها إلى أبي ذُؤيب الهذلي ، ولكننا لم نجده في ديوانه ، والشبرقُ : نبتٌ يسميه أهل الحجاز ضريعاً إذا يَبس ، وغيرهم يُسَمِّيه الشِّبرق ، وَذَوَى : ذَبُل ويبسَ وضَعُف ، والنَّحائصُ : جمع نَحُوص ، وهي الأتان الوحشية ، وقيل : هي التي في بطنها ولد ، وقال الأصمعي : النحوصُ من الأتُن هي التي لا لَبَن بها ، وقيل : هي التي لا لَبَن بها ولا ولدٍ لها .

(٢) العشْرِقُ : من الحشيش ، ورقه شبيه بورق الغار ، إلاّ أنه أعظم منه وأكبر ، إذا حرَّكته الريح تَسمع له زجلاً ، وله حَمْل كَحَمْل الغار إلاّ أنه أعظم منه . (راجع اللسان) .

(٣) أخرجه ابن مردويه بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما ، (لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إلاّ مِنْ ضَرِيع) ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (شيءٌ يكون في النار ، شبه الشوك ، أمَرُّ من الصبر ، وأنْتَن من الجيفة ، وأشدُّ حرّاً من النار ، سماه اللهُ الضريع ، إذا طَعِمَهُ صاحبه لا يدخل البطن ، ولا يرتفع إلى الفم ، فيبقى بين ذلك ، ولا يُغني من جوع . (الدر المنثور) .

(٤) العَرْفج : نَبْت سَهْليٌّ سريع الاتّقاد ، واحدته عَرفَجة ، وقيل : هو من شجر الصيف ، وهو لَيِّن أغبر ، له ثمرة خشناء كالحَسَك .

(٥) العَوْسَجُ : شجر من شجر الشوك ، له ثمر أحمر مُدَوَّر كأنه خرز العقيق ، والمفرد : عَوسَجَة . (عن اللسان) .

أَخضر مُنْتِن مُجَوَّف مستطيل ، له نَوْر فيه كبير [(١)] ، وقال ابن عباس أَيضاً : الضريع شجر من نار . وكلٌّ من ذكر شيئاً مما قدمناه فإنما يعني أَن ذلك من نار ولابُد ، وكلُّ ما في النار فهو نارٌ ، وقال قوم : ضَريع : وادٍ في جهنم ، وقال جماعة من المتأولين : الضريعُ طعامُ أَهل النار ، ولم يُرد أَن يخصص شيئاً مما ذُكر ، قال بعض اللغويِّين : وهذا مما لا تعرفه العرب ، وقيل : الضريعُ : الجلدةُ التي على العظم تحت اللحم ، ولا أَعرف من تأول الآية بهذا ، وأَهل هذه الأَقاويل يقولون : الزَّقُّوم لطائفة ، والضَّريعُ لطائفةٍ ، والغِسْلينُ لطائفة .

واختلف في المعنى الذي سُمِّي به ضريعاً – فقيل : هو ضريعٌ بمعنى مُضْرِع ، أَي مضعف للبدن مُهْزِلٌ ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في وَلَدَيْ جعفر بن أَبي طالب رضي الله عنهم : (مالي أَراهما ضارعَيْن) [(٢)] ؟ يريد هزيلَيْن ، ومن فَعِيل بمعنى مُفْعل قول عمرو بن معد يكرب :

أَمِنْ رَيْحانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعُ ... يُؤَرِّقُنِي وَأَصْحابِي هُجوعُ [(٣)]

---

(١) اختلفت النسخ في كتابة هذه الجملة ، واخترنا أَقربها إلى ما يلائم المعنى العام .

(٢) أَخرجه مالك في الموطأ ، في كتاب العين .

(٣) هذا البيت هو مطلع قصيدة مشهورة للشاعر ذكر صاحب الأغاني سببيْن لإنشادها ، أَوَّلهما أن عمراً هذا تزوج امرأةً من مُراد تسمَّى « ريحانة » ، وذهب مغيراً قبل أن يدخل بها ، فلما قدِم أُخبر أنه قد ظهر بها وَضَحٌ – وهوداءٌ تحذره العرب – فطلقها وتزوجها رجل آخر من بني مازن بن ربيعة، وبلغ ذلك عمراً ، كما بلغه أَنَّ ما قيل عن مرضها غير صحيح ،فأخذ =

يريد : المسُمِع . وقيل : ضَريعٌ : فَعِيل من المضارعة ، أي لأنه يشبه المرعى الجيِّد ويضارعه في الظاهر ، وليس به .

ولما ذكر تعالى وجوه أهل النار عقَّب ذلك بذكر وجوه أهل الجنة ليبين الفرق ، وقوله تعالى : [لِسَعْيِهَا] يريد به : لعملها في الدنيا وطاعتها ، والمعنى: لثواب سعيها والتنعيم عليه ، ووصف تعالى الجنة بالعُلوِّ ، وذلك يصح من جهة المسافة والمكان ، ومن جهة المكانة والمنزلة أيضاً .

وقرأ نافع وحده ، وابن كثير ، وأبو عمرو – بخلاف عنهما – والأعرج ، وأهل مكة والمدينة : (لاَ تُسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةٌ) بضم التاءِ من فوق ، ورفع [لاَغِيَةٌ] ، ففسَّره بعضهم : لا تُسمع فيها كلمةٌ لاغية ، أي ذات لغْو ، فهي على النسب ، وفسَّره بعضهم على معنى : لا تُسمع فيها فئة أو جماعةٌ لاغية ناطقة بسوءٍ ، وقال أبو عبيدة : « لاَغِيَةٌ » مصدر كالعاقبة والجاثية ، وقرأ الجحدري : (لاَتُسْمَعُ) بضم التاء [لاَغِيَاً] بالنصب ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : (لاَ يُسْمَعُ) بالياءِ

= يشبب بها. وثانيهما أن « ريحانة » هذه هي أُخته، وأن الصِّمة – والدُ دُرَيْد بن الصِّمة– قد سباها بعد أن غزا بني زبيد ، ولم يستطيع عمرو أن يسترجعها . والشاهد هنا أن « السَّميع » بمعنى « المُسْمِع » ، كما أن « البديع » بمعنى « المبدع » ، والمعنى : إن الشوق الداعي المُسمِع يؤرقني في الوقت الذي ينام فيه أصحابي ويستريحون ، علَى أن للنحويين كلاما كثيرا في هذا البيت ، فمنهم من يقول ما ذكرناه ومنهم من يخالف ، ويدور بين الطرفين نقاش طويل في الإعراب وفي المعنى . والبيت في الأصمعيات ، واللسان ، والتاج ، وفي الخزانة ، والشعر والشعراء .

من تحت مضمومة [لاغِيَةٌ] بالرفع ، وهي قراءة ابن محيصن ، وعيسى ، والجحدري أيضاً ، إلاَّ أنه قرأ : [لاغِيَةً] بالنصب ، على معنى : لا يُسمع أحدٌ كلمةً لاغية ، من قولك : أَسمعتُ زيداً ، وقرأ الباقون ، ونافع – في رواية خارجة – والحسن ، وأَبو رجاءٍ ، وأَبو جعفر ، وقتادة وابن سيرين ، وأَبو عمرو – بخلاف عنه – : (لَا تَسْمَعُ) بفتح التاءِ [لاغِيَةً] بالنصب ، والمعنى إمَّا على الكلمة وإمَّا على الفئة ، والفاعل بـ [تَسْمَعُ] إمَّا الوجوه ، وإمَّا محمد صلى الله عليه وسلم – قاله الحسن – وإمَّا أنتَ أَيها المخاطب عموماً . و « اللَّغْوُ » سَقَط القول ، فذلك يجمع الفُحْش وسائر الكلام السَّفساف(١) الناقص ، وليس في الجنة نقصان ولا عيب فعل ولا قول ، والحمد لله وَلِيِّ النعمة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾

---

(١) أي : الحقير الرديء من كل قول أو فعل .

[عَيْنٌ] في هذه الآية اسم جنس ، ويحتمل أن تكون عيناً مخصوصة ذُكرت على جهة التشريف لها . ورَفْعُ السُّرُر أَشرف لها ، و « الأَكْوابُ » أوان كالأَباريق لا عُرَى لها ولا آذان ولا خراطيم ، وشكلها عند العرب معروف ، و [مَوْضوعَةٌ] معناه : بِأَشْرِبَتها مُعَدَّة ، و « النُّمْرُقَةُ » : الوسادة ، ويقال : نِمْرِقَةٌ بكسر النون والراءِ ، قال زهير :

كُهُولاً وَشُبَّاناً حِساناً وُجوهُهُـمْ عَلَى سُرُر مَصْفُوُفَةٍ ونمارِقِ[1]

و « الزَّرابي » واحدتها « زَرْبِيَّة » ، ويقالُ بفتح الزاي ، وهى كالطنافس لها خَمْلٌ[2] ، قاله الفَراءُ ، وهى ملونات و (مَبْثُوُثَةٌ) معناه : كثيرة متفرقة .

ثم أَقام تعالى الحجة على منكري قدرته على بعث الأَجساد بأَن وقَفَهم على مواضع العبرة في مخلوقاته ، و « الإِبل » في هذه الآية هى الجمال المعروفة ، هذا قول الجمهور من المتأَولين ، وفي الجمل آيات وعبر لمن تأمل ، ليس في الحيوان مَا يَقوم من البروك بحمله سواه ،

---

(١) لم أجد هذا البيت في ديوان زهير « دار صادر ببيروت » ، وقد ذكره في البحر المحيط منسوباً أيضاً إلى زهير ، والكهل : الرجل إذا جاوز الثلاثين ووخطه الشيب ، قال ذلك في الصحاح ، والسُّرر : جمع سرير ، والنمَّارق : جمع نُمرقة ، وهي بضم النون ، وقد تأتي بكسرها كما قال ابن عطية ، قال الفراء : النُّمرقة هي الوِسادة ، وفي الحديث : (اشتريت نُمرقة) .

(٢) الخَمْلُ : هُدْب القطيفة ونحوها مِمَّا ينسج وله فضول ، وقد يقال الخَمْل على القطيفة نفسها . (المعجم الوسيط) .

وهو على قوته غاية في الانقياد ، قال الثعلبي في بعض التفاسير : إن فأرة جرت بزمام ناقة فتبعتها حتى دخلت الجحر فبركت الناقة وأدنت رأسها من فم الجحر ، وكان شريح القاضي يقول لأَصحابه : اخرجوا بنا إلى الكُناسَة (١) حتى ننظر إلى الإبل كيف خُلقت ، وقال أَبو العباس المبرد : الإِبل هنا : السحابُ لأَن العرب قد تسميها بذلك إذ تأتي أَرسالاً كالإبل ، وتُزْجَى كما تُزْجَى (٢) الإبل ، وهى في هَيئَتها أَحياناً تشبه الإِبل والنعام ، ومنه قول الشاعر :

كأَنَّ السَّحابَ دُوَيْنَ السَّما ... ءِ نَعَامٌ تَعَلَّق بالأَرْجُل (٣)

وقرأَ أَبو عمرو ـ بخلاف ـ وعيسى : [الإِبِلّ] بشد اللام (٤) ، وهي السحاب كما ذكر قوم من اللغويين والنقاش ، وقرأَ الجمهور :

---

(١) الكُناسة : سوق الكوفة ، وكانت الإبل تأتي إليها بالبضائع أو تصدر عنها ، وهي مثل المربد سوق البصرة . وتنطق بضم الكاف .

(٢) زَجَّى الشيء وأَزْجاه : ساقه ودفعه ، والرِّيح تُزجي السحاب ، أي تسوقه سوقاً رفيقاً ، وفي الكتاب العزيز : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجي سَحاباً) .

(٣) البيت في البحر المحيط غير منسوب أَيضاً ، و « دُون » نقيض « فوق » ، ويقال : هذا دُونَ ذلك ، أَي أَقرب منه ، وقد صغرَّها الشاعر هنا ليشير إلى أن المسافة بين السحاب والسماء قليلة ، وهذا يعني أن السحاب كثير الارتفاع ، والبيت يدل على أن السَّحاب قد شُبِّه بالإبل ، ولكنه قطعا لايُعطي دلالة لغوية على أن الإبل هي السحاب كما يقول أَصحاب هذا الكلام .

(٤) الإبل : لا واحد لها من لفظها ، وهي مؤنثة مثل أَسماءِ الجموع التي لا واحد لها من لفظها ، ويقال : « إِبْل : » بسكون الباء ، والجمع : آبال .

[خُلِقَتْ] بفتح القاف وضم الخاء ، وقرأَعلي بن أَبى طالب : [خَلَقْت] بفتح الخاءِ وسكون القاف ، على فعل المتكلم ، وكذلك (رَفَعْتُ ، و نَصَبْتُ ، وسَطَحْتُ) ، وقرأَ أَبو حيوة : (رُفِّعَتْ ، وَنُصِّبتْ ، وَسُطِّحَتْ) بالتشديد فيها . و [نُصِبَتْ] معناه : أُثْبتت قائمة في الهواءِ لا تنبطح ، وقرأَ الجمهور : [سُطِحَتْ] بتخفيف الطاءِ . وقرأَ هارون الرشيد : [سُطِّحَتْ] بشد الطاءِ على المبالغة ، وهى قراءة الحسن . وظاهر هذه الآية أَن الأَرض سَطْحٌ لا كُرَة ، وهو الذي عليه أَهل العلم ، والقول بكريتها – وإِن كان لا ينقض ركنا من أَركان الشرع – فهو قول لا يُثبته علماءُ الشرع (١) .

ثم أَمر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بالتذكير بهذه الآيات ونحوها . ثم نفى تعالى أَن يكون مسيطراً على الناس ، أَي قاهراً مُخْبِراً لهم مع تكبُّر متسلطاً عليهم ، يقال : تسيطر علينا فلان . وقرأَ بعض الناس : [بِمُسَيْطِرٍ] بالسين ، وبعضهم [بمُصَيْطِرٍ] بالصاد ، وقرأَ هارون : [بمُسَيْطَر] بفتح الطاءِ ، وهى لغة تميم ، وليس في كلام العرب

(١) كان هذا في عصره ، أما الآن فلا يُقبل هذا الفهم ، ومعنى الآية لا يتعارض مع الحقائق والواقع ، فالأرض مسطوحة أمام العين فقط ، ولم تتعرض الآية لكرويتها أو انبساطها من أولها إلى آخرها ، والقرآن الكريم يقول في آية أُخرى : (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا) .

على هذا البناءِ غير « مُسَيْطر ، ومُبَيْطر ، ومُبَيْقر ، ومُهَيْمن »[(١)] ، وفي الأَسماءِ « مُدَيْبر ، ومُجَيْمر » ، وهو اسم واد ، ويحتمل أَن يكون هذان مُصغَّرين[(٢)] .

قوله تعالى : (إلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَكَفر) ، قال بعض المتأولين : « الاستثناءُ مُتَّصل ، والمعنى : إلاَّ من تولَّى وكفر فأَنت مسيطر عليه ، فالآية ـ على هذا ـ لا نسخ فيها ، وقال آخرون منهم : الاستثناءُ منفصل ، والمعنى: (لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ) وتمَّ الكلام ، وهي آية مُوَادعة منسوخة بالسيف ، ثم قال تعالى : (إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ، فيُعَذِّبُهُ) ، وهذا هو القول الصحيح ؛ لأَن السورة مكيَّةٌ ، والقتال إنما نزل بالمدينة ، و [مَنْ] بمعنى « الذي » . وقرأَ ابن عباس ، وزيد بن أَسلم ، وقتادة ، وزيد بن علي : (أَلاَ مَنْ تَوَلَّى) بفتح الهمزة ، على معنى استفتاح الكلام ، و [مَنْ] ـ على هذه القراءة ـ شرطية . و « الْعَذابُ الأَكْبَرُ » عذابُ الآخرة ؛ لأَنهم قد عُذِّبوا في الدنيا بالجوع والقتل وغيرهما ، وقرأَ ابن مسعود : « فإِنَّهُ يُعَذِّبُهُ اللهُ » .

وقرأَ الجمهور : [إِيابَهُمْ] ، مصدرٌ من « آب يَؤوبُ » إذا رجع ، وهو الحشر والردُّ إلى الله تعالى ، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع : [إِيَّابُهُمْ]

---

(١) وهذه الأربعة أسماء فاعلين ، من : سَيْطر ، وبَيْطَرَ ، وبَيْقرَ ، وهَيْمَنَ .
(٢) فهما في الأصل : مُدَبِّرٌ ومُجَمِّر ، وبعد التصغير كانا مُدَيْبر ومُجَيْمر .

بشد الياءِ ، على وزن « فِعَّال » بكسر الفاءِ ، أَصله « فيعال » ، من « أَيَّبَ » ، أَصله « فَيْعَلَ » . ويصحُّ أَن يكون من « أَوَّبَ » فيجىءُ « إِيواباً » وسهلت الهمزة ، وكان اللازم في الإِدغام ردها « إِوَّاباً » ، لكن استحسنت فيه الياءُ على غير قياس (١) .

كمل تفسير سورة الغاشية والحمد لله ربِّ العالمين

(١) قال صاحب اللوامح وتبعه الزمخشري : « هو نحو كذَّب كِذَّاباً ، وقيل فيه « إيواباً . لأن الواو الأولى قلبت ياءً لانكسار ما قبلها » ، ويرفض أبو حيان في البحر المحيط هذا الكلام ، ويناقشه مناقشة لغوية مبسوطة . وقال الأزهري : « لا أدري من قرأ « إيَّابهم » بالتشديد ، والقراء على التخفيف » .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أَجمعين

(٨٩) سورة الفجر مكية
وآياتها ثلاثون

وهى مكية عند جمهور المفسرين ، وحكى أَبو عمرو الداني في كتابه المؤلف في تنزيل القرآن عن بعض العلماءِ أَنه قال : إِنها مدنية ، والأَول أَشهر وأَصَحُّ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا
يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾
إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ
ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾
فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾
إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾

قال جمهور المفسرين : « الفَجْرُ » هنا هو المشهور الطالع في كل يوم ،

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الفجرُ : النَّهار كلُّه ، وقال ابن عباس أَيضاً وزيد بن أَسلم : الفجر الذي أَقسم الله تعالى به : صلاة الصبح ، وقرأ : (إِنَّ قُرْآن الفَجْر)[١] ، وقال مجاهد : إِنما أَراد فجر يوم النحر ، وقال الضحاك : المراد فجر ذي الحِجَّة ، وقال مقاتل : المراد فجر ليلة جمْع[٢] ، وقال ابن عباس أَيضاً : المراد فجر أَول يوم المحرَّم لأَنه فجر السنة ، وقيل : المراد فجر العيون من الصخور وغيرها ، وقال عكرمة : المراد فجر يوم الجمعة .

واختلف الناس في « اللَّيالي العَشْر » – فقال بعض الرواة : هي العشر الأُول من رمضان ، وقال ابن عباس والضحاك : هي العشر الأَواخر من رمضان ، وقال يمانُ[٣] وجماعة من المتأَولين : هي العشر الأُول من المحرم ، وفيها يوم عاشوراءَ ، وقال ابن الزبير ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، والسدي ، وعطية العوفى : هي عشر ذي الحَّجة ، وقال مجاهد : هي عَشْر موسى عليه السلام التي أَتمَّها اللهُ تعالى له . وقرأَ الجمهور : [وَلَيَالٍ] ، وقرأَ بعض القُرَّاءِ : (وَلَيَالِي عَشْرٍ) بالإِضافة ،

---

(١) في بعض النسخ « وقراءتُها هي قُرْآن الفَجر » .

(٢) جَمْعٌ هي المزدلفة ، وسميت بذلك لاجتماع الناس بها ، وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما : (بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم في الثَّقَل من جَمْعٍ بِلَيْل) ، وجمع علَم للمزدلفة .

(٣) لم يذكر أَحد من المفسرين الاسم كاملاً ، وهناك أَكثر من واحد بهذا الاسم .

وكأن هذا على أَنَّ « العَشْر » مشارٌ إليه معيَّنٌ بالعلم به ، ثم وقع القسم بلَيَالِيهِ ، فكأَن « العَشْر » اسمٌ لَزِمه ، وهذا نحو قولهم : « فعلتُ كذا في العشر الأَوسط » ، فإنما هذا على أَن « العشْرَ » اسمٌ لَزِم حتى عومل معاملة الفرد ثم وُصف به ، ومن راعى فيه الليالى قال « العَشْر الوُسُط » .

واختلف الناس في « الشَّفْع والوَتْر » ـ فقال جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم : (الشَّفع يومُ النحر ، والوَتْر يومُ عَرَفة) (١) ، وروى أَبو أَيوب عنه صلى الله عليه وسلم أَنه قال : (الشَّفْع يومُ عَرَفة ويومُ الأَضحى ، والوتر ليلة النَّحْر) (٢) ، وروى عِمْرانُ بن حُصَين عنه عليه الصلاة والسلام أَنه قال : (هي الصلواتُ منها الشَّفع ومنها الوتر) (٣) ، وقال ابن الزبير وغيره : الشفع اليومان من أَيام التشريق ، والوَتر اليوم الثالث ، وقال آخرون : الشَّفعُ العالم ، والوتر الله سبحانه ؛ إذْ هو

---

(١) أَخرجه أَحمد ، والنسائي ، والبزّار ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب ، عن جابر ، وأورده السيوطي في الدُّرِّ المنثور ، ولفظه أَن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (وَالْفَجِرِ ، وَلَيَالٍ عَشْرٍ ، وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ) ، قال : العَشْر عَشْر الأَضحى ، والوَتْر يومُ عرفة ، والشفع يومُ النحر .

(٢) أَخرج الطبراني وابن مردويه بسند ضعيف ، عن أبي أيوب ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه سُئل عن الشَّفع والوَتر فقال : (يومان وليلة ، يوم عرفة ويوم النحر ، والوتر ليلةُ النحر ، ليلة جَمْع) ، (الدر المنثور) .

(٣) أَخرجه أَحمد ، وعبد بن حميد ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن عمران بن حُصَين .

تعالى الواحد محضا ، وسواه ليس كذلك ، وقال بعض المتأولين : الشفع آدمُ وحواءُ عليهما السلام ، والوَتْر الله سبحانه وتعالى ، وقال ابن سيرين ، ومسروق ، وأبو صالح : الشفع والوَتْر شائعان في الخلق كله : الإيمان والكفر ، والإنس والجن ، وما اطَّرَدَ نحو هذا ، فهي أضدادٌ أو كالأضداد ، ووترها الله تعالى فردٌ واحدٌ ، وقيل : الشفع الصفا والمروة ، والوَتْر البيتُ ، وقال الحسين بن الفضل : الشفع أبواب الجنة لأنها ثمانية ، والوَتْر أبواب النار لأنها سبعة ، وقال مقاتل : الشفع الأيام والليالى ، والوَتْر يوم القيامة لأنه لا ليل بعده ، وقال أبو بكر الورَّاق : الشفع تضادٌّ أوصاف المخلوقين كالعِزِّ والذُّلِّ ونحوه ، والوتر اتحاد صفات الله تعالى ، عزٌّ محض وكَرَمٌ محض ، ونحوه ، وقيل : الشفع قِران الحج والعمرة ، والوَتْر الإفرادُ بالحج ، وقال الحسن : أقسم الله تعالى بالعدد لأنه إمَّا شفع وإمَّا وَتْر ، وقال بعض المفسرين : الشفع حواءُ والوَتْر آدم عليهما السلام ، وقال ابن عباس ومجاهد : الوَتْر صلاة المغرب ، والشفع صلاة الصبح ، وقال أبو العالية : الشفع الركعتان من المغرب ، والوَتْر الركعة الأخيرة ، وقال بعض العلماءِ : الشفع تنفُّلُ الليلِ مثنى مثنى ، والوتر الركعة الأخيرة المعروفة .

وقرأ جمهور القراءِ والناسُ : [وَالْوَتْرِ] بفتح الواو ، وهي لغة قريش وأهل الحجاز ، وقرأ حمزة ، والكسائي : والحسن – بخلاف –

وأَبو رجاءٍ ، وابن وثاب ، وطلحة ، والأَعمش ، وقتادة : [وَالْوِتْر] بكسر الواو ، وهي لغة تميم وبكر ، وذكر الزهراوي أَن الأَغَرَّ رواها عن ابن عباس ، وهما لغتان في الَفرد ، وأَمّا في الذَّحل (١) فإِنَّما هو « وِتْرٌ » بالكسر لا غير ، وقد ذكر الزهراوي أَن الأَصمعي حكى فيه اللغتين ، الفتح والكسر .

و « سُرى الليل » ذهابُه وانقراضه ، هذا قول الجمهور ، وقال ابن قتيبة ، والأَخفش ، وغيرهما : المعنى : إِذا يُسْرَى فيه ، فيخرج هذا الكلام مخرج « ليل نائم ونهار صائم » ، وقال مجاهد ، وعكرمة ، والكلبي : أَراد بهذا ليلة جمْعٍ لأَنها يُسْرَى فيها ، وقرأَ الجمهور : [يَسْرِ] دون ياءٍ في وصل ووقف ، وقرأَ ابن كثير : [يَسْري] بالياءِ في وصل ووقف ، وقرأَ نافع ، وأَبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ : [يَسْري] بياءٍ في الوصل ودونه في الوقف ، وحذفها تخفيف لاعتدال رءوس الآي إِذ هي فواصل كالقوافي ، قال اليزيديُّ : الوصل في هذا وما أَشبهه بالياء ، والوقف بغير ياءٍ على خط المصحف ، ووقف تعالى على هذه الأَقسام العظام هل فيها مقنع وحسب لِذِي عقل . و « الحِجْرُ » : العقلُ والنُّهْيَةُ ، والمعنى : فيزدجر ذو الحجر وينظر في آيات الله تعالى .

ثم وقف تعالى على مصارع الأُمم الخالية الكافرة ، وما فعل بها

---

(١) الذَّحْلُ : الحِقدُ والعداوة .

من التعذيب والإهلاك ، والمراد بذلك توعُّد قريش ونصب المثل لها .
و « عاد » قبيلة ، لا خلاف في ذلك ، واختلف الناس في « إِرَمَ » — فقال مجاهد وقتادة : هي القبيلة بعينها ، وعلى هذا قال ابن قيس الرقيات :

مَجْداً تَليداً بَناهُ أَوَّلُـــــــهُ أَدْرَكَ عاداً وَقَبْلَها إِرَمَــا (١)

وقال زهير :

وَآخَرينَ تَرى الماذِيَّ عُدَّتَهُمْ مِنْ نَسْجِ دَاودَ أَوْ ما أَوْرَثَتْ إِرَمُ (٢)

وقال ابن إسحق : إرمٌ هو أَبُو عاد كلِّها ، وهو عَادُ بن عوْص ابن إِرَم بن سام بن نوح عليه السلام ، وقال غير ابن إسحق : هو أَحد أَجدادها ، وقال جمهور المفسرين : إرمٌ مدينة لهم عظيمة كانت

---

(١) البيت من قصيدة قالها عُبَيْد الله بن قيس الرُّقَيَّات يمدح عمر بن عبد العزيز ، وهو في القرطبي ، والبحر المحيط ، وفتح القدير ، والكشّاف ، والتّليد : القديم الأصلي الذي ورثته أو وُلد عندك ، وهو نقيض الطارف ، وعادٌ هي القبيلة المعروفة ، ويضرب بها المثل في القِدَم ، وإرم هي نفس القبيلة ، وعلى هذا يستشهد المؤلف بالبيت ، وقيل غير ذلك مما سيذكره .

(٢) هذا البيت من قصيدة قالها زهير بن أَبي سُلْمى يمدح هرم بن سنان ، والماذيُّ : الدُّروع السهلة اللَّيِّنة الضافية ، من نَسْج داود : من صنعته التي عرف بها ، وإرَمُ : هي القبيلة ، وأراد بذلك أنها دروع قديمة مُتَوَارَثَة جيدة النسج ، منسوبة إلى النبي داود عليه السلام أول من عمل الدروع ، أو من ميراث تركته إرم القديمة .

على وجه الدهر باليمن ، وقال محمد بن كعب : هي الإسكندرية ، وقال سعيد بن المسيب والمقبُري [(١)] : هي دمشق ، وهذان القولان ضعيفان ، وقال مجاهد : « إِرَم » معناه : قديمة . وقرأ الجمهور : (بعَادٍ إِرَمَ) ، فصرفوا « عاداً » على إرادة الحيِّ ، ونعتوا بـ « إِرَم » بكسر الهمزة على أَنها القبيلة بعينها ، ويؤيد هذا قولُ اليهود للعرب سيخرج فينا نبيٌّ نتَّبعه ، نقتلكم معه قتل عادِ إِرَم ، فهذا يقتضي أَنها قبيلة ، وعلى هذه القراءة يتجه أَن يكون « إِرَمُ » أَباً لعاد أَوْ جدًّا غلب اسمه على القبيل . وقرأ الحسن بن أَبي الحسن : (بعَادِ ، إِرَم) على ترك الصرف في « عاد » وإِضافتها إِلى « إِرَمَ » ، وهذا يتجه على أَن يكون « إِرَمُ » أَباً أَو جدًّا ، وعلى أَن تكون مدينة . وقرأ الضحاك : (بِعَادَ أَرَمَ) بفتح الدال والهمزة من « أَرَمَ » وفتح الراءِ والميم ، على ترك الصرف في « عاد » والإِضافة ، وقرأ ابن عباس والضحاك : (بعَادٍ أَرَمَّ » بشدِّ الميم على الفعل الماضي بمعنى : بَلِيَ وصار رَمِيماً ، يقال : أَرمَّ العظمُ ورَمَّ وأَرَمَّهُ اللهُ ، تُعَدِّي « رَمَّ » بالهمزة . وقرأ ابن عباس أَيضاً : (أَرمَّ ذاتَ) بالنصب في التاءِ ، على إِيقاع الإِرْمام عليها ، أَي : أَبْلاها ربُّك وجعلها رميماً ، وقرأ ابن الزبير : [أَرِمَ] بفتح الهمزة وكسر الراءِ ، وهي لغة

(١) هو كَيْسان بن سعيد المَقْبُرِي المدني، أبو سعيد ، مولى أُم شريك ، ولهذا لم يعرف نسبه ، وهو تابعيٌّ ثقة ، كثير الحديث ، كان منزله بالقرب من المقابر فاشتهر بالمقبُري ، أوْ لأنه تولى النظر في أمر القبور ، توفي سنة مائة .

في المدينة ، وقرأ الضحاك بن مزاحم : [أَرْمَ] بسكون الراء وفتح الهمزة وهي تخفيف في « أَرِم » كَفَخْذٍ وَفَخِذْ .

واختلف الناسُ في قوله تعالى : (ذَاتِ الْعِمَادِ) فمَنْ قال « إِرَمُ مدينة » قال : العِمَادُ هي أَعمدة الحجارة التي بُنيت بها ، وقيل : القصورُ العالية والأَبراجُ ، يقال لها : عماد ، ومَنْ قال « إِرَمُ » قبيلة قال : العمادُ إِمَّا أَعمدة أَبْنِيَتِهِمْ وإِمَّا أَعمدة بيوتهم التي يرحلون بها ؛ لأَنهم كانوا أَهل عمود ينتجعون البلاد ، قاله مقاتل وجماعة ، وقال ابن عباس : هي كناية عن طول أَبدانهم .

وقرأ الجمهور : (لَمْ يُخْلَقْ) بضم الياءِ وفتح اللام [مِثْلُها] رفعاً ، وقرأ ابن الزبير : (لَمْ يَخْلُقْ) بفتح الياءِ وضم اللام [مِثْلَهَا] نصباً ، وذكر أَبو عمرو الداني عنه أَنه قرأ : (لَمْ نَخْلُق) بالنون وضم اللام [مِثْلَهَا] نصباً ، وذكر التي قبل هذه عن عكرمة ، والضمير في [مِثْلُها] يعود إِمَّا على المدنية وإِمَّا على القبيلة .

وقرأ يحيى بن وثاب : [وَثَمُوداً] بتنوين الدال ، و (جَابُوا الصَّخْرَ) معناه : خرقوه ونحتوه ، وكانوا في واديهم قد نحتوا بيوتهم في حجارة ، و « الوادي » ما بين الجبلين وإِن لم يكن فيه ماءٌ ، هذا قول كثير من المفسرين في معنى (جَابُوا الصَّخْرَ بِالوَادِ) ، وقال الثعلبي : يريد : بَوادي القرى ، وقال قوم : المعنى : جابوا واديهم وجلبوا ماءَهم في

صخر شقُّوه ، وهذا فعل ذي القوة والآمال ، وقرأ ابن كثير : [بِالوادِي] بالياءِ ، وقرأ أكثر السبعة : [بِالوَادِ] بدون ياءٍ ، واختلف في ذلك عن نافع وقد تقدم هذا .

و « فرِعْون » هو فرعون موسى عليه السلام ، واختلف الناس في أَوتاده — فقيل : أَبنيته العالية العظيمة ، قاله محمد بن كعب ، وقيل : جنوده الذين بهم ثبت ملكه ، وقيل : المراد أَوتاد أَخبية عساكره وذُكرت لكثرتها ودلالتها على غزواته وطوافه في البلاد ، قاله ابن عباس ، ومنه قول الأَسود بن يَعْفُر :

.... في ظِلِّ مُلْكٍ ثابِتِ الأَوْتَادِ (١)

وقال قتادة : كانت له أَوتاد يلعب عليها الرجال بين يديه وهو مشرف عليهم ، وقال مجاهد : كان يوتد الناس بأَوتاد الحديد ، يقتلهم بذلك ، يضربها في أَبدانهم حتى تنفذ إلى الأَرض ، وقيل :

---

(١) هذا عجز بيت قاله الأسود بن يَعْفُر ، وهو من قصيدة يتذكَّر فيها الشاعر أيام شبابه، ويتحسر على سعادته الضائعة ، وما كان ينعم به من لهو ومجون وفروسية ، شأنه شأن الفرسان في الجاهلية ، والبيت بتمامه :

وَلَقَدْ غَنَوا فيها بأَنْعَمِ عِيشَةٍ في ظِلِّ مُلْكٍ ثَابتِ الأَوْتَادِ

وَغَنَوا : أقاموا، يقول : إن أهل هذه الديار الّتي يتحسَّر عليها كانوا يعيشون فيها منعَّمين تحت حكم ثابت متين .

إنما فعل ذلك بزوجته آسية ، وقيل : فعل ذلك بماشطة بنته لأَنها كانت آمنت بموسى عليه السلام .

و « الطغيانُ » : تجاوز الحدود ، و « الصَّبُّ » مستعمل في السَّوط لأَنه يقتضي سرعة في النزول ، ومنه قول الشاعر في المحدودين في الإِفك :

فَصُبَّتْ عَلَيهِمْ مُحْصداتٌ كَأَنَّهَا
شَآبيبُ لَيْسَتْ مِنْ سَحابٍ وَلا قطْرِ [1]

ومن ذلك قول المتأَخر في صفة الخيل :

صَبَبْنَا عَلَيْهَا ظَالِمِينَ سِيَاطَنَـا فَطارَتْ بهَا أَيْدٍ سِرَاعٌ وَأَرْجُلُ [2]

---

(١) حديث الإفك معروف ، والذين حُدُّوا فيه هم حسَّان ، وحَمْنَة ، ومسْطَح ، وهم الذين افتروا على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، وقد روى ابن إسحق في السيرة أربعة أبيات من الشعر قيلت فيهم ، ولم ينسبها لشاعر معين ، بل قال : « وقال قائل مِنْ المسلمين » ، وهذه الأبيات على قافية الحاء ، والبيت المذكور هنا هو آخرها ، لكن روايته تختلف عما هنا ، فهو :

وَصُبَّتْ عَلَيْهِمْ مُحْصَدَاتٌ كَأَنَّهَا شَآبِيبُ قَطْرٍ مِنْ ذُرَى الْمُزْنِ تَسْفَحُ

والمحصداتُ هي السِّيَاط المحكمة الفتل ، الشديدة الصلابة . والشآبيب : جمع شُؤْبوب وهو الدفعة من المطر ، والذُّرى : الأعالي ، والمُزْن : السحاب ، وتَسْفَح : تسيل وتنزل بكثرة ــ أما المعنى بحسب المذكور هنا فهو أن هؤلاء المفترين قد صُبَّتْ عليهم السياط الشديدة كأنها المطر الغزير ، ولكنه مطر من نوع خاص ، فهو لم ينزل من السحاب ولا من الماء ، بل من سياط محكمة الفتل .

(٢) يقول الشاعر : إننا صببْنَا على هذه الخيل سياطنا ، وكنا لها ظالمين ، فأسرعت تجري كأنها تطير .

وإنما خُصَّ السَّوط بأن يستعار للعذاب لأَنه يقتضي من التكرار والترداد مالا يقتضيه السيف ولا غيره ، وقال بعض اللغويين : السَّوْط هنا مصدر ، من : ساطَ يَسُوطُ ، فكأَنَّه تعالى قال : خِلْط عذاب(١) .

و « المِرْصادُ » و « المَرْصَدُ » : موضع الرصد ، قاله اللغويون ، أَي أَنه عند لسانِ كُلِّ قائل ، ومرصدٌ لكلِّ فاعل ، وعلى هذا التأويل في المرصاد جاءَ جواب عامر بن قيس لعثمان رضي الله عنه حين قال له : أَين ربك ياأَعرابي ؟ قال : بالمرصاد ، ويحتمل أَن يكون « المرصاد » في الآية اسم فاعل ، كأنه تعالى قال : لَبِالرَّاصد ، فعبَّر ببناءِ مبالغة(٢) ، وروي في بعض الحديث (إنَّ على جسر جهنم ثلاث قناطر ، على إحداها الأَمانة ، وعلى الأُخرى الدم ، وعلى الأَخيرة الربُّ تعالى ، فذلك قوله : (إنَّ ربَّك لَبِالْمِرْصادِ)(٣) .

---

(١) لأن من معاني « السَّوْط » في اللغة : الخَلْطُ ، يقال : ساطة : أَي خَلَطَهُ ، فكأنه قال : خِلط عذاب .

(٢) ذكر أبو حيان في البحر المحيط كلام ابن عطية هذا ، وعلَّق عليه بقوله : « ولو كان كما زعم لم تدخل الباءُ ، لأنها ليست في مكان دخولها لا زائدة ولا غير زائدة » .

(٣) أخرجه الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، عن سالم بن أَبي الجعد ، وأخرج مثْلَه ابنُ جرير عن عمرو بن قيس ، ولم يرفعه أي منهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم . (الدر المنثور)

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ ﴾

ذكر الله تعالى في هذه الآية ما كانت قريش تقوله وتستدل به على إكرام الله تعالى وإهانته لعبده ، وذلك أَنهم كانوا يرون أَن مَنْ عنده الغِنى والثروة والأَولاد فهو المكْرَم ، وبضدِّه المهُان ، ومن حيث كان هذا المقطع غالباً على كثير من الكفار جاءَ التوبيخ في هذه الآية لاسم الجنس ؛ إِذْ قد يقع بعض المؤمنين في شيءٍ من هذا المنزع ، ومن ذلك حديث الأَعراب الذين كانوا يقصدون المدينة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فمن نال خيراً قال : هذا دِينٌ حسن ، ومن ناله شرٌّ قال : هذا دِينُ سوءٍ .

و [ابْتَلاَهُ] معناه : اختبره ، و [نَعَّمَهُ] معناه : جعله ذا نعمة ، وقرأَ ابن كثير : [أَكْرَمَني] بالياءِ في وَصْل ووقف ، وحذفها عاصم ، وابن عامر وحمزة ، والكسائي في الوجهين ، وقرأَ نافع بالياءِ في الوصل وحذفها في الوقف ، وكذلك [أَهانَنِ] ، وخيَّر في الوجهين أَبو عمرو . وقرأَ جمهور الناس : [فَقَدَرَ] بتخفيف الدال ، بمعنى : ضَيَّق ، وقرأَ الحسن –

بخلاف ـ وأبو جعفر ، وعيسى ، وخالد : [فَقدَّرَ] « بشدِّ الدال »[(١)] ، بمعنى : جعله على قدر ، وقيل : هما بمعنى واحد في معنى التَّضييق ؛ لأَنه ضعَّف [قَدَّرَ] مبالغةً لا تعديةً ، ويقتضي ذلك قول الإِنسان : « أَهَانَنِ » ؛ لأَن « قَدَّرَ » مُعَدًّى إنما معناه : أَعطاه ما يكفيه ، ولا إِهانة مع ذلك .

ثم قال تعالى : [كلاَّ] ردًّا على قولهم ومعتقدهم ، أَي : ليس إِكرامُ الله تعالى وإِهانتُه كذلك ، وإِنما ذلك ابتلاءٌ ، فحقٌّ من ابْتُليَ بالغنى أَن يشكر ويطيع ، ومن ابْتُلِيَ بالفقر أَن يشكر ويصبر ، وأَما إِكرامُ الله تعالى فهو بالتقوى ، وإِهانتُه فبالمعصية . ثم أَخبرهم تعالى بأَعمالهم من أَنهم لا يكرمون اليتيم ، وهو ـ من بني آدم ـ الذي فقد أَباه وكان غير بالغ ، ومن البهائم ما فقد أُمَّه ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (أَحبُّ البيوت إلى الله تعالى بيتٌ فيه يتيمٌ مُكرم)[(٢)] .

وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر : [تَحُضُّونَ] بمعنى : يَحُضُّ بعضكم بعضاً ، أَو تحُضُّون أَنفسكم ، وقرأَ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : [تَحَاضُّون] بفتح التاءِ ، بمعنى : يتحاضُّون ، أَي يحضُّ قومٌ قوماً ،

---

(١) مابين علامتي التَّنصيص زيادة للتوضيح .

(٢) أَخرجه البيهقي في شعب الإيمان ، عن عمر رضي الله عنه ، وأَخرجه العقيلي في الضعفاء وأبو نعيم في الحلية عن عمر أَيضاً ولكن بلفظ (خير بيوتكم بيتٌ فيه يتيمٌ مُكْرم) ، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بأنه صحيح .

وقرأ أبو عمرو : [يَحُضُّون] بياءٍ من تحت مفتوحة وبغير ألف ، وقرأ عبد الله بن المبارك : [تُحَاضُّون] بضم التاءِ - على وزن تقاتلون - ، أيْ أنفسكم ، أي بعضكم بعضاً ، ورواها الشَّيْرَزِيُّ عن الكسائي ، وقد يجيءُ « فاعَلْت » بمعنى « فعَلْتُ » ، وهذا منه ، وإلى هذا ذهب أبو علي ، وأنشد :

تحَاسَنْت بِهِ ....(١)

أي : حَسُنت ، وأنشد أيضاً :

إذا تخازَرْتُ وَمَابِي مِنْ خَزَرْ(٢)

---

(١) البيت غير واضح في الأُصول ، ولم نستطع قراءة شيءٍ منه إلاّ ما أثبتناه ، وهو : (تحاسَنت به) ، وهو موضع الاستشهاد ، حيث أن « تحاسَنَ » بمعنى « حَسُنَ » ، كما قال المؤلف ، لأن « تفاعل » قد تأتي بمعنى « فعل » .

(٢) ذكر صاحب اللسان عن ابن بَرِّى أن هذا البيت من الرجز يروى مع أبيات أُخرى لعمرو بن العاص رضي الله عنه ، وهذا هو المشهور ، ويقال : إنها لأرْطاةَ بن سُهَيَّة وتمثل بها عمرو بن العاص ، والأبيات كما أنشدها أبو عبيد :

إذا تَخَازَرْتُ وَمَابي مِنْ خَزَرْ
ثُمَّ كَسَرْتُ الْعَيْنَ مِنْ غَيْرِ عَوَرْ
وَجَدْتَني أَلْوَى بَعيدَ الْمُسْتَمَرْ
أَحْمِلُ ما حُمِّلْتُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرْ

ونلحظ أن المؤلف هنا يقول: « وأنشدها أبو علي »، وفي اللسان « وأنشدها أبو عبيد » ، والْخَزَرُ هو النظر بمُؤْخر العين ، والتَّخازُر هو إظهار الْخَزَرَ مع أنه غير موجود ، وهو مثل تعامَى وتجاهَل وتغافل، بمعنى أظهر العمى والجهل والغفلة ، ومعنى « أَلْوَى بعيد الْمُسْتَمر » أنه قويٌ في الخصومة لا يسأم المِراسَ . (راجع الكتاب لسيبويه ، والأمالي للقالي ، والمحتسب لابن جني ، والمقتضَب ، وابن يعيش ، واللسان) .

ويحتمل أن يكون مفاعلة ، ويتجه ذلك على رجف[(١)] ، فتأمله . وقرأ الأعمش : [تتحَاضُّون] بتاءين . و « طعام » في هذه الآية بمعنى : إطعام ، وقال قوم : أراد نفس طعامه الذي يأكل ، ففي الكلام حذف تقديره : على بذل طعام المسكين ، وقد تقدم القول في سورة براءة في المسكين والفقير بما يغني عن إعادته .

وعدَّد تعالى عليهم جِدَّهم في أكل التراث ؛ لأنهم كانوا لا يُوَرِّثون النساءَ ولا صغار الأولاد ، وإنما كان يأخذ المال من يقاتِل ويحمي الحوزة[(٢)] و « اللَّمُّ » : الجمع واللَّف ، قال الحسن : هو أن يأخذ في الميراث حظَّه وحظَّ غيره ، وقال أبو عبيدة : « لـمَمْتُ ما على الخِوان » إذا أكلتَ جميع ما عليه بأسره ، ومنه « لَمُّ الشَّعث » ، ومنه قول الشاعر :

وَلسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخاً لا تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ أَيُّ الرِّجالِ الْمُهَذَّبُ ؟[(٣)]

---

(١) هكذا في الأصُول ، ولعلّه يريد : على اضطراب واهتزاز في المعنى .

(٢) حَوزَة الرجل : ما في مِلْكه .

(٣) البيت للنابغة ، وهو من قصيدة يعتذر فيها للنعمان ويمدحه. و « مُسْتَبْق » معناها : مُبْقٍ ، فالسين والتاءُ للمبالغة ،و « أخاً » : صديقا ، و « تَلُمُّه » : لا تقبل منه ما فيه من عيوب ، وأصلُ اللّمِّ الجمعُ ، وقد استعمل هنا مجازاً في جمع مختلِف الطباع وقبولها سواءٌ أكانت مُرضية أو غير مرضية ، و « الشَّعث » : ما تفرق . و « أيُّ » اسم استفهام للإنكار ، أو للنفي ، إذ لايوجد رجل كامل التهذيب ، وجملة « أيُّ الرجال المهذب » بيان لما قبلها ، وقد كان حماد الراوية يقدم النابغة لمثل هذا : ويقول : هذا ربع بيت يغنيك عن غيره ، ومعنى البيت : إنك لا تستطيع أن تحتفظ بالأصدقاءِ مالم تقبل بعض عيوبهم ، لأنه لا يوجد إنسان كامل الخُلُق .

و « الجَمُّ » : الكثير الشديد ، ومنه قول الشاعر :

إنْ تغْفِرِ اللَّهُمَّ تغفِرْ جَمّــــا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لاَ أَلَمَّــا ؟[(١)]

ومنه : الجَمُّ من الناس .

ثم قال تعالى : [كَلاَّ] ردًّا على أَفعالهم هذه ، وتوطئة للوعيد ، أَي : سترون أَن أَفعالكم ليست على قَوَام[(٢)] إذا دُكَّت الأَرض ، ودَكُّها هو تسويتها بذهاب جبالها ، والناقة الدَّكاءُ هي التي لا سنام لها .

وقوله تعالى : (وَجَاءَ رَبُّكَ) معناه : وجاءَ قَدره وسلطانه وقضاؤُه ، وقال منذر بن سعيد : معناه ظهورُهُ للخلق هنالك ، ليس مجيءَ نُقْلة ، وكذلك مجيءُ الصاخَّة ومجيءُ الطَّامة[(٣)] . و « الْمَلَكُ » اسم جنس ، يريد جميع الملائكة ، ورُوي أَن ملائكة كل سماءٍ يكونون صفاً حول الأَرض في يوم القيامة ، وذكر الطبري في ذلك حديثاً طويلاً اختصرته ،

---

(١) في اللسان ـ جَمَمَ ـ وفي مغني اللبيب أَن هذا البيت لأبي خراش الهُذلي ، وفي اللسان ـ لَمَمَ ـ وفي شرح الزوزني أنه لأُمَيَّة بن أبي الصلت ، ولعلَّ أبا خِراش قد استشهد به ، والجَمُّ : الكثير المجتمع ، واللَّمَمُ : صغار الذنوب .

(٢) القَوَام : العدل والاستقامة .

(٣) يشير بذلك إلى قوله تعالى في الآية (٣٣) من سورة عبس : (فإذَا جَاءتِ الصَّاخَّةُ) ، وإلى قوله تعالى في الآية (٣٤) من سورة النازعات : (فَإذَا جاءت الطَّامَّةُ الكُبْرَى) .

وبهذا المعنى يتفسَّر قوله تعالى : (يوْمَ التَّنَادِّ)(١) على قراءة من شدَّ الدال ، وقوله تعالى في سورة الرحمن : (إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تنفُذُوا) الآية(٢) .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي في هذه الآية : [تُكْرِمُونَ] بالتاءِ ، وكذلك سائر الأفعال بعدها على الخطاب ، وقرأ أبو عمرو ، والحسن ، ومجاهد ، وأبو رجاءٍ ، وقتادة ، والجحدريُّ : [يُكْرِمونَ] بالياءِ في جميعها ، على ذكر الغائب ؛ إذ قد تقدم اسم جنس الإِنسان .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾

رُوي في قوله تعالى : (وَجيءَ يَوْمئِذٍ بجَهَنَّمَ) أَنها تُساق إلى الحشر بسبعين أَلف زمام ، يُمسك كلَّ زمام منها سبعون أَلف مَلَك ، فيخرج

(١) من قوله تعالى في الآية (٣٢) من سورة غافر : (وَيَاقَوْمِ إِنِّي أَخافُ علَيْكُمْ يَومَ التَّنَادِ) .

(٢) من الآية (٣٣) من سورة الرحمن .

منها عُنُق فتنتقي الجبابرة من الكفار ... في حديث طويل مختلف الألفاظ[(١)] و « جهنم » هنا هي النار بُجمْلتها ، ورُوي أنه لما نزلت (وَجيءَ يَوْمَئذٍ بجَهَنَّمَ) تغيرَّ لون النبي صلى الله عليه وسلم[(٢)] .

وقوله تعالى : (يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإنْسانُ) معناه : يتذكر عصيانه وطغيانه ، وينظر ما فاته من العمل الصالح ، ثم قال تعالى : (وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى) ، أي : وأَنَّى له نفع الذكرى ؟ ثم ذكر تعالى عنه أنه يقول : (ياليْتني قَدَّمْتُ لحِياتي) ، واختلف في معنى قوله : [لِحَيَاتي] فقال جمهور من المتأولين : معناه : لحياتي الباقية ، يريد الآخرة ، وقال قوم من المتأولين : المعنى : لحياتي في قبري عند بعثي الذي كنت

---

(١) أخرجه ابن جرير ، قال : حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربيِّ ، عن إسماعيل بن رافع المدني ، عن يزيد بن أبي زياد ، عن محمد بن كعب القرطي ، عن رجل من الأنصار ، عن أبي هريرة ، وهو حديث طويل ، وانظر الهامش التالي .

(٢) أخرجه ابن مردويه عن أبي سعيد ، وفيه : (لما نزلت هذه الآية تغيرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعُرف في وجهه، حتى اشتدَّ على أصحابه ما رأوا من حاله، فسأله عليٌّ فقال : جاءَ جبريل فأقرأني هذه الآية (كَلاَّ إذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً ، وجاءَ رَبُّكَ والْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ، وَجيءَ يَومَئِذٍ بِجَهَنَّمَ) ، فقيل : وكيف يُجاءُ بها ؟ قال : يجيءُ بها سبعون ألْفَ مَلَكٍ ، يقودونها بسبعين ألْف زمام، فتشرد شردة لو تُركت لأحرقت أهل الجمع)، وأخرج مثلَه ابن وهب في كتاب الأهوال ، عن زيد بن أسلم ، وأخرج مسلم ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يُؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف مَلَك يجرونها) .

أُكذِّب به وأعتقد أني لن أعود حيا ، وقال « لحياتي » هنا مجازاً ، أيْ : ليتني قدمت عملاً صالحاً لأَنعم به اليوم وأَحيا حياةً طيبة ، فهذا كما يقول الإنسان : أَحْيني في هذا الأَمر ، وقال بعض المتأولين : المعنى : لوقت أو لمدة حياتي الماضية في الدنيا ، وهذا كما تقول : جئت لطلوع الشمس ، ولتاريخ كذا ، ونحوه .

وقرأ جمهور القراء ، وعليٌّ بن أَبي طالب ، وابن عباس ، وأَبو عبد الرحمن : (يُعَذِّبُ) و (يُوثِقُ) بكسر الذال والثاء ، وعلى هذه القراءة فالضمير في (عَذَابَهُ) و (وثَاقَهُ) لله تعالى ، والمصدر مضاف إلى الفاعل ، ولذلك معنيان : أَحدهما أَن الله تعالى لا يكلُ عذاب الكفار يومئذ إلى أَحد ، والآخر أَن عذابه من الشدة في حيِّز لم يعذَّب قطٌّ أَحدٌ بمثله في الدنيا[(١)] ، ويحتمل أَن يكون الضمير للكافر ، والمصدر مضاف إلى المفعول . وقرأَ الكسائي ، وابن سيرين ، وابن أَبي إسحق ، وسوَّاد القاضي[(٢)] : (يُعذَّبُ) و (يُوثَقُ) بفتح الذال والثاء ، ورويت كثيراً عن النبي

(١) في بعض النسخ : « لم يُعَذِّب قطُّ أَحداً بمثله في الدنيا » .
(٢) هو سوَّادُ بن عبد الله بن قدامة التميمي ، العنبري ، كان قاضي البصرة ، قال عنه صاحب كتاب « تقريب التهذيب » : « صدوق ، محمود السِّيرة ، تكلَّم فيه الثوري لدخوله في القضاء ، مات سنة ست وخمسين » ، وهناك حفيده واسمه : سَوَّار بن عبد الله بن سَوَّار ، كان قاضي الرصافة وغيرها ، مات سنة خمس وأَربعين ، ونعتقد أَن الأول ـ وهو الجَدُّ ـ هو المقصود ، لأنه كان أَشهر بالقضاء ، وهذا الثاني كان أشهر من جده في الحديث .

صلى الله عليه وسلم [١] ، فالضميران ـ على هذا ـ للكافر الذي هو بمنزلة جنسه كله ، والمصدر مضاف إلى المفعول ، ووضع « عذاب » موضع « تعذيب » ، كما قال :

وَبَعْدَ عطائِكَ الْمِائَةَ الرِّتاعَا ؟ [٢]

ويحتمل أن يكون الضميران في هذه القراءة لله تعالى ، كأنه سبحانه قال : لا يُعذِّبُ أَحدٌ قطُّ في الدنيا عذاب الله تعالى للكفار ، فالمصدر

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن مردويه ، وابن جرير ، والبغوي ، والحاكم وصححه ، وأبو نعيم ، عن أبي قلابة ، عمّن أقرأه النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي رواية مالك بن الحويرث أن النبي صلى الله عليه وسلم أقرأه ـ وفي لفظ : أقرأ إياه (فَيوْمئذ لاَ يُعَذَّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلاَ يُوثَقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ) منصوبة الذال والثاء . (الدر المنثور) .

(٢) هذا عجز بيت قاله القطاميُّ ، وهو من قصيدة طويلة مدح بها زُفَرَ بن الحارث الكلابي ، وكان زُفر قد أسر القطاميَّ في الحرب التي كانت بين قيس وتغلب ، وأرادت قيس قتله ، لكن زُفر حال بينهم وبينه ، ومَنَّ عليه ، وأعطاه مائة من الإبل ، وأطلق سراحه ، فقال قصيدته ، والبيت بتمامه :

أَكُفْراً بَعْدَ رَدِّ الْمَوت عَنِّي وَبَعْدَ عَطَائك الْمائَةَ الرتاعَا ؟

والاستفهام في (أَكُفْراً) إنكاريٌّ ، والمعنى : أأَكْفُرُ كفْراً ؟ والرِّتاع : جمع راتعة ، وهي الراعية ، يقول : أأَخونك بعد أنْ مننتَ عليَّ وأطلقتَ سراحي وأعطيْتَني هذه المائة ؟ والشاهد أن « العطاء » هنا بمعنى « الإعطاء » ، ولهذا عمل عمله ، والمفعول الثاني محذوف ، وتقديره : بعد إعطائك المائة الرِّتاعَ إيَّايَ ، و (رَدِّ) : مصدر مضاف إلى المفعول ، وفاعله محذوف ، والتقدير : بَعْدَ رَدِّك الموتَ عنِّي .

مضاف إلى الفاعل ، وفي هذا التأويل تحامل . وقرأ الخليل بن أحمد [١] : [وِثاقَهُ] بكسر الواو .

ولما فرغ ذكر هؤلاءِ المعذَّبين عقَّب تعالى بذكر نفوس المؤمنين وحالهم ، فقال تعالى : (يَـأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ) الآية . و « الْمُطْمَئِنَّةُ » معناه : الموقنة غاية اليقين ، ألا ترى أن إبراهيم عليه السلام قال : (وَلَكِنْ لِيطْمَئِنَّ قَلِبْي) ؟ فهي درجة زائدة على الإيمان ، وهي ألاَّ يبقى على النفس في يقينها مطلب يُحرِّكها إلى تحصيله .

واختلف الناس في هذا النداءِ ، متى يقع ؟ فقال ابن زيد وغيره : هو عند خروج نفس المؤمن من جسده في الدنيا ، ورُوي أَن أَبا بكر الصديق رضي الله عنه سأل عن ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : له : (إنَّ الْمَلَكَ سيقولها لك يا أَبا بكر عند موتك) [٢] ، ومعنى (ارْجِعِي إلى رَبِّك) ـ على هذا التأْويل ـ : ارْجعي بالموت ، وقوله تعالى : (في عِبَادي) معناه : في عداد عبادي الصالحين ، وهذه قراءة

---

(١) هو الخليل بن أحمد الأزديُّ الفراهيديُّ ، أبو عبد الرحمن ، البصريُّ اللغويُّ ، صاحب العروض والنحو ، صدوق عالم عابد ، وهو أستاذ سيبويه ، مات بعد الستين .

(٢) أخرجه عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أَبي حاتم ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الحلية ، عن سعيد بن جبير ، وأَخرجه الحكيم الترمذي في (نوادر الأصُول) من طريق ثابت ابن عجلان ، عن سليم بن أَبي عامر ، وأَخرجه ابن أَبي حاتم ، وابن مردويه ، والضياءُ في المختارة ، من طريق سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما .

الجمهور ، بجمع (عبادي) . وقيل : النداءُ عند قيام الأَجساد من القبور ، فقوله تعالى : (ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ) معناه : بالبعث من موتك ارجعي إِلى الله تعالى ، وقيل : « الرَّبُّ » هنا : الإِنسان ذو النفس ، أَي : ادخلي في الأَجساد ، و « النفس » اسم جنس[١] ، وقال بعض العلماءِ : هذا النداءُ هو الآن للمؤمنين ، كمَا ذكر الله تعالى حال الكافرين قال : يامؤمنون[٢] دُومُوا وجدُّوا حتى ترجعوا راضين مَرْضِيِّينَ ، فالنَّفس ــ على هذا ــ اسم الجنس . وقرأَ ابن عباس ، وعكرمة ، وأَبو شيخ ، والضحاك ، واليماني ، ومجاهد ، وأَبو جعفر : (فَادْخُلِي في عَبْدِي) ، فالنفس ــ على هذا ــ ليست باسم الجنس ، وإِنما خاطب مفردة ، قال أَبو شيخ : الروح تدخل في البدن ، وفي مصحف أُبَيٍّ بن كعب : « يَأَيَّتُهَا الآمِنةُ الْمُطْمَئِنَّهُ ، الَّتي إِلى ربِّك راضيَةً مرْضيَّة ، فارْجعي في عَبْدي » ، وقرأَ سالم بن عبد الله : « فادْخُلي في عبادي وَلِجِي جَنَّتي » . وتحتمل قراءَة « عبدي » أَن يكون « العبد » اسم جنس ، جعل عباده كالشيءِ الواحد دلالةً على الالتحام ، كما قال عليه الصلاةُ والسلام :

---

(١) واستدلوا على هذا بقراءة ابن عباس رضي الله عنهما : (فَادْخُلِي في عَبْدي) على التوحيد ، وقراءة ابن مسعود : « في جَسَدِ عَبْدي » ... » .

(٢) في جميع الأصول : « يامؤمنين » .

« وهُمْ يدٌ على مَنْ سواهم » (١) . وقال آخرون : هذا النداءُ إنما هو في الموقف عندما يُنطلق بأهل النار إلى النار ، فنداءُ النفوس ـ على هذا ـ إنما هو نداءُ أَرباب النفوس مع النُّفوس . ومعنى (ارْجِعي إِلى رَبِّك) ـ على هذا ـ : إلى رحمة ربك ، و « العبادُ » هنا : الصالحون المتَّقون .

كمل تفسير سورة الفجر والحمد لله رب العالمين

---

(١) أَخرجه أَبو داود في الجهاد والديات ، والنسائي في القسامة ، وابن ماجه في الديات ، وأَحمد في مسنده (١/١١٩ ، ١٢٢ ، ٢/١٨٠ ، ١٩٢ ، ٢١١ ، ٢١٥) ، ولفظه كما في مسند أَحمد عن أَبي حسان أَن علياً رضي الله عنه كان يأمر بالأَمر فـيُؤْتَى ، فيقال : قد فعلنا كذا وكذا ، فيقول : صدق الله ورسوله ، قال : فقال له الأَشتر : إن هذا الذي تقول قد تَفَشَّغ في الناس ـ كثر وانتشر ـ ، أَفَشْيءٌ عِهده إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال عليٌّ رضي الله عنه : ما عهد إليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً خاصةً دون الناس ، إلاَّ شيءٌ سمعتهُ منه فهو في صحيفة في قراب سيفي ، قال : فلم يزالوا به حتى أَخرج الصحيفة ، قال : فإذا فيها : (من أَحدثَ حَدَثاً أَوْ آوَى مُحْدِثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أَجمعين ، لا يُقبل منه صَرْفٌ ولا عَدل) ، قال : وإذا فيها : (إنَّ إبراهيم حرَّم مكَة ، وإنِّي أُحرم المدينة ، حرام مابين حَرَّتَيـْها وحماها كله ، لا يُختَلَى خَلاَها ، ولا يُنَفَّر صيدها ، ولا تُلْتَقطُ لُقَطَتُها إلاَّ لمن أَشار بها ، ولا تقطع منها شجرة إلاَّ أَن يعلف رجلٌ بعيره ، ولا يُحمل فيها السلاح لقتال) ، قال : وإذا فيها : (المؤمنون تتكافأ دماؤُهم ، ويسعى بذمتهم أَدناهم ، وهم يَدٌ على من سواهم ، أَلاَ لا يُقتل مؤمن بكافر ، ولاذو عَهْد في عهده) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٩٠) سورة البلد مكية وآياتها عشرون

وهي مكِّية في قول جمهور المفسرين ، وقال قوم : هي مدنية[١] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾

قرأ الحسنُ بن أَبِي الحسن : (لأُقْسِمُ) ، وقرأ الجمهور : (لا

---

(١) قال القرطبي في تفسيره : « مكّيَّة باتفاق » ، وقال الشوكاني في فتح القدير : « وهي مكّيَّة بلا خلاف » ، وأما أبو حيان في البحر المحيط فقال : « هذه السورة مكية في قول الجمهور ، وقيل مدنية » .

أُقْسِمُ) ، واختلفوا ـ فقال الزجاج وغيره : [لاَ] صلة زائدة مؤكدة ، واستأنف قوله تعالى : [أُقْسِمُ] ، وقال مجاهد : [لاَ] ردٌّ لكلام متقدم للكفار ، ثم استأنف قوله تعالى : [أُقْسِمُ] ، وقال بعض المتأولين : [لا] نفيٌ لِلْقسم بالبلد ، أخبر الله تعالى أنه لا يُقْسِم به .

ولا خلاف بين المفسرين أَن البلد المذكور هو مكَّة . واختُلف في معنى قوله تعالى : (وأَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبلدِ) ـ فقال ابن عباس وجماعة : معناه : وأنت حلال بهذا البلد يحلُّ لك فيه قتل من شئت ، وكان هذا يوم فتح مكة ، وعلى هذا يترتب قول من قال : السورة مدنية نزلت عام الفتح ، ويتركب على هذا التأويل قول من قال : [لا] نافيةٌ ، أَي : إن هذا البلد لا يُقْسِم اللهُ تعالى به ، وقد جاءَ أَهلُه بأَعمال توجب إحلال حرمته ، ويتَّجه أَيضاً أَن تكون [لا] غير نافية . وقال بعض المتأولين : (وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلدِ) معناه : ساكِنٌ بهذا البلد ، وعلى هذا يجيءُ قولُ من قال : هي مكِّية ، والمعنى على إيجاب القَسَم بَيِّن ، وعلى نفيه أَيضاً يتَّجه على معنى : لا أُقسم ببلد أَنت ساكنه على أَذى هؤلاءِ القوم وكفرهم . وذكر الثعلبي عن شرحبيل بن سعد أَن معنى (وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذا الْبلدِ) ، أَي: قد جعلوك حلالاً مُسْتَحل الأَذى والإخراج والقتل لك لو قدروا ، وإعراب [الْبَلدِ] عطف بيان .

وقوله تعالى : (وَوَالِدٍ وماوَلَدَ) قسم مستأنف على قول من قال :

[لا] نافية ، ومعطوف على قول من قال : [لا] غير نافية ، واختلف الناس في معنى قوله سبحانه : (ووَالِدِ وما وَلَد) ــ فقال مجاهد : هو آدم عليه السلام وجميع ولده ، وقال بعض رواة التفسير : هو نوحٌ عليه السلام وجميع ولده ، وقال أبو عمران الْجَوْني : هو إبراهيم عليه السلام وجميع ولده ، وقال ابن عباس ما معناه : إن الوالد والولد هنا على العموم ، فهي أَسماءُ جنس يدخل فيها جميع الحيوان ، وقال ابن عباس ، وابن جبير ، وعكرمة : [وَوَالِدٍ] معناه : كلُّ من وَلَدَ وأَنْسل ، وقوله : (وما ولَدَ) لم يَبْق تحته إلاَّ العاقر الذي ليس بوالد البَتَّةَ .

والقسم واقع على قوله تعالى : (لَقَدْ خلَقْنا الإنْسان في كبَدٍ) ، واختلف الناسُ في « الكَبَدِ » ــ فقال جمهور الناس : « الإنسان » اسم الجنس كُلِّه ، والكَبدُ : الْمشقَّةُ والمكابدة ، أَي : يكابد أَمر الدنيا وأَمر الآخرة ، ومن ذلك قول لبيد :

يا عــيْنُ هلاَّ بكيْتِ أَرْبِد إِذْ قُمْنَا وقام الْخُصومُ في كَبَدِ (١)

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها لبيد يرثي بها أربد بن قيس بن جزْءٍ ، وكان أخاً للبيد من أمه ، وقد وفد على النبي صلى الله عليه وسلم في عام الوفود مع جماعة ، وعرض عليه الرسول صلى الله عليه وسلم الإسلام فلم يُسلم ، وفي أثناء عودته أصابته صاعقة فأحرقته ، والبيت في الديوان ، واللسان ، والطبري ، والقرطبي ، والبحر المحيط ، واستشهد به أبو عبيدة في مجاز القرآن ، كما استشهد به الزمخشري في الكشاف ، وابن عباس في خبر نقله السيوطي في الدرِّ المنثور .

وقول ذي الإصبع :

لِيَ ابْنُ عَمٍّ لوَ انَّ النَّاسَ في كبَدٍ لَظَلَّ مُحْتجِزاً بِالنَّبْل يَرْميني (١)

وبالمشقَّة في أنواع أَحوال الناس فسَّره الجمهور ، وقال الحسن : لم يخلق الله تعالى خلقاً يكابد ما يكابد ابنُ آدم ، وقال ابن عباس ، وابن شداد ، وأبو صالح ، والضحاك ، ومجاهد : (في كَبَدٍ) معناه : منتصب القامة واقفاً (٢) ، وقال ابن زيد : « الإنسان » آدمُ عليه السلام ، و « في كَبد » معناه : في السماءِ ، سَمَّاها كَبَداً ، وهذان القولان قد ضُعِّفا ، والقول الأَول هو الصحيح .

ورُوي أَن سبب هذه الآية وما بعدها هو أَبو الأَشَدَّين (٣) ، رجل من قريش شديد القوة ، واسمه أُسَيْد بن كلدة الجُمحي ، كان يحسب

(١) الشاعر اسمه حرُثان بن الحارث ، وسُمِّي ذا الإصبع لأن حَيَّةً نهشت إبهام قدمه فقطعها ، والبيت من قصيدة يتحدث فيها ذو الإصبع عن عداوة وقعت بين أَبناءِ قبيلته ، فقد كان بنو عدوان من أَعزِّ العرب وأَكثرهم مالاً ، ثم وقع بينهم بأْسُهم فتفانوا ، ووقف الشاعر يرقب هذه المحنة ويصور نتائجها ، والمحُتْجِزُ هو الذي يشدُّ وسطه بثوب أَو نحوه ، والبيت في البحر المحيط ، وفتح القدير ، وأمالي القالي ، والمفضَّليات ، ومنتهى الطلب ، والأغاني ، وشعراءِ الجاهلية ، والرواية في المفضَّليات : « ولَي ابنُ عمٍّ » ، وفي أَمالي القالى : « محتجراً » بالراءِ ، ونحسبه خطأً مطبعياً .

(٢) يعني لا يمشي على أَربع كبقية الحيوانات .

(٣) كذا في الأصول ، وهو يوافق ما في « البحر المحيط » ، و « معاني القرآن » للفراء ، و « القرطبي » ، أما في « الطبري » و « الكشاف» و « روح المعاني » و « البيضاوي » و « الثعلبي » فهو : أَبو الأَشد .

أَن أَحداً لا يقدر عليه[١] ، ويقال : بل نزلت في عمرو بن عبدُ ودٍّ ، ذكره النقاش ، وهو الذي اقتحم الخندق بالمدينة ، وقتله علي بن أَبي طالب رضي الله عنه خلف الخندق ، وقال مقاتل : نزلت في الحارث ابن عامر بن نوفل ، أَذنب فاستفتى النبي عليه الصلاة والسلام فأمره بالكفَّارة ، فقال : لقد أَهلكت مالاً في الكفَّارات والنفقات منذ تبعت محمداً[٢] ، وكان كل واحد منهم قد ادَّعى أَنه أَنفق مالاً كثيراً على إفساد أَمر النبي صلى الله عليه وسلم ، أَو في الكفَّارات على ما تقدم ، فوقف القرآن على جهة التوبيخ للمذكور ، وعلى جهة التوبيخ لاسم الجنس كله .

و [يَقْدِرَ] نُصب بِ [لَنْ] ، و [أَنْ] مخففة من الثقيلة ، وكان قول هذا الكافر « أَهلكْتُ مالاً لُبَدًا » كذباً منه ؛ فلذلك قال تعالى : (أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ) ؟ أَيْ أَنه رُئِيَ وأُحْصِيَ فعلُه ، فماله يكذب ، ومن قال : « إن المراد اسم الجنس غير معينٌ مفرد » جعل قوله تعالى : (أَيحْسبُ أَنْ لمْ يَرهُ أَحَدٌ) بمعنى : أَيظنُّ الإِنسان أَن ليس عليه حفظة

(١) قيل : كان هذا الرجل يأخذ الأديم العكاظي فيجعله تحت قدميه ، ثم يقول : من أزالني عنه فله كذا ، فيجذبه عشرة من الرجال حتى يتمزق ولا تزول قدماه ، وكان من أعداء النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) وقوله هذا إمَّا أَن يكون استطالةً بما أَنفق فيكون طغياناً منه ، وإما أن يكون أسفاً منه فيكون ندماً وحسرة منه ، وهو في الحالتين من الخاسرين .

يرون أعماله ويُحصونها إلى يوم الجزاءِ ؟ وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (لا تزولُ قدَما عبْدٍ يوم القيامة حتى يسُأل عن عُمُره فِيمَ أفناه ؟ وجسمه فِيمَ أَبَلاه ؟ وعن ماله ، من أَين اكتسبه ؟ وأَين أَنفقه)[(١)] .

واختلف القراءُ في قوله : [لُبَداً] - فقرأ جمهور الناس : [لُبَداً] بضم اللام وفتح الباءِ ، وقرأ مجاهد : [لُبُداً] بضمهما ، وذلك جمع « لِبْدة » أَو جمع « لَبود » بفتح اللام ، وقرأ أَبو جعفر يزيدُ : [لُبَّداً] بضم اللام وفتح الباءِ وشدِّها ، فيكون مفرداً نحو « زُمَّل » ، ويكون جمع « لابد » ، وقد روي عن أَبي جعفر [لُبْداً] بسكون الباءِ ، والمعنى في هذه القراءات كلها : مالاً كثيراً ملتبداً بعضه فوق بعض من التكاثف والكثرة ، وقرأَ الحسن : (لَمْ يرْهُ) بسكون الراءِ لتوالي الحركات .

ثم عدَّد تعالى على الإنسان نعمه التي بها تقوم الحجة ، وهو جوارحه ، وقرن تعالى الشَّفتين باللسان لأَن نعمة العبارة والكلام لا تصحُّ إلاَّ بالجميع ، وفي الحديث : (يقول الله تعالى : ابن آدم ، إنْ نازعك لسانك إلى مالا يحلُّ لك فقد أَعنتك عليه بشفتين فأَطبق)[(٢)] ، واختلف الناس في

---

(١) أخرجه الترمذي في القيامة .

(٢) روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أَبي الربيع الدمشقي ، عن مكحول قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (يقول الله تعالى : ياابن آدم ، قد أَنعمتُ عليك نعماً عظاماً لا تُحصي عددها ولا تطيق شكرها ، وإن مما أَنعمتُ عليك أَن جعلتُ لك عينين تنظر بهما ، وجعلتُ لهما غطاءً ، =

« النَّجْدَيْن » ـ فقال ابن مسعود ، وابن عباس ، والناس : طريق الخير وطريق الشر ، أَي : عرضنا عليه طريقهما ، وليست الهداية هنا بمعنى الإرشاد ، وقال ابن عباس أَيضاً ، والضحاك : النَّجدان : ثَدْيَا الأُم ، وهذا مثال ، والنَّجْد : الطريق المرتفع ، وأَنشد الأَصمعي :

كَميشُ الإِزارِ خارجٌ نِصْفُ ساقِهِ صبورٌ عَلَى الأَرْزاءِ طَلَّاعُ أَنْجُد (١)

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾

= فانظر بعينيك إلى ما أَحلَلْتُ لك، وإن رأيتَ ما حرَّمتُ عليك فأَطْبق عليهما غطاءهما، وجعلتُ لك لساناً وجعلتُ له غلافاً ، فانطق بما أَمرتُك وأَحللتُ لك ، فإن عرض عليك ما حرَّمت عليك فأَغْلق عليك لسانك ، وجعلتُ لك فرجاً وجعلتُ لك ستراً ، فأَصبْت بفرجك ما أَحْللتُ لك ، فإن عرض عليك ما حرَّمتُ عليك فأَرخ عليك سترك ، ابن آدم إنك لا تحمل سخطي ولا تطيق انتقامي) . وفي لفظ للقرطبي عن أَبي حازم : (إن نازعك لسانك إلخ) .

(١) رجلٌ كميشُ الإزار : مُشَمِّرُه ، والأَرْزاءُ : المصائب ، واحدها : رُزْءٌ ، وطَلَّاع أَنْجُد : ضابط للأمور غالبٌ لَهَا ، والأَنْجد جمع نجْد ، وهو الطريق في الجبل إذا كان مرتفعاً شديداً ، والشاعر يصف الممدوح هنا بأنه سريع إلى الأمور ، حاسم في مقابلتها بهمة ونشاط ، وبأنه صبور على مصائب الدهر ، وبأنه غالب للأمور متطلع للسامي منها .

« العَقَبَةُ » في هذه الآية - على عُرف كلام العرب - استعارة لهذا العمل الشاق على النفس من حيث هو بذل مال ، تشبيه بالعقبة من الجبل ، وهي ما صعب منه وكان صعوداً ، و [اقْتَحَمَ] معناه : دخلها وجاوزها بسرعة وضغط وشدة ، وأما المفسرون فرأوا أن « العقبة » يراد بها جبل في جهنم لا ينجِّي منه إلاَّ هذه الأَعمال ونحوها ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، وكعب . قال الحسن : العقبةُ جهنَّم ، قال هو وقتادة : فاقتحِموها بطاعة الله تعالى ، وفي الحديث (إن اقتحامها للمؤمن كما بين صلاة العصر إلى العشاءِ)[1] .

واختلف الناسُ في قوله تعالى : [فَلاَ] - فقال جمهور المفسرين : هو تَحْضيض بمعنى « فَأَلَا » ، وقال آخرون : هو دعاءٌ بمعنى أنه يستحق أن يُدْعى عليه بأَلاَّ يفعل خيراً ، وقيل : هو نفي ، أي : فما اقتحم ، وقاله أَبو عبيدة ، والزجاج ، وهذا نحو قوله تعالى : (فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى)[2] ، فهو نفي محض ، كأنه تعالى قال : وهبنا له الجوارح ودَلَلْناه على السبيل فما فعل خيراً[3] .

---

(١) لم أَقف عليه .

(٢) الآية (٣١) من سورة (القيامة) .

(٣) قال الفراءُ والزَّجاج : « ذكر (لا) مرةً واحدةً ، والعرب لاتكاد تفرد «لا » مع الفعل الماضي في مثل هذا الموضع حتى يُعيدوها في كلام آخر ، كقوله تعالى : « فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى) ، (وَلاَ خَوفٌ عَلَيْهِم وَلاَ هُم يَحْزَنُونَ) ، وإنما أفردوها لدلالة آخِر =

ثم عظَّم تعالى أَمر العقبة في النفوس بقوله سبحانه : (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ) ، ثم فسَّر تعالى اقتحام العقبة بقوله عزَّ وجلَّ : (فَكُّ رقبَةٍ) ، وذلك أَن التقدير : وما أَدراك ما اقتحام العقبة ؟ هذا على قراءَة من قرأَ : (فَكُّ رَقَبَةٍ) بالرفع على المصدر ، وأَما من قرأَ : [فَكَّ] على الفِعْل ، ونَصب « الرقبة » فليس يحتاج أَنْ يُقَدَّر : « وما أَدراك ما اقتحام » بل يكون التعظيم للعقبة نفسها ، ويجيءُ [فَكَّ] بدلاً من [اقْتَحَمَ] وَمُبَيِّناً له .

وقرأَ نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة : (فَكُّ رَقَبةٍ أَوْ إِطْعَامٌ) ، وقرأَ أَبو عمرو : (فَكَّ رَقَبَةً أَوْ أَطْعَمَ) ، وقرأَ بعضُ التابعين : (فَكُّ رَقَبَةٍ) بالخفض ، وقرأَ ابن كثير ، والكسائي ، وأَبو عمرو أَيضاً : (فَكُّ رَقَبَةً) بالنصب (أَوْ إِطْعام) ، وترتيب هذه القراءات ، ووجوهها بينةٌ . و « فَكُّ الرقبة » معناه : بالعِتْق من ربقة الأَسْر والرق ، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : (من أَعتق نسمة مؤمنة أَعتق الله بكل عضو منها عُضواً من النار) (١) ، وقال أَعرابي للنبي صلى

= الكلام على معناه ، فيجوز أَن يكون قوله : (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا) قائماً مقام التكرير ، كأنه قال : فلا اقتحم العقبة ولا آمن » .

(١) أَخرجه ابن أَبي شيبة ، وأَحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وابن مردويه ، عن أَبي هريرة وأَخرج مثلَه ابن مردويه عن أَبي نُجيج السلميِّ . (الدرُّ المنثور) . وأَبو نجيح هذا هو عمرو ابن عبسة السلمي رضي الله عنه .

الله عليه وسلم : دُلَّني على عمل أَنجو به ، فقال : (لئن قصرت القول لقد عرضتَ المسألة ، فُكَّ الرقبة وأَعْتِقِ النَّسمَة) ، فقال الأَعرابي أَليس هذا واحداً ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (لا ، عِتْق النَّسَمة أَن تنفرد بعِتْقها ، وفَكُّ الرقبة أَن تُعين في ثمنها) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وكذلكُّ فك الأَسير إِن شاءَ الله تعالى وفداؤه أَن ينفرد الفادي . ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم للأَعرابي : (وأَبْقِ على ذي الرَّحِمِ الظالم ، فإِن لم تُطق هذا كلَّه فكُفَّ لسانك إِلاَّ من خير)[١] .

و « الْمسْغبَةُ » : المجاعة ، والسَّاغِبُ : الجائع ، وقرأَ جمهور الناس : (ذِي مَسْغَبَةٍ) على نعت [يوْم] ، وقرأَ عليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه ، والحسن ، وأَبو رجاءٍ : (ذا مَسْغَبةٍ) على أَن يعمل فيه [أَطْعمَ] أَو [إِطْعَامٌ] على القراءتين المذكورتين ، وفي هذا حذف الموصوف وإِقامة الصفة مقامة ؛ لأَن التقدير : إِنساناً ذا مسْغبة ، و [يَتِيماً] بدلٌ على هذه القراءة ، ويصحُّ أَن يكون صفة لقوله تعالى : (ذا مسْغَبة) ،

---

(١) أَخرجه أَحمد ، وابن حبان ، وابن مردويه ، والبيهقي ، عن البراءِ ، وفي الرواية التي ذكرها السيوطي في الدرِّ المنثور (فإِن لم تُطق ذلك فأَطعم الجائع ، واسْق الظمآن ، وأْمُرْ بالمعروف وانه عن المنكـــر ، فإِن لم تطق ذلك فكُفَّ لسانَك إِلاَّ من خير) .

ووصفت الصفة لما قامت مقام موصوفها المحذوف فأشبهت الأسماءَ ، و « المسغبة » الجوعُ العامُّ ، وقد يقال في الخاصِّ : سَغِبَ الرَّجلُ إذا جاع .

وقوله تعالى : (ذَا مَقْرَبَةٍ) معناه : ذا قرابة ، لتجتمع الصدقة والصلة ، وهذا نحو ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزينب امرأة عبد الله بن مسعود : (تصدَّقي على زوجك فهي لك صدقة وصلة)(١) . و [أَوْ] في قوله تعالى : (أَوْ مِسْكِيناً) فيها معنى الإباحة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٧٣/٢ ، ٣٧٤) عن أبي هريرة ، وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم انصرف من الصبح يوماً ، فأتى النساءَ في المسجد ، فوقف عليهن فقال : يامعشر النساء ، ما رأيتُ من نواقص عقول ودين أذهبَ لقلوب ذوى الألباب منكن ، فإني قد رأيتكن أكثر أهل النار يوم القيامة ، فتقرَّبنْ إلى الله ما استطعتن ، وكان في النساءِ امرأةُ عبد الله بن مسعود فأتت إلى عبد الله بن مسعود فأخبرته بما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذت حُلياً لها ، فقال ابن مسعود : فأين تذهبين بهذا الحليِّ ؟ فقالت : أتقرب به إلى الله عزَّ وجلَّ ورسوله، لعلَّ الله ألاَّ يجعلني من أهل النار ، فقال : ويلك ، هلُمِّي فتصدقي به عليَّ وعلى ولدي ، فأنا له موضع ، فقالت : لا والله حتى أذهب به إلى النبي صلى الله عليه وسلم : فذهبت تستأذن على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : هذه زينب تستأذن يارسول الله ، فقال : أيُّ الزَّيانب هي ؟ فقالوا : امرأة عبد الله بن مسعود ، فقال : ائذنوا لها ، فدخلت على النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله ، إني سمعتُ منك مقالةً فرجعتُ إلى ابن مسعود فحدثتُه ، وأخذتُ حُلّياً أتقرب به إلى الله وإليك رجاءَ ألا يجعلني الله من أهل النار ، فقال لي ابن مسعود : تصدَّقي به عليَّ وعلى ولدي ، فأنا له موضع ، فقلتُ حتى أستأذن النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : تصدَّقي به عليه وعلى بنيه فإنهم له موضع ، ثم قالت : يارسول الله ،أرأيت ما سمعتُ منك حين وقفتَ علينا ،ما رأيت من نواقص عقول قط ولا دين أذهب بقلوب ذوي الألباب منكن، قالت: يارسول الله ،فما نُقصان ديننا وعقولنا ؟ فقال : أمَّا =

ومعنى التَّخيير ؛ لأَن الكلام يتضمن معنى الحضِّ والأَمر ، وفيها أَيضاً معنى التفصيل المجرد ؛ لأَن الكلام يجري مجرى الخبر الذي لا تكون « أَو » فيه إلاَّ مفصِّلة ، وأَما معنى الشك والإبهام فلا مدخل لهما في هذه الآية ، والإبهام نحو قوله تعالى : (وإنَّا أَوْ إياكُمْ)(١) ، وقول أَبي الأَسود :

أُحِبُّ مُحَمَّداً حُبًّا شديـــــداً وَعَبَّاساً وحمزةَ أَو عِليًّـــا(٢)

و (ذَا مَتْرَبَة) معناه : مدقعاً قد لصق بالتراب ، وهذا مما ينحو إلى أَن المسكين أَشد فاقةً من الفقير ، قال سفيان : هم المطروحون على ظهر الطريق قعوداً على التراب لا بيوت لهم ، وقال ابن عباس : هو الذي يخرج من بيته ثم يقلب وجهه إلى بيته مستيقناً أَنه ليس فيه إلا التراب .

= ما ذكرتُ من نقصان دينكنّ فالحيضة التي تُصيبكنّ ، تمكث إحداكن ما شاء الله أن تمكث لا تصلي ولا تصوم ، فذلك من نقصان دينكن ، وأمَّا ما ذكرتُ من نقصان عقولكن فشهادتكن ، إنما شهادة المرأة نصف شهادة .

(١) من الآية (٢٤) من سورة (سبأ) .

(٢) أبو الأسود الدؤلي هو ظالم بن عمرو بن جندل الكناني ، وهو يعد في الشعراء والنحويِّين ، وكان علويَّ الرأي ، وشهد مع الإمام عليٍّ وقعة صِفِّين ، وولي البصرة لابن عباس ، والبيت يلتقي مع هذه الاتجاهات ، و « أوَ » فيه للإبهام .

وقوله تعالى : (ثُمَّ كان) معطوف على قوله تعالى : [اقْتحَم] ، ويتوجه فيه معاني (فَلا اقْتحمَ) المذكورة من النفي والتحضيض والدعاءِ ، ورجَّح أَبو عمرو بن العلاءِ قراءَته : (فَكَّ رقَبةً) بقوله تعالى (ثُمَّ كانَ) ، ومعنى (ثُمَّ كان) أَيْ كان وقت اقتحامه للعقبة من الذين آمنوا ، وليس المعنى أَنه يقتحم ثم يكون بعد ذلك ؛ لأَن الاقتحام كان يقع من غير مؤمن ، وذلك غير نافع .

وقوله تعالى : (وَتَواصَوْا بالصَّبْرِ) معناه : على طاعة الله تعالى وبلائه وقضائه ، وعن الشهوات والمعاصي . و « الْمرْحَمَةُ » قال ابن عباس رضي الله عنهما : كل ما يؤدي إلى رحمة الله تعالى ، وقال آخرون : هو التراحم وعطفُ بعض الناس على بعض ، وفي ذلك قوام الناس ، ولو لم يتراحموا هلكوا .

و « الْمَيْمنَةُ » مفعلة ، وهي - فيما روي - عن يمين العرش ، وهو موضع الجنة ومكان المرحومين من الناس ، و « الْمَشْأَمَة » الجانب الأَشأم ، وهو الأَيسر ، وفيه جهنم ، وهو طريق المعذبين ، يؤخذ بهم ذات الشمال ، وهذا مأَخوذ من اليمن والشام للواقف بباب الكعبة متوجهاً إلى مطلع الشمس ، واليد الشؤمى هي اليسرى ، وذهب الزجاج وقوم إلى أَن ذلك مأخوذ من اليُمْن والشُّؤْم .

وقرأَ ابن كثير ، وابن عامر ، ونافع ، والكسائي ، وأَبو بكر عن

عاصم : [مُوصدةٌ] ، على وزن « مُوعَدة » ، وكذلك في سورة (الْهُمزة)(١) وقرأَ أبو عمرو ، وحمزة ، وحَفْصٌ عن عاصم بالهمز في السورتين ، ومعناهما جميعا : مُطْبَقةٌ مغلقة ، يقال : « أَوْصدْتُ وآصَدْتُ » بمعنى : أَطبقتُ وأَغلقتُ ، فمُوصَدَةٌ – دون همز – من « أَوْصَدْتُ » ، وقد يحتمل أَن يهمز من يراها من « أَوْصَدْتُ » من حيث قيل : الواو حرف مضمومٌ على لغة من قرأَ : [بالسُّؤْق](٢) ، ومنه قول الشاعر :

لحَبَّ الْمُؤْقِدَان إِلَيَّ مُؤْسَى(٣) ....

---

(١) في قوله تعالى في الآية (٨) : (إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ) .

(٢) من قوله تعالى في الآية (٣٣) من سورة (ص) : (رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ) .

(٣) هذا صدر بيت قاله جرير من قصيدة يمدح بها هشام بن عبد الملك ، والبيت بتمامه :

لَحَبَّ الْمُؤْقِدان إِلَيَّ مُؤْسَى وَجَعْدَةُ لَو أَضاءَهُمَا الوُقُودُ

و « حَبَّ » فعل ماض ، أصله « حَبُبَ » على وزن « كَرُمَ » ، ومعناه : صار محبوباً ، أدغمت الباءُ الأولى في الثانية ، إمَّا للقلب ... أوبنقلها إلى الحاء قبلها ، فلذا روي « لَحُبَّ » بفتح الحاءِ وضمها ، واللام في « لَحَبَّ » جواب قسم محذوف ، ولم يُؤت بـ « قد » مع اللام في « لَحَبَّ » لإجرائه مجرى فعل المدح في مثل « والله لنعم الرجلُ زيد » ، وأراد بالمؤقدان» من يوقد نار القِرَى ، فإنه المتبادر في استعمالات العرب وبخاصة إذا استعمل في مقام المدح والوصف بالكرم . و « الوقود » – بفتح الواو – : ما يوقد به من الحطب ، و « الوُقودُ » – بضم الواو – : مصدر بمعنى الإيقاد . و « موسى » و « جعدة » ولدا هشام بن عبد الملك ، والمعنى : لما أَضاء إيقاد النار موسى وجعدة ورأيتُهما من ذوي الوضاءة والنور والبهجة صارا محبوبين لي. وكان موسى بن هشام واخته جعدة بنت هشام مشهورين بالسخاءِ وإيقاد النار للقرى . والشاهد هو همز الواو في كل من « المؤقدان » و « مُؤْسَى » ، وفي البيت روايات كثيرة تجدها في اللسان ، والخصائص لابن جني ، ومخطوطة أنساب الأشراف .

بالهمز فيهما . و « مُؤْصَدَةٌ » من « آصَدْتُ » ، ويحتمل أَن يسهل الهمزة فيجيءُ « مُوصدة » من « آصدْتُ » ، ومن اللفظة « الوصيد »(١) ، وقال الشاعر :

قَوْماً يُعالجُ قُمَّلاً أَبْناؤُ هُم وَسَلاَسِلاً حلقاً وباباً مُؤْصَداً(٢)

كمل تفسير سورة البلد والحمد لله رب العالمين

---

(١) الوصيد : فناء الدار والبيت ، وفي التنزيل العزيز (وَكَلْبُهُم باسطٌ ذراعَيْهِ بالْوَصيد) ويقال فيه : « الأصيد » .

(٢) هذا البيت قاله الأعشى من قصيدة يخاطب بها كسرى حين أراد منهم رهائن ، وفي القصيدة يقول لكسرى : لنقاتلَنَّكم قتالا يُخَرِّب الديار ، ونحن لَسْنا كغيرنا محبوسين خلف الأبواب الموصدة والسلاسل الموثقة ، هذا والقُمَّلُ : دواب صغار من جنس القرْدان إلاَّ أَنها أصغر منها ، واحدتها قُمَّلة ، تركب البعير عند الهزال ، ويروى : « أُجُداً » بدلاً من « حَلَقاً » ، والأجد : الموثقة ، و « المُؤْصد » : المغلق . وهي موضع الاستشهاد .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٩١) سورة الشمس مكية وآياتها خمس عشرة

وهي مكية[١] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا
(٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا
(٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن
زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انبَعَثَ
أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا
فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥) ﴾

---

(١) قال القرطبي : « مكيَّة باتفاق » .

أَقسم الله تعالى بالشمس ، إما على التنبيه منها وإما على تقدير : ورِّب الشمس ، و « الضُّحى » ـ بضم الضاد والقصر ـ : ارتفاعُ الضوءِ وكماله ، وبهذا فسَّر مجاهد ، وقال قتادة : هو النهار كله ، وقال مقاتل : ضحاها : حَرُّها ، كقوله تعالى في « طه » : (وَلاَ تَضْحَى)[1] . و « الضَّحاءُ » ـ بفتح الضادوالمدِّ : ما فوق ذلك إلى الزوال .

والقمر يتلو الشمسَ من أَول الشهر إلى نصفه في الغروب ، تغرب هي ثم يغرب هو ، ويتلوها في النصف الآخر بنحو آخر ، وهو أَن تغرب هي فيطلع هو . وقال الحسن بن أَبي الحسن : [تَلاَهَا] : تبعها دأباً في كل وقت ؛ لأَنه يستضيءُ منها فهو يتلوها لذلك.

قال القاضي أَبو محمد :

فهذا اتباعٌ لا يختص بنصف أَول من الشهر ولا بآخر ، وقاله الفراءُ أَيضاً ، وقال الزجاج وغيره : [تَلاَهَا] معناه : امتلأَ واستدار فكان لها تابعاً في المنزلة من الضياءِ والقدر ؛ لأَنه ليس في الكواكب شيءٌ يتلو الشمس في هذا المعنى غير القمر ، قال قتادة : إنما ذلك ليلة البدر ، تغيب هي فيطلع هو .

---

(١) في قوله تعالى في الآية (١١٩) من سورة (طه) : (وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فيها ولاَ تَضْحَى) .

و « النَّهارُ » في ظاهر هذه السورة والتي بعدها أنه من طلوع الشمس ، وكذلك قال الزجاج في كتاب الأَنواء وغَيْرُه . واليوم من طلوع الفجر ، ولا يختلف أَن نهايتهما مغيب الشمس ، والضمير في [جَلاَّهَا] يحتمل أَن يعود على الشمس ، ويحتمل أَن يعود على الأَرض وعلى الظلمة ، وإن كان لم يجيءْ لذلك ذكرٌ فالمعنى يقتضيه ، قاله الزجاج ، وجَلَّى معناه : كشف وضوَّأَ ، والفاعل لـ « جَلَّى » ـ على هذه التأويلات ـ النهارُ ، ويحتمل أَن يكون الفاعلُ الله تعالى ، كأنه قال : والنهار إذا جلَّى الله الشمس ، فأَقسم بالنهار في أَكمل حالاته . و « يَغْشَى » معناه : يُغَطِّي ، والضمير للشمس على تجوُّز في المعنى ، أَو للأَرض .

وقوله تعالى : (وَمَا بنَاهَا) وكل ما بعده من نظائره في السورة يحتمل أَن تكون [ما] فيه بمعنى « الذي » ، قاله أَبو عبيدة ، أَي : ومن بناها ، وهو قول الحسن ومجاهد ؛ لأَن « ما » تقع عامَّة لمن يعقل ولما لا يعقل ، فيجيءُ القسَم بنفسه تعالى ، ويحتمل أَن تكون [ما] في جميع ذلك مصدرية ، قاله قتادة ، والمبرد ، والزجاج ، كأنه تعالى قال : والسماءِ وَبُنْيَانُها .

و « طَحَا » بمعنى « دَحَا » ، و « طَحَا » أَيضاً في اللغة بمعنى : ذهب كلَّ مذهب ، ومنه قول عَلْقَمَة بن عَبْدَة :

طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الحِسانِ طَرُوب بُعَيْدَ الشَّباب عَصْرَ حان مشيبُ[(١)]

و « النفس » التي أَقسم الله بها اسمُ الجنس ، و « تَسْوِيتُها » إكمال عقلها ونظرها ، ولذلك ربط الكلام بقوله تعالى : (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا)... الآية ، فالفاءُ تعطي أَن التسوية هي هذا الإِلهامُ ، ومعنى قوله تعالى : (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا) أَيْ عرَّفها طُرُق ذلك ، وجعل لها قوة يصحُّ معها اكتساب الفجور واكتساب التقوى ، وجواب القَسَم في قوله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ) ، والتقدير : لقد أَفلح ، والفاعل بـ « زكَّى » يحتمل أَن يكون هو الله تعالى ، وقاله ابن عباس وغيره ، كأَنه تعالى قال : قد أَفلحت الفرقة أَو الطائفة التي زكاها الله تعالى ، و [مَنْ] تقع على جمع أَو أَفراد ، ويحتمل أَن يكون الفاعل بـ « زكَّى » الإنسان وعليه تقع (مَنْ) ، وقاله الحسن وغيره ، كأَنه تعالى قال : قد أَفلح من زكَّى نفسه ، أَي اكتسب الزكاة التي قد خلقها الله تعالى له ، و [زَكَّاها] معناه : طهَّرها ونمَّاها بالخيرات ، و [دَسَّاها] معناه : أَخفاها وحقَّرها ، أَي : حقَّر قدرها بالمعاصي والبخل بما يحب ، يقال :

---

(١) هذا مطلع قصيدة قالها علقمة في مدح الحارث ملك الغساسنة في الشام ليطلق سراح أخيه ومن معه من تميم ممن كانوا قد أسروا في وقعة « يوم حليمة » ، ومعنى « طَحَابكَ » : ذهب بك كل مذهب ، واتسَّع ، والطَّربُ : خِفَّة تصيب الإنسان لشدة الفرح أو حتى لشدة الحزن ، وفي البيت إيقاع موسيقى حنون ، مع متانة في البناء ، ومفارقة حلوة بين الحنين إلى الحُب والجمال ، وبين المرحلة المتقدمة في السِّن التي بلغها الشاعر دون أن يعترف بها .

دسَا يدْسُو ودُسًّا ـ بشد السِّين ـ يُدَسِّي ، وأصله دسَّس ، ومنه قول الشاعر :

وَدَسَّسْتُ عَمْراً في التُّرابِ فَأَصْبَحَتْ   حَلائِلُهُ يَبْكين للْفَقْدِ ضُعَّفَا [١]

ورُوي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية قال : (اللَّهم آتِ نفسي تقواها ، وزكِّها أنت خير من زكَّاها ، أنت وليُّها ومولاها) [٢] ، وهذا الحديث يُقوِّي أن المزكِّي هو الله تعالى ، وقال

---

(١) البيت في اللسان ـ دسا ـ ، وفي القرطبي ، والبحر المحيط ، وفتح القدير ، وقد اختلف في ألفاظه ، والذي في اللسان :

وَأَنْتَ الَّذي دَسَّيْتَ عَمْراً فَأَصْبَحَتْ   نساؤهُمُ مِنْهُمْ أَرامِلُ ضُيَّــعُ

و « عَمْرُو » قبيلة ، والبيت أنشده ابن الأعرابي لرجل من طيء يتحدث عن هذه القبيلة ، ولهذا قال : « نَسأُوهُمُ » ، ومعنى « دسَّيْتَ » : أغْوَيْتَ وأفسدتَ ، والحلائل : جمع حليلة ، وهي زوج الرجل ، لأنها تُحالُه ، أي تَحلُّ حيثُ يَحلُّ ، أو لأنها حلالٌ له وهو حلالٌ لها ، ومعنى « ضُعَّفاً » : ضعافاً ، يقال : ضَعَّفْتُه بمعنى صَيَّرْته ضعيفاً ، والضَّائع : الذي أُهْمل . والأرامل : جمع أرملة ، وهي التي فقدت زوجها ، والشاهد أن دَسَّا ودسَّسَ بمعنى : أغوى وأفسد .

(٢) أخرجه النسائي في الاستعاذة ، ومسلم في الذكر ، وأحمد في مسنده (٣٧١/٤ ، ٢٠٩/٦) وأخرجه الطبراني ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مرَّ بهذه الآية (ونَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجورَها وَتَقْوَاهَا) وقف ثم قال : (اللهم آتِ نفسي تقواها ، أنت وليهَّا ومولاها وخير من زكَاها) . هكذا نقله ابن كثير في تفسيره .

ثعلب : معنى الآية : وقد خاب من دسَّاها في أهل الخير بالرياء وليس منهم في حقيقته .

ولما ذكر الله تعالى صفة من دسَّى نفسه ذكَر فرقة فعلت ذلك لِيُعْتبرَ بهم ويُنْتهى عن مثل فعلهم ، و « الطَّغْوى » مصدر ، وقرأ الحسن ، وحمَّاد بن سلمة : [بِطُغْوَاها] بضم الطاء ، مصدر كالعُقْبى والرُّجْعى ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « الطَّغْوى » هنا : العذاب ، كَذبوا به حتي نزل بهم ، ويؤيد هذا التأويل قوله تعالى : (فَأَمَّا ثَمودُ فَأُهْلِكوا بِالطَّاغِيةِ)(١) ، وقال جمهور المتأولين : الباءُ سببيَّةٌ ، والمعنى : كذبت ثمودُ نَبيَّها بسبب طغيانها وكفرها . و [انْبَعَثَ] عبارة عن خروجه إلى عقر الناقة بنشاط وحرص ، و [أَشْقاها] هو قُدار بن سالف ، وهو أَحد التسعة الرهط المفسدين ، ويحتمل أَن يقع [أَشْقاها] على جماعة حاولت العقر ، ويروى أَنه لم يفعل فعله بالناقة حتى مالأَه على ذلك جميع الحيِّ ، فلذلك قال تعالى : [فَعَقروهَا] لكونهم متفقين على ذلك .

و « رسول الله » : صالحٌ عليه السلام ، وقوله تعالى : (ناقةَ اللَّهَ وَسُقْيَاهَا) نُصب بفعل مضمر تقديره : احفظوا أَو ذَرُوا أَو احْذروا ، على معنى : احذروا الإِخلال بحق ذلك ، وقد تقدم أَمر الناقة والسُّقْيَافي غير هذه السورة بما أَغنى عن إعادته ، وقد تَقدَّم التكذيبُ على العقْر لأَنه كان سبب العقْر ، ويُروى أَنهم كانوا قد

---

(١) الآية (٥) من سورة (الحاقة) .

أسلموا قبل ذلك وتابعوا صالحاً عليه السلام مدة ثم كذَّبوا وعقروا ، والجمهور من المفسِّرين على أنهم كانوا على كفرهم . و [دَمْدَمَ] معناه : أنزل العذاب مُقْلقاً لهم مُكرِّراً ذلك ، وهي الدَّمْدَمة ، وفي بعض المصاحف « فَدَهْدَمَ » ، وهي قراءة ابن الزبير بالهاء بين الدالين ، وفي بعضها « فَدمَّر » ، وفي مصحف ابن مسعود : « فَدَمْدمهَا عَلَيْهِمْ » . وقوله تعالى : [بِذنْبِهِمْ] أي : بسبب ذنبهم ، وقوله تعالى : [فسوَّاهَا] معناه : فَسوَّى القبيلة في الهلاك ، لم يُنْجِ منهم أحداً .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، والأعرج ، وأهل الحجاز ، وأُبيٌّ بن كعب (فَلا يَخافُ) بالفاءِ ، وكذلك في مصاحف أهل المدينة والشام ، وقرأ الباقون : (وَلا يَخاف) بالواو ، وكذلك في مصاحفهم ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ : « ولمْ يَخَفْ عُقْباها » ، والفاعل بـ [يخافُ] على من قرأ : (فلاَ يخافُ) بالفاءِ يحتمل أَن يكون الله تعالى ، والمعنى : فلا دَرْكَ[1] على الله تعالى في فعله بهم ، لا يُسأَل عما يفعل ، وهذا قول ابن عباس والحسن ، وفي هذا المعنى احتقار للقوم وتعفية لأَثرهم ، ويحتمل أَن يكون صالحاً عليه السلام ، أي : لا يخاف عقبى الله تعالى بهذه الفعلة بهم ؛ إذ قد كان أَنذرهم وحذَّرهم ، ومن قرأ (ولا يَخافُ) بالواو فيحتمل الوجهين اللَّذيْن ذكرنا ، ويحتمل زائداً

---

(١) الدَّرَك والدَّرْك ــ بفتح الراء وبسكونها ــ : التَّبِعة ، يقال : مالحقك من دَرْك فعليَّ خلاصُه .

أَن يكون الفاعل بـ [يخافُ] أَشْقاها الْمُنْبعث ، قاله الزجاج وأَبو عليٍّ ، وهو قول السُّدي والضحاك ومقاتل ، وتكون الواو واوَ الحال ، كأَنه تعالى قال : انبعث لعقرها وهو لا يخاف عُقْبى فعله لِكُفْره وطغيانه ، و « العُقْبى » : جزاءُ الشيءِ وخاتمته وما يجيءُ من الأُمور بعقبه .

واختلف القراءُ في أَلِفَاتِ هذه السورة واللَّتين بعدها ، ففتحها ابن كثير ، وعاصم ، وابن عامر ، وقرأَ الكسائي ذلك كلَّه بالإِضجاع ، وقرأَ نافع الكلَّ بين الفتح والإِمالة ، وقرأَ حمزة : [وَضُحَاها] مكسورة ، و [تَلاَها] و [طَحاهَا] مفتوحتين ، وكسر ماعدا ذلك ، واختلف عن أَبي عمرو ، فمرَّةً كسر الجميع ، ومرَّةً كقراءة نافع ، قال الزَّجاج : سمَّى الناسُ الإمالة كسْراً وليس بكسر صحيح ، والخليل وأَبو عمرو يقولان : إمالة .

كمل تفسير سورة الشمس والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٩٢) سورة الليل مكية وآياتها إحدى وعشرون

وهي مكية في قول الجمهور ، وقال المهدوي : وقيل : هي مدنية ، وقيل : فيها مدني ، وعددها عشرون آية بإجماع(١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾

---

(١) هكذا في الأصول ، وقال القرطبي : « وهي إحدى وعشرون آية بإجماع » ، وهذا يوافق ما في المصحف الشريف .

أقسم الله تعالى بالليل إذا غشى الأرض وجميع ما فيها ، وبالنهار إذا تجلَّى أي ظهر وضوَّأ الآفاقَ[١] ، ومنه قول الشاعر :

تجلَّى السُّرى مِنْ وَجْهِهِ عَنْ صَبيحَةٍ
علَى السَّيْر مِشْرَاقٍ كريمٍ شُجُونُها[٢]

وقوله تعالى : (وَما خَلَقَ الذَّكَرَ والأُنْثَى) يحتمل أن تكون [ما] بمعنى « الذي » كما قالت العرب : « سبحان ما سبَّح الرعد بحمده » ، وقال أبو عمرو وأهل مكة : يقولون للرعد : « سبحان ما سَبَّحْتَ له » ، ويحتمل أن تكون [ما] مصدرية ، وهو مذهب الزجاج . وقرأ جمهور الصحابة : (وَما خَلَقَ الذَّكَرَ) ، وقرأ علي بن أبي طالب ، وابن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وأبو الدَّرْداءِ ـ وسمعها من النبي صلى الله عليه وسلم ـ وعلقمة ، وأصحاب عبد الله : (والذَّكرَ والأُنْثَى) ، وسقط عندهم

(١) ضَوَّأَ الشيء : أضاءه ، أي جعله مضيئاً .

(٢) تَجَلَّىَ الشيء : انكشف ووضح وظهر ، وهو موضع الاستشهاد هنا ، والسُّرى : السَّير ليلاً ، وقيل : هو سير الليل كلِّه ، تُذكِّره العرب وتؤنثه . والصبيحةُ هي الصباح ، وهو نقيض المساء ، ومثلهما الإصباح . والمشْراقُ : الموضع الذي تشرق عليه الشمس فينير ، والشَّجَنُ : هوى النفس وحاجاتُها أينما كانت ، وجمعه أشجان وشجون ، ومن ذلك قول الشاعر :

ذَكَرْتُكِ حَيْثُ استَأْمَنَ الوَحْشُ والْتَقَتْ رفاقٌ به ، والنَّفْسُ شَتَّى شُجُونُهَا

﴿ ومَا خَلَق ﴾[(١)] ، وذكر ثعلب أن من السلف من قرأ : ﴿ ومَا خَلَقَ الذَّكَرِ والأُنْثَى ﴾ بخفض [الذَّكرِ] ، على البدل من [ما] ، على أن التقدير : وما خلق اللهُ ، وقراءة عليٍّ رضي الله عنه : « وَمِنْ ذَكَرٍ » تشهد لهذه ، وقال الحسن : المراد هنا بالذكَّرِ والأُنثى آدم وحواءُ عليهما السلام ، وقال غيره : هو عام .

و « السَّعْيُ » : العمل ، فأخبر تعالى مقسماً أن أعمال العباد شتَّى ،

---

(١) أخرج سعيد بن منصور ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر وابن مردويه ، عن علقمة أنه قدم الشام فجلس إلى أبي الدرداء ، فقال له أبو الدرداء : مِمَّن أنت ؟ قال : من أهل الكوفة ، قال : كيف سمعتَ عبد الله يقرأُ (وَالليْل إذا يغْشىَ) ؟ قال علقمة : « وَالذَّكَرَ والأُنثَى » ، قال أبو الدرداء : أشهد أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأُ هكذا ، وهؤلاء يريدوني على أني أقرؤُها : « وَمَاخَلَقَ الذَّكَرَ والأُنْثَى » ، والله لا أتابعهم . هكذا ذكره في الدر المنثور . وقد جاء في كتاب الأحكام لابن العربي : « هذا مما لا يلتفت إليه بشر إنما المعوَّل عليه ما في المصحف ، فلا يجوز مخالفته لأحد ، ثم بعد ذلك يقع النظر فيما يوافق خطه ، مما لم يثبت ضبطه حسب ما بيَّنّاه في موضعه ، فإن القرآن لا يثبت بنقل الواحد وإن كان عَدلاً ، وإنما يثبت بالتواتر الذي يقع به العلم ، وينقطع معه العذر ، وتقوم به الحجة على الخلق » ، ونقل القرطبي عن أبي بكر الأنباري أن هذا الحديث مردودٌ بخلاف الإجماع له ، وأن حمزة وعاصماً يرويان عن عبد الله بن مسعود ما عليه جماعةُ المسلمين ، والبناء على سنَدَيْن يوافقان الإجماع أوْلى من الأخذ بواحد يخالفه الإجماعَ والأُمة ، وما يبنى على رواية واحد إذا حاذاه رواية جماعة تخالفه ، أُخذ برواية الجماعة ، وأُبْطل نقل الواحد لما يجوز عليه من النسيان والإغفال ، ولو صحَّ الحديث عن أبي الدرداء ، وكان إسناده مقبولاً معروفا ، ثم كان أبو بكر ، وعمر ، وعثمان وعلي ، وسائر الصحابة رضي الله عنهم يخالفونه ، لكان الحُكْم بما روته الجماعة ، ورفض ما يحكيه الواحد المنفرد ، الذي يسرع إليه النسيان ما لا يُسرع إلى الجماعة » .

أَيْ مفترقة جداً ، بعضها في رضي الله تعالى ، وبعضها في سَخطه . ثم قسَّم تعالى الساعين ، فذكر أن من أَعْطَى ـ وظاهر ذلك إعطاءُ المال ، وهي أيضاً تتناول إعطاءَ الحق في كل شيءٍ ، قول أو فعل ، وكذلك البخل المذكور بعد ـ يكون بالإيمان وغيره من الأَقوال التي حقُّ الشريعة أَلاَّ يُبخل بها .

ويروى أَن هذه الآية نزلت في أَبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وذلك أَنه كان يعتق ضعفة العبيد الذين أَسلموا ، وكان ينفق في رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ماله ، وكان الكفار بِضِدِّ ذلك[١] ، وهذا قول من قال إن السورة كلها مكية ، قال عبد الله بن أَبي أَوفى : هذه السورة في أَبي بكر الصديق رضي الله عنه وأَبي سفيان بن حرب ، وقال مقاتل : مرَّ أَبو بكر رضي الله عنه على أَبي سفيان وهو يعذِّب بلالاً ، فاشتراه منه ، وقال السُّدي : نزلت هذه الآية بسبب أَبي الدَّحْداح الأَنصاري رضي الله عنه ، وذلك أَن نخلة لبعض المنافقين كانت مُطلَّة على دار امرأَة من المسلمين لها أَيتام ، فكان الثمر يسقط عليهم فيأْكلونه

(١) أَخرجه ابن جرير ، وابن عساكر ، عن عامر بن عبد الله بن الزبير ، قال : كان أَبو بكر يعتق على الإسلام بمكة ، فكان يعتق عجائز ونساءً إذا أَسْلَمن ، فقال له أَبوه : أَيْ بُنَيَّ أَراك تعتق أُناساً ضعفاء ، فلو أَنك تعتق رجالاً جلداً يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك ؟ قال : أَيْ أَبَت إنمَّا أُريد ما عند الله ، قال : فحدثني بعض أَهل بيتي أن هذه الآية نزلت فيه (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىَ واتَّقَى • وصَدَّقَ بِالْحُسْنَى • فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى) .

فمنعهم المنافق من ذلك ، واشتد عليهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بِعْنِيها بنخلة في الجنة ، فقال: لا أفعل ، فبلغ ذلك أبا الدحداح ، فذهب إليه واشترى منه النخلة بحائط له ، وجاءَ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، أنا أَشتري النخلة التي في الجنة بهذه ، ففعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمرُّ على ذلك الحائط الذي أَعطى أَبو الدَّحداح ، وقد تعلَّقت أَقْنَاوُه(١) ويقول : وكم قِنْو تعلَّق لأَبي الدحداح في الجنة(٢) ، وفي البخاري أَن هذا اللفظ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله في الأَقْناءِ التي كان أَبو الدحداح يُعلِّقها في المسجد صدقة ، وهذا كله قول من يقول: بعض السورة مدني .

واختلف الناس في « الْحُسْنى » في هذه السورة ـ فقال أَبو عبد الرحمن السلمي وغيره : هي لا إله إلاَّ الله ، وقال ابن عباس ، وعكرمة ، وجماعة

---

(١) الأَقْناءُ : جمع قِنْو ، وهو العِذْقُ بما فيه من الرُّطب .

(٢) ذكره ابن أَبي حاتم والواحدي في « أَسباب النزول » ، من طريق حفص بن عمر الْعَدَني ، عن الحكم بن أبان العدني ، عن عكرمة عن ابن عباس ، وهو حديث ضعيف لضعف حفص بن عمر ، أما الحكم بن أبان فصدوق عابد ، ولكن له أوهام ، قال ذلك الحافظ ابن حجر في « التقريب » ، وذكر ابن كثير هذا الحديث في تفسيره ثم قال : « وهو حديث غريب جدا » ، وأورده السيوطي في الدُّر المنثور بسند ضعيف ، أَخرجه ابن أَبي حاتم عن ابن عباس ، وقال الخازن : والصحيح أن الآية نزلت في أَبي بكر الصديق رضي الله عنه .

هي الخَلَفُ الذي وعد الله به ، وذلك نصٌّ في حديث الملكيْن ، إِذْ يقول أَحدهما : اللهم أَعط منفقاً خَلَفاً ،ويقول الآخر: اللَّهم أَعط ممسكاً تَلَفاً(١) .

وقال مجاهد ، والحسن ، وجماعة : الحُسْنى : الجنة ، وقال كثير من المتأَولين : الحسنى : الأَجر والثواب مجملا .

وقوله تعالى : (فسَنُيسِّرُهُ لِلْيُسْرَى) معناه : سيظهر تيْسيرُنا بما يتدرج فيه من أَعمال الخير ، وحَتْم تَيْسيره قد كان في علم الله تعالى أَزلاً ، و « الْيُسْرى » : الحالُ الحسنة المرضية في الدنيا والآخرة ، و« العُسْرى » الحال السيئة في الدنيا والآخرة ولابُدَّ ، ومن جعل [بخِلَ] في المال خاصةً جعل [استغنى] في المال أَيضاً لتعظم المذَمَّةُ ، ومن جعل [بَخِلَ] عامًّا في جميع ما ينبغي أَن نبذل من قول وفعل قال : « استغنى » عن الله تعالى ورحمته بزعمه . ثم وَقَف تعالى على موضع غَنَاءِ مالِهِ عنه وقت تَرَدِّيه ، وهذا يدل على أَن الإِعطاءِ والبخل المذكوريْن إنما هما في المال .

واختلف الناس في معنى [تردَّى] ـ فقال قتادة وأَبو صالح : معناه : تَردَّى في جهنم ، أَي سقط من حافاتها ، وقال مجاهد : [تردَّى] معناه :

(١) أخرجه البخاري ومسلم في الزكاة ، وأَحمد في مسنده (٣٠٦/٢ ، ٣٤٧ ، ١٩٧/٥) ، ولفظه كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما من يوم يُصبح العباد فيه إلاّ وَمَلَكَان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أَعْط منفقاً خَلَفاً ، ويقول الآخر اللهم أَعْط مُمْسِكاً تَلَفاً) .

هلك من الرَّدى ، وقال قوم : معناه : تردَّى بأَكْفانه من الرداءِ ، ومنه قول مالك بن الريب :

وخُطَّا بِأَطْرافِ الأَسِنَّةِ مضْجَعي وَرُدَّا علَى عيْنَيَّ فَضْلَ رِدائيَا (١)

ومنه قول الآخر :

نَصيبُكَ مِمَّا تَجْمَعُ الدَّهْرَ كُلَّهُ رِداءَانِ تُلْوَى فِيهِما وحَنُوط (٢)

ثم أَخبر تعالى أَن عليه هدى الناس جميعاً ، أَي تعريفهم بالسبل كلها ، ومنحهم الإِدراك ، كما قال تعالى : (وعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبيل) (٣) ، ثم كلُّ أَحد بعد ذلك يتكسَّب ما قُدِّر له ، وليست هذه الهداية بالإِرشاد إِلى

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها مالك بن الريب التميمي حين حضرته الوفاة وهو غريب ، وفيها يخاطب صاحبيه ، ويقول :

فيَا صاحِبَيْ رَحْلي دَنَا الْموتُ فانْزِلاَ بِرَابِيَةٍ إِنِّي مُقيمٌ لَيَالِيَا

والأَسِنَّة : جمع سنان ، وهو طرف الرمح ، والمراد بالمضجع هنا القبر ، والرداءُ : ما يرتديه الإِنسان ، يطالب صاحبيه بأن يحفرا قبره بأطراف رماحهما ، وأن يغطياه بالثوب بعد الموت .

(٢) الرداءُ : الذي يلبس ، وتثنيته رداءان ، وتُلْوَى فيهما : تُلَفُّ فيهما ، والحنوط : طيبٌ يخلط للميت خاصة ، وهو مشتق من قولهم ، حَنِط الرِّمْثُ وأَحنط : ابيَضَّ واستوى وصارت له رائحة طيبة ،يقول : إنك مهما جمعت من الدنيا فلن تأخذ منها إلا ثوبين تُلَفُّ فيهما ، وبعض الطيب الذي يوضع عليك بعد موتك .

(٣) من الآية (٩) من سورة (النحل) .

الإِيمان ، ولو كان ذلك لم يوجد كافر . ثم أَخبر تعالى أن له الآخرة والأُولى أي الدارين .

وقوله تعالى : (فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى) إِمَّا مخاطبة منه سبحانه ، وإِمَّا على معنى : قُل لهم يامحمد ، وقرأ جمهور السبعة : [تَلَظَّى] بتخفيف التاءِ ، وقرأ البزي عن ابن كثير بشدِّ التَّاءِ وإِدغام الراءِ فيها ، وقرأها كذلك عُبَيْد بن عُمَيْر ، ورُوي عنه أَيضاً [تَتَلظَّى] بتاءَيْن ، وكذلك قرأَ ابن الزبير وطلحة .

قوله تعالى : (لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى) ، أَي : لا يَصْلاَهَا صُلِيَّ خلود ، ومن هنا ضلَّت المرجئة لأَنها أَخذت نفي الصُّلِيِّ مطلقاً في قليله وكثيره . و « الأَشْقَى » هنا ـ : الكافر ؛ بدليل قوله تعالى : (الَّذي كذَّبَ) ، والعرب تجعل « أَفْعل » في موضع « فاعِل » مبالغة ، كما قال طرفة :

تَمَنَّى رِجالٌ أَنْ أَموتَ وإِنْ أَمُتْ فتِلْكَ سَبيلٌ لَسْت فِيهُا بأَوْحَدِ (١)

(١) لم أَجد هذا البيت في شعر طرفة ، وقد استشهد به أبو عبيدة في مجاز القرآن ، وكذلك استشهد به الطبري ، وقد ورد في أمالي القالي ضمن ثلاثة أبيات كتب بها يزيد بن عبد الملك إلى أخيه هشام ، وكان الخليفةَ بعده ، وهي :

تَمَنَّىَ رِجالٌ أَنْ أَموتَ وَإِنْ أَمُتْ فَتِلْكَ سَبيلٌ لَسْتُ فيها بِأَوْحَدِ
فَمَا عَيْشُ مَنْ يَرْجو رَدَايَ بضَائِري وَمَا عَيْشُ مَنْ يَرْجُو رَدَاي بِمُخْلدِ
فَقُلْ لِلذي يَبْغي خِلافَ الذّي مَضَى تَجَهَّزْ لأخرىَ مِثْلِها فكَأَنْ قَدِ =

ولم يختلف أَهل التأْويل أَن المراد بـ « الأَتْقَى » إِلى آخر السورة أَبو بكر الصديق رضي الله عنه ، ثم هي تتناول كل من دخل في هذه الصفات . وقوله تعالى : [يَتَزَكَّى] معناه : يتطهَّر وَيَتَنَمَّى ، وظاهر هذا الإِتيان أَنه في المندوبات ، وقوله تعالى : (وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ) الآية ... معناه : وليس إِعطاؤه لِيَجْزِيَ نِعَماً قد أُنزلت إِليه ، بل هو مبتديءٌ ابتغاءَ وجه الله تعالى .

ورُوي في سبب هذا أَن قريشاً قالوا ـ لما أَعْتق أَبو بكر رضي الله عنه بلالاً ـ : كانت لبلال يدٌ عنده ، وذهب الطبري إِلى أَن المعنى : وليس

= قيل : فكتب إليه هشام :

وَمَنْ لاَ يُغَمِّضْ عَيْنَهُ عَنْ صَدِيقِهِ ... وَعَنْ بَعْضِ ما فيهِ يَمُتْ وَهْوَ عاتِبُ
وَمَنْ يَتَتَبَّعْ جاهداً كُلَّ عَثْرَةٍ ... يَجِدْهَا وَلاَ يَسْلَمْ لهُ الدَّهْرَ صاحِبُ

فكتب إليه يزيد بأبياتٍ لِمَعْن بن أَوس يقول أولها :

لَعَمْرُكَ ما أَدْرِي وَإِنِّي لَأَوْجَلُ ... عَلَى أَيِّنَا تَعْدُو الْمَنِيَّةُ أَوَّلُ

وقيل : إن الذي كتب بالأبيات الثلاثة هو الوليد إلى أخيه سليمان ـ جاء ذلك في مروج الذهب للمسعودي ـ ومعنى « يبغي خلاف الذي مضى » : يبغي أن يخلف غيره على ميراثه . وقد حقق الأستاذ عبد العزيز الميمني البيت الذي يدور حوله الحديث عند شرحه لذيل الأمالي ، ووصل إلى أن البيت لمالك بن القين الأنصاري .

والمؤلف هنا يستشهد بالبيت على أن (أَوحد) جاءت بمعنى (واحد) ، وهذا كما في قوله تعالى : (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) فإنَّ (أَهْوَن) جاءت بمعنى (هَيِّن) ، والصيغة هنا لمجرد الوصف ولا تعطي معنى التفضيل ، وقد ناقش البغدادي في خزانة الأدب هذه الصيغة وقال : إن هذا الشاهد وما يماثله يمكن أن يعطي معنى التفضيل لا مجرد الوصف .

يُعطي لِيُثاب نِعماً يُجْزى بها يوماً وينتظر ثَوَابَها ، وحوَّم في هذا المعنى وحلَّق بتطويل غير مُغْن ، ويتَّجه المعنى الذي أَراد بـأَيْسر من قوله ، وذلك أَن يكون التقدير : وما لأَحد عنده إِعطاءٍ ليقع عليه من ذلك الأَحد جزاءٍ بَعْدُ ، بل هو لمجرَّد ثواب الله تعالى وجزائه .

وقوله تعالى : (إِلاَّ ابْتِغَاءَ) نصب بالاستثناءِ المنقطع ، وفيه نظر ، والابتغاءُ : الطلب ، ثم وعده تعالى بالرِّضَا في الآخرة ، وهذه عِدَةٌ لأَبي بكر رضي الله عنه . وقرئ : [يُرْضَى] بضم الياءِ على بناءِ الفعل للمفعول ، وهذه الآية تشبه الرِّضَا في قوله تعالى : (ارْجِعي إِلِى ربِّكِ راضيَةً مَرْضِيَّة)[1] .

كمل تفسير سورة الليل والحمد لله رب العالمين

(١) الآية (٢٨) من سورة (الفجر) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٩٣) سورة الضحى مكية
وآياتها إحدى عشرة

وهى مكية ، لا خلاف في ذلك بين الرواة .

قوله عز وجل :

﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) ﴾

تقدم تفسير « الضُّحَى » بأَنه سطوع الضوءِ وعِظمُه ، وقال قتادة : الضحى هنا النهارُ كلُّه (١) ، و [سَجَى] معناه : سكن واستقر ليلاً تامًّا ،

(١) دليله على ذلك المقابلة في قوله تعالى : (وَاللَّيْلِ إذا سَجَى) ، فالليل يقابله النهارُ .

وقال بعض المفسرين : [سَجَى] معناه : أَقبل ، وقال آخرون : معناه : أَدبر ، والأَول أَصحُّ ، ومنه قول الشاعر :

يا حبَّذا الْقَمْراءُ واللَّيْلُ السَّاجْ وَطُرُقٌ مِثْلُ مُلاءِ النَّسَّاجْ (١)

ويقال : « بحر ساج » أَي ساكن ، ومنه قول الأَعشى :

وما ذنْبُنا أَنْ جاش بَحْرُ ابْنُ عمِّكُمْ وَبحْرُكَ ساجٍ لاَ يُواري الدَّعامِصَا (٢)

و « طرْفٌ ساج » إذا كان ساكناً غير مضطرب النظر .

وقرأَ جمهور الناس : [ودَّعَك] بشد الدَّال ، من التوديع ، وقرأَ عروة ابن الزبير وابنه هشام : [وَدَعَك] بتخفيف الدال ، بمعنى تركك .

و [قلَى] معناه : أَبغض .

---

(١) هذان بيتان من الرجز ذكرهما صاحب اللسان قائلا : « وأنشد الزجاج للحارثيِّ .... » ، وهما في الطبري ، والقرطبي ، والبحر المحيط ، والكامل ، والليلة القمراءُ : المُقْمِرة المضيئة ، والسَّاج : الساكِنُ الهاديُ ، والمُلاءُ ـ بالضم والمد ـ : جمع مُلاءَةٍ ،وهي الإزارُ والملحفة ، يقول : ما أَجمل القمر في هذا الليل الساكن ، وعلى هذه الطرق الملساءِ التي لا حجارة فيها ولا حصباء .

(٢) البيت لأَعشى بنى قيس بن ثعلبة ، وهو في اللسان ، والطبري ، والقرطبي ، والبحر المحيط ، ويروى : « فما » بدلاً من « وما » ، ويروى « أَتوعدني » في موضع « فما ذنبنا » أَيضاً ، والدَّعامص : جمع دعموص ، وهي دودة سوداءُ تعيش في المياه الضحلة ، والأعشى يهجو علقمة ابن عُلاثة ويقول له : أَتُهددني وتوعدني ؟ وما ذنبي أنا إذا كان شرف ابن عمك كالبحر الثائر الفائر ، وكان شرفك أنت ضعيفاً هزيلاً كالماءِ الساكن الواقف الذي لا يواري ما فيه من الديدان الحقيرة ؟ والشاهد أن « ساج » بمعنى « ساكن » .

واختلف في سبب هذه الآية – فقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيرُه : أَبطأَ الوحيُ مُدَّةً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة اختلفت في حدها الروايات حتى شقَّ ذلك عليه ، فجاءت امرأة من الكفار – وهي أُمَّ جميل امرأَة أَبي لهب – فقالت : يامحمد ، ما أَرى شيطانك إلاَّ قد تركك ، فنزلت الآية بسبب ذلك(١) .

وقال ابن وهب عن رجاله عن عروة بن الزبير أَن خديجة رضي الله عنها قالت : ما أَري الله إلاَّ قد خلاك لإفراط جزعك لِبُطءِ الوحي عنك ، فنزلت الآية بسبب ذلك(٢) ، وقال زيد بن أَسلم : إنما احتبس عنه جبريل لِجرْو كان في بيته(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وللآخِرَةُ خَيْرٌ لك مِن الأُولى ﴾ يحتمل أَن يريد

---

(١) رواه البخاري ، ومسلم ، وأَحمد ، والطبري ، وأَورده السيوطي في الدر المنثور ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد الترمذي ، والنسائي ، والبيهقي وأَبي نعيم معاً في « الدلائل » ، وذكره الواحدي في أسباب النزول ، عن جندب بن عبد الله بن سفيان البجلي رضي الله عنه ، ولفظه كما ذكره السيوطي : (اشتكى النبي صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلتين أَو ثلاثاً ، فأَتته امرأة فقالت : يامحمد ، ما أرى شيطانك إلاَّ قد تركك ، لم تره قربك ليلتين أو ثلاثاً ، فأَنزل الله ﴿وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إذا سَجَىٰ ، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾) .

(٢) ذكره الواحدي في « أَسباب النزول » بسنده ، عن هشام بن عروة عن أَبيه ، وأَخرجه ابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل كذلك عن عروة ، وأَخرج مثله ابن جرير عن عبد الله بن شداد . ذكر ذلك السيوطي في الدُّر المنثور .

(٣) ذكر ذلك الواحدي في خير طويل في كتابه « أسباب النزول » ، عن حفص بن سعيد القرشي ، عن أُمِّه ، عن أُمِّها خولة ، وكانت خادمة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الدارين : الدنيا والآخرة ، وهذا تأويل ابن إسحق وغيره ، ويحتمل أن يريد حاليْه في الدنيا قبل نزول السورة وبعدها ، فوعده الله تعالى – على هذا التأويل – بالنصر والظهور ، وكذلك قوله تعالى : (ولسوْف يُعطيك ربُّك فَترْضى) ، قال جمهور الناس : ذلك في الآخرة ، وقال بعض أهل البيت : هذه أرْجى آية في القرآن ؛ لأَن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرضى وواحد من أُمته في النار ، وقال ابن عباس : رضاهُ أَلاَّ يدخل أَحد من أَهل بيته النار ، وقال ابن عباس أَيضاً : رضاه أَن الله تعالى وعده بأَلف قصر في الجنة بما تحتاج إليه من النعم والخدم ، وقال بعض العلماءِ : رضاه في الدنيا بفتح مكة وغيره ، وفي مصحف ابن مسعود : « ولَسَيُعْطِيكَ » .

ثم وقفه تعالى على المراتب التي درجه فيها بإنعامه عليه فقال : (أَلمْ يجْدك يتيماً فآوى) ، والمعنى : أَلم يجدك تحفِّي الله وإنْعامُهُ ، ويُتْمُهُ كان فقد أَبيه وكونه في كنف عمِّه أَبي طالب ، وقيل لجعفر ابن محمد الصادق : لمَ يُتْم النبي صلى الله عليه وسلم من أَبويه ؟ قال : لِئلاَّ يكون عليه حقٌّ لمخلوق . وقرأَ الأَشهب العقيلي : [فأَوَى] بالقصر بمعنى : رحم ، يقال : أَويْتُ لفلان ، أَي رحمتُه . وقول تعالى : (ووَجَدَك ضَالاًّ) أَي : وجدك إنْعامُه بالنُّبوة والرِّسالة على غير الطريق التي أَنت عليها في نبوتك ، فهدَى ، هذا قول الحسن والضحاك وفرقة .

و « الضَّلال » مختلف ، فمنه البعيد ومنه القريب ، فالبعيد ضلال الكفار الذين يعبدون الأَصنام ، ويحتجُّون لذلك ويغتبطون به ، وكان هذا الضلال الذي ذكره الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وسلم أَقرب ضلال ، وهو الكون واقفاً لا يُميِّزُ الْمَهْيَعُ[١] ، لا لأَنه تمسَّك بطريق آخر ، بل كان يرتاد وينظر . وقال السُّدِّي : أَقام على أَمر قومه أَربعين سنة ، وقيل : معنى (وَوجدَك ضَالًّا) : تُنْسب إلى الضلال ، وقال الكلبي : وجدك في قوم ضُلَّال ، فكأَنك واحد منهم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعبد صنما قط ، ولكنه أَكل ذبائحهم حسب حديث زيد بن عمرو في أَسفل بلْدَح[٢] ، وجرى على يسير من أَمرهم ، وهو مع ذلك ينظر خطأً ماهم عليه ، ودفع من عرفات وخالفهم في أَشياءَ ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هو ضلاله وهو صغير في شعاب مكة ، ثم ردَّه الله تعالى إلى جدِّه عبد المطلب ، وقيل : هو ضلاله من حليمة مرضعته ، وقال الترمذي ، وعبد العزيز بن يحي : [ضالًّا] : خامِل الذِّكر لا يعرفك الناس ، فهداهم إليك ربُّك ، والصوابُ

---

(١) المَهْيَع : الطريق الواسع المنبسط .

(٢) هو وادٍ قبل مكّة من جهة الغرب ، وفيه المثل « لكن على بَلْدَحَ قومٌ عَجْفَى » ، قاله بيهس الملقبّ بنعامة لمّا رأى قتلة إخوته وقد نحروا وأَكلوا وشبعوا فقال أَحدهم : ما أَخصب يومنا هذا وأَكثر خيره ، فقال نعامة مثَلهُ ، فضرب مثلاً في التّحزن بالأَقارب .

أَنه ضلالُ منْ توقَّف لا يدري ، كما قال عز وجل : (ما كُنْتَ تَدْري مَا الْكِتابُ ولا الإِيْمانُ)[١] . وقال ثعلب : هو تزويجه عليه السلام بنته في الجاهلية ، ونحو ذلك .

و « العائِلُ » : الفقير ، وقرأَ اليمانيُّ : [عَيِّلاً] بشدِّ الياءِ المكسورة ، ومنه قول الشاعر :

وما يدْري الْفَقيرُ مَتَى غِناهُ ... وما يدْري الغَنِيُّ مَتى يَعيلُ[٢]

وأَعال : كثُر عياله ، وعَال : افتقر ، ومنه قول الله عزَّ وجلَّ : (وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً)[٣] ، وقوله تعالى : [فَأَغْنى] ، قال مقاتل : معناه : رَضَّاك بما أَعطاك من الرزق ، وقيل : فقيراً إِليه فأَغناك به ، والجمهور على أَنه فقر المال وغناه ، والمعنى في النبي صلى الله عليه وسلم أَنه أَغنى الأَغنياءِ بالصبر والقناعة ، وقد حُبِّبا إِليه ، وقيل : أُغني بالكفاف لتصرفه في مال خديجة رضي الله عنها ، ولم يكن النبي صلى الله عليه

(١) من الآية (٥٢) من سورة (الشورى) .

(٢) هذا واحد من أبيات قالها أُحيحة بن الجلاح ، وهو في معاني القرآن ، والجمهرة ، واللسان ، ومجاز القرآن :

فَهَلْ مِنْ كاهِنٍ أَوْ ذي إِلـهٍ ... إذا ما كانَ مِنْ رَبِّي قُفُولُ
أُراهِنُهُ فَيَرْهَنُني بَنِيهِ ... وَأَرهَنُهُ بَنِيَّ بما أَقُولُ
وما يَدْري الْفَقير مَتَى غِناهُ ... وما يَدْري الغَنِيُّ مَتَى يَعيلُ
وما تَدْري إذا أَزْمَعْتَ أَمْراً ... بِأَيِّ الأَرْضِ يُدْرِكُكَ الْمَقيلُ

(٣) من الآية (٢٨) من سورة (التوبة) .

وسلم قطُّ كثير المال ، رفعه الله عن ذلك ، وقال : (ليس الغِنَى عن كثرة العرضَ ، ولكن الغِنى غِنى النفس)(١) .

ولما عدَّد الله تعالى عليه هذه النِّعم الثلاث وصَّاه بثلاث وصايا ، في كل نعمة وصيَّةٌ مناسبة لها ، فبإزاءِ قوله تعالى : (أَلَمْ يَجِدْكَ يتِيماً فآوى) قوله تعالى : (فَأَمَّا الْيتيم فلاَ تَقْهرْ) ، وبإزاءِ قوله تعالى : (وَوَجَدَكَ ضالاًّ فَهَدَى) قوله تعالى : (وأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ) ، هذا على قول من قال : إن السائِلَ هنا هو السائل عن العلم والدين ، وليس بسائل المال ، وهو قول الحسن وأَبي الدَّرْدَاءِ وغيرهما ، وبإِزاءِ قوله تعالى: (ووَجَدَكَ عَائلاً فَأَغْنَى) قوله تعالى : (وَأَمَّا بِنْعِمَةِ رَبِّكَ فحَدِّثْ) ، وأَما من قال إن السائل سائل المال المحتاج ، وهو قول الفراءِ وجماعة فقد جعلها بإِزاءِ قوله تعالى : (وَوَجَدَكَ عائِلاً فَأَغْنَى) ، وجعَل قوله تعالى: (وأَمَّا بِنِعْمَةِ ربكْ فَحَدِّثْ) بإِزاءِ قوله تعالى : (وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى) .وقال إبراهيم ابن أَدهم : نعم القوم السُّؤَّال ، يحملون زادنا إِلى الآخرة . وقوله تعالى : (فَلاَتَنْهَرْ) معناه : رُدَّ ردًّا جميلا ، إِمَّا بعطاءٍ أَو بقول حسن. وفي مصحف ابن مسعود : « وَوجَدَكَ عَديماً فَأَغْنى » ، وقرأَ ابن مسعود ، والشعبي ، وإبراهيم التيمي : « فأَمَّا الْيَتيم فَلاَ تكْهَرْ » بالكاف ، قال الأَخفش : وهى بمعنى القَهر ، ومنه قول الأَعرابي: « وقاكم الله سَطْوة القادر وملكة الكاهر »

(١) أخرجه البخاري في الرقاق،ومسلم في الزكاة ، والترمذي وابن ماجه في الزهد، وأحمد في مسنده (٢٤٣/٢ ، ٢٦١ ، ٣١٥ ، ٣٩٠) . عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وقال أَبو حاتم : لا أَظنُّها بمعنى القهر ؛ لأَنه قد قال الأَعرابي الذي بال في المسجد : « فما كهرنى النبي صلى الله عليه وسلم » ، فإنما هى بمعنى الانتهار .

وأَمره الله تعالى بالتحدث بنعمته ، فقال مجاهد ، والكلبي : معناه : بُثَّ القرانَ وبلِّغْ ما أُرسلتَ به ، وقال آخرون : بل هو عموم في جميع النِّعم ، وكان بعض الصَّالحين يقول : لقد أَعطاني الله كذا وكذا ، ولقد صليت البارحة كذا وكذا ، وذكرت الله تعالى كذا ، فقيل له : إن مثلك لا يقول هذا ، فقال : إن الله تعالى يقول : (وأَمَّا بِنِعْمةِ رَبِّك فَحدِّثْ) وأَنتم تقولون لا تُحدِّث ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (التَّحَدُّثُ بالنِّعمِ شكرٌ)[(١)] ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (من أُسْدِيَتْ إليه يدٌ فذكرها فقد شكرها ، ومن سترها فقد كفرها)[(٢)] ، ونصب [الْيتيمَ] بـ [تقْهرْ] ، والتقدير : مهما يكن من شيءٍ فلا تقهر اليتيمَ .

كمل تفسير سورة الضَّحى والحمد لله رب العالمين

(١) هذا جزءٌ من حديث أَخرجه عبد الله بن أَحمد في « زوائد المسند » ، والبيهقي في « شعب الإيمان » بسند ضعيف عن أَنس بن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر : (من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، والتحدث بنعمة الله شكر ، وتركها كفر ، والجماعة رحمة) .

(٢) أخرج أَبو داود ، عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (من أبلى بلاءً فذكره فقد شكره ، وإن كتمه فقد كفره ، ومن تحلَّى بما لم يُعط فإنه كلابس ثوب زور) ، وأخرج أحمد ، وأبو داود عن جابر بن عبد الله قال : (من أُعْطي عطاءً فوجد فليخبر به ، فإن لم يجد فلْيَسْتَنّ به ، فمن أَثنى به فقد شكره ، ومن كتمه فقد كفره) . وأَخرج أَحمد ، والطبراني في الأَوسط عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من أُولي معروفاً فليكافيء به فإنْ لم يستطع فليذكره ، فإن من ذكره فقد شكره) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٩٤) سُورَةُ الشَّرْحِ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا ثَمَانٍ

وهى مكية بإجماع من المفسرين ، لا خلاف بينهم في ذلك .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ
ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ
ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ ﴾

عدَّد الله تعالى على نبيِّه صلى الله عليه وسلم نعمه في أَن شرح له صدره للنُّبُوَّة وهيَّأَه لها ، وذهب الجمهور إِلى أَن شَرْح الصدر المذكور هو : تنويره بالحكمة وتوسيعه لتلقِّي ما يُوحَى إِليه . وقال ابن عباس رضي الله عنه ، وجماعة : هذه إِشارة إِلى شرحه بشق جبريل عليه السلام عنه

في وقت صغره ، وفي وقت الإسراءِ ؛ إذ التشريح شقُّ اللحم . وقرأَ أَبو جعفر المنصور : (أَلَمْ نَشْرحَ) بنصب الحاءِ ، على نحو قول الشاعر :

اضْرِبَ عنْكَ الْهُموم طارِقهـا   ضربَكَ بِالسَّيْف قَوْنسَ الْفرسْ[(١)]

ومثله مما في نوادر أَبي زيد :

مِنْ أَيِّ يوْمَيَّ منَ الْموْتِ أَفـرْ   أَيوْمَ لم يُقْدرَ أَمْ يوْم قُدرْ[(٢)]

كأَنه تعالى قال : « أَلَم نشرحَنَّ » ، ثم أَبدل من النون أَلفاً ، ثم حذفها تخفيفاً . وهي قراءة مردودة[(٣)] .

---

(١) هذا البيت ورد في نوادر أَبي زيد كالذي بعده ، وهو أَيضاً في اللسان ، والمحتسب ، والبحر المحيط ، وقيل : هو من شعر طرفة ، وقيل : هو مصنوعٌ عليه ، والطَّارق : الذي يأتي ليلاً ، وقَوْنَس الفَرَس : ما بين أُذنيه ، والشاهد أَنهّ أراد : اضربَنْ ، بنون التوكيد الخفيفة ، فحذفها للضرورة ، وهذا من الشاذِّ الذي لا يُقاسُ عليه ، لأن نون التوكيد الخفيفة لا تُحذف إلاّ إذا لقيها ساكن .

(٢) هذا الرَّجز للحارث بن منذر ، وهو في « سر الصناعة » و « مُغنى اللبيب » والبحر المحيط ، وقيل : أراد : لم يُقْدرَنْ ، بنون التوكيد الخفيفة ، ثم حذفها للضرورة ، قال أَبو الفتح ابن جني ، وهذا عندنا غير جائز .

(٣) سبب ذلك أن هذه النون للتوكيد ، والتوكيد أَشبه شيءٍ به الإسهاب والإطناب ، مما يقتضي عدم الحذف. وقد عزا الزمخشريُّ هذه القراءة إلىأَبي جعفر المنصور ،وقال عنها : « لعلَّه بيَّن الحاءَ وأشبعها في مخرجها ، فظن السامع أنه فتحها » ، وقد نقل أَبو حيان الأَندلسي في البحر المحيط كلام ابن عطية ، وكلام الزمخشري، ثم قال : « ولهذه القراءة تخريج أحسن من هذا كلِّه ، وهو أَنه لغةٌ لبعض العربحكاها اللحيانيُّ في نوادره ،وهي الجزم بـ« لَنْ » . والنصب بـ« لمْ » على =

و « الْوِزْرُ » الذي وضعه الله تعالى عنه هو عند بعض المتأَولين الثقل الذي كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحيرته قبل المبعث ؛ إذ كان يرى سوءَ ما قريش فيه من عبادة الأَصنام ، وكان لم يتَّجه له من الله أَمر واضح ، فوضع الله تعالى عنه ذلك الثِّقل بنبوته وإرساله. وقال أَبو عبيدة وغيره : المعنى : خفَّفنا عليك أَثقال النُّبوة ، وأَعنَّاك على الناس ، وقال قتادة ، وابن زيد ، والحسن ، وجمهور من المفسرين : الوِزْرُ – هنا : الذنوب ، وأَصله الثقل ، فشبهت الذنوب به ، وهذه الآية نظير قوله تعالى : (لِيغْفِرَ لكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ منْ ذنبِكَ ومَا تَأَخَّرَ)(١) ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجاهلية قبل النُّبوة وِزْرُهُ صُحبة قومه ، وأَكْلُهُ من ذبائحهم ، ونحو هذا ، وقاله الضحاك ، وفي كتاب النقاش : حضوره مع قومه المشاهد التي لا يحبها الله تعالى .

= عكس المعروف عند الناس، وأَنشد قول عائشة بنت الأعجم تمدح المختار بن أَبي عبيد ،وهو القائم بثأر الحسين بن علي رضي الله عنهما :

قد كانَ سَمْكُ الهُدَى يَنْهَدُّ قائِمُهُ حتَّى أُتيح لَهُ المُخْتارُ فانْعَمَدَا
في كلِّ مــا هَمَّ أَمْضَى رَأْيَهُ قُدُماً ولَمْ يُشاوِرَ في إقْدامِهِ أَحَــدَا

بنصب « يُشاورَ » ، وهذا محتمل للتخريجين ، وهو أَحسن مما تقدم » . اه كلام أَبي حيان .

(١) من الآية (٢) من سورة (الفتح) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذه كلُّها جرَّها المنشأُ ، كشهوده حرب الفجار ، يُنبِّلُ على أعمامه (١) وقلبه في ذلك منيب إلى الصواب ، وأما عبادة الأَصنام فلم يتلبَّس بها قط . وقرأ أنس بن مالك : « وحَطَطْنا عنْك وِزْرَك » ، وفي حرف ابن مسعود : « وَحَلَلْنَا عَنْكَ وِقْرَكَ » ، وفي حرف أُبيٍّ : « وَحططْنا عَنْكَ وِقْرك » ، وذكر أَبو عمرو أَن النبي صلى الله عليه وسلم صَوَّبَ جمعيها . وقال المحاسبي : إنما وصفت ذنوب الأَنبياءِ عليهم السلام بالثقل وهي صغائر مغفورة لِهَمِّهِمْ بها وتحسُّرهم عليها .

و [أَنْقَضَ] معناه : جعله نقْضاً ، أَي هزيلاً مُعيياً من الثقل ، وقيل : معناه : أَسمع له نقيضاً وهو الصوت ، وهو مثل نقيض السُّفن ، وكلُّ ما حمَّلْته ثقلاً فإنه يُنْقضُ تحته ، وقال عباس بن مرداس :

وأَنْقَضَ ظهْري ما تطوَّقْتُ منْهُـمُ … وَكُنْتُ علَيهِمْ مُشْفِقاً مُتَحَنَنِّا (٢)

---

(١) أي : يلقط لهم النبْل ثم يدفعها إليهم ليرموا بها ، وفي حديث الفِجارِ : (كنت أيام الفجارِ أَنْبُل علَى عُمومتي) ، وروي (كنت أُنَبِّلُ عَلَىعمومتي يوم الفجار) ــ ومعنى هذا أننا يمكن أن نضبط الكلمة : يَنْبُلُ ، ويمكن أن نجعلها بالتشديد : يُنَبِّلُ .

(٢) أَنْقَض ظهري : أَثْقَلَهُ وأَوْهَنه ، وقيل : جعل له نقيضاً أي صوتاً من شدة الحمْل ، ومعنى (تطوَّقتُ منهم) : تحملتُ من إنْعامهم . والإشفاق عليه : شدة الخوف عليه . والتَّحَنُّن : الرحمة والعطف . وعباسُ بن مرداس هو السُّلَمِيُّ ، من المؤلَّفة قلوبهم الذين أَعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم يوم حُنَيْن ، وجعل نصيبه أَقل من غيره ، فأَبَى ، فأرضاه الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

وقوله تعالى : (وَرَفعْنا لك ذِكْرَك) معناه : نَوَّهنا باسمك ، وذهبنا به كل مذهب في الأَرض ، هذا ورسول الله بمكة ، وقال أَبو سعيد الخدري ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة : معنى قوله تعالى : (وَرَفَعْنَا لكَ ذِكْرك) ، أَي : قرنَّا اسمك باسمنا في الأَذان والخُطب ، وروي في هذا حديث (إن الله تعالى قال : إذا ذِكرت ذُكِرْتَ معي)[(١)] ، وهذا مُتَّجه إلاَّ أَن الآية نزلت بمكة قديماً والأَذان شرع بالمدينة ، ورَفْعُ الذكر نعمة على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكذلك هو جميل حَسَن للقائمين بأُمور الناس ، وخمولُ الذكر والاسم حسَن للمنفردين للعبادة ، وقد جعل الله تعالى النِّعم أَقساماً بحسب ما يصلح لشخص شخص ، وفي الحديث (إن الله تعالى يوقف عبداً يوم القيامة فيقول : أَلم أَفعل بك كذا وكذا ـ يُعَدِّدُ عليه نِعمه ـ ، ويقول في جملتها : أَلَمْ أُخمل ذكرك في الناس)[(٢)] ؟ والمعنى في هذا التعديد الذي على النبي صلى الله عليه وسلم : أَي : يامحمد

---

(١) رواه الطبري في تفسيره عن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، من طريق دَرَّاج عن أَبي الهيثم ، ومع صدق دراج في حديثه فإن في روايته عن أَبي الهيثم ضعف ، ومع ذلك صححه ابن حبان ، وأورد السيوطي هذا الحديث في الدر المنثور ، وزاد نسبته لابن المنذر ، وابن مردويه ، وأَبي نعيم في الدلائل ، كذلك رواه ابن أَبي حاتم عن يونس عن عبد الأعلى به ، ورواه أبو يعلي عن دراج .

(٢) لم أَقف عليه .

فقد جعلنا جميع هذا فلا تكثرت بأَذى قريش ، فإن الذي فعل بك هذه النعم سيُظْفِرك بهم ويَنْصُرك عليهم .

ثم قوَّى تعالى رجاءه بقوله سبحانه : (فَإِنَّ مَع الْعُسْرِ يُسْراً) ، أي مع ما تراه من الأَذى فرج يأتيك ، وكرر الله تعالى ذلك مبالغة وتبييناً للخير ، فقال بعض الناس : المعنى : إن مع العُسْر يسراً في الدنيا ، وإن مع العُسْر يسراً في الآخرة ، وذهب كثير من العلماءِ إلى أَن مع كل عُسْر يُسْرَيْن بهذه الآية ، من حيث « العُسْر » مُعرَّف للعهد ، و « اليُسْر » منكَّر ، فالأَول غير الثاني ، وقد رُوي في هذا التأويل حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه قال : (لن يغلب عُسْرٌ يُسرين)[1] ، وأَمَّا قول عمر به فنص في الموطأ في رسالته إلى أَبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهما . وقرأ عيسى ، ويحيى بن وثاب ، وأَبو جعفر : (العُسُر ، واليُسُر) بضمتين ، وقرأ ابن مسعود : « إِنَّ مَعَ العُسْر يُسْراً) واحدةً غير مكررة .

ثم أَمر نبيَّه عليه الصلاةُ والسلام إذا فرغ من شغل من أَشغال النُّبوة والعبادة أَن يَنْصب في آخر ، والنصب : التَّعب ، فالمعنى أَن يدأب على ما أُمِرَ به ولا يفتر ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : المعنى : فإذا

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ، وابن جرير ، والحاكم ، والبيهقي ، عن الحسن ، قال : خرج النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فرحاً مسروراً وهو يضحك ويقول : (لن يغلب عُسْرٌ يُسْرَيْن ، (إنَّ مَعَ الْعُسْر يُسْراً ، إنَّ مع العُسْرِ يُسْراً) .

فرغت من فرضك فانصب في التَّنَفُّل عبادةً لربك ، وقال ابن مسعود : فانصب في قيام الليل ، وعن مجاهد : فإذا فرغتَ من شغل دنياك فانصب في عبادة ربك ، وقيل : المعنى : فإذا فرغت من الركعات فاجلس في التشهد وانْصب في الدعاءِ ، وقال ابن عباس ، وقتادة : معنى الكلام : فإذا فرغتَ من العبادة فانصب في الدعاءِ ، وقال الحسن بن أَبي الحسن: فإذا فرغتَ من الجهاد فانصب في العبادة ، ويعترض هذا التأويل أَن الجهاد فُرض بالمدينة . وقرأَ أَبو السمال : [فرِغْت] بكسر الراءِ ، وهي لغة ، وقرأَ قومٌ : [فانْصَبَّ] بشدِّ الباءِ وفتحها ، ومعناها : إذا فرغت من الجهاد فانصبَّ إلى المدينة ، ذكرها النقَّاش منبِّهاً على أَنها خطأٌ ، وقرأَ آخرون من الإمامية : [فَانْصِبْ] بكسر الصاد ، بمعنى إذا فرغت من أَمر النُّبوة فانْصِب خليفة ، وهي قراءة شاذة ضعيفة المعنى لم تثبت عن عالم ، ومرَّ شريحٌ على رجلين يصطرعان فقال: ليس بهذا أَمر الفراغ ، وتلا هذه الآية .

وقوله تعالى : (وإِلَى رَبِّكَ فارْغَبْ) أَمْرٌ بالتوكل على الله عزَّ وجلَّ ، وصَرْف وجه الرغبات إليه لا إلى سواه ، وقرأَ ابن أَبي عبلة : « فَرَغِّبْ » بفتح الراءِ وشدِّ العين مكسورة .

كمل تفسير سورة الشرح والحمد لله رب العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٩٥) سورة التين مكية وآياتها ثمان

وهى مكية ، لا أعرف في ذلك خلافاً بين المفسرين (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾

اختلف الناس في معنى « التِّينِ والزَّيتُونِ » اللذين أَقسم الله تعالى بهما ــ فقال ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وعكرمة ، وإبراهيم ، وعطاءٌ ، وجابر بن زيد ، ومقاتل : هو التِّين الذي يؤكل والزيتون الذي يعتصر ،

(١) قال الإمام القرطبي : « مكية في قول الأكثر ، وقال ابن عباس وقتادة : هي مدنية » .

وأكل النبي صلى الله عليه وسلم مع أَصحابه رضي الله عنهم تيناً أُهدي إليه فقال : (لو قلتُ إن فاكهة نزلت من الجنة قلتُ هذه ؛ لأَن فاكهة الجنة بلا عَجَم[1] ، فكلوا فإنه يقطع البواسير ، وينفع من النقرس)[2] وقال عليه الصلاة والسلام : (نعم السِّوَاك الزيتون من الشَّجرة المباركة ، هي سواكي وسواك الأَنبياءِ من قبلي)[3] . وقال كعب وعكرمة : القسم بمنابتهما ، وذلك أَن التِّين ينبت كثيراً بدمشق ، والزيتون ينبت بإيلاءَ ، فأَقسم الله تعالى بالأَرضَيْن ، وقال قتادة : هما جبلان بالشام ، على أَحدهما دمشق ، وعلى الآخر بيت المقدس ، وقال ابن زيد : التِّين مسجد دمشق ، والزيتون مسجد إيلياءَ ، وقال ابن عباس وغيره : التِّين مسجد نوح عليه السلام على الجودي ، والزيتون مسجد بيت المقدس ، وقيل : التِّين مسجد نوح ، والزيتون مسجد إبراهيم عليهما السلام ، وقيل : التِّين والزيتون وطور سينين ثلاثة مساجد بالشام ، وقال محمد ابن كعب القرظي : التِّين مسجد أَصحاب الكهف ، والزيتون مسجد

---

(١) العَجَم : النَّوى . (وهي بفتح العين والجيم) .

(٢) نقله القرطبي في تفسيره قائلا : « وقال أَبو ذرٍّ أُهدي للنبي صلَّى الله عليه وسلم سلٌّ تين فقال ... الخ » ولم أقف عليه في غير القرطبي .

(٣) أَيضاً لم أَقف على هذا الحديث بهذا النص ، ولكن وجدت أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (كلو الزيت فإنه مبارك ، واائتدموا به ، وادَّهنوا به فإنه يخرج من شجرة مباركة) ، أخرجه أحمد (٣/٣٩٧) ، وكل من الترمذي والدارمي في الأطعمة .

إيلياءَ ، وأَما طور سينين فلم يُختلف أَنه جبل بالشام كلَّم الله تعالى عليه موسى عليه السلام .

واختلف في معنى [سينين] ـ فقال عكرمة ، ومجاهد : معناه : حَسَنٌ مبارك ، وقيل: معناه : ذو الشجر ، وقرأَ الجمهور: [سِينِينَ] ، وقرأَ ابن إسحق ، وأَبو رجاءٍ : [سَيْنِينَ] بفتح السِّين ، وهى لغة بكر وتميم وقرأَ عمر بن الخطاب ، وطلحة ، والحسن وابن مسعود : [سِيناً] بسين مكسورة وأَلِفٍ ، وقرأَ أَيضاً عُمر رضي الله عنه بفتحها .

و « الْبلَدُ الأَمِينُ » مكَّةُ بلا خلاف ، وقيل : معنى [سِينِينَ] : المبارك ، وقيل : معناه : شجر ، وإِحدها سِينينةٌ ، قاله الأَخفش ، وسعيد ابن مسْعدة . و « أَمِين » فعِيلٌ من الأَمْن ، بمعنى : آمِنٌ ، أَيُّ : آمِنٌ منْ فيه ومَنْ دخله وما فيه من طير وحيوان .

والقسم واقع على قوله تعالى : (لَقَدْ خلقْنَا الإِنْسان في أَحْسَنِ تَقْويم) ، ولا يدفع هذا أَن يكون غيره من المخلوقات ـ كالشمس وغيرها ـ أَحسن تقويماً منه بالمناسبة ، وقال بعض العلماءِ بالعموم ، أَي أَن الإِنسان أَحسن المخلوقات تقويماً ، ولم ير قوم الحنث على من حلف بالطلاق أَن زوجته أَحسن من الشمس ، واحتجوا بهذه الآية . واختلف الناس في تقويم الإِنسان ما هو ؟ فقال النَّخعي ، ومجاهد ، وقتادة : حُسْن صورته وحواسِّه ، وقال بعضهم : هو انتصاب قامته ، وقال أَبو بكر بن طاهر ـ في كتاب

الثعلبي ـ : هو عقله وإدراكه اللّذان زيَّناه بالتَّميُّز ، وقال عكرمة : هو الشباب والقوة ، والصواب أَن جميع هذا هو حُسْن التقويم ، إلاَّ قول عكرمة إذ قد يفضل فيه بعضُ الحيوان ، و « الإنسان » هنا اسم الجنس ، وتقدير الكلام : في تقويم أَحسن تقويم ؛ لأَن « أَحْسن » صفة لابد أَن تجري على موصوف .

واختلف الناس في معنى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رَددْناهُ أَسْفلَ سافِلينَ ﴾ ـ فقال عكرمةُ ، وقتادة ، والضحاك ، والنَّخعي : معناه : بالهرم وذهول العقل وتغلُّب الِكبَر حتى يصير لا يعلم شيئاً ، أَما إِن المؤمن مرفوع عنه القلم ، والاستثناءُ ـ على هذا ـ منقطع . وهذا قول حَسَن ، وليس المعنى أَن كل إِنسان يعتريه هذا ، بل في الجنس من يعتريه ذلك ، وهذه عِبَرٌ منصوبة . وقرأَ ابن مسعود : « السَّافِلِين » بالأَلف واللام .

ثم أَخبر تعالى أَن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ وإِن نال بعضهم هذا في الدنيا ـ فلهم في الآخرة أَجر عظيم غير ممنون ، وقال الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن زيد ، وأَبو العالية : المعنى : رددناه أَسفل سافلين في النار على كفره ، ثم استثنى تعالى الذين آمنوا استثناءً متصلا ، فهم ـ على هذا ـ ليس فيهم من يُردَّ أَسفل سافلين ، وفي حديث أَنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا بلَغ المؤمن خمسين سنة خفف الله حسابه ، وإذا بلغ السِّتين رزقه الله الإِنابة إليه ، فإذا بلغ

السبعين أَحبه أَهل السماء ، فإذا بلغ ثمانين كُتبت حسناته ، وتجاوز الله عن سيئاته ، فإذا بلغ تسعين غُفرت ذنوبه ، وشفع في أَهل بيته ، وكان أَسير الله في أَرضه ، فإذا بلغ مائة – ولم يعمل شيئاً – كُتِب له مثل ما كان يعمل في صحته ، ولم تكْتُب عليه سيئة)[١] ، وفي حديث : (إن المؤمن إذا رُدَّ إلى أَرذل العمر ، كُتب له خير ما كان يعمل في قومه ، وذلك أَجر غير ممنون)[٢] ، و « ممْنُون » معناه : محسوب مُصرَّد[٣] يُمنُّ عليهم به ، قاله مجاهد وغيره ، وقال كثير من المفسرين : معناه : مقطوع ، من قولهم : « حبْلٌ مَنِينٌ » أَي ضعيف منقطع .

واختلف في المخاطب بقوله تعالى : (فَما يُكَذِّبُكَ بعْدُ بالدِّينِ) – فقال قتادة ، والفراءُ ، والأَخفش : هو محمد صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى له : فما الذي يُكذِّبك فيما تُخبر به من الجزاءِ والبعث – وهو

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٨/٣) عن أنس رضي الله عنه ، وفيه : (ما من مُعَمَّر يُعَمَّرَ في الإسلام أربعين سنة إلاَّ صرف الله عنه ثلاثة أنواع من البلاء : الجنون ، والجذام ، والبرص ، فإذا بلغ خمسين سنة لـَيَّن الله عليه الحساب ، فإذا بلغ .... إلخ) .

(٢) أخرج البخاريُّ عن أَبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا مرض العبد أو سافر كتب الله له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحا مقيما) ، كذلك أَخرجه ابن مردويه عن أَبي موسى مع اختلاف في بعض الألفاظ ، وأَخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة – ولم يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم – حديثا طويلاً (جاءَ في آخره (وفي لفظ قال : من رُدَّ منهم إلى أرذل العُمر جرى له من الأجر مثل ما كان يعمل في صحته وشبابه ، فذلك الأجر غير ممنون ، قال : ولا يُمَنَّ به عليهم) .

(٣) التَّصْريد في الأجر : تقليله .

الدِّين ـ بعد هذه العبرة التي يوجب النظر فيها صحَّةَ ما قلت ؟ ويحتمل أَن يكون « الدِّين » ـ على هذا التأْويل ـ جميع دِينه وشِرعَةٍ . وقال جمهور من المتأَولين : المخاطبُ الإِنسانُ الكافر ، أَي : ما الذي يجعلك كذَّاباً بالدِّين ، تجعل لله تعالى أَنداداً ، وتزعم أَلاَّ بعْث بعد هذه الدلائل ؟ قال منصور : قلتُ لمجاهد : قوله تعالى : (فَما يُكَذِّبُكَ بعْدُ بِالدِّينِ) يراد به النبي عليه الصلاة والسلام ؟ فقال : معاذ الله ، يعني به الشَّاكَّ .

ثم وقف تعالى جميع خلقه على أَنه سبحانه أَحكم الحاكمين ، على جهة التقرير ، ورُوي عن قتادة أَن رسول الله صلى الله عليه كان إِذا قرأَ هذه السورة قال : (بلَى ، وأَنا على ذلكم من الشاهدين)[١] .

تم تفسير سورة التِّين والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه عبد بن حميد عن قتادة ، وأَخرج مثله عن صالح أَبي الخليل . (الدُّر المنثور)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمـين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٩٦) سورة العلق مكية وآياتها تسع عشرة

تفسير سورة القلم *

وهي مكية بإجماع ، وهي أول ما نزل من كتاب الله تعالى ، نزل صدرها في غار حراءَ حسب ما ثبت في صحيح البخاري ، وغيره ، ورُوي من طريق جابر بن عبد الله أن أول ما نزل : (يَـأَيُّها الْمُدَّثِّرُ) (١) ،

---

* هكذا في جميع الأصول ، وهو أحد أسمائها .

(١) الآية (١)من سورة (المدَّثِّر) . أمَّا حديث جابر فقد أخرجه الطَّيالسي ،وعبد الرَّزَّاق، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وابن الضريس ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، وابن الأنباري في المصاحف ، قال : سألتُ أبا سلَمه بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن فقال : (يَـأَيُّهَا الـمُدَّثِّرُ)، قلتُ : يقولون: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) ، فقال أبو سلمة : سألتُ جابر بن عبد الله عن ذلك ، وقلتُ له مثل ما قلتَ ، قال جابر : لا أُحدثك إلاَّ ما حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : (جاورتُ بِحراءَ ، فلما قضيتُ جواري فنوديت ، فنظرتُ عن يميني فلم أَرَ شيئاً ، ونظرتُ عن شمالي فلم أَرَ شيئاً ، ونظرت خلفي فلم أَرَ شيئاً ، فرفعتُ رأسي فإذا الملَك الذي جاءَني بحراءَ جالسٌ على كرسيٍّ بين السماءِ والأرض ، فَجُئِثْتُ منه رعبا ، فرجعتُ فقلت : دثِّروني ، فدثروني ، فنزلت : (يَـأَيُّهَا الْمُدَّثِّرْ ، قُمْ فَأَنْذِرْ) ... إلى قوله : (والرُّجْزَ فَاهْجُرْ) .

وقال أَبُومَيْسرة عَمْرو بن شُرحبيل [1] : إن أَول ما نزل فاتحة الكتاب . والقول الأَول أَصح ، والترتيب في إخبار النبي صلى الله عليه وسلم يقتضي ذلك .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾ ﴾

في صحيح البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : (أَول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة ، فكان لا يرى رؤيا إلاَّ جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبِّب إليه التَّحنُّث [2]

(١) هو عمرو بن شرحبيل الهمداني ، أَبو مَيْسرة ، الكوفي ، ثقة عابد مخضرم ، مات سنة ثلاث وستين . تقريب التهذيب .

(٢) التَّحَنُّثُ : التَّعبد ، يقال : فلان يتَحَنَّثُ ، أي يفعل فعلاً يخرج به من الإثم والحرج .

في غار حراءَ ، فكان يخلو فيه فيتحنث فيه الليالى ذوات العدد ثم ينصرف ، حتى جاءَه الملك وهو في غار حراءَ فقال له : اقرأْ ، قال : ما أنا بقاريءٍ ، قال : فأَخذني فغطَّني [1] ، ثم كذلك ثلاث مرات ، فقال له في الثالثة : (اقْرأْ بِاسْمِ ربِّك الَّذي خَلَقَ ، خلَقَ الإنْسانَ مِنْ عَلَق) .. إلى قوله تعالى : (ما لَمْ يعْلمْ) ، قالت : فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجف بوادره) [2] الحديث بطوله .

ومعنى هذه الآية : اقرأْ هذا القرآن باسم ربك ، أَي : ابدأْ فعلك بذكر اسم الله ، كما قال تعالى: (وقال ارْكَبُوا فيها بِاسْمِ اللهِ) [3] .. هذا وجه ، ووجه آخر في « كتاب الثعلبي » أَن المعنى : اقرأْ في أَول كلِّ سورة وقراءة : (بسم الله الرحمن الرحيم) ، ووجْهٌ آخر أَن يكون المقروءُ الذي أُمر بقراءته هو « باسْمِ ربِّك الذي خَلَقَ » ، كأَنه قال له : اقرأْ هذه اللفظة .

ولما ذكر تعالى « الرَّبَّ » ، وكانت العرب في الجاهلية تسمى الأَصنام

---

(١) بمعنى : ضَمَّنِي وعصرني عصراً شديداً .

(٢) الذي في صحيح البخاري : « يرجف فؤاده » . والحديث طويل ، وبعض ألفاظه تختلف هنا عمَّا في صحيح البخاري ، وقد أَخرجه عبد الرزَّاق ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، وابن جرير ، وابن الأنبَاريِّ في المصاحف ، وابن مردويه ، والبيهقي من طريق ابن شهاب ، عن عروة بن الزبير ، عن عائشة أُم المؤمنين رضي الله عنها ، وذكر ذلك الواحدي في أول كتابه « أسباب النزول » .

(٣) من الآية (٤١) من سورة (هود) .

أَرباباً ، جاءَ بالصفة التي لا شركة للأَصنام فيها ، وهي قوله تعالى : (الذَّي خَلَقَ) ، ثم مثَّل لهم من المخلوقات مالا مدافعة فيه ، وما يجده كل مفطور في نفسه ، فقال تعالى ؛ (خلَقَ الإِنْسان مِنْ عَلَق) ، وخِلْقَةُ الإِنسان من أَعظم العبر حتى أَنه ليس في المخلوقات التي لدينا أَكثر عبراً منه ، في عقله وإِدراكه ورباطات بدنه وعظْمه . و « العَلَقُ » جمعُ عَلَقَة ، وهي القطعة اليسيرة من الدم . و « الإِنسان » ـ هنا ـ اسم الجنس ، ويمشي الذهن معه إِلى جميع الحيوان ، وليست الإِشارة إِلى آدم عليه السلام لأَنه مخلوق من طين ، ولم يكن ذلك مقرراً عند المخاطبين بهذه الآية ، فلذلك تُرِكَ أَصلُ الخِلْقة وسيق لهم الفرعُ الذي هم به مُقرُّون تقريباً لأَفهامهم .

ثم قال تعالى له : (اقْرَأْ وَرَبُّك الأَكْرَمُ) على جهة التأْنيس ، كأَنه تعالى يقول : امض لما أُمرت به ، وربُّك ليس كهذه الأَرباب ، بل هو الأَكرم الذي لا يلحقه نقص ، فهو ينصركَ ويُظهرك .

ثم عدَّدَ تعالى نعمة الكتاب بالقلم على الناس ، وهي موضع عِبرة وأَعظم منفعة في المخاطبات وتخليد المعارف ، وقوله تعالى : (عَلَّمَ الإِنْسانَ مالمْ يعْلمْ) ، قيل : المراد محمد عليه الصلاة والسلام ، وقيل : اسم الجنس ، وهو الأَظهر ، وعدَّد تعالى نعمة اكتساب المعارف للإِنسان بعد جهله بها .

وقوله تعالى : (كَلاَّ إِنَّ الإِنْسانَ لَيَطْغَى) الآية .. نزل بعد مُدَّة في شأْن أَبي جهل بن هشام ، وذلك أَنه طغى لغناه ، ولكثرة من يغشى ناديه من الناس ، فناصب رسول الله صلى الله عليه وسلم العداوة ، ونهاه عن الصلاة في المسجد ، ويُروى أَنه قال : لئن رأَيتُ محمداً يسجد عند الكعبة لأَطأَنَّ على عنقه ، فيروى أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم ردَّ عليه القول وانتهره ، فقال أَبو جهل : أَيتوعدني محمد ووالله ما بالوادي أَعظم نَدِيًّا مني[(١)] ؟ وروي أَيضاً أَنه جاءَ والنبي صلى الله عليه وسلم يصلِّي ، وهمَّ بأَن يصل إِليه ويمنعه من الصلاة ، ثم كعَّ عنه وانصرف ، فقيل له : ما هذا ؟ فقال : لقد اعترض بيني وبينه خندق من نار وهول وأَجْنِحة[(٢)] ويروى أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لوْدَنَا منِّي لأَخذته الملائكة عياناً)[(٣)] ، فهذه السورة من قوله تعالى : [كَلاَّ] إِلى آخرها

(١) أَخرج ابن أَبي شيبة ، وأَحمد ، والترمذي وصحَّحه ، وابن المنذر ، وابن جرير ، والطبراني ، وابن مردويه ، وأَبو نعيم والبيهقي ، عن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلِّي ، فجاءَ أَبو جهل فقال : أَلَمْ أَنْهك عن هذا ؟ أَلَمْ أَنْهك عن هذا ؟ فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم فزبره ، فقال أَبو جهل : إِنَّك لتعلم ما بها رجل أَكثر نادياً مني ، فأَنزل الله (فَلْيَدْعُ نادِيَهُ ، سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ) ، قال ابن عباس : والله لو دعا ناديه لأَخذته زبانية الله .

(٢) أَخرجه أَحمد ، ومسلم ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، وأَبو نعيم والبيهقي ، عن أَبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أَخرجه عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، وابن جرير ، وابن مردويه ، وابن المنذر ، وأَبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل ، عن ابن عباس رضي الله عنهما .

نزلت في أَبي جهل . و [كَلاَّ] هي ردٌّ على أَقوال أَبي جهل وأَفعاله ، ويتَّجه أَن تكون بمعنى « حَقًّا » ، فهي تثبيت لما بعدها من القول . و « الُّطغيان » تجاوز الحدود الجميلة ، و « الغِنى » مُطْغ إلاَّ من عصم الله تعالى ، و « الضمير في [رَآهُ] للإنسان المذكور ، كأَنه قال : أَن رأَى نفسه غنياً ، وهي رؤية قَلْب تقرب من العلم ، وكذلك جاز أَن يعمل فيها فعل الفاعل في نفسه ، كما تقول : وجدتُني وظننتني ، ولا يجوز أَن تقول : ضربتُني . وقرأَ الجمهور : (أَنْ رآهُ) بالمدِّ على وزن « رعاه» ، واختلفوا في الإمالة وتركها ، وقرأَ ابن كثير – من طريق قنبل – : (أَن رَأَهُ) دون مدٍّ ، على وزن « رَعَه » ، على حذف لام الفعل ، وذلك تخفيف (١) .

ثم حقَّر تعالى غِنَى هذا الإنسان وحاله بقوله تعالى : (إِنَّ إِلَىٰ ربِّكَ الرُّجْعَى) ، أَي الحشر والبعث يوم القيامة ، و « الرُّجْعى » مصدر كالرجوع ، وهو على وزن العُقْبى ونحوه ، وفي هذا الخبر وعيد للطاغين من الناس .

---

(١) قال أَبو حيان : « وهي رواية ابن مجاهد عنه ، قال : وهو غلط لا يجوز ، وينبغي أَلا يغلِّطه بل يتطلب له وجهاً ، وقد حُذفت الألف في نحو من هذا ،قال : (وَصَّانيَ العجَّاجُ فيما وصَّني) ، يريد : وصَّاني ، فحذف الألف وهي لام الفعل ، وقد حذفت في مضارع (رأى) وهو حذف لا ينقاسُ ، لكن إذا صحت الرواية وجب قبوله ، والقراءات جاءت على لغة العرب قياسها وشاذها » اهـ .

الناهي أَبو جهل ، وأَن العبد المصلي محمد صلى الله عليه وسلم . وقوله تعالى : (أَرَأَيْتَ) توقيف ، وهو فعل لا يتعدى إلى مفعولين على حدِّ الرؤية من العلم ، بل يقتصر به . وقوله تعالى : (أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى) إكمالٌ للتوبيخ والوعيد بحسب التوقيفات الثلاثة يصلح مع كل واحد منها ، فجاءَ بها في نَسق ، ثم جاءَ بالوعيد الكافي لجميعها اختصاراً واقتضاباً ، ومع كل تقرير من الثلاثة تكملة مقدرة تتسع العبارات فيها ، وقوله تعالى : (أَلَمْ يَعْلَمْ) دالٌّ عليها مُغْنٍ ، وقوله تعالى : (إِنْ كان) يعني العبد المصلي ، وقوله تعالى : (إِنْ كذَّب وَتَوَلَّى) يعني الإِنسان الذي ينهى ، ونسب تعالى الرؤية إلى الله تعالى بمعنى : يدرك أَعمال الجميع بإدراك سَّماه رُؤْية ، والله تعالى مُنَزَّهٌ عن الجارحة وغير ذلك من مماثلة المحدثات ، ثم توعده تعالى – إنْ لمَ يَنْتَه – بأَن يُؤْخذ بناصيته فَيُجر إلى جهنم ذليلاً ، تقول العرب : « سَفَعْتُ بيدي ناصية الفرس والرجل » إذا جذبتها مُذَلِّلاً له ، قال عمرو بن معد يكرب :

قَوْمٌ إذا سمِعوا الصِّياحَ رأَيْتَهُـــمْ   من بَيْنِ مُلْجِمِ مُهْرِه أَوْ سافِعِ (١)

---

(١) ونسب هذا البيت إلى حميد بن ثور الهلالي ، الصحابي المعروف ، ويُروى كما في « اللسان » : « الصريخ » بدلاً من « الصِّياح » : والصَّريخ : صوت المستصرخ ، ومعنى « سافع » : آخِذٌ بناصيته ، وهذا كناية عن الاستعداد للقتال بسرعة ، فهم قوم عرفوا بالنجدة والشهامة وسرعة العمل لانقاذ المستغيث .

فالآية على نحو قوله تعالى : (فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصي وَالأَقْدام)[١] . وقال بعض العلماءِ : (لَنَسْفَعَن) معناه : لَنُحْرِقَنَّ ، من قولهم : « سَفَعَتْهُ النارُ » إذا أَحرقته ، واكتفى بذكر الناصية لدلالتها على الوجه والرأْس[٢] ، وجاءَ [لَنَسْفَعاً] في خط المصحف بأَلف بدل النون ، وقرأَ أَبو عمرو ـ في رواية هارون ـ : [لَنَسْفَعَنَّ] مُثقَّلة النون ، وفي مصحف ابن مسعود « لأَسْفعَن بالناصية ، ناصية كاذبة فاجرة » ، وقرأَ أَبو حيوة : (ناصِيَةً كاذِبَةً خاطِئَةً) بالنصب في الثلاثة ، وروي عن الكسائي أَنه قرأَ بالرفع فيها كلها . و « النَّاصِيَةُ » مقدم شعر الرأْس ، ثم أَبدل تعالى النكرة من المعرفة في قوله تعالى : (ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ) ، ووصفها بالكذب والخطأ من حيث هي صفات لصاحبها ، كما تقول : يَدٌ سارقة .

وقوله تعالى : (فَلْيَدْعُ نادِيَهُ) إِشارة إِلى قول أَبي جهل : « وما بالوادي أَعظم نَدِيًّا مني » ، والنادي والندي : المجلس ، ومنه : دار الندوة ، ومنه قول زهير :

---

(١) من الآية (٤١) من سورة (الرحمن) .

(٢) هذا معنى آخر ، وهو أن (لَنَسْفَعَنْ) بمعنى : لَنُسَوِّدَنَّ وجهه بالإحراق ، فقال : لَنُسَوِّدن الناصية بدلاً من الوجه لأنها مقدم الوجه ، والشاهد على ذلك قول الشاعر :

وَكُنْتُ إذَا نَفْسُ الْغَوِيِّ نَزَتْ بِهِ سَفَعْتُ عَلَى الْعِرْنِينِ مِنْهُ بِمِيسَمِ

أي : وسَمْتُه عَلَى عِرْنينه ، فهو كقوله تعالى : (سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطومِ) .

وَفيهِمْ مقاماتٌ حِسانٌ وُجوهُهُمْ وأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُها الْقَوْلُ والْفِعْلُ(١)

ومنه قول الأَعرابية : « سيِّد ناديه ، وَثِمالُ عافيه »(٢) .

و « الزَّبانِيَةُ » ملائكة العذاب ، واحدهم « زِبْنية » ، وقال الكسائي : « زِبْنِي » ، وقال عيسى بن عمرو الأَخفش : « زابِنٌ » ، وهم الذين يدفعون الناس في النار ، والزَّبْنُ : الدَّفع ، ومنه « حربٌ زبُونٌ » ، أَي تدفع الناس في نفسها ، ومنه قول الشاعر :

وَمُسْتَعْجِبٍ مِمَّا يَرَى مِنْ أَناتِنَا وَلَوْ زَبَنَتْهُ الْحَرْبُ لَمْ يَتَرَمْرَمِ(٣)

ومنه قول عتبة بن أَبي سفيان : « وقد زبنتنا الحربُ وَزَبَنَّاهَا ، فنحن بَنُوها وهي أُمُّنا » ، ومنه قول الشاعر :

---

(١) البيت من قصيدة زهير التي قالها يمدح سنان بن أَبي حارثة الـمُـرِّيّ (صَحَا القلبُ عن سَلْمَى وَقَد كادَ لا يَسْلُو) . والمقامات : المجالس ، ومفردها : مَقَامة . ويَنْتَابُها : يَقْصِدها ، والقول والفعل معناهما : يُبَثُّ في هذه الأندية الجميل من القول ويعمل به . والشاهد أن « الأندية » جمع « النادي » ، وهو المجلس مادام القوم مجتمعين فيه . وإذا تفرقوا لم يكن نادياً .

(٢) الثِّمال : الغياثُ ، يقال : فلانٌ ثِمالُ بني فلان ، أي عمادهُم وغياثُهم ، والعافي : الضَّيف وطالب المعروف . فمعنى التعبير أنه غياث من يلجئون إليه طلباً للمعروف والمساعدة .

(٣) هذا البيت لأوس بن حَجَر ، وهو من قصيدة طويلة بدأها بقوله :

تَنَكَّرْتِ مِنَّا بَعْدَ مَعْرِفَةٍ لَمِي وَبَعْدَ التَّصابِي والشَّبابِ الْمُكَرَّمِ

ولَمِي : ترخيم « لَمِيس » ، والأناة : الحِلْم والصبر ، وزَبَنَتْهُ : دفعته ، وهو موضع الاستشهاد ، ولم يَتَرَمْرَم : لم يتحرك .

عَدَتْني عَنْ زِيارَتِكَ الْعَــوادي وَحَالَتْ بَيْننا حَرْبٌ زَبونُ(١)

وحذفت الواو من [سَنَدْعُ] في خط المصحف اختصاراً وتخفيفا ، والمعنى : سندعو الزبانية لعذاب هذا الذي يدعو ناديه ، وقرأ ابن مسعود: « فَلْيَدْعُ إلى نادِيهِ » .

ثم قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : [كَلَّا] ردًا على قول هذا الكافر وأفعاله ، (لاَ تُطِعْهُ) ، أي : لا تلتفت إلى نَهْيه وكلامه ، (وَاسْجُدْ لَرِبِّك ، (وَاقْتَرِبْ) إليه بسجودك وبالطاعة وبالأعمال الصالحة ، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أقرب ما يكون العبد من الله إذا سجد ، فأكثروا من الدعاءِ في السجود ، فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجابَ لكم)(٢)

---

(١) هذا البيت في « الأمالي » لأبي عليٍّ القالي ، ولم ينسبه ، والرواية فيه :

عَدَتْني عَنْ زيارَتِهَـا العـوادي وَحَالَتْ دُونَها حَرْبٌ زَبُـونُ

وعَدَتْني : صرفتني وشغلتني ، والعوادي : الصَّوَارف والأُمور التي تشغلني ، والزَّبون : التي يدفع الناسُ بعضهم بعضاً فيها ، أو التي تدفع الناسَ ، يقال للناقة التي تدفع الحالب عنها : ناقة زبون .

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة ، والنسائي في المواقيت ، والترمذي في الدعوات ، وأحمد في مسنده (٤٢١/٢)، ولفظه كما في مسند أحمد (أقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاءَ) ، أما الجملة الأخيرة فقد وردت في حديث آخر أخرجه الإمام أحمد أيضا في مسنده وهو عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد رفعه ،أنه صلىَّ الله عليه وسلم نَهي أَنْ يَقْرَأَ القرآنَ وهو راكعٌ ،وقال : (إذا ركعتم فعظِّموا الله ، وإذا سجدتم فادعوا ،فَقَمِنٌ أن يستجاب لكم) ومعنى « قَمَنٌ » و « قَمِنٌ » : جدير وخليق . والحديث ذكره السيوطي في « الجامع الصغير » وزاد نسبته إلى أبي داود ، ثم رمز له بأنه حديث صحيح .

وقاله مجاهد ، قال : ألم تسمعوا (وَاسْجُدْ واقْتَرِ بْ) ، وروى ابن وهب عن جماعة من أَهل العلم أن قوله تعالى : [وَاسْجُدْ] خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأَن [وَاقْتَرِ بْ] خطاب لأَبي جهل ، أَيْ إن كنت تجترئ حتى ترى كيف تهلك .

وهذه السورة فيها سجدة عند جماعة من أَهل العلم منهم ابن وهب من أَصحاب مالك .

كمل تفسير سورة القلم والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٩٧) سورة القدر مكية
وآياتها خمس

اختلف الناس في موضع نزول هذه السورة ، فقال ابن عباس وغيره : هي مدنية ، وقال قتادة : هي مكية (١) .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾

الضمير في [أَنْزَلْناهُ] للقرآن وإن لم يتقدم ذكره لدلالة المعنى عليه ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : أَنزله الله تعالى ليلة القدر

(١) ذكر الواقديُّ أَنها أول سورة نزلت بالمدينة .

إلى السماءِ الدنيا جُملة ، ثمَّ نَجَّمه (١) على محمد صلى الله عليه وسلم في عشرين سنة ، وقال الشَّعبي وغيره : المعنى : إنا ابتدأْنا إنزال هذا القرآن إليك ليلة القدر ، وقد روي أَن نزول المَلَك في حراءَ كان في العشر الأَواخر من رمضان ، فيستقيم هذا التأْويل ، وقد روي أَن نزول المَلَك كان في الرابع عشر من رمضان ، فلا يستقيم هذا التأْويل إلاَّ على قول من يقول : إن ليلة القدر تستدير الشهر كله ولا تختص بالعشر الأواخر من رمضان ، وقال قوم : معنى قوله تعالى : (إِنَّا أَنْزَلْناهُ في لَيْلَةِ الْقَدْرِ) : إِنَّا أَنزلنا هذه السورة في شأن ليلة القدر وفي فضلها ، ولما كانت السورة من القرآن جاءَ الضمير للقرآن تفخيما وتحسينا .

وقوله تعالى : (في لَيْلَةِ) هو على نحو قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لقد خشيت أَن ينزل في قرآنٌ ليلة نزول سورة الفتح ، ونحو قول عائشة رضي الله عنها في حديث الإفك : لأَنا أَحقر في نفسي من أَن ينزل في قرآن ، وليلة القدر هي لَيْلَةٌ خصَّها الله تعالى بفضل عظيم ، وجعلها أَفضل من أَلف شهر لا ليلة قدر فيها ، قاله مجاهد وغيره ، وخُصَّت هذه الأُمَّة بهذه الفضيلة لَمَّا رأَى محمد صلى الله عليه وسلم أَعمار أُمَّته فتقاصرها (٢) .

---

(١) أي : أنزله نَجْماً بعد نَجْم ، وكانت تنزل منه الآية والآيتان .

(٢) كأنه ظن أنها لا تكفي أن يبلغوا من الأعمال مثل ما بلغ غيرهم من الأمم في أعمارهم الطويلة .

وقوله تعالى : (وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ) عبارة تفخيم لها ، ثم أدراه تعالى بعْدُ بقوله : (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ) ، قال ابن عُيَيْنَةَ في صحيح البخاري : ما كان في القرآن (وَمَا أَدْرَاكَ) فقد أَعلمه الله تعالى ، وما كان فيه (وَمَا يُدْرِيكَ) فإنه لم يُعْلَم [(١)] . وذكر ابن عباس وقتادة وغيرهما أنها سُمِّيت ليلة القدر لأَن الله تعالى يقدِّر فيها الآجال والأَرزاق وحوادث العام كلها ويدفع ذلك إلى الملائكة لتمتثله ، وقد روي هذا في ليلة النصف من شعبان ، ولهذا ظواهر من كتاب الله عزَّ وجلَّ ، نحو قوله تعالى : (فيها يُفْرَق كُلُّ أَمْرٍ حَكيمٍ) [(٢)] وأَما الصحة المقطوع بها فغير موجودة ، وقال الزهري : معناها : ليلة القدر العظم والشرف وعِظَم الشأْنِ ، من قولك : رجل له قَدْرٌ ، وقال أَبو بكر الوَّارق : سُمِّيت

---

(١) أمَّا (وَمَا أَدْرَاكَ) فقد جاءت في القرآن في (١٣) ثلاثة عشر موضعا هي : (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ) ٣ الحاقة ، (وَمَا أَدْرَاكَ ما سَقَرُ) ٢٧ المدَّثر ، (وَمَا أَدْرَاكَ ما يَوْمُ الْفَصْلِ) ١٤ المرسلات ، (وَما أَدْرَاكَ ما يَوْمُ الدِّين) ١٧ الانفطار ، (ثُمَّ ما أَدْرَاكَ ما يَوْمُ الدين) ١٨ الانفطار ، (وَمَا أَدْرَاكَ ما سجِّينٌ) ٨ المطففين (وَمَا أَدْرَاكَ ما علِّيُّونَ) ١٩ المطففين . (وَمَا أَدْرَاكَ ما الطَّارِقُ) ٢ الطارق ، (وَمَا أَدْرَاكَ ما الْعَقَبَةُ) ١٢ البلد ، (وَمَا أَدْرَاكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ) القدر ، (وَمَا أَدْرَاكَ ما الْقَارِعَةُ) ٣ القارعة ، (وَمَا أَدْرَاكَ ماهِيَه) ١٠ القارعة ، (وَمَا أَدْرَاكَ ما الْحُطَمَةُ) ٥ الهُمَزَة . وأما (وَمَا يُدْرِيكَ) فقد جاءت في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم ، وهي : (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تكونُ قَرِيباً) ٦٣ الأحزاب ، (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ) ١٧ الشورى ، (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى) ٣ عبس .

(٢) الآية (٤) من سورة (الدخان) .

ليلة القدر لأَنها تُكْسب من أَحياها قدراً عظيماً لم يكن له قبل ، وتردُّه عظيما عند الله تعالى ، وقيل : سُمِّيت بذلك لأَن كل العمل فيها له قدر خطير .

وليلة القدر مستديرة في أَوتار [١] ، العَشْر الأَواخر من رمضان ، هذا هو الصحيح المعوَّل عليه ، وهي في الأَوتار بحسب الكمال والنقصان في الشهر ، فينبغي لمرتقبها أَن يرتقبها من ليلة عشرين في كلِّ ليلة إلى آخر الشهر ؛ لأَن الأَوتار مع كمال الشهر ليست الأَوتار مع نقصانه ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لثالثة تبقى ، لخامسة تبقى ، لسابعة تبقى) [٢] ، وقال عليه الصلاة والسلام : (التمسوها في الثالثة

---

(١) جمع (وِتْر) أَو (وَتْر) – وهو هنا الفَرْدُ من الليالي ، أَي العدد الذي لا يقبل القسمة على اثنين .

(٢) أَخرج البخاري ، وأَبو داود ، وابن جرير ، والبيهقي ، عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (التمسوها في العشر الأَواخر من رمضان، في تاسعة تبقى، وفي سابعة تبقى ، وفي خامسة تبقى) ،وأَخرج أَحمد عن أَنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (التمسوها في العشر الأَواخر ، في تاسعة وسابعة وخامسة) ، وأَخرج الطيالسي ، وابن أَبي شيبة ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والترمذي وصححه ، والنسائي ، وابن جرير ، والحاكم وصححه ، والبيهقي عن عبد الرحمن بن جوشن، قال: ذُكرت ليلة القدر عند أَبي بكرة فقال : أَما أنا فلست بملتمسها إلاّ في العشر الأَواخر بعد حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :(التمسوها في العشر الأَواخر ، لتاسعة تبقى ، أو سابعة تبقى ، أَو ثالثة تبقى ، أَو آخر ليلة) ، فكان أبو بكرة رضي الله عنه يصلي في عشرين من رمضان كما كان يصلي في سائر السنة ، فإذا دخل العشر اجتهد . (الدر المنثور) .

والخامسة والسابعة والتاسعة)[١] ، وقال مالك : بالتاسعة ليلة إحدى وعشرين ، وقال ابن حبيب : يريد مالك : إذا كان الشهر ناقصاً فظاهر هذا أنه عليه السلام احتاط في كمال الشهر ونقصانه ، وهذا لا تتحصل معه الليلة إلاَّ بعمارة العشر كله ، ورُوي عن أَبي حنيفة وقوم أَن ليلة القدر رُفعت ، وهذا قول مردود ، وإنما رُفع تَعْيينها ، وقال ابن مسعود : من يقم السنة كلَّها يصبها ، وقال أَبو رزين : هي أَول ليلة من شهر رمضان ، وقال الحسن : هي ليلة سبع عشرة ، وهي التي كانت في صبيحتها وقعة بدر ، وقال كثير من العلماءِ : هي ليلة ثلاث وعشرين ، وهي ليلة عبد الله ابن أُنيس الجُهَني ، وقاله ابن عباس ، وقال أَيضاً هو وجماعة من الصحابة : هي ليلة سبع وعشرين ، واستدل ابن عباس على قوله بأَن الإنسان خُلق من سبع ، وجُعل رزقه في سبع ، واسْتَحْسَنَ ذلك عمر رضي

---

(١) أخرجه أَحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والبيهقي ، من طريق أَبي نضرة ، عن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (التمسوها في العشر الأَواخر من رمضان ، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة) ، قلت : ياأبا سعيد ، إنكم أعلم بالعدد منا ، قال : أجل ، قلت : ما التاسعة والسابعة والخامسة ؟ قال : إذا مضت واحدة وعشرون فالتي تليها التاسعة ، وإذا مضى الثلاث والعشرون فالتي تليها السابعة ، وإذا مضى خمس وعشرون فالتي تليها الخامسة .

وأَخرج ابن أَبي شيبة ، وأَحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، والبيهقي ، عن عبادة ابن الصامت قال : خرج نبي الله صلى الله عليه وسلم وهو يريد أن يخبرنا بليلة القدر ، فتلاحى رجلان من المسلمين ، قال : (خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى رجلان من المسلمين — فلان وفلان — فَرُفعَتْ ، وعسى أن يكون خيراً لكم ، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة) .

الله عنهم أَجمعين ، وقال زيد بن ثابت ، وبلال : هي ليلة أَربع وعشرين ، وقال بعض العلماءِ : أَخفاها الله تعالى عن عباده ليجدُّوا في العمل ولا يتكلوا على فضلها ويُقصِّروا في غيرها .

ثم عظَّم الله تعالى أَمر ليلة القدر ، على نحو قوله تعالى : (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ) ، وغير ذلك . ثم أَخبر تعالى أَنها أَفضل لمن عمل فيها عملاً من أَلف شهر ، وهي ثمانون سنة وثلاثة أَعوام وثلث عام . ورُوي عن الحسن بن علي بن أَبي طالب رضي الله عنهما أَنه قال حين عوتب في تسليمه الأَمر لمعاوية رضي الله عنه : إن الله تعالى أَرى نبيه صلى الله عليه وسلم في المنام بَني أُمَيَّة ينزون على منبره نَزْوَ القردة ، فاهتم لذلك ، فأَعطاه الله تعالى ليلة القدر ، وهي خير من مُدَّة مُلْك بني أُمَيَّة ، وأَعلمه أَنهم يملكون هذا القدر من الزمان .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ثم كشف الغيب أَن كان من سنة الجماعة إلى قتل مروان الجعدي هذا القدر من الزمان بعينه ، ثم إن القول يعارضه أَنه قد مَلَك بنو أُمية في غرب الأَرض مُدَّة غير هذه ، وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : (من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)[1] .

---

(١) أخرجه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وأخرج أحمد، وابن جرير ، ومحمد بن نصر ، والبيهقي ، وابن مردويه ، عن عبادة بن الصامت أنه سأل =

و « الرُّوحُ » هو جبريل عليه السلام ، وقيل : هو صنف حفظة للملائكة عليهم السلام ، وقوله تعالى : (بإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ) اختلف الناسُ في معناه ـ فمن قال« إنَّ في هذه الليلة تُقَدَّر الأُمور للملائكة » قال : إنَّ هذا التَّنَزُّل لذلك ، و [مِنْ] لابتداءِ الغاية ، أَي : نزولهم من أَجل هذه الأَمور المقدَّرة وبسببها ، ويجيءُ [سَلاَمٌ] خبر ابتداءٍ مُسْتأْنَفاً ، أَي : سلامٌ هي هذه الليلة إلى أَول يومها ، وهذا قول نافع المقبري والفراءِ وأَبي العالية ، وقال بعضهم : [مِنْ] بمعنى « الباءِ » ، أَي : بِكُلِّ أَمر ، ومَنْ لم يقل « تُقَدَّر الأُمور في تلك الليلة » قال : معنى الآية : تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم بالرحمة والغفران والفواضل ، ثم جعل قوله تعالى : (مِنْ كُلِّ أَمْرٍ) متعلقاً بقوله سبحانه : [سَلاَمٌ هي] ، أَي من كل أَمر مخوف ينبغي أَن يسلم منه فهي سلامٌ ، وقال مجاهد : لا يُصيب أَحداً فيها داءٌ ، وقال الشعبي ومنصور : [سَلاَمٌ] بمعنى التحية ، أَيْ تُسَلِّم الملائكة على المؤمنين ، وقرأ ابن عباس ، وعكرمة ، والكلبي : (مِنْ كُلِّ ٱمْرِئٍ) ، أَي : يسلم فيها من كل امرئ سَوْءٍ ، فهذا على أَن

= رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ليلة القدر فقال : في رمضان ، في العشر الأواخر ، فإنها في ليلة وتر ، في إحدى وعشرين ، أو ثلاث وعشرين ، أو خمس وعشرين ، أو سبع وعشرين ، أو تسع وعشرين ، أو آخر ليلة من رمضان ، من قامها إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن أماراتها أنها ليلة بلجة صافية ساكنة ساجية ، لا حارة ولا باردة ، كأن فيها قمراً ساطعاً ، ولا يحل النجم أن يُرمى به تلك الليلة حتى الصباح ، ومن أماراتها أن الشمس تطلع صبيحتها لاشعاع لها ، مستوية كأنها القمر ليلة البدر ، وحرّم الله على الشيطان أن يخرج معها يومئذ) . (الدّر المنثور) .

[سَلَامٌ] بمعنى « سلامة » ، وروي عنه أن « سَلَاماً » بمعنى « تحية » ، و « كل امرئٍ » يراد بهم الملائكة ، أَي : من كلِّ مَلَك تحية على المؤمنين ، وهذا للعاملين بالعبادة فيها ، وذهب من يقول بانتهاءِ الكلام في قوله تعالى : [سَلَامٌ] إلى أَن قوله تعالى : [هِيَ] إنما هو إشارة إلى أَنها لَيْلَةُ سبع وعشرين من الشهر ؛ إذ هذه الكلمة هي السابعة والعشرون من كلمات السورة ، وذكر هذا الغرض ابن بكير ، وأَبو بكر الوراق ، والنَّقَّاشُ عن ابن عباس .

وقرأَ جمهور السبعة : (حَتَّى مَطْلَعِ) بفتح اللام ، وقرأَ الكسائي ، والأَعمش ، وأَبو رجاءٍ ، وابن محيصن ، وطلحة (حَتَّى مَطْلِعِ) بكسر اللام ، فقيل : هما مصدران بمعنى واحد في لغة بني تميم ، وقيل : بالفتح مصدر وبالكسر موضع الطُّلوع عند أَهل الحجاز ، والقراءة بالفتح أَوجه على هذا القول ، والأُخرى تتخرج على تجوُّز ، كأن الوقت ينحصر في ذلك الموضع ويتمُّ فيه ، ويتجه الكسر على وجه آخر ، وهو أَنه قد شذَّ من هذه المصادر ما كُسِر ، كالمعجزة وقولهم : علاهُ المَكْبِرُ - بفتح الميم وكسر الباءِ - ومنه الْمَحِيضُ ، فيجري « الْمَطْلِعُ » مصدراً مجرى ماشذَّ . وفي حرف أُبَيٍّ بن كعب : « سَلامٌ هِيَ إِلَى مَطْلَعِ الْفَجْرِ » .

كمل تفسير سورة القدر والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٩٨) سورة البينة مدنية وآياتها ثمان

تفسير سورة « لم يكن » *

وهي مكية في قول جمهور المفسرين ، وقال ابن الزبير ، وعطاءٌ : هي مدنية ، والأول أشهر .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾

* وتُسمىّ سورة البَيِّنة .

في حرف أُبَيٍّ : « مَا كَانَ الَّذينَ » ، وفي حرف ابن مسعود : « لم يكُنِ المُشْركونَ وأَهْلُ الكتابِ مُنْفكِّينَ » ، وقوله تعالى : [مُنْفكِّينَ] معناه: منفصلين متفرقين ، تقول : « انْفَكَّ الشيءُ عن الشيءِ » إذا انفصل عنه ، و « ما انْفَكَّ » التي هي من أخوات « كان » لا مدخل لها في هذه الآية ، ونفى في هذه الآية أن تكون هذه الصِّيغة منفكة .

واختلف الناس ، عن ماذا ؟ فقال مجاهد وغيره: لم يكونوا منفكِّين عن الكفر والضلال حتى جاءتهم البينة ، وأوقع المستقبل موقع الماضي في [تَأْتِيَهُمُ] لأن باقي الشريعة وعُظْمَهَا لم يرد بَعْدُ . وقال الفراءُ وغيره : لم يكونوا منفكِّين عن معرفة صحة نُبُوَّة محمد صلى الله عليه وسلم والتَّوكُّف لأَمره[1] ، حتى جاءتهم البَيِّنة فتفرقوا عند ذلك . وذهب بعض النحويِّين إلى أَن هذا النفي المتقدم مع [مُنْفكِّينَ] يجعلها تلك التي هي مع « كان » ، ويرى التقدير في خبرها : عارفين لأَمر محمد صلَّى الله عليه وسلم أَو نحو هذا ، ويتجه في معنى الآية قول ثالث بارع المعنى ، وذلك أَن يكون المراد : لم يكن هؤلاءِ القوم منفكِّين من أَمر الله تعالى وقدرته ونظره لهم حتَّى يبعث إِليهم رسولاً منذراً ، تقوم عليهم به الحجة ، وتتمُّ على من آمن النعمةُ ، فكأَنه تعالى قال : ما كانوا لِيُتْرَكوا سدًى ، ولهذا نظائر في كتاب الله تعالى . وقرأَ بعض الناس :

(١) أي : تَتَبُّعه وتَعَهُّده والنظر فيه .

[وَالْمُشْرِكُونَ] بالرفع ، وقرأ الجمهور : [وَالْمُشْرِكِينَ] بالخفض ، ومعناهما بَيِّن[١]

و [البَيِّنَةُ] معناه : القصةُ البيِّنةُ والجلَّية ، والمراد محمد صلى الله عليه وسلم ، وقرأ الجمهور : [رَسولٌ] بالرفع ، وقرأ أُبَيٌّ بن كعب : [رسولاً] بالنصب على الحال . و « الصُّحُفُ المطهَّرةُ » : القرآن في صحفه ، قاله الضحاك وقتادة ، وقال الحسن : الصحفُ المطهَّرة في السماءِ . وقوله تعالى : (فِيها كُتُبٌ قيِّمةٌ) فيه حذف مضاف ، تقديره : فيها أَحكام كُتُب قيِّمة[٢] ، و [قَيِّمةٌ] معناه : قائمة معتدلة آخذه للناس بالعدل ، وهو بناءُ مبالغة ، فإلى [قَيِّمةٌ] هو ذكر من آمَن من الطائفتين ، ثم ذكر تعالى مذمَّة من لم يؤمن من أهل الكتاب من بني إسرائيل ، من أَنهم لم يتفرقوا في أمر محمد صلى الله عليه وسلم إلاَّ من بعد ما رأَوا الآيات الواضحة ، وكانوا من قبل مُصْفِقين[٣] على نُبُوَّته وصفته ، فلما جاءَ من العرب حسدوه .

---

(١) الرّفع عطف على (الذين كَفَرُوا) ، والجرُّ عطف على (أَهْلِ الْكِتابِ) ، وأَهل الكتاب هم اليهود والنصارى ، والمشركون هم عَبَدَة الأصنام .

(٢) هذا إجابة عن سؤال تقديره : كيف قال : « في صحف فيها كُتُب » مع أَن الصحف هي الكتب؟ ، وأُجيب أَيضاً بأن الكتب هي الأحكام ، قال تعالى: (كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ) ، بمعنى حَكَم ، وقال صلى الله عليه وسلم : (لأقضينَّ بينكما بكتاب الله) ثم قضى بالرجم ، وليس ذكر الرَّجم مسطوراً في الكتَاب ، فالمعنى : لأَقضيَنَّ بينكما بِحُكم الله .

(٣) أَصْفقوا على الأمر : اجتمعوا عليه . (اللسان) .

وقرأ جمهور الناس : [مُخْلِصينَ] بكسر اللام ، وقرأ الحسن ابن أَبي الحسن : [مُخْلَصينَ] بفتح اللام ، وكأَن [الدِّينَ] – على هذه القراءة – منصوب بـ [يَعْبُدوا] ، أَو بمعنى يدل عليه ، على أَنه كالظرف أَو الحال ، وفي هذا نظر ، وقيل لعيسى عليه السلام : مَن المخلص لله تعالى ؟ قال : الذي يعمل العمل لله تعالى ولا يُحب أَن يحمده الناس عليه . و [حُنَفَاءَ] جمع « حنيف » ، وهو المستقيم المائل إلى طريق الخير ، قال ابن جبير : لا تسمى العرب حنيفاً إلاَّ من حجَّ واختتن ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : [حُنَفَاءَ] : حجَّاجاً مسلمين ، و [حُنَفَاءَ] نصب على الحال ، وكون الزكاة مع الصلاة في هذه الآية مع ذكر بني إسرائيل فيها يقوِّي قول من قال : السورة مدنية ؛ لأَن الزكاة إنما فرضت بالمدنية ، ولأَن النبي صلى الله عليه وسلم إنما دفع إلى مناقضة أَهل الكتاب بالمدينة .

وقر الجمهور : (وَذَلك دينُ الْقَيِّمَة) على معنى : الجماعة القيمة ، أَو الفرقة القيمة ، وقال محمد بن الأَشعث الطالقاني : [الْقَيِّمة] هنا : الكتب التي جرى ذكرها ، وقرأَ بعض الناس : (وَذَلكَ الدِّينُ الْقَيِّمةُ) ، والهاءُ في « الْقَيِّمة » – على هذه القراءة – بناءُ مبالغة كعلاَّمة ونسَّابة ، ويتجه ذلك أَيضا على أَن تجعل (الدِّينَ) بمنزلة الملَّة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾

حكم الله تعالى في هذه الآية بتخليد الكافرين من أَهل الكتاب والمشركين ـ وهم عَبَدة الأَوثان ـ في النار ، وبأَنهم شرُّ البريَّة ، و « البَرِيَّةُ » : جميع الخلق ؛ لأَن الله تعالى برأَهم ، أَي أَوجدهم بعد العدم . وقرأَ نافع ، وابن عامر ، والأعرج : [الْبَرِيئَة] بالهمزة ، من « برأَ » ، وقرأَ الباقون والجمهور : [الْبَرِيَّةِ] بشد الياءِ بغير همز ، على التسهيل ، والقياسُ الهمز إلاَّ أَن هذا مما تُرك همْزُه كالنبيِّ والذُّرِّية ، وقال بعض النحويِّين : البَرِيَّةُ مأْخوذ من الْبَرَي وهو التراب ، وهذا الاشتقاق يجعل الهمز خطأً وغلطا ، وهو اشتقاق غير مرضيٍّ .

و « الذين آمنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ » شروط تَعُمُّ جميع أُمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومَنْ آمن بِنبيِّه من الأُمم الماضية . وقرأَ جمهور الناس : [خَيْرُ] ، وقرأَ بعض قراءِ مكة : [خيارُ] بأَلِف ، وروي حديث

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ هذه الآية : (أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيِّةِ) ، ثم قال لعليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه : (أَنت ياعليُّ وشيعتك)[(١)] ، ذكره الطبري ، وفي الحديث أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ياخير البرية ، فقال له : (ذلك إبراهيم عليه السلام)[(٢)] .

وقوله تعالى : (جَزاؤُهُم عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ) فيه حذف مضاف تقديره : سُكْنى جنات ، أَو دخولُ جناتٍ ، و « العَدْنُ » : الإِقامةُ والدوامُ ، عَدَنَ بالموضع : أَقام ، ومنه المعدن لأَنه راسٍ ثابتٌ ، قال ابن مسعود : جناتُ عَدْنٍ : بُطنان الجنة ، أَي وسَطُها .

وقوله تعالى : (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) قيل : ذلك في الدنيا ، فرضاه عنهم هو ما أَظهر عليهم من أَمارات رحمته وغُفرانه ، ورضاهم عنه هو رضاهم بجميع ما قَسَم لهم من جميع الأَرزاق والأَقدار ، وقال بعض الصالحين : رِضَا العباد عن الله تعالى رضاهم بما يَرِدُ من أَحكامه ، ورضاهُ عنهم توفيقُهم للرضا عنه ، وقال أَبو بكر بن طاهر : الرضا عن الله تعالى خروج الكراهية من القلب حتى لا يكون إلاَّ فرح وسرور ،

---

(١) أَخرجه ابن جرير عن محمد بن عليٍّ ،من طريق فرقد عن أَبي الجارود ، وأَخرج ابن عدي عن ابن عباس قال : لمَّا نزلت(إنَّ الَّذينَ آمَنُوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ أُولَئكَ هُمخير البَرِيَّةِ) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعليٍّ : (هو أَنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيِّين) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنة ،وأحمد في مسنده (١٧٨/٣ ، ١٨٤)،عن أَنس رضي الله عنه .

وقال سريٌّ السَّقطي : إذا كنت لا ترضى عن الله فكيف تطاب منه أن يرضى عنك ؟ وقيل : ذلك في الآخرة ، فرضاهم عنــه هو رضاهم بما منَّ عليهم به من النعم ، ورضاه عنهم هو ما رُوي من أَن الله تعالى يقول لأَهل الجنة : (هل رضيتم بما أَعطيتكم ؟) فيقولون نعم ياربنا ، وكيف لا نرضى وقد أَعطيتنا مالم تُعط أَحداً من العالمين ؟ فيقول : (أَفلا أُعطيكم أَفضل من كل ما أَعطيتكم ؟ رضواني فلا أَسخط عليكم أَبدا) (١) ، وخصَّ تعالى بالذكر أَهل الخشية لأَنها رأْسُ كل بركة ، الناهية عن المعاصي ، الآمرة بالمعروف .

كمل تفسير سورة « لم يكن » والحمد لله رب العالمين

---

(١) أَخرجه البخاري في كتاب الرقاق – باب صفة الجنة والنار – وفي كتاب التوحيد – باب كلام الرب مع أَهل الجنة – بسنده إلى أَبي سعيد الخدري ،وأخرجه مسلم في صحيحه في باب : كتاب الجنة ونعيمها وأهلها ،كذلك أخرجه الترمذي ج٢ صفحة (٩١) وقال حديث حسن صحيح . ولفظ الحديث كما جاء في البخاري في باب صفة الجنة والنار : عن أَبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله يقول لأهل الجنة : يأَهْل الجنة ، يقولون لبيّْك ربنا وسعدَيْك ،فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أَعطيتنا مالم تُعط أَحداً من خلقك ؟ فيقول : أَنا أُعطيكم أَفضل من ذلك ، قالوا : يارب ، وأَيُّ شيءٍ أَفضل من ذلك ؟ فيقول : أُحِلُّ عليكم رضواني ، فلا أَسخط عليكم بعده أَبداً) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٩٩) سورة الزلزلة مدنية وآياتها ثمان

وهي مكية ، قاله ابن عباس وغيره ، وقال قتادة ومقاتل : هي مدنية لأن آخرها نزل بسبب رجلين كانا بالمدينة [١] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾

(١) قال القرطبي وتابعه الشوكاني في فتح القدير — : « وهي مدنية في قول ابن عباس وقتادة ، ومكية في قول ابن مسعود وعطاءٍ وجابر » ، وزاد الشوكاني قوله : « أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت (إذَا زُلْزِلَتِ) بالمدينة » . وفي البحر المحيط قال أبو حيان : « هذه السورة مكية في قول ابن عباس ومجاهد وعطاءٍ ، مدنية في قول قتادة ومقاتل لأن آخرها نزل بسبب =

العامل في [إذا] على قول جمهور النحاة ـ وهو الذي يقتضيه القياس ـ فعلٌ مضمر يقتضيه المعنى وتقديره: يُحشرون إذا ، أَو يُجازَوْن ، ونحو هذا ، ويمتنع أَن يعمل فيه [زُلْزِلَت] لأَن معنى الشرط لا يفارقها (١) ، وقد تقدمت نظائرها في غير سورة .

و [زُلْزِلَت] معناه : حُرِّكت بعنف ، ومنه الزلزال ، وقوله تعالى : [زِلْزَالَها] أَبلغ من قوله : « زلزالاً » دون إِضافة إِليها ، وذلك أَن المصدر غير مضاف يقع على كل قدر من الزلزال وإِن قلَّ ، وإِذا أُضيف إِليها وجب أَن يكون على قدر ما يَسْتَحِقُّه ويَسْتوحيه جِرْمها وعِظَمُها ، وهذا كما تقول : « أَكرمتُ زيداً كرامَةً » ، فذلك يقع على كلِّ كرامة وإِن قلَّت بحسب « زيد » ، فإِذا قلتَ : « كَرَامَتَهُ » أَوجبت أَنك قد وفَّيْتَه حقَّه . وقرأَ الجمهور : [زِلْزَالَهَا] بكسر الزَّاي الأُولى ، وقرأَ بفتحها عاصم الجحدري ، وهو أَيضاً مصدر كالوَسْوَاس ونحوه .

و « الأَثْقالُ » : الموتى الذين في بطنها ، قاله ابن عباس ، وهذه إِشارة إِلى البعث ، وقال قوم من المفسرين ـ منهم منذر بن سعيد والزَّجاج والنَّقاش ـ : أَخرجت موادَّها وكنوزها .

= رجلين كانا بالمدينة » . وقد روى الترمذي عن أَنس بن مالك ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأَ : (إذا زُلزلت) عدلت له بنصف القرآن ، ومن قرأَ : (قلْ يأيها الكافرون) عدلت له بربع القرآن ، ومن قرأَ : (قل هو الله أحد) عدلت له بثلث القرآن ، قال : حديث غريب .

(١) في بعض النسخ : « لأن (إذَا) مضاف إلى (زُلْزِلَت) ، ومعنى الشرط فيها ضعيف » .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله .

وليست القيامة بموطن لإخراج الكنوز ، وإنما تخرج كنوزها وقت الدجال . وقول الإِنسان : « مَالَها » هو قول على معنى التَّعجب من هول ما يرى ، قال جمهور المفسرين : الإِنسان هنا يراد به الكافر ، وهذا متمكِّن لأَنه يرى ما لم يظن به قط ولا صدَّقه ، وقال بعض المتأَولين : هو عامٌّ في المؤمن والكافر ، فالكافر على ما قدمناه ، والمؤمن – وإن كان قد آمن بالبعث – فإنه استهول المرأي ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : (ليس الخبر كالمعاينة)[1] .

و « إِخْبارُ الْأَرَض » قال ابن مسعود والثوري وغيرهما : هو شهادتها بما عمل عليها من عمل صالح وفاسد ، فالتحديث – على هذا – حقيقة وكلام بإدراك وحياة يخلقها الله تعالى ، وأَضاف تعالى الأَخبار إليها من حيث وَعَتْها وحَصَّلَتْها ، وانتزع بعض العلماءِ من قوله تعالى : (تُحَدِّثُ أَخْبارَهَا) أَن قول المحدث : « حدَّثنا وأَخبرنا » سواءٌ ، وقال الطبري وقوم : التحديث في الآية مجاز ، والمعنى أَن ما تفعله بأَمر الله تعالى من إخراج

(١) أخرجه الإمام أَحمد في مسنده (٢٥١/١ ، ٢٧١) ، والطبراني في الأوسط ، والحاكم في مستدركه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ولفظه كما ذكره الإمام السيوطي في الجامع الصغير : (ليس الخبر كالمعاينة ، إن الله تعالى أَخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يُلق الألواح ، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت) ، وقد رمز له الإمام السيوطي بأنه حديث صحيح .

أَثقالها ، وتَفتُّت أَجزائها ، وسائر أَحوالها ، هو بمنزلة التحديث بأَنبائها وأَخبارها ، ويؤيد القول الأَول قول النبي صلى الله عليه وسلم : (فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جِنٌّ ولا إِنْس ولا شيءٌ إِلاَّ شهد له يوم القيامة)(١) وقرأ عبد الله بن مسعود : « تُنْبِىءُ أَخبارَهَا » ، وقرأ سعيد بن جبير : « تُبَيِّنُ » .

قوله تعالى : (بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا » ، الباءُ باءُ السبب . وقال ابن عباس ، وابن زيد ، والقرطبي : المعنى : أَوْحَى إليها ، وهذا الوحي – على هذا التأويل – يحتمل أَن يكون وحي إلهام ، ويحتمل أَن يكون وحيا برسول من الملائكة ، وقد قال الشاعر :

أَوْحَى لَها الْقَرارَ فاسْتَقَرَّتِ وشَدَّهَا بالرَّاسِيَاتِ الثُّبَّتِ(٢)

---

(١) أَخرجه البخاري في الأذان والتوحيد وبدء الخلق ، والنسائي في الأذان ، ومالك في موطئه في النداءِ ، وأحمد في مسنده (٣/٣٥/٤٣) ، ولفظه كما في مسند أَحمد عن عبد الرحمن ابن أَبي صعصعة المازني عن أَبيه أنه أَخبره أَن أَبا سعيد قال له : إني أَراك تحب الغَنَم والبادية ، فإذا كنت في غنمك أَو باديتك فأذَّنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداءِ ، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إِنْس ولا شيءٌ إلاَّ شهد له يوم القيامة ، سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) هذان بيتان من الرجز قالهما العجاج يصف الأرض ، وهما مع القصيدة في الديوان ، وفي كتاب (شعراءُ النصرانية بعد الإسلام) وفي مجاز القرآن ، والبحر المحيط ، والقرطبي ، وروح المعاني وفي الأغاني ، لكن الألفاظ وترتيب الأبيات يختلف عما هنا ، وقد ذكر صاحب الأغاني أن العجاج أنشد أبا هريرة قوله الذي وصف فيه الخالق سبحانه وأعماله ويوم الحساب وأهواله ، =

والوحى في كلام العرب : إلقاءُ المعنى إلقاءً خفيا . وقال بعض المتأولين : (أَوْحى لَهَا) معناه : أَوحى إلى ملائكته المقربين أن تفعل في الأرض تلك الأفعال . وقوله تعالى : [لَهَا] بمعنى : من أَجْلها ، ومن حيث الأَفعال فيها فهي لها .

وقوله تعالى : (يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً) بمعنى : ينصرفون من موضع وردهم مختلفي الأَحوال . وواحد « الأَشتات » شَتٌّ ، فقال جمهور الناس : الورْدُ هو الكون في الأَرض بالموت والدفن ، والصَّدر هو القيام للبعث ، و [أَشْتاتاً] معناه : قومٌ مؤمنون وقوم كافرون وقوم عُصاة مؤمنون ، والكلُّ سائر إلى العَرْض ليرى عمله ويقف عليه ، وقال النقاش : الورْدُ هو المحشر ، والصَّدر أَشتاتاً هو صدر قوم إلى الجنة وقوم إلى النار .

وقوله تعالى : (لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ) إما أَن يكون معناه : جزاءَ أَعمالهم ، يراه أَهل الجنة بالنعيم وأَهل النار بالعذاب ، وإما أَن يكون قوله تعالى : (لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ) متعلقاً بقوله سبحانه : (بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا) ،

= فقال له أبو هريرة : أَشهد أنك تؤمن بيوم الحساب ، والأبيات هي :

الْحَمْدُ للهِ الَّذي تَعَالَّتِ ... بِأَمْرِه السَّماءُ واسْتَقَلَّتِ
بِإِذْنِهِ الْأَرْضُ وَمَا تَعَنَّتِ ... أَرْسَى عَلَيْها بِالجبالِ الثُّبَّتِ
وَحَى لَهَا الْقَرارَ فاسْتَقَرَّتِ ... رَبُّ الْبِلادِ والعِبادِ القُنَّتِ

والشاهد هنا أن (وحى لها) و (أوحى لها) بمعنى : أَوحى إليها ، لأن العرب تضع اللام موضع « إلى » .

ويكون قوله تعالى : (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً) اعتراضاً بين أثناءِ الكلام . وقرأ جمهور الناس: [لِيُرَوْا] بضم الياءِ على بناءِ الفعل للمفعول ، وقرأ الحسن ، والأعرج ، وقتادة ، وحمَّادبن سَلَمة ، والزهري ، وأبو حَيْوة : [لِيَرَوْا] بفتح الياءِ على بنائه للفاعل .

ثم أَخبر تعالى أنه من عِملَ عملاً رآه ، قليلاً كان أَو كثيراً ، فخرجت العبارة عن ذلك بمثال التقليل ، وهذا هو الذي يُسَمِّيه أَهلُ الكلام مفهوم الخطاب ، وهو أَن يكون المذكور والمسكوت عنه في حكم واحد ، ومنه قوله تعالى : (وَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ)(١) ، وهذا كثير . وقال بعض الناس وبعض المفسرين : رؤية هذه الأَعمال هي في الآخرة ، وذلك لازم من لفظ السورة وسردها ، فيرى الخيرَ كلَّه من كان مؤمنا ، والكافر لا يرى في الآخرة خيراً لأَن خيره قد عُجِّل له في دنياه ، وكذلك المؤمن أَيضاً تُعَجَّل له سيئاته الصغار في دنياه في المصائب والأَمراض ونحوها ، فيجيءُ من مجموع هذا أَن من عمل من المؤمنين مثقال ذرَّة من خيْر أَو شرٍّ رآه ، فيخرج من ذلك أَلَّا يرى الكافر خيراً في الآخرة ، ومنه حديث عائشة رضي الله عنها ، (قالت : قلت : يارسول الله ، أَرأَيت ما كان يفعل عبد الله بن جُدعان من البرِّ وصلة الرحم وإطعام الطعام ، أَلهُ في ذلك

---

(١) من الآية (٢٣) من سورة (الإسراء) ، والآية عامة فهي تنهي عن القليل والكثير ، ولكن اكتفت بذكر القليل .

أَجْرٌ ؟ فقال : لا ، إنه لم يقل قطٌّ : ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين)[١] وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمِّي هذه الآية .. (الجامعة الفَاذَّة) ، وقد نصَّ على ذلك حين سُئل عن الحُمُر ... الحديث[٢] ، وأعطى سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه سائلاً تمرتين ، فقبض السائل يده ، فقال له سعد : ما هذا ؟ إن الله تعالى قَبِل مثاقيل الذَّرِّ ، وفَعَلَتْ نحوَ هذا عائشةُ رضي الله عنها في حبَّة عنب ، وسمع هذه الآية صعصعة بن عقال التميمي عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : حَسْبي ، لا أُبالي أَنْ أَسمع

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، ومسلم في صحيحه ، كما أخرجه البغوي، وجُدْعان بضم الجيم ، وهو ابن عم والد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ومعنى الحديث أن ما كان يفعله من الصلة والإطعام وغيرهما لا ينفعه في الآخرة لكونه كافراً .

(٢) روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (الخيل لثلاثة ، لرجل أجر ، ولرجل سِتْر ، وعلى رجل وِزْر ، فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال لها في مرج أو روضة ، فما أصابت في طِيَلها ذلك في المرج والروضة كان له حسنات ، ولو أنها قطعت طيلها فاستَنَّت شرفاً أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له ، ولو أنها مرَّت بنهر فشربت منه ولم يُرد أن يسقى به كان ذلك حسنات له ، فهي لذلك الرجل أجر ، ورجلٌ ربطها تَغَنِّياً وتعفُّفاً ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي له سِتْر ، ورجل ربطها فخراً ورِئَاءً ونواءً فهي على ذلك وزر ، فسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحُمُر ، فقال : (ما أنزل الله فيها شيئاً إلاَّ هذه الآية الفَاذَّة الجامعة (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شراً يَرَهُ) . ورواه مسلم من حديث زيد بن أسلم، وذكره السيوطي في الدِّر المنثور ، وزاد نسبته إلى مالك ، وأحمد ، والنسائي ، وابن ماجه . ومعنى (الفَاذَّة) : المنفردة .

هذا والطِّيَلُ : الحبل الطويل ، واستَنَّتْ : عَدَتْ وجَرَتْ ، والشَّرَف : الشوطُ ، والنواءُ : العداءُ لأَهل الإسلام .

غيرها[١]، وسمعها رجلٌ عند الحسن فقال: انتهت الموعظة، فقال الحسن: فَقُهَ الرَّجُلُ.

وقرأ هشام عن ابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: [يَرَهْ] بسكون الهاءِ في الأُولى والآخرة، وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، ونافع ـ فيما رَوَى عنه ورش ـ والحلواني عن قالون عنه في الأُولى: [يَرَهُ]، وأَما الآخرة فهو سكون وقف، وأَما من أَسكن الأُولى فهي على لُغة من يخفف، ومنه قول الشاعر:

وَمِطْوَايَ مُشْتاقَانِ لَهْ أَرِقَانِ[٢]

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد، وأحمد في مسنده، وعبد بن حميد، والنسائي، والطبراني، وابن مردويه، عن صَعْصَعَةَ بن معاوية عَم الفرزدق.

(٢) هذا عجز بيت ذكره النحويون شاهداً على أن بعض العرب يجَوِّزون تسكين الهاءِ، كما في قوله هنا: (لهْ)، والبيت بتمامه مع بيت قبله:

أَرِقْتُ لِبَرْقٍ دُونَهُ شَدَوَانِ ... يَمانٍ وَأَهْوَى الْبَرْقَ كُلَّ يَمَانِ

فَظَلْتُ لَدَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ أُرِيغُهُ ... وَمَطْوَايَ مُشْتَاقَانِ لَهْ أَرِقَانِ

وهما من قصيدة قالها رجلٌ من أَزْد السَّراة، قيل: اسمه يَعْلَى الأَحْوَل الأزدي، وقيل: بل هو عمرو بن أبي عمارة الأزدي، وقيل: بل هو جَوَّاسُ بن حيَّان، من أَزد عُمان. والبيت العتيق: مكَّة، وظَلْتُ: قضيت يومي، ويروى بدلاً منها: فَبتُّ، ولَدَى بمعنى: عِنْد، وأُريغُه: أَطْلُبُه، ويروى بدلاً منها: أَخيلُهُ، بمعنى: أَظُنُّه وأَتخيلُه، ويروى: أَشيمه، ومِطْوَاي: مُثَنَّى مِطْو، وهو الصاحبُ والرفيق في السفر. ومُشْتاقان: خبر مِطْوَاي، وكذلك أَرِقان خبر ثان. ويَروي صاحبُ الأغاني البيت: (ومِطْوَايَ في شَوْقٍ لَهُ أَرِقان)، وعلى هذا فلا شاهد فيه، والضمير في (لَهُ) يعود على (البرق) في البيت السابق. هذا والبيت في اللسان، وخزانة الأدب، والأغاني، والمحتسب، والخصائص، والمنصف.

وهذه لغة لم يحكها سيبويه لكن حكاها الأَخفش ، وقرأَ أَبو عمرو وحده بضم الهاءِ فيهما مُشْبعتان ، وقرأَ أَبان عن عاصم ، وابنُ عباس ، وأَبو حيوة ، وحميد بن الربيع عن الكسائي : [يُرَهْ] بضم الياءِ ، وهي رؤية بصر ، بمعنى : يجعله يدركه ببصره ، والمعنى : يُرَى ثوابَه وجزاءَه لأَن الأَعمال الماضية لا تُرى بعين أَبداً ، وهذا الفعل كله من « رَأَيْتُ » بمعنى أَدْرَكْتُ ببصري ، فتعدِّيه إنما هو إلى مفعول واحد ، وقرأَ عكرمة : (خَيْراً يراهُ) و (شَرًّا يَرَاهُ) ، وقال النقاشُ : ليست برؤية بصر ؛ وإنما المعنى : يُصيبه وينالُه .

ويُروى أَن هذه السورة نزلت وأَبو بكر رضي الله عنه يأْكل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فترك أَبو بكر رضي الله عنه الأَكل وبكى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياأَبا بكر ، ما يُبكيك ؟ قال : يارسول الله ، أَو أُسْأَلُ عن مثاقيل الذَّرِّ ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أَبا بكر ، ما رأَيتَ في الدنيا مِمَّا تكره فمثاقيل ذَرِّ الشَّر ، ويدَّخر الله لك مثاقيل ذرِّ الخير (١) .

(١) أَخرجه ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أَبي حاتم ، والطبراني في الأَوسط ، والحاكم في تاريخه ، وابن مردويه ، والبيهقي في (شُعب الإيمان) ، عن أَنس رضي الله عنه ، وأَخرج مثلَه ابنُ أَبي الدنيا في كتاب البكاءِ ، وابن جرير ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في (شعب الإيمان) ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه ، كذلك أَخرجه ابن مردويه عن أَبي أَيوب الأَنصاري رضي الله عنه ، كما أَخرجه عن أَبي إدريس الخولاني رضي الله عنه .

و « الذَّرَّةُ » نملةٌ صغيرة حمراءُ رقيقة لا يرجح بها ميزان ، ويقال : إنَّها تجري إذا مضى لها حول ، وقد تُؤُوِّل ذلك في قول امرئ القيس :

مِنَ الْقاصِراتِ الطَّرْفِ لَوْ دَبَّ مُحْوِلٌ مِنَ الذَّرِّ فَوْقَ الإِتْبِ مِنْها لأَثَّرَا [1]

وحكى النقاش أنهم قالوا : كان بالمدينة رجلان أحدهما لا يبالي عن الصغائر يرتكبها ، وكان الآخر يريد أن يتصدَّق فلا يجد إلاَّ اليسير فيستحِي من الصدقة ، فنزلت الآية فيهما ، كأَنه يقال لأَحدهما : تصدَّق باليسير فإن مثقال ذرَّة الخير تُرى ، وقيل للآخَر : كُفَّ عن الصغائر فإن مقادير ذرِّ الشَّرِّ تُرىَ .

كمل تفسير سورة « الزلزلة » والحمد لله رب العالمين

(١) هذا البيت من قصيدة امرئ القيس التي نظمها وهو في طريقة إلى بلاد الروم، و«القاصرات الطَّرْف» : اللواتي يقصرن طرفهن على أزواجهن ولا ينظرن إلى غيرهن، ويريد حبيبته التي ذكرها في البيت السابق حين قال : إن كل ما يراه من برق ومطر لاينسيه هذه الحبيبة ، وهو يتمنى أن يسقط المطر على ديارها دون سواها :

نَشيمُ بُروقَ الْمُزْنِ ، أَيْنَ مَصابُهُ وَلاَ شَيءَ يَشْفي مِنْكِ يابْنَةَ عَفْزَرَا

والْمُحْوِل : الذي مَضَى عليه حَولٌ : أي سَنَةٌ ، والذَّرُّ :النمل الصغير ، والإِتْبَ : ثوب غير مخيط على الجانبين .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(١٠٠) سورة العاديات مكية وآياتها إحدى عشرة

وهي مكية في قول جماعة من أهل العلم ، وقال المهدوي عن أنس ابن مالك : هي مدنية[(١)] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾ ﴾

---

(١) في القرطبي أنها مكية في قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاءٍ ، ومدنية في قول ابن عباس وأنس ومالك وقتادة . وذكر ذلك أيضاً أبو حيان في البحر المحيط والشوكاني في فتح القدير .

اختلف الناس في المراد بالعاديات ـ فقال ابن عباس ، وقتادة ، ومجاهد ، وعكرمة : أَراد الخيل لأَنها تعدو بالفرسان وتضبح بأَصواتها ، قال بعضهم : وسببها أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث خيلاً إلى بني كنانة سريَّة ، فأَبطأَ أَمْرها عليه حتى أَرجف بعض المنافقين ، فنزلت الآية معلمة أَن خيله عليه الصلاة والسلام قد فعلت جميع ما في الآيات . وقال آخرون : القَسَم هو بالخيل جملة لأَنها تعدو ضابحة قديماً وحديثاً ، وهي حاصرة البلاد وهادمة الممالك وفي نواصيها الخير إلى يوم القيامة . وقال عليٌّ بن أَبي طالب رضي الله عنه ، وابن مسعود ، وإبراهيم ، وعبيد بن عمير : العاديات في هذه الآية الإبلُ لأَنها تَضْبَح في عَدْوها ، وقال عليٌّ : والقسم بالإبل العاديات من عرفة ومن المزدلفة إذا دفع الحاجُّ ، وبإبل غزوة بدر ، فإنه لم يكن في الغزوة غير فرسين ، فرس المقداد وفرس الزبير .

و « الضَّبْحُ » تصويت جهير عند العدو الشديد ، ليس بصهيل ولا رُغاءٍ ولا نُباح ، بل هو غير المعتاد من صوت الحيوان الذي يضبح ، وحكى ابن عباس رضي الله عنهما أَنه ليس يضبح من الحيوان غير الخيل والكلاب ، وهذا عندي لا يصح عن ابن عباس[(١)] ، وذلك أَن الإبل

(١) روى ابن جرير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : بينما أنا في الحجْر جالس أَتاني رجلٌ يسأل عن (الْعاديات ضَبْحاً) ، فقلت له : الخيل حين تُغير في سبيل الله ثم تأوي إلى الليل ، فيصنعون طعامهم ، ويورون نارهم ، فانفتل عني ، فذهب إلى علي بن أَبي طالب =

تضبح ، والأَسْودُ من الحيات ، والبومُ والصَّدَى [١] والأَرنب والثعلبُ والفرسُ ، هذه كلها قد استَعْمَلَت العرب لها الضبح ، أَنشد أَبو حنيفة في صفة قَوسٍ :

حَنَّانَةٌ مِنْ نَشَمٍ أَوْ تَـأْلَـبِ تَضْبَحُ في الْكَفِّ ضُبَاحَ الثَّعْلَبِ [٢]

والظاهر في الآية أن القسم بالخيل أَو بالإِبل أَو بهما .

قوله تعالى : (فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً) ، قال عليٌّ بن أَبي طالب وابن مسعود رضي الله عنهما : هي الإِبل ، وذلك أَنها في عَدْوها ترجُم الحصى بالحصى فتتطاير منه النار ، فذلك القَدْح ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هي الخيل ، وذلك بحوافرها في الحجارة ، وذلك معروف ، وقال عكرمة :

= رضي الله عنه وهو تحت سقاية زمزم، فسأله عن (الْعاديات ضَبْحاً)، فقال: سألت عنها أَحداً قَبْلي ؟ قال : نعم ، سألت عنها ابن عباس فقال : الخيلُ حين تُغير في سبيل الله ، قال : اذهب فادْعُه إليَّ ، فلما وقفتُ على رأسه قال : تفتي الناسَ بما لا علْم لَكَ به ؟ والله لكانت أَول غزوة في الإسلام لَبَدْر ، وما كان معنا إلاَّ فرسان : فرس للزبير وفرس للمقْداد ، فكيف تكون العاديات ضبحا ؟ إنما العاديات ضبحا من عرفة إلى مزدلفة إلى منى ، قال ابن عباس : فنزعتُ عن قولي ، ورجعت إلى الذي قال عليٌّ رضي الله عنه .

(١) الصَّدى : الذَّكَرُ من البوم ، وقيل : هو طائر خرافي زعموا أنه يخرج من رأس المقتول، ولا يزال يقول : اسقوني حتَّى يُؤخذ بثأره .

(٢) حَنَّانَةٌ : لها صوتٌ ، وهذه صفةٌ تغلب على القوس حتى قال أَبو حنيفة : إنه اسمٌ لها عَلَمٌ عليها . والنَّشَمُ : شجر كانت تُتَّخذ منه القِسيُّ ، والواحدة نَشَمة ،وكذلك التألُب شجر تصنَع منه القِسي . وتضبح : تُصَوِّت ، وهذا هو الشاهد .

الموريات قدحاً هي الأَلْسُن ، فهذا على الاستعارة ، أَي أَنها تقدح الحُجَجَ وتظهرها ، وقال مجاهد : الموريات قدحاً يراد به مكْرُ الرجال ، وقال قتادة : المورياتُ الخيل تشعل الحرب ، فهي أَيضاً على الاستعارة البَيِّنة ، وقال ابن عباس أَيضاً وجماعة من العلماءِ : الكلام عامٌ يُدْخل في القسم كلَّ من يظهر بقدحه ناراً ، وذلك شائع في الأُمم طوال الدهر ، وهو نفع عظيم من الله تعالى في عباده ، وقد وقف عليه في قوله سبحانه : (أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ)[١] ، ومعناه : تُظْهرون بالقدح ، قال عَدِيٌّ بن زيد :

فَقدَحْنا زِنادَنا وَوَرَيْنـــــــــاَ فَوْقَ جُرْثومَةٍ مِنَ الْأَرْضِ ناراً[٢]

قوله تعالى : (فَالْمُغيراتِ صُبْحاً) ، قال علي بن أَبي طالب وابن مسعود رضي الله عنهما : هي الإِبل من مزدلفة إلى منى ، أَو في بدر ، والعرب تقول : « أَغار » إذا عَدَا حرباً ، ونحوه ، وقال ابن عباس وجماعة كثيرة : هي الخيل ، واللفظة من الغارة في سبيل الله وغير ذلك من سير الأُمم ، وعُرْف الغارات أَنها مع الصباح لأَنها تسري ليلة الغارة .

---

(١) الآية (٧١) من سورة (الواقعة) .

(٢) الشاعر هو عَدِيٌّ بن زيد العباديّ ، كثير من العلماءِ لا يرون شعره حجة ، وقَدَحَ الزِّنادَ : ضربه بحجر لإخراج النار منه ،ووَرَيْنَا النار : أَوقدناها . والجرثومة : المكان المرتفع من الأَرض ، وقد تجمع من تراب أَو طين .

و « النَّقْعُ » : الغُبار الساطع المثار . وقرأ أَبو حيوة : [فَأَثَّرْنَ] بشد الثاءِ ، والضمير في [به] ظاهره أنه للصبح المذكور ، ويحتمل أن يكون للمكان والموضع الذي يقتضيه المعنى وإن كان لم يجر له ذكر ، ولهذا أَمثلة كثيرة ، ومشهور « إِثارةُ النقع » هو للخيل ، ومنه قول الشاعر :

يُخْرِجْنَ مِنْ فُرُجَاتِ النَّقْعِ دامِيَــةً كَأَنَّ آذَانَهَا أَطْرَافُ أَقْلاَمِ (١)

وقال عليٌّ بن أَبي طالب رضي الله عنه : هو هنا للإِبل تثير النَّقْع بِأَخفافها .

قوله تعالى : (فَوسَطْنَ بِهِ جَمْعاً) ، قال عليٌّ بن أَبي طالب رضي الله عنه وابن مسعود رضي الله عنه : هي الإِبلُ ، و « جَمْعٌ » هي المزدلفة ، وقال ابن عباس وجماعةٌ : هي الخيل ، والمراد جَمْعٌ من الناس هم المغزوُّون ، وقرأَ عليٌّ وابن مسعود وقتادة : [فَوَسَّطْنَ] بشدِّ السين ، وقال بشر بن أَبي خَازِم :

فَوَسَطْنَ جَمْعَهُمُ وأَفْلَتَ حَاجِبٌ تَحْتَ الْعَجاجَةِ في الغُبارِ الأَقْتَمِ (٢)

(١) قال هذا البيت عَديٌّ بن الرقاع في وصف الخيل ، وفي الأصول : (من مستطار النقع) وما أثبتناه منقول من كتاب (العقد الفريد) . والنَّقع : الغبار الساطع المستطار ، والفُرُجَات : جمع فُرْجَة وهي الفتحة بين الشيئين أو في الجدار ونحوه ، وفي حديث صلاة الجماعة : (لا تذروا فُرُجات الشيطان) ، يقول الشاعر : إن الخيل تخرج أطرافاً دامية من فُرجات تلوح بين الغبار المثار ، وإن آذانها لتشبه أَطراف الأقلام .

(٢) بشر بن أَبي خازم الأسدي –بالخاء في خازم–، شاعر جاهلي قديم ، كان كثير الهجاءِ =

وذكر الطبري عن زيد بن أَسلم أَنه كان يكره تفسير هذه الأَلفاظ ويقول : هو قَسَم أَقسم الله تعالى به ، وجمهور العلماءِ والأُمة مفسِّرون لها كما ذكرنا .

والقَسَم واقع على قوله تعالى : (إِنَّ الإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) ، وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَنه قال : (أَتدرون ما الكنود) ؟ قالوا : لا يارسول الله ، قال : (الكنود الذي يأْكل وحده ، ويمنع رفْده ، ويضرب عبده)(١) ، وقد يكون في المؤمنين الكفور بالنعمة ، فتقدير الآية : إِن الإِنسان لنعمة ربِّه لكنود ، و « أَرْضٌ كنود » : لا تنبت شيئاً ،

= لأوس بن حارثة بن لأمْ ، فنذر أَوسٌ ليحرقنَّه إذا قدر عليه ، ثم وقع بشر في أَسر بني نبهان ، فطلبه منهم أَوس لينفِّذ وعيده فيه ، لكن أُمَّه نهته عن ذلك وقالت له : أَكرِم الرجل وحلَّ عنه ، فإنه لا يمحو ما قال غير لسانه ، فلما أَطلقه جعل بشْر مكان كل قصيدة هجاءٍ قصيدةَ مدح في أَوس ، والبيت من قصيدة قالها في يوم يسمَّى يوم الجفار . وَوَسَطَ جمعهم : صار في وسطهم ، وفي المفضليات (فَفَضَضْنَ جمعهم) ، وعلى هذا فلا شاهد فيه ، وحاجِبٌ هو حاجبُ بن زرارة ، يقول الشاعر عنه : إنَّه فرَّ تحت الغبار ، والعَجَاجَة : واحدة العَجَاج وهو الغبار ، والأَقتم : الشديد السواد من الكثافة .

(١) رواه أَبو أُمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أَخرجه الطبري وفي سنده جعفر بن الزبير وهو متروك الحديث ، وقد ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره ، وقال الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » : رواه الطبراني بإسنادين ، في أَحدهما جعفر بن الزبير وهو ضعيف وفي الآخر من لا أَعرفه ، وقال السيوطي في الدر المنثور : « أَخرجه ابن جرير ، وابن أَبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي ، وابن عساكر بسند ضعيف عن أَبي أُمامة ، ورواه الطبري من حديث حريز بن عثمان ، عن حمزة بن هانئ ، عن أَبي أُمامة موقوفاً عليه » .

وقال الحسن بن أَبي الحسن : الكنود : اللائم لِرَبِّه سبحانه ، يعدُّ السيئات وينسى الحسنات ، والكنود : العاصي بلغة كندة ، ويقال للبخيل : كنُودٌ ، قال أَبو زُبَيْدٍ :

إنْ تَفُتْنِى فَلَمْ أَطِبْ عَنْكَ نَفْساً غَيْرَ أَنِّيَ أُمْنَى بِدَهْرٍ كَنُودِ(١)

وقال الفضيل : الكنود هو الذي تنسيه سيئة واحدة حسناتٍ كثيرة ، ويعامل الله على عقد عوض .

وقوله تعالى : (وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ) يحتمل الضمير أَن يعود على الله تعالى ، وقاله قتادة ، أَي : وربُّه شاهد عليه ، ونفس هذا الخبر يقتضي الشهادة بذلك ، ويحتمل أَن يعود على الإِنسان ، أَي : أَفعالُه وأَقوالُه وحالُه المعلومة من هذه الأَخلاق تشهد عليه ، فهو شاهد على نفسه بذلك ، وهذا قول الحسن ومجاهد .

والضمير في قوله تعالى : (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) عائد على

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها أَبو زُبَيْد الطائي مكثراً فيها من الحكمة والتأمل في أحداث الحياة والموت ، وهي في جمهرة أشعار العرب ، والرواية فيها : (بِدَهْرٍ كَيُودِ) بالياء ، من الكَيْد ، وعلى هذا فلا شاهد فيه ، وتَفُتْني : تسبقني وتذهب عني ، ولم أَطب عنك نفْساً : لم أَرْضَ بذلك ،وأُمْنَى : أُرْمَى وأُصاب ، والدهر الكنود : الدهر البخيل الذي لايُعطي الإنسان ما يريد ، ولا يحقق له أَمانيه . وهذا هو موضع الاستشهاد .

الإنسان لا غير ، والمعنى : من أَجل حب الخير لشديد ، أَي : بخيل بالمال ضابط له ، ومنه قول الشاعر :

أَرَي الْمَوْتَ يَعْتامُ الْكِرامَ وَيَصْطَفِي عَقيلَةَ مالِ الْفاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ (١)

و « الْخَيْرُ » : المالُ على عُرف ذلك في كتاب الله تعالى ، قال عكرمة : الخير حيث وقع في القرآن فهو المال . ويحتمل أَن يريد هنا الخير الدنيوي من مالٍ وصحةٍ وجاهٍ عند الملوك ونحوه ؛ لأَن الكفار والجهال لا يعرفون غير ذلك ، فأَما المحبُّ في خير الآخرة فممدوح مرجُوٌّ له الفوز .

وقوله تعالى : (أَفَلاَ يَعْلَمُ) توقيف على المآل والمصير ، أَي : أَفَلاَ يعلم مآله ومصيره فيستعد له ؟ و « بَعْثَرَةُ ما في القبور » : نقضُه مما يستره والبحثُ عنه ، وهي عبارة عن البعث ، وفي مصحف ابن مسعود : « بُحِثَ مَافي القبُور » ، وفي حرف أُبَيٍّ (وَبُحْثِرَتِ الْقُبُورُ » . و « تَحْصِيلُ ما في الصُّدور » : تَمْييزُه وكشْفُه ليقع الجزاءُ عليه من إيمان وكفرَوَنيَّة ،

(١) هذا البيت من قصيدة طرفة المعروفة (لِخولَة أَطْلالٌ ببُرْقَةِ ثَهْمدِ) ، وهي المعلّقة التي قالها بعد أن ملَّ حياة التشرُّد ، وعاد نادماً إلى أَهله .

ويعتامَ : يختار ، والعقيلة : الكريمة من المال والنساء ، والفاحش : البخيل . يقول : أرى الموت يختار الكرام فَيُفْنيهم ، ويصطفي أفضل ما عند البخيل المتشدد من مالٍ فيأخذه ، وبهذا لا ينفعه بخله ولا تشدده ، فلا تخلّص منه لواحد من الصنفين ، فلا يجدي البخيلَ بخله ، فالجود أَفضل لأنه أَحمد ، وقيل : بل المعنى : إن الموت يختار الكرام بالإفناء ، ويصطفي كريمة مال البخيل بالإبقاء .

ويفسِّرُه قوله عليه الصلاة والسلام : (فيبعثون على نيَّاتِهم)[(١)] ، وقرأ يحيى بن يَعْمر ، ونصر بن عاصم بفتح الحاءِ والصاد . ثم استُؤْنف الخبر الصادق الجزْمُ بأَن الله تعالى خبير بهم يومئذ ، وهو تعالى خبير دائماً ، لكن خصَّص يومئذ لأَنه يَوْمُ الْمُجازاة فإِليه طمحت النفوس ، وفي هذا وعيدُ مصَرَّح .

كمل تفسير « العاديات » والحمد لله رب العالمين

(١) هذا جزء من حديث أخرجه مسلم في الفِتَن ، وأبو داود في المهدى، والبخاري في الصوم والبيوع ، والترمذي وابن ماجه في الفتن، وأحمد في المسند (٢٩٠/٦) ، عن عبيد الله ابن القِبْطية، قال: دخل الحرث بن أَبي ربيعة وعبد الله بن صفوان —وأنا معهما— على أُمِّ سلَمة أم المؤمنين، فسألها عن الجيش الذي يُخسف به، وكان ذلك في أيام ابن الزبير، فقالت أُمُّ سلَمة: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يعوذ عائذٌ بالحجر ، فيبعث الله جيشاً ، فإذا كانوا ببيداءَ من الأرض خُسِف بهم، فقلت : يارسول الله ، فكيف بمن أُخرج كارها ؟ قال : يُخسف به معهم، ولكنه يُبعث على نِيَّتِه يوم القيامة، فذكرت ذلك لأَبي جعفر فقال: هي بيداءُ المدينة .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(١٠١) سورة القارعة مكية وآياتها إحدى عشرة

وهي مكيَّة بلا خلاف .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾

قرأ : (الْقَارِعَةَ ، مَا الْقَارِعَةَ) بالنصب عيسى ، قال جمهور المفسرين : القارعةُ : القيامة نفسها ؛ لأَنها تقرع القلوب بهولها ، وقال قَوم من المتأَوِّلين : القارعةُ : صيحةُ النفخة في الصور ؛ لأَنها تقرع

الأَسماع وفي ضمن ذلك القلوب . وقوله تعالى : (وَمَا أَدْراكَ) تعظيم لأَمرها ، وقد تقدم مثلُه [١] .

و [يَوْمَ] ظرف ، والعامل فيه [الْقَارِعَةُ] ، وأَمال أَبو عمرو [الْقَارِعَةُ] . و « الْفَرَاش » طير دقيق يتساقط في النار ويقصدها ولا يزال يتقحَّم على المصباح ونحوه حتى يحترق ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (وأَنا آخذ بِحُجَزِكم عن النار وأَنتم تتقحَّمون فيها تقاحُم الفَراش والجنادب [٢] ، وقال الفراءُ : الفَراش في الآية غوغاءُ الجراد ، وهو صغيره الذي ينتشر في الأَرض والهواءِ ، و « المبثوث » معناه : المتفرِّق جمعه وجُملته موجودة متصلة ، وقال بعض العلماءِ : الناسُ أَول قيامهم من القبور كالفراش المبثوث ؛ لأَنهم يجيئون ويذهبون على غير نظام ، ثم يدعوهم الداعى فيتوجهون إلى ناحية المحشر ، فهم حينئذ كالجراد المنتشر ؛ لأَن الجراد إنما تَوَجُّهه أَبداً إلى ناحية مقصودة .

---

(١) عند تفسير قوله تعالى: (الْحاقَّةُ ، ما الْحاقَّةُ ، ومَا أَدْراكَ مَا الْحاقَّةُ)، وأَمثالها .

(٢) أَخرجه البخاري في الرقاق ، ومسلم في الفضائل ، والترمذي في الأدب ، وأحمد في مسنده في أكثر من موضع ، ولفظه كما في صفحة (٢٤٤) من الجزء الثاني من مسند أحمد : عن أَبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : (طعام الاثنين كافي الثلاثة ، والثلاثة كافي الأربعة ، إنما مَثَلي ومَثَلُ الناس كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أَضاءت ما حوله جعل الفَرَاش والدوابُّ تَتَقَحَّم فيها ، فأَنا آخُذ بِحُجَزكم وأَنتم تواقعون فيها ، ومَثَل الأنبياءِ كمثل رجل بنى بيتاً فأَحْسنه وأكمله وأَجمله ، فجعل الناس يطيفون به يقولون : ما رأينا بنياناً أَحسن من هذا إلاَّ هذه الثَّلمه ، فأَنا تلك الثَّلمة) ، وقيل لِسُفْيان – راوي الحديث –: من ذكر هذه ؟ قال : أَبو الزناد عن الأَعرج عن أَبي هريرة .

واختلف اللغويون في « العِهْنِ » ـ فقيل : هو الصوف عاماً ، وقيل : هو الصوف الأَحمر ، وقيل : هو الصوف الُمَلوَّن ألواناً ، واحتج هؤلاءِ بقول زهير :

كأَن فُتَاتَ الْعِهْن في كُلِّ مَنْــزِلٍ نزَلْن به حب الْفَنَا لَمْ يُحَطَّمِ (١)

والفَنَا : عنب الثعلب ، وحبُّه قبل التحطيم منه الأَخضر والأَحمر والأَصفر ، وكذلك الجبال جُدد بيضٌ وحمرٌ وصفرٌ وسودٌ ، فجاءَ التشبيه ملائماً ، وكَوْنُ الجبال كالعهْن إنما هو قبل وقت التَّفتيت وقبل النسف ومصيرها هنا ، وهي درجات . و « النَّفْشُ » : خلخلة الأَجزاءِ وتفريقها عن تراصِّها ، وفي قراءة ابن مسعود ، وابن جبير : « كالصُّوفِ الْمَنْفُوشِ » .

و « الموازين » هي التي في القيامة ، قال جمهور العلماءِ والفقهاءِ والمحدثين : ميزان القيامة بعمود وكفتين ليبيِّن الله تعالى أَمر العباد بما عهدوه وتيقَّنوه ، وقال مجاهد : ليس ثَمَّ ميزانٌ ، إنما هو العدلُ مثَّلَ

---

(١) البيت من معلَّقة زهير ، والفُتاتُ : اسمٌ لما انفَت وتقطع من الشيء ، والعِهْنُ : الصوف المصبوغ الْمُلَوَّنُ ، وجمعه عُهُون ، وحبُّ الفَنَا : حبٌّ عنب الثعلب ، والتحطمُ : التكسُّر ، والضمير في (نَزَلْنَ) يعود على « الظَّعائِن » اللاتي يتحدث عنهن ، وقد ذكرهن في بيت سابق حين قال : (تَبَصَّر خَليلي هَلْ تَرَى مِنْ ظَعائِنٍ)، ومعنى البيت : كأنَّ قِطَع الصوف المصبوغ الذي زُيِّنت به الهوادج في كل منزل نزلت به هؤلاءِ النسْوة حبٌّ عنب الثعلب الذي لم يتحطم ، لأنه إذا تحطَّم ذهبت ألوانه .

ذكْره بالميزان ؛ إذْ هو أَعدل ما يدري الناس ، وجُمعت الموازين للإِنسان لمَّا كانت له موزونات كثيرة متغايرة ، وثِقل هذا الميزان هو بالإِيمان والأَعمال ، وخِفَّته بعدمها وقلَّتها ، ولن يخفَّ خفة موبقة ميزان مؤمن .

و « عيشَةٌ راضيةٌ » معناه : ذاتُ رضىً ، على النَّسب ، هذا قول الخليل وسيبويه ، وقوله تعالى : (فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ) ، قال كثير من المفسرين : المراد بالأُمِّ نفس الهاوية ، وهي دَرْك من أَدْراك النار ، وهذا كما يقال للأَرض : « أُمُّ الناس » لأَنها تُؤْويهم ، وكما قال عتبة بن أَبي سفيان في الحرب : « فنحن بنوها وهي أُمُّنا » فجعل الله تعالى الهاوية أُمَّ الكافر لمَّا كانت مأَواه ، وقال آخرون : هذا تفاؤلٌ بشَرٍّ فيه تجوُّز ، كما قالوا : « أُمُّهُ ثاكلٌ » و « هَوَى نَجْمُه » ، وقال أَبو صالح وغيره : المرادُ أُمُّ رأْسه لأَنهم يهوون على رُءُوسهم . وقرأَ طلحة : [فَإِمُّهُ] بكسر الهمزة وضم الميم مشددة .

ثم قرَّر تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلم على دراية أَمرها وتعظيمه ، ثم أَخبره أَنها نارٌ حامية ، وقرأَ (مَا هِيَ) بطرح الهاءِ في الوصل ابنُ أَبي إسحق والأَعمش ، وروى المبرد أَن النبي صلى الله عليه وسلم قال لرجل : (لا أُمَّ لك) ، فقال : يارسول الله ، تدعوني إلى الهدى وتقول : لا أُمَّ لك ؟ فقال : إنما أُريد : لا نارَ لك ، قال الله تعالى : (فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(١٠٢) سورة التكاثر مكية وآياتها ثمان

وهي مكية لا أعلم فيها خلافاً[(١)] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾
ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ
﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾

[أَلْهَاكُمُ] معناه : شغلكم بلذَّاته ، ومنه « لَهْوُ الحديث والأَصوات » واللهو بالنساءِ ، وهذا خبرٌ فيه تقريع وتوبيخ وتحسر . وقرأَ ابن عباس وأَبو عمران الجوني ، وأَبو صالح : [أَأَلْهاكم] على الاستفهام .

(١) قال القرطبي : « روى البخاري أنها مدنية » .

و « التكاثُر » هو المفاخرة بالأَموال والأَولاد والعدد جملة ، وهذا هِجِّيرَى[(١)] أَهل الدنيا وأَبنائها العربِ وغيرهم ، لايتخلَّص منه إلا العلماءُ المتقون ، وقد قال الأَعشى :

وَلَستَ بِالأَكْثَرِ مِنْهُم حَصًى وَإِنَّمَا العِزَّةُ لِلْكاثِـــرِ[(٢)]

وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : (يقول ابن آدم : مالي مالي ، وهل لك من مالك إلاَّ ما أَكلتَ فأَفْنَيْتَ ، أَوْ لبستَ فأَبليتَ ، أَو تصدَّقت فأَمضيت)[(٣)] ؟

واختلف المتأَولون في معنى قوله تعالى : (حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) — فقال بعضهم : حتى ذكرتم الموتى في تفاخركم بالآباءِ والسلف ، وتكثَّرتم

---

(١) دَأْبُهم وعادتُهم ، ولا تستعمل إلاَّ في العادة الذميمة .

(٢) هذا بيت من قصيدة قالها الأَعشى يهجو علقمة بن عُلاثة ويمدح عامرَ بن الطفيل في المنافرة التي جرت بينهما ، وهو يخاطب في هذا البيت علقمة ، و « الأكثر » هنا بمعنى « الكثير » ، وليست للتفضيل ، لأَن (الأَلف واللام ومِنْ) يتعاقبان في مثل هذا ، وقد يجوز أن تكون للتفضيل ولكن تكون (مِنْ) غير متعلقة بـ (الأَكثر) ، و « الكاثرُ » هنا بمعنى « الكثير » . يقول الشاعر لِعَلْقمة : إنك لست أَكثر عدداً من عامر وقومه ، والعزة لا تكون إلاَّ لمن كثر عددهم .

(٣) أَخرجه البخاري في الطلاق ، ومسلم في اللعان والزهد ، وأَبو داود في الطلاق ، والترمذي في الزهد وتفسير سورة التكاثر ، والنسائي في الوصايا ، وأَحمد في مسنده (٣٦٨/٢ ، ٤١٢) ، عن أَبي هريرة رضي الله عنه ، وفي مسند أَحمد زيادة في آخره (ما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس) ، وأَخرجه الطيالسي ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وأَحمد ، وابن جرير ، والحاكم عن ابن الشِّخِّير .

بالعظام الرميم ، وقال آخرون : المعنى: حتى مُتُّم وزرتم بأجسادكم مقابركم ، أي قطعتم بالتكاثر أعمارهم ، وعلى هذا التأْويل رُوي أن أعرابياً سمع هذه الآية فقال : بعث القوم للقيامة وربِّ الكعبة ، فإن الزائر منصرف لا يقيم ، وحكى النقاش هذه النزعة عن عمر بن عبد العزيز ، وقال آخرون : هذا تأْنيب على الإكثار من زيارة القبور ، أَي : جعلتم أَشغالكم القاطعة لكم عن العلم والتعلم زيارة القبور تكثُراً بمن سلف وإشادة بذكره ، وقال : ثم قال النبي عليه الصلاة والسلام : (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هُجْراً)[١] .فكان نهيه عليه الصلاة والسلام في معنى الآية ، ثم أَباح بَعْدُ لمعنى الاتعاظ لا لمعنى المباهات والافتخار كما يفعل الناس في ملازمتها وتَسْنيمها بالرخام والحجارة ، وتَلْوينها سرفاً ، وبنيان النواويس عليها[٢] .

---

(١) أخرجه الترمذي في الجنائز ، وأبو داود في الجنائز والأشربة ، والنسائي وابن ماجه في الجنائز ، وأحمد في أكثر من موضع في مسنده ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وعن أَبي سعيد الخدري، وفي رواية لمالك في موطئه زيادة : (ولا تقولوا هُجْراً) ، والـهُجْر : الـهَذَيان والقبيح من القول .

(٢) تَسْنيم القبور : إعلاءُ بنائها وتعظيمـه . والناوُوس : صندوق من خشب أو نحوه يضع فيه النصارى جثة الميت ،وهو أيضاً مقبرة النصارى ، والجمع « نواويس » ــ راجع المعجم الوسيط ، وقد جاءَ في بعض النسخ بدلاً من « وتلوينها سرفاً » ــ قوله : « وتكوينها شرفاً » . وقد نقل أبو حيان كلام ابن عطية هذا ثم قال : « وابن عطية لم يـرَ إلا قبور أهل الأندلس ، فكيف لو رأى ما تباهى به أهل مصر في مدافنهم بالقرافة الكبرى والقرافة الصغرى ، وباب النصر وغير ذلك » وما يضيع فيها من الأموال : لتعجّب من ذلك ، ولرأى مالم يخطر ببال » . (راجع البحر المحيط) .

وقوله تعالى : (كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ) زجر ووعيد ، ثم كرر تعالى [كَلاَّ] تأكيداً ، ويأْخذ الناس من هذا الزجر والوعيد المكرَّرَيْن كلٌّ أَحد على قدر حظِّه من التوغُّل فيما يكره ، هذا تأْويل جمهور الناس ، وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه : كَلاَّ ستعلمون في القبور ، كَلاَّ ستعلمون في البعث ، وقال الضحاك : الزَّجر الأَول ووعيده للكفار والثاني للمؤمنين . وقرأ مالك بن دينار : (كلاَّ سَيَعْلَمُون) فيهما .

وقوله تعالى : (كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ) جواب « لَوْ » محذوف مقدر في القول ، أَي : لازدجرتم وبادرتم إنقاذ أَنفسكم من الهلكة ، و « اليقين » أَعلى مراتب العلم . ثم أَخبر تعالى الناس أَنهم يرون الجحيم . وقرأَ ابن عباس ، والكسائي : [لَتُرُوُنَّ] بضم التاءِ ، وقرأَ الباقون بفتحها ، وهي الأَرجح ، وكذلك في الثانية ، وقرأَ علي بن أَبي طالب رضي الله عنه بفتح التاءِ في الأُولى وضمها في الثانية ، وروي ضمها عن ابن كثير وعاصم .

و « تَرَوُنَّ » أَصله : تَرْأَيُون ، نقلت حركة الهمزة إلى الراءِ ، وقلبت الياءُ أَلِفاً لحركتها بعد مفتوح ثم حذفت الأَلف لسكونها وسكون الواو بعدها ، ثم جلبت النون المشدَّدة فحركت الواو بالضم لسكونها وسكون النون الأَولى من المشدَّدة ؛ إذ قد حذفت نون الإعراب للبناء . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هذا خطاب للمشركين ، فالمعنى ـ على هذا ـ أَنها

رؤية دخول وصَلْي ، وهو عين اليقين ، وقال آخرون : الخطاب للناس كلهم ، فهي كقوله تعالى : (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وارِدُها)[١] ، فالمعنى أن الجميع يراها ، ويجوز الناجي ويتكردس فيها الكافر . وقوله تعالى : (ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ) تأكيد في الخبر ، و « عَيْنُ اليقين » حقيقته وغايته . وروي عن الحسن وأبي عمرو أنهما همزا [لَتَرَؤُنَّ] و [لَتَرَؤُنَّها] بخلاف عنهما ، وروي عن ابن كثير : (ثُمَّ لَتُرَوُنَّها) بضم التاءِ .

ثم أخبر تعالى أن الناس مَسْئُولون يومئذ عن نعيمهم في الدنيا ، كيف نالوه ؟ ولِمَ آثروه ؟ ويتوجه في هذا أَسْئِلَةٌ كثيرةٌ بحسب شخص شخص ، هي منقادة لمن أُعطي فهما في كتاب الله تعالى ، وقال ابن مسعود ، والشعبي ، وسفيان ، ومجاهد : النعيم هو الأَمْن والصحة ، وقال ابن عباس : هو البَدَن والحواس ، يسأَل المرءُ فيما استعملهما ؟ وقال ابن جبير : هو كلُّ ما يُتَلَذَّذ به من طعام وشراب ، وأَكل رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وبعض أَصحابه رطباً ، وشربوا عليه ماءً فقال لهم : هذا من النعيم الذي تُسأَلون عنه[٢] ، ومضى عليه الصلاة والسلام يوماً هو وأَبو بكر وعمر رضي الله عنهما ــ وقد جاءوا ــ إلى منزل أَبي الهيثم بن التيهان ،

---

(١) من الآية (٧١) من سورة (مريم) .

(٢) أَخرجه أَحمد ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن جابر بن عبد الله ، وفيه أنه سمَّى أبا بكر وعمر بدلاً من قوله هنا : « هو وبعض أَصحابه » . (الدرُّ المنثور) .

فذبح لهم شاةً ، وأطعمهم خبزاً ورطباً ، واستعذب لهم ماءً ، وكانوا في ظِلٍّ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (والذي نفسي بيده لتسأَلُن عن نعيم هذا اليوم)[(١)]. وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : (النعيم المسئول عنه كسرةٌ تقوته ، وماءٌ يرويه ، وثوب يواريه)[(٢)] . وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن النعيم المسئول عنه الماءُ البارد

---

(١) أخرجه البزّارُ ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، عن ابن عباس ، وفيه أنه سمع عمر بن الخطاب يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يوماً عند الظهيرة فوجد أبا بكر في المسجد جالساً ، فقال : ما أخرجك هذه الساعة ؟ قال : أخرجني الذي أخرجك يارسول الله ، ثم إنّ عمر جاء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يابن الخطاب ما أخرجك هذه الساعة ؟ قال : أخرجني الذي أخرجكما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل بكما من قوة فتنطلقان إلى هذا النخل فتصيبان من طعام وشراب ؟ فقلنا : نعم يارسول الله ، فانطلقنا حتى أَتَيْنا منزل مالك بن التَّيْهان أبي الهيثم الأنصاري) — (الدرّ المنثور) .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر أتيا رجلاً من الأنصار ، فإذا هو ليس في بيته ، فلما رأته المرأة قالت : مرحباً وأهلاً ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين فلان ؟ قالت : يستعذب لنا من الماء ، إذ جاء الأنصاريُّ ، فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ، ثم قال : الحمد لله ، ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني ، قال : فانطلق فجاء بعذْق فيه بُسْرٌ وتَمْر ورُطَب ، فقال : كلوا من هذا ، وأخذ المدية ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إياكَ والحلوب) ، فذبح لهم ، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق ، وشربوا ، فلما أن شبعوا ورَوُوا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر : (والذي نفسي بيده لتسألن عن نعيم هذا اليوم يوم القيامة ، أخرجكم من بيوتكم الجوع ، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم) ، وقد خرجه الترمذي وقال فيه : « هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة ، ظلٌّ باردٌ ، ورُطَب طيِّب ، وماءٌ بارد » ، وكنّى الرجل الذي من الأنصار فقال : « أبو الهيثم بن التَّيْهان » ، وذكر قصته .

(٢) أخرجه ابن جرير عن ثابت البناني عن النبي صلى الله عليه وسلم .

في الصيف[١] ، وقال عليه الصلاة والسلام : (من أَكل خبز البُرِّ ، وشرب الماءَ البارد في ظِلٍّ ، فذلك النعيم الذي يسأَل عنه)[٢] ، وقال عليه الصلاة والسلام : (بيتٌ يُكِنُّكَ ، وخِرْقَةٌ تواريك ، وكِسْرَةٌ تشُدُّ قلبك ، وما سوى ذلك فهو نعيم)[٣] ، وقال النبي عليه الصلاة والسلام : (كل نعيم فهو مسئول عنه ، إلاَّ نعيماً في سبيل الله عزَّ وجلَّ)[٤] .

كمل تفسير سورة « التكاثر » والحمد لله رب العالمين

---

(١) رواه الترمذي والطبري عن أَبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن أول ما يُسأل عنه يوم القيامة — يعني العبد من النعيم — أن يُقال له : أَلم نُصِحَّ لك جسمك ونُرْوِيَكَ من الماء البارد ؟ ، وأورده السيوطي في (الدر المنثور) ، وزاد نسبته إلى أَحمد ، وعبد بن حميد ، وابن حبَّان ، وابن مردويه ، والبيهقي في (شعب الإيمان) .

(٢) أورده السيوطي في (الدرّ المنثور) قائلا : أَخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أَبي حاتم ، وابن مردويه ، عن علي بن أَبي طالب أنه سئل عن قوله : (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) ، قال : (من أَكل خبز البُرِّ ، وشرب ماءَ الفرات مُبَرَّداً ، وكان له منزل يسكنه ، فذاك هو النعيم الذي يسأَل عنه) ، ولم يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

(٣) ذكره السيوطي في الدر من رواية عبد الله بن أَحمد في زوائد الزهد ، عن الحسن مرسلاً ، وهو ضعيف في المرفوع .

(٤) الجملة الأُولى (كل نعيم فهو مسئول عنه) تكاد تكون ضمن أَكثر الأَحاديث التي وردت في الموضوع ، لكني لم أَقف على الحديث بهذا النص كاملاً .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(١٠٣) سورة العصر مكية وآياتها ثلاث

وهي مكية[١] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما : العصْرُ : الدهرُ ، يقال فيه : عَصْرٌ وعُصُر ـ بضم العين والصاد ـ قال امرؤ القيس :

. . . . وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كانَ في العُصُرِ الخالي ؟[٢]

---

(١) وقال قتادة : هي مدنية ، وروي هذا أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) هذا عجز بيت هو مطلع قصيدته : « الطَّلَلُ البالي » ، والبيت بتمامه :

ألا عِمْ صَبَاحاً أيُّها الطَّلَلُ البَالي وهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كانَ في العُصُرِ الخالي ؟

و « عِمْ صباحاً » : أَنْعِمْ صباحاً . والخالي : الماضي القديم ، يخاطب الطَّلل كأنه إنسان =

وقال قتادة : العَصْر : العشِيُّ ، وقال أُبَيُّ بن كعب : سأَلت النبي صلى الله عليه وسلم عن العصر فقال : (أَقْسَم ربُّك بآخر النهار) (١) ، وقال بعض العلماءِ – وذكره أَبو علي – العصر : اليوم ، والعصر : الليلة ، ومنه قول حُمَيْد :

وَلَنْ يَلْبَثَ العَصْرَانِ : يَوْمٌ وَلَيْلَــةٌ إذا طَلَبَا أَنْ يُدْرِكا ما تَيَمَّمَا (٢)

وقال بعض العلماءِ : العصْرُ بُكرة ، والعصر عشِيَّة ، وهما الأَبردان (٣) ، وقال مقاتل : العصر هي الصلاة الوسطى ، أَقسم الله تعالى بها (٤) .

و « الإِنسان » اسم جنس ، و « الْخُسْرُ » : النقصان وسوءُ الحال ، وذلك بيِّن غاية البيان في الكافر ، إِنه خسر الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين ، وأَما المؤمن – وإِن كان في خُسْر في دنياه في هَرَمه

= عاقل ، ثم يرجع إلى نفسه ويستدرك لأن النعيم لا يكون أبداً لمن مضى عليه الزمن،وأتت عليه حوادث الأيام وصروف الدهر ، وقد استشهد بالبيت صاحب اللسان .

(١) ذكره أيضاً القرطبي لكنه لم يخرجه .

(٢) هذا البيت لحُمَيْد بن ثور الهلالي ، وهو في اللسان ، والقرطبي ، والبحر المحيط ، ومعنى تَيَمَّمَا : قَصَدَا ، والشاهد أن العصر هو اليوم وهو الليلة .

(٣) في اللسان : « البَرْدان والأَبْردان : الظِّلُّ والفَيْءُ ، سُمِّيا بذلك لبردهما ،وهما : العَصْرَان ، وقيل : هما الغداةُ والعشي ، وقيل : ظِلاَّهما » .

(٤) قال العلماءُ : لأَنها أفضل الصلوات ،وفي الخبر الصحيح (الصلاةُ الوسطى صلاة العصر) وقال عليه الصلاةُ والسلام : (شغلونا عن الصلاة الوُسْطى صلاةِ العصر)، متفق عليه ، وروى مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال : (من فاتَتْه صلاةُ العصر فكأَنما وُتر أَهْلَه ومالَه) .

وما يقاسيه من شقاءِ هذه الدار - فذلك معفوٌّ عنه في جانب فلاحه في الآخرة ، وربحه الذي لا يفنى ، ومن كان في مدة عمره في التوصِّي بالحق والعمل بحسب الوصاة فلا خُسْر معه ، وقد جُمع له الخَيْرُ كلُّه .

وقرأ علي بن أَبي طالب رضي الله عنه : « والعصر ، ونوائب الدهر ، إن الإِنسان » ، وفي مصحف عبد الله : « والعصر ، لَقَدْ خَلَقْنا الإِنسانَ في خُسْر» ، ورُوي عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه أَنه قرأَ : « إِنَّ الإِنْسانَ لَفي خُسْر ، وإِنَّهُ فيهِ إِلى آخر الدَّهْرِ ، إِلاَّ الذين » ، وقرأَ عاصم ، والأَعرج : (لَفِي خُسُر) بضم السين ، وقرأَ سلام أَبو المنذر : « والعَصِرِ » بكسر الصاد ، « والصَّبِر » بكسر الباءِ ، وهذا لا يجوز إِلاَّ في الوقف ، على نقل الحركة ، وروي عن أَبي عمرو : « بِالصَّبِر » بكسر الباءِ إِشماماً ، وهذا أَيضاً لا يكون إِلاَّ في الوقف .

كمل تفسير سورة العصر والحمد لله ربّ العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ،
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أَجمعين

(١٠٤) سورة الهمزة مكية وآياتها تسع

وهي مكية بلا خلاف .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ
أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ
ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ
مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩ ﴾

[وَيْلٌ] يجمع الشَّر والخزي ، وقيل : وَيْلٌ واد في جهنم ، و« الْهُمَزَةُ » : الذي يهمز الناسَ بلسانه ، أَي يعيبهم ويغتابهم ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هو المشَّاءُ بالنَّميم(١) .

---

(١) النمَّيم : مصدرَ « نَمَّ » ، يقال : نمَّ نميمةً ونميماً ، وقيل : بل هي جمع « نميمة » .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وليس به، لكنهما صفتان بتلازم ، قال تعالى: (هَمَّازٌ مَشَّاءٌ بِنَمِيمٍ)[(١)] وقال مجاهد : الهُمزة : الذي يأكل لحوم الناس ، وقيل لأَعرابي : أَتهمز إسرائيل ؟ قال : إنيِّ إذًا لرجل سوءٍ ، حسب أَنه يقال له : أَتقع في سبِّه ؟ و « الُّلمَزةُ » قريب من المعنى في « الْهُمَزَةِ » ، قال الله تعالى : (وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)[(٢)] ، وقرأ ابن مسعود ، والأَعمش : « وَيْلٌ لِلْهُمَزَةِ اللُّمَزَةِ » . وهذا البناءُ الذي هو « فُعَلَة » يقتضي المبالغة في معناه ، وقال أَبو العالية ، والحسن : الهَمْزُ بالحضور والَّلمْزُ بالمغيب ، وقال مقاتل ضدَّ هذا ، وقال ابن أَبي نُجيح : الْهَمْزُ باليد والعين واللَّمْزُ باللسان ، قال تعالى : (وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ في الصَّدقاتِ)[(٣)] .

وقيل : نزلت هذه الآية في الأَخنس بن شريق ، وقيل : في جميل ابن عامر الجمحي ، ثم هي تتناول كلَّ من اتصف بهذه الصفات .

وقرأَ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، والحسن : [جَمَّعَ] بشد الميم ، والباقون بالتخفيف ، وقوله تعالى : [وَعَدَّدهُ] معناه : أَحصاه

---

(١) الآية (١١) من سورة (القلم) .

(٢) من الآية (١١) من سورة (الحجرات) .

(٣) من الآية (٥٨) من سورة (التوبة) .

وحافظ على عَدَده ألاّ يُنْقص ، فمنعه من الخيرات ونفقة البر ، وقال مقاتل : المعنى استعدَّه وادَّخره . وقرأ الحسن : [وَعَدَدَهُ] بتخفيف الدالين ، فقيل: المعنى : جمع مالاً وعدداً من عشيرة ، وقيل : أراد « عدَّدَ » مشدَّداً فحلَّ التضعيف . وهذا قَلِقٌ .

وقوله تعالى : (يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ) معناه : يحسب أن مالَه هو معنى حياته وقوامها ، وأنه حفظه مدة عمره ويحفظه ، ثم ردَّ تعالى على هذه المحسبة ، وأخبر إخباراً مؤكداً أنه يُنبذ في الحطمة ، أي التي تحطم ما فيها وتلتهمه . وقرأ : [يَحْسَبُ] ـ بفتح السين ـ الأَعرج ، وأَبو جعفر ، وشيبة ، وقرأ ابن محيصن ، والحسن ـ بخلاف عنه ـ : [لَيُنْبَذَانِّ] بنون مكسورة مُشَدَّدَةٍ قبلها أَلفٌ ، يعني : هو ومالُه ، ورُوي عنه ضم الذال على نبذ جماعة ، هو ومالُه وعدده ، أَو يريد جماعة الهُمزات .

ثم عظَّم الله تعالى شأْنها ، و أَخبر أَنها نار الله الموقدة التي يبلغ إحراقُها القلوب ولا تخمد ، و « الفؤاد » القلب ، ويحتمل أَن يكون المعنى : إنها لا يتجاوزها أَحد حتى تأْخذه بواجب عقيدة قلبه ونيته ، فكأَنها مطلعة على القلوب بإِطلاع الله تعالى إِيَّاها ، ثم أَخبر تعالى أَنها عليهم مُؤْصدة ، ومعناه : مطبقة أَو مغلقة ، قال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه : أَبواب النار بعضها فوق بعض . وقوله تعالى : (في عَمَدٍ) جمع « عمود » مثل أَديم وأَدَم ، وهي عند سيبويه أَسماءُ جمع لا جموع جارية على الفعل . وقرأَ

ابن مسعود : « مُوصدةٌ بعُمُد مُمَدَّدَةً » ، وقال ابن زيد : المعنى : في عمد حديد مغلولين لها ، والكلُّ من نار ، وقال أَبو صالح : هذه النار هي في قبورهم . وقرأ عاصم – في رواية أَبي بكر – وحمزة ، والكسائي : [عُمُدٍ] بضم العين والميم ، وقرأَ الباقون وحفصٌ عن عاصم بفتحهما . وقرأَ الجمهور : [مُمَدَّدَةٍ] بالخفض ، على نعت « العَمَد » ، وقرأَ عاصم : [مُمَدَّدَةٌ] بالرفع على اتباع [مُوُصَدَةٌ](١) .

كمل تفسير سورة « الهمزة » والحمد لله ربّ العالمين

(١) هذه قراءة عاصم في رواية أَبي بكر عنه ، أما قراءة حفص عنه فهي بخفض (مُمَدَّدَةٍ) كالجمهور .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(١٠٥) سورة الفيل مكية وآياتها خمس

وهي مكية إجماعاً من الرواة .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴿٥﴾ ﴾

[كَيْفَ] نصب بـ [فَعَلَ] ، والجمهور على أنه فيل واحد ، وقال الضحاك : ثمانية ، فهو اسم الجنس ، وقوله مردود ، وحكى النقاش ثلاثة عشر .

وهذه السورة تنبيه على اعتبار في أَخْذ الله عزّ وجلّ لأَبرهة مِلك الحبشة ولجيشه حين أَمَّ به الكعبة ليهدمها ، وكان صاحب فيل يركبه .

وقصته مشهورة في السيرة طويلة ، واختصارها أنه بنى في اليمن بيتاً ، وأَراد أَن يَرِدَ إليه حجُّ العرب ، فذهب عربي فأَحدث في البيت الذي بناه أبرهة ، فغضب لذلك واحتفل في جموعه ، وركب الفيل وقصد مكة ، وغلب من تعرضه في طريقه من قبائل العرب ، فلما وصل ظاهر مكة ، وفرَّ عبد المطلب وقريش إلى الجبال والشعاب ، وأَسلموا له البلد ، وغلب طغيانه ، ولم يكن للبيت من البشر من يعصمه ، جاءت قدرة الواحد القَهَّار ، وأَخْذ العزيز المقتدر الجبار ، فأَصبح أَبرهة ليدخل مكة ويهدم الكعبة ، فبرك فيله بذي المُغَمِّس [(١)] ولم يتوجه قِبَل مكة ، فَبَضَعوه بالحديد [(٢)] فلم يمش إلى ناحية مكة ، وكان إذا وجهوه إلى غيرها هرول ، فبينما هم كذلك في أمر الفيل بعث الله تعالى عليهم طيراً جماعات سوداً من البحر - وقيل خضْراً - ، عند كل طير ثلاثة أَحجار في منقاره ورجليه ، كلُّ حجر فوق العدسة ودون الحُمُّصة ، فرمتهم بتلك الحجارة ، وكان الحجر منها يقتل المرميَّ ، وتتهرأُ لحومهم جرباً وأَسقاما ، وانصرف أَبرهة بمن معه يريد اليمن ، فماتوا في طريقهم متفرقين في كل مرحلة ، وتقطع أَبرهة أُنملة أُنملة حتى مات ، وحمى الله تعالى بيته المرفَّع ، فنزلت هذه السورة مُنَبِّهة على الاعتبار بهذه القصة ، ليعلم الكلُّ أَن الأَمر كله لله تعالى ، ويستسلموا للإله الذي ظهرت في ذلك قدرته

---

(١) موضع قريب من مكة في طريق الطائف .

(٢) بضعه : شق جلده وقطعه .

حين لم تغن الأَصنام شيئاً . فأَصحاب الفيل هم أَبْرَهةُ الملِكُ ورجاله . وقرأَ أَبو عبد الرحمن : (أَلَمْ ترْ) بسكون الراءِ ، و « التَّضليلُ » : الخَسَار والتلف . و « الْأَبابيلُ » : الجماعاتُ تجيءُ شيئاً بعد شيءٍ ، وقال أَبو عبيدة : لا واحد له من لفظه ، وهذا هو الصحيح ، لا ما تكلَّفه بعض النحاة وقال كعب :

كادَتْ تُهَدُّ مِنَ الْأَصْواتِ راحِلَتِي إِذْ سَالَتِ الأَرْضُ بِالْجُرْدِ الأَبابيلِ (١)

وقد تقدم تفسير « حجارة السِّجِّيل » غير مرة ، وهو من « سَنْجٍ وَكِلٍّ » (٢) ، أَي : ماءٍ وطين ، كأَنها الآجُرُّ ونحوه مما طُبِخ (٣) ، وهي المسوَّمة عند الله تعالى للكفَّار والظالمين .

و « العَصْفُ » : ورق الحِنْطة وتبْنُه ، ومنه قول علقمة بن عَبْدة :

---

(١) تُهَدُّ : تضعف وتعجز عن الحركة . والرَّاحِلَةُ من الإبل : الصالح للأَسْفار والأَحْمال ، والجُرْدُ : جمع أَجرد وهو الذي خلا جسمه من الشعر ، أَو قصر شعر جسمه ، وهي صفة محمودة في الخيْل ، والأَبابيل : جمعٌ لا واحد له من لفظه ، والمراد بها الجماعات التي تأْتي وراء بعضها . وقيل : بل له مفرد ثم اختلف اللغويون في هذا المفرد ــ راجع اللسان ــ ، هذا والبيت في اللسان ، والقرطبي ، والبحر المحيط . ومعنى « سالت الأَرض بالجُرْد » : امتلأَت بها حتى صارت كالسَّيل ينطلق ويتدفّق في كل أَنحاءِ الوادي .

(٢) في اللسان « هو حَجَرٌ من طين ، معرَّبٌ دخيل ، وهو سَنْكِ وَكِلْ ، أَيْ حجارة وطين ، وقيل : من جلٍّ وطين ، وقيل : من جلٍّ وحجارة » .

(٣) الطين المحروق بعد جمعه وصبـّه في قوالب .

تسْقي مَذانِبَ قَدْ زالتْ عَصيفَتُهَا حَدورُهَا مِنْ أَتِيِّ ٱلْماءِ مَطمومُ[(١)]

والمعنى : صاروا طحيناً ذاهباً كورق الحِنْطة أكلته الدوابُّ وراثته[(٢)] فَجَمَع المهانة والخِسَّة والتَّلف . وقرأ أبو المليحِ الهذلي[(٣)] : « فتركَهُمْ كعَصْفٍ) ، وقال أبو حاتم : وقرأ بعضهم : « فَجعلتْهُمْ » – يعنون الطير – بفتح اللام وتاءِ ساكنة ، وقال عكرمة : العصْفُ : حبُّ البُرِّ إذا أُكل فصار أَجوف ، وقال الفراءُ : هو أَطراف الزرع قبل أن يُسَنْبل .

وهذه السورة متصلة في مصحف أُبَيٍّ بن كعب بسورة « لإِيلافِ قُرَيْش » ، لا فصل بينهما[(٤)] ، وقال سفيان بن عينية ، كان لنا إمام يقرأ بهما متصلةً سورة واحدة .

كمل تفسير سورة « الفيل » والحمد لله ربّ العالمين

---

(١) قال علقمة هذا البيت من قصيدة له يتناول فيها حبيبته ثم ناقته قبل أن يتحدث عن شخصيته ، والبيت واحد من الأَبيات التي يصف فيها الناقة فيكثر من ذكر التفاصيل. والمذانب : مدافع الماء إلى الأَرض ، والعَصيفَةُ : الورق المجتمع الذي يكون فيه السنبل ، والحَدُور : ما انحدر من الأَرض واطمأنّ ، والأتِيُّ : السَّيل المندفع ، والمطموم الممتلىءُ . يقول : إن هذه الناقة – التي وصفها قبل ذلك بالقوة وضخامة الجسم– تسقي هذه المذانب التي زال عنها ما كان بها من عصيفة ، وامتلأ ما انخفض منها بماءِ السَّيل المندفع إليه من أعلى .

(٢) أَي أَخرجته روثاً .

(٣) هو أَبو المليح بن أُسامة بن عمير – أو عامر – بن حنيف بن ناجية الهُذَلي ، اسمه عامر ، وقيل : زيد ، وقيل : زيادٌ . قال عنه الحافظ العسقلاني في (تقريب التهذيب) : « ثقة ، مات سنة ثمان وتسعين ، وقيل : ثمان ومائة ، وقيل : بعد ذلك » .

(٤) فيكون المعنى متصلاً ، والتقدير : فعلتُ ذلك بأصحاب الفيل حتى تألف قريشٌ ما أَنعَمْت به عليها من رحلتي الشتاءِ والصيف .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(١٠٦) سورة قريش مكية وآياتها أربع

وهي مكية بلا خلاف (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤ ﴾

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم ، وحمزة ، والكسائي : (لِإيلافِ قُرَيْش ، إيلافِهِمْ) ، على « إفْعالٍ » والهمزة الثانية ياءٌ . وقرأ ابن عامر : (لإلافِ) ، على « فِعال » (إيلافِهِمْ) ، على إفعالٍ بياءٍ في الثانيةِ ، وقرأ أبو بكر عن عاصم بهمزتين فيهما ، الثانيةُ ساكنة

(١) في القرطبي أنها مكية في قول الجمهور ، ومدنية في قول الضحاك والكلبي .

قال أَبو علي : وتحقيق عاصم هاتين الهمزتين لا وجه له ، وقرأَ أَبو جعفر [إِلْفِهِمْ] بلام ساكنة .

و « قريش » : ولد النَّضر بن كنانة ، والتَّقْريش : التَّكَسُّبِ ، تقول العربُ : « أَلِفَ الرَّجُلُ الأَمْر وآلَفَهُ غيرُهُ إِيَّاه » ، فالله تعالى آلَفَ قريشاً ، أَي جعلهم يأْلفون رحلتين في العام ، واحدة في الشتاءِ وأُخرى في الصيف ، ويقال أَيضاً : « أَلِفَ » بمعنى « آلَفَ » ، وأَنشد أَبو زيد :

مِن الْمُؤْلِفاتِ الرَّمْلِ أَدْماءُ حُرَّةٌ شُعاعُ الضُّحى في جيدها يَتوَضَّحُ (١)

فإِلْفٌ وإِلاَفٌ مصدر « أَلِف » ، وإِيلافٌ مصدر « آلفَ » ، قال بعض الناس : كانت الرحلتان إلى الشام في التجارة ونيل الأَرباح ، ومنه قول الشاعر :

سَفرَيْنِ سَنَّهُمَا لَـــهُ ولِغَيْـــرِهِ سَفرُ الشِّتاءِ ورحْلَةُ الأَصْيافِ (٢)

---

(١) هذا البيت لذي الرُّمَّة ، والرواية في اللسان : « في مَتْنِها يَتَوَضَّحُ » بدلاً من « جيدها » ، وهو شاهد على أَنَّ « آلَفَ » تأتي بمعنى « أَلِفَ » . يقال : « أَلِفْتُ الشيءَ وآلَفْتُه » بمعنى : لَزِمْتُه ، والأُلْفَةُ هي الأُنْسُ بالشيءِ والتزامه ، والأَدْماءُ : شديدة السُّمْرة ، يصفها بأنها ممن أَلفت الرمل وأَنِست إليه ، وأنها سمراءُ تعودت أن تعيش حرة ، ويصف جيدها بأنه يلمع كأن شعاع الشمس يصدر عنه .

(٢) سَنَّ : وضع وبيَّن ، وكلٌّ من ابتدأَ أَمْراً عمِل به قومٌ من بعده فهو الذي سَنَّه . والأَصْياف : جمع صَيْف ، وهو الفَصْل المعروف من فصول العام ، يقال في جمعه : صيوفٌ وأَصياف . ونُرَجِّح أن البيت من قصيدة قالها مطرود بن كعب الخزاعي في رثاء عبد المطلب ومدح فيها آل عبد مناف .

وقال ابن عباس : كانت رحلة الشتاءِ إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى بُصرى من أَرض الشام ، وقال أَبو صالح : كانت جميعاً إلى الشام ، وقال ابن عباس أَيضاً : كانوا يرحلون في الصيف إلى الطائف حيث الماءُ والظل ، ويرحلون في الشتاءِ إلى مكَّة للتجارة وسائر أَغراضهم ، فهاتان رحلتا الشتاءِ والصيف ، وقال الخليل بن أَحمد : فمعنى الآية : لأَن الله تعالى فعل بقريش هذا ومكنهم من إِلْفِهِم هذه النعمة فليعبدوا ربَّ هذا البيت .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وذِكْرُ « البيت » هنا متمكن لتقدم حمايته في السورة التي قبلها .

وقال الأَخفش وغيره : قوله تعالى : (لإِ يلافِ قُرَيْشٍ) متعلق بقوله سبحانه : (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مأْكُولٍ) . أَي : لِيَفْعَل بقريش هذه الأَفاعيل الجميلة ، وقال بعض المفسرين : معنى الآية : اعجبوا لإِيلاف قريش هذه الأَسفار وإِعراضهم عن عبادة الله تعالى ، ثم أَمرهم تعالى بالعبادة بَعْدُ ، وأَعلمهم أَن الله هو الذي أَطعمهم وآمنهم لا سفرهم ، والمعنى : فليعبدوا الذي أَطعمهم بدعوة إِبراهيم عليه السلام حيث قال : (وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ)(١) ، وآمَنهم بدعوته حيث قال: (رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً)(٢) ، ولا تشتغلوا بالأَسفار فإِنها طلب كسْبٍ وعرضُ

(١) من الآية (٣٧) من سورة (إبراهيم) .
(٢) من الآية (٣٥) من سورة (إبراهيم) .

دُنْيا . وقال النقاش: كانت لهم أَربع رحَلٍ ، وهذا قول مردود ، وقال عكرمة : معنى الآية كما أَلِفوا هاتيْن الرحلتيْن لدنياهم فليعبدوا ربَّ هذا البيت لآخرتهم ، وقال قتادة : إِنمَّا عُدِّدت عليهم الرحلتان لأَنهم كانوا يأَمنون من الناس في سفرهم ، والناسُ يُغير بعضهم على بعض ، ولا تُمكِّن قبيلاً من العرب أن يرحل آمناً كما تفعل قريش ، فالمعنى : فليعبدوا الذي خصَّهم بهذه الحال فأَطعمهم وآمنهم .

وقوله تعالى : (مِنْ جُوعٍ) معناه أَن أَهل مكة قاطنون بوَادٍ غير ذي زرع عُرْضةً للجوع والجدب لولا لُطْف الله تعالى وَأَنْ جعلها بدعوة إِبراهيم عليه السلام تُجبى إِليه ثمراتُ كل شيءٍ . وقوله تعالى : (مِنْ خَوْفٍ) ، أَيْ : جعلهم - لحِرُمْة البيت - مفضَّلين عند العرب ، يأَمنون والناس خائفون ، ولولا فضل الله تعالى في ذلك لكانوا بمدرج المخاوف . وقال ابن عباس ، والضحاك : (آمَنَهُمْ مِنْ خوْفٍ) معناه : من الجذُام ، فلا ترى بمكة مجذوماً .

كمل تفسير سورة « قريش » والحمد لله رب العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(١٠٧) سورة الماعون مكية وآياتها سبع

وهي مكية بلا خلاف علمته ، وقال الثعلبي : هي مدنية[١] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾

هذا توقيف وتنبيه لتذكر نفسُ السامع كلَّ من تعرفه بهذه الصفة ، وهمَز أَبو عمرو [أَرَأَيْت] ـ بخلاف عنه ـ ، ولم يهمزها نافع وغيره . و « الدِّينُ » : الجزاءُ ثواباً وعقاباً ، والحساب هنا قريب من الجزاءِ .

ثم قال تعالى : (فَذَلِكَ الذَّي يَدُعُّ الْيَتيمَ) ، أَي : راقب فيه هذه

(١) الذي في الأصول : تفسير سورة « أرأيت » ، وقد أثبتنا الاسم المختار في المصحف الشريف.

الخلال السيئة تجدها ، و « دَعُّ اليتيم » : دَفْعُه بعنف ، وذلك إِمَّا أن يكون المعنى : عن إطعامه والإحسان إليه ، وإِمَّا أن يكون : عن حقِّه وماله ، فهذا أشد ، وقرأ أبورجاءٍ : [يَدَعُ] بفتح الدال خفيفة ، بمعنى : لا يُحسن إليه ، وقوله تعالى : (وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) أَيْ لا يأمر بِصَدَقَة ، ولا يرى ذلك صواباً .

ويُروى أن هذه السورة نزلت في بعض المضطرِّين في الإسلام بمكة الذين لم يُحقِّقوا فيه ، وفُتِنوا فَافْتتنوا ، وكانوا على هذا الخُلُق من الغشم وغِلَظ العشرة والفظاظة على المساكين ، وربما كان بعضهم يصلي أَحياناً مع المسلمين مدافَعَةً وحيرة ، فقال الله تعالى فيهم (فَوَيْلٌ لِلْمصَلِّين ، الَّذينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ ساهُونَ) ، وقال ابن جريج : كان أَبو سفيان ينحر كل أَسبوع جزوراً ، فجاءَهُ يتيم فقرعه بعصاً ، فنزلت السورة فيه ، قال سعد بن أَبي وقاصٍ رضي الله عنه : سأَلتُ النبي صلى الله عليه وسلم عن الذين هم عن صلاتهم ساهون ، قال : (هم الذين يُؤخرونها عن وقتها)[1] ،

(١) أخرجه ابن المنذر ، وابن مردويه ، والطبراني في الأوسط ، وأخرجه ابن جرير ، قال : حدثني زكريا بن أبان المصري ، حدثنا عمرو بن طارق ، حدثنا عكرمة بن إبراهيم ، حدثني عبد الملك بن عُمير ، عن مصعب بن سعد ، عن سعد بن أبي وقاص ، قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الذين هم عن صلاتهم ساهون ، قال : (هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها) ، قال ابن كثير ، وتأخير الصلاة عن وقتها يحتمل تركها بالكلِّية ، ويحتمل صلاتها بعد وقتها شرعاً أوتأخيرا عن أول الوقت ، وكذلك روى الحديث الحافظ أبو يعلي عن أبي الربيع عن جابر عن عاصم عن مصعب عن أبيه موقوفاً ، وقد ضعّف البيهقي رفْعه وصحح وقفه ، وكذلك الحاكم .

يريد صلى الله عليه وسلم ـ والله تعالى أعلم ـ تأْخير تَرْكٍ وإهمالٍ ، وإلى هذا نَحَا مجاهد ، وقال قتادة : [ساهُونَ] هم التاركون لها ، أَوهم الغافلون الذين لا يبالي أَحدهم صَلَّى أَمْ لم يُصَلِّ ، وقال عطاءُ بن يسار : الحمد لله الذي قال : (عَنْ صلاتِهِمْ) ، ولم يقل : « في صلاتهم » ، وفي قراءة ابن مسعود : « لاهون » بدل « ساهون » .

وفي قوله تعالى : (الَّذينَ هُمْ يُراءُونَ) بيانُ أَنَّ صلاة هؤلاءِ ليست لله تعالى بِنِيَّة إيمان ، وإنما هي رياءٌ للبشر ، فلا قبول لها ، وقرأَ ابن أَبي إِسحق ، وأَبو الأَشهب : [يُرَؤُّنَ] مهموزة مقصورة مشددة الهمزة [1] ، وروى ابن أَبي إِسحق : [يُرَؤُنَ] بغير شدٍّ في الهمزة .

وقوله تعالى : (وَيَمْنعونَ الْماعونَ) وصفٌ لهم بقلَّة النفع لعباد الله ، وتلك شُرْخَلَّة [2] ، وقال علي بن أَبي طالب وابن عمر رضي الله عنهم : الماعُون : الزكاة ، قال الراعي :

قَوْمٌ عَلَى الإِسْلامِ لَمَّا يَمْنَعـوا ماعُونَهُمْ وَيُضَيِّعُوا التَّهْليلاَ [3]

(١) على وزن (يُصَلُّونَ) .
(٢) الَخلة : الصِّفة أو الخَصْلة .
(٣) هذا واحد من أبيات قالها عبيد بن حصين الراعي ، وهي :

أَخَليفَــةَ الإِسْــلامِ إِنَّا مَعْشَرٌ حُنَفاءُ نَسْجُدُ بُكْرَةً وَأَصيلاَ
عَــرَبٌ نَرَى للهِ مِنْ أَمْــوالِنَا حَقَّ الزَّكــاة مُنَزَّلاً تَنْزِيــلاَ
قَــوْمٌ عَلَى الإِسْلامِ لَمَّا يَمْنَعُوا ماعُونَهُمْ وَيُضَيِّعُوا التَّهْليـلاَ

والبيت الأخير في اللسان ، والرواية فيه : « قومٌ عَلَى التنْزيل » ، « ويُبَدِّلوا التنْزيلاَ » =

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : هو ما يتعاطاه الناسُ بينهم كالفأْس والدلْو والآنية والمقصِّ ونحوه ، وقاله الحسن ، وقتادة ، وابن الحنفية ، وابن زيد ، والضحاك ، وابن عباس ، وقال ابن المسيَّب : الماعون – بلغة قريش – المال ، وسُئِل النبيُّ صلى الله عليه وسلَّم : ما الشيءُ الذي لا يحِلُّ منعه ؟ فقال : (الماءُ والنار والملح) ، روته عائشة رضي الله عنها ، وفي بعض الطرق زيادة (والإبرة والخمير) (١) ، وحكى الفراءُ عن بعض العرب أَن الماعونَ الماءُ ، وقال ابن مسعود : كنَّا نعدُّ الماعون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم عارية القِدْر والدلو ونحوها .

كمل تفسير سورة « الماعون » والحمد لله رب العالمين

= وفي التهذيب : « ويُبَدِّلُوا تَبْديلاَ » . والبيت شاهد على أَن الماعون هو الزكاة ، قال صاحب اللسان : « وعليه العمل ، وهو من السهولة والقلة لأنها جزءٌ من كلٍّ » .

(١) خرَّجه ابن ماجه في سننه ، وفي إسناده لين ، وذكره الثعلبي في تفسيره ، ولفظه أَن عائشة رضوان الله عليها قالت : قلت : يارسول الله ، ما الشيءُ الذي لا يحلُّ منعه ؟ قال : (الماءُ والنار والملح) ، قلت : يارسول الله ، هذا الماءُ ، فما بال النار والملح ؟ فقال : (ياعائشة من أَعطى ناراً فكأنما تصدق بجميع ما طبخ بتلك النار ، ومن أَعطى ملحاً فكأنما تصدَّق بجميع ماطيَّب به ذلك المِلْح ، ومن سقى شربة من الماء حيث يوجد الماءُ فكأنما أَعتق ستِّين نسمة ، ومن سقى شربةً من الماءِ حيث لايوجد فكأنما أَحيا نفساً ، ومن أَحياها فكأنما أَحيا الناس جميعاً) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(١٠٨) سورة الكوثر مكية وآياتها ثلاث

وهي مكية[(١)] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾

قرأ الحسن : (إنا أَنْطَيْناكَ) ، وهي لغة في « أَعطى » ، قال النبي عليه الصلاة والسلام : (واليَدُ الْمُنْطِيَةُ خير من السُّفلى)[(٢)] ، وقال الأَعشي :

(١) هذا قول ابن عباس والكلبي ومقاتل ، وقال الحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة : إنها مدنية .

(٢) أخرجه الإمام أحمد ، عن عروة بن محمد بن عطية ، عن أبيه عن جده ، قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (اليد المعطية خير من اليد السفلى) ، هكذا بالعين في (المعطية)، أما بالنون فقد قال القرطبي : « روته أُمُّ سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهي =

جيادُك خَيْرُ جيادِ الْمُلُـــوكِ تُصانُ الجِلالَ وتُنْطَى الشَّعيرا (١)

قال أَنس ، وابن عباس ، وابن عمر – رضي الله عنهم – وجماعة من الصحابة والتابعين : الكوثرُ نهرٌ في الجنة ، حافتاه قبابٌ من دُرٍّ مجوَّف ، وطينه مسك ، وحصباؤه ياقوت ، ونحو هذا من صفاته وإن اختلفت أَلفاظ الرواة ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضا : الكوثرُ : الخيرُ الكثير .

= لغة في العطاءِ ، أَنْطيته : أَعطيته » ، على أنه قد ورد التعبير « أنطى » بدلاً من « أعطى » في بعض أحاديث أُخرى ، منها ما أَخرجه أَبو داود والدرامي في الصلاة ، وأحمد في مسنده (١٣٣/٥) ، ولفظه : عن أُبَيٍّ بن كعب قال : كان رجل بالمدنية ، لا أَعلم رجلاً كان أَبعد منه منزلاً – أو قال : داراً – من المسجد منه ، فقيل له : لو اشتريتَ حماراً فركبته في الرمضاءِ والظلمات ، فقال : ما يَسرُّني أَن داري – أو قال : منزلي – إلى جنب المسجد ، فنمي الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما أَردت بقولك : ما يَسرُّني أَن منزلي – أو قال : داري – إلى جنب المسجد ؟ قال : أردت أَن يكتب إقبالي إذا أَقبلت إلى المسجد ، ورجوعي إذا رجعتُ إلى أَهلي ، قال : أَعطاك الله تعالى ذلك كله ، أَو : أَنطاك الله ما احتسبت أَجمع ، أو : أنطاك الله تعالى ذلك كله لما احتسبتَ أَجمع .

(١) هذا بيت من قصيدة قالها الأعشى يمدح هَوذة بن علي الحنفي ، والرواية في الديوان : (جيادك في الصيف في نعمة) ، وذلك أَن الصيف وقت الجفاف وقلة الخير ، والجلالُ : جمع جُلٍّ ، وهو ماتلبسه الدابة لِتُصانَ به ، يقول : إن خيلك هي خير الخيول وأَفضلها لأَنها تصان بالجلال وتأكل الشعير في الوقت الذي لا يجد فيه غيرها شيئاً من ذلك ، على أن الرواية بالنون لم ترد لا في الديوان ولا في غيره مع أنها لغة معروفة ، والشواهد عليها في اللغة كثيرة ، وفي الحديث (وإنَّ مال الله مسئول ومُنْطىً) ، أَي مُعْطىً ، وروى الشعبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل : أَنْطه كذا وكذا ، أي أَعطه ، وأَنشد ثعلب :

مِنَ الْمُنْطِيَاتِ الْموكبَ الْمَعْجَ بَعْدَمَا يُرَى في فروعِ الْمُقْلَتَين نُضُوبُ

راجع اللسان والتاج والصحاح وغيرها من كتب اللغة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

« كوْثَر » بناءُ مبالغة من الكثرة ، ولا محالة أن الذي أعطى الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم من النبوة والحكمة والعلم بربه تعالى والفوز برضوانه والشرف على عباده هو أكثر الأشياء وأعظمها ، فكأنه يقال في هذه الآية : إنَّا أعطيناك الحظَّ الأعظم ، قال سعيد بن جبير : النهر الذي في الجنة هو من الخير الذي أعطاه الله تعالى إيَّاهُ ، فنعم ما ذهب إليه ابن عباس ، ونعم ما تمَّم ابن جبير رضي الله عنهما ، وأمر النهر ثابت في الآثار في حديث الإسراءِ وغيره ، صلى الله على محمد وسلم ، ونفعنا بما منحنا من الهداية به . وقال الحسن : الكوثر : القرآن ، وقال أبو بكر ابن عياش : هو كثرة الأصحاب والأشياع ، وقال جعفر الصادق : نورٌ في قلبه دلَّه على الله تعالى وقطعه عما سواه ، وقال أيضاً : هو الشفاعة ، وقال هلال بن يِسَاف [1] : هو التوحيد .

وقوله تعالى : (فَصَلِّ لِرَبِّكَ) أمر بالصلاة على العموم ، ففيه المكتوبات بشروطها ، والنوافل على أثرها ، والنَّحر نحر الهدي والنسك في الضحايا في قول جمهور الناس ، فكأنه تعالى قال : ليكن شغلك هذين ، ولم يكن

---

(١) هو هلالُ بن يِساف ـ بكسر الياءِ ، ثم سين بدون فقط ، ثم فاءٌ ـ ويقال : ابن إساف ـ بالهمزة ، الأشجعي ، مولاهم الكوفي ، ثقة . (تقريب التهذيب) .

في ذلك الوقت جهاد ، وقال أنس بن مالك : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينحر يوم الأَضحى قبل الصلاة فأُمِر أَن يصلي ثم ينحر ، وقاله قتادة ، وقال القرطبي وغيره : في الآية طعن على كفار مكة ، أَي أَنهم يصلُّون لغير الله تعالى مُكاءً وَتَصْدية ، وينحرون للأَصنام ، ونحوه ، فافعل هذا أَنت لربك تكن على صراط مستقيم .

وقال ابن جبير : نزلت هذه الآية يوم الحُدَيْبيَة وقت صلح قريش ، قيل لمحمد صلى الله عليه وسلم : صلِّ وانحر الهَدْي ، وعلى هذا تكون الآية من المدني ، وروي عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه أَنه قال : معنى الآية : صلِّ لِربِّك ، وضع يمينك على شمالك عند نَحرك في الصلاة ، فالنَّحْر – على هذا – ليس بمصدر نَحَرَ ، بل هو الصدر ، وقال آخرون : المعنى : ارفع يديك في استفتاح صلاتك عند نحرك .

وقوله تعالى : (إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ) ردٌّ على مقالة كان كثير من سفهاءِ قريش يقولها لمَّا لم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلَّم وَلَد ، فكانوا يقولون : هو أَبتر ، يموت فنستريح منه ، ويموتُ أَمره بموته ، فقال الله تعالى – وقوله الحق – : (إِنَّ شَانِئَكَ هُو الْأَبْتَرُ) ، أَي المقطوع المبتور من رحمة الله تعالى ، ولو كان له بنون فهم غير نافعيه .

---

(١) المُكاءُ : الصفير بالفم ، أو بعد وضع أصابع اليد فيه . والتَّصْديةُ : التصفيق باليدين .

و« الشَّانىءُ » : المُبْغِضُ . وقال قتادة : الأَبْتر يراد به هنا الحقير الذليل ، وقال عكرمة : مات ابن النبي صلى الله عليه وسلم فخرج أَبو جهل يقول « بُتِرَ محمد » ، فنزلت السورة ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت في العاص بن وائل ، سمَّى النبيَّ صلى الله عليه وسلم حين مات ابنه عبد الله : أَبْتر .

كمل تفسير سورة الكوثر والحمد لله ربِّ العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(١٠٩) سورة الكافرون مكية وآياتها ست

وهي مكية إجماعاً[(١)] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾

قرأ أُبَيٌّ ابن كعب وابن مسعود : « قُلْ لِلَّذينَ كَفَروا » .

ورُوي في سبب هذه السورة عن ابن عباس وغيره أَن جماعة من

---

(١) في القرطبي أن ابن مسعود والحسن وعكرمة قالوا : هي مكية ، وأن قتادة والضحاك قالا : هي مدنية ، وهذا أيضاً أحد قولَيْ ابن عباس رضي الله عنهما .

عُتاة قريش ورجالاتها قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : دع ما أَنتَ فيه ونحن نُمَوِّلُك ونُزَوِّجُك من شئت من كرائمنا ، ونَمَلِّكُكَ علينا ، وإن لم تفعل فلتعبد آلهتنا ونعبدُ إلٰهَكَ حتى نشترك ، فحيث كان الخير نلناه جميعا ، هذا معنى قولهم ولفظهم ، لكن لِلرُّواة زيادة ونقص . ورُوي أَن هذه الجماعة المذكورة هم : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأَسود بن المطلب ، وأُمية بن خلف ، وأُبَيٌّ بن خلف ، وأَبو جهل ، وابنا الحجاج ، ونظراؤهم ممن لم يُسلم بعد ، ولرسول الله صلى الله عليه وسلم معهم في هذه المعاني مقامات نزلت السورة في إحداها بسبب قولهم : هلُمَّ نشترك في عبادة إلٰهك وآلِهَتنَا ، ورُوي أَنهم قالوا : اعبد إلٰهَنَا عاماً ونعبد إلٰهك عاماً ، فأَخبرهم عن أَمْره عزَّ وجلَّ أَنَه لا يعبد ما يعبدون ، وأَنهم غير عابدين ما يعبد ، فلما كان قوله : (لاَ أَعْبُدُ) محتملاً أَن يُراد به « الآن » ويبقى المستأَنف منتظراً ما يكون فيه من عبادته جاءَ البيان بقوله : (ولاَ أنا عابِدٌ ما عَبدْتُمْ) أَيْ أَبداً وما حيِيتُ ، ثم جاءَ قوله : (وَلا أَنْتُمْ عابِدون ما أَعْبُدُ) حتماً عليهم أَنهم لا يؤمنون به أَبدا كالذي كشف الغيبُ ، فهذا كما قيل لنوح عليه السلام : (إِنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إلا مَنْ قَدْ آمَنَ)[1] ، أَما إنَّ هذا في مُعَيَّنين ، وقوم نوح عموا بذلك ، فهذا معنى الترديد الذي في السورة ، وهو بارع الفصاحة وليس بتكرارٍ فقط ، بل فيه ما ذكرتُه مع التأْكيد والإبلاغ ، وزاد

(١) من الآية (٣٦) من سورة (هود) .

الأَمْرَ بياناً وتبرِّياً منهم بقوله : (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) ، وفي هذا المعنى الذي عرضت قريش نزل أيضاً : (قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الجاهِلونَ)(١) .

وقرأ أبو عمرو : (وَلِيْ دِين) ساكنة الياءِ من [لي] ، ونصبها الباقون ـ بخلاف عن كل واحد منهم ـ والقراءتان حسنتان ، وأمال قوم [عابِدٌ] و [عابِدُونَ] ، وفتحها قوم ، وهما حسنتان أيضا ، ولم يختلف السبعةُ في حذف الياءِ من (دِينِ) ، وأثبتها سلام ، ويعقوب في الوصل والوقف ، وقال بعض العلماءِ : في هذه الأَلفاظ مُهادَنةٌ مَّا ، وهي منسوخة بآية القتال .

كمل تفسير سورة « الكافرون » والحمد لله رب العالمين

(١) من الآية (٦٤) من سورة (الزُّمَر) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(١١٠) سورة النصر مدنية وآياتها ثلاث

وهي مدنيةٌ إجماعاً .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾ ﴾

قرأ ابن عباس رضي الله عنهما : « إذا جاءَ النَّصرْ والْفتْحُ » ، وسأَل عمر بن الخطاب رضي الله عنه جمعا من الصحابة والأَشياخ وبالحضرة ابن عباس ، رضي الله عنهم ، عن معنى هذه السورة وسببها ، فقالوا كلهم : مقتضى ظاهر أَلفاظها أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُمر عند الفتوح التي فُتحت عليه ـ مكة وغيرها ـ بأَن يسبِّح ربه ويحمده ويستغفره ، فقال لابن عباس : فما تقول أَنت ياابن عباس ؟ فقال : هو أَجَل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أَعلمه الله تعالى بِقُرْبه إذا رأَى

هذه الأَشياءَ ، فقال عمر رضي الله عنه : ما أَعلم منها إلاَّ ما ذكرتَ[(١)] .
وهذا المنزع الذي ذكره ابن عباس ذكره ابن مسعود وأَصحابه ، ومجاهد وأَصحابه ، وقتادة ، والضحاك ، وروت معناه عائشة رضي الله عنها عن النبي عليه الصلاة والسلام ، وأَنه صلى الله عليه وسلم لمَّا فُتحت مكة وأَسْلم العرب جعل يكثر أَن يقول : (سبحان الله وبحمده ، اللهم إنِّي أَستغفرك) ، يتأَول القرآن في هذه السورة[(٢)] وقال لها مرة : ما أَراه إلا حضور أَجلي ، وتأَوله عمر والعباس رضي الله عنهما بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم فصدقهما[(٣)] .

---

(١) أَخرجه سعيد بن منصور ، وابن سعد ، والبخاري ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي وأبو نعيم معاً في (الدلائل) ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : كان عمر يدخلني وأشياخ بدر ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : لِمَ تُدخل هذا النَّشْءَ معنا ولنا أبناءٌ مثله ؟ فقال : إنه مَنْ قد علمتم ، فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم ، وما رأيته دعاني يومئذ إلاَّ ليُريَهُم مني ، فقال : ما تقولون في قوله : (إذا جاءَ نَصْرُ اللّهِ والْفَتْحُ) ؟ حتى ختَم السورة . فقال بعضهم : أَمرنا الله أَن نحمده ونستغفره إذا جاءَ نصر الله وفتح علينا ، وقال بعضهم : لاندري، وبعضُهم لم يقل شيئاً ، فقال لي : يابن عباس ، أَكذلك تقول ؟ قلت : لا ، قال : فما تقول ؟ قلتُ : هو أَجَلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أَعلمه الله إذا جاءَ نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون ، والفتح فتح مكة ، وذلك علامة أَجلك ، فسبِّح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ، فقال عمر : ما أَعلم منها إلاَّ ما تعلم . (الدر المنثور) .
(٢) أَخرجه عبد الرزاق ، وأَحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وأَبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، عن عائشة رضي الله عنها . (الدر المنثور) .
(٣) ذكره القرطبي بدون سند ، قال : « وقيل : نزلت في منى بعد أيام التشريق في حجة الوداع ، فبكى عمر والعباس ، فقيل لهما : إن هذا يوم فرح ، فقالا : بل فيه نَعْي النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (صدقتما ، نعيت إلى نفسي) . » .

و « النَّصْرُ » الذي رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم غلبتُه لقريش وهوازن وغير ذلك ، و« الفَتْحُ » هو فتح مكة والطائف ومدن الحجاز وكثير من اليمَن ، و « دخولُ الناس في دين الله أفواجاً » ؛ كان من فتح مكة إلى موت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال أبو عُمر بن عبد البرِّ رحمه الله في كتابه « الاستيعاب في الصحابة » ، في باب أَبِي خراش الهذلى — : لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي العرب رجل كافر ، بل دخل الكلُّ في الإسلام بعد حُنَين والطائف ، منهم من قدِمَ ، ومنهم من قدم وافده ، ثم كان بعده صلى الله عليه وسلم من الرِّدَّة ما كان ، ورجعوا كلهم إلى الدين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والمرادُ — والله أعلم — العربُ عبدة الأَوثان ، وأما نصارى بني تغلب فما أَراهم أَسلموا قط في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن أَعطوا الجزية .

و « الأَفواج » : الجماعة إثر الجماعة ، وكما قال تعالى : (كُلَّمَا أُلْقِيَ فيها فوْجٌ)[1] . وقال مقاتل : المراد بـ « النَّاس » أهلُ اليمن ، وفد منهم سبعمائة رجل ، وقاله عكرمة ، وقال الجمهور : المراد جميع وفود العرب ؛ لأَنهم قالوا : إذ فتح الحرم لمحمد ، وقد حماه الله تعالى من

(١) من الآية (٨) من سورة (الـمُلْك) .

الحبشة وغيرهم ، فليس لكم به يدان . وذكر جابر بن عبد الله فُرْقة الصحابة فبكى ، وقال : سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلَّم يقول : (دخل الناسُ في الدين أَفواجاً وسيخرجون منه أَفواجاً) [١] .

وقوله تعالى : (إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً) بِعَقِب (واسْتَغْفِرْهُ) ترجيةٌ عظيمة للمستغفرين ، جعلنا الله تعالى منهم ، وحكى النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما أَن النَّصْرَ هو صلح الحُدَيْبية ، وأَن الفتح هو فتح مكة ، وقال ابن عمر : نزلت هذه السورة على النبي صلى الله عليه وسلم بمنى في وسط أَيام التشريق ، في حجة الوداع ، وعاش بعدها ثمانين يوماً أَو نحوها ، صلى الله عليه وسلم .

كمل تفسير سورة « النصر » والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه ابن مردويه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، وأَخرج مثله الحاكم — وصححه عن أَبي هريرة رضي الله عنه .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(١١١) سورة المسد مكية وآياتها خمس

تفسير سورة المسد *

وهي مكية بإجماع .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾

رُوي في الحديث أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت عليه (وَأَنْذِرْ عشيرتك الأَقْربين) قال : ياصفية بنت عبد المطلب ، يافاطمة بنت محمد ، لا أَملك لكما من الله شيئا ، سلاني من مالي ما شئتما ، ثم

(*) في الأصول : تفسير سورة (تَبَّتْ) ، وأثبتنا الاسم الموجود في المصحف الشريف .

صعد الصَّفا ونادى بطون قريش : يابني فلان ، يابني فلان ، وروي أنه صاح بأَعلى صوته : ياصباحاه ، فاجتمعوا إليــه من كلِّ وجه ، فقال لهم : أرَأَيتم لو قلت لكم : إنِّي أُنذركم خيلاً بسفح هذا الجبل ، أَكنتم مُصَدِّقي ؟ قالوا : نعم ، فقال : إنِّي لكم نذير بين يديْ عذاب شديد ، فقال أَبو لهب : تبًّالك اليوم : أَلهذا جمعتنا ؟ فافترقوا عنه ، ونزلت هذه السورة (١) .

و [تبَّتْ] معناه : خسِرتْ ، والتَّبابُ : الخُسران والدمار ، وأَسند ذلك إلى اليدين من حيث اليد موضع الكسب والربح وضمِّ ما يملك ، ثم أَوجب تعالى عليه أنه قد تبَّ ، أَيْ حُتِم ذلك عليه ، وفي قراءة عبد الله ابن مسعود : « تَبَّتْ يدا أَبي لَهَبٍ وقَدْ تبَّ » . وأَبو لهب هو عبد العُزَّى بن عبد المطلب ، وهو عم النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن سبقت له الشقاوة . وقرأ ابن كثير ، وابن محيصن : (أَبِي لهْبٍ) بسكون

(١) أخرجه سعيد بن منصور ، والبخاري ، ومسلم ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقي في (الدلائل) ، عن ابن عباس رضي الله عنهما . (الدر المنثور) ، زاد الحميدي وغيره : فلما سمعت امرأته ما نزل في زوجها وفيها من القرآن ، أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالسٌ في المسجد عند الكعبة ، ومعه أبو بكر رضي الله عنه ، وفي يدها فِهْرٌ من حجارة — حجرٌ مِلْءُ الكف — ، فلما وقفت عليه أخذ الله بصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا ترى إلاَّ أبا بكر ، فقالت : يا أبا بكر ، إن صاحبك قد بلغني أنه يهجوني ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهرفاه ، ثم أنشدت شعراً وانصرفت ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، أما تراها رأتك ؟ قال : ما رأتني ، لقد أخذ الله بصرها عني .

الهاءِ ، وقرأ الباقون بتحريك الهاءِ ، ولم يختلفوا في فتحها في (ذَاتَ لَهَبٍ) .

وقوله تعالى : (مَا أَغْنى عنْهُ مالُهُ وَمَا كسبَ) يحتمل أَن تكون [ما] نافية ، ويكون الكلام خبراً عن أَن جميع أَحواله الدنيوية لم تُغْن عنه شيئاً حين حُتم عذابُه بعد موته ، ويحتمل أَن تكون [ما] استفهاماً على وجه التقرير ، أَيْ : أَيْن الغناءُ الذي لَمِالِهِ ولِكسْبِهِ ؟ و (ما كسب) يُراد به عرض الدنيا من عقار ونحوه ، أَو ليكون الكلام دالاًّ على أَنه تعب في تكسُّبه ، لم يجئه عفواً بميراث وهبة ونحوه . وقال كثير من المفسرين : المراد بـ (ماكَسب) بنوه ، فكأَنه تعالى قال : ما أَغنى عنه ماله وولده ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (خير ما كسب الرجلُ من عمل يده ، وإِن ولد الرجل من كسبه) [(١)] . ورُوي أَن أَولاد أَبي لهب اختصموا عند ابن عباس رضي الله عنهما فتنازعوا وتدافعوا ، فقام ابن عباس يحجز بينهم فدفعه أَحدهم فوقع على فراشه ، وكان قد كُفَّ بصره ،

---

(١) أَخرج أَحمد في مسنده أن أَعرابياً أَتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن لي مالاً ووالداً وإن والدي يريد أن يجتاح مالي ، قال : (أنتَ ومالك لوالدك ، إن أولادكم من أطيب كسبكم ، فكلوا من كسب أولادكم) ، وأخرجه أَبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه .

وقد خرَّج أَبو داود عن عائشة رضي الله عنها أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إنَّ أَطيب ما أَكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه) .

فغضب وصاح : أَخرجوا عني الكسب الخبيث ، وقرأَ أُبيٌّ بن كعب ، والأَعمش : « وما اكْتَسَبَ » .

وقوله تعالى : (سَيصْلَى ناراً ذات لهبٍ) حَتْمٍ عليه بالنار ، وإِعلامٌ بأَنه يوافي على كفره ، وانتزع أَهل العلم بالأُصول من هذه الآية جواز تكليف مالا يطاق ، وأَنه موجود في قصة أَبي لهب ، وذلك أَنه مخاطب مكلَّف أَن يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ومكلَّف أَن يؤمن بهذه السورة وصحتها ، فكأَنه قد كلِّف أَن يُؤْمن ، وأَنْ يُؤْمِن بأَنه لا يُؤْمِن ، قال الأُصوليون : ومتى ورد تكليف مالا يطاق فهي أَمارة من الله تعالى أَنه قد حَتَم عذابه ، أَي عذاب ذلك المكلف ، لقصة أَبي لهب . وقرأَ الجمهور : [سَيَصْلى] بفتح الياءِ ، وقرأَ ابن كثير ، والحسن ، وابن مسعود بضمها .

وقوله تعالى : (وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحطبِ) ، هي أُمُّ جميل ، أُخت أَبي سفيان بن حرب ، عمة معاوية بن أَبي سفيان . وعطف قوله تعالى : (وَامْرَأَتُهُ) على الضمير المرفوع دون أَن يؤكد الضمير بسبب الحائل الذي ناب مناب التأْكيد ، وكانت أُمُّ جميل هذه مؤذيةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بلسانها وغاية قدرتها ، وقال ابن عباس : كانت تجيءُ بالشوك فتطرحه في طريق النبي صلى الله عليه وسلم وطريق أَصحابه ليعقرهم ، فبذلك سُمِّيت حمالة الحطب ، وعلى هذا

التأْويل فـ [حَمَّالة] معرفة يرادُ به الماضي . وقيل : إن قوله تعالى [حَمَّالَةَ الْحَطبِ] استعارة لذنوبها التي تَحْطِبُها على نفسها لآخرتها ، فـ [حَمَّالة] ـ على هذا ـ نكرةٌ يرادُ به الاستقبال ، وقيل : هي استعارة لسعيها على الدين والمؤمنين ، كما تقول : « فلان يحطب على فلان »[١] ، فكانت هي تحطب على المؤمنين ، وفي حبل المشركين ، وقال الشاعر :

إنَّ بَني الأَدْرَمِ حَمَّالوا الْحَطَبْ … هُمُ الْوُشَاةُ في الرِّضا وفي الْغَضَبْ[٢]

وقرأَ ابن مسعود : [وَمُرَيْئَتُهُ] . وقرأَ الجمهور : [حَمَّالَةُ] بالرفع[٣] ، وقرأَ عاصم : [حَمَّالَةَ] بالنصب على الذم ، وهي قراءة الحسن والأَعرج

---

(١) أي : يسعى به ويمشي بالنميمة بينه وبين الناس .

(٢) استشهد بهذين البيتين القرطبيُّ ، وصاحب البحر المحيط ، والشوكاني في فتح القدير ، وزاد بعضهم بيتاً ثالثاً بعدهما يقول :

عَلَيْهِمُ اللَّعْنَةُ تَتْرَى والْحَرَبْ

وبنو الأَدرم : حيٌّ من قريش ، وفي الصحاح أنهم قبيلة ، والحَرَبُ : نَهْب مال الإنسان كله وتركه بلا شيءٍ ، يصفهم الشاعر بأنهم وشاة نَمَّامون ، يمشون بالفساد بين الناس .

ومثل هذا قولُ الشاعر :

مِنَ الْبِيضِ لَمْ تُصْطَدْ عَلَى ظَهْرِ لأْمَةٍ … ولَمْ تَمْشِ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَطَبِ الرَّطْبِ

أي أنها لم تمش بالنمائم بين الناس ، وجعل الحطب رطباً ليدل على الدخان الذي هو زيادة في الشر ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : (لا يدخل الجنةَ نمام) ، وقال صلواتُ الله وسلامه عليه : (من شرِّ الناس ذو الوجهين : الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه) .

(٣) فهو خبر (وَامْرَأَتُهُ) .

وابن محيصن ، وقرأ ابن مسعود : « حَمَّالَةٌ لِلْحطبِ » بالرفع ولام الجر وقرأ أَبو قُلَابة : (حَامِلَةَ) بكسر الميم بعد الْأَلِفِ .

قوله تعالى : (في جيدِها حَبْلٌ مِنْ مسدٍ) ، قال ابن عباس ، والضحاك والسُّدي ، وابن زيد : الإشارة إلى الحبل حقيقة ، وهو الذي ربطت به الشوكَ وحَطبه ، قال السُّدي : والمَسدُ : اللِّيف ، وقيل : ليف الْمَقْلِ ، ذكره أَبو الفتح ، وقال ابن زيد : هو شجر باليمن يُسمَّى المسَد ، تصنع منه الحبال ، وقال النابغة :

مقذوفةٍ بِدخيسِ النَّحْضِ بازِلُها   لهُ صَريفٌ صَريفَ الْقَعْوِ بالْمَسَدِ (١)

القعْو : البكرة ، والمَسَد : الحبلُ . وقال عروة بن الزبير ، ومجاهد ، وغيرهما : هذا الكلام استعارة ، والمراد : سلسلةٌ من حديد في جهنم ، ذرْعها سبعون ذراعاً ، ونحو هذا من العبارات ، وقال قتادة : (حَبْلٌ منْ مسَدٍ) : قلادَةٌ من وَدَع ، قال ابن المسيب : كانت لها قلادة فاخرة فقالت : لأُنْفقنَّها على عداوة محمد .

(١) هذا البيت من دالية النابغة التي قالها يمدح النعمان بن المنذر ويعتذر إليه عما بلغه عنه في أمر المتجردة ، والبيت في وصف الناقة ، ومقذوفة ، مَرْميٌّ عليها ، على سبيل الاستعارة ، إذ استعار القذف لإعطاء الشيء ، والدَّخيس : الممتليء بالسِّمْن ، والنَّحْضُ : اللَّحْمُ ، والبازل : الذي كبر وظهرت أنيابه ، والصَّريف : الصوتُ القويُّ ، وانتصب (صريفَ) على المفعول المطلق ، والقَعْو — بفتح القاف وسكون العين — : بَكَرةُ السَّقي إذا كانت من الخشب ، والمَسَدُ : الحبلُ . ويروى (صريفٌ ، صريفُ القَعْو) بضم (صريف) الثانية ، وهذا على البدل من الأُولى .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فإنما عبرَّ عن قلادتها بحبل من مسدٍ على جهة التفاؤل لها ، وذكر تبرجها في هذا السعي الخبيث ، ورُوي في الحديث أن هذه السورة لمَّا نزلت وقرئت بلغت أُمَّ جميل ، فجاءت أبا بكر رضي الله عنه وهو مع النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد ، فقالت : ياأبا بكر ، بلغني أن صاحبك هجاني ، ولأفعلن ولأفعلن ، وإني لشاعرة ، وقد قلت فيه :

مُذَمَّماً قَلَيْنَا   وَدِينَهُ أَبيْنَا

فسكت أبو بكر ، ومضت هي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد حجبتني عنها ملائكة فما رأتني ، وكفى الله شرَّها[(١)] .

كمل تفسير سورة « المسد » والحمد لله رب العالمين

(١) سبق أن أشرنا إلى هذا في تخريج أول حديث في هذه السورة . وكانت قريش تسمي النبي صلى الله عليه وسلم مُذَمَّماً، يريدون بذلك سبَّه ، وكان صلىَّ الله عليه وسلم يقول : (ألا تعجبون لِماَ صرف الله عني من أذى قريش ؟ يسبُّون ويهجون مُذَمَّماً ، وأنا محمدٌ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(١١٢) سورة الإخلاص مكية وآياتها أربع

هذه السورة مكية ، قاله مجاهد ـ بخلاف عنه ـ وعطاءٌ وقتادة ، وقال ابن عباس ، والقرطبي ، وأبو العالية : هي مدنية .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ (١) ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ (٤) ﴾

قرأ عمر بن الخطاب ، وابن مسعود ، والربيع بن خيثم : « قلْ هُوَ اللهُ الواحدُ الصَّمدُ » ، وروى أُبيٌّ بن كعب أَن المشركين سأَلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نسب ربه ـ تعالى عما يقول الجاهلون ـ فنزلت هذه السورة[(١)] ، وروى ابن عباس أَن اليهود دخلوا على النبي صلى الله

(١) أَخرجه أَحمد ، والبخاري في تاريخه ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن خزَيمة ، وابن أَبي حاتم في السُّنة ، والبغوي في معجمه ، وابن المنذر في العظمة ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه . (الدرّ المنثور) .

عليه وسلم فقالوا له : يامحمد ، صفْ لنا ربك وانْسُبه ، فإنه وصف نفسه في التوراة ونسبها ، فارتعد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتَّى خرَّ مغشيا عليه ، ونزل عليه جبريل عليهما السلام بهذه السورة (١) ، وقال أَبو العالية وقال قتادة : قالت الأَحزاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم : انسب لنا ربك ، فأَتاه الوحي بهذه السورة (٢) .

و [أَحَدٌ] معناه : واحدٌ فردٌ من جميع جهات الوحدانية ليس كمثله شيءٌ ، و [هُوَ] ابتداءٌ ، و [اللهُ] ابتداءٌ ثان ، و [أَحَدٌ] خبره ، والجملة خبر الأَول ، وقيل : [هُو] ابتداءُ ، و[اللهُ] خبره ، و[أَحَدٌ] بدل منه ، وحذف أَبو عمرو التنوين من [أَحَد] لالتقاءِ الساكنين فقرأَ : (اللهُ أَحَدُ اللهُ) ، وأَثبته الباقون مكسوراً للالتقاءِ ، وأَمَّا وقفهم كلهم فبسكون الدال ، وقد رُوي عن أَبي عمرو الوصل بسكون الدال ، ورُوي عنه أَيضا تنوينها .

و « الصَّمدُ » في كلام العرب : السيِّد الذي يُصْمَدُ إِليه في الأُمور ويستقِلُّ بها ، وأَنشدوا :

---

(١) أخرجه ابن أَبي حاتم ، وابن عدي ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس رضي الله عنهما . (الدر المنثور) .

(٢) أما عن أَبي العالية فقد أَخرجه ابن الضريس وابن جرير ، وأما عن قتادة فقد أَخرجه عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر . (الدر المنثور) .

أَلاَ بَكَّرَ النَّاعي بِخيْرَيْ بَني أَسَدْ بعَمْرِو بنِ مَسْعودٍ وبِالسيِّد الصَّمَدْ[(١)]

وبهذا تتفسَّر هذه الآية ؛ لأَن الله تعالى جلَّت قدرتهُ هو مُوجِد الموجودات ، وإِليه تصمد ، وبه قوامها ، ولا غَنِيّ بنفسه إِلاَّ هو سبحانه تبارك وتعالى . وقال كثير من المفسرين : الصَّمَدُ : الذي لا جوف له ، كأَنه بمعنى : المُصْمَت ، وقال الشعبي : هو الذي لا يأْكل ولا يشرب . وفي هذا التفسير كلِّه نظر ؛ لأَن الجسم في غاية البعد عن الله تعالى وعن صفاته ، فما الذي يُعطينا هذه العبارات ؟ و (اللهُ الصَّمدُ) ابتداءٌ وخبر وقيل : [الصَّمَدُ] نعتٌ والخبرُ فيما بعد .

وقوله تعالى: (لَمْ يلِدْ ولَمْ يُولدْ) ردٌّ على إِشارة الكفار في النَّسب الذي سأَلوه ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « تفكَّروا في كل شيءٍ ، ولا تتفكروا في ذات الله عزَّ وجلَّ » .

---

(١) استشهد بهذا البيت أبو عبيدة في (مجاز القرآن) ، وصاحب اللسان في – صمد – ، والقرطبي ، والطبري ، والبحر المحيط ، وفتح القدير ، ولم ينسبه أحد منهم ، ولكن قال أبو عبيدة : قال الأَسدي ... والنَّاعي : الذي يأتي بخبر الميت ، والجمع : ناعون ونعاةٌ ، وبَكرَّ: جاءَ مبكراً وقبل الأوان . ويروى البيت : (بَخيْر بني أَسَد) ، والبيت شاهد على أن الصَّمَد هو السيِّد الذي يُقْصد ، وليس فوقه أَحدٌ ،وقد اختلفت أَقوال اللغويين في معناها ، ولكنهم جميعاً لم يخرجوا عن معنى السيادة والعلوِّ وعدم الحاجة لغيره ، والتناهي في السؤدد والشرف ، والكامل الذي لاعيب فيه ، قال الشاعر :

عَلَوْتُهُ بِحُسامٍ ثُمَّ قلتُ لَـهُ خُذها حُذَيْفَ فَأَنْتَ السيِّدُ الصَّمَدُ

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

لأَن الأَفهام تقف دون ذلك حسيرة ، والمؤمنون يعرفون الله تعالى بواجب وجوده ، وافتقار كل شيءٍ إليه ، واستغنائه عن كل شيءٍ ، وينفي العقل عنه كلَّ مالا يليق به عزَّ وجلَّ ، وأَنْ ليس كمثله شيءُ ، وكل ما ذكرته فهو في ضمن هذه السورة الوجيزة البليغة .

وقوله تعالى : (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْواً أَحَدٌ) معناه : ليس له ضِدٌّ ولا نِدٌّ ولا شبيه ، والكُفْؤ والكُفُؤ والكِفاءُ : النظير ، وقرأَ : [كُفُواً] ـ بضم الكاف وهمز مُسَهَّل ـ نافع ، والأَعرج ، وأَبو جعفر ، وشيبة . وقرأَ بالهمز عاصم[(١)] ، وأَبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ ، وقرأَ حمزة ، وأَبو عمرو : [كُفْؤاً] بالهمز وإسكان الفاءِ ، وروي عن نافع : [كُفاً] بفتح الفاءِ وبغير همز ، وقرأَ سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس : (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كِفَاءً) بكسر الكاف وفتح الفاءِ والمدِّ ، و [كُفُواً] خبر [كان] ، واسمها [أَحَدٌ] ، والظرف مُلغى ، وسيبويه رحمه الله تعالى يستحسن أَن يكون الظرف ـ إذا تقدم ـ خبراً ، ولكن قد يجيءُ مُلْغى في أَماكن يَقْتَضَيها المعنى كهذه الآية ، وكما قال الشاعر ـ أَنشده سيبويه ـ :

مادام فيهِنَّ فصيلٌ حَيَّـــا[(٢)]

---

(١) قال أَبو حيَّان الأندلسي في البحر المحيط : « وقرأَ حمزة وحفصٌ بضم الكاف وإسكان الفاءِ ، وهمز حمزة وأَبدلها حفصٌ واواً » .

(٢) هذا الشعر لابْن ميَّادة ،وهو في الكتاب لسيبويه ،والخزانة للبغدادي، واستشهد به =

ويحتمل أن يكون [كُفُواً] حالٌ لما تقدم من كونه وصفاً لنكرة ، كما قال :

لِعَزَّةَ مُوحِشاً طَـــلَلُ (١) . . . .

= صاحب اللسان مرتين في (جلذ) وفي (هيا) . وذكر سيبويه معه بيتين آخرين هكذا :

لَتَقْرُبِنَّ قَـرَبـاً جُلْـذِيّـا ما دامَ فيهنَّ فَصيلٌ حَيّـاً

فَقَدْ دَجَـا اللَّيْلُ فهَيّاً هَيّاً

والخطاب لِنَاقَتِهِ ،ولَتَقْرُبِنَّ : لَتَسيرنَّ الليلَ لورود الغَدِ ،والجُلْذيُّ : السريع ،أي : لَتَسيرنَّ سيراً سريعاً ،وقيل : جُلْذَيّا هو مرخم جُلْذِيَّة ، وهو اسم ناقة الشاعر التي يتحدث إليها ، وقوله : « فيهنَّ » يعني في الإبل التي تسيرين معها ، ولم يجر لها ذكر ، والفصيل : ولَدُ الناقة ، ودَجَا الليلُ : أَظْلَم ، وهَيّاً هيا : زَجْرٌ لها وتصويت بهذا الزَّجْر ، ويُنْطق بفتح الهاءِ وبكسرها ، يقول لناقته : أسرعي وسيري مع الإبل حتى نصل ، وأنا لا أعذرك مادام في الإبل فصيل يطيق السَّيْر ، والشاهد هو تقدم « فِيهِنَّ » ، وكان المفروض أن يكون خبراً ولكنه أُلغي .

(١) هذا صدر بيت يستشهد به النحاة على أن الحال تتقدم على صاحبها إذا كان نكرة ، والبيت بتمامه :

لِعَـزَّةَ مُوحِشـاً طَـلَلُ يَلُوحُ كأنَّـهُ خِـلَلُ

والبيت بهذه الرواية (لِعَزَّةَ) لِكُثَيِّر عزَّة ، وقد رواه بها أبو عليٍّ في التذكرة القصرية ، ومن رواه (لِمَيَّةَ مُوحشاً) قال : إنه لذي الرُّمَّة ،فإن (مَيَّة) اسم محبوبة ذي الرُّمَّة ،و (عَزَّة) اسم محبوبة كُثَيِّر ، والخِلَلُ بكسر الخاءِ : جمع خلة ، والخِلَل : بطائن تُغشّى بها أجفان السيوف وهي منقوشة بالذهب وغيره . والطَّلَلُ : ما شَخَص من آثار الديار ، والموحش : الخالي من قولهم : « أَوْحَشَ المنزلُ » إذا ذهب عنه الناسُ وصار ذا وحشة ، أي خَلْوة وهمٍّ .

والحال التي تقدمت هنا هي (مُوحِشاً) ، وصاحبُها (طَلَلٌ) ، وقال بعض النحويين : يجوز أن يكون (مُوحشاً) حال من الضمير في (عَزَّة) وهي معرفة ، وجعل الحال من المعرفة أولى من جعله من النكرة متقدماً عليها .

هذا ويروى البيت برواية أُخرى ، وهي :

لِـعَزَّةَ مُوحِشاً طَـلَلٌ قَـديمُ عَـفاهُ كُلُّ أَسْحَمَ مُسْتَديمُ

وعَفَاه بمعنى : غيَّرَهُ وأذهبه ، والأَسحم : الأسود ، والمراد به السحاب ، والمستديم : الدائم مدة طويلة .

قال سيبويه : وهذا يقلُّ في الكلام ، وبابه الشعر ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنَّ (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) تعدلُ ثلث القرآن)[1] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

لما فيها من التوحيد .

كمل تفسير سورة « الإخلاص والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه أبو عبيد في فضائله عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وأخرج أبو عبيد ، وأحمد في فضائله ، والنسائي في اليوم والليلة ، وابن منيع ، ومحمد بن نصر ، وابن مردويه ، والضياء في المختارة ، عن أُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من قرأ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) فكأنمَّا قرأ ثلث القرآن) . وأخرج ابن الضريس والبزار ، والبيهقي في شعب الإيمان، عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من قرأ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) مائتي مرة غفر له ذنوب مائتي سنة) . وأخرج أحمد ، والترمذي ، وابن الضريس والبيهقي في سننه ، عن أنس رضي الله عنه قال : جاء رجلٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إني أُحبُّ هذه السورة (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (حُبُّكَ إياهَا أدخلك الجنة) . والأحاديث في فضل هذه السورة كثيرة متعددة .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أَجمعين

(١١٣) سورة الفلق مكية
وآياتها خمس

تفسير سورة الفلق *

هذه السورة قال ابن عباس : هي مدنية ، وقال قتادة : هي مكية .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا
وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾

الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد هو وآحاد أُمته .

وقال ابن عباس ، وابن جبير ، والحسن ، والقرطبي ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : « الفَلَقُ » : الصبح ، كقوله تعالى : (فالِقُ الإِصْباحِ) [1] ،

* في الأصول : « تفسير سورة المُعَوِّذَةُ الأولى » ، واخترنا الاسم المشهور والمثبت في المصحف الشريف .

(١) من الآية (٩٦) من سورة (الأنعام) .

وقال ابن عباس أَيضا وجماعة من الصحابة والتابعين : الفلَقُ : جُبٌّ في جهنم ، ورواه أَبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم (١) .

وقوله تعالى : (مِنْ شَرِّ ما خَلقَ) يعمُّ كلَّ موجود له شرٌّ . وقرأ عمرو ابن عبيد وبعض المعتزلة القائلين بأَن الله تعالى لم يخلق الشَّرَّ : « مِنْ شرٍّ » بالتنوين « ما خَلَقَ » على النفي ، وهذه قراءة مردودة ، مبنية على مذهب باطل ، فالله تعالى خالق كل شيءٍ .

واختلف الناسُ في « الغاسِقِ إذا وقب » ـ فقال ابن عباس ، ومجاهد والحسن : الغاسق : الليل ، ووَقبَ : أَظلم ودخل على الناس ، وقال الشاعر :

إنَّ هَذا اللَّيْلَ قَدْ غَسَقَا وشَكَوْتُ الْهَمَّ والْأَرَقَا (٢)

وقال محمد بن كعب : [غاسِق] : النهارُ (إذا وقَب) أيْ دخل في الليل ، وقال ابن زيد عن العرب : الغاسق : سقوط الثُّريَّا ، وكانت

(١) أخرجه ابن جرير ، عن محمد بن كعب القرظي ، عن أَبي هريرة ، وقال الإمام ابن كثير عنه : « ورد في ذلك حديث مرفوع منكر ، إسناده غريب ، ولا يصحُّ رفعه » . وقال ابن جرير في تفسيره : والصواب القول الأول : إنه فَلَقُ الصبح ، وقال ابن كثير : وهذا هو الصحيح ، وهو اختيار البخاري في صحيحه .

(٢) هذا البيت لابن قيس الرُّقَيات ، وهو في اللسان ، والقرطبي ، وغَسَقَ الليلُ : انْصَبَّ وأَظْلَمَ .

الأَسقام والطاعون تهيج عنده(١) ، وقال عليه الصلاة والسلام : (النجمُ هو الغاسق)(٢) ، فيحتمل أَن يريد الثُّريَّا ، وقال عليه السلام لعائشة رضي الله عنها – وقد نظر إلى القمر – : (تعوذي بالله مِنْ شرِّ غاسق إذا وقب ، فهذا هو)(٣) ، وقال القتبي وغيره : هو البَدْرُ إذا دخل في ساهوره فخسف(٤) ، وقال الزهري : الغاسق إذا وقب : الشمس إذا غربت ، و « وقب » في كلام العرب : دخل (........)(٥) .

و « النَّفَّاثات في العُقَد » : السواحر ، ويقال : إن الإشارة أَولا إلى بنات لبيد بن الأَعصم اليهودي ، كُنَّ ساحرات ، وهنَّ اللواتي سحرن

---

(١) أي عند سقوط الثريا .

(٢) أَخرجه ابن جرير ، عن أَبي هريرة ، وقال ابن كثير عن هذا الحديث : « قلت : وهذا الحديث لايصح رفعُه إلى النبي صلى الله عليه وسلم » .

(٣) رواه الإمام أَحمد ، عن الحارث بن أَبي سلمة ، ورواه الترمذي والنسائي في كتابَي التفسير من سننيهما من حديث عبد الرحمن بن أَبي ذئب ، عن خاله الحارث بن عبد الرحمن ، وقال الترمذي : « حديث حسن صحيح » ولفظه : (تعوذي بالله من شر هذا ، فإن هذا الغَاسقُ إذا وقب) ، ولفظ النسائي : (تعوذي بالله من شرِّ هذا ، هذا الغاسق إذا وقب) ، كذلك أَخرجه ابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ في العظمة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه . عن عائشة رضي الله عنها .

(٤) الساهورُ : دارةُ القمر .

(٥) تركنا هنا سطرين من الأصول لأن ما فيهما لا يتفق مع جلال هذا الكتاب .

النبي صلى الله عليه وسلم ، وعقدن له إحدى عشرة عقدة ، فأَنزل الله تعالى إحدى عشرة آية بعدد العقد هي المعوّذتان ، فشفي النبي صلى الله عليه وسلم [1] ، و « النَّفْث » : شبه النفخ دون تفل ريق ، وهذا النَّفث هو على عُقَد تُعقد في خيوط ونحوها على اسم المسحور فيُؤْذى بذلك ، وهذا الشأْن في زماننا موجود شائع في صحراءِ المغرب ، وحدثني ثقة أَنه رأَى عند بعضهم خيطا أَحمر قد عُقدت فيه عقد على فُصْلان ، فمنعت بذلك رضاعَ أُمهاتها ، فكان إذا حلَّ عقدة جرى ذلك الفصيل إلى أُمه في الحين فرضع ، أَعاذنا الله تعالى من شرِّ السحر بقدرته. وقرأَ عبد الله بن القاسم ، والحسن ، وابن عمر : [النافثات] .

وقوله تعالى : (ومِنْ شرِّ حاسد إذا حَسد) ، قال قتادة : من شرِّ عينه ونفسه ، يريدالسعي الخبيث والإذاية كيف قدر ؛ لأَنه عدوٌّ مجدٌّ ممتحن ، وقال الشاعر :

---

(١) روى البخاري في كتاب الطبِّ من صحيحه ، عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم سُحر ، حتى كان يرى أنه يأتي النساءَ ولا يأتيهن) وهو حديث طويل ... جاءَ في آخره (فقال : أَمَّا الله فقد شفاني ...) ، ورواه مسلم من حديث أَبي أُسامة وعبد الله بن نمير ، ورواه أَحمد عن عفان ، عن وهب ، عن هشام ، ورواه أَحمد أَيضاً عن إبراهيم ابن خالد ، عن معمر ، عن هشام ، عن أَبيه ، عن عائشة رضي الله عنها .

كلُّ العَدَاوَةِ قَدْ تُرْجَى إماتتهُـــــا ... إلاَّ عَداوَة مَنْ عَادَاكَ مِنْ حَسَدِ (١)

وعين الحاسد في الغالب لاقفهُ ، نعوذ بالله عزَّ وجلَّ من شرِّها ، قال الشاعر :

وَإذا أَرادَ اللهُ نَشْرَ فَضيلَـــــةٍ ... طُوِيَتْ أَتاح لها لِسَان حسُودِ (٢)

والحَسَد في الاثنتين اللَّتين قال رسول الله صلى الله عليه وسلَّمَ حسدٌ مُسْتحسن غير ضار ، وإنما هو باعث على خير (٣) .

وهذه السورة خمس آيات ، فقال بعض الحذَّاق هي مرادُ الناس

---

(١) بيت مشهور ، ذكره ابن قتيبة في كتاب الطبائع من (عيون الأخبار) ، ولم ينسبه .

(٢) قال هذا البيت حبيب بن أوس الطائي – أبو تمام – من قصيدة يمدح بها عبد الله بن أبي دؤاد ، وهو من الأمثال السائرة مع بيت آخر بعده يقول فيه :

لَوْلاَ اشْتِعالُ النَّارِ فيمَا جـاوَرَتْ ... ما كانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ الْعُودِ

فالحسود يذيع أمجاد المحسود بين الناس، وينشر أخباره وفضائله ،وإن نار الحسد تنشر عَرف الأخلاق كما تنشر النار الحقيقية عَرف العود الطيب . وبمثل هذه الآراء في شعره قيل عن أبي تمام إنه حكيم .

(٣) الحديث الذي يشير إليه هو قوله صلى الله عليه وسلم : (لا حسد إلاَّ في اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناءَ الليل والنهار ، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه في الحق آناءَ الليل والنهار) ، أخرجه البخاري في العلم والزكاة والأحكام والتمني والاعتصام والتوحيد ، وأخرجه أحمد في مسنده (٩/٢ ، ٣٦) ، واللفظ له .

بقولهم للحاسد إذا نظر إليهم : الخمس على عينيك وقد غلطت العامة في هذا فيشيرون بالأَصابع لكونها خمسة .

وأَمال أَبو عمرو [حاسِد] ، والباقون يفتحون الحاءَ ، وقال الحسن ابن الفضل : ذكر الله تعالى الشرور في هذه السورة ثم ختمها بالحسد ليظهر أَنه أَخسُّ طبع .

كمل تفسير سورة « الفلق » والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(١١٤) سورة الناس مكية
وآياتها ست

تفسير سورة الناس *

قال ابن عباس وغيره : هي مدنية ، وقال قتادة : هي مكية .

قوله عز وجل :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾

« الوَسْوَاس » اسم من أسماء الشيطان [١] ، وهو أيضاً ما تُوَسْوِس به

* في الأصول « تفسير سورة المُعَوِّذة الثانية » ،واخترنا الاسم المشهور والمثبت في المصحف .

(١) الوَسْواسُ – بفتح الواو – بمعنى الاسم ، أيَ المُوَسْوِس ، وبكسر الواو المصدر ، يعني الوسوسة ، مثل الزَّلْزال والزِّلزال ، والوسوسة هي حديث النفس .

شهوات النفس وتُسَوِّله [(١)] ، وذلك هو الهوى الذى نُهي المرءُ عن اتِّباعه ، وأُمر بمعصيته ، والغضب الذي وصى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بطَرْحه وتَرْكه حين قال له رجلٌ : أَوصني ، فقال : (لا تغضب) ، قال : زدني ، قال : (لا تغضب) [(٢)] .

وقوله تعالى : [الْخنَّاس] معناه : الراجع على عقبه ، المستتر أَحيانا ، وذلك في الشيطان متمكن [(٣)] إذا ذَكَر العبدُ الله تعالى وتعَوَّذَ ، وتَذَكَّر فأَبصر ، كما قال تعالى : (إِنَّ الَّذينَ اتَّقَوْا إِذا مسَّهُمْ طائِفٌ مِن الشَّيْطان تذكَّروا فإذا هُمْ مُبْصِرُون) [(٤)] ، وإذا فرضنا ذلك في الشهوات والغضب ونحوهما فَهو يَخْنِس بتذكُّر النفس اللَّوَّامَة ، وبلَمَّةِ الملَك ، وبأَن الحياءَ يردعُ والإِيمان يردع بقوة ، فتَخْنِسُ تلك العوارضُ المتحركة ، وتنقمع عند من أُعين بتوفيق الله ، وقد اندرج هذان المعنيان من الوسْواس في قوله تعالى : (مِن الْجنَّةِ والناسِ) ، أَي من الشياطين ونفس الإِنسان .

ويظهر أَيضاً أَن يكون قوله تعالى : [والنَّاسِ] يُراد به من يوسوس بخدعة من البشر ، ويدعو إلى الباطل ، فهو في ذلك كالشيطان .

---

(١) سوَّلَتْ له نفسُه : زَيَّنَتْ لَهُ ، وسَوَّل له الشيطانُ : أَغواهُ .

(٢) أَخرجه البخاري في الأدب ، والترمذي في البر ، ومالك في « حسن الخلق » من موطئه ، وأَحمد في مسنده (٣٦٢/٢) عن أَبي هريرة .

(٣) في بعض النسخ : « وذلك في الشيطان ينكص » .

(٤) من الآية (٢٠١) من سورة (الأعراف) .

وكلهم قرأ : [النَّاس] غير مُمالة ، وروى الدوري عن الكسائي أنه أَمال النون من [النَّاس] في حال الخفض ، ولا يُميل في الرفع والنصب .

وقالت عائشة رضي الله عنها : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أَوى إلى فِراشِهِ جمع كفَّيه ونفث فيهما ، وقرأ : « قُلْ هُو اللَّهُ أَحدٌ ، والْمُعَوِّذَيْن » ، ثم مسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأُ برأسه ووجهه وما أَقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاثاً)[1] . وقال قتادة رحمه الله تعالى : إنَّ من الناس شياطين ، ومن الجن شياطين ، فتعوذوا بالله عزَّ وجلَّ من شياطين الإنس والجن .

كمل تفسير سورة « الناس » والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه البخاريُّ في (فضائل القرآن) ، وأبو داود في (الأدب) ، والترمذي في (الدعاء) ، وأحمد في مسنده (٦/١١٦) ، عن عروة بن الزبير ، عن عائشة رضي الله عنها .

بسم الله الرحمن الرحيم

خاتمـــة

الحمد للّه حمد الشاكرين ، والصلاةُ والسلام على سيِّد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعــــــد ، ،

فقد بدأ هذا العمل الجليل في غُرَّة المحرم منذ أربعة عشر عاماً وبفضل من الله ورعـايته وصلنا إلى نهاية الطريق ، بعد أن عشنا في رحاب القرآن الكريم هذا الزمن الطويل ، نقطف من ثماره ، وننعم بظِلاله ، ونرتوي من رحيقه العذب النمير ، وكان فضـل الله عظيما ، فقـد وفَّق وهـدى ، وسدَّد الخطى ، ويسَّر كل عسير ، وذلَّل كل صعب ، حتى تمت نعمته ، وانتهت الرحلة الطويلة على خير ما نحب ونرضى .

لقد كان هذا العمل الكبير فوق طاقتي ، وأكبر من جهدي ومعرفتي ، لكن إيماني بالله ، وثقتي في توفيقه وتأييده ، كانا أكبر حافز لي على العمل ، ويعلم الله كم لاقيت من الصعـاب ، وكم عانيت من المشكـلات ، لكني في كل وقت كنت ألجـأُ إلى الله وأَستعينه ، فأرى الصعاب تزول ، والمشكلات تجد طريقها إلى الحلّ ، فأتوجَّه إلى الله سبحانه بالحمد والشكر ، وأَعود إلى العمل بِعَزم جديد .

ولم أكن وحدي - علم الله - في هذا العمل ، فقد ساعدني كثير من الفضلاء ، أذكرهم جميعاً بالتقدير والثناء ، وأحمد لهم ما قدموه من عون صادق مخلص .

اللهم يا ذا الفضل والإنعام ، أسألك الرحمة والغفران ، والتجاوز عن سيئاتي ، وأن تتقبل مني هذا العمل بالرضى ، وأن تجعله في ميزان حسناتي ، وأن تلطف بي فيما بقي من عمري ، إنك سميع قريب مجيب .

سبحان ربك ربِّ العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله ربِّ العالمين ،

السيد عبد العال السيد

القاهرة في ٢٤ من جمادي الأولى ١٤١٢

٣٠ من نوفمبر ١٩٩١

فهرس الآيات

الآيـــة	رقم الصفحة
تفسـير سـورة (الملك)	١
قوله عزَّ وجلَّ : (تبارك الذي بيده المُلك وهو على كل شيء قدير) إلى آخر الآية ٤	٢
قوله عزَّ وجلَّ : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير) إلى آخر الآية ٩	٧
قوله عزَّ وجلَّ : (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) إلى آخر الآية ١٥	١١
قوله عزَّ وجلَّ : (ءَأمنتم من في السماء أن يخسِف بكم الأرض فإذا هي تمور) إلى آخر الآية ٢٠	١٤
قوله عزَّ وجلَّ : (أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور) إلى آخر الآية ٢٥	١٧
قوله عزَّ وجلَّ : (قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين) إلى آخر الآية ٣٠	٢١
تفسـير سـورة (القلـم)	٢٤
قوله عزَّ وجلَّ : (ن والقلم وما يسطرون) إلى آخر الآية ١١	٢٤
قوله عزَّ وجلَّ : (مناع للخير معتد أثيم) إلى آخر الآية ٢٠	٣٢
قوله عزَّ وجلَّ : (فتنادوا مصبحين) إلى آخر الآية ٢٩	٤٠
قوله عزَّ وجلَّ : (فأقبل بعضهم على بعض يتلومون) إلى آخر الآية ٣٨	٤٣
قوله عزَّ وجلَّ : (أم لكم أيمان علينا بالغه إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون) إلى آخر الآية ٤٥	٤٥

الآيــة	رقم الصفحة

قوله عزّ وجلّ : (أم تسئلهم أجرا فهم من مغرم مثقلون) إلى آخر الآية ٥٢ .... ٥٣

تفسـير سورة (الحاقة) ٥٨

قوله عزَّ وجلَّ : (الحاقة . ما الحاقة .) إلى آخر الآية ٨ .... ٥٩

قوله عزَّ وجلَّ : (وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة) إلى آخر الآية ١٧ .... ٦٤

قوله عزَّ وجلَّ : (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) إلى آخر الآية ٢٩ .... ٧١

قوله عزَّ وجلَّ : (خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه) إلى آخر الآية ٤٠ .... ٧٥

قوله عزَّ وجلَّ : (وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون) إلى آخر الآية ٥٢ .... ٧٩

تفسـير سـورة (المعارج) ٨٤

قوله عزَّ وجلَّ : (سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع)
إلى آخر الآية ١٠ .... ٨٤

قوله عزَّ وجلَّ : (يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه) إلى آخر الآية ٢٣ .... ٩٣

قوله عزَّ وجلَّ : (والذين في أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم .)
إلى آخر الآية ٣١ .... ٩٨

قوله عزَّ وجلَّ : (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون)
إلى آخر الآية ٣٩ .... ١٠٢

قوله عزَّ وجلَّ : (فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون) إلى آخر الآية ٤٤ .... ١٠٧

تفسـير سـورة (نـوح) ١١١

قوله عزَّ وجلَّ : (إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه ءَأن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب
أليم) إلى آخر الآية ٤ .... ١١١

قوله عزَّ وجلَّ : (قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً) إلى آخر الآية ١١ .... ١١٤

الآيـــة	رقم الصفحة

قوله عزَّ وجلَّ : (ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً)
إلى آخر الآية ٢٠ .... ١١٦

قوله عزَّ وجلَّ : (قال نوح رب إنهم عصوني وأتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا)
إلى آخر الآية ٢٥ .... ١٢٠

قوله عزَّ وجلَّ : (وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً)
إلى نهاية الآية ٢٨ .... ١٢٤

تفسير سورة (الجن) ١٢٧

قوله عزَّ وجلَّ : (قل أوحى إلى أنه أستمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرءانا عجبا)
إلى نهاية الآية ٥ .... ١٢٧

قوله عزَّ وجلَّ : (وأنه كان رجال من الأنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً)
إلى آخر الآية ١٠ .... ١٣٤

قوله عزَّ وجلَّ : (وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا)
إلى آخر الآية ١٥ .... ١٤٠

قوله عزَّ وجلَّ : (وألو آستقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا)
إلى آخر الآية ٢٢ .... ١٤٣

قوله عزَّ وجلَّ : (إلا بلاغا من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم
خالدين فيها أبدا) إلى آخر الآية ٢٨ .... ١٤٩

تفسير سورة (المزمل) ١٥٢

قوله عزَّ وجلَّ : (يا أيها المزمل . قم الليل إلا قليلاً .) إلى آخر الآية ١٠ .... ١٥٢

قوله عزَّ وجلَّ : (وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا) إلى آخر الآية ١٨ .... ١٦١

الآيـــة	رقـم الصفحة
قوله عزَّ وجلَّ : (إن هذه تذكرة فمن شاء أتخذ إلى ربه سبيلاً) إلى آخر الآية ٢٠	١٦٥
تفسير سورة (المدثر)	١٧١
قوله عزَّ وجلَّ : (يا أيها المدثر . قم فأنذر) إلى آخر الآية ١٠	١٧١
قوله عزَّ وجلَّ : (ذرني ومن خلقت وحيداً . وجعلت له مالا ممدوداً) إلى آخر الآية ٢٥	١٧٩
قوله عزَّ وجلَّ : (سأصليه سقر . وما أدراك ما سقر) إلى قوله تعالى (ماذا أراد الله بهذا مثلا)	١٨٤
قوله عزَّ وجلَّ : (كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرىٰ للبشر) إلى آخر الآية ٤٢	١٨٨
قوله عزَّ وجلَّ : (قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين) إلى آخر الآية ٥٦	١٩٦
تفسير سورة (القيامة)	٢٠٣
قوله عزَّ وجلَّ : (لا أقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة) إلى آخر الآية ١٥	٢٠٤
قوله عزَّ وجلَّ : (لا تحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرءَانه) إلى آخر الآية ٣٠	٢١٤
قوله عزَّ وجلَّ : (فلا صدق ولا صلى . ولكن كذب وتولىٰ) إلى آخر الآية ٤٠	٢٢٣
تفسير سورة (الانسان)	٢٢٩
قوله عزَّ وجلَّ : (هل آتىٰ على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) إلى آخر الآية ٦	٢٣٠
قوله عزَّ وجلَّ : (يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً) إلى آخر الآية ١٣	٢٣٦

الآيـــة	رقـم الصفحة

قوله عزَّ وجلَّ : (ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا) إلى آخر الآية ٢٠ ...... ٢٤٢

قوله عزَّ وجلَّ : (عـليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً) إلى آخر الآية ٢٦ .... ٢٤٨

قوله عزَّ وجلَّ : (إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلا) إلى آخر الآية ٣١ .... ٢٥٢

تفسـير سـورة (المرسلات) ٢٥٦

قوله عزَّ وجلَّ : (والمرسلات عرفاً . فالعاصفات عصفاً) إلى آخر الآية ١٥ .... ٢٥٧

قوله عزَّ وجلَّ : (ألم نهلك الأولين . ثم نتبعهم الآخرين . كذلك نفعل بالمجرمين) إلى آخر الآية ٢٨ .... ٢٦٣

قوله عزَّ وجلَّ : (انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون . انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعبٍ) إلى آخر الآية ٤٠ .... ٢٦٧

قوله عزَّ وجلَّ : (إن المتقين في ظلالٍ وعيون . وفواكه مما يشتهون) إلى آخر الآية ٥٠ .... ٢٧١

تفسـير سـورة (النبـأ) ٢٧٥

قوله عزَّ وجلَّ : (عم يتساءلون . عن النبإ العظيم . الذي هم فيه مختلفون) إلى آخر الآية ١٦ .... ٢٧٥

قوله عزَّ وجلَّ : (إن يوم الفصل كان ميقاتاً . يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً) إلى آخر الآية ٢٣ .... ٢٨١

قوله عزَّ وجلَّ : (لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً . إلا حميماً وغساقاً) إلى آخر الآية ٣٧ ٢٨٧

قوله عزَّ وجلَّ : (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) إلى آخر الآية ٤٠ .... ٢٩٤

الآيــة	رقـم الصفحة

تفسـير سـورة (النازعات) ٢٩٧

قوله عزَّ وجلَّ : (والنازعات غرقاً . والناشطات نشطاً . والسابحاتِ سبحاً)
إلى آخر الآية ١١ .... ٢٩٧

قوله عزَّ وجلَّ : (قالوا تلك إذاً كرةٌ خاسرةٌ . فإنما هي زجرة واحدة)
إلى آخر الآية ٢٤ .... ٣٠٤

قوله عزَّ وجلَّ : (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . إن في ذلك لعبرة لمن يخشى)
إلى آخر الآية ٣٦ .... ٣٠٨

قوله عزَّ وجلَّ : (فأما من طغىٰ . وءاثر الحيوٰة الدنيا . فإن الجحيم هي المأوى)
إلى آخر الآية ٤٦ .... ٣١١

تفسـير سـورة (عبـس) ٣١٤

قوله عزَّ وجلَّ : (عبس وتولى . أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكىٰ)
إلى آخر الآية ١٧ .... ٣١٦

قوله عزَّ وجلَّ : (من أي شيء خلقه . من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره)
إلى آخر الآية ٣٢ .... ٣٢٢

قوله عزَّ وجلَّ : (فإذا جاءت الساعة . يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصـٰحبته وبنيه)
إلى آخر الآية ٤٢ .... ٣٢٦

تفسـير سـورة (التكوير) ٣٣٠

قوله عزَّ وجلَّ : (إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت . وإذا الجبال سيرت)
إلى آخر الآية ١٤ .... ٣٣٠

قوله عزَّ وجلَّ : (فلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس . والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس)
إلى آخر الآية ٢٩ .... ٣٣٨

الآيــة	رقـم الصفحة
تفسـير سـورة (الانفطـار)	٣٤٥
قوله عزَّ وجلَّ : (إذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب انتثرت . وإذا البحار فجرت) إلى آخر الآية ١٢	٣٤٥
قوله عزَّ وجلَّ : (إن الأبرار لفى نعيم . وإن الفجار لفى جحيم . يصلونها يوم الدين) إلى آخر الآية ١٩	٣٤٩
تفسـير سـورة (المطففين)	٣٥١
قوله عزَّ وجلَّ : (ويل للمطففين . الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون) إلى آخر الآية ٦	٣٥٢
قوله عزَّ وجلَّ : (كلا إن كتاب الفجار لفي سجين وما أدراك ما سجين . كتاب مرقوم) إلى آخر الآية ١٧	٣٥٧
قوله عزَّ وجلَّ : (كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين . وما أدراك ما عليون) إلى آخر الآية ٢٩	٣٦٢
قوله عزَّ وجلَّ : (وإذا مروا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين) إلى آخر الآية ٣٦	٣٦٨
تفسـير سـورة (الانشقاق)	٣٧٠
قوله عزَّ وجلَّ : (إذا السماء انشقت . وأذنت لربها وحقت) إلى آخر الآية ١٥	٣٧٠
قوله عزَّ وجلَّ : (فلا أقسم بالشفق . والليل وما وسق . والقمر إذا اتسق) إلى آخر الآية ٢٥	٣٧٨
تفسـير سـورة (البـروج)	٣٨٣
قوله عزَّ وجلَّ : (والسماء ذات البروج . واليوم الموعود . وشاهد ومشهود) إلى آخر الآية ٩	٣٨٣

الآيـــة	رقم الصفحة

قوله عزَّ وجلَّ : (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق) إلى آخر الآية ١٦ .... ٣٩٠

قوله عزَّ وجلَّ : (هل أتاك حديث الجنود . فرعون وثمود) إلى آخر الآية ٢٢ .... ٣٩٢

تفسير سورة (الطارق) ٣٩٤

قوله عزَّ وجلَّ : (والسماء والطارق . وما أدراك ما الطارق) إلى آخر الآية ١٠ .... ٣٩٤

قوله عزَّ وجلَّ : (والسماء ذات الرجع . والأرض ذات الصدع) إلى آخر الآية ١٧ .... ٤٠٢

تفسير سورة (الأعلى) ٤٠٥

قوله عزَّ وجلَّ : (سبح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوىٰ) إلى آخر الآية ١٣ .... ٤٠٥

قوله عزَّ وجلَّ : (قد أفلح من تزكىٰ . وذكر اسم ربه فصلىٰ) إلى آخر الآية ١٩ .... ٤١٣

تفسير سورة (الغاشية) ٤١٧

قوله عزَّ وجلَّ : (هل أتاك حديث الغاشية . وجوه يومئذ خاشعة) إلى آخر الآية ١١ .... ٤١٧

قوله عزَّ وجلَّ : (فيها عين جارية . فيها سررٌ مرفوعة) إلى آخر الآية ٢٦ .... ٤٢٤

تفسير سورة (الفجر) ٤٣٠

قوله عزَّ وجلَّ : (والفجر وليال عشر . والشفع والوتر) إلى آخر الآية ١٤ .... ٤٣٠

قوله عزَّ وجلَّ : (فأما الإنسان إذا ما إبتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن) إلى آخر الآية ٢٢ .... ٤٤١

قوله عزَّ وجلَّ : (وجاْئ يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرىٰ) إلى آخر الآية ٣٠ .... ٤٤٦

الآيـــة	رقم الصفحة

تفسـير سـورة (البلد) ٤٥٣

قوله عزَّ وجلَّ : (لا أقسم بهذا البلد . وأنت حل بهذا البلد) إلى آخر الآية ١٠ . . . . . ٤٥٣

قوله عزَّ وجلَّ : (فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة) إلى آخر الآية ٢٠ . . . . ٤٥٩

تفسـير سـورة (الشمس) ٤٦٨

قوله عزَّ وجلَّ : (والشمس وضحٰها . والقمر إذا تلاها) إلى آخر الآية ١٥ . . . . ٤٦٨

تفسـير سـورة (الليل) ٤٧٦

قوله عزَّ وجلَّ : (والليل إذا يغشىٰ . والنهار إذا تجلىٰ) إلى آخر الآية ٢١ . . . . ٤٧٦

تفسـير سـورة (الضحى) ٤٨٦

قوله عزَّ وجلَّ : (والضحىٰ . والليل إذا سجىٰ . ما ودعك ربك وما قلىٰ)
إلى آخر الآية ١١ . . . . ٤٨٦

تفسـير سـورة (الشرح) ٤٩٤

قوله عزَّ وجلَّ : (ألم نشرح لك صدرك . ووضعنا عنك وزرك) إلى آخر الآية ٨ . . . . . ٤٩٤

تفسـير سـورة (التـين) ٥٠١

قوله عزَّ وجلَّ : (والتـين والزيتون . وطـور سينـين . وهـذا البـلد الأمـين)
إلى آخر الآية ٨ . . . . ٥٠١

تفسـير سـورة (العلق) ٥٠٧

قوله عزَّ وجلَّ : (اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق)
إلى آخر الآية ١٩ . . . . ٥٠٨

تفسـير سـورة (القدر) ٥١٨

قوله عزَّ وجلَّ : (إنا أنزلناه في ليلة القدر) إلى آخر الآية ٥ . . . . ٥١٨

الآيــة	رقم الصفحة
تفسـير سـورة (البينة)	٥٢٦
قوله عزَّ وجلَّ : (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة) إلى آخر الآية ٥	٥٢٦
قوله عزَّ وجلَّ : (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية) إلى آخر الآية ٨	٥٣٠
تفسـير سـورة (الزلزلة)	٥٣٣
قوله عزَّ وجلَّ : (إذا زلزلت الأرض زلزالها . وأخرجت الأرض أثقالها) إلى آخر الآية ٨	٥٣٣
تفسـير سـورة (العاديات)	٥٤٣
قوله عزَّ وجلَّ : (والعاديات ضبحاً . فالموريات قدحاً) إلى آخر الآية ١١	٥٤٣
تفسـير سـورة (القارعة)	٥٥٢
قوله عزَّ وجلَّ : (القارعة . ما القارعة . وما أدراك ما القارعة) إلى آخر الآية ١١	٥٥٢
تفسـير سـورة (التكاثر)	٥٥٦
قوله عزَّ وجلَّ : (ألهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر) إلى آخر الآية ٨	٥٥٦
تفسـير سـورة (العصر)	٥٦٣
قوله عزَّ وجلَّ : (والعصر . إن الإنسان لفي خسر) إلى آخر الآية ٣	٥٦٣
تفسـير سـورة (الهمزة)	٥٦٦
قوله عزَّ وجلَّ : (ويلٌ لكل همزة لمزة . الذي جمع مالاً وعدده) إلى آخر الآية ٩	٥٦٦
تفسـير سـورة (الفيـل)	٥٧٠
قوله عزَّ وجلَّ : (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) إلى آخر الآية ٥	٥٧٠

الآيـــة	رقـم الصفحة

تفسـير سورة (قريش) ٥٧٤

قوله عزَّ وجلَّ : (لإيلاف قريش . إيلافهم رحلة الشتاء والصيف) إلى آخر الآية ٤ . . . ٥٧٤

تفسـير سورة (الماعون) ٥٧٨

قوله عزَّ وجلَّ : (أرءيت الذي يكذب بالدين . فذلك الذي يدع اليتيم) إلى آخر الآية ٧ . . . . ٥٧٨

تفسـير سـورة (الكوثر) ٥٨٢

قوله عزَّ وجلَّ : (إن أعطيناك الكوثر) إلى آخر الآية ٣ . . . . ٥٨٢

تفسير سـورة (الكافرون) ٥٨٧

قوله عزَّ وجلَّ : (قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون) إلى آخر الآية ٦ . . . . ٥٨٧

تفسـير سـورة (النصر) ٥٩٠

قوله عزَّ وجلَّ : (إذا جاء نصر الله والفتح) إلى آخر الآية ٣ . . . . ٥٩٠

تفسـير سـورة (المسـد) ٥٩٤

قوله عزَّ وجلَّ : (تبت يدا أبي لهبٍ وتب) إلى آخر الآية ٥ . . . . ٥٩٤

تفسـير سـورة (الإخلاص) ٦٠١

قوله عزَّ وجلَّ : (قل هو الله أحد . الله الصمد) إلى آخر الآية ٤ . . . . ٦٠١

تفسـير سـورة (الفلق) ٦٠٧

قوله عزَّ وجلَّ : (قل أعوذ برب الفلق . من شر ما خلق) إلى آخر الآية ٥ . . . . ٦٠٧

تفسـير سـورة (الناس) ٦١٣

قوله عزَّ وجلَّ : (قل أعوذ برب الناس . ملك الناس) إلى آخر الآية ٦ . . . . ٦١٣

تــم بحمــد اللّــه تعالى

الجزء الخامس عشر وبـه تـم تفسير ابن عطيه المسمى
« المحـرر الوجـيز في تفسير الكتاب العزيز »

صدر عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطـر

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية
١٠ لسنة ١٩٩٢م

طبع في المطبعة الأهلية
AL-AHLEIA P. PRESS Doha - Qatar